# الصراع اللغوي في الجزائر وتأثيراته السلبية في تكوين الهوية الجزائرية

**الدكتورة فتيحة شفيري**

**جامعة امحمد بوقرة، الجزائر**

**الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٥ نيسان ٢٠١٨م**

## الملخص

تسعى الدراسة لبيان صورة الصراع خلال فترة الاستدمار الفرنسي، من خلال الاستراتيجية الثقافية التي اتبعتها هذه القوة الاحتلالية، فهو بناء متواصل للمدارس الفرنسية وتكوين نخبة من الجزائريين مدافعين عن الثقافة الفرنسية والهوية الفرنسية والانسلاخ بسهولة من الهوية الجزائرية، كما وضحت الباحثة دور القوة الثقافية المضادة التي أسستها مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية وجهود جمعية العلماء المسلمين.

لا يمكن حل الصراع اللغوي في الجزائر دفعة واحدة أو بصفة عشوائية غير مخطط لها بإحكام، لذا اقترحت الباحثة جملة من الحلول ليخرج الجزائريون من دوامة هذا الصراع وتداعياته الخطيرة على الأجيال الصاعدة التي نأمل أن تحمل مشعل الحضارة والبناء لا معول التخلف والتهديم.

**مقدمة**

تُعد المحافظة على الهوية مكسباً حضارياً تسعى إليه الأمم الواعية، فتضييعها قصداً أو من غير قصد يعني الزوال الحتمي، وتعيش الدول المستضعفة في عصرنا هذا تهديداً صريحاً في هويتها، والسبب خضوعها المطلق لمركزية القوي الذي جعلها محصورة في دائرة التهميش والإقصاء، ما يعني أن مسألة القابلية للاستمار ما تزال قائمة، فالتقبل المطلق لثقافة الآخر المركزي تهديد صريح لهوية هذه الشعوب، إذ لم يعد لها الخيار في أن ترفض ما تستقبله من ثقافة المركز الذي سعى لأن يوسع مفاهيم عديدة في مقدمتها الإحساس بالدونية، ويشهد التاريخ أن الأمم الإنسانية سعت لحماية هويتها حماية مستميتة، مؤكدة من خلال ذلك رفضها الانصهار في ثقافة المحتل الغريبة عنها، والجزائر واحدة من هذه الأمم التي قاومت عبر تاريخها كل القوى التي سعت لفرض مركزيتها الثقافية، بدءاً من الاحتلال الروماني وصولاً للاحتلال الفرنسي.

سعت فرنسا في احتلالها للجزائر لأن يصبح هذا البلد جزءاً منها فهو مكسب اقتصادي جد مهم لا يمكن إلا استنزاف خيراته الباطنية، ومن أجل أن تعمّر في هذه الأرض إلى أجل غير مسمى راحت تؤسس استراتيجية ثقافية محكمة قوامها إدخال الشعب الجزائري في صراع لغوي مستمر، فهي نشرت اللغة الفرنسية وغرست أهميتها في وعي الجزائريين، ومن جهة أخرى أضعفت مكانة اللغة العربية الفصحى وهمشت دورها الحضاري الذي عرفته في فترات تاريخية سابقة، ومن جهة ثالثة فتحت المجال واسعاً أمام اكتساح غير مشروط للهجات العامية.

وقد سعت فرنسا ومع خروجها القهري من الجزائر لمواصلة استراتيجيتها الثقافية المسيطرة، لتدعم وبقوة ما أُطلق عليه بالتيار التغريبي الفرانكفوني الذي ركز منذ الاستقلال إلى يومنا هذا على محاربة اللغة العربية لإدراكه أن هذه اللغة تهدد وجوده واستمراريته، لكن وإن كان التيار العروبي متأرجحاً في تموقعه ضمن الفضاء اللغوي العام في الجزائر، إلا أنه يواصل الجهود في إخراج الشعب الجزائري من دوامة الصراع اللغوي من خلال تفعيل وجود اللغة العربية وغرس الوعي بأهميتها وقيمتها الحضارية مع الانفتاح بوعي على اللغات الأجنبية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية.

ويشتد الصراع اللغوي أكثر وتزداد حدته مع المطالبة بأحقية اللغة الأمازيغية في اعتبارها أساساً من أسس الهوية الجزائرية لينقسم المجتمع الجزائري إزاءها، فالبعض مؤيد لها ودافعهم إلى ذلك أنها لغة الأجداد وهي الجذور الأصلية للشعب الجزائري، والبعض الآخر رافض لتعلمها وحجته أنها لا تمثله ويكفيه ما يعانيه من اللاانتماء اللغوي ما بين العربية من جهة والفرنسية من جهة أخرى، وقد جعلنا هذا كله نطرح الإشكاليات التالية: **ما طبيعة الصراع اللغوي في الجزائر؟ وما دلالته؟ وما هي تبعاته؟**

سنركز في بحثنا **أولاً** على تبيين صورة هذا الصراع فترة الاستدمار الفرنسي، كاشفين من خلال ذلك الاستراتيجية الثقافية التي اتبعتها هذه القوة الاحتلالية، فهو بناء متواصل للمدارس الفرنسية وتكوين نخبة من الجزائريين مدافعين عن الثقافة الفرنسية والهوية الفرنسية والانسلاخ بسهولة من الهوية الجزائرية، كما سنبين دور القوة الثقافية المضادة التي أسستها مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية وجهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة العلاّمة عبدالحميد بن باديس، فالأمير في سياسته الثقافية أدرك خطورة استراتيجية

الاستدمار الفرنسي الثقافية، إذ لم تمنعه مقاومته العسكرية من إعادة إحياء فضاءات علمية تعليمية كالكتاتيب والزوايا، فعلى الرغم من بساطة هذه الفضاءات فنتائجها كانت مثمرة؛ أهمها التفاف الجزائريين مرة أخرى حول هويتهم وتحديداً حول لغتهم العربية التي سعى المستدمر الفرنسي للقضاء عليها وفي الوقت ذاته القضاء على الدين الإسلامي الذي يُشكل عصب حياة الشعب الجزائري.

سنبين وبشكل مكثف جداً صورة القوة الثقافية الثانية المضادة المتمثلة في جمعية العلماء المسلمين، التي سعت لحماية هوية الشعب الجزائري والقضاء على روح الفتنة التي أرادت فرنسا إثارتها من خلال استثمارها في مسألة اللغة الأمازيغية، فكان رد العلامة عبدالحميد بن باديس قوياً في هذا الصدد حين دافع عن تلاحم الشعب الجزائري بأمازيغه وعربه، فالقضية بالنسبة إليه هي حماية الدين الإسلامي وحماية لغته.

وننتقل بعدها للتركيز على مرحلة ما بعد استقلال الجزائر بدءاً من المرحلة البومدينية إلى مرحلة الثمانينيات وصولاً إلى الألفية الجديدة، راصدين من خلال ذلك كله صورة الصراع اللغوي القائمة في الجزائر والتي كانت فرنسا وما تزال المحرك الأساس لهذا الصراع، كما سعينا لإبراز جهود علماء الجزائر ومفكريها الداعين إلى إخراج الجزائر من دوامة هذا الصراع اللغوي من خلال الالتفاف حول أسس الهوية الجزائرية والذي اختصرته الكاتبة والوزيرة الجزائرية السابقة زهور ونيسي في قولها أن كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام.

لا يمكن حل الصراع اللغوي في الجزائر دفعة واحدة أو بصفة عشوائية غير مخطط لها بإحكام، لذا اقترحنا جملة من الحلول التي رأيناها مناسبة ليخرج

الجزائريون من دوامة هذا الصراع وتداعياته الخطيرة على الأجيال الصاعدة التي نأمل أن تحمل مشعل الحضارة والبناء لا معول التخلف والتهديم، وختمنا بحثنا بجملة من النتائج تلخص تداعيات الصراع اللغوي في الجزائر.

**١- الصراع اللغوي في الجزائر فترة الاستدمار الفرنسي:**

مثلت الجزائر للاستدمار الفرنسي بوابة اقتصادية جد مهمة لما تتوفر عليه هذه الأرض من خيرات باطنية متنوعة، وللاستفادة من هذه الخيرات سعت حكومة الاستدمار إلى اتباع سياسة محكمة لتكون أهم استراتيجيتها القضاء على هوية الشعب الجزائري وإبادة أسسها ومن ذلك اللغة العربية الفصحى.

أدركت فرنسا تعلق الشعب الجزائري بلغته العربية التي كانت لها حظوة ومكانة في عهود سابقة، فقد كان للفتح الإسلامي أعظم الأثر في نشر اللغة العربية ليلتفّ حولها عموم الشعب، «وانتشار الإسلام دعا السكان إلى الاستعراب وإلى تعلم القرآن، ولما كان عهد حسان بن النعمان الغسّاني والي أفريقية من قبل عبدالملك بن مروان أصبحت العربية لغة البلاد الرسمية، كما انتدب موسى بن نصير عدداً كبيراً من الفقهاء والقراء للغرض نفسه»[١]، وما خطبة طارق بن زياد إلا دليل على نجاح سلسلة الفتوحات الإسلامية للمغرب العربي، ومنها الجزائر، وتمكن أهلها من هذه اللغة والغوص في جماليتها.

لقد عرفت اللغة العربية في الجزائر بهذا حضوراً متواصلاً لتحتضنه فضاءات تعليمية متنوعة **<u>كالكتاتيب</u>** التي سعت لغرس التواصل مع هذه اللغة من خلال تحفيظ القرآن الكريم للأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين الخامسة والرابعة عشرة. «تعتبر الكتاتيب بمثابة مؤسسات التعليم الابتدائي في عصرنا

---

(١) حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي في المغرب، المكتبة البوليسية لبنان، دار الأصالة الجزائر، ط١، ١٩٨٢، ص٣٦.

هذا تستقبل أطفالاً من مختلف الأعمار؛ منهم من يتعلم لاكتساب القراءة والكتابة وحفظ القرآن»[١]، ووجود مثل هذا الفضاء التعليمي قبل دخول الاستدمار الفرنسي للجزائر دليل تاريخي صريح على أن الجزائريين كانوا ملتفين بقوة حول لغتهم العربية.

ولم تكن هذه الكتاتيب الفضاء التعليمي الوحيد الذي سعى إلى نشر اللغة العربية والمحافظة عليها بل كان هناك ما يُسمى **بالزوايا** التي تخرج فيها علماء وفقهاء تركوا بصمة في تاريخ الجزائر الثقافي. «يبقى الذكر الطيب للدور التربوي الذي قامت به هذه المؤسسات والمتمثل في تخريج عدد من الفقهاء والمتصوفة»[٢]، لقد قامت هذه الفضاءات التعليمية بدورها التربوي على أكمل وجه، والدليل انتشارها الكبير في أغلب مدن الجزائر.

- **أسبابه ودوافعه:**

قام الاستدمار الفرنسي بدراسة دقيقة للوضع الثقافي المتقدم الذي عرفته البلاد، فأدرك أن الشعب الجزائري يُعنى بلغته العربية عناية كبيرة جداً، والدليل -كما ذكرناه سابقاً- انتشار الكتاتيب والزوايا، فقرر وفق استراتيجية محكمة القضاء على هذه اللغة لتحقيق هدف أسمى هو تنصل الشعب الجزائري من هويته، ليؤسس في المقابل مركزيته اللغوية على نطاق واسع يشمل كل مدن الجزائر وقراها «عمد الاستعمار الفرنسي إلى جعل اللغة الفرنسية لغة رسمية بالقضاء على اللغة العربية تمهيداً لطمس الهوية الجزائرية بجعل الجزائريين فرنسيين فأقصى اللغة العربية وأثبتت لغة قهراً وعدواناً»[٣]، فالاستدمار الفرنسي

---

(١) صحبي حسان، العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠-١٩٦٢، منشورات أنوار المعرفة، ٢٠١٤، ص٢٢٣.

(٢) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢، ص٢٢٤.

(٣) نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في الجزائر، مجلة جامعة النجاح، مج٢٧، ٢٠١٣، ص٢١٥٨.

الفرنسي كان بالدرجة الأولى استعماراً ثقافياً «وبين الاستعمار الفرنسي مثلاً والاستعمار الإنكليزي، فالأول يعمل على هدم البنيات اللغوية والثقافية التي كانت قائمة من قبل ليُحل محله بنيات أخرى لا علاقة لها في الغالب بلغة البلد وثقافته»[1]، وقد أكد هذا من قبل الإمام محمد البشير الإبراهيمي أحد أعمدة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية وحارب الإيمان بالإلحاد والفضائل بحماية الرذائل، والتعلم بإفشاء الأمية والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير»[2]، وقد سعى الاستدمار الفرنسي لتحقيق ذلك منذ احتلاله الجزائر سنة ١٨٣٠ إلى مرحلة الاستقلال وصولاً إلى عصرنا هذا.

ولتحقيق هذا المشروع الثقافي راحت فرنسا تبني مدارسها لنشر لغتها وثقافتها بصورة إجبارية بين أوساط الشعب الجزائري، وقد خلق هذا صراعاً لغوياً بين العربية بمحاولة القضاء عليها والفرنسية بالسعي الحثيث والمتواصل لفرضها، فكانت النتيجة مثمرة للمستدمر الفرنسي؛ إنها تكوين ثلة من المثقفين الذين اكتسبوا اللغة الفرنسية اكتساباً وتضلعوا فيها أحسن من الفرنسيين أنفسهم، لكن بعضهم –رغم تضلعه في لغة الآخر الفرنسي– اعترف أنه يعيش صراعاً لغوياً، فهو ممزق بين حضارة لا تمت له بصلة حضارة غريبة عنه وحضارة يسعى الفرنسي للقضاء عليها تمثلها اللغة العربية أحسن تمثيل، ولنا في الشاعر والروائي مالك حداد خير دليل: «تقوم الفرنسية حاجزاً بيني وبين وطني بصورة

---

(١) أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص١٣٥.

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم نجله أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١، ١٩٩٧، ص٤٧.

أقوى وأشد من حاجز البحر المتوسط»[1]، ولم يرغب هذا المبدع البقاء طـــويلاً في حلقة الصراع اللغوي هذه ليُقرر وبعد استقلال الجزائر وضع قلمـــه تاركـــاً المجال كما قال للغة العربية لتستعيد مكانتها التي حاول المســـتدمر الفرنســـي طمسها قروناً.

وإن كان هدف بناء الاستدمار الفرنسي لمؤسساته التربوية هو تعليم اللغة الفرنسية للجزائريين وخلق صراع لغوي كما ذكرنا آنفاً، فله أيضاً هدف آخـــر وهو إقصاء مقصود للتاريخ الجزائري وتشويهه وبالتالي دفع الشعب للتنصـــل اختيارياً من هويته وروحه القومية. «كان طمس التاريخ ظاهرة ملازمة للفكـــر الاستعماري»[2]، كما حاول المستدمر الفرنسي في المقابل تمجيد دوره الاحتلالي لهذا البلد ولغيره من البلدان التي سيطر عليها عسكرياً وثقافياً من خلال غرس أفكار مغلوطة واعتبارها حقائق تاريخية مسلماً بها كـــأن يعـــدّ احتلالـــه لهـــذه الشعوب حلاً لإخراجها من التخلف الذي تعيشه، والاعترافُ بإيجابية الاحتلال لم يكن رهين الماضي فقط بل تواصل في عصرنا هذا: «سنت الجمعية الوطنيـــة الفرنسية قانون ٢٣ فبراير ٢٠٠٥ تمجد فيه الاستعمار، وتقرر بمقتضاه وجوب "اعتراف المقررات المدرسية أساساً بالدور الإيجابي للوجود الفرنسي فـــي مـــا وراء البحار لا سيما في أفريقيا الشمالية»[3]، ويظل هذا الاعتقاد لحد الآن محل

---

(١) حوار مع مالك حداد، أجراه أبو العيد دودو، مجلة البيان، الكويت، ع٣١٨، ينـــاير ١٩٩٧، ص٥٩.

(٢) إبراهيم سعدي، الثقافة والهوية والدولة، السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمســـتقبل، منشورات ضفاف لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٦، ص١٣٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٣٤، ١٤٤.

رفض أغلب فئات الشعب الجزائري، فالتاريخ عندها مقدس مهما كان التأثير الثقافي كبيراً.

وتتوسع دائرة الصراع اللغوي أكثر في هذه الفترة بهدم المستدمر للمؤسسات التربوية من كتاتيب وزوايا «آلت حالة التربية والتعليم في عهد الاستعمار الفرنسي إلى حالة مزرية نتيجة للسياسة المجحفة القاهرة المتسلطة على مؤسسات التعليم العربي في الجزائر، استهدفت بالأساس الإنسان الجزائري وثقافته الوطنية والقومية»[1]، وهدم المستدمر لهذه المؤسسات التعليمية التي سعت لإلغاء الأمية وسط أبناء الشعب الجزائري يعني أيضاً القضاء على العقل المفكر والموجه؛ وهم العلماء والفقهاء الذين بنوا شخصية الشعب الجزائري وروحه القومية. «إن أوّل ما عهد عليه الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو مطاردته للعلماء وتشريدهم ومحاصرة وغلق الكتاتيب والزوايا مع مصادرة أملاكها ومحاولة تحويلها لخدمة أغراضه الاستعمارية»[2]. وما من شك في أن تغييب دور العلماء والفقهاء ساعد الاستدمار الفرنسي على التواصل بشكل سريع مع الاستراتيجية الثقافية التي رسمها وخطط لها بإحكام كبير، إنه استنزاف العقول وخرابها، فقد عمّ الجهل وأسست الأمية تموقعها بصورة أكثر قوة، وهذا هو هدف المستدمر كما يشير إلى ذلك المفكر الجزائري مالك بن نبي؛ «فهو يريد تحطيم كل إرادة تدفع الإنسان المستعمَر إلى التقدم والحضارة»[3]، بل قام هذا المستدمر -كما أكدته الدراسات التاريخية لتلك الفترة- باعتبار هؤلاء العلماء عناصر خطرة تسعى لخلق الفوضى والاضطراب.

---

(١) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠- ١٩٦٢، ص٢٣٠.

(٢) المرجع نفسه، ١٨٣٠- ١٩٦٢، ص٢٣٠.

(٣) مالك بن نبي، في مهب المعركة، دار الفكر، سوريا، ط١١، ٢٠١٥، ص٤٥.

ولم يكتف الاستدمار الفرنسي بخلق اتهامات واهية لعلماء الجزائر، بل أصدر مرسوماً قضائياً يصنف تعليمهم للغة العربية من أبشع الجرائم، ليقوم بالقبض على من يدرسها منهم ويزجه في السجن «من سنة ١٩٣٣ اعتبرت اللغة العربية رسمياً لغة أجنبية في الجزائر، وأن المساجد محرّمة على العلماء الأحرار، ومن يومئذ أصبح تعليم اللغة العربية في عداد الجرائم يُحاكم عليها قانونياً ويقضي القاضي بتجريم مقترفيها»[١]، ولم تمنع مثل هذه الممارسات القمعية الثقافية من أن تُفعّل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وجودها من خلال حماية اللغة العربية من الاندثار وغرس الارتباط النفسي بها عند عموم الشعب الجزائري.

ونجاح المستدمر الفرنسي في استراتيجيته اللغوية إلى حد كبير، لم يمنع الشعب الجزائري حسب شهادة الإمام محمد البشير الإبراهيمي من أن يظل متيقظاً لتعلم لغته العربية والاستماتة في الدفاع عنها لتصبح بالنسبة إليه مطلباً لا غنى عنه مطلقاً متحدياً بذلك قوة المنع القوية التي مارسها هذا المستدمر تجاه لغته ودينه «ما نراه من حرص متأصل في هذه الأمة على تعلم العربية وما نشهده من مطالبة جماعية بحرية تعلمها، وما نشاهده من قلق واضطراب في أوساط الأمة لموقف الحكومة المخجل من اللغة العربية وما نراه من سخط عميق على القرارات والقوانين التي تعرقل تعليمها؛ وذلك كله لأنها مفتاح الدين أو جزء من الدين»[٢]، وهذا الالتفاف الشعبي كان مهماً جداً في تلك المرحلة الحساسة من تاريخ الجزائر، فإبادة الهوية يعني إبادة تاريخ ووجود.

---

(١) علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الزعيم عبدالحميد بن باديس، دار العزة والكرامة، لبنان، ط١، ٢٠١٦، ص٢٣٣.

(٢) آثار البشير الإبراهيمي، ص٤٩.

ولم تدخر القوة الاستعمارية جهداً في توسيع هوة الصراع اللغوي في الجزائر فقامت بتشجيع غير مشروط للهجات المحلية، إنها الرغبة في زعزعة صرح اللغة العربية لتصبح لغة ميتة من جهة، ومن جهة أخرى لتتمكن من التغلغل الكبير في المجتمع الجزائري من أجل إنجاح مشروعها الثقافي في هذا البلد. «وقد تمّ تشجيع اللهجات العامية لتصل السلطات الاستعمارية إلى أكبر عدد من الناس طالما أن ذلك يُحقق نتائج للسياسات العنصرية المعتمدة في مجال التربية والتعليم وإلغاء ثقافة الآخر وتاريخه وصورته الحضارية المرسومة في أذهان أبنائه»[1]، وظلت فرنسا طيلة احتلالها للجزائر تشجع العامية الجزائرية وتدعم انتشارها لتحقق من وراء ذلك مكاسب ثقافية كان لها وجود فعلي في أرض الواقع فترة الاحتلال وما بعد الاستقلال.

ولم تقف جهود القوة الاستعمارية الفرنسية عند تشجيع اللهجات العامية فقط، بل سعت لخلق صراع ثقافي بين اللغة العربية واللغة الأمازيغية، وهي بهذا لم تكن راغبة في طرف معين على حساب طرف آخر، بل غايتها توسيع مركزيتها الثقافية في هذا البلد وإبادة اللغة العربية على وجه الخصوص، بل يمكن تقديم قراءة ثانية لهذه الاستراتيجية الاستعمارية؛ وهي خلق فتنة داخل المجتمع الجزائري الواحد ومحاولة تفتيت وحدته القومية. «اتخذ الاستعمار لذلك أساليب شتى أبرزها محاولة التفرقة بين العرب والأمازيغ أولاً ومحاولة التشكيك في الماضي والطعن فيه»[2]، وظلت هذه الاستراتيجية اللغوية الفرنسية قائمة حتى بعد حصول الجزائر على سيادتها على الرغم من محاولة رؤسائها المتتالين إطفاء هذه الفتنة من خلال اعتبار اللغة الأمازيغية جزءاً لا يتجزأ من الهوية

(١) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية، ص١١٢.

(٢) محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار الكتاب العربي، الجزائر، ٢٠١١، ص٤٦.

الجزائرية، وهذا ما أكده الرئيس الراحل هواري بومدين حسب محيي الدين عميمور المستشار الإعلامي للرئيس الراحل: «تحدث الدكتور محيي الدين عميمور عن اهتمام الرئيس بالوحدة الوطنية واعتبارها قاسماً مشتركاً بين مختلف الأطياف في المجتمع، وأن الأمازيغية ينتمي إليها الجميع كجنس ولا يمكن التنصل منها، وأن من يريد صنع الفرق فإنه يقود إلى التشرذم وما لا تحمد عقباه»[1]، وهنا نتساءل: على الرغم من هذه الجهود الفعّالة في حماية الوحدة الوطنية وعدم السماح بخلق فتنة لغوية داخل المجتمع الجزائري، هل ستظل مثل هذه الجهود واهنة التفعيل في الواقع المعيش للجزائريين؟

- **دور جمعية العلماء في حل الصراع اللغوي -جهود العلامة ابن باديس أنموذجاً-**

لا يمكننا في معرض حديثنا عن جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في محاربة الصراع اللغوي في الجزائر أن نتجاوز دور مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية التي آزرت مقاومته العسكرية، فهذا الرجل الذي تربى في بيت علم لم يكن غريباً عنه أن يدافع عن هوية الشعب الجزائري وفي مقدمتها اللغة في ظل المركزية الثقافية الفرنسية، فاهتم بإعادة إحياء فضاءات علمية كانت مؤسسة كما ذكرنا سابقاً في عهد الفاتحين المسلمين للجزائر، إنها الكتاتيب والزوايا القرآنية «تكثف ظهورها خلال تلك الفترة كأحد الأساليب لمواجهة سياسات التنصير والتمسيح والفرنسة ولأجل حماية الشخصية العربية الإسلامية»[2]، وعلى الرغم من بساطة هذه الفضاءات إلا أنها سعت للقيام

---

(١) أم السعد مكي، الرئيس هواري بومدين ألقى ٤٠٠ خطاب لترسيخ الوحدة الوطنية، الطبعة التاسعة للملتقى الوطني حول الراحل هواري بومدين، قالمة، الجزائر، جريدة الخبر الجزائرية، ع٨٧٣٥، السبت ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

(٢) العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر١٨٣٠، ١٩٩٢، ص٣٣٣.

بدورها في تنوير عقل الشعب الجزائري والأخذ بيده لإخراجه من دوامة الأمية التي حاول المستدمر إقحامه فيها. إن مقاومة الأمير الثقافية هذه هي قوة ثقافية أولى ستعقبها قوى ثقافية أخرى مضادة وفي مقدمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة العلامة عبدالحميد بن باديس.

كان لزاماً أن تتأسس مقاومة ثقافية أخرى تواجه بالقوة ذاتها المسخ الثقافي الفرنسي والذي شكّل تهديداً صريحاً للشخصية الجزائرية ومقوماتها الحضارية، فجاءت جمعية العلماء المسلمين -حسب الإمام محمد البشير الإبراهيمي- لتحمي هذه المقومات وتصونها. «لبثت عوامل الاستعمار تهدم من هيكل الإسلام ولا تبني إلى أن تكونت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تكوناً طبيعياً كأنه نتيجة لتلك الحالة»[1]، فانسلاخ الشعب الجزائري من هويته ومن أساس مهم هو اللغة أمر رفضته بشكل قطعي جمعية العلماء المسلمين وعلماؤها وفي مقدمتهم العلاّمة عبدالحميد بن باديس «وكان عمل الرجل من أجل المحافظة على الشخصية القومية من أهداف حركته التربوية، ذلك لأنه لا يمكن للمجتمع أن يحافظ على بقائه الروحي إلا عن طريق المحافظة على مقوماته وتراثه الثقافي»[2]، إنه الوعي الكامل بقيمة الشخصية الجزائرية وتكاملها لتحقيق الريادة الحضارية المنشودة.

وسعت جمعية العلماء المسلمين لتأكيد مطالب الشعب الشرعية في أكثر من محاولة تحاور بينها وبين الحكومة الفرنسية التي ظلت دائماً رافضة هذه المطالب ضاربة بها عرض الحائط مؤكدة بذلك رغبتها في تطبيق الاستراتيجية

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص٤٧.

(٢) محمد عجوط، فلسفة ابن باديس التربوية بين الخصوصية الثقافية وعالمية القيم الإنسانية، مجلة الحكمة، ع١٩، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، ٢٠١٣، ص١٤.

التي سطرتها. «في شهر أغسطس من سنة ١٩٤٤ قدمت الجمعية مطالبها بصورة أوضح وأصرح من جميع ما تقدّمها في كراسة مفصلة تشتمل على مطالب الأمة في التعليم العربي وفي المساجد وأوقافها وفي القضاء الإسلامي وإصلاحه، وقد لقيت تلك المطالب ما لقيه قبلها من سكوت وإهمال»[١]، لقد أخذت الجمعية على عاتقها حماية ما يجب حمايته من أسس الهوية الجزائرية في حرب ثقافية مضادة تأكدت في وعي أعلامها الذين آمنوا بضرورة هذه الحرب والاستمرار فيها ما ظل الاستدمار الفرنسي فارضاً وجوده الثقافي في الجزائر.

لقد أيقن العلاّمة ابن باديس خطورة المشروع الثقافي الفرنسي الساعي لطمس الهوية الجزائرية «إننا نفرق جيداً بين الروح الإنسانية والروح الاستعمارية في كل أمة، فنحن بقدر ما نكره هذه ونقاومها نوالي تلك ونؤيدها، لأننا نتيقن أن كل بلاء العالم هو من هذه، فلتسقط الروح الاستعمارية ولتندحر ولترتفع الروح الإنسانية ولتنتشر»[٢]، ولحماية الأجيال من سرطان الاستدمار الفرنسي وسديمه راحت الجمعية تتواصل مع البلدان المجاورة كتونس ليلتحق بفضاءاتها التعليمية -وخصوصاً جامع الزيتونة- لفيف من الطلبة تشبعوا من هذا الفضاء التعليمي ديناً ولغة، هو التواصل الثقافي نفسه الذي تأسس مع دول المشرق وفي مقدمتها مصر. «نجحت الخطة الباديسية في إعداد الجيل الذي أحيا الوطن الجزائري في نفوس أبنائه ومهّد لجيل آت ليسترجع هذا الوطن بالثورة من قبضة الاستعمار، وبذلك أصبحت العربية والعروبة والقومية على يد الحركة الباديسية طوق نجاة الجزائر من المسخ الحضاري»[٣]، وكانت نتيجة هذا

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ص٤٧.

(٢) عبدالحميد بن باديس، جريدة الشهاب ٥ جانفي ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص٨٣.

(٣) كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ص٥٥٨، ٥٥٩.

الاحتكاك العلمي والمعرفي تأهب هؤلاء الطلبة للدفاع عن هوية بلدهم تأريخاً وإبداعاً، فكان منهم أحمد رضا حوحو وأبو القاسم سعد الله ومحمد العيد آل خليفة وحمود رمضان وأبو القاسم خمار وغيرهم.

وسعي العلامة ابن باديس لتأسيس المدارس العربية، لا يعني أنه دعا إلى ثقافة منغلقة على ذاتها، بل كان لرسالته التعليمية جانب آخر هو الانفتاح على ثقافة الآخر وهي الثقافة الفرنسية، فشجع طلاب العلم في هذه المدارس لاكتساب ناصية اللغة الفرنسية التي لها الحق في الوجود. «لو حرمنا من تعلم اللغة الفرنسية التي هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته كما حرمنا من حرية تعلم لغتنا لوقفنا إزاء ذلك الحرمان -لو كان- كوقوفنا إزاء هذا الحرمان»[1]، إنه الوعي إذن ببناء متكامل للشخصية الجزائرية؛ فهو **أولاً** المحافظة على هوية الشعب الجزائري ومحاربة المشروع اللغوي الاستدماري، **وثانياً** التواصل حضارياً مع ثقافة الآخر الفرنسي ومع ما يمثل هذه الثقافة من لغة وعلوم وفنون، لقد أظهر العلامة ابن باديس بسلوكه الثقافي المنفتح هذا أن الاستدمار الفرنسي استدمار هيمنة وإلغاء لمن يخالفه ثقافة وتفكيراً، وهذه هي طبيعة المحتل عامة «فالكولونيالية هي شكل خاص من أشكال الهيمنة»[2]، إنها الهيمنة التي اتخذت شكل الاحتقار لكل ما يمثل هوية الشعب المحتل الأعزل.

ولم تكن المدارس العربية وحدها من سعت للمحافظة على هوية الشعب الجزائري فترة الاستدمار الفرنسي، بل كان إلى جانبها الصحف المتعددة التي

---

(١) عبدالحميد بن باديس، جريدة البصائر، ع١٣٦، ٢١ أكتوبر ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص٨٢.

(٢) تييري هنتش، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، ترجمة مي عبدالكريم محمود، دار مدى للثقافة والنشر، سوريا، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٥٩.

أسستها جمعية العلماء المسلمين، وقد كان هذا الفضاء الإعلامي منبراً للدفاع عن اللغة العربية من جهة كما عكست من جهة أخرى قيمة ووعي القوة الثقافية المضادة التي مثلتها الجمعية رئيساً وأعضاء، فسيكون للكلمة المكتوبة حسب هؤلاء وقع كبير في نفوس الجزائريين. «إن الصحف الفرنسية تعد من العوامل التي فتحت أعين الجزائريين ونبهتهم إلى خطورة هذا السلاح، وأثارت في نفوسهم التساؤل عن الدور الفعال الذي يمكن أن تقوم به في مجال الإعلام والتوعية»[1]، وكما حاربت فرنسا المدارس العربية وسعت لغلقها، فقد حاربت أيضاً هذه الصحف العربية محاربة شديدة خوفاً منها في نهضة الشعب الجزائري وخروجه من سبات لغوي مخطط له بإحكام «ولكن هذه الصحافة واجهتها السلطة الاستعمارية بمعاملة قاسية وجابهتها بوسائل قمعية شديدة قلما رأينا لها مثيلاً غير الجزائر وهو ما طبع تاريخ هذه الصحافة بطابع الصراع والمقاومة والنضال»[2]، وتعددت صحف جمعية العلماء المسلمين ومن أهمها "البصائر" لتكون الغاية واحدة مناهضة المشروع اللغوي الاستدماري بالكلمة.

كما تفطن العلامة لاستراتيجية الاستدمار الفرنسي في السعي المتواصل لنشر مركزيته الثقافية من خلال نشره وبصورة تسلطية لغته الفرنسية للقضاء على اللغة العربية، فقد حدس الصورة الأخرى لهذه الاستراتيجية، إنها خلق صراع لغوي عربي أمازيغي، وتمثل العلّامة لهذه الصورة يعني إدراكه لخطورة الصراع اللغوي القائم وتأثيراته السلبية جداً في هوية الشعب الجزائري وروحه القومية الواحدة. «إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة

---

(١) محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية، من ١٨٤٧ إلى ١٩٥٤، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط٣، ٢٠٠٧، ص٢٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٠.

عشر قرناً ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في السراء والضراء، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعادة كلمة الله»[1]، ولا يعني تركيز جمعية العلماء المسلمين على اللغة العربية إهمالاً أو تجاوزاً للجذور الأمازيغية، وإنما هو وعي بأن المستهدف من استراتيجية المستدمر اللغوية هو زعزعة صرح الدين الإسلامي الثابتة جذوره بقوة في أرض الجزائر.

**٢- الصراع اللغوي في الجزائر فترة ما بعد الاستقلال إلى الألفية الجديدة:**

ترى الكتابات الثقافية أن الشعوب المغلوبة تبقى راضخة لمحتلها السابق، مثل هذا الطرح نجده عند المفكر الجزائري مالك بن نبي الذي قال: «إن الاستعمار لا يستطيع فعلاً أن يترك بلداً كان يستعمره ولا أن يغادره هكذا وبكل بساطة مخلياً وراءه المكان للاستقلال الجديد»[2]، والملاحظ أن المستدمر بعد انسحابه الاضطراري من تلك البلدان يظهر احتراماً حضارياً لها لكنه في الخفاء يعلن استمرار سيطرته عليها ثقافياً واقتصادياً، وهذا ما كان عليه الوضع في الجزائر غداة الاستقلال، فقد سعت حكومة الرئيس الراحل هواري بومدين لتحقيق الاستقلال الاقتصادي عن فرنسا مثل تأميم المحروقات على سبيل المثال إلا أن النخبة المثقفة المفرنسة كان لها التأثير الثقافي الكبير على الرغم من المحاولات الجادة للتيار العروبي بقيادة المفكر الجزائري مولود قاسم نايت بلقاسم «كانت للرجل قرارات جريئة وشجاعة، فأول قرار اتخذه نايت بلقاسم من خلال تعيينه وزيراً هو أن لا يوقع أية وثيقة ترد إليه بالفرنسية، والقرار الثاني

---

(١) عبدالحميد بن باديس، جريدة الشهاب، ٥ جانفي ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص٨٣.

(٢) مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر العربي، سوريا، ط٩، ٢٠١٥، ص٣٦.

أن لا يرد ولا يقرأ أي بريد يصل إليه مكتوباً باللغة الأجنبية مهما كان مصدر الرسالة، ولم يتزعزع أو يتنازل رغم تدخل الرئيس بومدين»[1]، وتظل جهود الرجل محمودة في محاولة التغلب على قوة التيار الفرانكفوني.

وإذا وجدت أجيال الاستقلال نفسها تتصارع بين لغتين: لغة معترف بها رسمياً وهي اللغة العربية ولغة فرضت نفسها فرضاً وهي اللغة الفرنسية، فهناك من تمكن وبجدارة من تحقيق توازن بين اللغتين بعد التمكن منهما تمكناً كبيراً، وهناك من مال لإحداهما فهمش الأخرى، ومثل هذه الصورة الأخيرة ولدت ما يسمى بالصراع الفرانكفوني العروبي في المنظومة التربوية الجزائرية، والدليل أن حكومة الثمانينيات سعت لتوسيع مساحة اللغة العربية بإنشاء ما أطلق عليه حينها **بالمدرسة الأساسية**، فكان نتاج هذه المدرسة جيلاً معرباً بامتياز.

واستمر قيام هذه المدرسة إلى غاية نهاية التسعينيات، ولا يعني هذا أن التيار الفرانكفوني ترك الساحة فارغة للتيار العروبي بل كان في صراع طويل معه، والنتيجة كانت تغيير تسمية المدرسة الأساسية **بالمدرسة الابتدائية** بل وفرنسة مواد تعليمية في مقدمتها الرياضيات التي أصبحت ومع بداية التسعينيات تكتب معادلاتها من اليسار إلى اليمين، إلى جانب استبدال الرموز الرياضية العربية برموز لاتينية، وجواب التيار الفرانكفوني أن التجديد أمر حتمي فرضته الثورة التكنلوجية التي تحتاج للغة الفرنسية أكثر منها للغة العربية التي لا يمكنها مجاراة هذه الثورة وسيرورتها.

ولا يمكننا بهذا تجاوز انعكاس هذا التيار في السلوك الثقافي الجزائري، ففئات من المجتمع ترى في الفرنسية لغة تقدم وحضارة لا يمكن للغة العربية

---

(١) الطيب بن إبراهيم، مولود قاسم عرّاب التعريب في الجزائر، جريدة أخبار اليوم الجزائرية، الثلاثاء ٢٩ أوت ٢٠١٧.

حسبهم أن تحقق ذلك لا على المدى القريب ولا المدى البعيد، وما دعم هذا السلوك هو استعمال الإدارات الكاسح للغة الفرنسية. «أما على مستوى المؤسسات الرسمية سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية فإننا نلاحظ أن اللغة السائدة هي الفرنسية فهي في نظرهم لغة الحداثة والتطور»[1]، هذا يعني أن المستدمر الفرنسي الذي سعى لتحقيق مركزية ثقافية فترة احتلاله للجزائر قد نجح في استراتيجيته تلك؛ والسبب أنه طور أكثر الشعور بالدونية للشعب الذي احتله لتكون النتيجة احتقار هذا الشعب لكل ما يمت لهويته بصلة ومنها اللغة العربية. «إن أزمتنا اللغوية الحالية لا تعود إلى اللغة العربية باعتبارها نظاماً من الإشارات بقدر ما تعود إلى إشكالية التعامل معها من قبل أبنائها الذين يحاولون إلقاء المسؤولية عليها وإعفاء أنفسهم من هذه الأزمة التي نحياها يومياً»[2]، وتجدر الإشارة أن وضعية اللغة العربية في الجزائر وحالة الصراع اللغوي القائم فيها ليست مرتبطة بهذا البلد فقط، بل هو قائم في كل البلدان العربية خاصة في عصرنا هذا، ليبقى الحل حسب المهتمين بالشأن اللغوي أن يدافع مستعملو اللغة العربية عنها. «تسترد اللغة العربية عزتها حين يؤمن العرب بهويتهم اللغوية والحضارية ويدافعون عنها ويعملون على ترسيخها، أي حين تعود العروبية إيديولوجية راسخة تعتنقها الأمة بصدق»[3]، فاللغة وعي بالانتماء.

---

(١) عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر، التاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، الجزائر، ع٥، جوان ٢٠٠٩، ص٢١.

(٢) اللغة العربية في الجزائر، التاريخ والهوية، ص٢٥.

(٣) مصطفى علي جوزو، لغتنا العربية بين الهوية القومية والتنكر لها، مجلة العربي، الكويت، ع٧٠٩، ديسمبر ٢٠١٧، ص١٠٧.

كما لا يمكن إنكار نجاح المشروع الثقافي الفرنسي الكبير أيضاً في الجامعات الجزائرية وخصوصاً في التخصصات العلمية كالطب والصيدلة، فالأساتذة الجزائريون منذ الاستقلال إلى عصر الألفية الجديدة ينتظمون في تقديم دروسهم للطلبة بهذه اللغة مما سهل من جهة أخرى توسيع رقعة الصراع اللغوي القائم بينها وبين اللغة العربية. «ويرجع تراجع اللغة العربية الفصحى رغم سياسة التعريب التي تتبناها الدولة الجزائرية منذ الاستقلال والتي تهدف إلى استعمال العربية وتعميمها في الميدان التعليمي إلى أن أغلب الفروع العلمية والتقنية في الجزائر تُدرس باللغة الفرنسية»[1]، وقد وجد الكثير من الطلبة وهم أجيال الثمانينيات والتسعينيات وصولاً لجيل الألفية الجديدة أنفسهم في اغتراب لغوي عند التحاقهم بمثل هذه التخصصات العلمية بسبب ضعف امتلاكهم للغة الفرنسية وميلهم إما للغة العربية أو للعامية، فلم يتمكنوا بذلك من تقديم تحصيل علمي جيد لتكون النتيجة تغيير البعض منهم للتخصص أو ترك الجامعة بصورة نهائية.

وإذا ركزنا على حالة أجيال الألفية الجديدة فهي تعيش أيضاً دوامة الصراع اللغوي، فالمتتبع لوضعية هذه الأجيال الثقافية يجدها غير متمكنة من اللغة العربية، والدليل النتائج الكارثية التي تتحصل عليها في الامتحانات التربوية الرسمية، وقد استغل التيار التغريبي هذا الوضع لتأكيد أن من وراء هذه النتائج محاولة تعميم اللغة العربية فـ«جاءت الدعوة إلى إبعادها عن تدريس المواد العلمية وترشيح اللغة الفرنسية لتحل محلها»[2]، ولكن القائمين على الشأن

---

(١) نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في الجزائر، ص٢١٦٣.

(٢) عبدالقادر فضيل، المدرسة في الجزائر، حقائق وإشكالات، دار جسور للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٣، ص٣٦٨.

التربوي في الجزائر والداعين إلى تفعيل إصلاح هذا القطاع الحساس، أشادوا أيضاً بالنتائج الكارثية المتحصل عليها في اللغة الفرنسية، وعلى الرغم من ذلك لم يحتج التيار التغريبي ولم ينبس ببنت شفة، «والغريب في الأمر أن الموقف من اللغة الفرنسية لم يبن على نتائج التحصيل في هذه اللغة على الرغم من أنها نتائج أضعف من نتائج اللغة العربية بكثير، فكأنها أمر مقبول، فكيف تدل علامة ٩ أو ١٠ في اللغة العربية على ضعف النتائج، وعلامة ٥ في الفرنسية لا تدل على ذلك! إنها مفارقة عجيبة»[١]، وهذا التمايز في التقييم ما زال قائماً لحد الساعة.

ونجد تبعات هذه النتائج كذلك في المستوى الجامعي المتدني هو الآخر، ولا يعني هذا أن هذه الأجيال في المقابل متمكنة من اللغة الأجنبية وفي مقدمتها اللغة الفرنسية على الرغم من وجود نسبة لا بأس بها قادرة على التواصل بهذه اللغة والإبداع فيها أيضاً، فعدم الميل لأي كفة لغوية جعل هذه الأجيال تجد حلاً سهلاً يعكس ثقافة التساهل التي تؤمن بها وهو التواصل بالعامية شفاهة في الأقسام التربوية والفضاءات الجامعية، ولا بد أن نقف عند مشروع سعت الحكومة إلى تطبيقه في المنظومة التربوية الجزائرية يتضمن تقديم الدروس بالعامية، وحجتها في ذلك الصعوبات التي يعرفها التلاميذ خاصة في المواد العلمية والتقنية، ولكن هذا المشروع عرف إجهاضاً في مهده؛ والسبب رفض أغلبية الشعب الجزائري تعميم العامية في هذه الفضاءات التربوية لوعيه بخطورة توسع الصراع اللغوي الذي تعيشه الأجيال الصاعدة.

---

(١) المدرسة في الجزائر، ص٣٦٨، ٣٨٧.

والمتتبع للشأن اللغوي في الجزائر يتساءل ما هو دور جمعية العلماء الجزائريين؟ ولم لا تقوم بدورها المنوط بها في حماية هوية الأجيال الصاعدة كما فعلت قبلاً في عهد الاستدمار الفرنسي؟! والإجابة عن هذه التساؤلات نرصدها من خلال الواقع الثقافي الذي عاشه الفرد الجزائري منذ الاستقلال إلى الألفية الجديدة، فهذا الواقع سعى لتجميد جهود الجمعية، والمتمثل خاصة في التيار الفرنكفوني التغريبي المسيطر على أجهزة الدولة وإداراتها، وقد وضّح ذلك الأستاذ عبدالرزاق قسوم الرئيس الحالي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين «غير أن حملة المشروع التغريبي بما لديهم من مكر ودهاء أدركوا خطورة شعبية الجمعية فعاملوها معاملة الأحزاب السياسية ومنعوها من النشاط الثقافي والديني، هذا الغياب الذي مكّن المشروع التغريبي العلماني من بسط نفوذه وهو ما نعاني تبعاته إلى اليوم على أكثر من صعيد في عملية التنمية المعرفية والإعلامية والاجتماعية»[1]، والدليل على تجميد دور الجمعية عدم إشراكها في بناء منظومة تربوية تحمي هوية الأجيال الصاعدة، فكثيرة تلك الأفكار بل والمعتقدات التغريبية التي تعج بها الكتب المدرسية الحالية، فعلى الجمعية إذن دق ناقوس الخطر لحماية ما يجب حمايته.

وتشكّل صورة الجمعية هذه لا يعني أن جهودها مغيّبة، بل إنها واصلت نضالها منذ استقلال الجزائر وما زالت كذلك إلى عصرنا هذا، والدليل أن الإمام البشير الإبراهيمي حذر من خطورة المساس بالهوية الجزائرية وتبعات ذلك على

---

(١) الشيخ عبدالرزاق قسوم، جمعية العلماء لا تتخندق في أي خندق إيديولوجي ضيق وهي تمد يدها إلى كل جزائري وطني مخلص، حوار أجراه كمال أبو سنة، مجلة التبيان، ع٤، ديسمبر ٢٠١٧، الجزائر، ص١٣.

الفرد والمجتمع. «واللافت للأنظار أن البيان الشجاع الذي أصدره الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عام ونبه فيه إلى أن البلاد تسير نحو مخاطر، وإن لم يتدارك أبناؤها لها يمكن أن تعود بالوبال على الأمة في جميع ميادين حياتها وهو ما كلف عالمنا الجليل وضعه رهن الإقامة الجبرية إلى أن التحق بالرفيق الأعلى»[1]، بل إن التيار العروبي الذي ترعاه الجمعية ما زال يرفع لواء التحدي عالياً على الرغم من كل العراقيل التي سعى ويسعى التيار الفرانكفوني لخلقها. «لا تزال الجمعية تقاوم وتقوم بدورها، وهي صامدة ولم تضمحل بل إنها تزداد رسوخاً وإثباتاً وإشعاعاً بالرغم من أننا نؤمن بأنها لم ترق إلى ما يؤمل لها»[2]، فالندوات التحسيسية التي تقوم بها الجمعية خير دليل على مواكبتها للتغيرات الثقافية التي تهدد هوية الشعب الجزائري لتهدف من خلالها إلى غرس اليقظة والحذر في عموم هذا الشعب خاصة في أجيال يعوّل عليها كثيراً.

كما أن انتشار المدارس القرآنية في مختلف ولايات الوطن صورة أخرى من صور تحدي الشعب الجزائري للثقافة التغريبية التي يؤسسها التيار الفرنكفوني، فأغلبية الأولياء اليوم في حالة حماس كبيرة لإلحاق أبنائهم بهذا الفضاء التعليمي ما قبل المدرسي الذي يسمح لهم بأن يرتبطوا بلغتهم العربية ودينهم الإسلامي، بل وتتسع وظيفة هذه المدارس لتهتم بتوسيع مدارك الطفل في علوم أخرى كالرياضيات مثلاً، والتفاف الشعب الجزائري حول هذه المدارس يعكس رغبته في حماية هويته والمحافظة عليها، إنه إذن استمرار لصورة هذا الشعب في علاقته بالمدارس العربية التي أسستها جمعية العلماء المسلمين فترة الاستدمار الفرنسي.

---

(١) جمعية العلماء لا تتخندق في أي خندق إيديولوجي، ص١٤.

(٢) السابق نفسه.

كما تسعى أسر جزائرية –وهذا ما لاحظناه– لتشجيع أبنائها في تعلم لغات أجنبية منها اللغة الفرنسية مع تحقيق توازن معرفي بين هذه اللغة واللغة العربية، هذا يعني تبني هذه الأسر لما آمن به العلامة ابن باديس من أن التمسك باللغة العربية وحمايتها لا يعني رفض لغات أخرى بل هو الانفتاح عليها، فهذه الحماية للغة العربية والانفتاح على غيرها تعني تأسيس تكامل للشخصية وتحقيقاً لتوازنها وهذا هو المطلوب وما يجب أن يكون قائماً في المجتمع كله وليس مقتصراً على أسر دون غيرها.

وتظل مسألة الهوية مسألة شائكة في الجزائر، فإذا حصرنا من قبل وجود صراع لغوي بين حضور اللغة العربية واللغة الفرنسية، فهناك حضور آخر يُطرح في ساحة هذا الصراع وهو اللغة الأمازيغية، فالعلامة عبدالحميد بن باديس –وكما ذكرنا سابقاً– سعى لحماية هذه اللغة من خلال الاعتراف بوجودها باعتبارها جذور الشعب الجزائري، وفعله هذا ساعد على إطفاء نار الفتنة التي رغب المستدمر الفرنسي في إشعالها من أجل تحقيق استراتيجيته اللغوية والاقتصادية في الوقت ذاته.

وتعود هذه اللغة لتبحث عن مكاسبها الثقافية منذ الاستقلال إلى يومنا هذا، لتعرف مواقف متباينة لها في الحكومة الجزائرية، فمن رجالاتها من أراد تجاوز حضور هذه اللغة وهناك من اعتبرها مكسباً حضارياً لا بد من استغلاله لصالح الهوية الجزائرية وحمايتها، ومن هؤلاء الوزيرة السابقة زهور ونيسي «وتكررت مواقفي الصريحة التي عبرت من خلالها عن وجهة نظري دون خوف مثل حادثة وقعت سنة ١٩٨٦ عندما تكلمت عن قضية الأمازيغية وضرورة حماية الأمازيغية وجعلها ثابتاً من ثوابت الوطنية»[1]، وقد عبرت

(١) زهور ونيسي، أنا أول من قال: "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام"، حوار أجرته آسيا شلابي، جريدة الشروق الجزائرية، ٧ فيفري ٢٠١٤.

زهور ونيسي عن إيمانها بهوية الشعب الجزائري عندما قالت عبارتها الشهيرة: «كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام، وهذه الكلمة أنا أول من قالها وهذا شرف لي، ثم قالها الكثير من بعدي وهذه هي الحقيقة»[1]، ولم تكن الوزيرة سابقاً والأديبة المعروفة الوحيدة التي دافعت عن هوية الشعب الجزائري الأمازيغية، فقد كان إلى جانبها العديد من المفكرين الجزائريين ومنهم المؤرخ أبو القاسم سعد الله «انظري إلى الطرح الأخير للدكتور أبو قاسم سعد الله رحمه الله في قضية الأمازيغية في الجزائر، هو لا يطرح الموضوع فقط، بل يُطالب بأن يكون إحياء الأمازيغي بالحرف العربي كما كان يفعل أجدادنا سابقاً»[2]، وكتابة اللغة الأمازيغية بالحرف العربي مطلب ما زال يُطرح لحد الآن.

وتسعى الحكومة الجزائرية منذ انتشار ما أطلق عليه **الربيع العربي** في الكثير من البلدان العربية لشراء ما يُسمى بـ"**السلم الاجتماعي**"، ومن إنجازاتها في هذا المجال اعترافها باللغة الأمازيغية لغة وطنية، والمتتبع لنتائج هذا الاعتراف يقف عند تدريس هذه اللغة في المناطق التي تتكلم بها فقط، وتقوم -ومع نهاية ٢٠١٧- احتجاجات عارمة وانتفاضة شعبية لتعميم اللغة الأمازيغية في كل أرجاء الوطن، لتسفر عن اعتراف آخر هو ترسيم السنة الأمازيغية ويومها الوطني في كل ١٢ جانفي من كل عام. «قرر مجلس الوزراء في اجتماعه الأخير ترسيم تاريخ ١٢ جانفي عطلة وطنية مدفوعة الأجر، وبعث مشروع إنشاء أكاديمية تعليم الأمازيغية في محاولة تهدئة المطالب المتعلقة بالهوية وفي الخلفية حسابات سياسية ترتبط بتهدئة الأوضاع أساساً في منطقة القبائل»[3]،

---

(١) زهور ونيسي، أنا أول من قال: "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام"، حوار أجرته آسيا شلابي، جريدة الشروق الجزائرية، ٧ فيفري ٢٠١٤.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ج. فنينش، السلطة تتبنى استراتيجية "استرجاع" المطلب الأمازيغي، جريدة الخبر الجزائرية، ع ٨٧٣٥، السبت ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

وعلى أساس هذا تعرف الساحة الثقافية اليوم حراكاً شعبياً وأكاديمياً لم تعهده اللغة الأمازيغية من قبل.

ولاحظنا أن دائرة الصراع اللغوي المرتبط بهذه اللغة –ومع الاحتفال بتحقيق مثل هذا المكسب– قد توسعت أكثر لترتبط بتساؤلات عديدة منها: ما هي الأمازيغية التي سوف تدرس للأجيال الصاعدة؟ هل هي أمازيغية منطقة القبائل أم أمازيغية منطقة الشاوية أم أمازيغية بني مزاب أم منطقة الطوارق بالصحراء الكبرى؟ وكيف ستكتب هذه اللغة؟ هل بحروف عربية وهو ما ينادي به علماء ومفكرو الجزائر مثل سعد الله وزهور ونيسي ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حالياً عبدالرزاق قسوم، أم تكتب بحروف التيفناغ وهو ما يراه بعض المنشغلين بالمسألة الأمازيغية؟ أم بحروف فرنسية مثلما يسعى إلى ذلك التيار التغريبي الموالي لفرنسا؟

ولّدت هذه التساؤلات التي طرحناها حالياً تصدعاً وسط الشعب الجزائري؛ منهم من أيد موقف تدريسها ومنهم من رفض ذلك رفضاً قاطعاً معتبراً الأمازيغية لغة مناطق معينة هو لا يمت لها بصلة عاكساً بذلك كرهه الشديد لها، هو الكره الذي غرسه المستدمر الفرنسي سابقاً بين الناطق بالأمازيغية وبين غير الناطق بها، لتظهر للسطح مرة أخرى جدلية أصول جذور الشعب الجزائري التي طرحت وما زالت تطرح، وباعتبار المستدمر –كما أشار إلى ذلك مالك بن نبي– العين الساهرة على الشعوب التي احتلها، فكذلك هي فرنسا التي ظلت منذ الاستقلال إلى يومنا هذا تثير مسألة اللغة الأمازيغية وأصول الشعب الجزائري، وما تأسيس الأكاديمية الأمازيغية بباريس إلا صورة من صور دعم الانقسام والتصدع وسط الشعب الجزائري في قضية الهوية.

**٣– الحلول المقترحة لحل الصراع اللغوي في الجزائر:**

وجب علينا –وعلى ضوء ما سبق تقديمه عن طبيعة الصراع اللغوي في الجزائر وتبعاته الثقافية والاجتماعية– أن نجد حلولاً واقعية بعيدة عن التنظير

الذي امتد لسنوات دون أن يكون له صدًى في الواقع المعيش الذي يحياه الفرد الجزائري، ومن هذه الحلول التي نراها ناجعة لمثل هذا الوضع اللغوي:

١- أن يعتقد الفرد الجزائري اعتقاداً راسخاً بضرورة مسؤوليته الفردية في حماية هويته ومقاومة ثقافة المركز مهما كانت الدول التي تمثل هذه الثقافة، وإذا تحقق ذلك يعني في المقابل دحض نظرية الغالب والمغلوب التي بيّن العلّامة عبدالرحمن بن خلدون تداعياتها الخطيرة «ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه بل وفي سائر أحواله»[١]، فالسعي للابتعاد عن تأثير الآخر في مسألة الهوية أمر لا بد من الإيمان به أولاً والوعي بتداعياته ثانياً.

٢- لا يعني الابتعاد عن تأثير الآخر الغربي أن تنعزل الأنا عنه وتنكفئ على نفسها، فحضارة شعب ما ستستمر عندما تُحقق الانفتاح على هذا الآخر، وهذا ما يجب أن تتعلمه الأجيال الصاعدة فتعلم اللغة الأجنبية – إن كانت الفرنسية أو الإنجليزية– تأكيد منها على الرغبة في التطور والتقدم للأمام، وهذا يعني من جهة أخرى تبني السلوك الثقافي الحضاري الذي انتهجته جمعية العلماء المسلمين بقيادة العلامة ابن باديس.

٣- القضاء على ثقافة الفتنة اللغوية التي سعت وتسعى فرنسا لغرسها بالقوة بين أبناء الشعب الجزائري، لتتأكد في المقابل مقولة "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام"، فالالتحام حول الجذور الأمازيغية والروح العربية مسألة يجب أن تبقى قائمة يعيها الكبير والصغير في المجتمع الجزائري المعاصر.

---

(١) عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي، ط٢، لبنان، ١٩٩٨، ص١٤٦.

٤- تفعيل جمعية العلماء المسلمين لـدورها فـي حمايـة هويـة الشـعب الجزائري، فلا يجب عليها أن تستسلم لحمـلات التيـار الفرنكفـوني التغريبي الذي يسعى للتواصل الدائم مع التبعية لفرنسا، ومن ذلك سعيها لأن تكون طرفاً مهماً في تأسيس معارف الكتاب المدرسي خاصة كتاب اللغة العربية والتربية الإسلامية.

٥- أن يحدث تفاهم ونقاش عميق بين التيار العروبي والفرانكفوني لتأسيس انفتاح لغوي يهدف إلى حلحلة نهائية للصراع اللغوي في الجزائر وإنقاذ هوية الأجيال الصاعدة من دوامة الضياع التي تعيشها والتي عاشـتها الأجيال التي سبقتها.

٦- تثقيف الأجيال الصاعدة على تقدير علمائها ومفكريها وكل من يسـعى للمحافظة على هويتها من خطر العولمة ومركزية القـوي حضـارياً، فعندما تتحقق هذه الغاية ستُمكن هذه الأجيال الجزائر من استعادة مكانتها القوية التي كانتها ذات وقت «واعلم أن من خلال الكمال التي يتنـافس فيها القبائل أولو العصبية وتكون شاهدة لهم بالملـك إكـرام العلمـاء والصالحين والأشراف وأهل الأحساب وإنزال الناس منازلهم»[1]، ولا يمكننا إنكار والجزائر تعيش استمرارية الصراع اللغـوي أن الأجيـال الصاعدة فيها من يحترم كل من يسعى لحماية الهوية الوطنية وإبعادها من مخاطر استراتيجية مسطرة بإحكام.

---

(١) المقدمة، ص١٤٣.

**خاتمة:**

لا يمكننا اليوم تجاوز مسألة الهوية لأنها مشروع حضاري مهم وخطير في الوقت نفسه، فثبات هذا المشروع يعني ثبات الأمة واستمرارها، وتعرضه لأي تهديد يعني سعي الأمة لهلاكها، وإدراك الاستدمار الفرنسي لمفهوم الهوية وقيمتها ساعده على تطبيق استراتيجية محكمة جداً في الجزائر، ويمكن الحكم عليها أنها تأرجحت بين النجاح والفشل، فما انتشار الأمية بين أوساط الشعب الجزائري والتفاف مثقفيه حول ثقافة هذا المستدمر ثقافة ولغة بل وتدين البعض بالدين المسيحي إلا مؤشرات حققت جانباً من نجاح استراتيجية فرنسا الثقافية في الجزائر، لكن مؤشرات فشل هذه الاستراتيجية أيضاً قائمة؛ وهي متمثلة في ظهور القوة الثقافية المضادة كما سميناها وهي مقاومة الأمير عبدالقادر التربوية أولاً، وثانياً جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي سعت بأعلامها وطلابها وبعثاتها للبلدان المجاورة والبلدان المشرقية إلى حماية مقومات الشعب الجزائري للتشبع من الدين واللغة تشبعاً كبيراً، بل وكان للمدارس العربية التي أنشأتها الجمعية دورها الريادي في تأسيس شخصية طلابها الذين ناضلوا من أجل المحافظة على هوية هذا الشعب، ولنا في الوزيرة المثقفة زهور ونيسي خير مثال.

وإيمان المستدمر بمركزيته المطلقة جعلته يتواصل معها ويؤكدها حتى بعد استقلال الشعوب التي احتلها، وهكذا كانت فرنسا بعد خروجها الإجباري من الجزائر؛ فقد ظلت حريصة على إبقاء الصراع اللغوي في هذا البلد ساعية لتهميش مجهودات الحكومات المتواصلة في إخراج الجزائر من دائرة الصراع هذه، فهي تشجع على الدوام التيار الفرانكفوني الذي نجح في إبعاد التيار العروبي وتهميش دوره إلى حد بعيد. وانجذاب الأجيال الصاعدة للغة الآخر

الفرنسي وثقافته دليل آخر يصفع وبقوة أي مجهود لإنقاذ هذه الأجيال من دوامة الصراع اللغوي، فالتماهي مع هذا الآخر -كما هو ملاحظ- تزداد وتيرته وتتسارع؛ ما يعرض هذه الأجيال لحالة من ضياع هوياتي متصاعد.

ويمكن الجزم بأن التيار التغريبي مؤثر بشكل قوي في الحياة الثقافية والسياسية للشعب الجزائري للمساندة القوية التي يتلقاها هذا التيار على الدوام من قبل فرنسا، مقابل هشاشة التيار العروبي الذي لا يجد مؤيداً له سوى جهود أبنائه وهو سند داخلي ضئيل مقابل السند الذي يتوكل عليه التيار التغريبي، ومهما كان فلا بد من أن يُفعّل التيار العروبي وجوده قبل أن تنفلت الأمور أكثر وتضيع الهوية التي سعى علماؤنا ومفكرونا للمحافظة عليها.

## قائمة المصادر والمراجع:

### الكتب:


١- أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضـــاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧.

٢- تيري هنتش، الشرق الخيالي ورؤية الآخر، ترجمة مي عبدالكريم محمود، دار مدى للثقافة والنشر، لبنان، ط١، ٢٠٠٦.

٣- حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي في المغرب، المكتبة البوليسية، لبنان، دار الأصالة، الجزائر، ط١، ١٩٨٢.

٤- صحبي حسان، العقيدة التربوية الاستعمارية الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠، ١٩٦٢، منشورات أنوار المعرفة، الجزائر، ٢٠١٤.

٥- عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب العربي، لبنان، ط٢، ١٩٩٨.

٦- عبدالقادر فضيل، المدرسة في الجزائر، حقائق وإشـــكالات، دار جســـور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط٢، ٢٠١٣.

٧- علي محمد محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، دار العزة والكرامة للكتاب، لبنان، ط١، ٢٠١٦.

٨- مالك بن نبي، في مهب الريح، دار الفكر، سوريا، ط١١، ٢٠١٥.

٩- مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر، سوربا، ط٩، ٢٠١٥.

١٠- محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، دار الكتاب العربي، الجزائر، ٢٠١١.

١١- محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ إلـــى ١٩٥٤، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط٣، ٢٠٠٧.

١٢- آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٧، لبنان.

**المجلات والجرائد:**


١- إبراهيم سعدي، الثقافة والهوية والدولة، من الكتاب الجماعي "السؤال عن الهوية في التأسيس والنقد والمستقبل"، منشورات ضفاف، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ٢٠١٦.

٢- الطيب بن إبراهيم، مولود قاسم عرّاب التعريب في الجزائر، جريدة أخبار اليوم الجزائرية، الثلاثاء ٢٩ أوت ٢٠١٧.

٣- أم السعد مكي، الرئيس هواري بومدين ألقى ٤٠٠ خطاب لترسيخ الوحدة الوطنية، الطبعة التاسعة للملتقى الوطني حول الراحل هواري بومدين، قالمة، الجزائر، جريدة الخبر الجزائرية، ع٨٧٣٥ السبت ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

٤- ج. فنينش، السلطة تتبنى استرجاع المطلب الأمازيغي، جريدة الخبر الجزائرية، ع٨٧٣٥، ٣٠ ديسمبر ٢٠١٧.

٥- حوار مع مالك حداد أجراه أبو العيد دودو، مجلة البيان، الكويت، ع٣١٨، يناير ١٩٩٧.

٦- زهور ونيسي، أنا أول من قال "كل الجزائريين أمازيغ عربهم الإسلام" حوار أجرته آسيا شلابي، جريدة الشروق الجزائرية، ٧ فيفري ٢٠١٤.

٧- عبدالحميد بن باديس، جريدة البصائر، ع١٣٦، ٢١ أكتوبر١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر.

٨- عبدالحميد بن باديس، جريدة الشهاب، ٥ جانفي ١٩٣٨، نقلاً عن كتاب محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر.

٩- عز الدين صحراوي، اللغة العربية في الجزائر التاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، ع٥، جوان ٢٠٠٩.
١٠- مصطفى علي جوزو، لغتنا العربية بين الهوية القومية والتنكر لها، مجلة العربي، الكويت، ع٧٠٩، ديسمبر ٢٠١٧.
١١- محمد مجوط، فلسفة ابن باديس التربوية بين الخصوصية الثقافية وعالمية القيم الإنسانية، مجلة الحكمة، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ع١٧، ٢٠١٣.
١٢- نصيرة زيتوني، واقع اللغة العربية في زائر، مجلة جامعة النجاح، مج٢٧، ٢٠١٣.

# أثر الفكر الأصولي والمنطق اليوناني في أصول التفكير النحوي وأدلته الكلية «الرأي والرأي الآخر»

**الدكتور أحمد عبدالباسط**

**معهد المخطوطات العربية - الألكسو**

**الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٥ نيسان ٢٠١٨م**

## المُلخَّص

يعرضُ هذا البحث –كما يتراءى مِن عنوانه– قضيةَ تأثيرِ علمِ أصول الفقه والمنطق اليوناني في أصول التفكير النحويّ، بحكم أسبقية التأليف فيهما على التأليف في أصول التفكير النحوي مِن ناحيةٍ، وبحكم مَا كانَ لدى مؤسّسي هذا العلمِ (أصولِ التفكير النحوي) مِن نيَّةٍ صادقةٍ وقصدٍ صريحٍ في الإفادة ممَّا وردَ في هذين الفِكْرين مِن أفكار صالحة للتطبيق على (أصول النحوِ) مِن ناحية أخرى.

وهذا التأثيرُ وإنْ ذهبَ إلى الاعترافِ به جماعةٌ مِن المتقدمين، وجمهرةٌ مِن المتأخرين، فإنَّ رأيًا آخرَ انتهضَ إلى نفي ذلك تمامًا، وقال بعدم وجود تلك الصلة الوشيجة، وذلك التأثير الظاهر، ومن هذا الرأي –أيضًا– وجدنَا مَن تزعَّمَ القول بأوليَّةِ تأثير الدرس النحويّ على غيرِه مِن التيارات الفكرية والعلوم الدينية.

## مقدّمةٌ

لعلَّ مِن البدهيّ القولَ إنَّ معارفَ القدماءِ لم تكن منفصلةً بعضها عن بعض، كما لم تكن ثمةَ حدودٌ فاصلةٌ بين العلومِ بعضها عن بعض كما هو موجودٌ اليومَ؛ فلم يكن اللغويُّ بعيدًا عن علومِ الحديثِ والفقه، ولم يكن المُحدّثُ بمنأى عن أصول الفقه والقراءاتِ، ولم يكن المُفسّر بمعزلٍ عن علوم البلاغةِ والبيان.

وإذا كانَ مِن المعلومِ أنَّ علومَ اللغةِ إنما وُجدت بادئَ الأمرِ لخدمةِ مصدري التشريع: الكتابِ والسُّنَّة، فإنَّه مِن الطبيعيِّ -أيضًا- أنْ يتأثَّرَ علماءُ العربيَّةِ بطرائقِ علماءِ الشريعةِ؛ فنراهم يُفكّرونَ في وضع أصولٍ للتفكير النحويّ على غرارِ أصول الفقهِ، ويركنون إلى أدلَّةٍ كليَّةٍ للنحوِ تُستنبط من خلالها الأحكام الفرعية، كما هو الحال في علم (أصول الفقه)، ويتحدَّثون عن أحوالِ مُستنبِطِ هذا العلمِ كما تحدَّثَ أصحابُ مُصطلح الحديث، ويتكلَّمون في (الاجتهاد) فيه كما تكلَّمَ الفقهاءُ، بل ويؤلفون في رجاله وروايتِه طبقاتٍ تُشبه تراجمَ المُحدّثين[1].

وإذا كانت أُصولُ التفكيرِ النحويّ[2] قد بدأت بدايةً عربيَّةً خالصةً منذ أن «بعجَ» عبدالله بن أبي إسحاق الحضرميُّ (ت١١٧هـ)، «النحوَ، ومدَّ القياسَ، وشَرَحَ العلل»[3]، ثم تلته جهودُ بلديّيه مِن نحاة البصرة، ومِن بعدهم نحاة الكوفة؛ فإنَّ ثمةَ معارفَ جديدةً انفتحت أمامَ العقليَّة العربية عن طريقِ حركة الترجمةِ القوية التي ازدهرت في عهد الخليفةِ العباسيّ المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ)، ومِن ثمَّ ظهر ما يُسمَّى بـ(المنطق الصُّوري)، في مقابل (المنطق الطبيعيّ) الذي مارسَه النُّحاةُ

---

(١) انظر: المصطلح النحوي، لعوض القوزي، ص١٧ وما بعدها.

(٢) أعني بها تلك الخطوط الرئيسة التي سار عليها البحث النحويُّ في مراحل النشأة، وما قامَ به النُّحاةُ بعد ذلك مِن محاولاتٍ لدراسة تلك الخطوط الرئيسة وتقعيدها في هيئة أدلةٍ كليَّة ينبني عليها النحو العربيُّ.

(٣) طبقات فحول الشعراء، ١٤/١.

قرابةَ قرنٍ ونصفٍ مِن الزمان، معتمدين فيه على مَا لديهم مِن نصوصٍ عربيَّةٍ أصيلةٍ، وما مَنَحَه الله للإنسان مِن تفكيرٍ منطقيّ يعتمدُ على قوانين العقل البشريّ الطبيعية، التي لا تحتاجُ إلى برهانٍ أو دليلٍ لإثباتِ صدقِها(١).

وعلى الرغم مِن أنَّ أحدًا مِن القدماء لم ينكر تأثُّرَ أصول التفكير النحويّ بهذا **الرافد الأوَّل** –أعني أصول الفقه– ووافقَهم في ذلك جمهرةُ المحدثين، فإنَّ ثلةً مِن المُعاصرين رفضت أنْ يكونَ لأصول الفقه تأثيرٌ في الأصول النحويَّةِ، وذهبوا في ذلك إلى مذهبَيْن: الأوَّل يعترف بأسبقية التأليف في أصول الفقه، غير أن هذا لا يعني بالضرورة –من وجهة نظره– تأثيرَ المتقدّم في المتأخّر، والآخر يرى أنَّ التأليف في أصول النحو سابقٌ على التأليف في أصول الفقه، فلو كان ثمة تأثير لتأثَّر أصولُ الفقه بأصول النحو.

أمَّا **الرافدُ الثاني** –أعني المنطق الصوري اليوناني– فلم تجتمع فيه آراءُ القدماء ولا المحدثين؛ إذ انتهضَ له عددٌ غيرُ قليلٍ مِن القدماءِ، يقولون بأصالةِ التفكير النحويّ ويرفضون هيمنة المنطق الأرسطيّ، بينما نجد فريقًا آخر منهم قد وَلِعَ به، فتأثَّرَ بالمناطقةِ وخضعَ لسيطرتِهم وسلكَ مسلكَهم، لا سيما في باب الحدود، الذي يُعَدُّ مِن الأُسس الأولى التي يقومُ عليها المنطقُ. أمَّا المحدثون فقد نادى بعضُهم بهذا التأثير الأرسطي في النحو العربي منذ نشأتِه الأولى ومراحل تدوينه، وانتهاء بالتفكيرِ في وضع أصوله الكلية. بينما ذهب البعضُ الآخر إلى الاعتراف بهذا التأثُّر في مرحلة ما بعد التدوين، وذلك بدايةً مِن الربع الأخير مِن القرن الثالث وبداية الرابع الهجريين.

مِن هنا يأتي هذا البحث للوقوف على أثر هذين الرافدين في أصول التفكير النحويّ، والتعرُّف على آراء القدماء والمحدثين فيهما، ثم الخلوص إلى مجموعةٍ مِن النتائج نختم بها البحث.

---

(١) انظر: الأصول: دراسة إبستيمولوجية، ص٤٦ وما بعدها.

## أولاً: أثرُ أصول الفقه في أصولِ التفكير النحوي

### ١/١ أسبقية التأليف

لعلَّ مِن الحقائقِ الأساسيَّة التي يتفقُ عليها جلُّ المؤرّخين للعلمَيْنِ القــولَ بأسبقية التأليف في أصول الفقه؛ فإنَّه إذا كانت البداية الحقيقيَّةُ للتأليف في أصول النحو العربي عند ابن جنّي (ت٣٩٢هـــ) وكتابه (الخصائص)، وإن لم يستقلّ مؤلَّفُه هذا بمباحثِ العلمِ؛ فإنَّ البدايةَ الحقيقية للتأليف في علم أصول الفقه كانت على يدِ الإمام المُطَّلبيّ محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـــ)، وذلك في رسالتِه التي كتبها استجابةً لطلبِ المحدّث المشهور عبدالرحمن بن مهديّ اللؤلؤي (ت١٩٨هـــ)، وأرسلها إليه فسُمّيت (الرسالة)[١].

كما أنَّ تطبيقَ الفقهاءِ لأصولِهم الفقهيَّةِ على المستوى العمليّ أقدمُ مِن تطبيقِ النُّحَاةِ لها؛ فإنَّ أقدمَ مَنْ يمكنُ أنْ تُنْسَبَ إليه آراءٌ في الأصولِ مِن النُّحاةِ هو عبدالله ابن أبي إسحق الحضرميُّ، المتوفَّى سنة ١١٧هـــ، أي في أوائل القرنِ الثــاني الهجريّ، بينما مارسَ الصحابةُ أنفسُهم تلكَ الأصولَ الفقهيَّة، وطبَّقوها في مسائلهم وقضاياهم التي تَعْرِضُ لهم، فها هو رسول الله ﷺ لما أراد أنْ يبعثَ معاذ بــن جبل ﷺ إلى اليمن قال له: «كيف تصنعُ إنْ عرضَ لكَ قضاءٌ؟» قال: أقضي بما في كتابِ الله. قال: «فإن لم يكن في كتابِ الله؟» قال: فبسُنَّةِ رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم يكن في سُنَّةِ رسول الله؟» قال: أجتهدُ رأيي ولا آلُو. قــال: فضــربَ رسول الله ﷺ صَدْري، ثم قال: «الحمدُ للهِ الذي وفَّقَ رسولَ رســولِ الله لمــا يُرْضِي رسولَ اللهِ»[٢].

---

(١) هناك مَن يرى أنَّ أبا حنيفة النعمان بن ثابت (ت١٥٠هـــ) وصاحبيه: أبا يوسف، ومحمــد بن الحسن الشيباني، هم أوَّلُ مَنْ تكلَّموا في أصول الفقه، ثم تلاهم الشافعي. انظر كلام أبي الوفا الأفغاني في مقدمة تحقيقه لــ(أصول السرخسي)، ٣/١.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسندِه عن معاذ بن جبل، حديث رقم (٢٢٠٠٧)، ٣٣٣/٣٦.

وذكرَ الإمامُ مالك في (الموطأ) «أنَّ عمرَ بن الخطَّابِ استشارَ في الخمرِ يشربُها الرجلُ، فقال له علي بن أبي طالب ﷺ: نرى أنْ تجلدَه ثمانينَ، فإنَّه إذا شرب سكرَ، وإذا سكرَ هَذِيَ، وإذا هَذِيَ افترى، أو كما قال. فَجَلَدَ عمرُ في الخمرِ ثمانينَ»[1]. فنحن إذا سمعنا ذلك أدركنا أن الإمام عليًّا قد نهجَ في حكمه هذا منهج (الحكم بالمآل)، أو: (الحكم بسدّ الذرائعِ)، وهما مِن القواعد الأصوليَّةِ بمكانٍ[2].

وكتبَ عمر بن الخطاب ﷺ في رسالتِه في القضاءِ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ، يؤصّل لدليلٍ أصيلٍ من أدلة أصول الفقه وهو (القياس)، فيقول: «الفهمَ الفهمَ فيما تَلَجْلَجَ في صدرِكَ ممَّا ليسَ في كتابٍ ولا سُنَّةٍ، ثم اعرفِ الأشباهَ والأمثالَ، فَقِسِ الأمورَ عند ذلك، واعمدْ إلى أقربِها إلى اللهِ، وأشبهِها بالحقِّ»[3].

### ١/٢ مظاهر التأثير

لا شكَّ أنَّ النُّحاةَ تأثَّروا كثيرًا بالفقهاء والأصوليين عند محاولتِهم بناءَ أدلَّةٍ كُليَّةٍ للنحوِ العربيّ، تُضاهي أدلَّةَ أصول الفقه بالنسبةِ إلى الفقه، فنهجوا نَهْجَهم، واتَّبعوا سُبُلَهم، فلا يكادُ يوجدُ علمٌ مِن العلوم الإسلاميَّة أو غير الإسلاميَّةِ تركَ مِن الأثرِ ما تركه علمُ أصولِ الفقه في أصولِ النَّحوِ.

وهذا التأثير لم يُنْكِره النُّحاةُ أنفسُهم الذين أسَّسوا لأصول التفكير النحوي، بل صرَّحوا في غير موطنٍ بأنَّ أصولَ النحوِ محمولةٌ على أصولِ الفقه؛ الأمرُ الذي

---

(١) الموطأ (رواية يحيى بن يحيى الليثي)، كتاب الأشربة (باب الحد في الخمر)، ٤٠٩/٢.

(٢) انظر: دراسة تاريخية للفقه وأصوله والاتجاهات التي ظهرت فيهما، لمصطفى سعيد الخن، ص١٥٥.

(٣) الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، ٢٠/١.

أدَّى ببعضِ المعاصرين –على سبيل المثال– إلى القولِ بأنَّ أبا البركاتِ الأنباريَّ (ت٥٧٧هـ) ليس له في ما كتبَه في أصول النَّحو في رسالتَيْه (الإغراب في جدل الإعراب)، و(لمع الأدلة) سوى سَوْق الأمثلة النحوية والصرفيَّة، وأمَّا مَا عدا هذه الأمثلة فهو مأخوذٌ مِن كتب أبي إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦هـ) الخمسة: (اللمع في أصول الفقه)، و(شرح اللمع)، و(التبصرة في أصول الفقه)، و(الملخص في الجدل)، و(المعونة في الجدل)[١].

ويمكنُ تلمُّسُ هذا الأثر الجليّ لأصول الفقه في مظاهرَ ثلاثةٍ، هي:

أ. **الإطار العام للعلم**.

ب. **الحدود والمصطلحات**.

ج. **المنهج المُتَّبع**.

أ. **الإطار العام للعلم**: يتجلَّى ذلك في تفكير النُّحَاة ومحاولتِهم جمعَ أصول عامة للتفكيرِ النَّحوي في علمٍ مستقلّ، يهدفُ إلى تحديدِ هذه الأصولِ النحوية والتعريفِ بها لتكونَ في البحث النحوي بمثابةِ أصولِ الفقه في الدراسات الفقهيَّة: مرجعًا وملجأً للنحاة يحتكمون إليه عند الاختلاف فيما بينهم. وهو مَا أرادَه ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) عند تأليفه (الخصائص)، وصرَّحَ به في مقدّمتِه عندما قال: «وذلك أنَّا لم نرَ أحدًا مِن عُلماءِ البلدَيْنِ تعرَّضَ لعملِ أصولِ النَّحوِ على مذهبِ أصولِ الكلامِ والفقه»[٢]، وفي قولِه الآخر: «فإنَّ هذا الكتابَ ليسَ مبنيًّا على حديثِ وجوهِ الإعراب، وإنَّما هو مقامُ القولِ على أوائل أصولِ هذا الكلامِ، وكيف بُدئ وإلامَ نُحِيَ. وهو كتابٌ يتساهم ذوو النظرِ مِن: المُتكلّمين، والفقهاء، والمتفلسفين، والنُّحاة، والكُتَّاب، والمتأدّبين

(١) قياس العكس في الجدل النحوي، ٩٢/١. وانظر الردَّ على ذلك في: لمع الأدلة (مقدمة التحقيق)، ص٥٥–٦٠.

(٢) الخصائص، ٢/١.

التأمُّلَ له»[1].

وأقرَّ أبو البركات الأنباريُّ (ت٥٧٧هـ) بأنَّه ألَّف كتابَه (لمع الأدلَّةِ) «على حدّ أصولِ الفقه، فإنَّ بينهما مِن المناسبةِ مَا لا يخفى؛ لأنَّ النحوَ معقولٌ مِن منقولٍ، كما أنَّ الفقهَ معقولٌ مِن منقولٍ»[2].

وصرَّحَ الجلالُ السيوطيُّ (ت٩١١هـ) بأنَّه صنَّفَ كتابه (الاقتراح) في علمٍ لم يُسبق إلى ترتيبِه، ولم يُتَقدَّم إلى تهذيبِه، «وهو أصولُ النَّحوِ، الذي هو بالنسبةِ إلى النَّحوِ كأصولِ الفقه بالنسبةِ إلى الفقه»[3].

- ولمَّا عزمَ النُّحَاةُ على التأليفِ في أصول النَّحوِ تمثَّلوا الهيكلَ العام لكتب أصولِ الفقهِ، الذي يبدأُ عادةً بمقدّماتٍ تعريفيَّةٍ تتضمَّنُ التعريفَ بالعِلْمِ وحُدودِه، وكذا أهمَّ مَا يحتاجه الأصوليُّ في عملية الاستنباط، ثم يلي هذه المقدّمات الحديثُ مفصّلًا عن الأدلة الكليّة للفقه. فبدأ أبو البركات الأنباري كتابَه (لمع الأدلة) بفصلَيْنِ كانا كالمقدّمات في كتب أصول الفقه، تحدَّثَ في الأوَّلِ منهما عن مفهومِ أصول النَّحوِ وفائدته، وفي الثاني عن الدليل النحويّ وأصل اشتقاقِه، وعن أقسامِ أدلَّةِ النحوِ التي ارتضاها، وهي: النقلُ، والقياسُ، واستصحابُ الحال[4].

وقدَّمَ السيوطيُّ كتابَه (الاقتراح) بمقدمةٍ ضمَّنَهَا مسائل عشرًا، ثم أفرد لكلّ دليلٍ من الأدلة الأربعةِ التي ارتضاها (السماع أو النقل، والإجماع، والقياس، واستصحاب الحال) كتابًا مستقلًّا. ثم تحدَّثَ عن أدلَّةٍ أقلَّ قوة وتأثيرًا، ثم جعل

---

(١) الخصائص، ٦٧/١.

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص٨٤.

(٣) الاقتراح، ص٥.

(٤) انظر: لمع الأدلة، ص٨٥-٨٧.

كتابًا أخيرًا سابعًا في بيان حالِ المستدِلّ أو المستنبط للأحكام، وصفاتِه وشروطِه.

ب. **الحدود والمصطلحات:** لعلَّ مِن المنطقيّ أنْ يقتبسَ النُّحَاةُ حدودَ أصولِ الفقه ومصطلحاته، وأنْ يقاربوا بينها وبين حدودِهم ومصطلحاتهم التي وضعوها لأصولِهم النحوية على أساسٍ مِن التقاربِ الكائنِ حقًّا بين العلمين. وأوَّلُ ما يلفت الانتباه في هذه البابة تعريفُ النُّحاة لأصول النَّحوِ على نمطِ تعريف الأصوليين لأصول الفقهِ؛ فأصول النَّحوِ كما يراها أبو البركات الأنباري – وهو أوَّلُ تعريفٍ وصلَ إلينا– هي «أدلَّةُ النَّحوِ التي تفرَّعت عنها فروعُه وأصولُه، كما أنَّ أصولَ الفقهِ أدلَّةُ الفقه التي تفرَّعت عنها جملتُه وتفصيلُه»(١).

ولمَّا أرادَ السيوطيُّ أن يعرّفَ أصولَ النَّحْوِ تعريفًا أشملَ من تعريف أبي البركات الأنباري، الذي ركَّزَ فيه فقط على الأدلة النحوية –كانَ متأثرًا كذلك بأصول الفقه؛ فأصول النحو عنده «علمٌ يُبحث فيه عن أدلَّةِ النَّحوِ الإجمالية؛ مِن حيث هي أدلَّتُه، وكيفيَّةِ الاستدلال بها، وحالِ المُستَدِلّ»(٢). وهو تعريفٌ يشبه تمامًا تعريف الأصوليين لأصول الفقه، الذي يقول بأنَّه «أدلَّةُ الفقهِ، وجهاتُ دلالاتِها على الأحكامِ الشرعيَّة، وكيفيَّة حالِ المستدلّ بها مِن جهةِ الجملة لا مِن جهة التفصيل، بخلاف الخاصة المستعملة في آحاد المسائل»(٣).

**ثم يأتي بعد ذلك** عددٌ غيرُ قليلٍ مِن المصطلحات التي تأثر فيها النُّحَاة

---

(١) لمع الأدلة، ص٨٥.

(٢) الاقتراح، ص١٣.

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ج١/٢٣.

بالأصوليين، مِن ذلك[١]:

- **استصحاب الحال:** وهو دليلٌ أصوليٌّ معناه: «ملازمةُ حُكمِ الأصلِ ما لم يوجد مُغيّر»[٢]، أو هو: «استدامةُ إثبات ما كان ثابتًا، أو نفيِ ما كان منفيًّا. أو: بقاءُ الأمر على مَا كانَ عليه مَا لم يوجد في غيره»[٣]. وذكر أبو إسحق الشيرازي (ت٤٧٦هـ) أنَّ (استصحاب حال العقل) طريقٌ صحيحٌ يفزعُ إليه المجتهدُ عند عدم وجودِ الدليلِ الشرعيّ[٤]. وهو الأمرُ نفسُه عند النُّحاةِ، وعرَّفَه الأنباريُّ في (الإغراب في جدل الإعراب) بأنَّه «إبقاءُ حالِ اللفظِ على ما يستحقُّه في الأصلِ عند عدمِ دليلِ النَّقْلِ عن الأَصْلِ»[٥]، أو هو -كما يعرّفُه هو أيضًا في (لمع الأدلة)-: «استصحابُ حَالِ الأصل، مثل استصحاب حال الأصلِ في الأسماءِ وهو الإعرابُ، واستصحابُ حالِ الأصل في الأفعالِ وهو البناءُ، حتى يوجدَ في الأسماء ما يُوجب البناءَ، ويوجدَ في الأفعالِ ما يُوجب الإعراب»[٦].

- **الاستحسان:** مصطلح قديم قدمَ التدوين في أصول الفقه؛ فقد ذكره الإمام الشافعي (ت٢٠٤هـ) في غيرِ موضعٍ من (الرسالة)[٧]، وتناوبَ على تعريفِه عددٌ مِن الأصوليين، منهم مَنْ رأى أنَّه «تخصيصُ العلَّةِ بمعنًى يُوجب التخصيص»، ومنهم مَنْ رأى أنَّه «تخصيصُ بعضِ الجملة بدليلٍ يخصُّها»[٨]، ومنهم مَن قال: هو «أن يعدلَ الإنسانُ عن أن يحكمَ في المسألةِ بمثلِ مَا يحكمُ به

---

(١) انظر المزيد في القسم الثاني مِن كتاب: مصطلحات علم أصول النحو، دراسة وكشاف معجمي، ص٦٧-٧٢.

(٢) البحر المحيط في أصول الفقه، ٧/٦.

(٣) الوجيز في أصول الفقه، ص٢٦٧.

(٤) انظر: اللمع في أصول الفقه، ص٢٤٨؛ وشرحه للشيرازي أيضًا، ٩٨٦/٢-٩٩٢.

(٥) الإغراب في جدل الإعراب، ص٤٦.

(٦) لمع الأدلة، ص١٦٧.

(٧) انظر: الرسالة، الصفحات: ٢٥، ٥٠٣، ٥٠٨.

(٨) اللمع في أصول الفقه، ص٢٤٤.

في نظائرها؛ لوجهٍ هو أقوى مِن الأوَّل، يقتضي العدولَ عن الأوَّلِ»[1]، كما اختلفوا -أيضًا- في حُجِّيَّتِه والأخذِ به كدليلٍ معتبرٍ[2].

واستخدمَ ابنُ جنّي هذا المصطلحَ في كتابِه (الخصائص)، وعقد له بابًا، وذهبَ إلى: «أنَّ عِلَّتَه ضعيفةٌ غير مستحكمةٍ، إلا أنَّ فيه ضربًا مِن الاتساعِ والتصرُّفِ»[3]. كما خصَّص أبو البركات الأنباري الفصل الخامس والعشرين من كتابِه (لمع الأدلة) للحديث عنه، وعن اختلاف الآراء في الأخذِ به بوصفه دليلاً[4].

- **القياس بإلغاء الفارق:** ويعني عند الأصوليين: «أنْ لا يكونَ بين الصُّورتين فرقٌ [أي: بين الأصل المقيس عليه والفرع المقيس بالأصل] مؤثّرٌ في الشَّرعِ»[5].

وتحدَّثَ السيوطيُّ عن هذا المصطلح في **(الاقتراح)**، بوصفِه مسلكًا مِن مسالكِ العِلَّةِ، وعرَّفَه بأنَّه: «بيانُ أنَّ الفرعَ لم يفارق الأصلَ إلا فيما لا يُؤثّرُ، فيلزم اشتراكُهما»، كما مثَّلَ له بـ«قياس الظرف على المجرورِ في الأحكامِ بجامع أنْ لا فارق بينهما؛ فإنهما مستويان في جميع الأحكامِ، وإنما وقع الخلافُ في هذه المسألةِ»[6].

- **مصطلحا: العزيمة والرُّخصة:** وهما مِن أقسام الحُكْم التكليفي عند الأصوليين؛ ويعني المصطلح الأول ما طلبه الشارع أو أباحَه على وجه العموم، وأمَّا «الرُّخصة» فمصطلحٌ لِمَا أباحه الشارع عند الضرورةِ تخفيفًا عن المكلفين

---

(١) قواطع الأدلَّة في أصول الفقه، ٥٢١/٤.

(٢) انظر: التبصرة في أصول الفقه، ص٤٩٢-٤٩٥؛ وشرح اللمع للشيرازي، ٩٦٩/٢-٩٧٤.

(٣) الخصائص، ١٣٤/١.

(٤) انظر: لمع الأدلة، ص١٥٧-١٥٨.

(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١٦٦/٣.

(٦) الاقتراح، ص٣٣٠-٣٣١.

ودفعًا للحرج عنهم[١].

وطبَّقَ السيوطيُّ هذَيْن المصطلحين في أصول النحو، فتحدث في **(الاقتراح)** عن انقسام الحكم النحوي إلى: «رُخْصةٍ وغيرها [ويقصد بها العزيمة]. والرُّخصةُ: مَا جازَ استعمالُه لضرورةِ الشّعرِ، ويتفاوت حسنًا وقبحًا»[٢].

- **كذلك نلحظ هذا التأثير** في المصطلحات المتعلّقة بالحكم، وهو أحدُ أركان القياس، فتحدَّثَ السيوطيُّ في **(الاقتراح)** عن انقسام الحكم النحوي إلى: واجبٍ، وممنوعٍ، وحسنٍ، وقبيحٍ، وخلافِ الأَوْلَى، وجائزٍ على السَّواءِ[٣]. وكلُّ هذا مصطلحات أصوليّةٌ دوَّنَها الأصوليون في كتبِهم.

ج. المنهج المتَّبع: احتذى النُّحاةُ في مؤلَّفاتِهم الأصوليَّةِ منهجَ الأصوليين مِن الفقهاء، ويُلحظ هذا في عدة ملامحَ، منها:

- استخدامُ النُّحاة لكلٍّ مِن: (استصحاب الحال)، و(الاستحسان)، و(عدم النظير)، و(العكس) أدلَّةً في تقنين الأصولِ النَّحويَّة، متأثرين في ذلك بمنهج الفقهاء والأصوليين. بل إن موقفَ النُّحاةِ منها واختلافَهم في الأخذ بها بوصفِها أدلةً لم يكن سوى انعكاسٍ لخلافِ الأصوليين في صلاحية الأخذ بها.

---

(١) انظر: الوجيز في أصول الفقه، ص٥٠.

(٢) الاقتراح، ص٥٣.

(٣) السابق، ص٤٨.

- اختلافُ النُّحَاةِ حول حُجّيةِ كُلّ مِن قياس الشَّبَه[١] وقياس الطَّردِ[٢]، مَا هُو إلا تكرارٌ لاتجاهات عُلماءِ الأصول إزاءهما[٣].
- استعارةُ النُّحَاةِ للمناهج التي طبَّقها الأصوليون في كتبِهم عند تعارضِ الأدلة والترجيح بينها؛ فكانت صورُ التعارضِ الرئيسة عندهم ثلاثًا:

**أ. تعارض النصوص.**

**ب. تعارض الأقيسة.**

ج. **تعارض النص والقياس.**

ثم لم تلبث أنْ تفرَّعت هذه الصور الثلاث عند النُّحاةِ إلى أنْ بلغت عند السيوطي اثنتي عشرة صورة، هي[٤]:

١- التعارض بين قياسَيْنِ، والأخذ بأرجحهما.

٢- التعارض بين القياس والسماعِ، والأخذ بالمنطوق المسموع وعدم القياس عليه.

٣- التعارض بين كثرة الاستعمال وقوة القياس، والأخذ بكثرة الاستعمال.

٤- معارضة مجرَّد الاحتمال للأصل والظاهر.

---

(١) هو أن يُحملَ الفرعُ على الأصلِ بضربٍ مِن الشَّبَهِ، غير العلّةِ التي عُلّقَ عليها الحكمُ في الأصل. ووجهُ اختلاف الأصوليّين في حُجّيّته أنّه غير دالّ على العلّيةِ، ولأنَّ الصحابةَ لم يعملوا بالوصف الشبهي. انظر: لمع الأدلة، ص١٢٧؛ والاقتراح، ص٣٢٥-٣٢٦.

(٢) هو الذي يوجدُ معه الحكمُ، وتُفقدُ الإخالة في العلّة. ووجهُ اختلافهم في حجّيته أنَّ قومًا ذهبوا إلى أنَّ مجرد الطرد لا يُوجبُ غلبةَ الظنّ بعلةٍ جامعةٍ بين الأصل والفرع، بينما ذهب آخرون إلى أنّه نوعٌ مِن القياس، فوجب أن يكونَ حجَّة؛ كما لو كان فيه مناسبة أو شبهٌ. انظر: لمع الأدلة، ص١٢٩-١٣١؛ والاقتراح، ص٣٢٧-٣٣٠.

(٣) يُنظر هذا الخلاف تفصيلاً عند الأصوليين في: التبصرة في أصول الفقه، ص٤٦٠-٤٦٣؛ وشرح اللمع للشيرازي، ٨٦٤/٢-٨٧٠؛ ومبادئ الوصول إلى علم الأصول، ص٢٢٢-٢٢٣، ٢٢٦-٢٢٧.

(٤) انظر: الاقتراح، ص٤٠٣-٤٣٠.

٥- التعارض بين الأصلِ والغالب، والأخذ -على الأصحّ- بالأصلِ.
٦- التعارض بين الأصلَيْن، والأخذ بأقربهما دون الأبعدِ.
٧- التعارض بين استصحاب الحالِ مع دليلٍ آخر كالسماع أو القياس، والأخذ بالدليل الآخر.
٨- التعارض بين قبيحَيْنِ، والأخذ بأقربهما وأقلّهما فحشًا.
٩- التعارض بين المُجْمَعِ عليه والمختلف فيه، والأخذ بالمُجْمَعِ عليه.
١٠- التعارض بين المانعِ والمقتضِي، والأخذ بالمانعِ.
١١- التعارض بين قولين لعَالِمٍ واحدٍ أحدهما مرسلٌ غيرُ مقيّد بدليل، والآخر مُعلَّلٌ مقيَّد بدليل، والأخذ بما يستندُ إلى دليلٍ.
١٢- التعارض بين مذهب البصريين والكوفيين، والأخذ بمذهب البصريين لأنهم أصحُّ قياسًا.

- تأثُّرُ النُّحاة بالأصوليين في منهجهم المتَّبعِ في مباحث العلَّة: فعلى الرغم مِن أصالةِ العِلَّةِ في الدَّرْسِ النحويّ -والتي تُعدُّ ركنًا مِن أركانِ القياس النحويّ- منذ عبدالله بن أبي إسحق الحضرمي (ت١١٧هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)[1]، فقد تأثَّرَ النُّحاة في فتراتٍ لاحقةٍ بما دوَّنَه الأصوليون في كتبِهم، ويمكن تلمُّسُ ذلك في:

أ. تقسيم العلَّة النحويَّة إلى (بسيطة) و(مُركَّبة): قال السيوطي في (الاقتراح): «العلةُ قد تكونُ بسيطة، وهي التي يقع التعليلُ بها مِن وجهٍ

(١) فقد سُئلَ الخليل بن أحمد عن العِلِلِ التي يعتلُّ بها في النحو، فقيل له: «عنِ العربِ أخذتها أم اخترعتها مِن نفسك؟ فقال: إنَّ العربَ نطقت على سجيَّتِها وطباعها، وعرفت مواقعَ كلامها، وقام في عقولِها علله، وإنْ لم يُنقل ذلك عنها، واعتللتُ أنا بما عندي أنَّه علةٌ لما علَّلتُه منه...». انظر: الإيضاح في علل النحو، ص٦٥-٦٦.

واحدٍ كالتعليلِ بالاستثقال والجوار والمشابهة ونحو ذلك، وقد تكون مركَّبةً مِن عدَّةِ أوصافٍ؛ اثنين فصاعدًا، كتعليل قلب (ميزان) بوقوع [الواو] ساكنة بعد كسرةٍ، فالعلَّةُ ليس مجرَّد سكونها، ولا وقوعها بعد كسرةٍ، بل مجموع الأمرين»[١].

ب. اختلافُ النُّحاة حول كون (الطرد) و(العكس) شرطًا في العلَّةِ: وقد خصَّصَ لهما أبو البركات الأنباري الفصلين: السابع عشر والثامن عشر مِن كتابِه[٢] للحديث عن اختلاف النُّحاة فيهما. أمَّا السيوطيُّ فقد تحدث عن هذا الخلاف تحت عنوان: (ذكر القوادح في العلَّة)[٣].

ج. اختلاف النُّحاةِ كذلك في التعليلِ بـ(العلَّةِ القاصرةِ)[٤]: وقد أفردَ لها السيوطيُّ المسألةَ السابعةَ مِن الفصل الرابعِ (في العلَّة) للحديث عنها، ونقل كلامَ أبي البركات الأنباري في الاستدلال بصحَّتِها؛ على أنَّها ساوت العلةَ المتعدّيةَ في المناسبة وزادت عليها بظاهر النقلِ. ثم عرضَ لرأي ابن مالك في منعِ العملِ بها[٥].

د. نَقْلُ مسالكِ العلَّةِ النحويَّةِ مِن الأصول الفقهية: وهي عند النحاةِ -كما عند الفقهاء- ثمانيةٌ: الإجماع، والنصُّ، والإيماء، والسَّبْر والتقسيم، والمناسبة أو

---

(١) الاقتراح، ص٢٧٩.

(٢) انظر: لمع الأدلة، ص١٣٢-١٣٨.

(٣) انظر: الاقتراح، ص٣٣٢-٣٣٧.

(٤) عرَّفها ابن الطيب الفاسي في (فيض نشر الانشراح)، ٩٠٨/٢، فقال: «التي لا تتجاوزُ محلَّ النصّ لغيرِه؛ لكونِها محلَّ الحكمِ، أو جزأه، أو وصفَه الخاص به».

(٥) انظر: الاقتراح، ص٢٨٤-٢٨٧.

الإخالة، والشَّبَه، والطَّرد، وإلغاء الفارق[١].

### ١/٣ آراء القدماء والمعاصرين

نصَّ النُّحاةُ القدماءُ على تلك العلاقة الوثيقة بين أصول الفقه وأصول النحوِ، وأقرُّوا باتباعهم سَنَنَ الأصوليين والفقهاءِ في ما أرادوه مِن وضع أصولٍ للنحوِ العربيّ؛ ويكفي أنَّ واحدًا مِن أوائل النُّحاة الذين شغلتهم فكرةُ وضعِ أصولٍ للتفكير النحويّ، وهو ابنُ جنّي، نصَّ -كما مرّ- في مقدّمة (الخصائص) على ذلك، فقالَ: «وذلك أنَّا لم نرَ أحدًا مِن علماءِ البلدَيْنِ تعرَّضَ لعملِ أصولِ النَّحوِ على مذهبِ أصول الكلامِ والفقهِ»[٢]. وقال في نهاية (باب في تخصيص العلة): «وكذلك كتُبُ محمد بن الحسن -رحمه الله- إنَّما ينتزعُ أصحابُنا منها العلَلَ؛ لأنهم يجدونها منثورة في أثناءِ كلامِه، فيُجمَعُ بعضُها إلى بعضٍ بالملاطفةِ والرّفق»[٣].

ثم يصرّح أبو البركات الأنباري -الذي ألَّف كتابَه (الإنصاف في مسائل الخلاف) على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة- بأنَّه قد ألَّفَ أصولَ النَّحوِ «على حدّ أصولِ الفقهِ، فإن بينهما مِن المناسبةِ مَا لاَ يخفى؛ لأنَّ النحوَ معقولٌ مِن منقولٍ كما أنَّ الفقهَ معقولٌ مِن منقولٍ، ويعلمُ حقيقةَ هذا أربابُ المعرفةِ بهما»[٤].

---

(١) الاقتراح، ص٣١٠-٣٣١.

(٢) الخصائص، ٢/١.

(٣) السابق، ١٦٤/١. ومعلومٌ أنَّ ابن جنّي كان حنفيَّ المذهبِ، والأحناف يرون أنَّ العلةَ ركنٌ رئيس في القياس، وما عداها فهي شرائط؛ لذا كان مِن الطبيعيّ أنْ يُعليَ ابنُ جني مِن شأنِ العلَّةِ ويُخصّصَ لها غير باب في كتابه (الخصائص).

(٤) نزهة الألباء، ص٨٢.

ويأتي الجلال السيوطيُّ فيصرّح في مقدمة (الاقتراح) بأنَّ علمَ أصول النحوِ «هو بالنسبةِ إلى النَّحوِ كأصول الفقهِ»[١]، ويقول عن ترتيبه للكتاب: «ورتبتُه على نحو ترتيب أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم»[٢]. كما صرَّحَ في نهاية كتاب الإجماع بـ«أنَّ أهلَ العصرِ الواحدِ إذا اختلفوا على قَوْلَيْنِ جازَ لِمَنْ بعدهم إحداثُ قولٍ ثالثٍ. هذا معلومٌ مِن أصولِ الشريعةِ، وأصولُ اللغةِ محمولةٌ على أصول الشريعةِ»[٣].

**وفي مقابل ذلك،** فإنَّ المعاصرين لم تتفق كلمتُهم على أمرٍ سواء؛ فمنهم مَنْ يسلِّم بهذا التأثير دون أنْ يُقلّلَ مِن شأنِ الدرس النحويّ وجهود النُّحاة فيه، ومنهم مَن يذهب إلى أنَّ النُّحاةَ عالةٌ على الفقهاء في هذا المضمار وأنَّهم لم يأتوا بجديدٍ أبدًا، ومِنهم مَن أخذ يُنافِحُ عن النُّحاةِ وأصولِهم ويُنْكِرُ أن يكون للأصوليين أيُّ أثرٍ في هذا، بل شطَّ وبَعُدَ بعضُهم فذهب إلى أسبقيَّة أصول النَّحوِ على أصولِ الفقهِ، وكأنَّه يرى السُّبَّةَ والعارَ في أنْ يتأثَّرَ اللاحقُ (علمُ أصول النحوِ) بغيرهِ مِن العلومِ السابقةِ عليه.

**فمن أصحاب الفريق الأول:** الأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور محمود أحمد نحلة، والدكتور محمود فجَّال، والدكتور أحمد سليمان ياقوت، والدكتور محمد صالح... وغيرهم كثير.

- يقول الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه **(في أصول النَّحوِ)**، الذي يعدُّ أوَّلَ المحاولات الحديثة تأليفًا في أصولِ النَّحو: «ولم تنقضِ المئةُ الثانية حتى كان للفقه كتبُه ومذاهبُه وأصولُه، كما كان للدينِ أيضًا كتبه وجدله وأصوله ومتكلِّموه رويدًا رويدًا، وبدأ يدوَّنُ وتنسَّقُ أبوابُه وفصولُه، ثم جاءت بعد

---

(١) الاقتراح، ص٥.
(٢) السابق، ص٧.
(٣) السابق، ص٢٠٢.

الطبقةِ الأولى طبقات، وتميّزت المذاهب فيه بعضها مِن بعضٍ، ثم كانَ لـــه أصوله أيضًا. يُقرُّ النُّحاة بأنّهم احتذوا في أصولِهم أصولَ الفقهِ عند الحنفيّة خاصةً»[1]. ويورد كلامًا لابن جني وأبي البركات الأنباري والسيوطيِّ، ثم يقول: «ثم تقرأ في كتبِ النَّحوِ بعد ذلك فترى مصطلحات الثقافـــة الفقهيـــة تطالعك بين الفينة والفينة... ثم حاكوا الفقهاءَ أخيرًا في وضعِهم للنَّحو أصولًا تشبه أصول الفقهِ، وتكلَّموا في الاجتهادِ فيه كما تكلَّمَ الفقهاءُ، وكـــان لهـــم طرازُهم في بناء القواعدِ على السماعِ والقياس والإجماعِ كما بنى الفقهـــاءُ استنباطَ أحكامهم على السماعِ والقياس والإجماع»[2].

- ويقول الدكتور محمود نحلة في كتابِه **(أصول النَّحو العربي):** «ولقد كانَ علـــمُ أصولِ الفقهِ أشدَّ العلومِ الإسلاميّة أثرًا في الدَّرسِ النَّحوي، حتى زحمه الفكرُ اليوناني بتصوراتِه الذهنية ومنطقه الشكلي بعد ثلاثة قرونٍ»، وأخذ يُعـــدّد مظاهر هذا التأثير، ثم قال: «فلمَّا أن غلبَ الفكرُ اليوناني علـــى الـــدَّرسِ النّحويّ استطاعَ أن يطوّرَ بعضَ مَا أخذهُ مِن علمِ أصول الفقْهِ مِن أُصـــولٍ ومصطلحاتٍ، كالقياس والتعريف وطرد الأحكام... إلخ، لكنّه لم يستطع أن يمحوَ أثرَه في جوانب عديدة مِن الدرس النحوي»[3].
- ويقول الدكتور محمود فجَّال في شرحه على الاقتراح، المُسمَّى **(الإصباح في شرح الاقتراح):** «عُرِفت مسائلُ أصولِ الفقهِ منذُ وضعَ محمـــد بـــن الحســـن الشيباني (ت١٩٨هـــ) كتبَه، ووضعَ محمدُ بن إدريسَ الشافعي (ت٢٠٤هـــ) (الرسالة). وكانَ النُّحاةُ يحاولون ترسُّمَ خُطاهُما في ضـــوءِ هـــذه الكتـــبِ

---

(١) في أصول النّحو، ص١٠٠.

(٢) السابق، ص١٠٣-١٠٥.

(٣) السابق، ص١٥-١٧.

وأمثالها»[١].

- ويقولَ الدكتور أحمد سليمان ياقوت في كتابِه **(ظاهرة الإعراب في النحو العربي)** بعد إيراد كلام طويل عن تاريخ العلمين ونشأتهما: «مِن ذلك كله نجد أنَّ المؤلَّفات النحوية التي اهتمت بالتفريع وقياس الفرع على الأصل، والأشباه والنظائر، وبيان العلل، هذه المؤلَّفات كلها قد كتبها أصحابُها بعد زمن الأئمة الأربعةِ... هؤلاء الأئمة الذين وضعوا علم أصول الفقه وأرْسَوا قواعدَه، وهذا يظهرُ لنا بجلاءٍ أنَّ علم أصول الفقه سبق النحوَ وأصولَه، ومِن ثَمَّ كان الأوّلُ هو المؤثّر في الثاني وليس العكس»[٢].

ويذهب الدكتور محمد سالم صالح مذهبَهم، ويعمدُ إلى عقد مقارنةٍ طويلةٍ بين نشأة العلمين؛ ليصل في النهاية إلى أسبقية الأصول الفقهية وأثرها الواضح في أصولِ النَّحوِ. ثم يقول في نهاية كلامِه: «ومِن هنا أرجّحُ الرأي القائل بأسبقيَّة الأصول الفقهية، وتأثيرها في أصولِ النّحوِ، وهو رأي الكثرة الغالبة مِن الباحثين»[٣].

**أمَّا الفريق الثاني** (أعني مَن قال بالتأثير الكلي لأصول الفقه في أصول النحو، وأنَّ النُّحاةَ عالةٌ على الأصوليين ولم يأتوا بجديد) فنجد منهم الأستاذ أمين الخولي؛ إذ قالَ في بحث له بعنوان **(هذا النَّحو)**: «والنَّاظرُ في هذه الأصول يرى النُّحاةَ منذ أول الدهرِ قد ربطوا أصولَهم بأصولِ الفقهِ، بل حملوها عليها»[٤].

كذلك يُعَدُّ الدكتور علي أبو المكارم مِن أنصار هذا الفريق؛ فقد حصر أصول النَّحوِ في رافدين فقط، هما: أصول الفقه، والفكر الإغريقي، ولم يتعرَّضْ

---

(١) الإصباح في شرح الاقتراح، ص٧.

(٢) ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، ص١٥٧.

(٣) أصول النحو، دراسة في فكر الأنباري، ص١٠٠.

(٤) هذا النحو، ص٤.

لجهودِ النُّحاة وأصولهم الثابتة قبل التأثُّر بهذين الرافدَيْنِ. قالَ في كتابِه (**تقويم الفكر النّحوي**)، بعد إيراد مسالك العلَّة عند النُّحاةِ: «وجميعُ هذه المسالك منقولةٌ مِن علمِ الأصولِ، بل إنَّ نَقْلَ النحاةِ لم يقف عند ذلك، بل نقلوا إلى التراث النحويّ خلافات الأصوليين في بعضِ هذه المسالكِ أيضًا، **متصوِّرين أنَّ استبدالَ الأمثلة النحويّة بالفقهية كافٍ** لمدِّ هذه الخلافات المصطنعةِ بالحياةِ في مجالات البحث النَّحوي»[1].

**ويمثِّل الفريقَ الثالث** (أعني مَنْ رفض أنْ يكونَ لأصول الفقه تأثيرٌ في الأصول النحوية) دارسان، اختلف رأيهُما بعضَ الشيء عن الرأيَيْنِ السَّابقَيْنِ؛ فقد رأى الأوَّلُ[2] أنَّ التأليفَ في أصولِ الفقهِ أسبقُ مِن التأليفِ في علم أصول النَّحوِ، كما أنَّه لم ينكر تلاقح العلومِ المتعاصرةِ، ولكنَّه -في دراستِه لأصول النَّحو عند ابن جني- لا يرى أنَّه تأثَّرَ بالفقهاء، ولا بالأحناف منهم بخاصةٍ، وأنَّ ثمَّة وجهَ شبهٍ بين طريقةِ تدوين الحنفية لأصولِهم والطريقة التي دَوَّنَ بها ابنُ جني أصول النَّحوِ، وهي الطريقة الوصفية التاريخيَّة، التي تعني: «أنَّ واضعي هذه الأصول رجعوا إلى مسائل هذا العلم وأحكامه، فلاحظوا أنَّ العلماء السابقين كانوا يبنون حُكْمَهم في هذه المسألة على هذا الأصل، وفي تلك المسألة على ذلك الأصل، وفي ثالثة على أصل ثالث، وهكذا إلى أنِ استَقْرَوْا مسائلَ العلم كلها، وضمُّوا الأصول المتشابهة بعضها إلى بعض، فحصل لهم -نتيجة استقرائهم الشامل وملاحظتهم الدقيقة- مجموعةٌ من أصول هذا العلم ومناهجه»[3]. يقول

---

(١) تقويم الفكر النحوي، ص٢٣٠.

(٢) هو الباحث محمد إبراهيم خليفة في رسالته (أصول النحو في الخصائص لابن جني)، ماجستير دار العلوم، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٢م.

(٣) رأيٌ في أصول النّحو وصلته بأصول الفقه، ص١٠٤.

في دراسته **(أصول النَّحو في الخصائص لابن جني)**: «والمهم فيما نحن بصددِه هو أنّي لا أرى في ذلك أنَّ ابن جنّي متأثرٌ بالأحنافِ إلا في طريقةِ التدوينِ، هذا غايةُ مَا يمكن أن يُقالَ بالنسبة لتأثير أصول الفقهِ في أصولِ النحوِ، على أنَّ كلتا الطريقتين ليستا ملكًا موقوفًا على الفقهاء، وإذن فوجه الشَّبهِ الجامعِ بين علم أصول الفقهِ وعلم أصول النحو هو كونُ منهج التأليف فيهما وصفيًّا تاريخيًّا. ومعلومٌ أنَّ هذا الشبهَ شكليٌّ لا علاقةَ له بصميمِ العلمِ، وهذا الشَّبهُ هو الذي يفسّر لنا أقوالَ الأصوليين مِن النحاةِ حينما يقرنون علمَ أصول الفقهِ بعلمِ أُصول النحوِ؛ ليوضحوا لنا طريقتَهم في التأليفِ في علمِ أصولِ النَّحوِ... **هذا -في ما أعتقدُ- كلُّ مَا لعلمِ أصول الفقهِ مِن تأثيرٍ في علمِ أصول النَّحوِ إنْ عُدَّ ذلك تأثيرًا»**[1].

ثم أخذ الباحث يتتبعُ تاريخَ بعضِ الأدلةِ النَّحويةِ كالسماعِ والقياس والاستصحابِ؛ في محاولةٍ منه لإثباتِ أصالة هذه الأصول النَّحويةِ[2]، وليخلصَ في الختامِ إلى «أنَّ التشابهَ بين علمِ أصولِ النَّحوِ وعلمِ أصول الفقهِ ينحصرُ في أمرَيْنِ شكليينِ وسطحيين:

١- طريقة التدوين.

٢- التشابه الشكلي أو اللفظي بين أصول العلمين»[3].

**أمَّا الدارسُ الثَّاني**[4] فقد عكسَ القضيَّة برُمَّتِها؛ إذ حاول إثباتَ أسبقيَّةِ أصولِ النَّحوِ على أصولِ الفقهِ، وبالتالي فهو ينفي تأثُّرَ أصولِ النحوِ بأُصولِ الفقهِ في

---

(١) أصول النحو في الخصائص لابن جني، ص١٧.

(٢) السابق، ص١٨-٢٠.

(٣) السابق، ص٢٠.

(٤) هو الباحث جمال عبدالعزيز أحمد، في رسالتِه (دور النحو في العلوم الشرعية)، ماجستير دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م.

فترةِ النَّشأةِ!

وقد حاول إثباتَ ذلك مِن خلالِ إيرادِ أقوال القدامى والمحدثين حول نَشأةِ أصول النَّحو وأصول الفقهِ، ثم مناقشة آرائهم وتفنيدها، والقول بأنَّ النَّحوَ قد نشأ نتيجةَ ظهور اللَّحن الذي ظهر أول مَا ظهر في عصر النُّبوَّةِ، ثم أعقبه بالحديث عن الأطوار المختلفة التي مرَّ بها النَّحوُ، وأنَّ «كل طورٍ يُلْحظُ فيه الحديث حول أصولِ النَّحوِ، والكلام في العلَّة والتعليل والقياس، والخلاف والاتفاق والتفـرّد حول بعض الأقيسة»(١)، ثم ختمَ الحديث عن هذه الأطوار بقولِه: «بعد وضوحِ هذه الأطوار لا يبقى إلا أنْ نقولَ: إنَّ القائلَ بنشأةِ علمِ أصولِ الفقهِ أولاً لا نُسلّمُ بقولِه، ثم إنَّ احتجاجَه بأنَّ بداياتِ علم أصول الفقه نشأت على عهد الرسول ﷺ، ويلتمس لذلك براهين مِن أقيسة النبيّ ﷺ... كلٌّ ذلك نُسلّمُ به على ألا يكونَ أصلًا لتفكير النّحاةِ، ويمكنُ الردّ عليه بأنَّ الحديثَ في النحوِ كذلك نشأَ في فترةِ النبوة كما قدَّمنا، وكلٌّ مِن التفكير النحوي والأصولي بدأ فطريًّا على عادةِ العلومِ ثـم اجتهدَ كلٌّ حتى استوى للعلمِ متنُه»(٢).

كذلك أخذ يُدلّلُ على أسبقيَّة نشأةِ أصولِ النَّحوِ بالحـديثِ عـن القيـاس النَّحويّ، وأنَّه ظهر منذ زمن ابن أبي إسحق الحضرمي (ت١١٧هـ)، وأوردَ لذلك نماذجَ مِن أقيسةِ نُحاةِ البصرةِ والكوفةِ، وكذلك استدلَّ بأنَّ التعليلَ النحويَّ متقدّمٌ على ظهور كتابِ (**الرسالة**) للإمام الشافعي، والذي هو «قبل أن يكـونَ كتابَ فقهٍ وأصولٍ فهو كتابُ أدبٍ ولغةٍ وثقافةٍ؛ إذ لم تهجنه عجمةٌ، ولم تـدخل

---

(١) دور النحو في العلوم الشرعية، ص٢٧٣.

(٢) السابق، ص٢٧٦.

على لسانِه لُكْنةٌ، ولم تحفظ عليه لحنةٌ أو سقطةٌ»[١]، كما أنَّ العللَ النحويَّةَ بينها وبين العللِ الفقهيَّة فروقٌ، ومِن خلالها يتضحُ أنَّ علل النحاةِ -أيضًا- كانت بعيدةً عن التأثرِ بالعلل الفقهية، وكذلك عن التأثر بِعِلَلِ المتكلّمين[٢].

وخلص الباحث في النّهايةِ إلى أنَّه «قد وضحَ مِن خلالِ عرضِ هذه القضيَّةِ أنَّ أصولَ النحوِ قد سبقت نشأةَ أصولِ الفقهِ، وأنَّ أصولَ النحوِ قد تكلّمَ فيها كثيرون مِن علماء النَّحوِ، وذلك قبل أنْ تظهرَ رسالة الشافعي رحمه الله»[٣].

**ثانيًا: أثر المنطق اليوناني في أصول التفكير النحوي**

**٢/١ تأصيلٌ تاريخيٌّ**

يُفرِّق المُنْصِفون مِن الباحثين عند الحديث عن تأثر النُّحاة في أصولِهم بالمنطق اليوناني بين مرحلتين مختلفتين للثقافة العربية:

**أمَّا المرحلة الأولى** فهي مرحلة النشأة وأصالة التفكير النحوي، وتمتدُّ -كما حدَّدها بعضهم[٤]- قرابة قرنٍ كاملٍ؛ فهي تبدأ منذ نشأة التفكير النحوي، وتنتهي بالخليل بن أحمد الذي يُعَدُّ قِمَّةَ هذه المرحلة في تحديد الأصولِ العامةِ للبحث النَّحوي، ويُلْحَظُ فيها تجرُّدُ التفكيرِ النحويّ مِن التأثُّر بالمنطقِ الأرسطيِّ، إذ اعتمدت الثقافةُ العربيَّةُ عمومًا، والنحوُ العربيُّ خصوصًا، على النُّصوص المتواترة المنقولة -لا سيما النص القرآني- والمنطقِ العقليّ (لا المنطق الأرسطي)؛ ذلك المنطق الذي منحه اللهُ العربَ واليونانَ وسائرَ الأممِ والشُّعوبِ،

---

(١) دور النحو في العلوم الشرعية، ص٢٧٧.

(٢) السابق، ص٢٩٢.

(٣) السابق، ص٢٩٩.

(٤) هو الدكتور علي أبو المكارم في كتابِه (تقويم الفكر النحوي)، ص٦٨ وما بعدها.

والذي يعتمدُ على قوانين العقل البشري الطبيعية، التي لا تحتاج إلى برهان أو دليل لإثبات صدقها. وقد أَثْمَرَ ذلك أَوّلَ مَا أَثْمَرَ في جهود الأصوليين مِن الفقهاء: استدلالاً وقياسًا وتعليلًا، ثم لم يلبث أنْ تبعهم النحاةُ في استنباطِ أصولهم النحويَّةِ المختلفة، معتمدين كذلك على التفكير المنطقي، الذي لا ينحصرُ فيما يُنْسَبُ لأرسطو مِن منطقٍ؛ وإنما هو المنطق بمعناه الطبيعي الشامل.

وأكبرُ دليلٍ على أنَّ النُّحاةَ الأوائل قد بنوا في هذه المرحلة أصولَهم ومفاهيمَهم على اعتباراتٍ لُغَويَّةٍ خالصةٍ دون التأثُّر بمنطق أرسطو، هو أنَّهم لم يتطرقوا في مؤلَّفاتِهم إلى الحدود والتقسيمات المنطقيَّة، وإنما كان تصنيفُهم لأنواع الكلم منصبًّا على خصائصِها اللغويَّة خاصة، غير آبهين إلى طرائق المنطقيين في الحدود[1].

**أمَّا المرحلة الثانية** فهي المرحلة التي تسرَّبت فيها ثقافة اليونان المختلفة إلى العرب، عن طريق حركة الترجمة النشطة التي ازدهرت في عهد الخليفة العبَّاسي المأمون (١٩٨-٢١٨هـ)، الذي كانَ يميلُ في فكرِه إلى الاعتزال، والتعرُّف على ثقافات الآخر، فأسَّس (بيت الحكمة) الذي كان يُعَدُّ آنذاك المظلَّةَ الشرعيَّة لكنوز الفكر اليوناني مترجمةً إلى العربيَّةِ، واختلفَت حينها فئات المجتمعِ الإسلاميّ في تقبُّل هذا الفكر الجديد الوافد إليهم والتأثُّر به، وكانَ النُّحاةُ آخرَ المتأثرين به، بل إنَّ تأثُّرَهم به في تلك المرحلةِ بدا خافتًا غيرَ ملحوظٍ قرابةَ قرنٍ ونصفِ قرنٍ، إلى أنْ توسَّعَ بعضَ الشيء في نهاية القرن الثالث الهجريّ وبدايات القرن الرابع على يدِ النُّحاةِ المتكلّمين، مِن أمثال: ابن السرَّاج، والرُّمَّاني، والفارسي، وابن جني،

---

(١) انظر: أصول النحو، دراسة في فكر الأنباري، ص١٢٨-١٢٩.

والشَّجري، ثم استمرَّ هذا التأثير لدى النُّحاةِ المتأخّرين كابن الحاجب، والجُزولي، وابن مالك، وابن يعيش، وأبي حيان، والرضيّ، والأشموني وغيرهم[١].

والمتتبع لآثارِ نُحاةِ هذه المرحلة يستطيعُ أن يرصدَ بوضوحٍ آثار المنطق اليوناني في أكثر مِن مجالٍ؛ بدءًا مِن مجال الحدود والتعريفاتِ المنطقيَّة[٢]، واعتمادِ النُّحاةِ في عرضهم لمسائل النحوِ وأصولِه على تلك القسمةِ العقليَّة، التي قد يكونُ فيها أحدُ طرفي القسمة لا وجود له في الواقعِ النحوي[٣]، ومرورًا باستخدامِ عددٍ مِن مصطلحات المنطقِ في الأصول النحويَّة، كمصطلحات: الدَّوْر، والدَّفع، والطَّرد، والعكس[٤]، وانتهاءً بتتبعِ مناهج المنطق وقضاياه في القياس والعلة النحويَّة.

جديرٌ بالذكرِ أنَّ بعضَ الباحثين ارتضى تقسيمَ هذه المرحلةِ الثانية إلى مرحلتَيْن منفصلتَيْن، هما:

أ. مرحلة أولى تمتدُّ قرابة قرنٍ ونصفِ قرنٍ؛ حيث تبدأ بتلاميذِ الخليلِ ابن أحمد، وتنتهي بالزجَّاج. ويرى فيها تأثُّرَ النُّحاة وأصولهم بهذا البناء المنطقي الذي تجسَّدَ في مجالات ثلاثة:
   - أولها: بعض الأقيسة.
   - وثانيها: بعض الحدود.
   - وثالثها: بعض التعليلات[٥].

---

(١) انظر: تقويم الفكر النحوي، ص٧٨ وما بعدها؛ والأصول، دراسة إبستيمولوجية، ص٤٤-٥٣؛ وأصول النحو، دراسة في فكر الأنباري، ص١٣٦.

(٢) انظر ذلك تفصيلاً في: النحو العربي والدرس الحديث: بحثٌ في المنهج، ص٦٩-١٠٥.

(٣) انظر: الأصول، دراسة إبستيمولوجية، ص٥٣.

(٤) انظر ذلك تفصيلاً في القسم الرابع مِن: مصطلحات علم أصول النحو: دراسة وكشَّاف معجمي، ص٨٥-١٢٠.

(٥) تقويم الفكر النحوي، ص٧٨-٨٣.

ب. مرحلة ثانية تبدأ مِن ابن السرَّاجِ وكتابه (الأصول)، وتمتدُّ عبر القرون التالية حتى العصر الحديث، ولعلَّ أبرز سماتها التبعيَّة الكاملة للمنطق، سواءٌ كان في المنهج الكلّي الذي تتبعه المباحثُ النحوية، أو في التفاصيل الجزئية التي يتفرع إليها هذا المنهج، أو في تلك النظرة الشاملة التي يصدر عنها المنهج والتفاصيل جميعًا. ويرى فيها أنَّ تبعيَّة التفكيرِ النحويّ للمنطق الإغريقي في خمسة مجالات، هي:

- أولاً: القياس.
- ثانيًا: التعليل.
- ثالثًا: التعريف.
- رابعًا: طرد الأحكام.
- خامسًا: التأليف[1].

**٢/٢آراء القدماء والمعاصرين**

رغم ما يبدو ظاهرًا مِن رفضِ القدماء لتدخُّل (المنطق اليونانيّ) في أصول التفكير النحويّ، مِن خلال ما وصلَ إلينا مِن كلامِهم ومناظراتهم الرافضة لهذه الهيمنة المنطقية الأرسطية؛ فإنَّنا نجد فريقًا آخرَ يتأثر بالمناطقة ويخضعُ لسيطرتهم ويسلك مسلكَهم، لا سيَّما في باب الحدودِ الذي هو مِن الأُسسِ الأولى التي يقوم عليها المنطقُ.

بل يمكنُ القول إنَّ النُّحاةَ أنفسَهم الذين نادوا بهذا الرفض بين النحو والمنطق قد تأثَّروا -كذلك- عن قصدٍ أو غيرِ قصدٍ بأدواتِ المنطق الأرسطيِّ وحدوده في مؤلَّفاتهم النحويَّةِ المختلفةِ[2].

---

(١) تقويم الفكر النحوي ، ص٩٢-١٠٥.

(٢) لعلَّ ذلك يرجعُ إلى انصهار الفكر اليوناني في فترات متأخّرة داخلَ المجتمعِ العربيّ، وبذلك كان من السهل الخلط بين خصائص المنطق الإغريقي والخصائص الذاتية للفكر العربي المنبثق من خلال هذا المنهج الإسلامي القويم.

إنَّ هذا الرفض يتجلَّى لنا في مواقفَ شهيرةٍ وأقوالٍ مأثورةٍ، مثل:

- المناظرة الطويلة التي دارت بين أبي سعيد السّيرافي النحويّ (ت٣٦٨هـ) وأبي بشر متَّى بن يونس المنطقي (ت٣٢٨هـ)؛ وفيها رفضَ السيرافيُّ أنْ يكونَ المنطقُ قياسًا صالحًا للاستخدامِ في العلومِ كَافَّةً وعلى رأسِها النحو، ويقرّر أنَّ النحوَ العربيَّ له منطقُه الداخليُّ الذي ينطلقُ وفقَ معطياتِه اللغوية ومستوياتِه التعبيرية، وهو غيرُ المنطقِ الذي قامت عليه اليونانية. يقول السيرافي في أثنائها: «والنحوُ منطقٌ، ولكنّه مسلوخٌ عنِ العربيّةِ. والمنطقُ نحوٌ، ولكنّه مفهومٌ باللغة، وإنما الخلافُ بين اللفظِ والمعنى أنَّ اللفظَ طبيعيٌّ، والمعنى عقليٌّ»(١).
- إشارة أبي القاسم الزجَّاجي (ت٣٣٧هـ) في كتابِه (الإيضاح في علل النحو)، والتي تدلُّ على الشعور الواضح بالفرقِ بين النحو والمنطق، وعلى موقفِ النُّحاةِ الرافضِ لتيار المنطق. قال بعد أن ذكرَ حدَّ الاسم: «وإنما قلنا في كلامِ العربِ لأنَّا له نقصدُ وعليه نتكلمُ، ولأن المنطقيين وبعض النحويين قد حدوه حدًّا خارجًا عن أوضاعِ النَّحوِ، فقالوا: الاسم صوتٌ موضوعٌ دال باتفاقٍ على معنى غير مقرونٍ بزمانٍ. وليس هذا مِن ألفاظ النحويين ولا أوضاعهم، وإنما هو مِن كلام المنطقيين وإن كان تعلَّقَ به جماعةٌ مِن النحويين. وهو صحيحٌ على أوضاعِ المنطقيين ومذهبهم لأنَّ غرضَهم غير غرضنا، ومغزاهم غير مغزانا، وهو عندنا على أوضاعِ النحو غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ مِن الحروفِ مَا يدلُّ على معنى دلالة غير مقرونٍ بزمانٍ، نحو: (إن) و(لكن) ومَا أشبه ذلك»(٢).
- هجوم أبي عليّ الفارسي (ت٣٣٧هـ) على عليّ بن عيسى الرُّمَّاني

---

(١) المقابسات، ص٧٥. وانظر أيضًا: الإمتاع والمؤانسة، ص٨٦.

(٢) الإيضاح في علل النحو، ص٤٨.

(ت٣٨٤هـ) لمُغالاتِه في اتباعِ المنطق، حتى إنَّه كان يمزجُ النَّحوَ بالمنطق، يقول الفارسيُّ: «إنْ كان النحوُ مَا يقولُه الرُّمانيُّ فليس معنا منه شيءٌ؛ وإنْ كان النحوُ مَا نقولُه نحن فليس معه منه شيءٌ». ويعقّب السيوطي على كلام أبي علي الفارسي هذا: «قلتُ: النَّحوُ مَا يقولُه الفارسيُّ؛ ومتى عهدَ الناسُ أنَّ النحوَ يُمْزَجُ بالمنطق! وهذه مؤلَّفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومَن بعدهما بدهرٍ لم يُعهد فيه شيءٌ مِن ذلك»[١].

وأبو الحسن الرُّمَّاني معذورٌ في تأثُّره الواضحِ بكلام المناطقة، كيف لا وهو معتزليٌّ تلقَّى النحوَ على يدِ شيخِه أبي بكر بن السرَّاج (ت٣١٦هـ)[٢]، الذي يعدُّ فاتحَ مرحلةٍ جديدةٍ -كما سبق- مِن مراحلِ التأثُّر بالمنطق اليوناني؛ إذ انشغلَ به بعد وفاةِ شيخِه المبرّد، كما يقول النديم والقفطي[٣]، وقد قال أبو عبدالله المرزباني في صفةِ كتابِه **(الأصول)**: «صنَّفَ كتابًا في النحو سمَّاه (الأصول)، انتزعهُ مِن أبوابِ كتاب سيبويه، وجعل أصنافَه بالتقاسيم على لفظِ المنطقيّين، فأُعجب بهذا اللفظِ الفلسفيون»[٤].

**أمَّا المعاصرون** فلم يكن حديثُهم عن تأثير المنطق اليوناني في أصول التفكير النحوي فحسب، بل امتدَّ ليشملَ البدايات الأولى للنحو العربيِّ ومراحل نموّه، وانقسموا في ذلك إلى رأيين اثنين: رأيٌ يرى تأثُّرَ النحو العربي وأصول تفكيرِه الكلية منذ النشأةِ بالمنطق الأرسطي، ورأيٌ يقولُ بهذا التأثُّر لكن في مرحلة متأخرةٍ مِن مراحل التفكير النحويّ، أي بعد أن اكتملت حدودُه ومباحثُه.

---

(١) بغية الوعاة، ١٨١/٢.

(٢) السابق، ١٨٠/٢.

(٣) انظر: الفهرست، ١٨١/١-١٨٢؛ وإنباه الرُّواة، ١٤٨/٣-١٤٩.

(٤) إنباه الرُّواة، ١٤٩/٣.

- **أمَّا الرأي الأوَّلُ** فقد ذهبَ إليه بادئَ الأمرِ بعضٌ مِن المستشرقين، ثم لم يلبث أنْ قال به عددٌ مِن الدارسين العرب. وأوَّلُ مَن ذهب إلى ذلك المستشرق الألماني أدالبير ميركس (Adalbert Merx) (ت١٩٠٩م)، في كتابِه المعنون **(تاريخ صناعة النحو عند السريان)**، والذي أكَّدَ فيه أنَّ النُّحاة العرب لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه مِن نظريّات نحويَّةٍ، ومفاهيم ومصطلحات غاية في النُّضجِ والاكتمال، دون الرصيد المنطقيّ الفلسفيّ الذي مكَّنَ اليونانيين مِن وضع قوانين لغتهم، واستنباط نظرياتِهم النحوية[١].
- كما يرى المستشرق الفرنسي هانري فلايش (H .Fleisch) في كتابٍ ألَّفه في علم اللغة: «أنَّه مِن الواجبِ أنْ نشيرَ إلى تأثيرٍ يونانيّ في النحوِ العربيّ؛ فقد اقتبسَ الفكرُ النحويُّ العربيُّ مفاهيمَ أصيلة مِن العلمِ اليونانيّ، لا مِن النحوِ اليونانيّ، ولكن مِن منطق أرسطو»[٢].
- ودافعَ الدكتور إبراهيم مدكور في مقال له بعنوان: **(منطق أرسطو والنحو العربي)**، عن وجهةِ نظر ميركس –وإنْ لم يُصرّح باسمه– بل كانَ أكثرَ تعصُّبًا مِن المستشرقين أنفسهم في بيان أثر المنطق اليوناني في العلوم العربية الخالصة، وذكرَ أنَّ أثرَه في النحوِ مِن جانبين: أحدهما موضوعي، والآخر منهجي، «فتأثَّرَ النحوُ العربيُّ عن قربٍ أو عن بُعدٍ بما وردَ على لسان أرسطو في كُتبِه المنطقيَّةِ مِن قواعدَ نحويةٍ، وأُريد بالقياسِ النحويّ أنْ يُحدَّدَ ويُوضعَ على نحو ما حُدّدَ القياسُ المنطقيُّ»[٣]. كما حاول الدكتور مدكور

---

(١) نقلاً عن: نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، ص١٢٥؛ وضوابط الفكر النحوي، ٥١/١-٥٢.

(٢) نقلاً عن: نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه، ص١٢٥؛ والمدارس النحوية لخديجة الحديثي، ص٣١.

(٣) منطق أرسطو والنحو العربي، ص٣٣٩.

إيجادَ فرضيةٍ منطقيَّةٍ بين العربية واليونانية في تلك الفترة المبكِّرة للنحوِ العربيِّ، فمِن «بين واضعيه والمشتغلين به مترجمون اتصلوا بالعربِ ونُحاتِهم وعاشوا معهم؛ فيعقوب الرهاويُّ له شأنُه في وضع النحوِ السريانيّ وهو معروفٌ في الأوساطِ العربيَّةِ، وحنين بن إسحق مترجمٌ آخَرُ معاصرٌ للخليل وسيبويه، بل وصديق للخليل... ومِن اليسير أنْ نتصوَّرَ أنَّه تبادل في ما تبادلَ معَ الخليل بعضَ القواعدِ النحويَّةِ، خصوصًا وهو يُعزى إليه أنَّه ترجمَ بعضَ كتب الآجرومية اليونانية، وأتمَّ مع ابنِه إسحاق البقيةَ الباقيةَ مِن كُتب أرسطو المنطقية»[1].

- ويذهبُ الأستاذ أنيس فريحة إلى أنَّ قدامى اللُّغويين قد تأثروا في فلسفتهم النحوية بفلسفة أرسطو، يقول: «وقد تأثَّرَ قُدامى اللغويين بأصول المنطق الإغريقي، وبخاصةٍ بفلسفة أرسطو اللغوية»، ويقول في موضعٍ آخر: «وأنتَ إذا درستَ فلسفةَ النحوِ العربيّ وجدتَ أنَّه لا يخرجُ بجوهرِه عن فلسفة أرسطو في اللغة»[2].
- ويُغرب الدكتور محمد عيد، فيقرِّرُ أنَّ هذه المؤثّرات اليونانية تعودُ إلى مَا قبل زمن الخليلِ بن أحمد، فيذهب إلى أنَّ «كلاًّ مِن عبدالله بن أبي إسحق وعيسى بن عمر كانا مِن الموالي؛ فابن أبي إسحق مولى لآل الحضرميّ، وهم بدورهم موالٍ لبني عبد شمس... وأمَّا الآخر فقد كان مولى لثقيف؛ ولذا سُمّيَ (عيسى بن عمر الثقفي)، بل إنَّ سلسلة النُّحاة مِن عيسى بن عمر إلى أبي الأسود جُلُّها مِن الموالي، فقد توفرت لهم بذلك دواعي الاختلاط

---

(١) منطق أرسطو والنحو العربي، ص٣٤١. وقد تكفَّلَ بالردّ عليه عبدالرحمن الحاج صالح في مقال له بعنوان (النحو العربي ومنطق أرسطو)، نشره بالعدد الأول مِن مجلة كلية الآداب بالجزائر، عام ١٩٦٥م، وصدَّر به كتابه (منطق العرب في علوم اللسان)، ص٣٥-٨٩.

(٢) نحو عربيَّةٍ ميسَّرة، ص٢٣، ٢٤.

بالأجانب والاتصال بهم»، ويضيف أنَّ الحضرمي وعيسى بن عمر قد عاشا في النصف الأول مِن القرن الثاني للهجرة، وهو -على حدّ قولِه- عصر بداية العلوم بمعناها المنتظم، وقد شاعت آنذاك العلومُ الإغريقية، ومنها (المنطق)، بين الدارسين في العربية[١].

- كما يُقرّرُ الدكتور محمود السعران: «أنَّ النحوَ العربيَّ في مراحلِه الأُولى تأثَّرَ شيئًا مِن التأثُّر بمنطق أرسطو»[٢].
- **وأمَّا الرأي الثاني** القائل بتأثيرِ المنطق اليوناني في مراحلَ متأخّرةٍ مِن أصول التفكير النحويّ -وهم جمهرةُ المعاصرين- فقد آمنوا بأنَّ النُّحاة قد تسرَّبَ إلى مؤلَّفاتِهم المنطقُ الأرسطي بدءًا مِن الربعِ الأخير مِن القرن الثالث وبداية القرن الرابع مِن الهجرة، يظهرُ ذلك في كلامِ بعضِ القدماء الرافض لهذا التأثير الأرسطي الجديد، كالسيرافيّ، والزجاجي، وغيرهما، كما يظهر -أيضًا- في تلك الحدود المنطقية، والأدلَّة البرهانية، والمناقشات العِلَليَّة، والمجادلات التي تقوم على أساسِ متطلَّبات العقل لا اللُّغة، والتي اكتظَّت بها مؤلَّفاتُ النُّحاة بدءًا مِن هذه الفترة. ومِن القائلين بذلك:
- الدكتور عبده الراجحي، فقد احتكم إلى الجانبِ التاريخي بادئ الأمرِ فأدَّاه إلى أنَّه لا يمكنُ القطعُ بوجودِ صلةٍ بين النَّحوِ العربيّ والمنطق في المراحل الأولى لتأسيس المنهج، لكنَّ هذا الجانب التاريخي يؤكّدُ في الوقتِ نفسه حقيقة «اتصال النُّحاة بالمنطق منذ القرن الثالث»[٣]. ثم إنَّه لمَّا تناولَ بالمقارنةِ الجوانب التي يمكنُ أنْ يلتقيَ فيها النحوُ العربيُّ بمنطق أرسطو،

---

(١) أصول النحو العربي، ص٧١-٧٢.

(٢) نقلاً عن: المدارس النحوية لخديجة الحديثي، ص٣٢. ولم أقف عليه في (علم اللغة) للسعران.

(٣) النحو العربي والدرس الحديث، ص٦٥.

وهي: (التعريف، والتعليل، وآراء أرسطو في بعض الظواهر اللغوية)؛ وصل في نهاية حديثه عن التعريفِ إلى أنَّ القرنَ الرابعَ يختلفُ اختلافًا كبيرًا، ويؤكّدُ اتصال النُّحاةِ بالمنطقِ الأرسطي، وبمنهجِه في التعريف[1]. كذلك وصلَ في نهاية حديثِه عن التعليل إلى أنَّ للمسلمين اتجاهًا خاصًّا في العلةِ، «لكنَّ ذلك لا يحجبُ حقيقةَ التأثُّر بالتعليل الأرسطي، وليس مهمًّا أنْ يكونَ تعليلُ النُّحاةِ هو هو تعليلُ أرسطو، ولكنَّ المهمَّ أنَّه كان في أيديهم وتحت بصرِهم حين أخذوا يتناولون ظواهرَ اللغةِ ويضعون لها الأحكام»[2].

- الدكتور عبدالقادر المهيري، فقد ذهبَ في كتابِه (نظرات في التراث اللغوي العربي) إلى أنَّه «إنْ وجدَ المنطقُ إلى النحو سبيلًا بمقولاتِه ومبادئه وفرضياته فليس ذلك في عهد نشأتِه، وإنما ابتداءً مِن القرنِ الثالثِ حين أصبحَ النحوُ ميدانَ مناقشاتٍ لا حدَّ لها، ومجادلاتٍ هدفها الإقناع على أساس متطلبات العقل لا على أساس مقتضياتِ اللغة»، مقرّرًا أنَّ كلَّ مَن اطَّلعَ وتمعَّنَ في كتب الأصولِ النحويَّةِ سوف يصلُ إلى قناعةِ أنَّها لا تخلو مِن الطابع المنطقي[3].

- الدكتور تمَّام حسَّان، فقد ذهب في كتابه (الأصول) إلى أنَّ النَّحوَ العربيَّ كانَ خاليًا من آثار الفكر اليونانيِّ طوالَ قرنين مِن الزمان، «فلم يكن يتعاطاه النُّحاةُ مِن قبل؛ مما يشير إلى أنَّ نشأةَ النحو العربي لم تعرف المؤثّرات اليونانية»، كما قرَّرَ أنَّ النُّحاةَ بدأوا يخالطون الفكر اليوناني، ويشتدُّ ساعدهم

---

(١) النحو العربي والدرس الحديث، ص٧٤.

(٢) السابق، ص٨٨.

(٣) نظراتٌ في التراث اللغوي العربي، ص٩٢.

لاستيعابِه في ظلّ جهود الترجمة التي بدأت في عصر الخليفة العبَّاسي المأمون[1].

(١) انظر: الأصول: دراسة إبستيمولوجية، ص٥٢-٥٣.

## الخاتمة

توقَّفَ البحثُ عند رافدَيْنِ اثنين مِن روافد أصول التفكيرِ النحويّ، أحدهما إسلاميٌّ الصبغةِ، وهو أصول الفقه، والآخر رافدٌ أوجدته ثقافةُ الانفتاح على معارف الآخر، وهو المنطقُ اليوناني، لكنَّ ثمةَ روافدَ أخرى أَثْرَت وأثَّرت في هذا الجانب المعرفيّ المضيء في علومِ اللغةِ، يضيقُ المقامُ للحديثِ عنها، مثل: علم الحديث، والرجال، وأصول الكلام. ولقد استقرَّ في يقينِ الباحث عددٌ مِن النتائج يختمُ بها البحث، وهي:

لا يُنكر أحدٌ التّلاقحَ بين العلومِ بعضِها ببعض، وواحدةٌ مِن السُّنن الكونيَّةِ أن يتأثر حديثُ العهدِ بقديمِه، خصوصًا إذا كانا صَادرَيْن مِن مشكاةٍ ومنهجٍ واحدٍ وهو المنهج الإسلاميُّ الخالص؛ فإنَّ الأصوليين والنُّحاةَ قد جمعتهم ثقافة عربية واحدةٌ، ومجتمعٌ إسلاميٌّ واحدٌ. ومع ذلك فإنَّه ينبغي الإقرارُ بأنَّ ثمةَ خصوصيَّةً لكلّ علم تتمثلُ في مادته ومباحثِه وقضاياه وطرق التناول.

كما أنَّ النُّحاةَ لم ينكروا أثرَ الفقهِ وأصولِه في أصول التفكير النحويّ، لم ينكر الفقهاءُ والأصوليون أنفسُهم ما للعربيَّة (النحو) مِن أهميةٍ؛ إذ إنَّ مدار بحوثهم متوقفٌ على الأحكام الفقهية المستنبطة مِن مصدري التشريع: القرآن والسُّنة، ولا يمكنُ فهم ذلك إلا بإتقان العربيَّة وسَبْر دقائقها، ومِن ثمَّ فهي فرضُ عين على المجتهد، لا يصحُّ اجتهادُه إلا بها[1].

لعلَّ سببًا مِن أسبابِ هذا التناقضِ الملحوظ عند نُحاةِ القرنِ الرابع الذين نادوا برفض هيمنة المنطق الأرسطي وتدخلِه في مباحث النحو، وقد وقعوا هم أنفسهم في تلك الهيمنة في مؤلَّفاتِهم النحويَّةِ؛ راجعٌ إلى أنَّ الثقافةَ العربية لم تلبث أن امتصَّت هذا الرافد اليوناني الجديد، بل جعلته أساسًا للخلق والابتكار

---

(١) انظر كلام الشاطبي في: الموافقات، ٢٥/٥.

والسعي في دروبٍ لم تَطَأْهَا مِن قبل قدمٌ يونانيّةٌ؛ فأصبح بعد ذلك التطبُّعِ جزءًا مِن هذا الفكر العربي الأصيل، وليس غريبًا عنه أو وافدًا عليه؛ وبذلك كان مِن السهل الخلط بين خصائص المنطق الإغريقي والخصائص الذاتية للفكر العربي المنبثق من خلال هذا المنهج الإسلامي القويم.

مِن الظُّلم بمكانٍ الربطُ المبكّر بين النَّحوِ العربيّ في مراحل نشأتِه الأولى، وبين المنطق الأرسطي؛ وذلك لاعتبارين: تاريخي، ومنهجي. أمَّا الجانب التاريخي فليس لدينا دليلٌ قاطع بمعرفةِ النُّحاة الأوائل واتصالهم بالمنطق الأرسطي، بل إنَّ الخليل بن أحمد لمَّا سألَه أحدهم عن العلل التي يعتلُّ بها في النحو، فقيل له: عن العربِ أخذتَها أم اخترعتها مِن نفسك؟ أجاب: «إن العربَ نطقت على سجيَّتها وطباعِها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتللتُ أنا بما عندي أنَّه علةٌ لما عللتُه منه»[1]. فلم يسأله السائل: عن أيّ قومٍ أخذتها: أعن العرب أم السريان أم اليونان؟ فدلَّ ذلك على عدم تسرُّب الثقافات الأخرى لديهم في تلك الفترة. وأمَّا الجانب التاريخي فلأنَّ منطق أرسطو ينصبُّ اهتمامُه بالصورةِ أكثر مِن المادة، بينما يركّزُ درسُ اللغةِ على المادةِ لا على الصورة، ولو كانَ ثمَّة تأثيرٌ مِن المنطق اليوناني على النحو في تلك المرحلة المبكّرة لابتعدَ النحوُ العربيُّ عن درسِ الواقع اللغويّ، وهذا ما لم نجده في تلك المرحلة.

لا يمكنُ إنكارُ أوجهِ التشابه بين وظائف المنطق اليوناني وأصول التفكير النحويّ، فكما أنَّ وظيفة الأوَّل تتلخصُ في:

١- وضع القوانين العامة التي يعملُ الفكرُ بمقتضاها.

---

(١) الإيضاح في علل النحو، ص٦٥-٦٦.

٢- تبيين مواطن الزلل في التفكير وأنواع الخطأ وأسبابه.
٣- وصف الطرق المؤدية إلى العلم الصحيح في كلّ نوعٍ مِن أنواع العلم[١].

فكذلك هي وظيفة أصول النَّحو العربي بأدلَّتِه الكلية التي تتفرَّع عنها فروعُه وفصولُه، وبفائدته التي حدَّدها الأنباريُّ في «التعويل في إثبات الحُكم على الحُجَّةِ والتعليلِ، والارتفاع مِن حضيضِ التقليد إلى يفاعِ الاطلاع على الدليل»[٢].

لعلَّ التشابهَ الشكليَّ لبعض الأصول النحويَّةِ مع أصول المنطق اليوناني، أغرى بعضَ الباحثين إلى القولِ بتبعيَّةِ أصول التفكير النحويّ له، فكما أنَّه يوجدُ في الأصول النحوية قياس يوجدُ -أيضًا- في المنطق قياس، وكما يوجد في الأصول تعليلٌ يوجدُ -أيضًا- في المنطق تعليلٌ، وكما يوجدُ في الأصول حدودٌ يوجدُ -أيضًا- في المنطق حدودٌ.

---

(١) انظر: النزعة المنطقية في النحو العربي، ص٢١.
(٢) لمع الأدلة في أصول النحو، ص٨٥.

## المصادر والمراجع


١. **الإحكام في أصول الأحكام:** سيف الدين علي بن محمد الآمدي (ت٦٣١هـ)، تحقيق: عبدالرزاق عفيفي. الرياض: دار الصميعي، ط١. ٢٠٠٣م.

٢. **الإصباح في شرح الاقتراح:** محمود فجَّال. دمشق: دار القلم، ط١. ١٩٨٩م.

٣. **الأصول:** دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب (النحو-فقه اللغة-البلاغة): تمَّام حسَّان. القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٤م.

٤. **أصول السرخسي:** أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت٤٨٣هـ)، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني. بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥م.

٥. **أصول النحو:** دراسة في فكر الأنباري: محمد سالم صالح. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١. ٢٠٠٦م.

٦. **أصول النحو العربي:** محمد عيد. القاهرة: عالم الكتب، ط٥. ٢٠٠٦م.

٧. **أصول النحو العربي:** محمود أحمد نحلة. بيروت: دار العلوم العربية، ط١. ١٩٨٧م.

٨. **أصول النحو في الخصائص لابن جني:** محمد إبراهيم خليفة. ماجستير دار العلوم، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٢م.

٩. **إعلام الموقعين عن رب العالمين:** ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، تحقيق: مشهور حسن. السعودية: دار ابن الجوزي، ط١. ١٤٢٣هـ.

١٠. **الإغراب في جدل الإعراب** (الرسالة الأولى من: رسالتان لابن الأنباري): أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري (ت٥٧٧هـ). تحقيق: سعيد الأفغاني. دمشق: مطبعة الجامعة السورية، ١٩٥٧م.

١١. **الاقتراح في علم أصول النحو:** جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمود سليمان ياقوت. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط١. ٢٠٠٦م.

١٢. **الإمتاع والمؤانسة:** أبو حيَّان علي بن محمد التوحيدي (ت٤٠٠هـ تقريبًا)، تصحيح: خليل المنصور. بيروت: دار الكتب العلمية، ط١. ١٩٩٧م.
١٣. **إنباه الرواة على أنباه النحاة:** جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢. ٢٠٠٥م.
١٤. **الإيضاح في علل النحو:** عبدالرحمن بن إسحق الزجاجي (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: مازن المبارك. بيروت: دار النفائس، ط٣. ١٩٧٩م.
١٥. **البحر المحيط في أصول الفقه:** محمد بن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: عمر سليمان الأشقر. الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط٢. ١٩٩٢م.
١٦. **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة:** جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية. د.ت.
١٧. **التبصرة في أصول الفقه:** أبو إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، تحقيق: محمد حسن هيتو. دمشق: دار الفكر، ط٢. ١٩٨٣م.
١٨. **تقويم الفكر النحوي:** علي أبو المكارم. بيروت: دار الثقافة. د.ت.
١٩. جمع الجوامع في أصول الفقه: عبدالوهاب بن علي السبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق: عبدالمنعم خليل إبراهيم. بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢. ٢٠٠٣م.
٢٠. **الخصائص:** أبو الفتح عثمان بن جنّي (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤. ١٩٩٩م.

٢١. دراسة تاريخية للفقه وأصوله والاتجاهات التي ظهرت فيهما: مصطفى سعيد الخن. دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، ط١. ١٩٨٤م.
٢٢. **دور النحو في العلوم الشرعية:** جمال عبدالعزيز أحمد. ماجستير دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨٩م.
٢٣. **رأيٌ في أصول النّحو وصلته بأصول الفقه:** مصطفى جمال الدين. مقال بدورية (تراثنا)، الصادرة عن مؤسسة آل البيت الأردنية لإحياء التراث. العدد الخامس عشر (السنة الرابعة)، ١٤٠٩هـ.
٢٤. **الرسالة:** محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر. بيروت: دار الكتب العلمية (طبعة مصوَّرة). د.ت.
٢٥. **شرح اللمع في أصول الفقه:** أبو إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، تحقيق: عبدالمجيد تركي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١. ١٩٨٨م.
٢٦. **طبقات فحول الشعراء:** محمد بن سلاَّم الجمحي (ت٢٣١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني، د.ت.
٢٧. **ضوابط التفكير النحوي:** دراسة تحليلية للأسس الكلية التي بنى عليها النحاةُ آراءهم: محمد عبدالفتاح الخطيب. القاهرة: دار البصائر، ط١. ٢٠٠٦م.
٢٨. **ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم:** أحمد سليمان ياقوت. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤م.
٢٩. **علم اللغة:** مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران. القاهرة: دار النهضة العربية، د.ت.
٣٠. **الفهرست:** محمد بن أبي يعقوب إسحق، النديم (ت٣٨٠هـ)، تحقيق: أيمن فؤاد سيد. لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ط١. ٢٠٠٩م.

٣١. **في أصول النَّحو:** سعيد الأفغاني. دمشق: مطبعة الجامعة السورية، ط٣. ١٩٦٤م.
٣٢. **فيض نشر الانشراح مِن روض طيّ الاقتراح:** محمد بن الطيب الفاسي (ت١١٧٠هـ)، تحقيق: محمود يوسف فجال. دبي: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ط٢. ٢٠٠٢م.
٣٣. **قواطع الأدلَّةِ في أصول الفقه:** أبو المظفَّر منصور بن محمد بن عبدالجبَّار السمعاني (ت٤٨٩هـ)، تحقيق: عبدالله حافظ الحكمي. الرياض: مكتبة التوبة، ط١. ١٩٩٨م.
٣٤. **قياس العكس في الجدل النحوي:** محمد علي العمري. الرياض: جامعة الملك سعود (كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية)، ط١. ٢٠١٤م.
٣٥. **القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة:** محمد عاشور السويح. ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط١. ١٩٨٦م.
٣٦. **الكامل في اللغة والأدب:** محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أحمد الدالي. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣. ١٩٩٧م.
٣٧. **لمع الأدلة في أصول النحو:** أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: أحمد عبدالباسط. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١. ٢٠١٨م.
٣٨. **اللمع في أصول الفقه:** أبو إسحق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، تحقيق: محيي الدين ديب، ويوسف علي بديوي. دمشق: دار الكلم الطيب، ودار ابن كثير، ط١. ١٩٩٥م.
٣٩. **مبادئ الوصول إلى علم الأصول:** جمال الدين الحسن بن يوسف (ت٧٢٦هـ)، تحقيق: عبد الحسين محمد البقال. بيروت: دار الأضواء، ط٢. ١٩٨٦م.

٤٠. **المدارس النحوية:** خديجة الحديثي. الأردن: دار الأمل، ط٣. ٢٠٠١م.
٤١. **مسند الإمام أحمد بن حنبل** (ت٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١. ١٩٩٥م.
٤٢. **مصطلحات علم أصول النحو، دراسة وكشاف معجمي:** أشرف ماهر النواجي. القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر. ٢٠٠١م.
٤٣. **المصطلح النحوي:** نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: عوض القوزي. الرياض: جامعة الرياض (عمادة شؤون المكتبات)، ط١. ١٩٨١م.
٤٤. **المقابسات:** أبو حيَّان علي بن محمد التوحيدي (ت٤٠٠هـ تقريبًا)، تحقيق: حسن السندوبي. القاهرة: دار سعاد الصباح، ط٢. ١٩٩٢م.
٤٥. منطق أرسطو والنحو العربي: إبراهيم بيومي مدكور. مقال بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج٧، ١٩٥٣م.
٤٦. **منطق العرب في علوم اللسان:** عبدالرحمن الحاج صالح. الجزائر: موفم للنشر، ٢٠١٢م.
٤٧. **الموافقات:** إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت٧٩٠هـ)، تحقيق: مشهور حسن. السعودية: دار ابن عفان، ط١. ١٩٩٧م.
٤٨. **الموطأ:** مالك بن أنس (ت١٧٩هـ)، رواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق: بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢. ١٩٩٧م.
٤٩. **النحو العربي والدرس الحديث:** بحث في المنهج: عبده الراجحي. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م.
٥٠. **نحو عربيَّةٍ ميسَّرة:** أنيس فريحة. بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٥م.

٥١. **النزعة المنطقية في النحو العربي:** فتحي عبدالفتاح الدجني. الكويت: وكالة المطبوعات، ط١. ١٩٨٢م.
٥٢. **نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء:** أبو البركات عبدالرحمن بن محمد الأنباري (ت٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٨م.
٥٣. **نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه:** المستشرق الفرنسي جيرار تروبو. مقال بمجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع١. ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨.
٥٤. **نظرات في التراث اللغوي العربي:** عبدالقادر المهيري. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١. ١٩٩٣م.
٥٥. **هذا النحو:** أمين الخولي. بحثٌ بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة. المجلد السابع، عدد يوليو ١٩٤٤م.
٥٦. **الوجيز في أصول الفقه:** عبدالكريم زيدان. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧م.

# تحديات الهوية اللّغوية العربية في ظلّ العولمة والتعدد اللّغوي

الدكتور رضا عامر

جامعة ميلة، الجزائر

الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٥ نيسان ٢٠١٨م

## الملخص

تعدّ الهوية اللّغوية العربية من أهم الركائز القومية التي تحفظ للفرد العربي قيمته وانتماءه الجغرافي والديني والثقافي للحضارة العربية الإسلامية، والشيء اللافت للنظر في الوقت الراهن هو تلك التحديات العاصفة التي تحاول خلخلة ثوابت الهوية اللّغوية العربية بتغييب اللّغة العربية الفصحى، ومحاصرة مجالات استعمالاتها وذلك باعتماد اللّغات العالمية، وخاصة اللّغة الإنجليزية، بدعوى مسايرة العولمة.

لذا كان من اللازم على الدول العربية التكاتف والتضامن اللغوي لأجل حماية الهوية اللّغوية العربية ووضع إستراتيجية لمسايرتها عصر العولمة في آن واحد، وهذا لكون معجمها اللغوي واحداً، وطموحها للعالمية حق مشروع في ظل التحدي اللغوي العالمي بين لغات العالم.

## Summary

The Arab linguistic identity is one of the most important national pillars, which preserves the value of the Arab individual and the geographical, religious and cultural affiliation of the Arab and Islamic civilization. The most striking thing at this time is the stormy challenges that are trying to break down the Arabic linguistic identity. International languages, especially English, in order to keep pace with globalization.

Therefore, it was necessary for the Arab countries to unite and linguistic solidarity in order to protect the Arabic linguistic identity and develop a strategy to follow it in the era of globalization at the same time. This is because its linguistic dictionary is one and its aspiration for universality is a legitimate right in light of the world linguistic challenge.

**مدخل:**

تمثل اللّغة أحد أهم عناصر (**الهوية الإنسانية**) لأيّ شعب أو دولة، ومما لا شك فيه أن العالم اليوم يشهد تحديات لغوية متعددة، كتلك التي تواجهها اللغة العربية –لغة القرآن الكريم– من أجل الحفاظ على مكانتها في ظل الانتشار الكاسح لبعض اللغات كالإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية، ومن هذا المنطلق ستتناول هذه الدراسة الموسومة بـ: "**تحديات الهوية اللّغوية العربية في ظلّ العولمة والتعدد اللّغوي**" واقع اللّغة العربية والتحديات التي تمارسها بين الانتماء إلى أصالتها المتوارثة والتكيف مع اللغات المهيمنة في العالم وبخاصة اللّغة الإنجليزية، التي زاد إقبال العرب على دراستها وإتقانها كلغة ثانية أو بديلة عن اللغة العربية خاصة عند النخبة العربية التي باتت تفتخر بالانتماء الثقافي واللّغوي للهوية الإنجليزية، بل إن هناك من العرب الذين تخلوا عن لغتهم، وغيبوها عن موضوعات العلوم والحضارة، واستخدموا بدلاً منها لغة المستعمر لا سيما في المجالات العلمية كالطب والهندسة والعلوم والرياضيات.

بل لقد اغتربت العربية في أوطانها، وصارت تهجن بلغات المستعمر كالفرنسية والإنجليزية عبر لغة التعاملات اليومية، التي يتواصل بها العام والخاص، الأمي والمثقف، حتى انحسر استعمال اللّغة العربية الفصحى وصار التعليم العام من أول مراحله يستخدم الإنجليزية في المشرق العربي والفرنسية في بلدان المغرب العربي بشكل جلي وظاهر، مما جعل أجيال الأمة العربية والإسلامية تتخبط في **ازدواجية التعلم اللّغوي** في مراحل مبكرة من التعلّم، وهذا كلّه سعياً للالتحاق بالركب الحضاري العلمي والثقافي، ولكن هذا لن يكون على **حساب الأجيال وهويتهم وأصالة اللّغة العربية** وعلاقتها بمقومات المجتمع العربي.

أ. **مشكلة البحث:**

يتضمن البحث المشار إليه سلفاً جملة من الإشكاليات التي تفرض الخوض في عملية المساءلة المعرفية والعلمية، والتمكن من إيجاد الحلول الناجعة التي تساهم في عملية تذليل الصعوبات والتحديات التي تواجه الهوية اللّغوية العربية في كامل دول العالم العربي، ومن بينها الجزائر، ومن ثم محاولة ترسيخ معالم وأطر هذه الهوية كمبدأ وثابت من ثوابت الهوية العامة للمجتمع الجزائري الذي بات من الصعب الإمساك فيه على اللغة العربية كلغة واحدة للتخاطب والتواصل المعرفي والفكري، نظراً للتداخل اللّغوي الحاصل بين هذه اللّغة الرسمية واللّغة العامية التي أصبحت أكثر قرباً وتداخلاً مع اللّغة الفرنسية التي اكتسحت مصطلحاتها لغة التواصل الاجتماعي، ولغة التعليم في المدارس والجامعات، إذ حلت محل اللغة العربية في الكثير من الفروع خاصة العلمية منها، ما أدى إلى انحسار رقعة التعامل باللغة العربية الفصحى وتغييبها، إذ انحصر استعمالها فقط في إقامة المشاعر الدينية، أو بعض البرامج الإخبارية أو في الصحافة المكتوبة.

وعليه؛ يسعى البحث إلى وضع مجموعة من الإشكاليات، بحثاً عن حلول دقيقة وآنية من خلال هذه الدراسة، وهي:

- إشكالية رصد واقع الهوية للّغة العربية وتحديد أطرها الخاصة والعامة في المجتمع العربي.
- إشكالية تداخل اللّغة العربية مع اللّغة الفرنسية في إطار التبادل العلمي والثقافي، مثلاً بين الجزائر والدول الفرنكوفونية، والخوف من التماهي اللغوي بين اللغتين العربية والفرنسية.
- إشكالية حفاظ الهوية اللّغوية العربية على مقومات المجتمع العربي الثقافية والدينية والاجتماعية، من دون الانقطاع عن الركب الحضاري والتقدم العلمي والمعرفي الكاسح.

- إشكالية عدم وجود إستراتيجية مؤسسة وشاملة مستندة إلى قوانين سياسية لمنع المساس بقدسية اللّغة العربية وفرضها كلغة للتواصل المعرفي، من أجل الحفاظ على هوية اللّغة العربية في الوطن العربي الكبير.

ولما كانت اللّغة العربية عبر نسق التاريخ، هي الوسيلة الفعالة لمواجهة التغيرات والتحولات من أجل بناء أفراد الأمة لمواجهة جميع التغيرات، وتحولاتها الاجتماعية وإعدادهم، وبلورة اتجاهاتهم وتكييف ممارساتهم بما يخدم مصلحة الأمة ويحافظ على بقائها واستمرارية نموها فإن الحاجة تبدو ماسة للحفاظ على هوية اللّغة العربية من أجل مجابهة "**تحديات العولمة والتعدد اللّغوي**" من جهة والإفادة منها من جهة أخرى، من خلال إقامة استراتيجية لغوية تستطيع صناعة مستقبل تعليمي يحمي هويتنا ولغتنا العربية في ظلّ التحديات المتنوعة، وعليه يمكن تحديد مشكلة البحث في السؤال الآتي: **(ما تأثير العولمة والتعدد اللّغوي على مستقبل هوية اللغة العربية؟)**.

**ب. أهداف البحث: يستهدف البحث الآتي:**

- **أهداف علمية:**

١- تقويم طرق تعليم اللّغة العربية في مختلف مراحل تعليمها وتلقينها للأجيال الصاعدة من خلال تتبع مسارات التعليم وحماية متعلميها من خطر الازدواج اللّغوي خاصة اللّغة الفرنسية التي غزت ثقافة التواصل عند المنتسبين للغة العربية.

٢- وضع برامج ومقررات تعليمية لترسيخ مبدأ الاعتزاز بالهوية اللّغوية العربية في ظل تزايد التوسع الفرنكوفوني في دول المغرب العربي من جهة، والتوسع الأنجلوسكسوني في دول المشرق العربي من جهة ثانية من

خلال المدارس الأمريكية والبريطانية الحرّة التي تسعى إلى غزو البلدان العربية من أجل تقزيم دور اللّغة العربية كلغة تعلم وفكر وتنوير شاملة.

٣- تبني منهجية سليمة لحماية اللغة العربية من الضياع، وهذا من خلال إنشاء وزارة التخطيط اللّغوي، وتدعيم المجامع اللغوية، وإعادة تفعيل دورها من خلال جامعة الدول العربية، والتنسيق اللغوي فيما بينها وضرورة سنّ قوانين وتشريعات لغوية تحمي هويتنا اللغوية ومعاقبة من يتعدى عليها لسانياً **(مشافهة/ كتابة/ ترجمة)** دون علم من هيئات لغوية رسمية تقوم على السهر الدائم على حمايتها من كل أساليب الاعتداء اللساني.

**ج. الدّراسات السابقة (جهود الأفراد والمؤسسات):**

عموماً لقد استفاد البحث الحالي من هذه الدّراسات في وضع الإطار النظري للبحث، والمتعلق بمناهج تعليمية اللّغة العربية، وإشكالية العولمة، وذلك بوضع المحددات والتوجهات الرئيسية في تحقيق التوازن الفكري بين أصالتنا والغزو الثقافي القادم عن طريق العولمة، وفي هذا الجزء من البحث سوف يتم استعراض بعض الدّراسات والبحوث التي لها ارتباط مباشر بموضوع البحث، وهذه الدّراسات السابقة هي:

أ. الهاشمي (٢٠١٠م): وعنوانها **(دور منهاج اللّغة العربية في الحفاظ على الهوية العربية).**

ب. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة: مؤتمر «**اللغة العربية ومواكبة العصر**»: كلية اللغة العربية – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في ١٧-١٤٣٣/٥/١٩هـ - ٩-٢٠١٢/٤/١١م.

ج. مؤتمر **(العربية وهوية الأمة)** في الفترة ١٤٣٣/١١/٢٩هـ - ٢٠١٢/١٠/١٥م بالجامعة الأردنية.

د. دراسة عباس المصري وعماد أبو حسن (٢٠١٤): وعنوانها **(الازدواجية اللغوية في اللغة العربية)**، ع٠٨، المجمع اللغوي.

وقد اشتملت أدبيات الدراسة على قسمين وهما: **الدراسات السابقة، والدراسة النظرية**.

**د. الإطار النظري:**

اشتمل الإطار النظري على ثلاثة محاور أساسية اعتمدت عليها الدراسة، وهي:

- **المحور الأول: مفهوم هوية اللّغة العربية وإشكالية الازدواجية والتداخل اللّغوي.**

تمثل اللّغة أحد أهم عناصر **الهوية الإنسانية** لأي شعب أو دولة، ومما لا شك فيه أن العالم اليوم يشهد تحديات لغوية متعددة، كتلك التي تواجهها اللغة العربية –لغة القرآن الكريم– من أجل الحفاظ على مكانتها في ظل الانتشار الكاسح لبعض اللغات كالإنجليزية والفرنسية والإسبانية والروسية، ومن هذا المنطلق ستتناول مداخلتي الموسومة بـ"**تحديات الهوية اللغوية العربية في عصر العولمة**" واقع اللّغة العربية والتحديات التي تمارسها بين الانتماء إلى أصالتها المتوارثة والتكيف مع اللغات المهيمنة في العالم وبخاصة اللغة الإنجليزية، التي زاد إقبال العرب على دراستها وإتقانها كلغة ثانية أو بديلة عن اللغة العربية خاصة عند النخبة العربية التي باتت تفتخر بالانتماء الثقافي واللّغوي للهوية الإنجليزية، بل إن هناك من العرب مَن تخلى عن لغته، وغيبها عن موضوعات العلوم والحضارة، واستخدموا بدلاً منها لغة المستعمر لا سيما في المجالات العلمية كالطب والهندسة والعلوم والرياضيات.

بل لقد اغتربت العربية في أوطانها، وصارت تهجن بلغات المستعمر كالفرنسية والإنجليزية عبر لغة التعاملات اليومية، التي يتواصل بها العام والخاص، الأمي والمثقف، حتى انحسر استعمال اللّغة العربية الفصحى وصار التعليم العام من أول مراحله يستخدم الإنجليزية في المشرق العربي، والفرنسية في المغرب العربي بشكل جلي وظاهر، مما جعل أجيال الأمة العربية والإسلامية تتخبط في **(ازدواجية التعلم اللّغوي)** في مراحل مبكرة من التعلّم، وهذا كلّه سعياً من باحثي اللّغة ودارسيها للالتحاق بالركب الحضاري العلمي والثقافي، ولكن هذا لن يكون على **(حساب الأجيال وهويتهم وأصالة اللغة العربية)**، وعلاقتها بمقومات المجتمع العربي. في الحقيقة إن هذا الوضع المأزوم للهوية اللغوية العربية يتسم بكثير من الهشاشة غير الظاهرة والخطيرة في الوقت نفسه، ويضع النخبة اللغوية ممثلة في الباحثين اللغويين والمدافعين عن هوية اللغة العربية في ظلّ العولمة اللغوية الخطيرة التي يشهدها العالم في قفص الاتهام بسبب فرضهم لهوية تتسم بجاهزية مسبقة من جهة، وعملهم على توظيف عناصر الهوية الوطنية في صراعات لغوية عقيمة نتج عنها تحميل هذه الهوية بشحنة تناحرية هددت بشكل فعلي الهوية القومية للغة العربية؛ مع أن النخبة الثقافية العربية تتحمل نصيباً وافراً من حالة التأزم اللغوي الذي يستشعره المواطن العربي.

في نهاية المطاف، الهوية اللغوية وبرؤية سوسيو-تاريخية ليست معطًى ثابتاً، حيث إن التغير يظلّ لصيقاً بها نتيجة لما يتعرض له أفراد المجتمع العربي من تأثيرات لغوية خارجية تساهم في قولبة اللغة الأم للشعوب العربية، وتبقى الهوية اللغوية العربية تتأرجح بين تداخل اللغة الفرنسية مع العربية عند شعوب المغرب العربي من جهة، واللغة الإنجليزية وتداخلها مع العربية عند شعوب المشرق العربي من جهة أخرى، ومن هنا تسعى هذه الدراسة للبحث عن سبل تأصيل الهوية اللّغوية العربية في زمن العولمة والتقدم التكنولوجي والعلمي الذي

بات يمسّ كلّ شعوب العالم المعاصر، وضرورة وضع استراتجيات وآليات آمنة تحفظ للعربية كرامتها وقيمتها التواصلية من جهة، والتطلع إلى مواكبة الحركة التقدمية العلمية الغربية من جهة أخرى دون التماهي والغوص في الهوية الغربية التي أصبحت تجر إليها أعداداً كبيرة من العرب، وبمختلف الطرق.

**١. مفهوم هوية اللّغة العربية وإشكالية التداخل اللّغوي:**

تشكّل اللّغة العربية أحد مقومات الهوية لدى الإنسان العربي، وتطبع شخصيته بطابع مستمد من طبيعتها وطريقتها في التعبير، التي تنعكس بدورها في طريقته في التفكير؛ فاللّغة نافذة الإنسان التي يطلّ منها بوعي على المجتمع من حوله، من خلال التفاعل مع الآخرين، ومصادر المعرفة المختلفة، وتقوم اللّغة بدور مركزي في مساعدة الإنسان على اكتشاف ذاته، وتكوين مفهومها لديه، وتكوين نظرته الخاصة إلى العالم من حوله، فهي سجل تراث المجتمع العربي ووسيلته للاتصال بأفراده، والاطلاع على تراثه الفكري والمادي والحضاري، وبها يعرفون مكونات الشخصية الجمعية التي تؤلف بينهم، وتربطهم بأجيال المجتمع الماضية والحاضرة والقادمة، وتعرفهم بدورهم في بناء الحضارة الإنسانية وإغنائها، وتدفعهم إلى المحافظة على الروابط التي تقوي علاقاتهم ككيان مستقل، وتحثّهم على مواصلة البناء اللّغوي الذي بدأه الأجداد سعياً إلى مستقبل أفضل، ورغبة في مساهمة جلية في بناء صرح الحضارة الإنسانية.

وعليه؛ يعدّ مصطلح الهوية من أكثر المصطلحات إثارة للجدل والنقاش نظراً لمرونته وصعوبة تحديد إطار تعريفي ثابت له، إذ يتميز بالتشابك والتداخل في سياقات معرفية ومفاهيمية مختلفة؛ فأحياناً يكون الحديث عن الهوية الدينية، وأحياناً عن الهوية الوطنية أو الإقليمية، وأحياناً عن الهوية اللّغوية، وجميعها تتداخل وتجتمع لتعطي ملامح الهوية العامة للإنسان، غير أن لكل هوية

خصوصياتها وسماتها التي تميزها عن باقي الهويات مهما تشابكت التفاصيل بينها –لانتمائها إلى نفس الفضاء المعرفي العام– الأمر الذي حال دون القدرة على الإمساك بالمصطلحات، وإعطاء تعريفات دقيقة لمفهوم الهوية عموماً أو لمفهوم الهويات المختلفة باختلاف منابعها وإحالاتها الثقافية، وبالتالي أصبح من الضروري أن يتم تكييف هذه المفاهيم والتعاريف مع سياقات ومؤشرات الاستعمال المختلفة نحو الدين، والوطن، والتاريخ، والقومية، والجنسية، ومكان الولادة، وروابط الأسلاف والأجداد، والانتماء القبلي، والعادات والتقاليد والأعراف، والقوانين، والزي التقليدي، واللغة، فكل هذه المؤشرات تسهل من عملية تحديد هوية الأشخاص، ومن هنا تتجلى الأهمية المعرفية لدراسة الهوية في محاولة لإرساء إطار مفاهيمي ونظري يسمح للباحث بالتعامل مع ظواهر الهويات الجماعية بهدف فهم المجتمع وتفسيره.

فلكلّ حضارة أو مجتمع مجموعة من الخصائص والظروف الاجتماعية والمعيشية والتاريخية المتماثلة التي تشكل انتماء قومياً يخضع له كل أفراد المجتمع، ومن هذا الشعور القومي، يستمد الأفراد إحساسهم بالهوية والانتماء، فيشترك الفرد الواحد مع عدد كبير من أفراد الجماعة في عدد من المعطيات والمكونات والأهداف ليتجسد بهذا ما يعرف "**بالهوية**".

وللإحاطة بمفهوم "**الهوية اللغوية**"، ينبغي التطرق إلى مصطلح **الهوية**؛ فهي من الناحية الفلسفية تحيل إلى حقيقة الشيء أو ماهيته أو ذاته المطلقة المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميّزه عن غيره، كما تعبّر عن خاصية المطابقة أي مطابقة الشيء لنفسه أو لمثيله، وبالتالي فالهوية اللغوية والثقافية لأيّ شعب كان تعدّ بمثابة «القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارته عن غيرها من الحضارات المختلفة»[1]، ويشير مفهوم

(١) عباس الطائي، **آفات اللغة والهوية**، ٢٠١٧/١٠/٢٢ (www.ahwazstudies.org).

الهوية عموماً إلى ما يكون به الشيء هو هو، أي من حيث تشخصه وتحققه في ذاته وتمييزه عن غيره، فهو وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري ومحتوى لهذا الضمير في نفس الآن، بما يشمله من قيم وعادات ومقومات تكيّف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها[1]، أما قاموس (***le petit Robert***) وهو أحد مصادر تعريف الكلمات في المعاجم الغربية الحديثة، فإنه يحدّد معنى الهوية بوصفها مجموع الملامح الخاصة بمجموعة من الشعوب القومية (**اللغة، والدين، والفن**...).

يمكن القول إذن إن الهوية ليست بنيةً مغلقةً وإنما هي بنية مُتَحَوِّلةٌ باستمرار، ولما للغة من عظيم الأهمية في تحديد الأطر الاجتماعية والجغرافية والسياسية والثقافية والتراثية للشعوب، تصبح **الهوية اللغوية** أحد أهم الأسس لتحديد ملامح الحضارات والجماعات والأوطان، وهي تعني أن يرتبط عدد من الأفراد في تواصلهم جيلاً عن جيل بلغة واحدة، فتتحول هذه اللغة إلى أبرز الركائز المعرفية لهذه الجماعة عن أخرى، أما "**الهوية اللغوية العربية**" فهي خصوصية لسانية وفكرية جوهرها الانتماء والتبني الروحي للغة العربية، تجمع بين الشعوب العربية لاستعمالها اللغة العربية كأداة للتواصل في الحياة العامة، والشعوب الإسلامية وإن لم تكن ناطقة بالعربية، لأنها معنية باللّغة العربية لغة الحضارة الإسلامية و"**القرآن الكريم**"، فتكونت عند هذه الشعوب الإسلامية هوية لغوية عربية مرتبطة بالهوية الدينية.

فاللسان الأعجمي لا يجد صعوبة في قراءة القرآن بأحكامه أو ممارسة الشعائر الدينية باستعمال اللغة العربية، وقد شهد التاريخ إبان زحوف الفتح الإسلامي لأقطار آسيا من أدناها إلى أقصاها، «جهوداً بذلها المجاهدون الذين

---

(١) عباس الجراري، **مكونات الهوية الثقافية المغربية**، مجلة الهوية الثقافية للمغرب، كتاب العلم، السلسلة الجديدة، ط١، ١٩٨٨، ص٢٢.

حملوا الإسلام إلى تلكم الأقطار، ونشروا راية القرآن، وعلموا تلك الشعوب خصائص اللسان العربي، حتى استبدلته بلغاتها الأصلية، وبرزت جماعات العلماء من أبناء تلكم الأقطار البعيدة، وقد نبغوا في فنون العربية، وصاروا أئمتها، الذين يفتون في مشكلاتها، كسيبويه، وابن سينا، والفارابي، والبيروني، والرازي وغيرهم، آلاف من العلماء العباقرة، تنطق آثارهم بعظمة ما استكن في قلوبهم من حب للعربية، وولاء للقرآن»[١]، وبالتالي زاد تعلق الأفراد باللغة العربية السامية نتيجة التبني الاجتماعي والروحي لها لأنّ الأفراد دائماً يرتبطون بأبنيتهم الاجتماعية، فاللغة تمثل روح الأمة والوسيلة الناقلة للثقافات عبر الأجيال المتعاقبة، كما تساهم بشكل قوي في تحديد معالم الحدود الجغرافية والوطنية والقومية، إذ أصبحت «من منتصف القرن التاسع عشر من أهم المقومات المحددة للجنسية لأي شعب أو أمة»[٢] ويؤكد هذا الفيلسوف الألماني **فيخته** (ت١٨١٤) بقوله: «أينما توجد لغة مستقلة توجد أمة مستقلة لها الحق في تسيير شؤونها وإدارة حكمها»[٣]، ويضيف «إن الذين يتكلمون بلغة واحدة يشكلون كياناً واحداً متكاملاً ربطته الطبيعة بوشائج متينة وإن تكن غير مرئية»[٤].

---

(١) الشريف الجرجاني، **التعريفات** ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٨٨، ص٢٥٧.

(٢) نور الدين حاطوم، **تاريخ القوميات في أوروبا**، الجزء الثالث، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٦٩، ص٢١٣.

(٣) ساطع الحصري، **ما هي القومية**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٦٣، ص٥٦.

(٤) محمد عبدالشفيع عيسى، نظرية الحصري في القومية العربية، جدلية الإثبات والنفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ومعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، مصر، ١٩٩٩، ص١٤٧.

فالدول العربية وإن تباعدت جغرافياً، تقربها الهوية اللغويـــة، وعلى الرغم من اختلاف لهجات التواصل في البلد الواحد، ومن بلد لآخـــر، إلاّ أن وعـــاء العربية الفصحى يجمع بين اللهجات المحلية التي تسربت من العربية الفصحى وسربت إليها مصطلحات ومفردات هجينة ودخيلة عن تلك اللغة العربية السامية التي عرفت بقوتها.

**١-٢ التداخل اللّغوي ومجالاته:**

اكتسبت اللغة العربية مكانة مقدسة حباها الله بها، بمـــا تـــوفّر لهـــا مـــن إمكانات، وما تحمله في ذاتها من خصائص صوتية وبنائية وجمالية، وهذا أمر نعتز به، ولكن بالرغم من هذا كله فإنها تواجه تحديات على مختلف الأصعدة، وأبرز هذه التحديات اهتزاز الهوية اللغوية العربية في المنطقة العربية والمجتمع الإسلامي على عمومه واتساعه، فالشيء الملاحظ حالياً في الدول التي يفترض أن تجمعها الهوية العربية المتوارثة هو تغييب اللغة الفصحى عن الاســـتعمال اليومي بين العرب في الأحاديث التي يتواصلون بها من المحيط إلى الخليج، ما خلق فراغاً رهيباً أو هوة عميقة بين الانتماء والـــراهن المعـــيش، فالمفارقـــة واضحة؛ **انتماء عربي/ لهجات عامية هجينة (تداخل لغوي) / ازدواجية لغوية**، فمن جهـــة نلاحظ حجم التداخل اللغوي بين اللغة العربية وغيرها من اللّغـــات الأجنبيـــة كالإنجليزية والفرنسية في لغة التواصل اليومية، ومن جهة ثانية يفاجئنا الغياب الكلي للغة العربية سواء في التواصل اليومي أو في مجالات العمل والتـــدريس العلمية حين تستبدل باللّغات الحية كما يقال.

هكذا اغتربت العربية في أوطانها، وصارت تهجـــن بلغـــات المســـتعمر كالفرنسية والإنجليزية عبر لغة التعاملات اليومية، التي يتواصل بها كل الأفراد على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم المادية والاجتماعية والعلمية، فانحسر استعمال اللّغة العربية الفصحى وبدا صراعها اللغوي مع الإنجليزية في المشرق العربي، ومع الفرنسية في بلدان المغرب العربي، ما جعل الأجيال العربية والإســـلامية تتخبط في إشكالية "**التداخل اللّغوي**".

**- أولاً: واقع الهوية اللغوية العربية وإشكالية تداخل اللغة العربية مع اللغتين الفرنسية والإنجليزية:**

من الواضح أن عالمنا عالم متغير، كل شيء فيه يتطور، وفي جميع المجالات السياسة والاقتصادية والاجتماعية، مع ما يجري من اكتشافات علمية ومعرفية هائلة تضعنا أمام واقع جديد بحقائق جديدة وتغيرات كثيرة فرضت على الإنسان العربي السعي وراء المستجدات العلمية والمعرفية التي سبقه إليها الغرب، وبالتالي زادت فرص التواصل والاتصال بين الشعوب العربية والدول الغربية بفعل التقنيات والوسائل التي تجعل التفاعل الحضاري مسألة شبه يومية، وحقيقة تعيشها الإنسانية جمعاء لتحقيق ما يعرف بالمثاقفة، التي لا تتجسد إلا بتجسيد فكرة التعدد اللغوي، فقد بات من الضروري على الإنسان العربي التزود بلغات أخرى غير اللغة العربية الأصلية، بل عليه إتقانها كما يتقن لغته الأم كي لا يفوته شيء من ذلك الركام المعرفي الهائل الذي يصدره الغرب لأهداف ظاهرة وأخرى مبطنة، ففي عصر العولمة لا يمكن الاكتفاء بلغة واحدة للتواصل المعرفي والفكري، لهذا حرصت معظم الدول العربية على إدراج لغة ثانية ضمن المقررات الدراسية منذ التعليم الابتدائي، وكانت اللغة الثانية عموماً لغة دولة المستعمر الذي فرضها على مستعمراته العربية لأسباب عسكرية ولضرب مقومات الهوية اللّغوية العربية لإضعاف أي شكل من أشكال المقاومة، فاختارت دول المغرب العربي اللّغة الفرنسية، واختارت دول المشرق العربي اللغة الإنجليزية، وتداخلت معهما اللّغة العربية حتى أنها بدت غريبة ومغيبة أحياناً في البلاد العربية.

وهنا ينبغي الإشارة إلى ما يمكن أن تشكله هذه اللغات الأجنبية من خطر على لغتنا العربية عامة، وما يمكن أن يكون لهذه اللغات مع استمرارية الانبهار

بها، والاستسلام العشوائي لها من تهديد لرصيد العربية المفرداتي الأصيل، إضافة إلى تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على نظامها الدلالي والنحوي وعلى أساليب التعبير فيها[1] فلا يخفى على أحد أن اللغة العربية هي لغة «الدين والدنيا جميعاً، وهي لغة التواصل والتفاعل بين مجتمعات الدنيا عبر مساحة زمنية بعيدة لم ينقطع فيها عطاؤها، فكانت بالمعيار الزمني من أقدم اللغات، وكانت بالمعيار التقني أقدرها على التواصل والبقاء، وكانت بمقياس المكان قادرة على الذيوع والانتشار بين المشرق والمغرب الإسلامي بشكل لم يتهيأ لغيرها من لغات العالم القديم والوسيط، ثم كانت فوق هذا كله لغة العلم والفكر إلى جانب كونها لغة الإبداع والوجدان»[2]، لهذا لا ينبغي السماح باستمرار تشويه الهوية اللغوية العربية، والإساءة إليها من الأجانب، أو من أبناء العرب الذين يتباهون بازدواجيتهم اللغوية، في ظل ما يسمى بالعولمة التي لا يرون فيها مخططاً أو مؤامرة للهيمنة على اللغات والثقافات العالمية، فهي في نظر أغلبهم –حين سقوط الحواجز والحدود وتحول العالم إلى قرية– لا تهدد الهويات الأخرى، بقصد المؤامرة والتخطيط بل لحتمية التطور العالمي والتداخل الثقافي اللّغوي.

ومن هذا المنطلق يمكن القول إن مسألة ثبوت الهوية اللّغوية أصبحت أمراً نسبياً فقد أثبتت المجادلات العلمية أن الهوية اللّغوية لأي مجتمع ليست أمراً ثابتاً، بل يرتبط بالمؤثرات الخارجية وبالتداول العلمي للأفكار والثقافات، كما

---

(١) أحمد محمد المعتوق، **نظرية اللغة الثالثة دراسة في قضية اللغة العربية الوسطى**، المركز الثقافي العربي، ط١، المغرب، ٢٠٠٥، ص١٦٥.

(٢) عبدالله التطاوي، **اللّغة والمتغير الثقافي الواقع والمستقبل**، الدار المصرية اللّبنانية– القاهرة، ط١، مصر، ٢٠٠٥، ص٤٠.

يرتبط بمختلف أنواع الصراعات التي تشحذها المؤثرات الخارجية تحت مظلة العولمة والقطب الواحد.

**- ثانياً: بواعث التداخل اللّغوي بين اللّغة العربية واللّغتين الفرنسية والإنجليزية:**

**أ. العلاقات السياسية والتجارية:**

من اللافت للانتباه في عصر التطورات الإلكترونية والعلمية، ملاحظة ما صحب هذا التحول العلمي من تطورات متسارعة على مستوى «العلاقات السياسية والثقافية والصناعية والتجارية مع عدد من الشعوب الناطقة بالإنجليزية، وما نجم عن هذه العلاقات من استيراد للأجهزة والسلع والبضائع والكفاءات والخبرات والمعلومات بمصادرها وتقنياتها المختلفة»[1]، إذ أصبح الإنسان في هذا العصر يواجه تصديراً من نوع مختلف هو التصدير اللغوي المرافق لكل تلك الأشياء التي فرضتها الهيمنة التجارية والاقتصادية؛ الشيء الذي جعل المجتمع يواجه -بسبب هذا التبادل التجاري- «سيلاً عارماً من الألفاظ والتعبيرات الاصطلاحية الأجنبية يتزايد ويتسع نطاقه يوماً بعد يوم حتى لا تكاد اللغة العربية تجد الفرصة الكافية لتستوعب كل ما يطفح به هذا السيل لتعبر عنه بطريقتها، وفق نظامها الخاص»[2]، فعلى الرغم من القدرة العجيبة لهذه اللغة على استيعاب المصطلحات الدخيلة عليها، إلاّ أنه قد يتعذر عليها ذلك في أحيان كثيرة، وهنا ينفسح المجال للمصطلحات الأجنبية للشيوع بصيغها اللّغوية في اللّغة العربية، فتنتشر وتظهر على ألسنة الكثير من العرب، وتختلط بمفرداتهم العربية في نشاز ملحوظ وتهجين مشوه أحياناً وذلك لفرض اللغات الأجنبية، وهذا ما يؤكد فكرة "**التبعية اللّغوية**" للغرب الذي بات العرب يستورد منه اقتصادياً ولغوياً.

---

(١) أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص٥٨.

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

ب. **الاستعمار:**

خضعت معظم الدول العربية للاستعمار الأوروبي؛ فقد تعرضت الجزائر وتونس للاستعمار الفرنسي، وليبيا للمستعمر الإيطالي، والمغرب الأقصى للاحتلال الإسباني، في حين تعرضت مصر والبلدان الشرقية الأخرى للغزو الإنجليزي، وأولُ ما يقوم به المحتل هو ضرب لغة الدولة المحتَلة، لأنه يعرف جيداً أن اللغة عامل توحيد وتفريق في آن واحد، لهذا نراه يركز بإتقان على فرض لغته قولاً وفعلاً، من خلال تلك الدعوات التي تتعالى على ألسنة المستشرقين وأتباعهم الحاقدين على اللغة العربية، كما هو الحال في مصر وسورية ولبنان...، والتي تحذر من مخاطر التعامل باللغة العربية باعتبارها سبب تخلف الشعوب التي تتكلم بها، وقد عمل الاستعمار على فرض لغته على السكان الأصليين في الدول العربية المستعمرة؛ وذلك في عدة مجالات، خاصة ميدان التعليم، وبالتالي انحسر استعمال اللغة العربية الفصحى.

ج. فدول المغرب العربي وخاصة الجزائر قد انحصر فيها استعمال العربية في المساجد والزوايا، وذلك لفرض اللّغة الفرنسية على الجزائريين كأحد المبادئ الأساسية لفرنسا[1]، وبناء على هذا بدأ الأخذ بهذه اللغة الأجنبية في الاستعمال عند مجموعة كبيرة من الجزائريين خاصة الساكنين في الولايات والمدن، ما أدى فعلاً إلى المزج بين اللغتين، وبالتالي التداخل اللّغوي بينهما، وكان هذا التهميش للعربية من المستعمر الفرنسي تطاولاً عنيفاً على الهوية اللغوية العربية

(1) Taleb Ibrahimi Khaoula, Les Algériens et leur langues , Edition el Hikma ,Alger ,1997,p35.

الجزائرية لدرجة أن الإدارة الفرنسية سنت «قراراً وزارياً صادراً عن وزير داخليتها **شودان** عام **٣٩٣٩** يعتبر اللّغة العربية لغة أجنبية بالجزائر لا يجوز تعليمها»[١]، فمن الطبيعي بعد مرور أكثر من أربعين سنة من الاستقلال أن تظل الدول العربية **المغاربية** تعاني من مزاحمة اللغة الفرنسية للغتها العربية الأصلية.

د. **الترجمة والتعريب:**

تعدّ الترجمة نافذة فكرية ومدخلاً حضارياً لمعرفة فكر العالم الخارجي والتواصل الثقافي مع التطورات والأحداث العلمية خارج الدول العربية، التي كان لزاماً عليها نقل كل تلك المعارف التي سبقها إليها الغرب مما يضمن للهوية العربية «مزيداً من التواصل وعدم الانغلاق، كما يضمن لها المزيد من الصقل والانفتاح على كل ثقافات الآخر ومناهج فكره ومواد إبداعه، كما تظل الترجمة بكل المقاييس ركناً أساسياً يضمن للمكتبة العربية المزيد من النضج والاكتمال من خلال إيقاع التفاعل المعرفي والحوار العقلي»[٢] ومما ينبغي الإشارة إليه أن الترجمة من الإنجليزية أو الفرنسية إلى العربية أفادت كثيراً الثقافة العربية في نقل التجارب المعرفية والمناهج المعاصرة، وطبعاً عملية الترجمة تحتم على المترجم التفقه في اللغات الأجنبية والاحتكاك معها أكبر وقت ممكن، ما يساهم بشكل كبير في ظهور تداخلات لغوية في نظامه الكلامي، وبالتالي التأثير على الأفراد الذين يكونون على تماس مباشر معه كالأصدقاء والعائلة وخصوصاً الأبناء.

---

(١) تركي رابح، **التعليم القومي والشخصية الوطنية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط١، الجزائر، ١٩٩٠، ص١٣٠.

(٢) عبدالله التطاوي، **اللغة والمتغير الثقافي الواقع والمستقبل**، ص٦١.

ومن زاوية أخرى يحيلنا الحديث عن الترجمة في العصر الحديث إلى ضرورة الحديث عن ثلاثة أشياء متلازمة وهي: الترجمة وتعريب العلوم ووضع المصطلح؛ ذلك أن الترجمة لا تكون «من دون تعريب، ووضع لمصطلحات جديدة في العلوم والفنون والآداب عامة، وفي ميدان العلم والاختراعات والاكتشافات بخاصة، حيث تظهر كل يوم مصطلحات خاصة بلغة أصحاب هذه الأشياء، وتتولد معها الرغبة في وضع مقابل لها عند الترجمة»[1]، وهذا ما يثبت مرونة اللّغة العربية في إيجاد مقابل عربي لكل جديد غربي، وهنا يمكن أن نقول: بالرغم من كثرة مخاطر تأثير الترجمة على الهوية اللغوية العربية إلا أنها -ومن خلال مساعدتها في تعريب المصطلحات- ستكون مفيدة لتخلصنا من التبعية اللغوية بتجنب استيراد لغة أجنبية ثانية تكون بديلة عن لغتنا في أغلب الأحوال.

**هـ -الاقتران والهجرة (بواعث اجتماعية):**

كان الزواجُ مختلفُ الجنسيات من أهم العوامل المساعدة على التداخل اللّغوي بين لغتين مختلفتين، فمن الطبيعي أن ينشأ الأطفال في مثل هذه الحالات مزدوجي الهوية اللّغوية، مع الميل أكثر إلى لغة الأب الأصلية، ولعل الهجرة من الأسباب المساعدة على ظهور هذا النوع من الزواج، ففي معظم الدول العربية طبق الاستعمار سياسة ترحيل العرب لاستخدامهم كعمال في بلدانه، وهذا ما قد ساهم في تكوين أسر تمازجت فيها الهويات الثقافية واللّغوية، والملاحظ هنا الضعف اللّغوي للمهاجرين في إتقان العربية، في حين أنهم لا يتقنون من الإنجليزية أو الفرنسية إلا ما يتعلق بمعاملات تواصلهم اليومي.

---

(١) يحيى جبر، عبير حمد، تعلم العربية مأرب أم حفاوة، مؤتمر العلاقة مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٧-٨ تشرين الثاني ٢٠٠٧، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط١، ٢٠٠٩، ص٨٣٤.

### و. سياسات التعليم العربية:

عرفت سياسات التعليم في الوطن العربي تهميشاً وتغييباً للغة العربية من مرحلة الابتدائي إلى الجامعة؛ وهذا يعود حتماً إلى السياسة الاستعمارية، فقد عمل الاستعمار على غرس لغته في مستعمراته العربية التي سرعان ما تماثلت وامتثلت لهذا الأمر الاستعماري، لهذا كان من الصعب على هذه الدول بعد استقلالها أن تتخلى نهائياً عن لغات المستعمر، إذ بقي الارتباط بها قائماً، فأصبحت تدرس كلغات أجنبية مع اللغة العربية التي تعد اللغة الرسمية الأولى للدول العربية، كما أصبحت اللغات الأجنبية كالفرنسية في بلدان المغرب والإنجليزية في المشرق لغة تدريس الطب وجميع الفروع العلمية في الجامعات العربية كالجامعات المصرية وحتى الأزهر وجامعات الأردن ولبنان وتونس والمغرب..، وما يزال الوضع اللغوي في مجالات التعليم منذ ذلك التاريخ على ما كان عليه حتى هذه اللحظة، بل ازداد تدهوراً وخطورة بتوسيعه إلى بعض المواد الاجتماعية والإنسانية، ففي الجزائر مثلاً بقيت الفرنسية لغة للعلم والتعليم «فحتى سنة ٧٨٧٨ سنة تاريخ التطبيق الفعلي للتعريب بإنشاء المدرسة الأساسية كانت ثلث الأقسام تدرس باللغة العربية، في حين كان الثلثان يعلمان باللغة العربية واللغة الفرنسة بالنسبة إلى المواد العلمية (...)، كما عرف التعليم الثانوي تعميم استعمال اللغة العربية نهائياً في السنة الدراسية ١٩٨٨-١٩٨٩ ومنذ ذلك الوقت أصبحت اللّغة الفرنسية تعلم كأية لغة أجنبية، أما في التعليم الجامعي فقد ظلت إلى يومنا هذا لغة التعليم خصوصاً في الشعب العلمية والتكنولوجية»[١]، هذا هو واقع التعليم في الوطن العربي الذي يقر في دساتيره أن اللّغة العربية هي اللّغة الرسمية الأولى، وما إن نقترب من المناهج والمقررات التعليمية حتى نجد اللغات الأجنبية تتربع على عرش التعليم بحجة المثاقفة وحوار الحضارات.

---

(١) حفيظة تازورتي، **اكتساب اللّغة العربية عند الطفل الجزائري**، دار القبة للنشر، ط١، الجزائر، ٢٠٠٣، ص٤٥، ٤٦.

**ي. أجهزة الإعلام:**

يوصف القرن الحالي بأنه قرن التطورات السريعة والمتتالية، التي تجسدت من خلال ثورات متعددة؛ منها الثورة الإعلامية التي أحدثت انفجاراً معرفياً من خلال تعدد وسائل الإعلام السمعية والمرئية والمكتوبة وثورة وسائل الاتصال الممثلة في تقنيات الاتصال الحديثة، ثم الثورة الإلكترونية التي امتدت إلى كل مناحي الحياة وامتزجت بكل وسائل الاتصال والإعلام واندمجت معها. فنحن اليوم نعيش عصر العولمة بكل معطياته من أجهزة إعلام وقنوات فضائية وشابكة الإنترنت، ومما لا شك فيه أن كل هذه المستجدات تؤثر بشكل كبير في خلخلة معالم الهوية العربية وخاصة الهوية اللّغوية، فقد بات الانبهار بالقنوات الفضائية الأجنبية، والبرامج التلفزيونية الإخبارية والثقافية والترفيهية الغربية أمراً مثيراً ولافتاً سواء على مستوى المتفرجين أو على مستوى تأثيره على خصوصية الإعلام العربي؛ فمن ناحية المتلقين العرب نجد أن عدداً كبيراً من المشاهدين، خاصة من الشباب، قد استسلموا لموجة العولمة الأمريكية، وحولوا وجهة مشاهدتهم صوب الإعلام الغربي، وهذا ما جعلهم يتهافتون على تعلم اللّغة الإنجليزية ليزدادوا قرباً من الحضارة الراهنة، ويواكبوا موجة الحداثة إيماناً منهم أن القرن الحادي والعشرين قرن الإعلام الأمريكي لما له من دور كبير في تكريس المشاريع الثقافية والسياسية والاقتصادية.

فالإعلام « يعدّ من أهم مؤسسات التشكيل الثقافى (...)، إذ يشكل نظرة الإنسان (...) ويخترق شخصيته القائمة ويساهم بصنع شخصيته المستقبلية»[1] فقد لعب الإعلام الأمريكي دوراً أساسياً في التمهيد لمشروع العولمة في العالم

(١) نور الدين بليبل، **الارتقاء باللغة العربية في وسائل الإعلام**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ط١، قطر، ٢٠٠١، ص٢٨، ٢٩.

سعياً إلى فرض اللغة الإنجليزية، ودعماً للسيطرة الأمريكية على مختلف الشعوب الأوروبية والإفريقية والآسيوية، أما الحديث عن تأثر الإعلام العربي باللّغات الأجنبية، خاصة الإنجليزية، فيقودنا إلى الحديث عن تغييب توظيف اللغة العربية في معظم البرامج التلفزيونية العربية ليفسح المجال واسعاً للعاميات واللغات الأجنبية في تغطية معظم البرامج، ما أدى إلى تقلص نسبة حضور اللّغة العربية التى لا نكاد نسمعها إلا فى نشرات الأخبار، أو فى القنوات الإخبارية المتخصصة، أو فى بعض برامج القنوات الدينية المتخصصة، فالإعلام العربى الناشئ وجد نفسه منصاعاً لنداء العولمة وتكريس اللّغات الحية حتى في المواضيع المتعلقة بالثقافة العربية الخالصة، وذلك إما بدعوى إيصاله ثقافته إلى الغرب، وقد يكون على حق فى هذا، وإما تماهياً فى الانغماس فى قشور تلك العولمة دون التركيز على لب المعرفة التي ينبغي الأخذ بها للحاق بالركب العلمى والمعرفى الذي سبقنا إليه الغرب –وهذه حقيقة لا بد من الاعتراف بها–.

ما يحدث اليوم من حضور الصور والإشارات والنصوص المرئية الموالية للغة والثقافة الغربية على الشاشات التلفزيونية بات يشكل تهديداً لمنظومات القيم والرموز العربية، فلقد تمكنت وسائل العولمة من اختراق الحدود الثقافية انطلاقاً من مراكز صناعة وترويج الثقافة السائدة ذات الطابع الغربى، عبر آليات التأثير الإلكترونى الذي يعتمد أساساً على استعمال اللّغات الأجنبية. ومن أشكال حضور اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى الإعلام العربى نجد ما يلى:

- الانتشار المكثف للصحف والجرائد المكتوبة باللغة الإنجليزية فى دول المشرق، وباللغة الفرنسية في الدول المغاربية.
- فتح قنوات عربية ناطقة باللغتين الإنجليزية والفرنسية، مثل قناة (Canal Algérie) الجزائرية، وقناة (al jazeera english) القطرية.

- تخصيص قنوات يتناوب فيها البث بين اللغة العربية واللغات الأجنبية، خاصة القنوات الموجهة للأطفال بهدف تمكينهم من اللغة الإنجليزية في سن مبكرة مثل قناة (MBC 3)، وقناة (spacetoon english).
- تخصيص مساحات لعرض الحصص والأفلام والمسلسلات الأمريكية والفرنسية مع إرفاقها بترجمة عربية أسفل الشاشة.
- تخصيص ساعات إخبارية لعرض نشرة الأخبار باللغتين الفرنسية والإنجليزية في القنوات العربية.
- تخصيص قنوات إذاعية ناطقة باللغتين الفرنسية والإنجليزية مثل قناة (La chaîne 3) الجزائرية.
- المزاوجة بين اللغة العربية واللغات الأجنبية فى تقديم بعض الحصص الثقافية والترفيهية. كل هذه العوامل تجعل الفرد العربي على اتصال دائم باللغات الأجنبية، وطبيعي أن يؤثر هذا التداخل اللغوي على الهوية اللّغوية العربية بأشكال متفاوتة.
- **ثالثاً: آثار التداخل اللّغوي بين اللّغة العربية واللّغات الأجنبية**

يمكن التمييز بين عدة ظواهر لغوية ناتجة عن التداخل اللغوي بين اللغات التي تجتمع في رقعة جغرافية واحدة كالازدواجية اللغوية أو الثنائية اللغوية، والتعددية اللغوية والاحتكاك اللغوي «كاحتكاك الألمانية والفرنسية والإنجليزية في الحرب العالمية الأولى»[1]، وفيما يلي تفسير لظواهر الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي والاقتراض اللّغوي ومدى تأثيرها على الهوية اللّغوية العربية.

---

(١) الخوري شحاذة، **الترجمة قديماً وحديثاً**، دار المعارف للطبع، ط١، تونس، ١٩٨٨، ص١٧١.

أ. **الازدواجية اللّغوية:**

يمكن تعريف الازدواجية اللغوية بالقدرة على تحدث وفهم وقراءة لغة ثانية غير اللغة الأم، مع القدرة على التفكير بها تماماً كاللغة الأصلية، وهنا ينبغي الإشارة إلى شروط تحقق الازدواجية؛ ومنها «الاختلاف في الجذر اللغوي بين اللّغتين المجتمعتين على لسان فرد متكلم معين»[1]، إضافة إلى ضرورة عدم خلط «المتكلم بين بنيات اللغتين المختلفتين، وإنما يستعملهما دورياً حسب ما تفرضه عليه البيئة والظروف»[2] ويمكن إضافة شرط الكفاءة والإتقان للغة الثانية، لكن تحقيق هذا الشرط يبقى أمراً نسبياً، وقد اختلف اللّسانيون حول مفهوم مصطلح **(الازدواجية اللّغوية)** فبعضهم يطلقه على وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة، أي لغة للحديث وأخرى للعلم والأدب والثقافة والفكر، وبعضهم يطلقه على وجود لغتين مختلفتين **(قومية وأجنبية)** عند فرد أو جماعة ما في آن واحد، وبالتالي يقصد بازدواجية اللغة وجود لغتين مختلفتين عند فرد ما، أو جماعة ما في آن واحد، وتعد دول المغرب العربي من أكثر البلدان التي تتحقق فيها الازدواجية اللّغوية **العربية/ الفرنسية؛** فاللغة الفرنسية حاضرة وبقوة في مختلف مجالات التعاملات اليومية في البيوت وأماكن العمل والمدارس والجامعات...، والجزائر مثلاً من بين البلدان التي تتحقق فيها عدة ازدواجيات لغوية مع اللّغة الفرنسية وهي:

- ازدواجية العربية الفصحى/ الفرنسية.
- ازدواجية الأمازيغية/ الفرنسية.

---

(١) خنيش السعيد، التداخل اللغوي في التعبير الشفوي خلال العملية التعليمية- طلبة قسم اللغة العربية وآدابها السنة الأولى نظام ل.م.د، جامعة بجاية نموذجاً، مخطوط مذكرة ماجستير، جامعة فرحات عباس سطيف، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٣٨.

(٢) المصدر نفسه.

- ازدواجية العربية العامية/ الفرنسية[1].

فنلاحظ أنّ اللّغة الفرنسية حاضرة في الاستعمالات اليومية للأفراد، على اختلاف مستوياتهم الثقافية والاقتصادية «فمثلاً الإدارة الجزائرية تعتمد في تداولاتها اللغة الفرنسية إلى جانب اللغة العربية، ويتعدى هذا إلى الخطاب التعليمي التواصلي داخل المدارس الجزائرية، فلا نكاد نجد شخصاً لا يملك مهارة من مهارات اللغة الفرنسية»[2]، وكانت نتيجة هذا الوضع المتأرجح هي عدم إتقان معظم تلاميذ المدارس الجزائرية اللّغتين العربية الفصحى والفرنسية على حد السواء، بل يمكن القول إنهم كانوا أنصاف مزدوجي الهوية اللّغوية.

والحال لا يختلف عن هذا في الدول المشرقية التي تزدوج فيها اللغة العربية مع الإنجليزية في الخطابات التواصلية اليومية، والمعاملات والمجالات الدراسية، وفي مختلف المجالات الحياتية.

**ب. التعدد اللّغوي:**

تحيل التعددية اللغوية إلى مفهوم التباين والتنوع الذي يظهر من خلال وجود عدة أنظمة لغوية بين أفراد المجتمع، فبحكم الامتزاج والاختلاط الواقعين بين الشعوب والأمم المتجاورة تتعايش اللغات[3]، وتحتك مع اللهجات العامية المحلية فينتج عن ذلك تعدد لغوي على مستوى اللغة الواحدة التي تتكون من تتابع عناصر لغوية من العربية الفصحى مع عناصر لغوية عامية، وعناصر لغوية أخرى من لغة أجنبية أو أكثر، كما يكون التعدد اللغوي باكتساب عدة

---

(١) زاهية لوناس، دراسة استعمال اللغة العربية عند طلبة كلية الحقوق - بوخالفة- دراسة ميدانية، مخطوط ماجستير، إشراف محمد يحياتن، جامعة تيزي وزو، ٢٠٠٧، ص٣٩.

(٢) خنيش السعيد، التداخل اللّغوي في التعبير الشفوي خلال العملية التعليمية- طلبة قسم اللغة العربية وآدابها، السنة الأولى نظام ل.م.د، جامعة بجاية نموذجاً، ص٣٩.

(٣) المصدر نفسه، ٣٩، ص٤٤.

لغات ولهجات عبر مراحل مختلفة ومتتابعة، كالمرحلة الابتدائية التي غالباً ما يستعمل المربون والمدرسون فيها اللغة العامية لقربها من الأطفال من دون أن يجهدوا أنفسهم في تقريبها من التلاميذ بطريقة مشوقة، ففي منطقة القبائل بالجزائر مثلاً يكتسب الطفل لغته الأمازيغية أولاً وينشأ عليها متداخلة مع اللغة الفرنسية، ولا يتعلم اللغة الرسمية العربية إلاّ عند دخوله إلى المدرسة، فيكون حينها مضطراً إلى تعلم اللغة العربية الفصحى كونها اللغة الأولى حسب السياسة التربوية في الجزائر، وفي السنة الثالثة من التعليم الابتدائي يتعلم قراءة وكتابة اللغة الأجنبية الفرنسية التي تأقلم معها لغوياً في البيت نظراً لاحتكاكها بلغته ولهجته البربرية القبائلية. هذا، ويضطر الطفل إلى الحديث مع زملائه من الأطفال الجزائريين العرب بلهجتهم العربية العامية التي يتواصلون بها خارج قاعات الدرس وأحياناً كثيرة داخلها، فتكون المدرسة بهذا مكاناً للتعددات اللغوية المختلفة، ما يحدث شرخاً كبيراً في تشكيل الهوية اللغوية للطفل الجزائري البربري، أو العربي.

والحال لا يختلف عنه في الدول المشرقية التي تتعدد فيها اللهجات إلى جانب اللغة العربية –طبعاً في قاعات الدرس والرسميات– وبالتأكيد مع اللغة الإنجليزية ليكتسب الأطفال منذ الصغر هوية لغوية متعددة.

**ج. الاقتراض اللّغوي:**

ذلك أن تستقبل لغة أصلية مصطلحات بنفس السمات التركيبية والدلالية من لغة أجنبية مع احتمال إدخال تغييرات طفيفة على المستوى الصوتي لتكييف المصطلح الجديد مع اللغة المستضيفة له، فكثيراً ما يحدث هذا التفاعل اللغوي بين اللغة العربية وغيرها من اللغات كالتركية والفارسية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية بحكم علاقات التجاور والتجارة والتبادلات العلمية بينها، فكما أخذت

اللغة العربية من لغات العالم بعض المفـــردات مثـــل: نـــرجس، ومنجنيـــق، وصولجان...[1]، نجدها أقرضت العديد من المصطلحات للغتـــين الإنجليزيـــة والفرنسية مثل: قطن، وقميص، وجبة، وسكر، وغزال...[2]، كما نجد في اللغة العربية بعض المصطلحات الغربية الأصل انتقلت إليها عن طريق الترجمة مثل: إنترنيت، وتلفزيون، ودكتور، واستراتيجية... إلخ.

والملاحظ أنّ «إدخال الألفاظ الأجنبية ليس بدعاً ولا خطراً يخشى منه إذا استعمله الكتاب والعلماء والمستعملون للغة بما ينبغي من الوعي والاحتياط»[3] لأن التمادي في الاقتراض الأجنبي قد يفقر اللغة الأصلية، وبهذا يمكن القول إن الاقتراض يساهم بشكل كبير في إثراء اللغات المقترضة لكنه بالمقابل يعـــرض الهوية اللغوية إلى التبعية الأجنبية إذا لم تحط عملية الاقتراض بالحذر والوعي.

- **المحور الثاني: استراتيجية حفاظ اللّغة العربية على هويتها ومواكبتها عصر العولمة**

لقد عانت الهوية اللغوية العربية حالياً من تحديات عديدة في ظل العولمة اللغوية التي تمارسها اللغة الإنجليزية خاصة من خلال المركزية الأمريكية التي باتت تهدد العالم العربي في مقوماته اللغوية، ومن ثم أصبح مشكل الهوية مـــن أهم قضايا المجتمعات العربية، التي بقيت تقف مشدودة بين ما تطرحه مغريات العصر من نظريات لغوية عقيمة، وانجذابها إلى قيمها وتراثها القومي الروحي،

---

(١) خليل حلمي، **المولد في اللغة العربية** -دراسة في نمو اللغة العربية وتطورها بعـــد الإســـلام- دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٨٥، ص١١٩.

(٢) رشيد فلكاوي، أثر التداخلات اللغوية في الأداء الكلامي عند الطالب الجـــامعي، مخطـــوط مذكرة ماجستير، جامعة بجاية، ٢٠٠٦، ص٦٦.

(٣) أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص١٦٥.

بفعل التأثير المجتمعي من جهة أخرى، ومنه على المجتمعات العربية تبني سياسة لغوية تقوم على استراتيجية الحفاظ على الهوية اللغوية للأمة العربية تمكنها من مواكبة عصر العولمة الثقافية التي يتزعمها الغرب، وهذا أمر ليس بمستحيل ما دمنا مقتنعين بعالمية اللغة العربية، فالشعب العربي مطالب للسير في طريق الحداثة، خاصة في ظل ظروف دولية عالمية معقدة، تحكمها رهانات مستقبلية تبشر بصراع ثقافي واجتماعي وحضاري ولغوي شرس لم تعرفه البشرية من قبل، في كنف تيار العولمة الجارف، الذي لا مكان فيه للأمم الضعيفة أو الشعوب المنغلقة على نفسها.

**١/٢ تحديات الهوية اللّغوية العربية في زمن العولمة:**

تواجه اللّغة العربية حالياً جملة من التحديات التي تعاني من أجلها نوعاً من العزلة عن الحياة اللغوية، وأول هذه التحديات عزلة اللغة عن الاستعمال العام، حيث حلت اللهجات العامية محلها، وأخذت مكانها في ألسنة الناطقين العرب، إضافة إلى سيطرة اللغات الأجنبية على الواقع الاتصالي والتعليمي في الوطن العربي، مع الإشارة هنا إلى ما يمكن أن «تشكله اللغات الأجنبية السائدة أو المهيمنة من خطر على لغتنا العربية عامة، وما يمكن أن يكون لهذه اللغات مع استمرارية الانبهار بها، والاستسلام العشوائي لها من تهديد لرصيد العربية المفرداتي الأصيل، إضافة إلى تأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على نظامها الدلالي والنحوي وعلى أساليب التعبير فيها»[١]، ففي زمن العولمة الذي تتزعمه اللغة الإنجليزية كلغة عالمية أولى، أصبح الصراع واضحاً بينها وبين بقية اللغات الأخرى بما فيها اللغة العربية، لفرض وجودها والتبعية العالمية لها، «فقد بلغ الإنجليز حداً كبيراً من الدفاع عن لغتهم، بل التعصب لها والعمل الجاد

---

(١) أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص١٦٥.

المستمر على إبقائها مميزة بأصواتها وحروفها وقواعدها (...) هذا الولاء المقرون بالعمل والجهد المكثف المتواصل في التنسيق والتخطيط والرعاية هو الذي جعل الإنجليزية أكثر انتشاراً وقوة ومنعة وتأثيراً»[1]، ما جعل العديد من العرب ينقادون إليها، وينصاعون إلى مؤثراتها لغلبة شعورهم بضعف اللغة العربية الذي روج له المستشرقون سابقاً بدعوى أن العربية الفصحى لا تصلح لغة للبحث العلمي، وكان هذا السبب من أكثر أسباب تغييب اللغة العربية الفصحى، إذ أصبحت ظاهرة التواصل باللغة العربية الفصحى ظاهرة معقدة وشائكة في الوطن العربي «ذلك أننا ما سمعنا مواطناً عربياً رسمياً خارج الرسميات، ولا مواطناً شعبياً خارج المدارس والجامعات تنحل عقدة لسانه بجملة عربية واحدة مستقيمة إلا نادراً (...) حتى أضحى اليوم العجب بادياً على ألسنة قلة ممن يتحفظون في اللحن في المحافل والمنتديات والقمم من متحدث عربي يراقب لسانه من اللحن»[2].

فالفرد العربي يتعرف على اللّغة العربية الفصحى طفلاً في سن الخامسة من عمره بعد أن ينطلق لسانه بالعامية الممزوجة غالباً باللغات الأجنبية، وهذا ما يجعل تعلم اللغة الفصحى والنطق بها أمراً صعباً، حتى إذا تعود عليها فرضت عليه اللغة الأجنبية بحروفها وخصائصها المختلفة، الأمر الذي يجعله دائماً في حنين للغته العامية التي نطق بها أول الأمر، فحضور اللغة العربية الفصحى يكون ضئيلاً في مختلف مراحل حياته وعلى اختلاف مجالات الحياة في المدرسة أو الجامعة أو العمل أو البيت...، خاصة في ظل الراهن الذي نعيشه اليوم؛ زمن العولمة وما يترتب عليها من مخاطر التخلي عن الهوية

---

(١) أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص٣٦.

(٢) عبدالجليل مرتاض، **في رحاب اللغة العربية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، ط١، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٤٧.

الثقافية العربية الإسلامية حين يتهافت العرب على تعلم اللغة الإنجليزية دون العربية وينظرون إلى اللغة العربية باعتبارها قشرة خارجية يتم تعلم الحد الأدنى منها للتعامل به في التواصل العام، وتظل بمعزل عن أمور المعرفة المتقدمة، في الوقت الذي يشهد فيه العصر الحديث شعوباً تعتز بلغتها مثل فرنسا التي اتخذت إجراءات قانونية صارمة للمحافظة على لغتها الفرنسية، وسنت قانوناً يحظر استخدام اللغة الإنجليزية في وسائل الإعلام وفي التجارة وفي المحلات التجارية وأسماء الماركات والعناوين المستخدمة فيها.

فالتحديات التي تعيشها اللّغة العربية متعددة، خاصة ما يتعلق بجانب استثمارها علمياً ومعرفياً، فالملاحظ هو إبعاد اللّغة العربية عن مجال العلوم الحديثة المختلفة والتدريس والبحث العلمي، وكذا إبعادها عن مسايرة عصر العولمة والتكنولوجيا وكأنها غير قادرة على استيعاب المعطيات الجديدة من مصطلحات علمية حديثة، بالرغم من قدرتها العجيبة على التفاعل مع كل المستجدات، وسرعة تكيفها مع كل المتغيرات التي حصلت من العصر الجاهلي إلى الإسلامي، إلى الأموي والعباسي، وعصر النهضة وما قبلها، إلى يومنا هذا، فهي في هذا كله لم تعجز يوماً عن العطاء والاستمرارية، فكيف لها أن تعجز اليوم عن احتواء التكنولوجيا ومسايرة العولمة ومواكبتها؟!

وهنا نتطرق إلى ذلك الزعم القائل إنّ اللّغة العربية لا تصلح لتدريس العلوم، الأمر الذي دفع بالسياسات العربية إلى استبقاء اللغات الأجنبية المختلفة للتدريس في مختلف الفروع العلمية في معظم الجامعات العربية، وهنا يمكن الإشارة إلى التجربة الاستثنائية للجامعات السورية التي تدرس فيها الفروع العلمية باللغة العربية، وهي تجربة ناجحة حذت فيها سوريا حذو مختلف الدول

في العالم، كبولونيا واليونان والمجر ورومانيا وفنلندا وفرنسا وإسبانيا والصين واليابان وتركيا وإيران وبلغاريا وأمريكا وبريطانيا والبرتغال وهولندا وألمانيا...

إنّ من أخطر النتائج المترتبة على العولمة، النتائج المتصلة بمخاطر الاقتلاع الثقافي والخوف من فقدان الهوية اللغوية العربية في وقت يبدو فيه إهمالنا للغة العربية على مستوى العلم والتعليم والتطوير والاعتزاز الحقيقي لافتاً للنظر، فلا يبقى للدول العربية والإسلامية إلا أن تضع إستراتيجية محكمة للمحافظة على الهوية اللّغوية العربية مع ضرورة مواكبة مجريات العولمة من تطورات اتصالية وعلمية وإلكترونية من دون الانبهار الخاطئ والانغماس في تفاصيل الحضارة الغربية، فللهوية العربية خصائصها اللغوية والدينية المقدسة التي لا ينبغي المساس بها بحجة مواكبة العولمة وتحت أي ظرف كان.

**٢/٢. إستراتيجية الحفاظ على الهوية اللّغوية العربية ومواكبة عصر العولمة:**

يعد الدفاع عن الهوية اللغوية العربية واجباً قومياً للعرب والمسلمين، يمكن من خلاله السعي وراء التكتل العربي بتشكيل وحدة عربية اقتصادية وسياسية وثقافية اعتماداً على وحدة اللغة والدين، ولتحقيق حلم التكتل العربي الإسلامي، والحفاظ على الهوية اللغوية العربية، ينبغي بداية العمل على التخطيط الدقيق الشامل والبناء لوضع إستراتيجية محكمة للحفاظ على المقومات اللغوية العربية المتوارثة، مع ضرورة مواكبة التطورات العلمية والمعرفية الحاصلة في العالم وفق ما يعرف بمواكبة العولمة، فلا يمكن للشعوب العربية أن ترتقي إلى مصاف الدول الكبرى بالانغلاق على نفسها بمقاطعة اللغات العالمية الأخرى، في حين يمكنها المحافظة على هويتها اللغوية بإشراك اللغة العربية في مختلف الميادين العلمية والعملية في إطار تحاور اللغات والمعارف العالمية دون

التماهي في الانبهار باللغات الغربية، وتغييب لغتنا العربية عن عالم التطورات والاكتشافات في عصر العولمة الذي يشهد صراعات لغوية مختلفة على الصعيدين الداخلي والخارجي، لمحاولة إحكام سيطرة اللغة الإنجليزية على مختلف الشعوب في العالم.

لذا بات من الواجب على الدول العربية وضع خطة مشتركة بينها للدفع باللغة العربية نحو طريق التطورات المعرفية والعلمية والتحاور الثقافي العالمي لمواكبة العولمة مع الحفاظ على القيمة المقدسة لهذه اللغة المختارة –لغة القرآن الكريم– وفيما يلي عرض لبعض الاقتراحات للمحافظة على الهوية اللغوية العربية والدفع بها لمواكبة عصر العولمة:

- ضرورة تجسيد مبدأ أن الهوية اللغوية العربية ثابت من الثوابت الوطنية، والتحلي بالتفاني والإخلاص في خدمتها، وفرض قرارات سياسية تفرض مهابة اللغة العربية، باعتبارها المقوم الأساسي في دستور كل دولة عربية...، ومعاقبة كل متطاول على قدسية هذه اللغة.
- مناقشة التحديات التي تواجهها اللغة العربية بتشجيع الدراسات اللغوية، وتنظيم الملتقيات والمؤتمرات الدولية، لتبادل الآراء والخطط للارتقاء باللغة العربية، وفق خطة عربية موحدة.
- تخصيص مبالغ مالية خاصة لتطوير الأبحاث، لأن الحوافز المالية من شأنها تشجيع الطلبة للاستمرار في أبحاثهم.
- ضرورة اختيار مادة لغوية راقية للحفظ في سن مبكرة لترسيخ اللغة الفصحى السليمة في ذهن الطفل العربي، ولا شك أن حفظه للقرآن الكريم يحوّل مستوى اللغة عنده من مستوى البيت، إلى مستوى القراءة المقبولة،

لأنّ «اكتساب المستوى الأعلى في اللغة يجعل الشخص واثقاً من نفسه عند القراءة، وقد يصل إلى مرحلة التلقائية في استعمال اللغة»[1] وبالتالي يجب الحرص على تقديم لغة حيوية ونقية لجذب الطفل إلى هذه اللغة وإشعاره بأهميتها.

- وضع مناهج متقنة ووسائل تعليمية متطورة لمراحل التعليم المختلفة، تراعي الفروق الفردية، وتستجيب إلى حاجة المتعلم، وتستفيد من إمكانات العصر الحديث وتقنياته المتنوعة.
- الاستعانة في إعداد المناهج بنتائج الدراسات اللغوية الحديثة، وأن يُلتفت إلى المشكلات اللغوية القائمة والمتوقعة، مع الاستفادة من الدراسات والبحوث السابقة في هذا الشأن.
- تأليف كتب تضم البرامج والمناهج التدريسية لخدمة اللغة العربية، وتكريم مؤلفي الأعمال القيمة، وإجراء تقويم مستمر لتطوير حركة التأليف في هذا المجال.
- تقوية الدافع النفسي للتلاميذ لحب اللغة العربية والاعتزاز بها وبمكانتها العظيمة.
- ضرورة تعريب العلوم وتدريس المواد العلمية والتقنية باللغة العربية الفصحى، خاصة بعد نجاح التجربة السورية في هذا المجال، مع تخصيص

---

(١) حسني عبدالجليل يوسف، **اللغة العربية بين الأصالة والمعاصرة خصائصها ودورها الحضاري وانتصاراتها**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط١، مصر، ٢٠٠٧، ص٣٠٢.

مقياس لأهم "**المصطلحات العلمية**" باللغة الأجنبية في هذه الفروع يعنى بتمكين الطالب من معرفة المصطلحات العلمية باللغة العربية والإنجليزية أو الفرنسية للتمكن من مسايرة التقدم العلمي الحاصل دعماً لمواكبة العولمة، وبهذه الطريقة نعلي من مكانة اللغة العربية بين لغات العالم بإدماجها في تعليم العلوم، رداً على المزاعم الباطلة بعجزها عن مسايرة التطورات العلمية.

- المساهمة في إحياء التراث العربي، لزرع الثقة في نفوس الأجيال، للتأكد من أسبقية العرب وريادتهم في المنطق والرياضيات والطب والفلك...، ووسيلتهم في ذلك لغة عربية فصيحة.
- وضع قوانين صارمة لمنع تسلل المصطلحات الأجنبية كعناوين وأسماء المنتجات التجارية والصناعية، فاللغة العربية ثرية، وعلينا إعطاؤها الأهمية لتسمية كل المنتجات، وفي هذا إعلاء لقيمة الإنتاج الوطني، وحد من الانبهار بالمنتجات المستوردة.
- ضرورة وضع قوانين لكتابة الوصفات والتقارير الطبية باللّغة العربية، ما يسمح للأفراد باكتساب ثقافة طبية.
- تفعيل دور المجامع اللّغوية التي تقوم بدور حيوي في ملاحقة الجديد من المصطلحات، في مختلف العلوم والفنون، وتضع لكل جديد في الإنجليزية مقابلاً عربياً مناسباً، لكن المشكلة هي أنه ليس لهذه المجامع سلطة تربوية تفرض على المدارس، والمعاهد والكليات استخدام المصطلحات العربية الجديدة، لأن معظم تلك المعاهد لا تستعمل اللغة العربية، وبالتالي يجب على

الدول العربية سن قوانين سياسية صارمة لتفعيل العلاقة بين المجامع اللّغوية ومجالات استعمالها من مدارس، وجامعات، وأماكن عمل.

- فرض استعمال اللّغة العربية، على رجال السياسة، والعلم والأدب، خاصة فى المحافل الدولية، والملتقيات والمؤتمرات.
- تأسيس لجان دولية عربية تسهر على الإعداد المستمر والمتواصل لكلّ الآليات المختلفة فى مجال تقويم تدريس علوم اللّغة العربية لما فيها من خصائص تختلف عن بقية العلوم.
- نشر توصيات المؤتمرات، واللجان الباحثة في مجال الارتقاء باللغة العربية والمحافظة عليها ومواكبتها العولمة.
- تشجيع تدريس تخصص اللغة والأدب العربي في الجامعات الغربية، بالتنسيق بين وزارات التعليم العالي العربية، والغربية، سعياً إلى عالمية اللغة العربية وإبقائها على صلة بالمنجزات العلمية فى الغرب.
- فرض تدريس مقياس اللغة العربية كمادة أساسية في التخصصات اللغوية الأجنبية، في الجامعات العربية، وإعطاء اللغة العربية مكان الصدارة قبل اللغات الأجنبية، والتصدي لتهميش اللغة العربية والاستهزاء بها من طرف أساتذة وطلاب التخصصات الأجنبية.
- إقامة أيام دراسية تحسيسية بقيمة اللغة العربية والحفاظ عليها في كل الأقسام الأدبية والعلمية فى الجامعات، وذلك بشكل دوري، لتعميق الشعور بالهوية اللغوية العربية، وخطورة الانصياع وراء تفاهات الحضارة الغربية.
- تشكيل لجان متخصصة لإعداد برامج تعليم العربية لغير الناطقين بها، ومراجعة المحتوى الثقافى الذي تقدمه مناهج وكتب تعليم اللغة العربية إلى هذه الشريحة بما يغنى حاجتها ويحقق أغراضها التى لا تتعارض مع قيم الثقافة العربية الإسلامية.

- فرض استعمال اللغة العربية الفصحى والسهلة في أجهزة الإعلام، مع ضرورة إخضاع الصحفيين، ومعدي البرامج لاختبارات تبين مستوى الفصحى لديهم، وتوجيههم من طرف مختصين لغويين قبل بدء العمل الإعلامي.
- تشجيع إنجاز حصص تلفزيونية لتعليم اللغة العربية للمبتدئين، وفتح قنوات فضائية متخصصة في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، والتعريف بخصائصها لأكبر عدد من المشاهدين.
- عقد حلقات بحث بين المجالس العليا للغة العربية، والمؤسسات الإعلامية، ومعاهد التكوين في الإعلام لبحث سبل الارتقاء باللغة العربية في وسائل الإعلام.
- إدراج مادة الترجمة في مختلف المعاهد الأدبية والعلمية استجابة لمقتضيات العصر.
- إنشاء مواقع ومحركات بحث باللغة العربية في شبكة الإنترنيت، تخصص فيها مساحات لتطوير وترقية اللغة العربية، وجعلها من أحسن لغات العالم استيعاباً لمختلف العلوم والمعارف.
- تشجيع حركة التأليف والترجمة والنشر للكتب العربية الورقية والرقمية، وإيصالها إلى أكبر عدد من المهتمين والقراء العرب أو الغربيين بأسعار معقولة للكتب الورقية.

**المحور الثالث: تبني منهجية سليمة لتلقين الناشئة أسس الهوية اللّغوية العربية**

تحتل اللّغة العربية حالياً حسب ترتيب منظمة اليونسكو للثقافة والتربية والعلوم "**المرتبة السادسة**" بين لغات العالم التي تستعملها نصف البشرية، بعد

الصينية والإنكليزية والهندية والإسبانية والروسية، ومع ذلك لم تتمكن العربية من مواصلة تقدمها الحضاري وتحقيق التراكم العلمي والإبداعي في أوطانها وانتشارها خارج حدودها الثقافية، بعد أن كانت لغة العلم والتعليم في كثير من الجامعات والمعاهد في جنوب أوروبا، وتتصدر مكتبات تلك الجامعات مراجع في الطب والصيدلة والرياضيات والفلك بالعربية، إذ وقفت ضد تطورها عوامل عطلتها وأضعفت من إشعاعها التاريخي، من خلال ما لحق بأهلها من تخلف وجمود، وكثرة الفتن بسبب ضعف الدولة الإسلامية، وأخيراً التعاون والاستقواء بالأجنبي على العربي.

لقد بات من الواجب ملياً على القائمين على السياسات التعليمية والثقافية والإعلامية الحفاظ على اللغة العربية الفصحى، وذلك مرهون بارتفاع المستوى الثقافي، وبالقدرة على استمرار تطوير اللغة الفصحى لتصبح قادرة على استيعاب التيارات الفكرية الحديثة، وقادرة على التعبير عن كل جديد في ميدان التطورات العلمية والتقنيات الحديثة بشكل واضح ومفهوم ودقيق، كما يجب ألا ننسى أهمية تطوير مصطلحات علمية في جميع ميادين الفكر الإنساني، وأن تكون هذه المصطلحات موحدة في مشرق الوطن العربي ومغربه، وهذا بحد ذاته جهد كبير جداً بحاجة إلى تكاتف الجميع: حكومات ومؤسسات حكومية وجامعات، وجمعيات المجتمع المدني، فهذه المهمة المقدسة التي تتطلب تكاتف جهود المجتمعات العربية قائمة، فهذا أقل ما تستطيع تقديمه للعربية لغتنا وهويتنا من خلال عملية التخطيط السليم للارتقاء باللغة العربية، والنهوض بها من سباتها العقيم من جهة، ومحاولة تفعيل دور مؤسسات التعليم والجامعي نحو تفعيل التواصل باللغة العربية الفصحى بعيداً عن اللهجات الدارجة المتفشية بين أوساط المتعلمين من جهة ثانية حماية للغة العربية الفصحى، وأخيراً توجيه سياسة الدولة والمجتمع المدني نحو حماية اللغة العربية الفصحى من الزوال كملمح نهائي يمكن أن يسهم في تحقيق صور التواصل الذي نطمح إليه نهائياً.

### ١/٣. التخطيط اللّغوي:

إنّ التخطيط اللّغوي العربي ينبثق من أيديولوجيا عربية إسلامية مفادها ومحورها أن اللغة العربية لها دور رئيس في بناء الأمة والأوطان في كافة الصُّعد والميادين، وأنّ اللغة العربية مصدر رئيس من مصادر الدخل القومي ومقومات وجود الأمة العربية الإسلامية، وأنها حق مكتسب لا شكل يعيق التقدم والازدهار، وأن السياسة اللغوية العربية تقدر عالياً دور اللغات الأجنبية لا طغيانها على اللغة العربية وأنها في وضع تكاملي لا تنافسي، لقد كشفت أدبيات التخطيط اللغوي أنه لا توجد نظرية واحدة بعينها كافية لتقديم إطار عام يصور التخطيط اللغوي العربي بشكل عام وعملية التعريب بشكل خاص. إنّ توافر أنموذج شامل مبنياً على أسس علمية مدروسة يمكننا من رسم السياسة اللغوية والأخذ بعين الاعتبار العوامل اللغوية وغير اللغوية التي تؤثر سلباً أو إيجاباً في عملية التخطيط ورسم السياسة اللغوية العامة لكلّ دولة عربية، والأزمة التي تعاني منها العربية اليوم هي أزمة في نفوس أهلها لا بها، فإذا واجهنا التحديات الآنفة الذكر بتخطيط لغوي رصين واضح بيّن الأهداف والوسائل والنتائج في خطة لغوية قابلة للتطبيق نكون قد نجحنا في حل الأمة المطروحة لأن الحروب القادمة هي حروب لغوية لا عسكرية. إن التخطيط للغة هو التخطيط للجميع، وإذا أردت تخطيطاً لغوياً ناجحاً فعليك بالتخطيط لكل المجتمع، وإن دور التخطيط اللغوي في خدمة العربية يقوم على خطة إستراتيجية لغوية تأتي من وضوح الرؤية والرسالة بما يتعلق بالعربية والتعريب ابتداء من رأس هرم الدول وانتهاء بالفرد والمجموعات، ترسمها الدول العربية قاطبة، ويُشرّع لها مجلس أمة خاص، يستجيب لكل متطلبات الشعب العربي.

### ٢/٣. تفعيل دور المؤسسات التربوية والجامعات

لعلّ من أبرز التحديات التي جابهت التعليم في **المؤسسات التربوية والجامعات العربية** على وجه العموم منذ القرن الماضي تحقيق المهام التقليدية التي تضطلع بها هذه المؤسسات التعليمية من تربية وتعليم وبحث وتقديم مختلف الخدمات العامة للمتعلمين، فهي من خلال أطرها العلمية التدريسية على اختلاف درجاتهم تقوم بنقل المعرفة للملتحقين بها من الطلبة المتمدرسين، ومن ثم تزويد المجتمع بالمهارات والكفاءات العلمية والتقنية، إضافة إلى ما تقوم به من بحوث علمية، وتجريبية وميدانية، وكذا تقديم مختلف الخدمات الاستشارية وإنجاز بعض المشاريع العلمية المتصلة بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية والعملية، فقد تعين الآن على مختلف جامعات ومدارس التعليم، ومراكزها البحثية، تطوير مناهج وأساليب تلقين اللغة العربية من أجل خدمة الكيان الاجتماعي الذي توجد فيه، وتحقيق أهداف اجتماعية تعددت بتعدد السياقات الاجتماعية، فهي قمة السلم التعليمي ومجتمع المعرفة الذي يمد المجتمع بأسباب التقدم والتطور في كل مجالات الحياة، وهو مصدر القدرات التنموية علمياً وعملياً.

وهذا لا يتأتى إلاّ من خلال تفعيل منهاج موحد لتدريس اللّغة العربية بفروعه اللّغوية والأدبية ليصبح مكوناً أساساً للمنهاج الدراسي في بلدان الوطن العربي، حرصاً على تمكين الناشئة من مهارات اللّغة العربية، وإكسابهم المعارف المتصلة بها وغرس قيم الاعتزاز بها، والمحافظة عليها في نفوسهم، لبناء شخصية عربية ذات كيان متميز، مستمد من تفرد المجتمع العربي وقيمه، وعاداته، مبني على القدرات الذاتية، والخصائص الفردية لكلّ فرد، حيث تقوم مناهج اللّغة العربية بدور محوري في تشكيل الهوية العربية للناشئ من خلال إكسابه مهارات اللّغة اللازمة للاتصال بأفراد المجتمع، والاطلاع على التراث

الفكري والأدبي للسلف، الأمر الذي يحافظ على تدفق اللّغة العربية على ألسنة أبنائها، ويغرس فيهم الإيمان بقدرة اللّغة العربية، وعبقريتها في التعبير عن الأفكار والمشاعر، ويربطهم بأشقائهم في المجتمعات العربية الأخرى، ويسهل عملية التواصل معهم على امتداد الرقعة المكانية التي يعيشون فيها.

**٣/٣. توجيه سياسة الدولة/المجتمع إلى حماية اللّغة العربية:**

إذا أردنا توجيه سياسة الدولة للنهوض باللغة العربية لا بدّ من توفر جملة من الشروط الموضوعية والخطط المنهجية لجعل اللغة العربية مركز العملية التعليمية، ومصدراً مهماً في تحقيق لغة التواصل المعرفي والفكري بين الناطقين بها من خلال إعداد خطط لغوية في مستويات مختلفة تحظى بالاستثمار والإنفاق المناسبين من أجل دعم حضور اللّغة العربية في الشبكة العالمية للمعلومات، وفي الوسائل السمعية البصرية، وإفراز أدوات تعليمية وتقنية، وبيداغوجية حداثية، ودعم انتشار اللغة العربية في البلدان الأخرى، للرفع من عدد ناطقيها ومروجي حمولتها الفكرية والحضارية، مع مراعاة الجوانب التشريعية والقانونية الداعمة للاختيارات والخطط، وهذا من خلال المرحلية الآتية:

أ. **التشريع اللّساني العربي:**

تقوم الدول المتقدمة بوضع العديد من التشريعات والقوانين لحماية لغتها حتى تسلم من الأخطاء ومخالفة الضوابط والقواعد، وحتى تنفذ في المحيط **(الإعلامي والإداري والاقتصادي والتعليمي والسياسي)**، وذلك بوضع ضوابط لاستعمال الفضاءات اللغوية، نحو ميثاق اللغة الفرنسية بكندا "***Charte de la langue francaise***" وقانون توبون بفرنسا "***la loi Toubon***"، كما نذكر ظهور حركات إصلاح لغوي نشطة؛ من أبرزها

ما قامت به ألمانيا والنمسا وسويسرا في العام ١٩٩٦م، وهذا بإنشاء لجنة مشتركة لإدخال إصلاح موحد على الألمانية لتصمد أمام المنافسة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، وأمام تلك النماذج الغربية في محافظة كلّ دولة على لغتها كان لزاماً على المجامع اللغوية العربية أن تتفق بوضع مواثيق للغة العربية تحميها من الألفاظ الدخيلة عليها، وإيجاد ما يقابلها في لغة الضاد بدل ترك المجال للعابثين بها والحاقدين عليها، ومهاجمتها من الحين للآخر واتهامها بالجمود وعدم مسايرة المعاصرة والعولمة اللغوية والثقافية والتقنية، ومع ذلك بقيت تلك المشاريع القومية مجرد أضغاث أحلام، في مجتمع عربي يمتد من المحيط للخليج العربي له مقوم لساني واحد، لكنْ بسياسات عربية بقيت تعيق توحيد اللّسان العربي في مجمع واحد يشرع القوانين اللغوية، ويسنّ له الضوابط المنهجية للتواصل اللّغوي في عالم يبحث عن لغة واحدة تجمعه، ومع ذلك نشجع ما قام به القائمون على مؤتمر اللغة العربية الذي يقام كل سنة في دولة الإمارات العربية المتحدة بدبي من خلال وضعه قانون اللغة العربية من طرف المجلس الدولي للغة العربية بتاريخ ٢٠١٣/٠٧/٢٩ والذي يتكون من ثلاث وعشرين مادة في سبعة فصول، ولعل أبرزها الفصل الخامس الخاص بالعقوبات بمواده الثلاثة التي تجرم الاعتداء على اللغة العربية بكل أشكالها وصورها، وقد أصدر هذا القانون في كتيب من (٣٢) صفحة.

**ب. المجامع اللّغوية وتجربة المجمع اللغوي الأردني في تقنين استخدام اللّغة العربية:**

ينبغي أن تقوم المجامع اللّغوية العربية المنتشرة في مختلف بلدان العالم العربي، والجامعات والمعاهد والمجالس اللغوية بدورها في النهوض باللغة العربية، بما في ذلك إنتاج المؤلفات والمتون العلمية والتقنية باللغة العربية، والوقوف على مسألة الترجمة العلمية السليمة من اللغة العربية وإليها، وتوحيد وضع مختلف المصطلحات العلمية التي تأتي إلينا وافدة من الغرب عن طريق

العولمة الثقافية، ووضع المعاجم والكتب المدرسية، ونشرها على مختلف الشبكات الرقمية وتوفير وسائل التعميم والانتشار، ويقتضي هذا أن تقوم الحكومات العربية، والمؤسسات المالية العربية بدعم المؤسسات القائمة على حماية اللغة العربية مادياً، وهذا بتوفير الوسائل المادية والبشرية اللائقة، وأن يعاد النظر في الهياكل القائمة قياساً بما يوفره القائمون في مجال حماية اللغة العربية، وتوفير المناخ اللائق بها، والدور الذي قام به المجمع اللغوي الأردني يعد خطوة جريئة من طرف رئيسه الأستاذ الدكتور **(خالد الكركي)**، والذي أنشأ قانوناً لحماية اللّغة العربية تحت رقم (٣٥) لسنة ٢٠١٥، والمنشور على الصفحة رقم (٦٢٩٨) من عدد الجريدة الرسمية رقم (٥٣٤٧) بتاريخ ٢٠١٥/٧/٠١، والمصادق عليه من طرف –**عبدالله الثاني بن الحسين**– ملك المملكة الأردنية الهاشمية يحفظه الله بمقتضى المادة (٣١) من الدستور وبناء على ما قرره مجلسا الأعيان والنواب، وهذا القانون يتكون من ١٨ مادة، حيث تشير المادة الأولى منه إلى التنفيذ لهذا القانون بعد ستين يوماً من صدوره، والمادة الخامسة عشرة منه تنص على معاقبة كل مخالف لهذا القانون بغرامة مالية لا تقل عن ألف دينار ولا تزيد على ثلاثة آلاف دينار أردني، وقد ساهم في وضع حد لكل من يتطاول على انتهاك حرمة اللغة العربية، ويحقق لها التواصل بين مختلف طبقات المجتمع الأردني، ولعل هذا القانون كان فاتحة عهد جديد لكل الدول العربية على السير في خطى المجمع اللغوي الأردني، وتبني كل قراراته الشجاعة بشأن حماية اللغة العربية.

**ج. تأسيس مؤسسات جمعوية ذات طابع مدني لحماية اللّغة العربية:**

إنّ مسألة الارتقاء باللغة العربية ليست بسيطة وليست بالسهولة التي ينظر إليها أحدنا للوهلة الأولى، فوفقاً لبيانٍ أصدرته منظمة اليونيسكو للتربية والثقافة

والعلوم في إحدى مناسبات الاحتفال باليوم العربي لمحو الأمية بلغ عدد الأميين في البلاد العربية قرابة ١٠٠ مليون نسمة من أصل ٣٣٥ عربياً، أي ما نسبته ٢٩,٨٥%، وأوضحت المنظمة أن ٧٥ مليوناً من إجمالي الأميين العرب تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٤٥ عاماً، وتزيد معدلات الأمية بين النساء، حيث يعاني قرابة نصفهن منها أي **٤٦.٥%**، يضاف إلى ذلك عدد لا يستهان به من غير الأميين، ولكنهم لا يستطيعون فهم نص مكتوب باللغة الفصحى بشكل سليم، فكيف يمكن تخيل أي حركة تطور فكري أو تنمية اقتصادية واجتماعية وثقافية في عصر المعرفة؟

إذن، ونحن أمام هذه الأرقام المخيفة التي تحدد ارتفاع نسبة الأمية في تعلم اللغة العربية والنطق بها، لا بدّ من دق ناقوس الخطر، ويجب هنا أن تقوم جمعيات ذات طابع مدني للتدخل السريع من أجل دعم استعمال اللغة العربية في مختلف القطاعات الحيوية كالإدارات العمومية والخاصة والمؤسسات الاقتصادية، والثقافية للتصدي للهجات المحلية من جهة والاستعمال غير العقلاني للغات الأجنبية الدخيلة على المجتمعات العربية، بما فيها العلوم والتقنيات المختلفة، خاصة في الجانب العلمي المعرفي البحت، من أجل توفير الجوّ المناسب لحمايتها ضد كلّ المتربصين بها حماية لبقائها ورقيها، ساهرة على استعمال اللغة السليمة، وعلى مقاضاة من يعتدي عليها عن طريق قوانين تحميها وتدافع عنها، وعلى المشرّع العربي توفير قوانين للجمعيات التي تدافع عنها، حتى يكون حراكها اللّغوي مقنناً من أجل حمايتها لا أكثر ولا أقل، من أجل تحفيز المجتمع العربي للنطق بها كنموذج لغوي موحد يسمح للغة العربية بمواصلة تقدمها نحو العالمية.

**خاتـمة:**

بات من الضروري في خاتمة هذه الدراسة أن نشير إلى أن الهوية اللّغوية العربية يمكنها أن تستعد اليوم إلى مواجهة التحديات التي فرضها الواقع الراهن بكل خصوصياته، وحيثياته، وذلك برصد كل الجهود للارتقاء باللغـــة العربيـــة عالمياً، والتشبث بالقيم المقدسة لهذه اللغة في علاقتها بالدين الإسلامي الحنيف، وهذا المطلب لن يتحقق إلا بالإيمان المطلق بقدرة هذه اللغة العجيبة على احتواء الآداب والعلوم والتطورات، ومسايرة التطورات في زمن العولمة دون أن يمس هذا بالقيمة الصوتية والتركيبية والنحوية لهذه اللّغة التي حباها الله **(جلّ وعلا)** القداسة والاستمرارية والبقاء...، كيف لا وهي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

**التوصيات:**

تتحدد في جملة من النقاط التي ينبغي علينا مراعاتها أثناء الحفاظ على هوية اللغة العربية وتمكينها من العالمية:

١- أن تعتمد المجتمعات العربية آليات وأساليب متنوعة في إبراز مكانة اللغة العربية وهويتها من أجل الارتقاء بها في سلم اللغة العالمي، من خلال التحفيزات المادية والمعنوية لتمكينها من العالمية.

٢- وضع آلية جديدة لتفعيل أساليب التواصل اللغوي داخل المجتمعات العربية بعيداً عن اللهجات الدارجة التي باتت تشوّه أسس التواصل اللغوي الموحد بين المجتمعات العربية التي لديها كل آليات التواصل دون لكنة أو خلل لغوي لكون معجمها اللغوي واحداً.

٣- اعتماد معايير علمية في تدريس اللغة العربية، ومحاولة تحبيبها للمتعلمين، وزرع الثقة اللغوية في أنفسهم حتى يتمكنوا من الدفاع عنها مستقبلاً لأنها جزء مهم من هويتهم.

٤- اتخاذ قرارات سياسية مصيرية بين الدول العربية المشرقية والمغربية من أجل توحيد استعمال اللغة العربية الفصحى، والدفاع عن هذا المطلب من خلال استصدار قوانين تحمي مختلف الأشخاص الناطقين بالعربية الفصحى.

٥- دعوة المجامع اللغوية العربية إلى تفعيل عمل موحد يحمي الدول العربية ولغتها من اللغات الأجنبية القادمة إلينا عن طريق العولمة اللغوية والثقافية التي بدأت تغزو مجتمعاتنا العربية مؤخراً باسم اللّغات العالمية كالإنجليزية مثلاً.

نخلص في النهاية إلى أنه يجب على المجتمعات العربية أن تهتم بتطوير اللغة العربية للمحافظة على هويتها وتكاملها اللغوي وتمكينها من التفاعل مع علومها فهماً وتطبيقاً، وذلك من خلال إعداد مناهج وتكوين خبراء يساهمون بشكل مباشر في تلقين وتطوير علوم اللّغة العربية بشكل مستمر لحمايتها من كل خطر لغوي آخر يهدد كيانها، أو ضرر معرفي أو منهجي قد يفسد أطرها النظرية والتعليمية، كما أنّ الجهود المبذولة في هذا النطاق ما زالت بحاجة ماسة إلى إمكانيات كبيرة في حقل تعليمية اللغة العربية من خلال اختيار الأساليب والطرائق التدريسية المناسبة، فالدول العربية رغم إعدادها للعديد من التعديلات والتغييرات على مستوى المدارس والجامعات في شروط التعليم لعلوم اللّغة العربية، وإنشاء المجالس والمجامع اللغوية، ومراكز البحث المختلفة كـ **(مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللّغة العربية)** في الجزائر، وغيرها من المؤسسات التي ساهمت بشكل مهم في تلقين علوم اللّغة العربية أو المساهمة في حمايتها، إلا أننا نقر صراحة بوجود نقائص عديدة، لا نستطيع القضاء عليها إلّا **بإنشاء وزارة** خاصة واحدة تضم جميع البلدان العربية لتمكينها من ترقية وتطوير علوم اللّغة العربية والدفاع عنها ضد الغزو اللغوي العالمي ودعمها والمحافظة على استمراريتها لكونها تمثل هوية الأمة العربية الإسلامية، وأحد أبرز مقوماتها نحو العالمية.

## الهوامش والإحالات

(١) عباس الطائي، **آفات اللغة والهوية**، ٢٢/١٠/٢٠١٧ w.ahwazstudies.org.

(٢) عباس الجراري، **مكونات الهوية الثقافية المغربية**، مجلة الهوية الثقافية للمغرب، كتاب العلم، السلسلة الجديدة، ط١، ١٩٨٨، ص٢٢.

(٣) الشريف الجرجاني، **التعريفات**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٨٨، ص٢٥٧.

(٤) نور الدين حاطوم، **تاريخ القوميات في أوروبا**، الجزء الثالث، دار الفكر العربي، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٦٩، ص٢١٣.

(٥) ساطع الحصري، **ما هي القومية**، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٦٣، ص٥٦.

(٦) محمد عبدالشفيع عيسى، نظرية الحصري في القومية العربية، جدلية الإثبات والنفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ومعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، مصر، ١٩٩٩، ص١٤٧.

(٧) أحمد محمد المعتوق، **نظرية اللغة الثالثة دراسة في قضية اللغة العربية الوسطى**، المركز الثقافي العربي، ط١، المغرب، ٢٠٠٥، ص١٦٥.

(٨) عبدالله النطاوي، **اللّغة والمتغير الثقافي الواقع والمستقبل**، الدار المصرية اللّبنانية- القاهرة، ط١، مصر، ٢٠٠٥، ص٤٠.

(٩) أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص٥٨.

(١٠) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(11) Taleb Ibrahimi Khaoula, Les Algériens et leur langues ,Edition el Hikma, Alger ,1997, p35.

(١٢) تركي رابح، **التعليم القومي والشخصية الوطنية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط١، الجزائر، ١٩٩٠، ص١٣٠.

(١٣) عبدالله النطاوي، **اللغة والمتغير الثقافي الواقع والمستقبل**، ص٦١.

(١٤) يحيى جبر، عبير حمد، تعلم العربية مأرب أم حفاوة، مؤتمر العلاقة مع الغرب من منظور الدراسات الإنسانية، كلية الآداب، جامعة اليرموك، ٧ – ٨ تشرين الثاني ٢٠٠٧، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ط١، ٢٠٠٩، ص٨٣٤.

(١٥) حفيظة تازورتي، **اكتساب اللّغة العربية عند الطفل الجزائري**، دار القبة للنشر، ط١، الجزائر، ٢٠٠٣، ص٤٥، ٤٦.

(١٦) نور الدين بليبل، **الارتقاء باللغة العربية في وسائل الإعلام**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ط١، قطر، ٢٠٠١، ص٢٨، ٢٩.

(١٧) الخوري شحاذة، **الترجمة قديماً وحديثاً**، دار المعارف للطبع، ط١، تونس، ١٩٨٨، ص١٧١.

(١٨) خنيش السعيد، التداخل اللغوي في التعبير الشفوي خلال العملية التعليمية– طلبة قسم اللغة العربية وآدابها السنة الأولى نظام ل.م.د، جامعة بجاية نموذجاً، مخطوط مذكرة ماجستير، جامعة فرحات عباس سطيف، الجزائر، ٢٠٠٩، ص٣٨.

(١٩) المرجع نفسه، ص٣٨.

(٢٠) زاهية لوناس، دراسة استعمال اللغة العربية عند طلبة كلية الحقوق – بوخالفة – دراسة ميدانية، مخطوط ماجستير، إشراف محمد يحياتن، جامعة تيزي وزو، ٢٠٠٧، ص٣٩.

(٢١) خنيش السعيد، التداخل اللّغوي في التعبير الشفوي خلال العملية التعليمية– طلبة قسم اللغة العربية وآدابها السنة الأولى نظام ل.م.د، جامعة بجاية نموذجاً، ص٣٩.

(٢٢) المرجع نفسه، ص٤٤.

(٢٣) خليل حلمي، **المولد في اللغة العربية**– دراسة في نمو اللغة العربية وتطورها بعد الإسلام–، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، لبنان، ١٩٨٥، ص١١٩.

(٢٤) رشيد فلكاوي، أثر التداخلات اللغوية في الأداء الكلامي عند الطالب الجامعي، مخطوط مذكرة ماجستير، جامعة بجاية، ٢٠٠٦، ص٦٦.

(٢٥) أحمد محمد المعتوق، نظرية اللغة الثالثة، ص١٦٥.

(٢٦) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٧) المرجع نفسه، ص٣٦.

(٢٨) عبدالجليل مرتاض، **في رحاب اللغة العربية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون، ط١، الجزائر، ٢٠٠٧، ص٤٧.

(٢٩) حسني عبدالجليل يوسف، **اللغة العربية بين الأصالة والمعاصرة خصائصها ودورها الحضاري وانتصاراتها**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط١، مصر، ٢٠٠٧، ص٣٠٢.

# التّعدّد اللغوي وانعكاساته على اللغة العربية والفكر والهوية الثّقافية "المجتمع الجزائري أنموذجاً»

الدكتورة صحرة دحمان

جامعة الجزائر٢

الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٥ نيسان ٢٠١٨م

## الملخص

ركزت الدراسة على انعكاسات التّعدّد اللغوي على الحياة اللغوية والفكرية والهوية الثّقافية في الجزائر بالتّطرّق إلى جملة من القضايا. ومعالجة مثل هذه الموضوعات شائكة؛ لأنّ المجتمع الجزائري يتميّز بجملة من الخصائص لا يمكن لمجتمع آخر أن يشاركه فيها، على الرّغم من وجود بعض المظاهر المشتركة التي تجعله يتقاسم بعض الهموم والمشكلات مع مجتمعات عربية كثيرة وبالخصوص المجتمعات المغاربية. وبالتّالي فإنّ بعض النتائج يمكن تعميمها وبعضها الآخر يبقى رهين المجتمع الجزائري.

اللغات هى أدوات للتّعبير والتّواصل فى المجتمعات النّاطقة بها؛ حيث ترتبط بكلّ مناحى الحياة: النّفسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والفكرية. وتمثّل ظاهرة **التفرّد اللغوي** (***Unilingue***) الوضعية اللسانية الأكثر قرباً من الطبيعة البشرية؛ لأنّ المتكلّمين فى مجتمع ما يرتبطون وجدانياً –وفى غالب الأحيان– بلغة واحدة تمنحهم القدرة على التّعبير والتّواصل فيما بينهم، فتصير جزءاً من كيانهم وأرواحهم. غير أنّ الواقع يفرض إكراهاته وشروطه؛ لأنّ مجتمعات كثيرة عرفت ظاهرة الازدواج اللغوي (***Bilinguisme***) أو التّعدّد اللغوي (***Plurilinguisme***) لأسباب متباينة، كما هو الحال في كثير من دول العالم.

وإذا كان الازدواج (أو التّعدّد) اللغوي فى بعض المجتمعات هو اختيار فرضته ضرورات راجعة إلى طبيعة المجتمع نفسه، فإنّ وجود هذه الظّاهرة فى بعضها الآخر كان مفروضاً بقوة السّلاح. فأدى ذلك إلى انعكاسات سلبية على اللغة أو اللغات الأصلية، وعلى الفكر والهوية الثّقافية لتلك المجتمعات. وهو ما ستحاول هذه الورقة البحثية أن تركّز عليه.

فقد تعرّض المجتمع الجزائري لعنف وهمجية استعمارية استدمارية نادراً ما شهدتها البشرية؛ ذلك أنّ الاستعمار الفرنسى قلب أوضاع الجزائر رأساً على عقب بتجهيل شعبها وغلق أبواب مدارسها، محاولاً فرنسة الجزائر والجزائريين بتدمير كلّ ما يخدم لغته وهويته. وهو ما أثّر سلباً فى الحياة اللغوية والفكرية والهوية الثّقافية. فمن ٥% فى عدد الأميين غداة الاحتلال الفرنسي إلى ٩٥% من الأميين في الجزائر لحظة خروج فرنسا.

لذلك نريد بهذه المباشرة أن نركّز اهتمامنا على انعكاسات التّعدّد اللغوي على الحياة اللغوية والفكرية والهوية الثّقافية في الجزائر بالتّطرّق إلى جملة من القضايا التي تسهم في معالجة موضوعنا.

ونشير إلى أنّ معالجة مثل هذه الموضوعات شائكة؛ لأنّ المجتمع الجزائري يتميّز بجملة من الخصائص لا يمكن لمجتمع آخر أن يشاركه فيها، على الرّغم من وجود بعض المظاهر المشتركة التي تجعله يتقاسم بعض الهموم والمشكلات مع مجتمعات عربية كثيرة وبالخصوص المجتمعات المغاربية. وبالتّالي فإنّ بعض النتائج يمكن تعميمها وبعضها الآخر يبقى رهين المجتمع الجزائري.

**١. الوضع اللغوي وأبعاد المسألة اللغوية في الجزائر:**

عندما نتحدّث عن الجزائر فنحن بالضرورة نتحدّث عن تنوّع لغوي وثقافي وجغرافي، فاللغة العربية الفصحى هي اللغة الرّسمية في البلاد، وهي لغة التّعليم في المراحل الثّلاث: الابتدائية، والمتوسّطة، والثّانوية. كما تعتبر اللغة النّاقلة للمعارف في التّخصصات الأدبية والعلوم الإنسانية والاجتماعية في المرحلة الجامعية. وتعدّ اللغة الفرنسية اللغة الأجنبية الأولى التي يبدأ الطفل في تعلّمها ابتداء من ثماني سنوات (السّنة الثّالثة ابتدائي). غير أنّ احتكاك فئة من الأطفال الجزائريين باللغة الفرنسية يبدأ في سن مبكّرة جداً؛ أي في مرحلة ما قبل التّمدرس في عدد من **رياض الأطفال الخاصّة** التي تتخذ اللغة الفرنسية لغة ناقلة للمعارف. فضلاً عن أنّ اللغة الفرنسية هي لغة التعليم (لنقل العلوم والمعارف) في جميع التّخصصات التّكنولوجية والعلمية كالطّب والصّيدلة والهندسة المعمارية... إلخ.

وإذا تحدّثنا عن التّخاطب اليومى للجزائريين فلا بد أن نتحدّث عن اللهجات العربية الجزائرية واللهجات الأمازيغية؛ ذلك أنّ الجزائر تتميّز بتنوّع لهجى، حيث تتوزّع اللهجات العربية، شرقاً وشمالاً وغرباً وجنوباً ووسطاً، وهو ما يجعل لهجاتها تعرف بحسب المنطقة الجغرافية، حيث يتشكّل الهيكل العام

للعاميات الجزائرية من كلّ اللهجات الإقليمية التي تختلف من منطقة إلى منطقة أخرى، ويمكن تقسيمها كما يلى:

- المنطقة الشّرقية، وتضم لهجات مثل: سطيف، وقسنطينة، وعنابة... إلخ.
- المنطقة الوسطى، وتضم العاصمة الجزائرية وضواحيها من القرى والأرياف.
- المنطقة الغربية، وتضم لهجات مثل: وهران، ومستغانم، وتلمسان... إلخ.
- المنطقة الصّحراوية، حيث تشترك لهجاتها مع مجموعة من اللهجات العربية الممتدّة من شبه الجزيرة العربية إلى المحيط الأطلسي في عدد من الخصائص(١).

وتجب الإشارة إلى أنّ هذه العاميات تتقاسم جملة من الخصائص العامة تجعلها تُعرف بأنّها تنتمى إلى إحدى اللهجات الجزائرية. كما أنّها تختلف فى بعض السّمات الأخرى فتجعل اللهجة العاصمية مثلاً تتميّز ببعض الصفات الصوتية عن اللهجة الجيجلية، أو اللهجة القسنطينية، وتجعل اللهجة العنابية أو التّبسية (تبسة مدينة جزائرية تقع فى أقصى الشّرق الجزائرى، وهى أقرب إلى اللهجات التّونسية) تتميّز عن لهجات القطاع الوهراني والتّلمساني ببعض الصّفات وهكذا.

كما يبدو **تمركز اللهجات الأمازيغية في** بعض المناطق المحدّدة **واضحاً** كالشاوية في منطقة الأوراس، والقبائلية في تيزي وزو وبجاية والبويرة وبرج بوعريريج وجزء كبير من منطقة بومرداس. وتتمركز اللّهجة الترقية في جنوب الصحراء

---

(1) Khaoula Taleb Ibrahimi, ***les Algériens et leur(s) langue*(s)** Elément pour une approche sociolinguistique de la société algérienne، Les Editions El hikma, Alger, 1997, p.27.

وانظر أيضاً بحثنا في الماجستير: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللّغوي في سلوك الناطقين الجزائريين (الوسائل السّمعية-البصرية نموذجاً)**، جامعة الجزائر، معهد اللّغة العربية وآدابها، ١٩٩٩، ص.٧.

كتمنراست وغيرها؛ حيث يسكن بدو الطوارق. في حين نجد اللهجة الميزابية في مدينة غرداية وما جاورها.

وتختلف هذه اللهجات فيما بينها اختلافاً بيّناً، على مستويات اللغة، خاصّة على المستويين: الصوتى، والمعجمى؛ ذلك أنّ لكلّ لهجة معجمها الخاص وأصواتها التى تشترك فى بعضها مع اللهجات الأخرى، وتختلف فى بعضها الآخر. غير أنّها، بشكل عام، تتقاسم جملة من الصفات العامة. وتجب الإشارة إلى أنّ توزّع المتكلّمين باللهجات الأمازيغية لا يحدث بهذا الشّكل الصارم، إذ قد نجدهم فى كلّ مناطق الجزائر.

وفضلاً عن ذلك كلّه، فإنّ اللغة الإنجليزية هى اللغة الأجنبية الثّانية التى يبدأ الطفل فى تعلّمها فى مرحلة المتوسّط، غير أنّها اليوم بدأت تأخذ مكاناً متميّزاً لدى فئة الشّباب والمتعلمين والمجتمع بشكل عام. كما أنّ بعض المدارس الخاصة تتخذها لغة أجنبية ثانية فى مرحلة التّعليم الابتدائى.

ولكن، **ما هي أبعاد المسألة اللغوية في الجزائر؟** وكيف بدأت القصة؟ وإلى أين وصلت؟

الأمازيغ (البربر) كما أشار إلى ذلك المؤرّخ الجزائري عثمان سعدي "**عرب عاربة**، استقرّوا بالمغرب العربى ضمن هجرات سابقة لهجرة الكنعانيين الفينيقيين، وللفتح الإسلامى، على أساس أنّهم عرب قدامى أو عروبيون؛ أي ساميون وفق التّسمية غير العلمية. توسّعت هذه الهجرات على الخصوص مع بداية المرحلة الدفيئة الثّالثة منذ ثمانية عشر ألف سنة قبل الميلاد [١٨٠٠٠ سنة ق.م]"[(١)].

وقد تبلورت **لغة الثّقافة والعبادة وهي اللغة العروبية الكنعانية** منذ دخول الكنعانيين الفينيقيين العروبيين المغرب في النّصف الأخير للألف الثّانية قبل الميلاد، وهي

---

(١) عثمان سعدي، **الجزائر في التاريخ**، دار الأمّة للطباعة والنشر، الجزائر، ط/١، ٢٠١٣، ص.١٩.

اللغة التي أصبحت في ما بعد اللغة الفصحى بالمغرب، "وهي محاطة بلهجات شفوية قحطانية هي اللهجات الأمازيغية البربرية... لقد كان مجيء الكنعانيين وتأسيسهم لحضارة قرطاج عملاً حاسماً في تاريخ المغرب القديم... فاستعمل الأمازيغ اللغة الكنعانية كلغة حضارة وثقافة مكتوبة بالحضر في الثقافة، والعبادات ودواوين دولهم. واستمروا على ذلك إلى أن جاء العرب المسلمون باللغة العدنانية فحدث الرّبط بين اللغة الكنعانية العروبية، واللغة العدنانية العربية. وهذا هو الذي يفسّر لماذا تمّ تعريب المغرب في وقت قصير وقياسي"(١).

ومنذ الفتح الإسلامي تعايشت اللغتان العربية والأمازيغية وعرّبت مناطق كثيرة، لذلك تعتبر الجزائر بلداً عربياً أمازيغياً منذ هذا الفتح في القرن السّابع "فقد حمل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم الذي هو قوام الدين، ودستور سياسة، وبحر أخلاق، وقاموس لغة، وديوان ثقافة، لذلك بني الفتح على الثّقافة في يوم الفتح نفسه"(٢).

ومنذ ذلك الوقت وفي جميع العصور الإسلامية، التي مرّ بها المغرب الكبير، والمغرب الأوسط (الجزائر) وإلى غاية القرن التّاسع عشر، لم تقل العناية باللغة العربية وعلومها وآدابها، وبقيت المساجد في المدن حافلة بالأساتذة والمتعلّمين الصّغار والكبار، وبقيت الزّوايا بالقرى جامعة للمشايخ والطّلبة. وقد عرفت الجزائر في العهد العثماني انتشار المدارس الابتدائية في كلّ مناطق الجزائر حتى النّائية منها –على الرّغم من تدهور الحالة السّياسية في فترات متباينة من هذا العهد– فكانت كثرة المدارس مثار انبهار وإعجاب زائري الجزائر في العهد العثماني وهو ما أشار إليه المؤرّخ الجزائري أبو القاسم سعد

---

(١) الجزائر في التّاريخ، ص٢٣.

(٢) عثمان الكعاك، **مراكز الثّقافة في المغرب**، القاهرة، ١٩٥٨، ص.١٢.

الله (رحمه الله) قائلاً: "فقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن، ولا قرية من القرى في الرّيف، بل إنّها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النّائية. وهذا ما جعل جميع من زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التّعليم وندرة **الأمية بين السّكان**"[1] وقد أشرنا سابقاً إلى نسبة الأمية في الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي.

وقد أشاد كلّ من الرّحالة المصري عبدالباسط بن خليل والكاتب المغربي الحسن الوزان بهذه الكثرة. وأشاد الوزان خصوصاً بعناية أهل تلمسان بتشييد المدارس والإنفاق عليها، وقد كان للأوقاف والصدقات أثر واضح في انتشار المدارس والتّعليم[2]. وكانت دروس الجوامع الجزائرية "تضاهي، بل قد تفوق أحياناً، دروس الجامع الأموي بدمشق والحرمين الشّريفين لتنوّع الدراسات فيها وتردّد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. فدروس سعيد قدورة وعلي الأنصاري وأحمد بن عمّار بالعاصمة ودروس سعيد المقري في تلمسان [وغيرهم كثيرون] كانت مضرب الأمثال في العمق والإحاطة والرّقي"[3].

لكن وضع التّعليم بدأ في التغيّر بمجرّد أن وطئت أقدام المستدمِر الفرنسي أرض الجزائر، وشيئاً فشيئاً بعد أن كان التّعليم منتشراً، وكانت نسبة الأمية متدنية جداً، قلّ التّعليم وانحصر في أماكن معدودة ومحدودة، وذلك بشهادة الأعداء أنفسهم. وقد حارب الفرنسيون التّعليم العربي في الجزائر بشتى الطرق والوسائل إلى أن نشر لغته بقوة السلاح.

---

(١) أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨، ص٢٧٤.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه، ص٢٧٤–٢٧٥.

(٣) أبو القاسم سعد الله، مرجع سابق، ص٢٧٤.

**٢. الجزائريون والازدواج اللغوي (التعدّد اللغوي):**

عرّف قاموس **تعليمية اللغات** الازدواج اللغوي بأنّه "الحالة التي يستعمل فيها الأفراد أو الجماعات لغتين أو أكثر بصفة متنافسة، مثلما يستخدم أحد سكّان الكبيك بكندا اللغتين الفرنسية والإنجليزية معاً"(١). ويرى (***J.B Marcellesi***) أنّ ظاهرة الازدواج اللغوي لها معان مختلفة أهمها:

- سياسة دولة من الدول باعتماد لغتين رسميتين أو أكثر.
- اتجاه نظام تربوي معيّن نحو ضمان تحكّم متكافئ للغتين مختلفتين(٢).

وقد استُنِد في تحديد مفهوم الازدواج اللغوي إلى درجة تحكّم الأفراد أو الجماعات باللغات الموجودة في المجتمع. وقد حدّد **أحمد بوكوس**(٣) عدّة أنواع من الازدواج ارتكازاً على المقياس القائل: بأنّه لا يمكن الحديث عن ازدواج لغوي ما لم يمس الشّعب كلّه أو أغلبه وهو ما يعرف بازدواج الأغلبية (٤)(Bilinguisme de masse)، حيث لا يرتبط الازدواج ببعض الأفراد فقط. وهذه الأنواع هي:

١. **الازدواج المركّب أو الممزوج**، وهو النّوع الذي تستخدم فيه اللغتان معاً، أو في حال وجود **التناوب اللغوي** (Code Switching).

٢. الازدواج **المنظّم أو المنسّق**، وهو الازدواج الذي تستعمل فيه اللغتان بشكل منظّم ومنهجي، حيث لا تظهر اللغتان في نفس الوقت، بل تظهران حسب ما تقتضيه الوضعيات الخطابية، ذلك أنّ المتكلّم يستعمل اللغة ١- في مواقف معيّنة، ويستعمل اللغة ٢- في مواقف أخرى.

---

(1) D. Coste et R. Galison, Dictionnaire de didactique des langues, Hachettes, Paris, p.69.

(2) J.B Marcellesi, "Bilinguisme, Diglossie, Hégémonie, problème et taches " in Langages, n° 61, p.5.

(3) A .Boukous, Bilinguisme, Diglossie et domination symbolique, p.41 - 42

(٤) استخدم هذا المصطلح من قبل مارسلسي (J.B Marcellesi)، ينظر: المرجع نفسه، ص٥.

٣. الازدواج اللغوي **المتعادل أو المتماثل**، وهي الوضعية التي تتسم بتحكم متساو للغتين.

٤. الازدواج **غير المتعادل أو غير المتماثل**، وهي الوضعية التي تتسم بتحكم غير متساو للغتين.

٥. ازدواج **الفهم** (أو الإدراك) **والتعبير**، وهي الوضعية التي تكون فيها اللغتان مفهومتين ويمكن التّعبير بهما في حدود معيّنة.

٦. ازدواج **الفهم** (أو الإدراك)، وهي الوضعية التي تكون فيها إحدى اللغتين مفهومة عند سماع الحديث ولكن لا يمكن استعمالها في الكلام والتّعبير.

ويتحدّد النّوع الثّاني من الازدواج، وهو **الازدواج الفردي** بأمرين اثنين، وهما:

١. **طريقة اكتساب الفرد للغتين وزمن هذا الاكتساب.**

٢. **درجة إتقانه للغتين.**

فمزدوج اللّغة هو شخص اكتسب لغتين مختلفتين في زمن واحد وبدرجة متساوية من الإتقان ويمكنه استعمال النّظامين بشكل مريح وسهل[١]. ويرى (W. Mackey) أنّ **درجة الازدواج اللغوي** تتغيّر تبعاً لاستعدادات الفرد المزدوج، حيث يمكن لبعض الأشخاص أن يقرأوا باللغتين بشكل مسترسل ومفهوم مثل أيّ أحادي لغة، غير أنّهم لا يستطيعون استعمالها بنفس السّهولة في الحديث[٢].

غير أنّ الحديث عن التنوّعات اللغوية في الجزائر، وفي غيرها من البلدان العربية، يفرض علينا التّطرّق إلى ظاهرة مشابهة لظاهرة **الازدواج اللغوي** -ولكنّها تختلف عنها في العلاقة القائمة بين التّنوعات اللغوية- وهي **الثنائية اللغوية (*Diglossie*)** وهي تشمل العلاقة بين لغة **أصل** ولهجاتها التي **تفرّعت**

---

(١) ينظر: صونية بكال، "**الازدواجية اللغوية**"، مجلّة اللغة الأم، ص١٣١.

(2) W. Mackey, Bilinguisme et contact des langues, p.10.

**عنها**. وقد دخل هذا المصطلح في مجال اللسانيات الاجتماعية بعد ظهور مقال **فرجسون** (***Ferguson***) الشّهير عام ١٩٥٩. غير أنّ المصطلح ظهر قبل ذلك عند (J. Psichari) لوصف اللغة اليونانية في نهاية القرن الماضي [١٨٨٦-١٩٢٨]، وظهر عند (W. Marçais) لوصف وضع اللغة العربية [١٩٣٠-١٩٣١][١].

وتجب الإشارة إلى أنّ نموذج فرجسون يركّز على العلاقة الثنائية التي تقوم بين القطب الأول (الأصل) الذي هو الفصحى، والقطب الثّاني (الفرع) الذي هو العاميات (الدوارج)، حيث يتميّز نموذجه **باستقرار الوضع الثّنائي** الذي يختص فيه الأصل بمجالات معيّنة، ويختص الفرع بمجالات أخرى. غير أنّ الواقع اللغوي يثبت أنّ هذا التّقسيم ربّما ينطبق على العربية في فترات سابقة من فترات ازدهار الفصحى؛ حيث لم تكن هناك لغات أخرى تنافسها؛ ذلك أنّ التّفاعل المستمر بين الفصحى والعاميات أدى إلى ظهور مستويات وسطى تتقاسم الممارسة اللغوية للمتكلّمين. فقد ذكر فرجسون أنّ الخطب الدينية والوعظ في المساجد يتم بالمستوى الفصيح (المستوى الرّفيع). ولكن أئمة المساجد والدعاة -في أيامنا هذه- يلجأون إلى استخدام العاميات (المستوى الوضيع) لشرح الأحاديث النبويّة الشّريفة والآيات القرآنية، وشمل ذلك الأحاديث الدينية والحصص ذات الطّابع الديني في وسائل الإعلام. وقد انتقلت هذه الاستعمالات اللغوية إلى الصحافة المكتوبة: في بعض الأعمدة اليومية والرسوم الكاريكاتورية[٢].

---

(١) ينظر: J.Dichy, La pluriglossie de l'arabe نقلاً عن: L'écriture dans la représentation de la langue, et la lettre et le mot en arabe, Doctorat d'Etat, Lyon II, 1990.

(٢) يُنظر: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللغوي**، ص٣٤.

ويمكن التّمثيل لهذه المستويات في الشكل[1] الآتي:

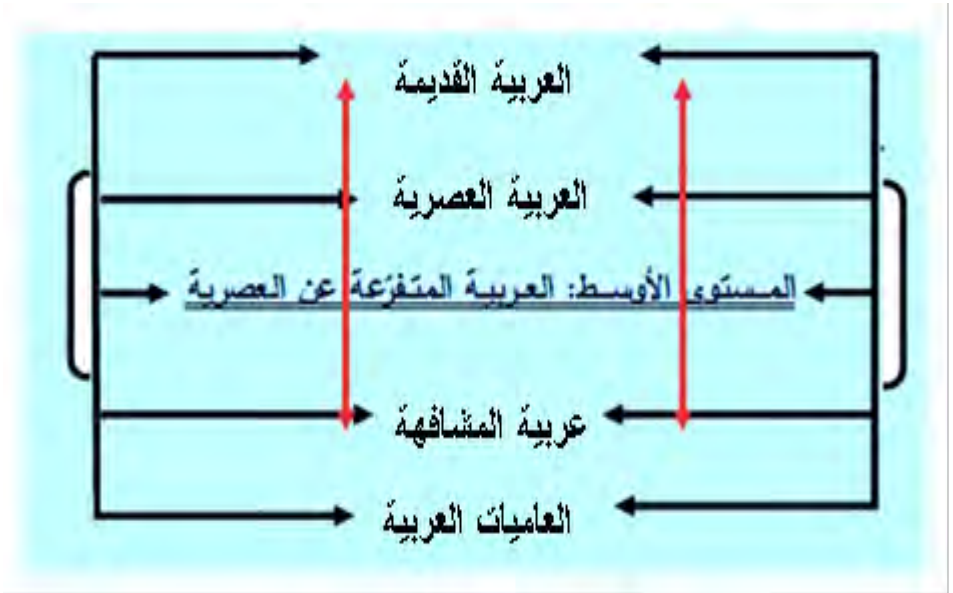


وفضلاً عن ذلك كلّه، فإنّ اللهجات الأمازيغية (البربرية) تمثّل جانباً مهماً من جوانب الممارسة اللغوية خاصّة في مناطق تمركزها، وفي وسائل الإعلام المسموعة والمرئية. كما أنّ إذاعة القرآن الكريم تلجأ إلى استخدام الأمازيغيات في بعض الأحاديث الدينية التي تتوجّه إلى النّاطقين بالأمازيغية خاصّة أولئك الذين يعيشون في بيئة لا تتحدث إلاّ الأمازيغية، مثلما تلجأ ذات الإذاعة إلى العامية عندما تتوجّه إلى الأميين النّاطقين بالعربية.

وتجب الإشارة إلى أنّ لفظتي: ازدواج لغوي، وثنائية لغوية مترادفتان في الأصل -وهو ما يراه (J.M.Charpentier)-ويمكن أن تدلاَّ على شيء واحد،

---

(١) استخدمْت هذا الشكل في رسالتي للماجستير، ينظر: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللغوي**، ص ٣٧ وما بعدها.

غير أنّه تمّ التّطرّق إليهما من زوايا متباينة ممّا نتج عنه **تخصيص كلّ مصطلح للدلالة على مفهوم خاص.** وذلك قَصْدَ التّفريق بين الظواهر المختلفة التي ترتبط باهتمامات اللسانيات الاجتماعية(١).

لذلك حاولنا ألاّ نأخذ بالآراء التي وسّعت المفهومين وجعلت الواحد يدل على الآخر. وفضّلنا -كما يرى أندريه مارتنيه- الاحتفاظ بمصطلح الازدواج اللغوي الذي يغطي "جميع أشكال التّعايش بين لغتين. ومثال ذلك اللغة الفرنسية والإنجليزية فكلتاهما لغة قومية ذات شأن كبير، لكنّهما في بلد مثل كندا لا يمكن منحهما قدراً متساوياً من الاعتراف، فهل ينبغي في ظل ما ذكرناه أن نتكلّم عن وجود [ثنائية لغوية] في إقليم الكبيك"(٢).

ويمكننا من خلال دراسة مظاهر الازدواجية والثنائية وضع خطاطة تقريبية للممارسات اللغوية في الجزائر حسب الآتي:

| التّنوعات اللغوية / مجال الممارسة | العربية الفصحى | العاميات العربية | الفرنسية | الأمازيغية | المستويات الوسطى |
|---|---|---|---|---|---|
| الأسرة | | × | × | × | |
| الأصدقاء | | × | × | × | |
| المحيط العام (الشّارع) | × | × | × | × | |
| الدين (المساجد، الخطب والأحاديث الدينية) | × | × | | × | × |

(١) يُنظر: *J.M.Charpentier, **Quand et où parler de bilinguisme et de diglossie***, p.71.

(٢) أندريه مارتيني، تر: أحمد الحمو، **مبادئ اللسانيات العامّة**، ص١٤٩.

| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| التّعليم | في المراحل التّلاث | × | | × (كلغة أجنبية) | × | × |
| | العالي | × | | ×(*) (لغة أجنبية/ لغة ناقلة للعلوم) | | × |
| وسائل الإعلام | الإذاعة | × | | × | × | × |
| | التلفزة | × | × | × | × | × |
| | المكتوبة | × | | × | | |
| العمل(التعامل اليومي) | | | × | × | × | |
| الوثائق الحكومية | قطاع العدالة | × | | | | |
| | الأحوال المدنية والشّخصية | × | | | | |
| | القطاعات الاقتصادية والبنوك | | | × | | |

(*) كما أشرنا سابقاً، فإنّ اللغة المسيطرة على الشّعب التّكنولوجية والعلمية هي اللغة الفرنسية.

ومن خلال هذه الخطاطة التّقريبية يمكن استنتاج جملة من الأزواج اللغوية أو الثّلاثيات اللغوية الآتية:

- **العربية الفصحى/العربية الدارجة، قد يلجأ المتكلّم** في بعض الوضعيات الخطابية – التي يغلب عليها الفصحى– إلى استعمال بعض الكلمات أو العبارات أو الجمل القصيرة **بالعربية الدارجة** لتعميم الفائدة؛ ذلك أنّ فئات المجتمع متباينة (المتعلّم، أو متوسّط التعليم، أو الأمي)، وهدف المتكلّم التأثير في أكبر عدد ممكن من المستمعين لخطابه. ومثاله ما يحدث في عدد من الحصص التلفزيونية والإذاعية السياسية والدينية والتّربوية، كما أنّ هذه الممارسة اللغوية يمكن أن تظهر عند النّاطقين المعرّبين الذين تلقوا تكويناً عربياً في الفترة الاستعمارية، والذين يُعْرَفون بالمعرّبين.
- **العربية الفصحى/المستويات الوسطى**، مثل ما يحصل في بعض الحصص الدينية أو في التّعليم عندما يلجأ الأساتذة إلى تبسيط بعض المفاهيم في المناطق التي تسيطر فيها العاميات العربية... إلخ.
- **العربية الفصحى/الأمازيغية**، مثل ما يحصل في بعض الحصص الدينية أو في التّعليم عندما يلجأ المعلّمون والأساتذة إلى تبسيط بعض المفاهيم في المناطق النّاطقة بالأمازيغية... إلخ.
- **العربية الدارجة/الأمازيغية**، في مناطق احتكاك التّنوعين العربية/الأمازيغية وهي في الغالب مناطق تجاور؛ حيث يتقن النّاطقون فيها العربية العامية وإحدى اللهجات الأمازيغية مثلاً: خنشلة، وأم البواقي، وغرداية، وبرج بوعريريج حيث تتقاسم الشّاوية/ أو الميزابية/ أو القبائلية استعمالات النّاطقين ويمكن أن يسود تنوع لغوي، أو يحصل بينهما انتقال في نفس الحديث.

- **العربية الفصحى/الفرنسية**، ربّما تظهر في حديث المثقفين مزدوجي اللغة في بعض الحصص التّلفزيونية والإذاعية، وهي ممارسة لغوية قليلة التواتر، وفي الغالب لا يحصل التناوب بين الفصحى الخالصة والفرنسية، بل بين أحد مستويات العربية واللغة الفرنسية، لأنّ عدد مزدوجي اللغة عربية فصحى/فرنسية لا يمثلون نسبة كبيرة جداً.
- **العربية الدارجة/الفرنسية**، تظهر عند النّاطقين الذين لا يتقنون الفصحى وتعلّموا في المدارس الفرنسية في الفترة الاستعمارية، وهم الذين يُعْرَفون بالفرانكفونيين.
- **المستويات الوسطى/الفرنسية**، تظهر في الغالب في حديث المتعلمين المتفرنسين الذين تلقوا تكويناً باللغة الفرنسية، والذين تتغلّب ملكتهم الفرنسية على ملكتهم العربية؛ حيث تضطرهم بعض الوضعيات الخطابية إلى اللجوء إلى مستوى وسيط يجمع بين الفصحى والدارجة[1] كما يحصل في عدد من اللقاءات الرسمية وبعض الحصص التلفزيونية الموجهة لعامة النّاس كحصة الإرشادات الطبية.
- **العربية الفصحى/العربية الدارجة/الأمازيغية**، يظهر التّناوب بين هذه التنوّعات عند عدد من رجال الدين الذين يمتلكون العربية بمستوياتها وإحدى اللهجات الأمازيغية.
- **العربية الفصحى/العربية الدارجة/الفرنسية**، تظهر هذه الممارسة اللغوية في وضعيات خطابية تسيطر عليها الفصحى، ولكنّ المتكلّم يجنح إلى العربية

---

(١) للاستزادة ينظر بحثنا في الماجستير: صحرة دحمان، **ظواهر الاحتكاك اللغوي**، ص٤١ وما بعدها.

الدارجة أو اللغة الفرنسية لأغراض مختلفة كتغيير المخاطب أو تخصيصه بالحديث[1]، إذا كان المخاطَب شخصاً لا يحسن الفصحى، ولكنّه يتقن العربية الدارجة أو الفرنسية أو كلتيهما. وقد يُعكَس الأمر في وضعيات خطابية أخرى تسيطر عليها الفرنسية، فيجنح المتكلّم إلى العربية الدارجة أو الفصحى إذا كان المخاطب يتقن العربية بمستوياتها.

- **الأمازيغية/العربية/الفرنسية،** تظهر هذه الممارسة اللغوية في وضعيات خطابية تسيطر عليها الأمازيغية، ولكنّ المتكلّم يجنح إلى العربية أو اللغة الفرنسية لأغراض مختلفة كتغيير المخاطب أو تخصيصه بالحديث إذا كان المخاطَب شخصاً يتقن العربية أو الفرنسية أو كلتيهما. وقد يُعكس الأمر في وضعيات تسيطر عليها العربية، فيجنح أحد المتكلّمين إلى الأمازيغية أو الفرنسية لأنّ مخاطِبه يتقن الأمازيغية أو الفرنسية أو كلتيهما.

ومن خلال هذا **المسح التقريبي للممارسات اللغوية في الجزائر،** واستناداً إلى مفاهيم الازدواجية والثنائية اللغوية يمكن استنتاج ما يلي:

- المجتمع الجزائري هو مجتمع متعدّد الاستعمالات اللغوية، حيث تتقاسم الخريطة اللغوية كلاً من العربية الفصحى ولهجاتها المختلفة والأمازيغية (البربرية) بلهجاتها المعروفة وهي: القبائلية، والشّاوية، والميزابية، والتّرقية، وتبرز اللغة الفرنسية في التّعليم ووسائل الإعلام والمؤسسات الاقتصادية كالبنوك و... إلخ. فضلاً عن ممارستها من قبل فئة من المجتمع في المشافهة اليومية.
- إنّ الازدواج اللغوي (عربية/فرنسية) لا يشمل كلّ المجتمع، بل يخص الأفراد، وبالتّالي لا يمكن الحديث عن **ازدواج أغلبية** بل هو **ازدواج أفراد**؛ أي

---

(١) يُنظر بحثنا في الماجستير: **ظواهر الاحتكاك اللغوي**، ص١٨٠.

**ازدواج أقلية.** ونشير أننا عندما نتحدّث عن ازدواج الأفراد فإنّه يمكننا وصف بعضهم **بأنصاف مزدوجين** (Semi lingues)؛ لأنّهم لا يتحكّمون جيّداً في الفصحى، ولا يتحكّمون جيّداً في الفرنسية أو أنّ ملكتهم في إحدى اللغتين أقوى من اللغة الثّانية.

- وجود أحاديي اللغة النّاطقين بالعربية، ذلك أنّ **أحادية اللغة** تقتصر على **العربية الدارجة** وهي ممارسة لغوية قد تطغى في بعض المناطق النّائية وعند فئة الكبار الأميين، أو الفئة التي تلقت تعليماً بسيطاً في المدارس القرآنية في سن مبكّرة، حيث تمّ حفظ بعض السّور القصار التي تستعمل في أداء الصلاة. وتوجد -بشكل عام- في الأرياف والمدن الصغرى التي ليس فيها احتكاك كبير لمتعدّدي اللغات (التنوّعات اللغوية) وهو عكس ما يحصل في العاصمة وما جاورها وفي المدن الكبرى والسّاحلية؛ حيث يقع أكبر اختلاط وتداخل لغوي من كلّ مناطق الجزائر، وقد أدى ذلك إلى تأثير المتكلّمين بعضهم في بعض.
- قد نتحدّث عن أحاديي لغة أمازيغيين على مستوى المشافهة اليومية، حيث تسيطر الأمازيغية على ألسن الكثيرين في بعض المناطق النائية النّاطقة بالأمازيغية؛ ولكنّهم يستعملون العربية لأداء الصلاة والشّعائر الدينية.
- قد نتحدّث عن الازدواج اللغوي بين العربية وإحدى الأمازيغيات بحكم سيطرة العربية على المحيط العام في أغلب مناطق الجزائر، وبفعل الاحتكاك الحاصل بين النّاطقين بالعربية والنّاطقين بالأمازيغية في بعض المناطق، أو بحكم التّزاوج والنّسب في كثير من الحالات.

### ١. انعكاسات التّعدد اللغوي على الفكر والهوية الثّقافية الجزائرية:

لا أحد منّا اليوم يُنكر أهمية تعلّم اللغات الأجنبية، لأنّها تفتح الباب واسعاً أمام المتعلّمين والمثقّفين للاستفادة من التّراث الإنساني والعالمي من أجل التّبادل الثّقافي والحضاري؛ ولكن إن أصبحت هذه اللغات معاول هدم لتواريخ وثقافات شعوب وهويات فهذا الذي يحتاج منّا إلى وقفات طويلة ودراسات نقدية تسهم في نشر الوعي بين طبقات الشعوب العربية والإسلامية؛ ذلك أنّ دول العالم المتطوّر قد هيمنوا على دول العالم المتخلّف بفعل قوّتهم الاقتصادية والتّكنولوجية والعلمية؛ وتبع هذه الهيمنة هيمنة لغوية، وأصبحت لغات كثيرة مهددة بالاندثار بحكم اختيارات لغوية قائمة على أساس التّبعية العلمية والتّكنولوجية. وهو ما تعاني منه الشّعوب العربية التي فسحت المجال واسعاً للغات أجنبية تتحكّم في مصير أجيال كاملة.

تسيطر في الوقت الرّاهن اللغة الإنجليزية سيطرة تكاد تكون تامّة على الوسائط والاقتصاد والتّجارة والمال والأعمال. وأصبح امتلاك آليات اللغة الإنجليزية سبباً مباشراً في التطوّر المعرفي والتّكنولوجي. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى السّيطرة الثّقافية تحت مسمى **العولمة الثّقافية** التي "تحوّل **الهوية الثقافية** من إطارها القومي والخاص إلى **الاندماج** والتّفاعل والتّكامل مع **الهويات الثقافية الأخرى** في ظل الهوية الثّقافية الأحادية وإن كانت **العولمة الثّقافية** تفرض نفسها حتّى باستخدام القوة، فتصبح العولمة الثّقافية بذلك فرض منهج وثقافة غربية أمريكية بالهيمنة على العالم وشعوبه وأفراده، مسخاً لهم وإهداراً لخصوصياتهم إلى درجة ألا يكون لأيّ مجتمع ثقافة ذاتية وهوية شخصية أو خصوصية"[١].

---

(١) محمّد زغو، **أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشّعوب**، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد ٤، ٢٠١٠، ص٩٣-٩٤.

وتعدّ الجزائر واحدة من الدول التي حاولت جاهدة أثناء الاستعمار الحفاظ على إرثها التّاريخي والثّقافي، وعلى الرّغم من كلّ محاولات المسخ التي تعرّضت لها إلا أنّها حافظت على الكثير، ولكنّها ما استطاعت أن تنجو نجاة كاملة، فالآثار باقية وبليغة، وأخطر هذه الآثار عدد من أبنائها الذين يسهمون **بشكل مقصود أو غير مقصود** في بقاء لغة غريبة عن المجتمع، هي لسان حالهم، يتباهون بها ويعتبرونها لغة الرقي والحضارة. وهذه الطبقة هي نتاج لسياسَتَيْن: الأولى سياسة استعمارية – استدمارية/فرنسية، والثّانية سياسة لغوية وتعليمية بعد الاستقلال.

لذلك نعيد قول ما قلناه في مقال سابق[1] إنّ أهم أثر من الآثار النّاجمة عن التّعليم بالفرنسية وعن الأحادية اللغوية في التّعليم العالي في التّخصصات العلمية والتّكنولوجية هو **توهين الروابط الاجتماعية**. فإذا كان بعض علماء الغرب، من أمثال **إيدوارسابير** وتلميذه **بنيمين وورف**، هم الذين توصّلوا إلى الحقيقة القائلة إنّ **اللّغة مرآة تعكس روح الأمة** وتنفخ هذه الروح في المجتمع الذي يتكلّمها، فإن أفراده لا يمكن أن يكونوا على قلب واحد إذا وجد في هذا المجتمع أكثر من لغتين: لغته الوطنية القومية ولغة أجنبية عنه، لأنّ **وضعية التّفكيك** تكون قد **حلت** محل **وضعية التّأليف**، وإذا دخل المجتمع في هذا الصراع بين **الأتباع**، للغة الآخر **بحجة قدرة اللّغة الأجنبية** على مسايرة التّطور وضعف اللّغة الوطنية لأنّها في نظرهم تعكس أسلوباً قديماً للحياة، **والمحليين**، الذين يبحثون عن مصادر القوة لتصحيح الوضع؛ يبدأ تصدع المجتمع من جراء تناقض المقومات الثّقافية للطّوائف الاجتماعية، وتفتقد الثّقة المتبادلة ويحصل ما لا تُحمَد عقباه[2]. وعليه فإنّ **التّبعية اللّغوية والثّقافية، هي أخطر ما يهدّد الهوية الثّقافية الجزائرية واللحمة الوطنية كما أنها خطر يهدّد**

---

(١) ينظر: صحرة دحمان، **أثر تعليم اللغات الأجنبية في اللغة العربية**، ص٩٣-٩٤.

(٢) ينظر: محمّد الأوراغي، **التعدّد اللّغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي**، ص٥٧. (بتصرّف طفيف)

**الهوية الثّقافية العربية والإسلامية بوجه عام.** فالتحديات التي تواجه العالم العربي والإسلامي واحدة والمسؤولية تقع على الجميع دون استثناء. وبذلك فإنّ الجزائر لا يمكن أن تستكمل استقلالها التّام في جميع المجالات الحيوية إلّا بالتّخلّص من هذه التّبعية، فلا تنمية ذاتية في إطار التّبعية اللّغوية والثّقافية[١].

إنّ عدم شعور الأفراد بأهمية وجود لغة واحدة تكون عنواناً لهويتهم الثّقافية، سيؤدي حتماً إلى "ضعف الاعتزاز باللغة العربية والميل للتباهي باللغة الأجنبية كلغة حضارة [وهو الأمر الحاصل لدى فئة من الجزائريين ولدى فئات من العرب]، وكذا تلاشي الهوية لأنّ العربية بالنّسبة لنا لغة موحّدة للأمة العربية [والإسلامية] ولغة الدين والشّخصية العربية بما تحمله من قيم روحية واجتماعية"[٢]. ونقول ذلك دون إقصاء للهجات المحلية (اللهجات الأمازيغية) التي تعتبر اللغة الأم لعدد معتبر من الجزائريين. وأسمح لنفسي بأن أعيد قول الباحث **صالح باعيد** –على الرّغم من طوله– كما هو؛ لأنّه عبّر عما جال في خاطري –ويعبّر فعلاً عما يريده كثير من الجزائريين وإن كان لبعضهم رأي آخر– فهو يرى في سياق الحديث عن استنكار بعض الممارسات التي تخلّ بالمسألة اللغوية في الجزائر، والتّنبيه إلى مواطن الخطر في مسألة الأمازيغية من خلال ممارسات بعض دعاتها، ضرورة "طرح بدائل نوعية لمازيغية وطنية تكبر من خلال تقديمها كما **هي دون تقزيم أو احتواء وإقصاء، وهذا في إطار التكامل اللغوي** الذي عاشته منذ قرون في بلدها **وما اشتكت من لغة أخرى** أبداً؛ حيث تكاملت مع العربية بشكل تسامحي مقبول عند كلّ الجزائريين وبخاصّة القبائل (الكبرى

---

(١) ينظر: **التعدّد اللّغوي انعكاساته على النّسيج الاجتماعي**، ص٥٤.

(٢) باديس لهويمل ونور الهدى حسني، **مظاهر التعدّد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد٣٠، ٢٠١٤، ص١١٧.

والصغرى) فكم من علماء قبائل بجاية وتيزي وزو والبويرة[1] كان لهم باع كبير في خدمة العربية وهم يحتكمون إلى المازيغية كلغة أم، وما شكّل صعوبة في التّواصل أو في التّأليف، وهذا يعني تجسيدهم للتداخل العلمي التّسامحي الذي يحدث بشكل طبيعي بين اللغات، تكامل مازيغي عربي لم يكن في يوم من الأيام يشكّل صراعاً، بل كان تصاهراً في المتون وفي المفهوم وفي كثير من الجبهات، ويكفينا دليلاً على ذلك **عدم ترجمة القرآن إلى المازيغية** منذ الفتوحات الإسلامية إلى غاية الألفية الثّالثة، وهذا يعني أنّ حال اللسان الكائن هو حال اللسان الذي يحمله الدين الإسلامي، وأنّ المازغيين يفهمون القرآن بلغته العربية أكثر من فهمهم إيّاه ترجمة إلى المازيغية، ويعني كذلك أنّ لغتهم لا يمكن لها أن تحتوي القرآن مهما علت وارتفعت، ولذا تصاغرت المازيغية أمام لغة الجبّار وما تكابرت في عهود الدول المازيغية التي عدّت من دول العروبة؛ التي كانت **تعني عند أجدادنا انتساباً واختياراً واعياً وعن دراية واقتناع؛ وهو اختيار حضاري** اختاره البربر تلقائياً، وبه تحوّلوا من مرحلة التّهميش إلى مرحلة السّيادة الذاتية، ومن الوجود بالقوّة إلى الوجود بالفعل"[2].

لذلك فإنّ اختيار شعب للغة معيّنة يقوم على أسباب متباينة؛ لكنّها تخدم مصلحته العليا ووحدته، وفي هذا الشأن يقول عبدالرّحمن الحاج صالح: "أمّا ظاهرة اختيار الشّعوب لمعيار لغوي لسبب خاص بهم يهمّهم ويهمّ وحدتهم فهي ظاهرة لا تخصّ شعباً دون شعب عبر التّاريخ، والاختيارُ فيها هو ظاهرة اجتماعية. فلا دخل للعلم في ذلك إنّما على العلماء أن يصفوا مثل هذه الظاهرة

---

(١) مثل: ابن معطي، الذي ألف ألفية النّحو، والشيخ الفضيل الورتلاني، وغيرهم كثيرون.

(٢) صالح بلعيد، **المازيغية في خطر**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١، ص١١.

وأن يفسّروها ولا يحكمون عليها بحكم ذاتي كعلماء بل كمواطنين يهمهم هذا الاختيار"[1] ولنا في تاريخ فرنسا عبرة ودليل على أنّ اختيار لغة معيّنة تحكمه أسباب مقنعة للبعض وغير مقنعة للبعض الآخر، ولكن المصلحة العامة دفعت بحاكمهم إلى فرض الفرنسية فرضاً بسلطة القانون على الرّغم من أنّها كانت لغة أقلية.

إنّ وضعية الازدواج اللغوي التي تتمظهر في منافسة الفرنسية للعربية وتفوقها في مجالات عديدة، ووضعية التعدّد اللغوي التي تتمظهر في وجود: اللهجات المحلية (الأمازيغية) والعربية بشقيها الدارج والفصيح والفرنسية؛ أدت إلى وجود تيارات فكرية منغلقة بعضها على بعض، حيث يتخذ كلّ تيار لغة مغايرة للغة الآخر. كما أدت إلى ظهور طوائف لغوية تصرّح بأنّ لها هوية لغوية وثقافة مغايرة، وهو ما يجعل هذه الجماعات تتآلف بعضها مع بعض وتتنافر مع الآخرين وهي بذلك كما قال محمّد الأوراغي: "تؤلف مجتمعات منغلقة اقتصادياً؛ إذ غالباً ما يهمل معيار الإتقان والجودة لفائدة الطائفية، فينتقى على أساسها المقاول في البناء والعامل في الورشة والمساعد في المتجر والمقهى. وهي أيضاً منغلقة اجتماعياً؛ إذ يقل التّصاهر بينها، وتضعف مشاركة بعضها بعضاً في الجمعيات المدنية، وفي الأعمال التّطوعية للتضامن الجهوي. ومنغلقة ثقافياً؛ فلا يطرب بعضها لموسيقى البعض الآخر، وبسبب الحاجز اللغوي لا تطّلع طائفة على ما قد يكون عند الأخرى من أعمال أدبية، ويظل حبيس العشيرة"[2] كما أنّ القَبَلِيَة التي حاربها الإسلام محاربة شديدة، تظهر

---

(١) عبدالرّحمن الحاج صالح، **العاميات العربية ولغة التخاطب الفصيحة**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١، ص٢٣٢.

(٢) محمّد الأوراغي، **التعدّد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي**، ص٥٣-٥٤.

بشكل بارز في التّفاخر بأنساب وبأصول معيّنة والحط من أصول أخرى، وهي في الحقيقة جزء من أفعال المستعمر التي غذّاها البعد عن العقيدة الصحيحة، وعدم التمسّك بالمصلحة الجماعية ونبذ سمات كثيرة دعا إليها الإسلام كالأخوة والحب في الله.

وبذلك فإنّ النّزاعات الداخلية والعرقية والطائفية تؤثّر تأثيراً مباشراً في الهوية الثّقافية للمجتمع، فيجنح أفراده شيئاً فشيئاً إلى تبني هويات متباينة فيحدث تصدع المجتمع بدل لم شمله، وهذا يمثّل أحد أسباب التخلّف والتّقهقر.

**فالهوية الثّقافية** تتحدّد انطلاقاً من **علاقة كلّ أفراد المجتمع بعضهم مع بعض**، وتتشكّل بما تثمره علاقة الفرد الواحد بالآخرين؛ ولذلك فإنّ هوية الشّخص الواحد لا بد أن تحمل هُويّة المجتمع الذي يعيش فيه، أو تحمل على الأقلّ **بعضَ ملامح هذا المجتمع**. ولا يمكن أن يحصل ذلك ما لم ترتكز هذه الهوية إلى **جملة من المقوّمات**، وتتجلّى في **عناصر مهمة**[1] تمثّل جوانب الهوية الثّقافية بالنّسبة للأفراد والشّعوب. ويمكن تمثيل هذه العناصر في المخططين الآتيين:

(١) يُنظر: محمّد زغو، **أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشعوب**، ص٩٤ وما بعدها. (بتصرّف).

تعتبر هذه المقوّمات صلب الهوية الثّقافية؛ **فالإنسان –الفرد** الذي هو جزء من جماعة بشرية معيّنة هو **محور الهوية الثّقافية** التي ينبغي أن تنطلق في الإسلام من المصلحة العامة وإيثارها دون أن تنسى المصلحة الفردية، حيث يجد الفرد انطلاقه من الآية الكريمة ﴿**ولقد كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُم في الْبرّ والْبحْر**﴾ [الإسراء/٧٠]، حيث يشعر أفراد المجتمع بالتّوازن الروحي والمادي حينما تكون حياتهم حياة طبيعية وشخصيتهم شخصية متزنة لا خلل فيها. كما أنّ هذه الهوية ترتكز على ما يقدّمه الأفراد الذين يشعرون بانتمائهم إلى مجتمع بعينه ويؤمنون في الوقت نفسه بكل **ما يميّز هذا المجتمع من عادات وتقاليد وخصوصيات**؛ حيث تتغلّب الروح الجماعية والأخوة والإنسانية. لأنّ الإنسان بطبعه اجتماعي، وفي حاجة إلى التّفاعل مع غيره، فضلاً عن أنّ القيم الحسنة والأخلاق الفاضلة والعمل على نشرها تعتبر من أهم مقوّمات الهوية الثّقافية[1]؛ لأنّ توفر هذه المقوّمات كفيل بدفع عجلة التّنمية في البلاد بفضل توفر الاستقرار النّفسي والاجتماعي واللغوي حتى لو اختلفت الجماعات اللغوية، لأنّ الأمور التي تجمعها أكثر وأهم من الأمور التي تفرّقها.

وعليه، فإنّ الأمور التي تجمع بين أفراد الشّعب الجزائري والشّعوب العربية والإسلامية وتقوي أواصره هي: الدين أو العقيدة واللغة والتّراث الثّقافي؛ وهي التي تشكل عناصر الهوية كما هو موضّح في الشّكل المذكور آنفاً؛ حيث إنّ عنصري الهوية الثّقافية: **الدين أو العقيدة واللغة** يعتبران من الثّوابت الرّاسخة في الهوية الجزائرية التي تعتبر جزءاً من الهوية الإسلامية بكلّ أبعادها.

---

(١) محمّد زغو، مرجع سابق، ص٩٤.

لذلك فإنّ الغرب والصهاينة يدركون حقيقة يغفلها كثير من العرب والمسلمين، وهي "أنّ استعادة المسلمين لهويتهم وانتمائهم القرآني أكبر الأخطار وعليه فكل قوى التّغريب تعمل ضد هذا الاتجاه، وذلك بأسلوب الغزو الثّقافي المتمثّل في الاستشراق والتّنصير"(١)؛ ذلك أنّ العولمة الثّقافية تنافي تماماً مبادئ الإسلام.

وبما أنّ اللغة هي عنوان الهوية الثّقافية وهي اللسان الثّقافي الأساسي لهوية الأفراد والشّعوب الثّقافية، وهي عامل من العوامل المهمّة التي تميّز ثقافة عن أخرى، **وعنصر رئيس في إثبات الهوية وتأكيد وجودها**(٢)؛ فإنّ الهوية الثّقافية الإسلامية التي ترتكز على اللغة العربية، هي شاملة لكلّ الشّعوب التي تقول لا إله إلّا الله؛ وهي بذلك تعتبر المنافس للحضارة الغربية. لذلك عمدت السّياسات الاستعمارية بمعناها التّقليدي وتعمد سياسات الهيمنة الثّقافية واللغوية بمعناها الحديث "إلى خلق طبقات ثقافية مختلفة، بل طبقات اجتماعية تتماشى مع هذا التّفريق الثّقافي وهو أيضاً وسيلة إلى إيجاد طبقة من النّاس جاهلة بلغتها وثقافتها الوطنية، وربّما لا يدرك بعض النّاس أنّه السّر في التّخلّف العلمي والفني والصّناعي في البلاد التي عانت هذه التّجربة [وهو حال الجزائر]"(٣). كما أنّ السّياسات التّعليمية وطرائق تعليمية اللغة العربية المطبّقة لعقود متتالية كانت أحد أسباب جمود اللغة العربية وتأخرها وعدم قدرتها على مسايرة التّطوّر العلمي والتّكنولوجي.

---

(١) محمّد زغو، مرجع سابق، ص٩٥.

(٢) يُنظر: محمّد زغو، أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشّعوب، ص٩٥ وما بعدها. (بتصرّف).

(٣) عز الدّين صحراوي، **اللغة العربية في الجزائر: التاريخ والهوية**، مجلّة كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد٥، جامعة محمّد خيضر، بسكرة– الجزائر، جوان ٢٠٠٩، ص٧.

وقد كان للإعلام بتياراته المتباينة أثر واضح في الفكر السّائد في المجتمع الجزائري، وفي تكريس الأفكار التي لا تخدم ازدهار المجتمع. وقد أدى الإعلاميون "دوراً بارزاً في تأطير المسائل الثّقافية التي طبعها التباين الكبير في النّظرة إلى المشروع الحضاري [للمجتمع الجزائري]، علماً أنّ مشاحنات هذه الفئة ازدادت في الفترة التي أعقبت الانفتاح الإعلامي (التّسعينيات)، وهي الفترة التي عبّرت خلالها الصّحافة عن مختلف مظاهر الصّراع الاجتماعي والإيديولوجي بمختلف أشكاله"(١).

وبدل أن يكون الإعلام وسيلة من وسائل لم الشّمل من أجل بناء مجتمع يقوم على الاختلاف المحمود، سعت المجموعات الإعلامية في الجزائر إلى الاعتراف "بشرعيتها وقوتها الاجتماعية والسياسية ... من خلال توظيفها لقضايا حسّاسة في الدولة والمجتمع والتي أخذت فيها **مسألة الهوية الثّقافية الحصّة الكبرى**، معتمدة كلّ الأساليب الاستراتيجية والإقناعية. كما أعادت إنتاج الصّراعات الرّمزية الموجودة بين الجماعات على مستوى الأحزاب والمدارس والجمعيات والجماعات"(٢).

وليس هناك شك في أنّ ذلك كلّه كان نتيجة حتمية لتراكمات الماضي بكل إيجابياته وسلبياته. فتأثير السّياسة الاستعمارية كان جلياً وواضحاً، وأثر الممارسات السّياسية كذلك واضح. فلم يتمكّن المثقّفون بكلّ اتّجاهاتهم (المفرنسون والمعرّبون) من التّخلص من عقدة الأنا والآخر، حيث إنّ كلّ اتّجاه

---

(١) أم الخير تومي، **ازدواجية النخبة في الجزائر النخبة الإعلامية كمثال**، «الجزائر إشكاليات الواقع ورؤى المستقبل» مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت– لبنان، ٢٠١٣، ص٢١٩.

(٢) السابق نفسه.

يظن نفسه الأصلح والأحسن والأصح. فلم يفكّروا في التّصالح مع أنفسهم ومع الآخرين من أجل مشروع حضاري شامل لكلّ الجزائـــريين بكـــل انتمـــاءاتهم الفكرية والسياسية والإيديولوجية واللغوية.

وعلى الرّغم مما جاء في صفحات هذه الورقة البحثيـــة، التـــي ركّـــزت الاهتمام على السّلبيات لضرورات منهجية بحتة، فإنّ تاريخ الجزائـــر ملـــيء بالصّفحات المضيئة التي يمكن أن يستفيد منها المجتمع، كدور جمعية العلمـــاء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية في الجزائر، وغير ذلك من المـــوروث الثقافي والعلمي الذي خلّفه أسلافنا.

**نتائج:**

نصل بعد تناول جملة من القضايا التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بانعكاسات التّعدّد اللغوي على الفكر والهوية الثّقافية الجزائرية إلى بعض النّتائج، وأهمها:

إنّ الانعكاسات السّلبية التي لها تأثير في المجتمع الجزائري ليس مردها – في اعتقادنا– إلى وجود الازدواجية أو التّعدّدية اللغوية، لأنّ هذه الظّاهرة يمكن استغلالها إيجابياً، بل لأنّ هذه التّعدّدية قد خلقت تعدّدية فكرية ولّدت اتّجاهات متباينة الأهداف. وهو الذي أنتج صراعات قد تسهم في تصدّع المجتمع إذا لم يتفطن أبناؤه إلى خطورة ذلك. ذلك أنّ فئات المجتمع وطبقاته في كلّ بلدان العالم تستجيب لحاجات مجتمعاتها بالإفادة من كلّ الإنتاج الإنساني لأنّ لها رؤية وهدفاً واضحاً. ولنا في اليابان خير مثال على النّهل من الحضارات الأخرى، حيث أعاد أبناؤها هندسة المجتمع الياباني بالتّخلص من شرور الماضي، فقصّة اليابان بعدَ الحرْب العالمية الثانية، "هي قصّةُ كِفاح وإعادة بِناء، حالها حال الدولة الأَلْمانية، التي دُمِّرتْ وقُسمتْ إلى دولتَيْن. صحيح أنَّ هزيمةَ اليابان في الحرْب العالمية الثانية أعادتِ اليابان للوراء عِدَّة عقود؛ حيث دمَّرَتِ الحربُ ٤٠% من البِنية التحتية، وتَمَّ تدميرُ كثير من المصانِع والمنشآت الحيوية، إلا أنَّ اليابانيّينَ اتَّبعوا سياسةً ذكية جداً، فبَعدَ أن أُخضِعوا للهيمنة العسكرية الأمريكيَّة، قَرَّروا تحويل الهزيمة العسكرية إلى نصْر اقتصادي، وعَمِلوا بجِدّ للوصول لذلك الهدف، وقد ساعدتْهم الأحداث العالمية في ذلك الوقت، وقدْ أَحْسَنوا استغلالها"[1].

كان من أخطر **أنواع الصراعات الصّراع الفكري** الذي بدأ بالتشّكل في العهد الاستعماري حين اجتهد الاستعمار "في **امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمَرة** بأيّ

(١) محمّد فهيد الدوسري، بناء اليابان، موقع: http://www.alukah.net/culture ، بتاريخ: ٢٠١٨/٠١/٠١.

طريقة ممكنة، حتى لا تتعلّق بفكرة مجرّدة، ومن البديهي أنّ [الاستعمار] سيحاول أولاً تعبئتها لحساب فكرة متجسّدة تجسّداً تصبح معه أقرب إليه منالاً؛ لأنّه يمكنه مقاومتها إمّا **بوسائل القوة أو بوسائل الإغراء**. على أنّ الاستعمار لن يسلك هذا الطّريق فقط، بل إنّه سوف يواصل في الوقت **نفسه حربه ضدّ الفكرة المجرّدة** بوسائل ملائمة فيها مرونة أكثر، ويستعين من **أجل ذلك بخريطة نفسيّة العالم الإسلامي**... لمواجهة الوعي في تلك البلاد حسب مختلف مستوياته وطبقاته"[1].

فقد صار المجتمع مركزاً للصّراعات الفكرية بدل أن يصبح مركزاً للتآلف والعمل الجماعي المشترك من خلال البحث عن القضايا الكبرى التي تجمع أفراده، لأنّ ما يجمعنا أكثر. وإذا غابت الفكرة الواضحة كما رأى المفكر الجزائري مال بن نبي عاش المجتمع في مستنقع الصراع والخلاف، لأنّه وقع ضحية للسياسات الاستعمارية التي من أكبر شعاراتها «فرّق لتسود».

ليست المشكلات التي تعانيها المجتمعات العربية بوجه عام والجزائر بوجه خاص، نابعة فقط من تلك الآثار التي خلّفها الاستعمار، بل لأنّ هذه المجتمعات تخلت عن دورها الرّيادي بسبب ابتعادها عن الأفكار البنّاءة التي جاء بها الإسلام الذي يفتح المجال واسعاً للاختلاف، لأنّ **الاختلاف رحمة**. وبذلك يمكن اقتراح ما يلي:

١. توحيد الأهداف بين فئات المجتمع من أجل مشروع حضاري شامل لكلّ التّوجهات الفكرية، بالبحث عن نقاط التآلف والالتقاء من أجل مجتمع متطوّر ثقافياً، واجتماعياً، وفكرياً... إلخ.

---

(١) مالك بن نبي، **الصّراع الفكري في البلاد المستعمَرة**، **دار الفكر**، دمشق، ط١١، ٢٠١٤، ص١٥-١٦.

٢. استغلال الاختلاف الذي يؤدي إلى الإبداع والاجتهاد في حل مشكلات المجتمع: السّياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والنّفسية... إلخ.
٣. استرجاع الفكرة الواضحة التي غابت بسبب التّقليد الأعمى لكلّ ما هو غربي دون تمحيص أو تدقيق.
٤. الاستفادة من تجارب الدول المتقدّمة اجتماعياً وفكرياً ولغوياً، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها.
٥. تدبير الشّأن اللغوي عن طريق وضع تخطيط لغوي ملائم، وذلك بجعل التّعدّد اللغوي خادماً للمجتمع لا هادماً له.
٦. لا بد أن يفقه العالم العربي والإسلامي أنّ مصيرنا واحد مهما اختلفنا، ونهضتنا لن تكون ما لم نحسن التّخطيط للقضاء على الصّراعات الفكرية التي تسببت في كلّ مظاهر التّخلف، وأخطر هذه المظاهر التّخلف الفكري.
٧. العمل على تحقيق الأمن اللغوي الذي يرتكز على عدم التّضييق على الأفراد في حقوقهم بما فيها الحق في الهوية واللغة وهو الأمر الذي تحدّث عنه عبدالقادر الفاسي الفهري في كتابه "أزمة اللغة العربية في المغرب".
٨. وفيما يخص اللغة العربية لا بد من تجديد طرائق تعليمها وتعلّمها بما يتلاءم وروح العصر، ولن يكون ذلك ممكناً إلاّ بـ:
   أ. تحيين المعاجم في موادها وطريقة عرضها، خاصة المعاجم التّعليمية.
   ب. الاهتمام بتوحيد المصطلح العلمي في كلّ التّخصصات: الأدبية والعلمية والتكنولوجية.
   ج. مسايرة الإنتاج العالمي بالتّرجمة، وهو عمل قام به أسلافنا حيث ترجموا علوم اليونان، والهنود... إلخ.

ولن يتم تحقيق كلّ ما ذكرناه –كما قلت في مقال سابق منشور في مجلة الممارسات اللغوية– إلاّ بوجود إرادتين: إرادة سياسية بيدها صنع القرارات،

وإرادة شعبية (أفراد المجتمع) يمكن أن تصنع المعجزات إن توفرّت لها الظّروف والشّروط الملائمة. فضلاً عن تخطيط محكم لإدارة الشّؤون العامة، وإدارة المسألة اللغوية التي ترتكز على فهم وضعية المجتمع الجزائري التي تتميّز ببعض الخصوصية، ووضعها في إطارها العام باعتبارها بلداً عربياً أمازيغياً مسلماً.

أملنا أننا وفقنا إلى مناقشة هذا الموضوع الذي سيكون لنا معه وقفات أخرى، ومن زوايا أخرى إن شاء الله تعالى.

تمّ بحمد الله تعالى

## ثبت المصادر والمراجع :

**باللغة العربية:**


١. أبو القاسم سـعد الله، **تاريخ الجزائر الثّقافي**، دار الغـرب الإسـلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨.

٢. باديس لهويمل ونور الهدى حسني، **مظاهر التعدّد اللغوي في الجزائر وانعكاساته على تعليمية اللغة العربية**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٣٠، ٢٠١٤.

٣. صالح بلعيد، **المازيغية في خطر**، مجلّة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١.

٤. صحرة دحمان، **أثر تعليم اللغات الأجنبية في اللغة العربية ،مجلة اللغة والأدب ، قسم اللغة العربية وآدابها ، ع٢٢ ، جويلية ٢٠١٤**.

٥. صحرة دحمـان، **ظواهر الاحتكاك اللّغوي في سلوك النّاطقين الجزائريين (الوسائل السّمعية-البصرية نموذجاً)**، جامعة الجزائر، معهد اللّغة العربيـة وآدابهـا، ١٩٩٩.

٦. صونية بكال، "**الازدواجية اللغوية**" ، مجلّة اللغة الأم.

٧. عبدالرّحمن الحـاج صـالح، **العاميات العربية ولغة التّخاطب الفصيحة**، مجلّـة الممارسات اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية، الجزائر، العدد ٠٣، ٢٠١١.

٨. عثمان الكعاك، **مراكز الثّقافة في المغرب**، القاهرة، ١٩٥٨.

٩. عثمان سعدي، **الجزائر في التّاريخ**، دار الأمّة للطباعة والنشر، الجزائر، ط/١، ٢٠١٣.

١٠. محمّد الأوراغي، **التعدّد اللّغوي انعكاساته على النّسيج الاجتماعي**.

١١. محمّد زغــو، **أثر العولمة على الهوية الثقافية للأفراد والشّعوب**، الأكاديميــة للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد ٤، ٢٠١٠.

**باللغة الفرنسية:**

1. Dichy, La pluriglossie de l'arabe .

نقلاً عن:

L'écriture dans la représentation de la langue, et la lettre et le mot en arabe, Doctorat d'Etat, Lyon II, 1990.

2. A .Boukous, Bilinguisme, Diglossie et domination symbolique.
3. D. Coste et R. Galison, ***Dictionnaire de didactique des langues***, Hachettes, Paris.
4. J.B Marcellesi, "Bilinguisme, Diglossie, Hégémonie, problème et taches " in Langages, n° 61.
5. J.M.Charpentier, **Quand et où parler de bilinguisme et de diglossie**.
6. kkhaoula Taleb Ibrahimi, ***les Algériens et leur(s) langue*(s)** Elément pour une approche sociolinguistique de la société algérienne، Les Editions El hikma, Alger, 1997.
7. W. Mackey, Bilinguisme et contact des langues.

# الازدواجية اللغوية الناتجة عن التقنية الحديثة وما أحدثته من تراكيب لغوية جديدة وأثر ذلك على الفكر والثقافة في المجتمع المصري

أ.د محمد عبدالرؤوف الشيخ

جامعة طنطا، مصر

الأربعاء ٩ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٥ نيسان ٢٠١٨م

## الملخص

تعرضت اللغة العربية لمحاولات كثيرة من الهجوم لخلق ازدواجية لغوية تفصل الفصحى عن الحياة العامة؛ منها إشاعة العامية بدلاً من الفصحى، وإحلال لغات أجنبية محل العربية، والدعوة إلى استخدام الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية.

وقد تعددت محاولات تغريب العربية وتعددت وسائلها وأساليبها، ولعل من أخطر هذه الأساليب إيجاد ازدواجية لغوية تمثلت في هذا العصر فيما أحدثته التقنية الحديثة في المجتمع العربي عامة، والمجتمع المصري على وجه الخصوص.

ومن هنا فإن الباحث أخذ على عاتقه بحث تلك المشكلة وبيان أثرها على ثقافة الشباب لأنهم أصبحوا بمئات الآلاف، بل بالملايين، ومن جميع الدول العربية، وليس مصر فقط، وهذا العدد في ازدياد مستمر.

وقد استخدم الباحث المنهج الأثنوغرافي لدراسة هذه المشكلة وهو منهج المعايشة للظاهرة، كما قام بزيارة بعض المواقع التي يستخدمها الشباب لمحاولة رصد تلك الظاهرة وأسبابها من وجهة نظر هؤلاء الشباب، والأنماط الثقافية التي تأثروا بها.

**مقدمة:**

تعتبر اللغة العربية بتراثها الضخم إحدى اللغات العظيمة؛ مثلها في ذلك مثل اليونانية واللاتينية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية، وهذا الوضع بالنسبة للعربية يعكس المكانة التي احتلتها، والدور المهم الذي لعبته وما تزال تلعبه في تنمية المجتمعات العربية والإسلامية،

ولأن العربية لغة القرآن فقد ارتبطت به ارتباطًا كبيرًا فهي اللغة الدينية لجميع المسلمين في أنحاء العالم سواء كانوا يتكلمون العربية أو لا يتكلمونها، فهم يتلون القرآن في أصله العربي(١).

ومن أجل هذا فإن أي محاولة لهدم تلك اللغة هي هدم للدين وسلخ العرب والمسلمين من جسدهم، ومن هنا تعددت محاولات هدم اللغة العربية وجعلها لغة غريبة بين أهلها مهجورة غير مستعملة، وذلك من أجل الهدف الأسمى الذي يسعى أعداء الإسلام إلى تحقيقه وهو محاربة الدين الإسلامي والقضاء عليه.

وقد تعرضت اللغة العربية وما زالت تتعرض لمحاولات كثيرة من الهجوم لخلق ازدواجية لغوية تفصل الفصحى عن الحياة العامة؛ منها إشاعة العامية بدلاً من الفصحى، وإحلال لغات أجنبية محل العربية، والدعوة إلى استخدام الحروف اللاتينية بدلًا من الحروف العربية وانتشار المدارس والجامعات الخاصة.

وقد تعددت محاولات تغريب العربية وتعددت وسائلها وأساليبها، ولعل من أخطر هذه الأساليب إيجاد ازدواجية لغوية تمثلت في هذا العصر فيما أحدثته التقنية الحديثة في المجتمع العربي عامة، والمجتمع المصري على وجه الخصوص، وهي ظاهرة ما يسمى بلغة "الفرانكو أرابيك" أو "لغة الشات"، وهي لغة هجينة مكونة من كلمات عربية عامية، وأخرى إنكليزية، مكتوبة بأحرف إنكليزية وأرقام تعبر عن أصوات عربية لا وجود لها في الإنكليزية(٢).

ورغم خطورة هذه المشكلة إلا أنها لم تنل حقها من الدراسة إلا في بعض المقالات العامة، ولم تفرد لعلاجها بحوث علمية جادة، وزاد الأمر سوءًا أن انتقلت هذه الظاهرة إلى الإعلام المرئي، فصارت بعض البرامج الترفيهية والدينية ذات الجمهور الشبابي تخط عناوينها وأسماء القائمين عليها بهذه الأحرف، وهذا مؤشر خطير جدًّا، لأنه يرسخ هذه الظاهرة بين الشبان.

مشكلة أخرى، وهي الثقافة والأنماط السلوكية الخطيرة التي تكونها هذه اللغة، وما تفرزه من أساليب ثقافية خطيرة، وفيما تحمله تلك الموجات المتدفقة عبر الإنترنت من الصور والأفلام السيئة ما هو كفيل بإفساد العقول والأخلاق.

وعلى ذلك فهي أكثر خطورة على اللغة العربية من المحاولات السابقة لأن ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، فقد شاعت في كل مجالات الحياة كافة، ولم تترك مجالاً إلا دخلته، كجزء من مخطط الازدواجية اللغوية والمتمثلة في ظاهرة استخدام اللغات الأجنبية بدلاً من اللغة العربية في الإعلانات مثل: "سوبر ماركت" و"ميني ماركت" ولم نعد نسمع أو نرى أسماء عربية تبعث في النفس معاني وقيمًا عربية إسلامية عريضة مثل كلمات: "محلات الأمانة" أو "بقالة الإخلاص" أو "جزارة الصدق"، وكأن التقدم أن يصبح اسم المتجر أجنبيًّا، وانتشر هذا حتى أصبح جزءًا من اللغة اليومية على ألسنة العامي والمثقف، حتى الأطفال كادوا أن ينسوا تمامًا ألفاظًا عربية مثل: البقال والقصاب، وانتقلت الظاهرة من المحلات والمتاجر إلى الشركات مثل: "نهلتكو" و"إلكتريك كامبني" وغيرها كثير، وساعدت المؤسسات الحكومية على انتشار أسماء كثيرة مثل: "مينوتكس" وهي شركة المنوفية لصناعة السجاد، بل أنشأت الحكومة مدنًا وأطلقت عليها أسماء غير عربية مثل: "كامب شيزاز" بدلً من إطلاق كلمات عربية مثل الفسطاط والقطائع وغيرها، وكأن المؤسسات الحكومية تعطي لتلك اللغة الصفة الرسمية، فيترسخ في ذهن الشباب والأطفال أن هذه اللغة لغة عربية رسمية.

وتسبب ذلك في دخول تركيبات لغوية غريبة على اللغة العربيـــة مثـــل: "إسلامكو" وعلى وزنها الكثير مثل: "ديابكو" ومحمدكو وأحمدكو. ومما يؤسف له أن تلك الدعوات كتب لها بعض النجاح ودخلت ألفاظ وتراكيب أجنبية كثيرة إلى اللغة العربية، كما انساق بعض الكتاب وراء هذه الموجة من التغريب بهـــدف جذب فئة الشباب إليهم وإلى كتابتهم، وألفوا بعض الكتب بهذه اللغة وأصـــبحت تلك الكتب متداولة في الأسواق، ولم يتوقف الموضوع عند هذا الحد بل إن قلة من الشعراء كتبوا دواوين شعرية بتلك اللغة، كما أن هناك بـــرامج تلفزيونيـــة لمشاهير كتبت بتلك اللغة على القناة المصرية الرسمية، فأضافوا أسفل الاســـم العربي للبرنامج اسمه بأحرف تلك اللغة هكذا "bokra a7la".

وهذه المشكلة مرتبطة بأزمة الهُوية العربية والإســـلامية عنـــد الشـــبان، وبحجَّة التقارب بين الحضارات الغربية والشرقية والعربية[٣].

ومن هنا فإن الباحث أخذ على عاتقه بحث تلك المشكلة وبيان أثرها على ثقافة الشباب لأنهم أصبحوا بمئات الآلاف، بل بالملايين، ومن جميـــع الـــدول العربية، وليس مصر فقط، وهذا العدد في ازدياد مستمر.

وقد استخدم الباحث المنهج الأثنوغرافي لدراسة هذه المشكلة وهو مـــنهج المعايشة للظاهرة، كما قام بزيارة بعض المواقع التي يستخدمها الشباب لمحاولة رصد تلك الظاهرة وأسبابها من وجهة نظر هؤلاء الشباب، والأنماط الثقافيـــة التي تأثروا بها.

ويجدر بنا أن نحدد مفهوم التغريب الذي يعتبر الصورة الأبشع لازدواجية اللغة أو إن شئت قل ثلاثية اللغة أو رباعية اللغة.

**مفهوم التغريب لغة واصطلاحًا:**

التغريب مصدر غرّب، والتغريب: النفي والإبعاد عن البلد، غرب يغرب تغريبًا. ولغة: غرب في الأرض: أمعن فيها فسافر سفرًا بعيدًا، وغرب فلانًا: أبعده ونحاه(٤).

يقال: أغْرَبْتُه وغَرَّبْتُه إذا نَحَّيتُه وأبعدته... وغَرَّبَه وغَرّبَ عليه: تركه بُعْدًا(٥).

وفي الاصطلاح: يطلق "التغريب" في الاصطلاح الثقافي والفكري المعاصر غالبًا على حالات التعلق والانبهار والإعجاب والتقليد والمحاكاة للثقافة الغربية والأخذ بالقيم والنظم وأساليب الحياة الغربية بحيث يصبح الفرد أو الجماعة أو المجتمع المسلم الذي له هذا الموقف أو الاتجاه غريبًا في ميوله وعواطفه وعاداته وأساليب حياته وذوقه العام وتوجهاته في الحياة، ينظر إلى الثقافة الغربية وما تشتمل عليه من قيم ونظم ونظريات وأساليب حياة نظرة إعجاب وإكبار، ويرى في الأخذ بها الطريقة المثلى لتقدم جماعته أو أمته الإسلامية(٦).

هذا المعنى قريب من دلالة الفعل "غرَّب To Westernize" في الإنجليزية إذ يعرف معجم "أوكسفورد" هذا الفعل على النحو الآتي: "***To Make an eastern country, person, etc more like one in the west, in ways of living and thinking, institutions, etc***[7]" أي جعل الشرق تابعًا للغرب في الثقافة وأساليب العيش وطرق التفكير، ونعني بتغريب اللغة العربية هنا أمرين: الأول: جعلها غريبة بين أهلها، والثاني: إحلال اللغات الأجنبية وخاصة الإنجليزية محل اللغة العربية في الاستعمال اليومي وإقصاء اللغة العربية عند الاستخدام.

**ثانيًا: مظاهر الازدواجية اللغوية والأساليب الكامنة وراءها:**

لقد أسهمت عدة أسباب وعوامل مختلفة في ظهور تلك الظاهرة واستفحالها، تناولتها الدراسات العلمية، وتنحصر هذه الأسباب في الآتي:

**١- تكنولوجيا المعلومات وظهور مواقع التواصل الاجتماعي:**

أدى التطور المذهل الذي قادته الدول الغربية الكبرى في شيوع وانتشار ومداومة الاستعمال للغاتها، فجميع مخرجات هذه الثورة صارت من ضرورات الحياة، ولا غنى عنها، ويأتي متبوعًا للتعامل مع مخرجات هذه الثورة استخدام الأسماء التي أطلقها أصحابها عليها؛ ما يحتم علينا -كمستهلك ومستفيد- استخدام كلمات أجنبية كثيرة تتمثل في تلك المسميات ومشتقاتها، خصوصًا أن هذه المصطلحات سهلة الاستخدام، كما توحي بالتقدم والتحضر مثل كلمات: كمبيوتر، ومسدكول، ودليت، وإنترنت، وفيس بوك، وإيميل، وتويتر، وجوجل، وما تبع ذلك من التواصل بين الشباب من الجنسين من خلال هذه المواقع والدردشة لساعات طويلة من خلال ما يسمى بالرسائل النصية القصيرة "SMS".

وقد ساعد ذلك على عدم نجاح المجامع اللغوية في الدول العربية بملاحقة هذه المصطلحات وتعريبها وإعطائها مقابلاً عربيًّا سهل الاستخدام.

يقول أحد الطلاب: إنني استخدم هذه اللغة وذلك بسبب إما عدم وجود لوحة مفاتيح باللغة العربية، أو عدم دعم نظام التشغيل والمواقع للغة العربية مما أدى إلى ظهور لغة "الفرانكو أرابيك" خاصة بين مستخدمي الموبايل والهواتف الذكية، وهي استخدام حروف اللغة الإنجليزية مع استكمال الحروف الناقصة بالأرقام لكتابة اللغة العربية، ومع الوقت والتعود أصبح العديد من مستخدمي الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي مثل فيس بوك وتويتر وتطبيق واتساب يكتبون العربية بالإنجليزية[٨]. وهذا يشير إلى جهل بعض الطلاب إذ إن لوحة

المفاتيح بالعربية متاحة، وليس هناك مفاتيح ناقصة ويمكن كتابة جميع حروف العربية على لوحة المفاتيح.

**٢- الانبهار بالغرب:**

ولأن الغرب أصبح حاملاً لواء الفكر والثقافة فقد انجرف وراءه الكثيرون مصحوبين بشعورهم بالنقص، لأنه ينتمي لمجتمع لا يواكب الحضارة ولذلك قاموا بتقليد الغرب، وتسرب هذا التقليد شيئًا فشيئًا إلى كافة مناحي الحياة الأدبية والثقافية والإعلامية، والاقتصادية والاجتماعية، وغيرها، وأصبحت معرفة الإنجليزية أمرًا ضروريًّا في التوظيف، ما جعل الاهتمام بها على حساب العربية. بل إن الوظائف المرموقة في الجامعات والمؤسسات الكبرى يشترط فيمن يلتحق بها إجادة الإنجليزية، وفي المقابل لا يشترط إجادة العربية، بل إن لغة الدراسة في عدد غير قليل من الجامعات العربية هي الإنجليزية.

**٣- أسباب نفسية:**

فبعض الشباب يستخدم الكلمات الأجنبية بدلاً من العربية في أحاديثهم وكتاباتهم على مواقع التواصل الاجتماعي لاستعراض مدى ثقافته ومعرفته أمام الآخرين، فهو يراها مفخرة ويظن أن التحدث بهذه الكيفية يرفع من شأنه وقدره، ويمنحه الاحترام أمام الآخرين، وذلك دليل على إحساس النفس بالضعف، وعدم القدرة على مجاراة الآخر المتقدم، بل إن من يتحدث العربية الآن يكون مثارًا للسخرية بين الجميع[٩]. وظهر ذلك جليًّا في الأفلام والمسلسلات فهي تظهر معلم اللغة العربية بشكل يثير السخرية والشفقة، ويتلفظ بكلمات غير مفهومة ومتقعرة، ويرتدي ملابس غير لائقة، في حين تظهر تلك الأفلام والمسلسلات معلم اللغة الإنجليزية على سبيل المثال، بشكل أنيق وجذاب، ويحوز احترام الجميع، بل إن استخدام اللغة العربية الفصحى في تلك المسلسلات والأفلام يقتصر فقط على المناسبات الدينية؛ ما كون لدى الكثيرين من الشباب أن الفصحى مرتبطة بتلك المناسبات فقط.

**٤- أسباب علمية:**

ظلت المجامع العلمية تقوم بأدوار محددة لا تتعدى إقامة الندوات والمحاضرات والورش وتكاد لا تجد لها دورًا في مراقبة اللغة المتداولة وسط المجتمعات المختلفة ولا الكلمات الغريبة التي تستخدم في التواصل اليومي، وتواجه المجامع اللغوية صعوبات كبيرة في فرض ونشر المقابل العربي للكلمات الأجنبية لدى المستخدم الذي أصبحت اللغة الأجنبية سهلة ومعروفة إليه، أضف إلى ذلك ضعف مستوى إجادة اللغة العربية ومزاحمة العامية.

**٥- أسباب ترجع لطبيعة تلك اللغة:**

وهناك أسباب كامنة وراء استخدام تلك اللغة من وجهة نظر الشباب، تتمثل في الآتي:

أ- **أنها أسهل وأسرع من اللغة العربية الفصحى والعامية أيضًا**، ففي دراسة أجريت على بعض الشباب في بعض الكليات الجامعية يقول أحد الطلاب: بدأت في استخدام لغة الفرانكو تحديدًا منذ عام ٢٠٠٧ وذلك منذ أن بدأت في الدخول على مواقع الدردشة والتواصل الاجتماعي حيث بدأ أصدقائي يعرفونني بها وباختصاراتها وبدأت أعتاد عليها حتى أصبحت لا أستطيع الكتابة إلا بها. وتقول إحدى الطالبات: إنه تقليد أعمى لكني اعتدت على الكتابة بها، أكتب بها منذ حوالي شهر ووجدتها أسهل وأسرع. وتقول أخرى: إنها تعودت الكتابة بها منذ أن بدأت بالدخول على الفيس بوك وهي لا تعرف أصلها، وتقول أنها لا تحب الكتابة بالعربية فهي تفضل الفرانكو بسبب الاختصارات الموجودة بها مثل "brb" فهي لا تحتاج لكتابة "be right back" أو أنها ستعود مرة أخرى للكتابة، وتقول أخرى أنها أصبحت تكتب بها فجأة لأنها رأت بعض أصدقائها يكتبون بها فأعجبتها وأصبحت تكتب بها هي الأخرى(١٠).

ب- **عدم دعم الأجهزة الحاسوبية للأبجدية العربية:** يرجع البعض السبب الرئيسي لظهور هذا النوع من الأبجدية إلى ظهور خدمة الهاتف المحمول في المنطقة العربية، وذلك لأن خدمة الرسائل القصيرة كانت تتيح للأبجدية اللاتينية حروفاً أكثر في الرسالة الواحدة عنها في نظيرتها العربية؛ ما دفع البعض الذين لا يتقنون الإنجليزية إلى الكتابة بالحروف اللاتينية ولكن بصيغة عربية، وسرعان ما انتشرت بين المستخدمين لتوفير أكبر كم من الحروف، كما فضلها المستخدمون الذين اعتادوا على استخدام الأبجدية اللاتينية، كما أنها تحل مشكلة عدم دعم بعض الأجهزة للأبجدية العربية، وكانت شبكات الدردشة هذه قد ظهرت قبل ظهور التليفون المحمول والرسائل القصيرة بالإنترنت في البلدان العربية، حيث لم تكن الحروف العربية متاحة في الأجهزة الموصولة على شابكة الإنترنت، وقد انتشر استخدام تلك الشبكات لدى الطلبة العرب المبتعثين كطريقة تواصل أوفر ماديًّا من المكالمات الهاتفية، وللعرب سابقة في الكتابة باللاتينية حيث يكتبون أسماءهم في جوازات السفر بالعربية واللاتينية(١١).

**٦- أسباب اجتماعية:**

أ. **الإدمان:** يقول بعض الشباب: بصراحة لم أكن أعرف الشات، إلا أن أحد أصحاب المقاهي أرشدني إليه منذ زمن، فأصبحت أدخله من باب الفضول، ثم انقلب إلى إدمان، وقد انتبهت لاحقاً إلى هذا الخطر، أما عن غيري، فهم يدخلونه -غالبًا- إما عن طريق أصدقائهم ومعارفهم، أو عن طريق المنتديات والمواقع والروابط الإعلانية التي تدُلُّ على الشات.

ب. **الفراغ العاطفي:** والخواء النفسي والفكري، فهذا مطرود من البيت، وذاك في خلاف مع أهله أو زوجته، وتلك قد ملت زوجها، وتلك قد اختلفت مع أمها، فيدخل كل منهم؛ ليفضفض للآخرين، وتنتهي الفضفضة لاحقاً إلى أمور معروفة(١٢).

ج. **النزوات الشيطانية:** التي يسمونها بالتعارف، والعلاقات الغرامية المحرمة والشاذة، وهي ديدن الآلاف ممن يقفون خلف أسماء مستعارة في كل شات.

د. **إضاعة الوقت:** بعض الشباب يدخل إلى غرف الدردشة ويستخدم تلك "اللغة" المزعومة لقتل أوقات الفراغ والهروب من الملل، يقول أحدهم أنه يدخل الشات؛ لإضاعة الوقت وقتله، أو للخروج من الكبت والهم والفراغ، أو بسبب الضيق، أو للضحك والفرفشة.

هـ- **المنفعة والاستفادة من تجارب الآخرين:** يقول الآخرون: إنه يدخل الشات؛ لكي "يفيد" أو "يستفيد" من الآخرين، ويتأثر بخبراتهم وتجاربهم!.

ولقد أثرت هذه العوامل وخلقت تراكيب لغوية عجيبة أثرت على ثقافة الشباب المصري خاصة والعربي عامة وهي:

**ثالثًا: التراكيب اللغوية الأجنبية الشائعة التي يستخدمها الشباب بدلاً من التراكيب اللغوية العربية:**

كما أسلفنا سابقًا فإن لغة "الفرانكو أرابيك" لغة عربية ولكنها تكتب بحروف إنجليزية مضافًا إليها بعض الأرقام التي تعبر عن بعض الحروف الموجودة في اللغة العربية لكنها غير موجودة بالحروف الإنجليزية، كحرف العين مثلاً يكتب بدلاً منه الرقم (٣)، وحرف الخاء يكتب بدلاً منه الرقم (٥)، وحرف الحاء يكتب بدلاً منه الرقم (٧)، وبعض الأرقام الأخرى.

فعلى سبيل المثال إذا أردنا كتابة جملة مثل جملة "الدنيا حلوة" تكتب كالآتي "eldonia 7elwa" وهكذا، وأحيانًا تمزج في الكلمة حرفًا عربيًّا فتكتب الجملة السابقة هكذا: "eld و nia 7elwa" أي استخدام الحروف اللاتينية والحروف العربية والأرقام؛ فهي ليست ازدواجية لغوية بل ثلاثية لغوية.

وقد أصبح لتلك اللغة المزعومة تراكيب محددة اتفق عليها بين مستخدميها، كما أصبح لها قواعد كتابية يلتزم بها مستخدموها، كما أن لها اختصارات أيضًا لعبارات محددة اتفق عليها من قبل مستخدميها.

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل انتشرت على صفحات ومواقع التواصل الاجتماعى طرق تعلم ما يسمى "الفرانكو أرابيك" بل أعلنت شركة مايكروسوفت عن إطلاق تطبيق جديد وهو "Microsoft Maren" الذي يقوم أتوماتيكيًا بتحويل الحروف اللاتينية إلى مرادفها من الحروف العربية وهكذا، فعندما يكتب الشباب أي عبارة بطريقة "الفرانكو أرابيك" على سبيل المثال تتحول العبارة إلى الحروف العربية العادية التى يمكن للآخرين فهمها بسهولة، حيث يتميز التطبيق بقدرته على تحويل الحروف المستخدمة للتعبير عن العربية مثل ٣ إلى مرادفها من الأبجدية العربية.

**وتلك التراكيب اللغوية تنحصر في الآتي:**

ع = ٣

ط = ٦

ش = ٤

ح = ٧

ق = ٨

ص = ٩

a = أ

b = ب

t = ت

Th كما ويمكن استعمال الثاء الإنكليزية المركبة t‘ = ث

j = ج

ح = ٧

kh خ = ٥ أو ٧‘

d = د

d‘ = ذ

r = ر

z = ز

s = س

$ أو ch أو sh ويمكن أن تكتب s^ = ش.

مع مراعاة الحالة الكبيرة للحرف اللاتيني s ص = ٩.

مع مراعاة الحالة الكبيرة للحرف اللاتيني D ض = ٩‘ أو ممكن أن تكتب ط = ٦

مع مراعاة الحالة الكبيرة للحرف اللاتيني Z ظ = ٦‘.

غ = ٣‘

f = ف

q ق = ٨

k = ك

l = ل

m = م

n = ن

h = هـ

وذلك حسب قوة الواو في الكلمة "o" كما تستعمل w = و.

مثال ذلك: كلمة "سبأ" تكتب هكذا saba 2.

Saba7 el5eir: صباح الخير

aml eh: عامل ايه ٣

es2al: اسأل

Tyb: طيب ٦

O9bor: اصبر

كما أصبح لتلك "اللغة المزعومة" اختصارات وذلك لاختصار الوقت والجهد في الكتابة؛ وهذه الاختصارات هي:

W8 انتظر

JAK جزاكم الله خيرًا العربية

AL7M Al7amdo lelallah أو al7 الحمد لله

hi: مرحبًا.

CU: نراك لاحقًا see you

U2: وأنت أيضًا you too

BRB: سأرجع Be Right Back

لول: LOL اضحك بصوت عال Laughing Out Loud

g2g: أو gtg "إنني مضطر للذهاب الآن"

ISA: إن شاء الله

MSA: ما شاء الله

IDK: لا أعرف i don't know

وإلى جانب ذلك دخلت تركيبات جديدة على اللغة العربية وقواعدها متأثرة باستخدام تلك اللغة الغريبة، فقد اعترى تركيب الجملة العربية تغييرات كثيرة؛ منها على سبيل المثال:

١- **استخدام جمع المؤنث السالم في التركيبات الأجنبية؛** مثال ذلك: كمبيوتر تجمع على كمبيوترات، موبايل تجمع موبايلات، مسج تجمع مسجات وهكذا.

٢- **استخدام صيغة الفعل العربي مع الألفاظ الأجنبية مثل:** دَلَّتَ: أي "حذف" بصيغة الماضي، دَلِّت: أي "احذف" بصيغة الأمر، يدلت: أي "يحذف" بصيغة المضارع.

بكسل: "شوش" أي الصورة مشوشة. الصورة "مبكسلة" أي مشوشة بصيغة المصدر.

٣ – **استخدام الصيغة الإنجليزية في المضاف والمضاف إليه وتطبيق القاعدة الإنجليزية على القاعدة العربية،** فيسبق المضاف المضاف إليه مثال: محمدكو، سهيركو، أي شركة محمد، وشركة سهير، فيتقدم المضاف (محمد) على المضاف إليه (شركة).

٤ – **استخدام قاعدة جمع التكسير العربية على الألفاظ الإنجليزية؛** مثال: باراكيد جمع باركود: أي الرقم المسلسل الذي يوضع على السلعة لمطابقتها مع الحاسوب، ريكوردارات جمع ريكوردر: أي مسجل.

ولقد أثرت تلك "اللغة" المزمعة تأثيرًا سلبيًّا على ثقافة الشباب، ونتج عنها سلوكيات ثقافية سلبية خطيرة، بل إن ضررها أكثر من نفعها؛ وذلك على النحو التالي:

**رابعًا: الأثر الناتج عن الازدواجية اللغوية على ثقافة وفكر الشباب:**

يتميز كل شعب بثقافته التى يتميز بها عن غيره من الشعوب، وهذه الثقافة تنعكس على لغته، فاللغة فى أي مجتمع هى مرآة ثقافته، وهى الوسيلة التى تستخدمها الشعوب للتعبير عن ثقافتها المتمثلة في العادات، والعقائد، والقيم، والمعارف، وغيرها.

فاللغة بلاغة راقية يبلغ بها المرء حاجته ويُبلّغها، ليبلغ بها قلوب الناس وعقولهم. ومتى انتفت كان مستعملوها دون البلوغ. فى العصور التى اعتنى فيها العرب بلغتهم، تنظيرًا وبحثًا، وتدقيقًا وتنقيبًا، بالغوا فى الاهتمام بها ورعايتها ودراستها، فبلغوا بذلك أسمى الدرجات فى سلم الحضارة. ويمكننا الآن المقارنة بين الأمم والشعوب، ومدى بلوغهم التمدن والرقى بمستوى عنايتهم بلغتهم الكتابية والشفاهية. إنها التعبير الأجلى عما تصل إليها. اللغة نظام، ومتى اختل النظام سادت الفوضى، وفى علاقة العرب بلغتهم لا نجد سوى الفوضى، وانعدام البلاغة، لذلك نعتبر اللغة ثقافة، وكما تكون لغة قوم، تكون ثقافتهم(١٣).

فأي خلل يعتري اللغة يمكن أن يؤثر على التواصل، أو يجعله قائمًا على الالتباس والإبهام. كما أنها أيضًا أسلوب وجمال، وكلما ضعف أسلوب استعمالها كان ذلك دالاً على أسلوب المرء في الحياة وقيمه وأخلاقه وعلاقاته بالآخرين .

ولذلك فإن المشكلة المطروحة هي: التعرف على العلاقة بين اللغة والثقافة وتبيان أثرها على الثقافة بوجه عام وثقافة الشباب بوجه خاص، هذا بالإضافة إلى ارتباط اللغة بالتفكير ارتباطًا وثيقًا لأن أفكار الإنسان دائمًا لا تستطيع أن تظهر بمفردها ولا بد لها من لغة ما للتجسد على أرض الواقع.

فاللغة هي المرآة الحقيقية لثقافة أي شعب من الشعوب الإنسانية، ويؤدي التكامل بين اللغة والثقافة إلى تنمية المهارات اللغوية والمهارات الثقافية لدى أصحاب تلك اللغة.

فأهم ما يميز الثقافة هو طابعها القومي، وتعتبر الأداة الرئيسة للتعرف على العالم المحيط والتواصل مع الآخرين والتفاعل مع الثقافات الأخرى، وبالتالي هذا يجعلنا نستنتج أن الثقافة غير قابلة للعيش من دون اللغة لأنها تعيش وتترعرع في وعاء هذه اللغة. ويقوم الناس بواسطة اللغة باستخدام التعابير والإشارات والعادات والتقاليد ونقل المعلومات وتحديد أصول السلوك واعتناق المعتقدات والأفكار والتعبير عن المشاعر والأحاسيس، ومن المعروف أن الإنسان لا يمكن له أن يعيش في المجتمع من دون هذه العناصر(١٤).

بالإضافة إلى ذلك فإن اللغة هي وسيلة أداء النشاطات الثقافية المختلفة، وبالتالي فإن اللغة لا يمكنها أن تعيش من دون الثقافة لأن الثقافة هي مادتها وأداتها، وفي الوقت نفسه لا يمكن للثقافة أن تتطور من دون اللغة؛ لأنها هي الوسيلة التي تستعملها الثقافة ليتعرف الناس عليها، وخلاصة القول: إن اللغة والثقافة صنوان لا يفترقان أو وجهان لعملة واحدة.

وتعتبر طرق الكلام أو الإشارة في مجتمع ما جزءًا لا يتجزأ من ثقافة المجتمع ككل، تمامًا كما هي الممارسات المشتركة الأخرى، فاستخدام اللغة هي طريقة لبلورة وتوضيح هوية المجتمع، فطرق الكلام بين الأشخاص ليست طريقة لتسهيل التواصل بينهم فحسب وإنما لتحديد هوية ومكانة المتحدث

الاجتماعية أيضًا. فعادة ما يطلق اللغويون على الطرق المختلفة في التحدث بلغة ما، مصطلحًا يشمل لهجات معرفة جغرافيًّا أو ثقافيًّا ولغات أو أساليب تحدد المجموعات الفرعية ذاتها وتميزها عن غيرها. كما يعرف علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا اللغوية الأسلوب التواصلي على أنه الطرق التي تستخدمها اللغة والتي تعتبر مفهومة في إطار ثقافة معينة[١٥].

فلا تقتصر الاختلافات بين اللغات على اختلافات النطق، والمفردات أو القواعد اللغوية فحسب، بل تتعدى لتشمل الاختلافات في "ثقافات الكلام"؛ على سبيل المثال: يعتبر تحدث المرء إلى محارم الآخر من المحرمات في الكثير من ثقافات الشعوب الأصلية في أستراليا، وقد تتطلب بعض اللغات الأخرى طرقًا مختلفة للتحدث مع أفراد من مختلف الطبقات الاجتماعية، وغالبًا ما يقوم مثل هذا النظام على الفروق بين الجنسين، كما هو الحال في اليابان.

يُمكِّننا الإقرار بالازدواج اللغوي بين الشفاهي والكتابي بخصوص اللغة العربية من البحث عن كيفية تجسير العلاقة بينهما بشكل سليم وطبيعي. ولعل ممارسة ذلك على المستوى التربوي والإعلامي والطباعي كفيل بإيجاد الحلول المناسبة. إن الطفل الذي يكتب إنشاء أو يريد التعبير بالعربية في مقام ما، يظل ضحية هذا الالتباس بين الكتابي والشفاهي اليومي. فإذن هو لا يستفيد من دراسة العربية في المدرسة، بمزجه بين لغتين في لغة واحدة، دون أن يحافظ على حرمة أي منهما[١٦].

إن المشكلة الجوهرية هنا ليست لغوية بالدرجة الأولى، إنها مشكلة وسائطية. إن للغة، باعتبارها نظامًا، مقامات وسياقات ووسائط. وبدون مراعاة المقام والسياق الذي نوجد فيه، لا يمكن إلا أن يحصل الالتباس. فالوسيط الكتابي له شروطه اللغوية وبلاغته الخاصة، وكذلك الوسيط الشفاهي. ويفرض علينا هذا

التمييز بين الوسيط اللغوي ومقامات التداول اليومي، فحين نكتب أو نلقي محاضرة أو نقدم تقريرًا علينا مراعاة شروط الخطاب واللغة التي نتواصل بها مع الجمهور الذي نخاطب. ويمكن قول الشيء نفسه حين نتحدث في موضوعات تتصل بالحياة اليومية.

ولكن في لغة كهذه –أعني لغة "الفرانكو أرابيك"– فلا يراعى فيها شروط الخطاب، ولا المحرمات ولا قواعد الاحترام المتبادل، فالشاب قد يتحدث مع فتاة دون إذنها أو مع امرأة دون علم زوجها، فانتهكت الحرمات وضرب بالتقاليد والأعراق عرض الحائط.

العلاقة بين اللغة والثقافة، من حيث التداخل والتشابك تأخذ سجالاً فكريًّا وجدليًّا، ويتولد عنهما الكثير من المعايير التي تسهم في إغناء كل واحدة منهما لحساب الأخرى، فاللغة تكون نتاجًا وتطورًا فكريًّا للإنسان ويحدد بها نمط تفكيره ومستوى حياته، ما يجعل تكثر اللغات ينتج عنه كثير من أنماط التفكير الإنساني، وهذه الأنماط الفكرية والمسافات المعرفية وتعددها سينتج عنها الكثير من تلك الصور، وهذا ما يشكل الجزء الكبير بما ندعوه بالثقافة، كما أن الثقافة هي الأخرى لا تقف عند حد اللغة فحسب، بل تتعداها ليتشكل أمام اللغة مساحة واسعة لاستنباط الدلالات والرموز التي تغني اللغة، وإن المساحات التي يتقاطع فيها مفهوم اللغة مع مفهوم الثقافة كثيرة ومتشعبة ومتداخلة، حتى يصعب علينا فك كل واحدة عن الأخرى، وفي هذه الحالة يمكننا القول: إن حالات التشابك هي الممرات والقنوات التي تمرر إسهامات اللغة في الثقافة وتطورها، وكذلك إسهامات الثقافة في اللغة، فعندما يخرج مصطلح في اللغة لا بد أن تشارك الثقافة في صياغة مفرداته، وبشكل كبير في دلالات ذلك المصطلح وجوازاته وخياراته؛ عند ذلك تتحدد فيها معايير الثقافة وفضاؤها لتختزل في ذلك المفهوم أو المصطلح. في مجالات أخرى لا تكون اللغة أساسًا في تكوين الثقافة، إلا في حالة متقدمة على ذلك المنجز الثقافي، ولا يقتصر مفهوم اللغة على ما هو

مكتوب، بل على ما هو منطوق بتلك اللغة، وإن كان ذلك لا يشكل قاعدة، ما يجعلنا نقول: إن اللغة والثقافة ولدتا من رحم التفكير الإنساني.

ولقد أوجد هذا النوع من اللغة التي لا يراعى فيها شروط الخطاب ولا احترام المحرمات والعادات والتقاليد السائدة ما يسمى بالثقافة الرقمية وعلاقة اللغة بتلك الثقافة، فإذا كانت الثقافة تعني لغويًّا التعلم والتهذب والتثقف فإن الثقافة الرقمية في علاقتها باللغة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعالم الإلكتروني بوصفه ثورة علمية في العصر الحديث، لذلك اختلف المثقفون حول مصطلح جديد ظهر نتيجة لذلك؛ وهو مصطلح "الثقافة الرقمية"، فيرى البعض أنه علاقة مباشرة بين الثقافة بوصفها مكونًا معرفيًّا والرقمية بوصفها تقنية، بحيث تكون المحصّلة أشكالاً ثقافية رقمية. ويرى آخرون أنه مصطلح يعكس ما أوجدته الثورة الرقمية (المعلوماتية/الإنترنت) من أنماط ثقافية وسلوكيات جديدة وافدة؛ وهذا ما نقصده في الدراسة الحالية.

ذلك لأنه من الثابت أن الثقافة الرقمية هي الثقافة الوافدة على مجتمعاتنا في هذا العصر الذي يطلق عليه العصر المعلوماتي، عصر ثورة الاتصالات وثورة المعلومات.

فالثقافة الرقمية تعني الإشارة إلى معطيات ثقافية ناجمة عن استخدام التكنولوجيا الإلكترونية الجديدة وما نتج عنها من سلوكيات وأنماط ثقافية وافدة أدت إلى ممارسة الشباب لتلك السلوكيات والأنماط الثقافية في مجتمعاتنا العربية، بالرغم من أنها تتنافى مع ثقافتنا العربية. فمن المفروض أن جوهر الثقافة الرقمية يكمن في تمكين أفراد المجتمع من استخدام التطبيقات الرقمية الحقيقية، لما لها من أهمية في إنجاز أعمالهم الوظيفية والشخصية، لكنهم انحرفوا عن جادة الطريق وأصبح تصفح مواقع وصحف في الإنترنت وتنزيل المواد الإلكترونية من مقالات وأغان، ليس إغناء للثقافة العربية، بل إضافة

ثقافات وافدة غريبة على ثقافتنا العربية. فما هي تلك الأنماط الثقافية والسلوكية التي نجمت عن استخدام "لغة الدردشة" أو لغة "الفرانكوارابك".

**السلوكيات الثقافية الناتجة عن الازدواجية اللغوية:**

لقد أفرزت الازدواجية اللغوية أنماطًا مختلفة من السلوكيات التي تحولت بفعل التكرار إلى نمط حياة وثقافة وافدة؛ منها:

١- **النظر إلى اللغة العربية نظرة دونية،** وأنها لغة قديمة يصعب التحدث والكتابة بها.

٢- **ازدياد الفجوة المعجمية لدى الشباب واعتقادهم الخاطئ بأن الألفاظ التي يستعملونها ليس لها مقابل في اللغة العربية،** وجهلوا حتى أن (ماركات) السيارات الأجنبية لها أسماء عربية في غاية الجمال، فعلى سبيل المثال: كلمة "بيجو" الفرنسية معناها "الحمامة"، وكلمة "لكزسس" تعني "الفخامة والأناقة"، وكلمة "مرسيدس" تعني "البركة"... وهكذا.

٣- **التعود على لغة الاختصارات والاعتقاد الخاطئ بأن اللغة العربية لا تستعمل الاختصارات،** على الرغم من وجودها في اللغة العربية، فنحن على سبيل المثال نستخدم الاختصارات التالية في اللغة العربية: (س ح م) للتعبير عن سكك حديد مصر، و(ج م ع) للتعبير عن جمهورية مصر العربية، و(بسمل) أي قال: بسم الله الرحمن الرحيم، و(حوقل) أي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... وهكذا.

٤- **هجر الألفاظ العربية التي تحمل معاني القيم الأخلاقية وتبعث في النفس الاحترام والراحة النفسية** مثل: بقالة الأمانة، وجزارة الإخلاص، وشركة الموحدين، ومطعم الطيبين... وهكذا، واستبدلت بغيرها من الألفاظ الأجنبية مثل: سوبر ماركت، رستوران وغيرها فأخرجت تلك الألفاظ من محتواها الجميل.

٥- **التعود والإدمان بدون هدف،** فقد اعتاد شباب هذا العصرِ قضاءَ يومهم مع مواقع التواصل الاجتماعي على الهواتف النقالة أو على شاشة الحاسوب، وأمام ما

يسمَّى بالشات أو الدردشة لساعات طويلة، بهدف وبغير هدف، حتى أدمنوا ذلك وكأنه مخدر، وقد يتكاسل عن أداء واجباته أو حتى عن الصلاة، ولكن لا يتوقف عن استخدام تلك المواقع بلا هدف.

٦- **التشبه بالغرب:** وحينما نسأل بعضَ الشباب عن هدفه، فيرد أحدهم بأنه -وبكل صراحة- يسعى للتعرُّف إلى فتاةٍ ما، ربما من عالمنا، وربما من عالم الأوهام، على ما صوَّرها له عقله، وربما يراوغ آخر مدعيًا أنه يبحث عن الأصدقاء والصحبة الجديدة.

٧- **مضيعة الوقت:** ويقول آخرون بأنهم يقتلون الوقت قبل أن يقتلهم، فيجلسون بالساعات الطويلة؛ كي ينقضيَ عمرُهم وهم لا يشعرون.

وإذا سألت شابًّا: من أين يأتي بهذا الوقت؟ والحقيقة أن معظمهم طلاب علم، أو عامل وعليه من الأعباء وشؤون حياته الأخرى الكثير، ولكنه يقصر، وحينما يُسأل عن ذلك، يرد قائلاً بأنه لا يملك الوقت الذي يمكِّنه من أداء فروضه وأعباء حياته.

٨- **الكذب وانتشار الإشاعات:** فالشاب يدخل إلى هذه المواقع في أغلب الأحيان باسم مستعار وليس باسمه الحقيقي حتى لا ينكشف أمره؛ فيتعود بذلك على الكذب، وكذلك الفتاة قد تضع صورًا ليست صورها لتوحي للشباب بأنها جميلة، وقد تكتب اسمًا مستعارًا لأحد مشاهير السينما بدلاً من اسمها، وكيف يصدِّق كذبه ويدَّعي أنه يقول الحقيقة، مع أنه هو صاحب الكذبة، وهو أول من نطق بها، وأول من روَّج لها؟!

وتجد هذه المواقع مليئة بشائعات غيرت حياة كثير من الناس، وربما ألغتها، ودفنتهم تحت التراب، فانساق وراءها بعض العامة والجهلة، ووقعوا في تقليدهم،

فصارت تلك التقنيات مصدرًا رئيسًا للكذب، ولا يكاد خبر ينزل فيها عن شخص أو دولة أو حكومة أو أمة إلا وينتشر انتشار النار في الهشيم بشتى صور العرض، ويتفنن في جذب الانتباه.

صار كثير من الناس –وخصوصًا الشباب– يصدرون الأحكام بناءً على ما يكتب على صفحاتها، وأصبح كل من هب ودب يتكلم في الأمور الخطرة التي تهم حياة الناس، وصار كثير ممن لا يعرفون وليس لهم من الأمر شيء، صاروا يتكلمون في أمر الأمة ويوجهون، ويحكمون على الناس وأديانهم، ويكفرون ويبدعون من يشاؤون وهم لا يدركون حجم الظلم الذي يقع على الناس نتيجة الكذب وانتشار الشائعات وهي محرمة دينيًّا، يقول تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ سورة النساء، الآية ٨٣.

فالدين الإسلامي يقر مبدأ التحفظ عند سماع الأخبار، والتثبت من أحوال نقلتها، وظروف نقلها، وعدم التسرع في رواية الأخبار ونشرها، وإن سمعها من إذاعة أو قيل إنها من مصدر موثوق أو عن ثقة، كما نهانا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الكذب، وذلك في أحاديثه النبوية الشريفة؛ فقد حدث عثمان بن شيبة، قال: حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبدالله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا"(١٧).

ومن أخطر وسائل نقل الإشاعات أجهزة الجوالات عن طريق الرسائل النصية أو مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت، تجد بعض الناس ينشر كل ما

وصل إليه دون تثبت ولا تأمل هل هو قول يستحق أن يقال؟ أم هو قول يظهر عليه الافتراء والاختلاق؟!

٩- **انتهاك حرمة الآخرين:** أدى استخدام لغة "الفرانكو أرابيك" هذه إلى الدخول إلى مواقع الدردشة عبر مواقع التواصل الاجتماعي في أي وقت وعلى أي إنسان ما دام أن له حسابًا على هذا الموقع، فيدخل الشاب إلى موقع فتاة ويناقشها في أدق تفاصيل حياتها وأسرار بيتها؛ وفي ذلك انتهاك لحرمات البيوت وإفشاء لأسرارها. كل ذلك يتم تحت أسماء مستعارة كما أسلفنا ويتكرر دخول فتاة وشاب إلى تلك الغرفة معًا، ولأكثر من مرة؛ ما يعني أنهما متفقان بطريقة أخرى على الدخول معًا، إما بالهاتف أو الماسنجر، وهذا ينطبق على آخرين وأخريات كُثر، فالعلاقة تتجاوز الشات.

١٠- **انتشار التفاهات وانعكاسها على الأدب:** فكثيرًا ما يدور الحديث عن موضوعات لا قيمة لها ويتركز دائمًا عن "الحب" و"المرأة" بشكل متكرر يدعو إلى العجب، وكأنه ليس في الدنيا غير هذين الموضوعين، ويكون الحديث بطريقة تافهة؛ ومثال ذلك ما يسمونه بالخاطرة، فكل من هب ودب من المتطفلين على الأدب، ومن غير أهل الأدب – أصبح يكتب بعض التفاهات، وينشرها باسم الخواطر، ولم يدر هؤلاء أن الخاطرة فن لا يتقنه إلا القليل.

مثال آخر ما يطلقون عليه الشعر النبطي، وكثيرًا ما يكون منقولًا، وقليلًا ما يكون من تأليف هؤلاء الأشخاص.

١١- **الانحطاط الأخلاقي؛ مثل تبادل الأفلام الإباحية:** حيث تجد عشرات الأشخاص الراغبين في تبادل الأفلام الإباحية من الجنسين، وربما كان ذلك بمقابل، هذا غير الأسماء التي لا تصرح بذلك، أضف إلى التعارف بين المطلقات والشباب والزنا الإلكتروني والعلاقات المحرمة بين المتزوجين والمتزوجات والعلاقات الشاذة بين المثليين.

١٢- **التسابق في السرعة في الكتابة أو ما يسمى بـ(الذَّبّ):** فكثيرًا ما يجتمع أكثر من شخص ممن يتقنون الكتابة السريعة، ويبدؤون: أيهم يسبق الآخر في كتابة عبارة ما؟ وكثيرًا ما ينحرف هؤلاء الأشخاص إلى تبادل السباب والشتائم واللعنات؛ فيتحول السباق فيها إلى تسابق في السيئات!

١٣- **إثارة روح العصبيات والخلافات العرقية:** وهذا ما نراه من خلال أسماء الغرف المقسمة حسب البلدان والقبائل والمدن، كما تتخلل العصبية دائمًا بين الحوارات.

١٤- **استخدام لغة سوقية بذيئة ممثلة في السب والشتم واللعن وبذاءة اللسان،** ويتم ذلك من خلال نشر أفكار ضالة ومنحرفة وفساد أخلاقي ومحاربة للفضيلة، عن طريق الطرح المباشر، أو الحوار المقنع، أو بحديث العاطفة، أو بكل وسائل الحوار والإقناع.

**الخاتمة**

وبعد... فإن السؤال المطروح الآن هو: كيف نحمي شبابنا من تلك الثقافة اللغوية؟ وما السبيل إلى الحفاظ على اللغة العربية؟

إن المسؤولية هي مسؤولية الجميع من رجال إعلام وتربويين وسياسيين ولغويين وغيرهم.

فيجب أن يتنبه الإعلاميون واللغويون إلى هذه الظاهرة، ويسارعوا في وأدها في مهدها، قبل أن تستفحل وتتعمق أكثر مما هي عليه الآن، وكذلك مدرسو اللغة العربية وغيرها من المواد في المدارس عمومًا الخاصة والحكومية، الابتدائية والإعدادية والثانوية، بأن ينشروا الوعي اللغوي، وينبهوا طلابهم إلى آثار هذه الظاهرة السلبية، فهناك عوامل كثيرة ساعدت على استعمال تلك الظاهرة ويجب محاصرتها مثل: الجهل، وعدم الرقابة، والبلبلة، وسوء التربية والنشأة، والتركيز على تربية المشاعر والأحاسيس والعقول والأفئدة، وهي مسؤولية الجميع بدءًا من الأسرة ممثلة في الوالد والوالدة والأخ والصديق؛ يتعاون كل فرد في وأد تلك الظاهرة، وليكن المسؤول في بيته مسؤولاً حقيقيًّا بما تنطوي عليه تلك المسؤولية، فالأمر محتاج إلى المراقبة الذكية بوسائل تربوية ناجحة تقوم على الثقة المتبادلة والصراحة المفرطة، وليكن الوالد والوالدة أقرب الأصحاب إلى أولادهم وبناتهم، يشاركونهم أفراحهم وأحلامهم، ويعايشونهم في واقعهم، ويهونون عليهم ما يصعب على قلوبهم الصغيرة احتماله، وليكن الوالد والوالدة بديلاً لي عن صاحب المقهى، لنعبر معًا جسر الحياة بأيد متشابكة نحو غدٍ مشرق من صنع أيدينا.

– كما أن هناك مسؤولية تقع على عاتق الدولة وأولي الأمر تتمثل في الرقابة من جانب الدولة والمسؤولية عن هذه المواقع، ومنع استخدامها إلا في المنفعة

العلمية فهي مواقع تنشر الجريمة والفكر الفاسد، وتدعم الانحلال الأخلاقي عن طريق المحادثات المباشرة، وقد يكون هذا أشد خطرًا من المواقع الإباحية الصريحة، وتوجيه هذه المواقع إلى العمل النافع المنتج، ومن ذلك:

- إنتاج البرامج اللغوية التي تشبع حاجات الشباب وتساعدهم على استخدام اللغة الفصحى السهلة، والمسلسلات التي تنطق بهذه اللغة بدلاً من المسلسلات والأفلام التي تنشر العامية.
- إعطاء معلم اللغة العربية مكانته التي يستحقها في وسائل الإعلام والكف عن الاستهزاء به وتصويره في الإعلام والمسلسلات بصورة لا تليق بمكانته وتحط من شأنه، وبث روح الاحترام والتبجيل لهذا المعلم لأنه يحمل رسالة مقدسة؛ هي نشر العلم ولغة القرآن بين أبنائه.
- عدم اقتصار عرض الأفلام التي تنطق بالعربية الفصحى على المناسبات الدينية فقط وتشجيع المنتجين على إنتاج المزيد من الأفلام الناطقة بالفصحى الميسرة في ثوب اجتماعي راق يجذب المشاهدين من الشباب إلى تلك الأفلام، وبث الأنماط الثقافية الإيجابية من خلال تلك الأفلام، أيضًا قنوات الأطفال وما تبثه من مسلسلات وأفلام لا بد أن تكون باللغة الفصحى السهلة.
- العمل على تيسير تدريس النحو العربي واللجوء إلى طرق تدريس جديدة تقوم على استخدام القصة والمسرح وتخليص النحو العربي مما شابه من تقعر والتركيز على المعنى لا الشكل. وفي هذا المجال أقترح أن يقوم تطوير النحو العربي على القواعد التالية:
- قاعدة المبنى والمعنى: فاللغة تتكون من جزأين المبنى والمعنى. إذا زاد المبنى زاد المعنى، فالمبنى وسيلة للوصول إلى المعنى.
- عدم وجود ترادف، فكل مبنى له معنى، وبالتالي فإن تدريس قاعدة كان وأخواتها على سبيل المثال لا بد أن تركز على المعنى. فليست القضية أنها

ترفع المبتدأ وتنصب الخبر، فهذه قضية مبنى، ولكن قضية المعنى تختلف؛ فعندما أقول على سبيل المثال: "أصبح الطالب مدرسًا" فهذه الجملة سليمة من حيث المبنى والإعراب ولكنها خطأ من حيث المعنى، لأن المبنى لا يدل على المعنى ولكنه صحيح من حيث المبنى والقواعد النحوية، لأنّ أصبح تفيد حدوث الفعل في الصباح، وليس من المعقول أن يكون الطالب مدرسًا في الصباح فقط.

فقضية المعنى تقتضي منا أن نقول: "صار الطالب مدرسًا"، لأنّ صار تفيد التحول، فمن المنطقي أن يتحول الطالب إلى مدرس بعد أن كان طالبًا وذلك بعد تخرجه على سبيل المثال، وهكذا هنا يحس المتعلم بقيمة اللغة وجمالها فهي ليست نماذج أو قالبًا عليه حفظها ولكنها أثواب جميلة تعطي الجمال والحياة للأشياء.

**الهوامش**

١-فتحي يونس، محمود الناقة، **أساسيات تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية**، ج١، دار الثقافة، ١٩٧٧، القاهرة، ص٢٣.

٢-عبدالواحد النحاس، **مشكلة العامية والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب**، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، الخرطوم، ١٩٩٧، ج١، ص١٤.

٣-كمال بشر، **اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم**، ج١، دار غريب للطباعة والنشر، ١٩٩٩، القاهرة، ط١، ص٣٧.

٤-مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ج٢، مطابع الأونست بشركة الإعلانات، الشرقية، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ج١، ص ص٦٧١ -١٧٢.

٥-مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ج٢، مطابع الأونست بشركة الإعلانات، الشرقية، القاهرة، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م، ج١، ص ص٦٧١ -١٧٢.

٦-محمد عبدالرؤوف الشيخ، **ظاهرة تغريب اللغة العربية في المجتمع المصري ،أسبابها واتجاهاتها** ، مؤتمر رابطة التربية الحديثة، التربية في الوطن العربي الآفاق والتحديات، رابطة التربية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٩م.

7- H.w.Fowler,.and F.G.Fowler(eds) The Concise Oxford Dictionary of Current English ,5th edition, Revised by E. Mc Intosh., Oxford University Press, London, Ely House, 1964, vol 1, p.1483

٨-أحمد محمد محترش، **ظاهرة الشائعات ،شبكة الألوكة**، الشبكة الدولية للمعلومات، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، القاهرة، ج١، ص١٠٧.

٩-محمد عبدالرؤوف الشيخ، **الجانب الثقافي في كتب تعليم اللغة العربية للأجانب في المستوى الأول**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة طنطا، ١٩٨٥.

10- Palfreyman, David; Mulamed, Aly Khalil "*A funky Language for Teens to use,* Representing Gulb Arabic in I nstant Messaging "In, Danet, Brenola; Herring, Susan, The Multilingual Intranet Language,

Culture, and Communication Inline, oxford university Pees, 2007, England, PP 43 – 64.

١١- إبراهيم فرغلي، **هل تمحو الضاد**، مجلة العربي الكويتية، الكويت، ٢٠١٠، العدد ١٥، ص ص١١٢-١١٦.

١٢- تمام حسان، "**من خصائص العربية**"، وقائع ندوة تعليم اللغة العربية، ج٢، منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج، المدينة المنورة، ١٤٠١هـ، ص٩٦.

١٣- محمد عبدالرؤوف الشيخ، **الجانب الثقافي في كتب تعليم اللغة العربية للأجانب في المستوى الأول**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة طنطا، ١٩٨٥، ص٤٣.

14- Mike, W. (2008): Social Networks, Gender and Friending: An Analysis of my Space of Member Profiles. *Journal of the American Society for Information Science and Technology*, 59 (8), pp 1322-1336

15- Backstrom, L.,Huttenlocher, D.,Kleinberg, J.,and Lan, X. (2006):*Group Formation in Large Social Networks Membership, Growth, and Evaluation. Proceeded to 12th International Conference on Knowledge Discovery in Data Mining*, New York,ACM Press, pp44-45

١٦- نهى قاطرجي، **لغة الشات**، مجلة العربية الإلكترونية، الكويت، ٢٠١٠، العدد ١٤، ص ص٣٢-٥٤.

١٧- القسطلاني (ت٩٢٣هـ)، **صحيح البخاري** عن شرح الطبعة السلطانية، مج٣، تقديم أحمد شاكر، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص٣٠.

## المراجع


١- إبراهيم فرغلي، **هل تمحوالضاد**، مجلة العربي الكويتية، الكويت، ٢٠١٠، العدد ١٥.

٢- أحمد محمد محترش، **ظاهرة الشائعات، شبكة الألوكة**، الشبكة الدولية للمعلومات، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، القاهرة.

٣- تمام حسان، "**من خصائص العربية**"، وقائع ندوة تعليم اللغة العربية، ج٢، منشورات مكتب التربية العربي لدول الخليج، المدينة المنورة، ١٤٠١هـ.

٤- عبدالواحد النحاس، **مشكلة العامية والفصحى في تعليم اللغة العربية للأجانب**، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، الخرطوم، ١٩٩٧.

٥- فتحي يونس، محمود الناقة، **أساسيات تعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية**، ج١، دار الثقافة، ١٩٧٧، القاهرة.

٦- القسطلاني (ت٩٢٣هـ)، **صحيح البخاري** عن شرح الطبعة السلطانية، ٣مج، تقديم أحمد شاكر، دار الجيل، بيروت، د.ت.

٧- كمال بشر، **اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم**، ج١، دار غريب للطباعة والنشر، ١٩٩٩، القاهرة، ط١.

٨- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ج٢، مطابع الأونست بشركة الإعلانات، الشرقية، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٩- محمد عبدالرؤوف الشيخ، **الجانب الثقافي في كتب تعليم اللغة العربية للأجانب في المستوى الأول**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة طنطا، ١٩٨٥.

١٠- محمد عبدالرؤوف الشيخ، **ظاهرة تغريب اللغة العربية في المجتمع المصري، أسبابها واتجاهاتها**، مؤتمر رابطة التربية الحديثة، التربية في الوطن العربي الآفاق والتحديات، رابطة التربية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٩م.

١١- نهى قاطرجي، **لغة الشات**، مجلة العربية الإلكترونية، الكويت، ٢٠١٠، العدد ١٤.

12- Backstrom, L.,Huttenlocher, D.,Kleinberg, J.,and Lan, X. (2006):Group Formation in Large Social Networks Membership, Growth, and Evaluation. Proceeded to 12th International Conference on Knowledge Discovery in Data Mining, New York,ACM Press.

13- Danah, M (2007): Social Network Sites: Definition, History and Scholarship, Journal of computer Mediated Cmmunication,13 (1).

14- H.w.Fowler,.and F.G.Fowler, (Eds) The Concise Oxford Dictionary of Current English ,5th edition, Revised by E. Mc Intosh., Oxford University Press, London, Ely House, 1964, vol 1 .

15- Mike, W. (2008): Social Networks, Gender and Friending: An Analysis of my Space of Member Profiles. Journal of the American Society for Information Science and Technology, 59 (8).

16- Palfreyman, David; Mulamed, Aly Khalil, "A funky Language for Teens to use", Representing Gulb Arabic in Instant Messaging "In, Danet, Brenola; Herring, Susan, The Multilingual Intranet Language, Culture, and Communication Inline, oxford university Pees, 2007, England.

# التداخل اللغوي في
# الشعر العربي المعاصر بالمغرب

**الدكتور الغالي بنهشوم**

**جامعة المولى إسماعيل، المغرب**

**الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م**

**الملخص**

أسهمت المعطيات الجغرافية والتاريخية والأنتروبولوجية في بروز ظواهر لغوية متعددة، أفرزها تعدد اللغات واللهجات، الشيء الذي انعكس إيجاباً وسلباً على اللسان العربي المغربي عموماً؛ وعلى الكتابة الأدبية خاصة، في إطار تفاعل الإبداع مع الفكر والواقع. وأمام بروز ظاهرة التعدد اللغوي بالمغرب وما تطرحه من إشكالات كبرى على مستوى الهوية والثقافة والفكر، تأتي هذه الدراسة للإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي ستحاكم واقع اللغة العربية اليوم وسط زحام اللغات الأجنبية واللهجات المحلية.

## نص المداخلة

أصبح المغرب بحكم موقعه الجغرافي وانفتاحه على ثلاث قارات ملتقى لتعدد الحضارات (فرنسية، وإنجليزية، وإسبانية، وبرتغالية، ورومانية، وعبرية..)، وبوابة لأفريقيا وأوربا، وقد أسهمت المعطيات الجغرافية والتاريخية والأنتروبولوجية في بروز ظواهر لغوية متعددة، أفرزها تعدد اللغات واللهجات، الشيء الذي انعكس إيجاباً وسلباً على اللسان العربي المغربي عموماً؛ وعلى الكتابة الأدبية خاصة، في إطار تفاعل الإبداع مع الفكر والواقع. وأمام بروز ظاهرة التعدد اللغوي بالمغرب وما تطرحه من إشكالات كبرى على مستوى الهوية والثقافة والفكر، تأتي هذه المداخلة للإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي ستحاكم واقع اللغة العربية اليوم وسط زحام اللغات الأجنبية واللهجات المحلية (الأمازيغية -بأنواعها- الفاسية-العروبية- الشمالية...).

تتوخى هذه المداخلة إذن تحقيق الغايات الآتية:

- ضبط المفاهيم الأساسية؛
- الوضع اللغوي بالمغرب: السياق والروافد؛
- تجليات التعدد اللغوي في النص الشعري المغربي وسؤال الهوية والفكر والثقافة؛
- انعكاس التعدد على اللغة والهوية.

ولا شك أن تحقيق هذه الأهداف يتطلب التوسل بمنهج ينبع من طبيعة الموضوع، يعتمد على الوصف والتحليل والمقارنة والتأويل، ويستفيد من معطيات المنهج المقارن في مقاربته للظواهر المتعددة؛ حيث يبرز أوجه التماثل والتمايز، بين ظاهرتين أو أكثر، اعتماداً على مجموعة من الخطوات بغية الوصول إلى الأهداف المتعلقة بالظاهرة قيد الإنجاز.

**١- ضبط المفاهيم اللغوية: الازدواجيّة والثّنائية:**

التبس على كثير من الدارسين التمييز بين مصطلحي: الازدواجية والثنائية؛ فالبعض اعتبر الثنائية مماثلة للازدواجية فألفيناه يعبر بهذه عن تلك أو بتلك عن هذه، والبعض الآخر جعل من الازدواجية ثنائية ومن الثنائية ازدواجية، ومنشأ هذا الخلط هو الترجمة:

- إذ أصبح مصطلح الازدواجية اللغوية يقابل مصطلح (Diglossie).
- ومصطلح الثنائية اللغوية يقابل مصطلح (Bilinguisme).
- أما مصطلح التعدد اللغوي فيتضمن "الازدواجية" و"التعددية" معاً (Multilinguisme).

وكلاهما يؤديان نفس المعنى، مع أن استخدام الثنائية أثناء المقاربة يفضي إلى التناقض، وهذا ما حدا بالعالم اللساني (ergusson،1959) إلى أن يميز في مستوى الازدواجيّة بين استعمال لغتين مختلفتين (كالعربيّة والإنجليزيّة، مثلاً)، أو استعمال لغة إلى جانب لهجة من لهجات تلك اللّغة، مستشهداً بوضع أغلب الدّول العربيّة في الفترة المعاصرة ووسم ذلك الوضع بالثّنائيّة اللّغويّة (Diglossie). وقد حلّل التّعدّد اللّغويّ في بعض البلدان العربيّة باعتباره ازدواجيّة لغويّة (عربيّة وإسبانيّة، أو عربيّة وفرنسيّة، أو عربية وأمازيغيّة. وتعد بلدان شمال إفريقيا نموذجاً في هذا الباب) إلى جانب ثنائيّة لغويّة (عربيّة وعاميّة). وحتى نخرج من هذه الفذلكة وهذا الخلط الناتج عن الترجمة السيئة والاستخدام الاعتباطي للمصطلحين، أرى أن الازدواجية اللغوية: هي المزاوجة بين لغتين تجمعهما قرابة وعلاقة نسب، إحداهما أصل والأخرى فرع مثل: (الفصحى والعامية). أما إذا تعلق الأمر بلغتين لا تجمعهما قرابة

كالعربية والفرنسية، أو العربية والإنجليزية فنكون أمام مصطلح الثنائية اللغوية[1].

**٢- الوضع اللغوي بالمغرب: السياق والروافد:**

عرف المغرب منذ القديم تعدداً لغوياً؛ فقد وجد إلى جانب اللغة الأمازيغية -لغة السكان الأصليين- اللغة الفنيقية واللغة الرومانية؛ فالباحث في تاريخ المغرب القديم سيلاحظ أنه "تعرض لحضارتين كبيرتين، هما حضارة الفنيقيين وحضارة الرومان"[2]، اللتان فرضتا لغتيهما وحضارتيهما على المغرب ما يربو على عشرة قرون، مما يشي بوجود تعددية لغوية في المغرب القديم.

وسيتعزز المشهد اللغوي بالمغرب بظهور ثلاث لغات أخرى:

- اللغة اللاتينية التي فرضها الغزو الروماني للشمال الإفريقي؛
- اللغة الجرمانية، التي فرضها الغزو الوندالي (٤٣٤-٥٣٤ق م)؛
- اللغة العبرية الوافدة من الأندلس ومن السودان وتومبوكتو مع مجيء العنصر اليهودي إلى المغرب؛ إذ يعتبر اليهود أول مجموعة بعد الأمازيغ وفدت على المغرب وما تزال تعيش فيه إلى يومنا هذا[3].

---

(١) للتوسع في الموضوع ينظر: كايد محمود إبراهيم، **العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية**، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الإنسانية والإدارية، المجلد الثالث، العدد الأول، السعودية، ٢٠٠٢. الفاسي الفهري عبدالقادر، **أزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعدد وتعثرات الترجمة**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، ٢٠١٠. الأوراغي محمد، **التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي**، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء - المغرب، ٢٠٠٢.

(٢) الجراري عباس، **الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، الرباط، ١٩٧٩، ص٢١.

(٣) ينظر في الموضوع: حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب**، ترجمة شحلان أحمد وأبو العزم عبدالغني، مطبعة دار قرطبة للنشر، ط١، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٨٣. والجراري عباس، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، ص١٣-٣٨.

ومع مجيء الفتح الإسلامي انتشرت اللغة العربية في جميع ربوع المغرب وظلت جنباً إلى جنب تنافس اللغة المحلية/ الأمازيغية، خصوصاً بعد وفود القبائل العربية من المشرق قصد الاستيطان به كقبائل بني هلال، وبني سليم، وبني معقل التي أحدثت تغيرات عميقة في البنى الاجتماعية المغربية آنذاك؛ إذ أسهمت بشكل كبير في نشر اللغة العربية وتعريب المناطق التي حلت بها. وهذا التلاقح بين العرب والبرابرة أسهم في تداول اللغتين الأمازيغية والعربية بكثرة في المغرب حتى العصر الحديث، وقد كان من نتائج هذا التداول أن تقاسمت فيه اللغتان خصائص وظيفية يعبر بها كل جنس عن حاجاته النفسية والاجتماعية والاقتصادية، حتى إنه عندما تلاقت القبائل البربرية والعربية بعضها مع بعض وتوحدت لغوياً، أنتجت لنا لغة أخرى قريبة من العربية؛ ما هي إلا اختلاط بين الفصحى والأمازيغية، تسمى العامية المغربية أو "اللغة الدارجة" لها خصائص تميزها على اللغة الفصحى، من هنا عوضَ أن نحصل على لغتين، أصبح لنا ثلاث لغات مختلفة نسبياً بعضها عن بعض، فلا الدارجة تشبه الأمازيغية ولا هذه الأخيرة تشبه العربية[1]، دون أن نغفل تأثر اللسان اللغوي المغربي باللغات الأجنبية القديمة (الجرمانية- الرومانية- الفنيقية..) والذي تسللت إليه الكثير من المفردات والمصطلحات بحكم العلاقة والروابط التاريخية والتجارية التي كانت تربط المغرب بالحضارات الدخيلة، مما جعل اللغة العربية -ومعها الأمازيغية- مؤثرة ومتأثرة.

---

(١) كركيش محمد قروق، **حول مسألة التعدد اللغوي بالمغرب**، مقاربة سوسيوتاريخية، الحوار المتمدن، العدد ٤٤٣٢، المغرب ٢٠١٤.

غير أنه في مطلع القرن العشرين سيتعرض المغرب إلى الاستعمار الفرنسي والإسباني؛ فالأول هيمن على وسط المغرب وشرقه وأجزاء كبيرة من الصحراء، في حين استولت إسبانيا على جنوب المغرب وشماله، فأصبح المغرب تبعاً لهذا التقسيم موزعاً بين مغرب فرنسي وآخر إسباني حلت فيهما اللغتان الفرنسية والإسبانية محل اللغة العربية والأمازيغية، وأصبحت اللغتان متداولتين في الصحافة والمدارس التعليمية الخاصة وفي القضاء والمحاكم وفي الكثير من التعاملات التجارية وغيرها، ما جعل اللسان المغربي مرة أخرى موزعاً بين لغات عدة ستنعكس بشكل أو بآخر على هويته وثقافته، ومن ثمة على إبداعه الأدبي والفكري، خصوصاً بعد أن أحدث المستعمر مدارس لتعليم اللغة الفرنسية والإسبانية والعبرية للعنصر البربري بديلاً للغة العربية، بدعوى أن العربية لغة تدعو إلى التطرف ومعقدة في قواعدها وأساليبها، وعاجزة عن مواكبة التقدم الحضاري، ولا تتماشى مع روح العصر، وليست هي اللغة المتداولة في المغرب. ولذلك خصصوا لها ساعة فقط في مناهج التدريس التي وضعوها في تلك المدارس، ويجد هذا المسعى تفسيره في رسالة الدكتوراه التي تقدم بها (كود فرادمنين) حول السياسة التعليمية التي باتت فرنسا تنهجها في المغرب منذ سنة ١٩٢٨م، حيث يشير إلى أن: "المدارس البربرية تمتاز بطابع سياسي وأدبي بارز جداً، فقد جعلت إشراف مصلحة الاستعلامات لتعينها في مهمتها، وتوجه هذه المدارس البربرية اتجاهاً فرنسياً، لذلك وقع إقصاء اللغة العربية والقرآن إقصاء كلياً منها. إن اللغة الفرنسية –لا اللغة البربرية– هي التي يجب أن تسد مسد اللغة العربية كلغة متداولة وكلغة حضارة"[١]، في إقصاء سافر للغة العربية من مناهج التدريس في المدارس التي أنشأتها فرنسا. أضف إلى ذلك ما واجهه التعليم من سياسة التنصير والفرنسة، وإحلال الديانة المسيحية محل الإسلام، واللغة الفرنسية محل العربية، في جل المدارس التي تشرف عليها الحماية الفرنسية، إنها حرب شعواء تلك التي شنها الأجنبي على اللغة العربية، اعتمد فيها على القوى الرسمية التي يمتلكها في داخل بلاد العرب، أو على الأقل

---

(١) الفاسي علال، **كتاب المغرب الأقصى**، نشر حزب الاستقلال، ط١، مراكش، ١٩٥١، ص١٤٧.

تلك التي يسيطر عليها من أجل تحقيق مآرب استعمارية، ووسيلته لذلك: التعليم والمدرسة. فقد كانت الخطة تستهدف طرد اللغة العربية، في العالم الإسلامي كله، من المدارس والجامعات، وذلك بجعل الدراسات كلها باللغات الأجنبية، وإحياء اللهجات، ودفعها بقوة حتى تصبح لغة التداول والتعلم والكتابة، ابتداء من الصحافة، ومروراً بالكتاب المدرسي والأدبي والعلمي ثم انتهاء إلى الكتاب الديني[١]. بل إن الحماية الفرنسية ذهبت إلى أبعد من ذلك إذ عمدت إلى "العقائد تفسدها وتخرج المسلمين وأبناءهم من حظيرة الإسلام إلى حضن النصرانية"[٢].

يستفاد مما سبق أن المغرب عرف تعايشاً لغوياً منذ آلاف السنين، حيث انصهرت ضمنه الأمازيغية والرومانية والفينيقية واللاتينية والفرعونية والعبرية والعربية، وتعزز هذا التعايش بدخول المستعمر الفرنسي والإسباني والإنجليزي وفرض لغته وثقافته وحضارته ما يربو على قرن من الزمن مما جعل الهوية المغربية اللغوية متعددة الأبعاد والروافد، ولعل ذلك شكل قاعدة في تاريخ المغرب القديم والحديث والمعاصر، وبناء عليه يمكن حصر راهن اللغة في أربعة روافد أساسية تكشف بوضوح التعالق اللغوي وتفاعلاته:

- **الرافد الأمازيغي** بعناصره اللغوية المتعددة[٣] وشروطه الثقافية، والحضارية، والقبلية.
- **الرافد العربي**، بمكوناته اللغوية والثقافية والحضارية الذي تلعب فيه اللغة "الوظائف الاجتماعية الخمس؛ الوظيفة التعبدية، ووظيفة التثقيف الوطني،

---

(١) الزين سميح عاطف، **معجم إعراب مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، الدار الأفريقية العربية، ط١، لبنان، ٢٠٠٣، ص١٨.

(٢) الوزاني التهامي، **خطر محدق فأين النعرة**، جريدة الريف، العدد ١٢٨، بتاريخ ١٩٣٨/٣/١.

(٣) تنقسم الأمازيغية إلى ثلاث لغات: ١- الريفية: ويتحدث بها أهل الريف من المغاربة، وتشمل بعض المناطق الأطلسية. ٢- تشلحيت: لغة أهل الأطلس الكبير ومنطقة سوس. ٣- تامازيغت: لغة أهل الأطلس المتوسط وشرق الأطلس المتوسط ومنطقة ملوية. ينظر في الموضوع: الجراري عباس، **الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه**، ص١٨. الأوراغي محمد، **التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي**، ص٨٠.

ووظيفة الانسجام الاجتماعي، ووظيفة الاندماج النطاقي، ووظيفة التواصل الدولي"[١].

- **الرافد العامي**، نسجل فيه هيمنة اللغة العامية باعتبارها لغة التخاطب اليومي، والتداول في المجتمع المغربي، انحدرت من الفصحى، واحتلت مكانتها على مستوى التواصل وتبليغ الأغراض اليومية، وأصبحت تشكل سلطة مطلقة عليها، لانتشارها الواسع واستخدامها في المجالات المختلفة، مما ينذر بالخطر الذي بات يهدد مستقبل اللغة الأم المفضي إلى الاندثار والتلاشي. والمجتمع المغربي بحكم تنوع أجناسه سيؤدي إلى تنوع عاميته/ لهجاته التي تفوق العشرين لهجة. فضلاً عن تنوع آخر مواز للغة الأمازيغية بلهجاتها المختلفة والتي هي الأخرى تزاحم العربية، بل حلت محلها في بعض الأحواز والمناطق التي يقطنها العنصر الأمازيغي.
- **الرافد اللغوي الأجنبي**، بأبعاده اللغوية والثقافية والحضارية: إذ غدت "اللغة الفرنسية، لغة السيادة في الواقع المغربي الجاري، حيث استولت على مجال "العلوم والطب والصيدلة والهندسة والإعلاميات ومدارس التدبير الإداري. وهي اللغة المعتمدة في جزء مهم من شُعَب كليات الحقوق في المغرب كله، إضافة إلى وجود حوالي أربع عشرة شعبة للغة الفرنسية في كليات الآداب بالمغرب، وهي لغة الجزء الأكبر من الإدارة العمومية، ولغة "الجريدة الرسمية" المغربية إلى جانب العربية. والفرنسية هي لغة نصف التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي"[٢].

---

(١) الأوراغي محمد، **التعدد اللغوي، انعكاساته على النسيج الاجتماعي**، ص١٧٤.

(٢) الولي محمد، **في الخطاب الأمازيغي، وجهة نظر نقدية**، مجلة علامات، العدد ٢٣، المغرب، ٢٠٠٥، ص٧١. جبري إدريس، **في التعدد اللغوي بالمغرب**، مقال ضمن كتاب التعدد اللغوي بمنطقة تافيلالت، طبع ونشر الودغيريون، الرشيدية – المغرب، ٢٠١٣، ص١٢٥.

يتوضح من خلال الروافد اللغوية الأربعة أن اللغة العربية تشكل اللغة المعيار باعتبارها لغة عالمة، تأتي في المرتبة الموالية في التنشئة الاجتماعية، بدءاً بحفظ القرآن الكريم في (المسيد)/ دار القرآن، وانتهاء بالمدرسة فالجامعة، لغة اكتساب نظامي، لأنها ليست لغة رضاعة أو أمومة أحد من المغاربة، لتأتي بعدها لغات أجنبية، وعلى رأسها اللغة الفرنسية في الوسط والجنوب، واللغة الإسبانية بالشمال، مما يعقد مهمة التعلم والاكتساب لدى المغاربة، لأنهم يعيشون تعدداً لغوياً بين لغة نظامية معيارية فصحى في المدرسة والجامعة، يتم بها التكوين التربوي، ولغة أمازيغية بدأت تتلمس طريقها إلى المؤسسة التعليمية، بخطًى خجولة ومترددة، ثم لغة عامية مغربية منحدرة هي مزيج من اللغتين العربية والأمازيغية[1]، ثم لغة أجنبية مكتسبة تستخدم في الإدارة والمؤسسات وفي التسيير والتدبير. فنحن بإزاء مجتمع لغوي فسيفسائي تتعدد فيه الألسن وتختفي معه معالم الهوية المغربية بملامحها وخصوصيتها؛ فأمام هذا الازدحام اللغوي –الذي يزداد سنة بعد أخرى نظراً لما توفره وسائل التواصل الاجتماعي والعولمة من انفتاح على اللغات العالمية الأخرى كالصينية واليابانية والروسية...– وجدت اللغة العربية نفسها في المغرب محاصرة بين تعدد اللهجات المحلية/ العامية، سواء منها المنطوقة بالعربية أو بالأمازيغية، وتعدد اللغات الأجنبية (فرنسية، وإنجليزية، وإسبانية...). وهذا التعدد انعكس على واقع اللغة العربية، وانعكس على المقبلين عليها وقد ضاقت بهم السبل بين التعدد الإثني والازدواج اللغوي، مما حال دون اكتساب سليم للغة العربية ولقواعدها؛ الشيء الذي جعل المتعلم والمبدع سجيني هذا التعدد، بل أصبح شغلاً شاغلاً في

---

(١) الولي محمد، **في الخطاب الأمازيغي ،وجهة نظر نقدية**، مجلة علامات، العدد ٢٣، المغرب، ٢٠٠٥، ص٧١. جبري إدريس ، **في التعدد اللغوي بالمغرب**، مقال ضمن كتاب التعدد اللغوي بمنطقة تافيلالت، طبع ونشر الودغيريون، الرشيدية – المغرب، ٢٠١٣، ١٣٣.

حياتهما اليومية وفي إبداعاتهما، ولنا في الأشعار التي أبدعها الشعراء المغاربة نموذج لهذا الازدحام اللغوي. فما التجليات البصرية للتعدد اللغوي في النص الشعري المغربي؟ وما هي انعكاساته على نسيج النص ومعماريته وشكله البصري؟ وإلى أي حد استطاع الشاعر المغربي تجسيد واقع التشرذم اللغوي في متنه الشعري؟

**٣- تجليات التعدد اللغوي في النص الشعري المغربي:**

**أ. الثنائية اللغوية في المتن الشعري المغربي:**

تميز المتن الشعري المغربي المعاصر بظاهرة الثنائية اللغوية؛ إذ عمد بعض الشعراء إلى دمج مفردات وجمل باللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو الإسبانية في تضاعيف قصائدهم على الرغم من اختلاف طبيعة الكتابة؛ فالعربية تبدأ من اليمين نحو اليسار، في حين تبدأ الفرنسية من اليسار نحو اليمين، وعلى الرغم من هذا الاختلاف، فإن شعراءنا أصروا على إدخال اللغة الأجنبية إلى متونهم الشعرية، ولعل الذي حملهم على ذلك "تعلقُهم المستمر بالتجريب الناتج عن تنوع المنابع واهتمامهم بعلوم اللغة والترجمة وغيرها"(١)، ورغبتُهم الجامحة في مخاطبة العين قبل الأذن في إطار الاهتمام المتزايد بالتشكيل البصري، الذي ينزع نحو إبداع فضاء بصري تندمج فيه بنيات لغوية وغير لغوية، تتمدد خلاله لغة عبر جسد لغة أخرى ليست من جنسها تعبر عن ذات تعيش الغربة في وطنها، وفي هويتها وفي حضارتها، يقول عبدالله راجع في قصيدته "سلاماً وليشربوا البحر":

هل تدرك أنك مسكون بالفاجع من نوتاتِ
الموشومين بآثار السيجارة بين الفخذين، الموضوعين

---

(١) محسني علي، وكيناني رضا، **الانزياح الكتابي في الشعر العربي المعاصر، دراسة ونقد**، مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، العدد ١٢، شتاء ٢٠١٣م، ص٩٦.

على القنينة حتى يتسع السرج، اتسعت عيناكَ
فأبصرت براميل النفط تسافر ثم تعود مصنعة في
علب ال L.S.D .أبصرتَ طيور أبابيل تجادلُ
بالكرباج وأبصرتَ إله النيل يغادر ليلاً معطفه
نحو القدس بقبعة سوداء على الرأس، وأبصرت كتائب
هذا الوطن المحموم تقود الليطانيَّ إلى مؤتمرات الكنيسِتْ(١).

ما يثير الانتباه لدى القارئ منذ الوهلة الأولى عندما تقع عينه على النص قبل الإبحار في معجمه الدلالي، هو تسلل حروف أجنبية للمتن الشعري المغربي، وهي الرؤية التي لم يتعود عليها القارئ من قبل، مما يثير فعل الدهشة لدى المتلقي وقلق السؤال لديه، ويبدو أن استخدام الشاعر لهذه الحروف (*Lysergicacid Diethy lamide=L.S.D*) في صلب النص لم يكن اعتباطياً، وإنما كان القصد منه ربط النص بسياقه التاريخي، ولما كانت الحروف العربية مختصرة فلن تفي بالغرض، وعبر الشاعر بما يتناسب مع السياق ومع نوع المنتوج المستورد من الخارج؛ ولأن هذا الأخير ليس صناعة محلية فقد عبر عنه بما ماثله دلالياً ولغوياً في إشارة وإيحاء لأصل هذا المنتوج.

إن دخول العبارات الأجنبية في صلب القصيدة يفسره الدخول غير الشرعي لمنتوج مستورد من الخارج نحو الوطن العربي؛ فبراميل البترول التي يصدرها العرب إلى الغرب، تعود إلى الوطن على شكل علب محملة بأقراص

---

(١) راجع: عبدالله، **الأعمال الكاملة**، منشورات وزارة الثقافة، ط١، الرباط، ٢٠١٣، ص٢٠٤-٢٠٥، L.S.D، ترجمتها: LySergicacid = LSD ( Diethylamide ) مختصر ثنائيّ إيثيلاميدِ حَمْضِ الليسرجيك = دواء فعال لعلاج الهلوسة، أو هي عقاقير الهلوسة.

الهلوسة والحشيش والمخدرات والكوكايين...فعملية المبادلة لم تكن منصفة وإلا فكيف ستتحول براميل البترول أو الذهب الأسود الذي تستفيد منه الأمم في جل صناعاتها إلى عقاقير مهلوسة تدمر الذات العربية؟

لا شك أن مضمون التداخل بين "الأحداث التاريخية والمعاصرة، حيث ترتبط أحداث لبنان بزيارة السادات «التاريخية» للقدس...ترتبط براميل النفط بعلب المخدرات...وتنقلب طيور أبابيل التي أنقذت الحرم الشريف من غزو أبرهة إلى طيور أخرى تقتات من لحمها ودمها"(١)، ساير التداخل اللغوي بين العربية والإنجليزية ليعلن الشاعر من خلاله رفض سياسة التطبيع مع العدو، ومع اللغة الأجنبية في وقت كان العرب يهرولون نحو التطبيع مع الكيان الغربي، والتطبيع مع لغته وحضارته، في إقصاء ممنهج للغة العربية وللحضارة المتجذرة عبر التاريخ.

إن المواطن العربي يعيش اغتراباً مزدوجاً: غربة في وطنه؛ فهو لا يستفيد مما تجود به الأرض من خيرات وثروات لأنها تُصدّر نحو الخارج، وغربة في لغته؛ في وقت أصبحت فيه هذه اللغة محاصرة من طرف لغات أخرى، وفي وقت عجز المتكلم بهذه اللغة عن التعبير عن كل ما هو غريب ودخيل، اللهم ما كان من لغة فرضها المستعمر وعبر بها المبدع. يقول جرار جنيت في هذا الإطار: "نادراً ما يرى المرء كلمة بشكل أكيد كما يراها من الخارج أي من المكان الذي نكون فيه –وبكلمات أخرى– من أرض أجنبية"(٢).

---

(١) راجع عبدالله، **القصيدة المغربية المعاصرة، بنية الشهادة والاستشهاد**، دار النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص٥٣.

(٢) جينيت جيرار، **حالة مزدوجة للكلمات**، ترجمة مالك سلمان، مجلة الكتابات المعاصرة، المجلد٥، العدد ١٨، بيروت، ١٩٩٧، ص٣٤.

لقد حاول شعراؤنا استثمار مجموعة من الأدوات الفنية للتعبير عن واقع الغربة التي يعيشها الإنسان المغربي في واقعه وفي لغته، فوجد في الصورة البصرية شكلاً تعبيرياً راقياً معبراً عن واقع الحال؛ وقد أخذت هذه الصورة بعداً عميقاً باللجوء إلى الازدواج اللغوي الذي اقتضى عند بعض الشعراء إدخال كلمات وتعابير أجنبية -فرنسية في الغالب لهيمنتها- وكذا إدماج دقات نواقيس وهي جميعها تتنافر معجماً وإيقاعاً ونسقاً، إلا أنها ذات دلالة على واقع فكري واجتماعي ولغوي يحاول هؤلاء الشعراء أن يتكئوا عليه ليضغطوا على دائه المتفشي، ويبرزوا حال التناقض الصارخ الذي يعتمل في النفوس بكل ثقل نزاعه الحضاري والثقافي. يقول عبدالله راجع:

كانت مراكش
تستورد أدوية لمحاربة الوشم وتصبغ بالصُّفَّارِ
سوالفها السوداء، بكينا، رقصت مراكش
Dinn-Dann- Dinn-Dann

هي ذي تقتات على ما خبّأ بين سوالفه النخل
خيوطاً تصل الأفق بأهداب السعف اليابسْ
وعلى السحن السمراء المذعورة
كانت تتجمع ألوان الوجع البري
كي تخدش جبهة هذا الزمن الناعسْ
Dinn-Dann- Dinn-Dann
Mangeons làir
Le roc,lescharbons,le fer
آه يا مراكش
Dinn-Dann- Dinn-Dann

Mangeons làir

Le roc,lescharbons,le fer

لم تخلق بعد اللغة المعجونة بالطيب

اللغة المسكونة بالحيوان المنوي

وآه يا مراكش

لغة أنت ولا تحملها الألفاظ المخـــ

تومة بالشمع تجيئين صهيلاً

وسعالاً يسكنه التبغ

تجيئين حروفاً

A noir , E blanc I rouge, U vert, O bleu[1]

يتحدث الشاعر عن مدينة مراكش المغربية؛ وهذه المدينة ليست سوى رمز للغة مستوردة من الخارج، حلت محل اللغة الأم/ الوشم؛ في القديم كانت اللغـــة العربية الأصيلة تعبر عن حضارة أمة، تتزين بأجمل الحلي، تصـــبغ ســـوالفها السوداء بالحناء، وتعجن ألفاظها ومعانيها بالطيب، أما اليوم فقد ترنحت تحـــت وطأة الازدحام اللغوي، لم تعد كذلك؛ لأنها باتت تبغـــاً أو ســـيجارة مســـتوردة مختومة بالشمع الأبيض تارة، ومتّشحة بالسواد حيناً آخر، أو ملطخة بالـــدماء ثالثة، أو قل خضراء أو زرقاء رابعة وخامسة. في جميع الحالات إنهـــا لغـــة محنطة لا تؤدي الأدوار المنوطة بها في ظل تمدد وتغول لغات أخـــرى علـــى حسابها.

---

(١) راجع عبدالله، **منوعات في انتظار نشرة الأخبار**، الأعمـــال الكاملـــة، منشـــورات وزارة الثقافة، ط١، الرباط، ٢٠١٣، ص١٢٥-١٣١، الجراري عباس، **تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب**، منشـــورات النـــادي الجـــراري، مطبعـــة الأمنيـــة، الربـــاط، ١٩٩٧، ص٤٧٩-٤٨١.

يحوي النص أعلاه لغتين: هما العربية والفرنسية، وعلى الرغم من أن لكل منهما خصوصية تتميز الواحدة بها عن الأخرى، إلاّ أن الشاعر ارتأى أن يزاوج بينهما، مستثمراً الإمكانات المتاحة لتبديلات من تغيرات في المستوى الصوتي، أو في المستوى التركيبي، أو في التبادلات والعلاقات المعجمية، وبعمله هذا، فإنه يعتد بمعرفة المرسل إليه بهذه المتغيرات ويستثمرها، فلا يمكن أن يتلفظ المرسل إلا بخطاب مفهوم[1]، لدى الخاصة والعامة، وما دامت اللغة الفرنسية والإنجليزية وغيرهما لغة التداول في الشارع المغربي، وفي المقاهي والإدارة والمؤسسات التعليمية العامة والخاصة، فإن الشاعر عبر عن واقع التشرذم اللغوي الذي يعرفه المغرب، والذي من شأنه أن يقوض الهوية والفكر والحضارة معاً، في غياب شبه تام للغة الضاد. ولعل إحساس الشاعر باغتراب اللغة في موطنها هو ما جعله يحكي عن حالة التيه والضياع للإنسان وللغة.

نوّع الشاعر المغربي في الأشكال التعبيرية البصرية التي يستثمر فيها معطيات اللغة بأبعادها الترميزية، والسيميوطيقية معتمداً على إيحاءات المفردات اللغوية الأجنبية ذات الحمولة الدلالية المكثفة رغبة في استفزاز عين المتلقي التي تعودت دائماً على لغة وحيدة في القصيدة. يقول الشاعر أحمد بلبداوي:

سبحانك يا بلدي الآن اكتملت فيك
الدائرة الحمراء تفض بكارتها عارضة
بيضاء تلك علامة INTERDIT ترفع علماً
لك يا بلدي سبحانك بالمجان

صدم الشاعر عين المتلقي بمفردة دخيلة وسط جمل كتبت باللغة العربية، ولعل الشاعر يريد بذلك أن يحيل القارئ على علامة تستعملها إدارة المرور أو الأمن توحي بأن الدائرة الحمراء التي يتوسطها عمودان متقاطعان تمنع

---

(١) الشهري عبدالهادي بن ظافر، **استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، لبنان، ٢٠٠٣، ص٢٢٥-٢٢٦.

مستخدمي السيارات من الوقوف أو التوقف في ذلك المكان الذي يوجد به الإعلان، غير أن الشاعر استثمر دلالة إشارة المرور ليحيلها على الواقع المغربي المهترئ الذي استنزفت خيراته وثرواته من طرف المستعمر، وضاعت معه هويته وحضارته بضياع لغته التي أصبحت الآن عاجزة عن فعل التغيير، ومن هذا المنطلق جعل الشاعر العلم الوطني مسيجاً بدائرة حمراء تشقه عارضة بيضاء/ علم، ترفع شعاراً: كفى من الفساد والنهب..كفى من الغربة والتيه...فاقتباس المفردة باللغة الفرنسية وإدخالها في نسيج القصيدة أضفى عليها بعداً جمالياً ودلالياً، بل إن العبارة المقتبسة في التمثل الذهني المغربي تشعر الرائي بالتوقف فوراً عن فعل أمر غير مرغوب فيه، أو أمر مخالف للقانون، وهذه المفردة كثيرة التداول في الوسط الاجتماعي، ومجيؤها في نسيج القصيدة دليل على مشاركة الشاعر أبناء وطنه لغة التداول. ولعل هذا الانسجام والتناغم بين الشاعر وأبناء وطنه عكسه التناغم الصوتي والإيقاعي اللغوي بين الكلمة الأجنبية والأسطر الشعرية في القصيدة؛ إذ استغل الشاعر معطيات بحر الخبب/ المتدارك في قدرته على احتواء جمل تكتب وتنطق بلغات أخرى غير العربية، نظراً لقيام النظام الشعري فيها إيقاعياً على المقاطع المنبورة، فالمفردة (INTERDIT) تنقسم مقطعياً إلى ثلاثة أقسام (IN-TER-DIT) أي أنها قابلة لاحتواء النواة الإيقاعية: فا/-٠/مكررة ثلاث مرات...وبداخل المقطع تنظم النواة الأولى إلى ما سبقها لتشكل الوحدة الإيقاعية: فَعْلُنْ/-٠-٠/..فلا يجد الناطق أي نشاز في دخول المفردة الأجنبية، إيقاعاً على الأقل، إلى مقطع مكتوب ومنطوق بالعربية[١]. الشيء الذي يفسر روح الانسجام بين اللغة الدخيلة

---

(١) راجع عبدالله، **القصيدة المغربية المعاصرة**، ج٢، ص٧٢.

مع اللغة الأم، ولا غرو في ذلك، فقد شكلت اللغة الفرنسية الماء والهواء في العجين اللغوي المغربي؛ يقول محمد الخمار الكنوني في قصيدته "تحولات التفاح الذهبي"(١):

(هِيَ الشَّجَرُ المستَبَاحُ لِمَنْ يَعْبرونَ
هِيَ الثَّمْرُ المسْتحيلُ لمَنْ يَزْرَعونَ)
وَما كانَ حَقاً، وَقْد نَزَلَتْ –في الموانئِ أَوْ في الموائدِ–
فَوقَ رِجالٍ رَأوها رَأَوْا رايَةَ الوَطَنِ المستحيلِ عَلَيها، بَكَوْا...
إِنَّها إِنَّهُم: **Exportè du maroc**

يعالج الشاعر واقع النهب والسرقة التي تتعرض لها الثروات المغربية المستباحة والمحولة من ميناء إلى ميناء لتقدم في موائد أجنبية، وللتعبير عن واقع القهر النفسي، والظلم الاجتماعي والاستغلال الاقتصادي والانصياع الفكري؛ أدخل الشاعر جملة باللغة الفرنسية إلى نسيج قصيدته، دلالتها من المشترك المعنوي الذي يفهمه الخاصة والعامة من المغاربة، وهي الجملة المتداولة في الأسواق المغربية التي تميز نوع السلعة وجنسيتها، التي نهبت وصدرت نحو الخارج، وليست الجملة الفرنسية الدخيلة إلا شكلاً تعبيرياً عن جنسية السلعة ووجهتها.

لم يكتف الشاعر المغربي بدمج المفردات الأجنبية في ثنايا متنه الشعري، وإنما لجأ إلى تقنية أخرى تتمثل في دمج ألفاظ دخيلة ومستوردة بحروف عربية حتى لا يصدم العين، وحتى يضفي طابع الشرعية على الألفاظ الدخيلة وكأنها من جنس النص، نظراً لتداولها في جميع مجالات الحياة، لدرجة يعتقد معها المتلقي أنها جزء من بنية اللغة العربية. وهذا ما يعطي الشرعية للشاعر لتوظيفها في نسيج قصيدته وكأنه يتحدث بلغة المتلقي. نستحضر في هذا الجانب

---

(١) الكنوني محمد الخمار، **ديوان رماد هسبريس**، دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٨٧، ص٥٦.

مجموعة من الكلمات المتداولة في اللسان المغربي، والتي تبدو من الكلام العربي، وهي ليست منه، مثل قول الشاعر الحسن البونعماني الذي شحن قصيدته بمجموعة من المفردات الأجنبية المكتوبة باللغة العربية في إطار حديثه عن الوسائل المستعملة في النقل: كالحافلة (الكار lecar)، والشاحنة (الكاميو camion)، وسيارة الأجرة (الطاكسي taxi)، والدراجة النارية (الموطور motor)، والجرار (التراكتور tracteur):

توفر لسكان في المَعْدِر الهنا وسائل نقل غاية في التوافر

بكار وكاميو وطكسي وغيرها وما دونها من مسرعات المواتر

إذا اضطر في شغل وضيق فربما يقوم بباغت كبير التراكتَر

تعد هذه المصطلحات الفرو-عربية، من تركة المستعمر الفرنسي، ظلت تحافظ على مكانتها في التداول اللساني اليومي، لدرجة أصبح معها المتلقي يعتقد أنها عربية خالصة، ولما أحس الشاعر بقدرة هذه المصطلحات على تبليغ رسالته إلى المتلقي قدمها على ما يماثلها في أصل اللغة العربية "والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها"[1] والشاعر يترجم غالباً ما يوافق نفسية متلقيه.

إن الشاعر في عملية الدمج هذه؛ تارة يصدم العين بإدخال المفردات الفرنسية في صلب القصيدة لأن العين لم تتعود على مثل هذا الشكل البصري المائز، ويصدم الأذن عندما يدمج ألفاظاً دخيلة ومستوردة بحروف عربية لأن الأذن لم تتعود على إيقاعات تختلط فيها الألفاظ العربية مع ألفاظ أجنبية لا تحمل نفس الرنات الموسيقية والنغمية، مما يخلق نوعاً من التشويش في أذن السامع/ المتلقي. ويبدو أن الحواس المغربية التي باتت مدجنة بفضل الاستلاب

---

(١) العلوي بن طباطبا، **عيارالشعر**، تحقيق عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٥، ص٢١.

الفكري والحضاري الناتج عن الاستعمال اليومي لوسائل الإعلام العربية والغربية بفضل التراكم التاريخي، أعطت المشروعية لتداول مثل هذه المفردات، مما جعلها تحوز قصب السبق في الاستعمال اللغوي، والشاعر بدوره يعبر عن هذا الاستلاب الذي يعيشه المواطن المغربي في صورة حجاجية تصدم العين والأذن معاً، بل الحواس جميعاً. يقول عبدالله راجع معبراً عن واقع الحال حيث العبارات الغربية المستحدثة تفوح من ثنايا قصيدته:

وفي هذا العام أودع قافية صلبت في بيروت..وعنكم أروي
عن أطفال الإسمنت، عن الفول المسلوق على نغمات الغيوان **بقيسارية** الحيّ
عن جيل يولد في ((**الجِّيركِ**)) وينشأ في ((**الرّيكَي**)) كي يكبر في ((**السميرفِ**)) (...)
المجد لسيدة تعرض في **الكورنيش** مفاتنها
المجد لأطفال ((**السيليسيون**)) المنسلين بداخل حافلة الخط الثاني
المجد لمن يحلم بالطيران إلى روما أو باريس ليغسل صحناً[1]

النص مدجج بمفردات أجنبية كتبت بلغة عربية، أو ما نصطلح عليه إذا صح التعبير بالمفردات (الفروعربية أو أنكلوعربية)، ومن جملة هذه المفردات: الجيركي والريكي والسميرف، .. وهي مفردات دخيلة تعبر عن أشكال موسيقية مستوردة من الولايات المتحدة الأمريكية، تمارس في الساحات العمومية، وعلى الكورنيش المطل على البحر. وقد عرفت رواجاً في أوساط الشباب المغربي في فترة الثمانينيات من هذا القرن. والنص وثيقة حية لواقع المجتمع المغربي الذي تعرض للاستلاب الثقافي والحضاري؛ إذ أصبح منفتحاً على لغة الآخر وحضارته وتراثه، ولم يعد يعير أي اهتمام بثقافته الأم. والشاعر شاهد عيان عن جيل مستلب فقد مقومات الهوية والانتساب إلى الوطن وروح القضية.

---

(١) **أعلنت عليكم هذا الحب**، الأعمال الكاملة، ص٢٣٧-٢٣٨.

إن الشاعر بإدخاله لمفردات كثر تداولها في مرحلة تاريخية معينة كان يتقصد بها الاحتجاج على واقع الشباب الذي احترف الرقص الأجنبي، وارتمى في أحضان المخدرات بكل أنواعها (بما في ذلك السيليسيون وغيره) وأصبح يرتدي ملابس مخصصة للخنثى، وقمصاناً خطت على ظهرها (I LOVE YOU)، وسراويل ابتلعتها المؤخرة، ورؤوساً تجملت بكل أنواع القص والصباغة. إنها شهادة حية لجيل المسخ الفاقد لهويته وتاريخه وشخصيته. وما دمج الشاعر لهذه المفردات الدخيلة إلا ليعبر بها عن واقع التغريب اللغوي والمسخ الحضاري. وكأن الشاعر أراد بهذا الشكل التعبيري البصري الذي تتزاوج فيه اللغات تجسيد واقع التناقض الذي يعيشه جيل الشباب العربي عموماً، والمغربي على وجه الخصوص. جيل لا يهتم بقضايا أمته؛ في وقت شهد العالم العربي مذبحة صبرا وشتيلا المروعة، وتهويد الأراضي العربية والقدس الشريف، ومع ذلك ظل الشباب يلهثون وراء مظاهر حضارية غربية خادعة. وظل الشعراء يرسلون الآهات تلو الآهات متطلعين إلى وطن لا يهدّئ غضبه وثورته: حبات الأسبرين وعلب السيجارة وماركات المكياج:

.... وتحت سقيفة آه
أحر من الجمر دخنت سيجارتين، وراوحت بين
دم يستعر وحرف يفر، فما أصعب القول حين
يكون رثاء، وما أصعب القول حين يكون عزاء وما
أصعب القول حين يكون طريقاً عسيراً إلى وطن لا يخون
ولا يتطامن بالأسبرين وبالمكياج

**ب. الازدواجية اللغوية في المتن الشعري المغربي المعاصر:**

تميز المتن الشعري المغربي بمزاوجته بين العربية والعامية/ الدارجة تارة، وبين العربية والأمازيغية تارة أخرى:

- **المزاوجة بين العربية والعامية/ الدارجة:** باتت الرغبة ملحة لدى الشعراء المعاصرين في تجاوز اللغة العربية الكلاسيكية الموروثة، والدعوة إلى لغة شعرية جديدة مستمدة من أرض الواقع العربي تكون قادرة على التعبير عن التجربة الإنسانية الحية، ومن ثمة التخلي عن الكلمات العربية الوعرة وغير المتداولة، واعتماد معجم حي متداول في اللغة العربية المعاصرة، وبذلك لم يعد القارئ العربي في حاجة إلى وساطة القاموس، أو اللسان كما هو الأمر في قراءة القصيدة العربية القديمة، والقصيدة الكلاسيكية التي سارت على نهجها. فالشاعر المعاصر يريد التعبير عن هذه التجربة، ونقل صورة آمنة لها. ولن يتأتى له ذلك إلا باستعمال لغة حية متداولة[1] قريبة من الاستعمال اليومي، يقول أحمد بلبداوي في قصيدته (إلى ابنتي فدوى):

المهدي مات
والجثة ما زالت تأكل من "حتى" أو تقتاتُ
آشتاتاتا تاتا أولاد الحراثة
نادي أولاد "الحراثة"
ها قد كبرت للمنجل أغصان ويدان
والمهدي مات
والجثة ما زالت تأكل من "حتى" أو تقتات
على أدوات التسويف
أشتاتاتا تاتا
أولاد الحراثة

---

(١) المنقي علي، **القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب**، مطبعة الوراقة، ط١، مراكش – المغرب، ٢٠٠٩، ص١٧٩.

ها قد سكن المنجل في وجع الريف
فاحكي لأطفال إذن عن سكناهم
في وجع الأمطار،
فالمهدي مات..[١]

وظف الشاعر مرددات شعبية تومئ إلى أغنية شعبية مشهورة كثيراً ما كان أطفالنا يرددونها في فصل الشتاء، ويتداولونها عبر تعاقب الأجيال، محملة بمعاني الاستسقاء والابتهاج بنزول المطر، ومناداة أولاد الحراثة حتى يستعدوا للحرث؛ إلا أن الشاعر يلقي بهذه الإشارة في سياق يائس متوجع لا يجديه التسويف أي شيء؛ سياق الإدانة، ذلك أن الاستسقاء ومناداة أبناء "الحراثة" لا يجديان شيئاً ما دامت الأغصان والأيدي تكبر ليقصلها المنجل، وما دام المهدي قد مات[٢]. ومن القصائد التي تَعُبّ من واقع الحياة اليومية والتي يظهر فيها الازدواج اللغوي بشكل جلي، قصيدة محمد الأشعري:

يا موالاً من ذاكرة الشعب تردده الحانات
"لو لم أكن أبغيك.. ما سألت عنك"
ها أنا أسأل عنه
حينما يهدر في الدرب محركهم
وتطير حمامات من فزع نحو البحر[٣]

استعمل الشاعر لغة شعبية موروثة، لغة الأغنية الشعبية الشفوية، المجسدة في موال (العيطة)، فمفردات وتراكيب مثل (لو لم أكن أبغيك- ما سألت عنك-

---

(١) بلبداوي أحمد، **سبحانك يا بلدي**، سلسلة الثقافة الجديدة، مطبعة الأندلس، ط١، الدار البيضاء - المغرب، ١٩٧٩، ص٣٣-٣٤.

(٢) ينظر في الموضوع: الجراري عباس، **تطور الشعر العربي**، ص٥٣٥، راجع عبدالله، **القصيدة المغربية المعاصرة**، ج٢، ص٣٦.

(٣) الأشعري محمد، **أنشودة من بحر المطاردة**، المحرر الثقافي ٧، شتنبر ١٩٧٥.

حينما يهدر..) تسمح للنص أن يستدعي الأسلوب العامي المتداول بعد إفراغه من دلالاته الشعبية وشحنه بدلالات اجتماعية وسياسية؛ يتبدى ذلك من خلال إعادة النظر في طبيعة العلائق؛ حيث يتحول الحب الذي يكون عادة بين رجل وامرأة إلى "هم مؤرق يدفع بالشاعر إلى الدخول في بحر المطاردة؛ ينتقل فيه الشاعر من الحب المباح إلى الحب الممنوع، من الحب الذي تردده الحانات وتدجنه الإذاعة إلى الحب الحقيقي المؤسس لكل أنماط الحب الأخرى"(١).

ولتحقيق شعبية القصيدة الفصيحة، رام شعراؤنا استدعاء العشرات من المفردات والتراكيب المستوحاة من اللهجات المغربية المتعددة، إلى درجة باتت ظاهرة أسلوبية مميزة للقصيدة المغربية المعاصرة؛ وليس دمج مثل هذه العبارات من باب الاعتباطية، وإنما لأنها أكثر إيحاءً من الألفاظ الفصيحة المرادفة لها، ولأنها تثير تداعيات كثيرة في ذهن المتلقي لطول مصاحبته لها(٢). ولعل المصاحبة وكثرة التداول قد أضفت طابع الشرعية على دمج التراكيب العامية في نسيج القصيدة المغربية، الشيء الذي جعل عملية الدمج بدعة مستحدثة مستحبة لائطة بالنفوس. والشاعر عبدالله راجع يعد من الشعراء المعاصرين الذين استهوتهم العامية ولغة الحديث اليومي الحاملة للهموم الصغيرة والكبيرة، فجاءت دواوينه الخمس نماذج للشاعر العاشق المحب للغة المجتمع، المنغمس في همومه ومشاكله، ما جعله يؤثر لغة الحديث اليومي ليعبر عن تجربته الشعرية ذات البعد الاجتماعي والسياسي:

وأنا أبحث عن فرس وأغني
لبنات يتربين على أشرطة التلفزيون، أغني.

---

(١) راجع عبدالله، **القصيدة المغربية**، ج٢، ص٤٥.

(٢) غالب علي ناصر، **لغة الشعر عند الجواهري**، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة البصرة، العراق، ١٩٩٥، ص١١١.

لطواقي «قشبلها» الشيب و«زرولها»
للسوق أوجه أغنيتي كي تدخل حرباً خاسرة ضد **الشيخات**، أغني
لشتيلا تتحول في العام دقيقة صمت، لمذابح بيروت أغني،
فلعل قصيدة هجو تقذف إسرائيل إلى البحر..لعل الشيخات المتشحات بما
لذ وطاب من الذهب اللامع يهدمن برقصتهن على «**الجفنة**» مبنى الكنيست
وحين تهز «**الشيخة**» ردفيها ينسى وطناً كي يدخل غمده
كي أتحدث عن دنيانا «**المهمومة**»[1]

استغل الشاعر مجموعة من المفردات العامية (الشيخة، وقشبال، وزروال، ومهمومة، والتلفزيون، والجفنة...) معضدة بلغة الحديث اليومي (لذ وطاب، وهز الردف...) ليرسم مشاهد حية من واقع المجتمع المغربي المزري المثقل بالأحزان والآلام، مجتمع انساق أبناؤه وراء أغاني الفنّانَيْن الشعبيين «قشبال» و«زروال»، وإيقاعات أرداف «الشيخات/ الراقصات» لعلها تهز مبنى الكيان الصهيوني!، غير مبالين بما يجري حولهم من مذابح في صبرا وشتيلا. إنها صورة حية لمجتمع انسلخ عن قيمه الإنسانية النبيلة، وعن قضايا أمته العادلة، لينساق وراء الأغاني المبتذلة والرقصات المشوهة، وهذا ما جعل هويته وحضارته عرضة للامتهان والتدجين.

تعددت مظاهر الازدواجية اللغوية عند شعرائنا، لما تحويه من غنى دلالي في بعض مجالات التعبير، على نحو ما نقرأ لمحمد الفرقاني، مستعملاً كلمات وتعابير عامية وإشارات إلى بعض العادات المحلية في قصيدته (طاقية من أجنحة الخفاش):

أهديكم قلة فلفل

---

(١) راجع عبدالله، **أعلنت عليكم هذا الحب**، الأعمال الكاملة، ص٢٤٠-٢٤١.

مسماراً أفطس
سطلاً من نحاس
(هيدورة) من (السوق البالي)
طاقية من أجنحة الخفاش
(بيجاما) للنعاس[1]

يمثل هذا النص نموذجاً للتداخل اللغوي؛ الذي تمتزج فيه العربية الفصحى:

- بالعامية (هيدورة)؛
- بمفردات دخيلة أجنبية كتبت بأحرف عربية (بيجاما)؛
- لغة الحديث اليومي (السوق البالي، وقلة فلفل، وسطلاً من نحاس، وطاقية من أجنحة الخفاش، وبيجاما للنعاس).

وعلى الرغم من أن النص غني بالتداخل اللغوي الذي يخلق نوعاً من التشويش في ذهن المتلقي الذي لم يتعود مثل هذا التداخل في جسد القصيدة، فإنه حافظ على لغة الانسجام الإيقاعية بين وحداته على مستوى الوزن والقافية. والشاعر الذي اختار النظم على هذه الطريقة المبتدعة، كان يتقصد منها التعبير عن ظاهرة لغوية متفشية في المجتمع المغربي الذي اعتاد في حاضره وفي حديثه اليومي التعبير بهذه الطريقة التي يرفضها الشاعر جملة وتفصيلاً، وهو العاشق للغة والتراث والحضارة العربية، وقد يفسر نظمه هذا كنقد مبطن لهذه الظاهرة الجديدة التي أصبحت تغزو الإبداع الأدبي المغربي في فترة ما بعد الاستعمار الفرنسي. وربما وجد الشاعر في هذه الطريقة غنى لغوياً لا تؤديه مفردات اللغة العربية الفصحى، لأن "المسألة في المتن الشعري المعاصر في المغرب مربوطة لا بوفرة هذه الإمكانات فحسب، بل بلغة الحديث اليومية،

---

(١) تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب، ص ٤٧٩.

المحملة بآمال وهموم الإنسان المغربي المعاصر"[1]، أو ربما لأن المتلقي المغربي أصبح أكثر تقبلاً لمثل هذه النصوص، لمَ لا وهو الذي يتلفظ بجملة دون أن يدمج فيها ألفاظاً دخيلة من لغات متعددة.

وتتعدد مظاهر تداخل العربية والعامية، ولعل أبرزها إدماج الشاعر للمثل الشعبي العامي في ثنايا قصيدته، كما هو الحال عند الشاعر أحمد بلبداوي الذي يقول في قصيدته (قداس المصلوبين على قارعة اليتم):

قال لهم لقمان استفتوا القلب
إياكم أن تستفتوا غير القلب
ومن استفتى غير القلب فلن تقبل منه الفتوى
قالوا والرأس
قال: الرأس العاري ما أتعب مولاه
والرأس اللّيس يدور
كديه
فاجتمع القوم وأهدوه عمامة
قالوا: هذا أفضل من أن نكسر رأسه[2]

يستحضر الشاعر المثل المغربي العامي (الرأس اللي ما يدور كديه)؛ ليدين الواقع المغربي الذي يرفض التغيير، ويظل دائماً ثابتاً على آراء رجعية لا تمت بصلة إلى منطق العقل وإلى واقع التغيير المنشود، والشاعر بدمجه لهذا المثل كان يؤمن بأن على المرء أن يتزيى بأزياء تختلف باختلاف المقامات ويتقنع بأقنعة تناسب المواقف التي يتعرض إليها. ولذا يطلب من سائليه ألا يستفتوا

---

(١) راجع عبدالله، **القصيدة المغربية المعاصرة**، ج٢، ص٧٣.

(٢) **ديوان سبحانك يا بلدي**، مصدر سابق، ص٤٦.

الرأس، لأن الرأس عين العقل وميزانه، ولأنه حين يستقر على أي يتحول إلى (كدية/ ربوة) لا يمكن زحزحتها. فالشاعر إذن يؤمن بأن على الرأس أن (يدور) كما يدور القلب، لإيمانه بالعقل وقدرته على إحداث التغيير بعيداً عن السكون والذل والمهانة.

- **المزاوجة بين العربية والأمازيغية:** تطبَّع الإنسان المغربي منذ القديم على المزاوجة بين العربية والأمازيغية حتى أصبحتا وجهاً لعملة اللسان الذي بات يتكلم بلغتين في آن واحد. يقول أندري مارتيني: "وحيث توجد لغة مشتركة ذات استعمال محدود إلى جانبها بعض الأنماط المحلية القديمة منها جداً فإن الناطقين بها غالباً ما يكونون أشد وعياً لوحدة الكل ولا يعيرون اهتماماً كبيراً لاختلافات فيما بينها كما ينظرون إلى اللغة المشتركة والنمط المحلي على أنهما مجرد أسلوبين للغة واحدة وليس نمطين لغويين مختلفين"[1]، ولما كان الأمر كذلك فإن الشاعر المغربي الذي اعتاد تنويع لغاته ولهجاته في حديثه اليومي، قد عكس ذلك في نسيج قصائده، بل أصبح ذلك مفخرة له لاقتداره على النظم باللغتين معاً وهذا ما عبر عنه صراحة الشاعر أبو زيد الجشتمي بالقول:

الحمد لله الذي سخرا لي النظامين ولا مفتخرا
أنظم طوراً باللسان العربي وتارة بالأعجمي الأعذب[2]

ولذلك ألفنا شعراءنا يدمجون مجموعة من المفردات والتراكيب اللغوية المختلفة في القصيدة الواحدة، يقول الشاعر الطاهر الإفراني مزاوجاً بين كلمات عامية بالعربية والأمازيغية:

---

(١) **التعدد اللغوي نحو دراسة لسانية**، ص٧٩.

(٢) السوسي المختار، **المعسول**، مطبعة النجاح، ط١، الدار البيضاء – المغرب، ١٨٣٠هـ/١٩٦١م، ج ٦، ص٦٥.

إن الموائد أنت من شجعانها و(الزرد) حرب أنت من فرسانها
له درك فارساً يفري بسيف السن لحم الشاء عن (إخسانها)
ويفك في قعر (الطواجن) ظفره أسرى الدجاج تقاد في أرسانها
وإذا كررت على (الطبالي) كرة أهرقت رشفاً من دما كيسانها
وتزج في بحر (المكايل) غائصا فلك (السفنج) فتنثني بحسانها

اللافت في هذا النص اجتماع ثلاث لغات: العربية، والعامية، والأمازيغية؛ فـ(الزرد) المقصود به معناه العامي الذي هو الزَّرْدَة المعلومة: حفلة الطعام. و(إخسان) لفظة أمازيغية معناها العظام. و(الطبالي) جمع طبلات وهي كلمة دخيلة، وتطلق في منطقة سوس بالجنوب المغربي على الصينية. و(الكاس) تجمع على أكؤس وكؤوس، وأما الكيسان فلم نقف لها على أصل. و(المكايل) جمع مكيلة ويقصد بها الزبديات و... يجعل فيها السمن ونحوه، ومنها (السفنج)[1].

**الألفاظ المستحدثة:**

يحوي المتن الشعري المغربي المعاصر العشرات من الكلمات المستحدثة والمولدة، تسللت إلى لغتنا العربية فاكتسبت شرعيتها بفضل كثرة الاستعمال والتداول إلى درجة يصعب معها تمييزها عن غيرها من المفردات العربية الأصلية، وترد الكلمات المستحدثة بحروف عربية، وقد غطت جميع مناحي الحياة، خاصة ما يتعلق بالصناعات الثقيلة، أو الخفيفة والآلات المنزلية المختلفة، أو متعلقات التواصل السلكي واللاسلكي، وفي مجال الطب والصيدلة، وغيرها من الميادين التي عجز اللسان العربي عن إيجاد مقابلات لها في اللغة العربية. والقارئ لديوان الشعر المغربي سيجده حافلاً بالألفاظ المستحدثة مثل: التلفزيون

(١) السوسي المختار، **المعسول**، مطبعة النجاح، ط١، الدار البيضاء – المغرب، ١٨٣٠هـ/١٩٦١م، ج١، ص٤٧.

والحيوان المنوي، والبيضات، والمطار، والمضيفة، والطائرة، والقطار، والهاتف، والأكسجين، والسيارة، والخلايا النائمة، والإرهاب، والجرار، والوثـــائق...يقول عبدالله راجع:

قفا نسأل الصيدلية عن حقنة لمحاربة النقص في
مادة الأوكسجينْ
تقول الوثائق إن التذاكر قد نفذتْ للدخولِ
إلى الملعب الشرفيّ تقول الزكامُ
يهدّد بالسرطان الخلايا...قفا
إن سيّارةَ العامِ رونو: أضيفتْ إليها من الخلفِ
مساحةٌ...الزكام شديدٌ

فالزكام، والتذاكر، والسيارة، والخلايا، والسرطان، والملعب، والوثيقـــة، والأوكسجين، وغيرها، كلها ألفاظ مستحدثة اكتسبت في العصر الحديث حمولـــة دلالية جديدة، على الرغم من أنها مشتقة من اللغة العربية الفصحى. وهذه الألفاظ كثيرة الاستعمال في لغتنا اليومية، مما يجعل "الشعر الفصـــيح شـــبيهاً بالشـــعر الشعبي من حيث اقترابه من التداول الواقعي للغة في حياتنا اليومية، بل أصبحت جزءاً من لغة العصر، وجزءاً من ثقافة الشاعر، فلا غرابة إن تسللت إلى لغتـــه المرنة القابلة لاكتساب كل العناصر المفيدة في بيئتها اللغوية المعاصرة وتوظيفها شعرياً، لتتخذ مواضعها المناسبة في البناء اللغوي"[1] للقصيدة المغربية المعاصرة التي تزينت بحلل الكلمات المستحدثة التي أضفت على القصيدة كثافـــة لغويـــة مستمدة من البيئة الجديدة، ومن شأن ذلك أن يثري اللسان العربـــي بمفـــردات دخيلة، ويغني حقوله الدلالية، ويجدد مفرداته لتواكب التطور الحضاري والعلمي.

---

(١) أسدي، محمد طالب، **بناء السفينة: دراسات في شعر مظفر النواب**، دار الشؤون الثقافيـــة العامـــة، ط١، العراق، ٢٠٠٩، ص٩٦.

ومن بين المفردات المستحدثة: الكريات الحمراء، والزرقاء، والأزوت، والحقنة، والبنزين... في قول عبدالله راجع:

أيتها الأحجار المدعوة

للسهرة إني أحتفل الآن بذاكرة ألا تفلت

من قبضتها ثانية وبقلب يزحف عبر سراديبِ

الباطن نحو العينِ، الرأسِ فتحتُ على كل نواة في

جسدي شباكاً

ومداخن للرئتين، عسى **الأزوتَ** يغادرني

فامتلأتْ **بالبنزينِ الكريات الصفراء والزرقاء**

احتقني بالشهوة إذ تغلي، يا امرأة حين أخبئها

في العين تباشر قتلي ...[1].

---

(١) **بكائية الحروف المهزومة**، الأعمال الكاملة، ص١٣٥.

**على سبيل الختم:**

**انعكاس التعدد على اللغة والهوية إيجاباً وسلباً:**

عرف المغرب منذ القديم تعدداً على المستوى اللغوي، واستمرت ظاهرة التعدد لقرون طويلة انتهت بدخول الاستعمار الفرنسي والإسباني، فبات المغرب منقسماً لغوياً إلى مناطق لغوية تتعايش فيها اللغة العربية والعامية بأنواعها والأمازيغية بتعددها مع اللغة الأجنبية، سواء الإسبانية بالشمال المغربي، أو الفرنسية في الوسط والشرق، فضلاً عن وجود مخلفات لغوية ناتجة عن احتكاك العنصر المغربي مع بعض الأقليات (اليهودية، والإنجليزية، والإيطالية...) وكان لهذا التعايش آثار إيجابية، وأخرى سلبية على اللسان المغربي، ومن ثمة على الإبداع الأدبي؛ إذ بات التداخل اللغوي في نسيج القصيدة المغربية المعاصرة ظاهرة أسلوبية وشكلاً تعبيرياً دلالياً وبصرياً، جسد بنية ثقافية لغوية مغربية تتقاطع فيها اللغة العربية مع لغات أجنبية وأخرى محلية، والشاعر بهذا الإجراء يتغيا تحقيق شعبية مطلقة للقصيدة المغربية المعاصرة.

أ- **الآثار السلبية:** انفتاح الشاعر المغربي المعاصر على التجارب الغربية من خلال قراءته المستديمة للنصوص الإبداعية الغيرية، جعله ينظر بعين الريبة إلى القصيدة العربية، لأنها في نظره لا تستجيب لتطلعات القارئ في العصر الحديث، فأصبح لزاماً عليه إخضاع القصيدة للمتغيرات الحديثة التي تأخذ بعين الاعتبار معطيات الثقافة العربية الأصيلة، والمستجدات التي عرفتها القصيدة الغربية، حتى يكيف قصيدته مع كل هذه المعطيات، والشاعر بهذا الإجراء حول القصيدة إلى فسيفساء لغوية يتداخل فيها المحلي مع الأجنبي مع الموروث، والقصيدة بهذا الشكل -وإن كانت قد راقت شريحة من القراء لأنها تتماشى مع الذوق الجديد الذي أصبح رائجاً في المجتمع المغربي

المتطلع إلى كل ما يصدر عن الغرب شكلاً ومضموناً- لم ترق طائفة من المثقفين المشبعين بالتراث العربي الأصيل، الذين يرون في الموجة الجديدة للتداخل اللغوي انسلاخاً عن الهوية وانحصاراً للغة العربية وإضعافاً لها مما يمهد السبيل إلى هيمنة اللغة الدخيلة على حساب اللغة الأم، الشيء الذي أسهم في خلق انقسام بين فئتي المثقفين المغاربة حول مشروعية التداخل اللغوي في القصيدة المغربية المتعددة الأصوات واللهجات والأشكال الهندسية البصرية. ومن شأن ذلك أن يخرج القصيدة من الشعر إلى اللاشعر. والقصيدة بهذا اللون الجديد -وإن استجابت لنوازع متلق (مستلب) يرى في التعدد اللساني مندوحة- أقصت الجانب الجمالي في القصيدة المؤسس على الانسجام والتناغم بين العناصر البنائية والصور التخييلية؛ فالاختلاف الصوتي والتركيبي والدلالي والإيقاعي والجمالي بين مكونات اللغات المختلفة يلقي بظلاله على نسيج القصيدة؛ تصدم العين قبل الأذن. وهذا ما يجعل المتلقي يعاني الغربة في لغته وثقافته، والابتعاد شيئاً فشيئاً عن عمق الثقافة العربية الأصيلة والتنكر للمشاعر والعواطف المؤسسة لجنس الشعر. الشيء الذي يجعلنا نتساءل مع الدكتور علي محسني[1]؛ هل تؤدي الكلمات الأجنبية وظيفة التحفيز التماثلي كما تؤديها اللغة العربية؟ ما حدود تأثير الدهشة في المتلقي بعد سماع قطعة بلغة أجنبية ضمن سياق النص؟ أم هي حالة من فرض ميزة التغريب الحضاري؟

ب- **الآثار الإيجابية:** يرى كثير من الباحثين أن التعدد ظاهرة صحية في الإبداع الأدبي المغربي، لأن ما فوق التفرد اللغوي من ازدواج وتعدد لغويين لا يقتصر على إعاقة التطور الثقافي وتعطيل النمو الاقتصادي فقط، بل يسبب في

---

(١) ينظر: **الانزياح الكتابي في الشعر العربي المعاصر دراسة ونقد**، ص٨٦.

تصدع المجتمع ويهدد استقراره واستمرار وجوده. وإذا صحت وضعية التفرد اللغوي في دول الشمال الغنية، فلا يلزم أن يصح نقيضها في دول الجنوب الفقيرة، وإن كانت هذه الأخيرة محتاجة إلى إتقان ما بيد الأولى من علوم عملية وخبرة صناعية، وكانت تلك الحاجة لا تلبّى بغير معرفة اللغات الكبرى الحاملة لخبرة أكثر الدول تصنيعاً في عالم اليوم. كذلك الشأن بالنسبة للإبداع الأدبي، الذي هو كالكائن الحي، يتأثر بمحيطه الثقافي الداخلي والخارجي، والشاعر المغربي بحكم انفتاحه على تجارب الآخر قد تأثر إلى حد ما بهذه التجارب، فحاول استلهامها واستيعابها جملة.

إن الانفتاح المبني على التعدد، قد أغنى بشكل كبير مسار القصيدة المغربية المعاصرة؛ حيث باتت تستهوي شريحة مهمة من الشعراء المغاربة الذين تعودوا إدماج مفردات وتراكيب أجنبية ومحلية في أحاديثهم اليومية، فكيف لا يكون كذلك في إبداعاتهم ما دامت هذه الأصوات تعبر عن واقع معين، واقع الفئات المهمشة في المجتمع. وقد ظهر ذلك جلياً في جميع الأجناس الأدبية خاصة جنسي الرواية والشعر.

## المصادر والمراجع:


- أسدي، محمد طالب، **بناء السفينة: دراسات في شعر مظفر النواب**، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، العراق، ٢٠٠٩.

- الأوراغي محمد، **التعدد اللغوي انعكاساته على النسيج الاجتماعي**، مطبعة النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء – المغرب، ٢٠٠٢.

- بلبداوي أحمد، **سبحانك يا بلدي**، سلسلة الثقافة الجديدة، مطبعة الأندلس، ط١، الدار البيضاء – المغرب، ١٩٧٩.

- الجراري عباس:

* **الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه**، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، الرباط، ١٩٧٩.

* **تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب**، منشورات النادي الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط، ١٩٩٧.

- جينيت جيرار، **حالة مزدوجة للكلمات**، ترجمة مالك سلمان، مجلة الكتابات المعاصرة، المجلد ٥، العدد ١٨، بيروت، ١٩٩٧.

- راجع عبدالله:

* **الأعمال الكاملة**، منشورات وزارة الثقافة، ط١، الرباط، ٢٠١٣.

* **القصيدة المغربية المعاصرة بنية الشهادة والاستشهاد**، دار النجاح الجديدة، ط١، الدار البيضاء، ١٩٨٨.

- الزين سميح عاطف، **معجم إعراب مفردات ألفاظ القرآن الكريم**، الدار الأفريقية العربية، ط١، لبنان، ٢٠٠٣.

- السوسي المختار، **المعسول**، مطبعة النجاح، ط١، الدار البيضاء – المغرب، ١٨٣٠هـ/١٩٦١م.

- الشهري عبدالهادي بن ظـــافر، **استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، لبنان، ٢٠٠٣.

- العلوي بن طباطبا، **عيار الشعر**، تحقيق: عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت، ٢٠٠٥.

- غالب علي ناصر، **لغة الشعر عند الجواهري**، أطروحة دكتوراه، كليـــة الآداب، جامعة البصرة، العراق، ١٩٩٥.

- الفاسي الفهري عبدالقادر، **أزمة اللغة العربية في المغرب بين اختلالات التعدد وتعثرات الترجمة**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، بيروت، ٢٠١٠.

- الفاسي علال، **كتاب المغرب الأقصى**، نشر حـــزب الاســـتقلال، ط١، مـــراكش، ١٩٥١.

- كايد محمود إبراهيم، **العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية والثنائية اللغوية**، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل، العلوم الإنسانية والإدارية، المجلد الثالث، العـــدد الأول، السعودية، ٢٠٠٢.

- **كركيش محمد قروق، حول مسألة التعدد اللغوي بالمغرب مقاربة سوسيوتاريخية**، الحـــوار المتمدن، العدد ٤٤٣٢، المغرب، ٢٠١٤.

- الكنوني محمد الخمار، **ديوان رماد هسبريس**، دار توبقال للنشـــر، ط١، الـــدار البيضاء - المغرب، ١٩٨٧.

- المتقي علي، **القصيدة العربية المعاصرة بين هاجس التنظير وهاجس التجريب**، مطبعـــة الوراقة، ط١، مراكش - المغرب، ٢٠٠٩.

- **محسني علي ، وكيناني رضا ،الانزياح الكتابي في الشعر العربي المعاصر دراسة ونقد ،** مجلة دراسات في اللّغة العربية وآدابها، العدد ١٢، شتاء ٢٠١٣م.

- الوزاني التهامي، **خطر محدق فأين النعرة،** جريدة الريف، العدد ١٢٨، بتاريخ ١٩٣٨/٣/١.

- الولي محمد، **في الخطاب الأمازيغي ،وجهة نظر نقدية،** مجلة علامات، العدد ٢٣، المغرب، ٢٠٠٥.

# المضامين الفكرية والترقي في مهارات اللغة العربية

# مقاربة في الاختيار، والمعالجة، والتبعات

الدكتور موسى خوري

جامعة بيرزيت، فلسطين

الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م

# المُلخَّص

يؤكد هذا البحث، في محوره الأول، على مسألة تعالق المهارات اللغوية، ويراجع بعض الخلط السائد في طرق تقديم هذه المهارات، ثم تبعات هذا الخلط على مهارة القراءة تحديداً. يفصّل البحث بعد ذلك القولَ في أن النصوص- بشكل عام- تأتي على نوعين: نصوص مغلقة ونصوص مفتوحة، ويستعين لتوضيح هذا المسألة بتنظيرات الناقد الفرنسي "رولاند بارث" حول توزّع النصوص بين قابليّتين (قابلية القراءة، وقابلية الكتابة)، وبتنظيرات أصحاب مدرسة التلقي والتأويل التي تفتح النصوص على تأويلات متعددة بتعدد القرّاء.

يتناول البحث في محوره الثاني، وعلى أساسٍ من مقولات المحور الأول، طبيعةَ النصوص التي تستخدم في إعداد مقررات اللغة العربية في المدارس والجامعات، وطبيعة المضامين الفكرية لهذه النصوص، وبأي استراتيجيات تعليم وتعلم تتم معالجتها، وما هي، بالنتيجة، تبعات كل ذلك على تعليم وتعلم المهارات اللغوية.

يقدم البحث، في محوره الثالث والأخير، مقترحات للأسس التي يجب أن تقوم عليها عملية اختيار النصوص ومعالجتها، ويؤكد، في السياق، على أهمية توفر حاضنة تربوية "مدرسية وجامعية" ناقدة وغير بنكية (بلغة باولو فريري) تُستخدم فيها مثل هذه النصوص التي تساعد على الترقي في المهارات اللغوية الأربع.

## المحور الأول

**ابتداء:**

يفضي عنوان هذا البحث، أو تفضي عتبته الرئيسة "المضامين الفكرية والترقي في مهارات اللغة العربية" إلى بيئة أو جهة تعليمية تختار نصوصاً بعينها، ثم تعالجها بطرائق تربوية تهدف إلى تنمية المهارات اللغوية الأربع: القراءة والكتابة والاستماع والحديث. يفضي عنوان البحث كذلك، وهذا هو الأهم، إلى تعالق المهارات اللغوية المذكورة، وإلى حتمية مفادها أن هذه المهارات يقتات بعضها على بعض. شرطُ الكتابة الجيدة، على سبيل المثال، أن يكون الكاتب قارئاً جيداً؛ فالإبداع الكتابي لا يمكن أن يبدأ من فراغ، وكل ما يتم إبداعه "يعتمد دائماً على عناصر مأخوذة من الواقع؛ من تجارب الفرد السابقة"[١]. والنص، بما هو مكتوب، يستدعي مهارة القراءة ويرفدها أيضاً، ويظل غير متحقق الوجود بمعزل عن القارئ الذي يسهم، بتلقيه الفاعل، في تحقق وجوده، وفي تحقق التكوين المتعدد له[٢]، وفي إعادة إنتاجه/ استثماره كتابةً أو مشافهةً.

تركز كل تنظيرات تحقيق التواصل الشفاهي والكتابي الفعّال، ضمن مبدأ التعالق هذا، على أهمية الاستماع إلى صوت الآخر وتبصّر محموله، وعلى ضرورة تحسس ميوله، واحتياجاته، وخلفياته الثقافية واللغوية[٣]. لا يخفى، وضمن مبدأ التعالق نفسه، أن القراءة، كمهارة تلق، ترفد قدرتنا على الإنتاج

---

١- فيجوتسكي، ليف، **الخيال والإبداع في مرحلة الطفولة**، ت. هيفاء أبو النادي (فلسطين: مؤسسة عبدالمحسن القطان، ٢٠١٧)، ص١٥.

٢- شريتح، عصام، **الشعرية بين فعل القراءة وآلية التأويل: دراسة في التلقي والتأويل الجمالي**، ط١، (الأردن: دار الخليج، ٢٠١٨)، ص٥٥.

٣- رفع الحساسيات تجاه المتلقي الضمني واحدة من العلامات السبع الفارقة للتواصل الفعال، والست الباقية هي: الوضوح، والإيجاز، والتحديد، والدقة، والترابط، والإحاطة. للمزيد حول هذه العلامات انظر: www.mindtools.com. تاريخ الزيارة ٢٢-٢-٢٠١٨.

الشفاهي والكتابي، وأن الكتابة، بوصفها آلية إنتاج خارج الذات، تتيح لنا أن نتبصر في قدرتنا على التنظيم المنطقي لما نكتب، ومشاهدة ذواتنا المكتوبة كـ"آخر" يمكن أن نحاوره. تجعلنا الكتابة كذلك، إن كانت منحازة لقارئها الضمني، نفكر في الآخر، وفي وجهات نظره، وتعيننا على رفع قدرتنا على المناقشة وإدارة الحوارات الحوارية[1]، وعلى الإقناع، أو معاودة النظر فيما نعتقد متى لزم الأمر.

لا يخلو تدريس المهارات، دع جانباً تعالقها، من الخلط والتشويش في الأوساط التربوية المدرسية والجامعية، فالكتابة تحرف، في عديد من الأوساط التربوية، باتجاه إعادة إنتاج قوالب لفظية جاهزة تجعل من مخرجات الطلبة الكتابية مخرجاً واحداً مكروراً لا يعيّن فرادة الفرد المنتج، ويغيّب تفكيره، ويعطل بالنتيجة الكتابة التي تقتات على نص مكتوب وتعيد انتشاره[2]. لأن هذا البحث سيتجه نحو التركيز **على استثمار نصوص القراءة في الترقي في المهارات، وعلى اختيار المضامين الفكرية لهذه النصوص ومعالجتها تربوياً، ثم تبعات الاختيار والمعالجة**، سيصير

---

١- حتى يكون الحوار حوارياً "يقتضي تعدد وجهات النظر وتنوعها، وإدراكاً لموقع الآخر والـ(أنا) بالضرورة من أجل إدراك صوته". تصير كل معرفة، بذلك، "معرفة حوارية تقوم على تفاعل ما بين فكرة وفكرة، فنحن نعرف ضد معرفة سابقة، وذلك بتهديم معارف قلقة، غير مستقرة تماماً، تساؤلاتها أكثر حضوراً من إجاباتها". انظر: الكردي، وسيم: **المشكالية: نحو حوار حواريّ**، ط١، (فلسطين: مؤسسة عبدالمحسن، ٢٠٠٣)، ص٢٣-٢٦.

٢- قام الباحث بعدد كبير جداً من المشاهدات الصفية أثناء عمله مدة خمس سنوات (٢٠١٠-٢٠١٥) في "جمعية مؤسسة فيصل الحسيني" التي تعنى بشؤون التعليم في منطقة القدس. جرت المشاهدات في مدارس كثيرة جداً منها: مدرسة روضة الزهور، ومدرسة دار الطفل العربي، ومدرسة الأيتام الإسلامية- الثوري، ومدرسة مار يوسف، ومدرسة تيراسانطا، ومدرسة أبو بكر الصديق، ومدرسة الأيتام الإسلامية ج. كان المعلمون/ المعلمات في هذه المدارس يضعون على لوح الصف مجموعة من الأفكار ويطلبون إلى المتعلمين أن يلتزموا بها وهم ينفذون موضوع التعبير الكتابي. للمزيد حول هذه الممارسات وغيرها انظر كتابي: خوري، موسى، **على مدارج القراءة: دليل معلمي المراحل الأساسية في تعليم مهارة فهم المقروء** (القدس: جمعية مؤسسة فيصل الحسيني، ٢٠١٤)، وانظر أيضاً كتابي: خوري، موسى، **على مدارج الكتابة: دليل معلمي ومعلمات المراحل الأساسية في تعليم مهارة الكتابة** (القدس: جمعية مؤسسة فيصل الحسيني، ٢٠١٥).

التركيز الآن على الكيفية التي يتم فيها حرف مهارة القراءة نحو طريقين لا يخدمان مهارة القراءة بذاتها، ولا يخدمانها لتصير زانة قفز يتم استثمارها بغية الوصول إلى هدف مشتهى هو الترقي في مهارات لغوية أخرى.

**أولاً: الطريق من الكتابية إلى الشفاهية**

تبدأ حصة فهم المقروء في المدارس، وفي الجامعات التي تدرّس متطلب اللغة العربية لطلبة السنة الأولى، بتمهيد يهدف إلى تحمية الطلبة، واستثمار معارفهم السابقة، ووضعهم في جو النص الهدف. لا خلاف يذكر حول أهمية مثل هذه المقدمات في تحقيق ما وضعت من أجل تحقيقه، إلا أنها تخطف، إن لم تمارس في جو تربوي يديره معلم ميسر واع بدوره، بريقَ النص المستهدف وتخطف متعة اكتشافه لاحقاً، هذا إن كان يمتلك كمون الاكتشاف أصلاً؛ الأمر الذي يجعل القراءة فعلاً عبثياً يتغيا إعادة كشف ما تم كشفه بالكامل، أو كشف بعضه خلال التحمية أو التقديم. بعد الانتهاء من طقس التحمية هذا، يبدأ المعلمون عادة بقراءة الدرس قراءة جهرية "نموذجية"، ثم تُردف هذه القراءة "المتفوقة" بقراءات نموذجية أخرى يقوم بها طلبة "متميزون" قد يصل عددهم إلى خمسة أو ستة طلاب أو أكثر، وهكذا وصولاً إلى أقل الطلبة حظاً وحظوة، والذين قد تعمّق هذه الممارسة الجهرية نفورهم من النصوص المكتوبة كلها[1]. حصيلة الأمر أن الطلبة يستمعون إلى النص مرات غير قليلة، ما يعني أن لا حاجة للقراءة فعلياً. التكرار يجعل معظم الطلبة (إن لم يكن كلهم في المراحل المدرسية خصوصاً) يحفظون جل النص، ومعظم الأسئلة -نقف على طبيعتها لاحقاً- التي تلحق أو يتم ارتجالها داخل الصف يمكن أن يعثر على إجاباتها

---

١- هذا لا يعني أن القراءة الجهرية غير ضرورية أو غير مهمة. الإشارة هنا للتأكيد على أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتنحى القراءة بصمت لحساب القراءة بصوت في تدريس مهارة فهم المقروء.

باتكاء على المسموع فقط[1]. هكذا تبدأ علاقة الطلبة بالنص المكتوب بالتشظي في وقت مبكر من عتباتهم الدراسية، وقد تنقطع بالكامل لاحقاً، وتسهم في تكريس حال أننا مجتمع غير قارئ.

ما يحدث داخل الصفوف بفعل هذه الممارسة "النموذجية" ليس سوى حَرْفٍ لمهارة القراءة عن هدفها باعتبارها فعلاً تعاقدياً يحدث في الخلوة بين النص والقارئ. كأن المعلمات والمعلمين، بقراءتهم "النموذجية" هذه، يقومون بدور الراوي كلي المعرفة والحضور، وكأنهم يورّثون دورهم للمتميزين من الطلبة ليصيروا بدورهم رواة يجعلون من باقي الطلبة جمهوراً يستمع لصوتهم بإجلال.

في سياق القراءة الجهرية/ الشفاهية هذا، يسجل ألبرتو مانغويل في كتابه "تاريخ القراءة" جملة من الملاحظات الطريفة حول القراءة بصوت والقراءة بصمت، ويذكر أن القراءة بصوت هي القراءة التي كانت معروفة منذ بداية الكتابة، وأن نمط القراءة الصامتة ظل غريباً على العالم حتى القرن العاشر الميلادي؛ بحكم أن المجتمعات لم تكن ترى في الكتابة سوى تقنية أورثوجرافية "توثيقية" لتسجيل المحكي على الورق. يذكر مانغويل في كتابه أن أستاذ الخطابة الشاب أوغسطينُس (Augustine) الذي وفد إلى روما نهايات القرن الرابع الميلادي زار أسقف مدينة ميلانو إمبروسيو (Ambrose) –والأخير كان قارئاً نهماً يقضي معظم وقته مع الكتاب– وشاهده في صومعته يقرأ بصمت. يسجل أوغسطينس في كتابه الشهير "اعترافاتي" هذه الحادثة مبدياً تعجبه الشديد من الأسقف الذي يقرأ دون أن يحرّك شفتيه، ومتخلصاً من سطوة حضور الصوت الذي بقي هو (أوغسطينس) مأسوراً به، وظلّت أوروبا لقرون لاحقة مأسورة به وهي تمارس القراءات العامة التي بقيت شائعة حتى العصور الوسطى

---

١– لمزيد من التفاصيل حول هذه الممارسات وغيرها انظر: خوري، موسى، **على مدراج القراءة**، ص٢١–٢٥.

المتأخرة[١]. يواصل مانغويل الكتابة بعد ذلك حول تنحي القراءة بصوت لحساب القراءة بصمت ويفصل الحديث عن تغير علاقة القارئ بالنص لـ"يصبح للأحرف قوة إيصال أقوال الغائبين إلينا بصمت"[٢] ويصير "النص المحروس من أعين الدخلاء المتطفلين بالغلافين ملك يد القارئ وكنز معلوماته"[٣].

نحن، في تركيزنا اليوم على القراءة بصوت، نعيد عجلة التاريخ إلى الوراء قروناً كثيرة من الزمان، ونوسّع، بفعلنا هذا، آذان الطلبة، ونضيّق عيونهم، ونطالبهم، حين ينقطع الصوت/ الشفاهية عنهم، بأن يتدبروا كنوز معلوماتهم/ كتبهم بجدارة، في حين أن عرى علاقتهم بالحرف المطبوع (غير المسموع بالضرورة)، لم تتوثق تماماً.

**ثانياً: طريق امتلاك المعنى ومصادرة التأويل**

يؤكد والتر أونغ (Walter Ong) في كتابه "الشفاهية والكتابية" أن التعلّم في المجتمعات الشفاهية التي لم تعرف الكتابة أبداً يصير بالتلمذة ولا يصير بالدرس[٤]. يستغرق التلميذ في هذه المجتمعات في حفظ ما يسمعه من الأستاذ كليّ المعرفة، وغايته أن يصير نسخة كربونية عن هذا الأستاذ الذي يمتلك معرفة ليست في موضع شك. في مثل هذه المجتمعات، يهدف "التعليم" إلى الحفاظ على الطرز المعرفية السائدة، وعلى جملة العادات والتقاليد القارة، وعلى تمريرها من جيل إلى جيل. من أوجه التعلّم بالتلمذة التركيزُ على التلقين، ما

---

١- مانغويل، ألبرتو، **تاريخ القراءة**، ت. سامي شمعون (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١)، ص٥٥-٥٧.

٢- المصدر نفسه، ص٦٥.

٣- المصدر نفسه.

٤- أونغ، والتر، **الشفاهية والكتابية**، ت. حسن البنا عز الدين (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٤) ص٥٦.

يحشر المتعلّم في سياحة "معرفية" لا تتعدى مستوى التذكر والفهم الذي يقصيه عن مهارات أعلى كالتركيب والتحليل والتقويم. لا غرابة في الإقصاء هنا، لأن المهارات العليا تستدعي التفكير الناقد، وتخضع القار إلى المساءلة، ويمكن أن تتولى خلخلته، وتثوّر، وهذا هو الأهم الذي يغيب، طاقة إنتاج الكلام[١].

بين المجتمعات الشفاهية الخالصة التي لم تعرف الكتابة، والمجتمعات التي عرفت الكتابة واستبطنتها، وتوسم في الغالب بأنها مجتمعات قارئة، تقع المجتمعات الهجينة أو المجتمعات الشفاهية الملقحة بالكتابة[٢]. هذه المجتمعات، مثل مجتمعاتنا العربية الآن، ما زالت تحتفظ، حتى في بيئة غزتها عناصر التكنولوجيا الرفيعة، بكثير مما تمتاز به المجتمعات الشفاهية المحضة. يمكن تحسس درجة استغراق هذه المجتمعات في الشفاهية من كمية التلقين/ الحفظ الذي تتطلبه النظم التعليمية السائدة في مدارسها، ومن توطّن التعامل مع نصوص مقرراتها في خانة التذكر والاستيعاب الرحبة، ومن ضيق خانة مهارات عليا كالتركيب والتحليل والتقويم. إن التركيز على المهارات الدنيا رشح طبيعي للمنظومة الفكرية السائدة في هذه المجتمعات، ومتطلب أساسي للحفاظ عليها. هذا التركيز ثاو، أيضاً، خلف انتقاء كثير من محمول النصوص الثقافي في أغلب الأحيان، فهو يثبّت مثل هذه التوجهات ويحتم عدم مساءلتها؛ الأمر الذي يعني، من باب التمثيل، غياب أسئلة حقيقية في التقويم، وإن ظهرت هذه

---

١- الكلام "Parole" هو ما يأتي به الفرد متكئاً على نظام لغوي "Langue". لمقاربة ميسرة لهذه المسألة انظر: ألان، جراهام، **نظرية التناص**، ت. باسل المسالمة (سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١١) ص١٩-٢٢.

٢- هذه تنويعة على تسمية هشام شرابي لهذه المجتمعات بـ"المجتمعات التقليدية الملقحة بالحداثة". انظر: شرابي، هشام، **البنية البطريركية: بحث في المجتمع العربي المعاصر** (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٧) ص٢٠.

الأسئلة فهي تظهر مع نصوص لا ترضّ القار والثابت، ذلك لأن البنى المعرفية لا تسمح بالرّضّ أو الاختلاف. الطلبة في هذه المجتمعات، والحال، قلما "يدرسون"، إنهم يتعلمون، كما التعلم في المجتمعات الشفاهية المحضة، بالتلمذة، والمعلمون يقومون، بدفع من ثقافتهم أو بدفع من مرجعياتهم العليا، بدور من يمتلك التأويل ويتقنّع بكتب وكراريس فيها نصوص مغلقة (أو يتم غلقها بالأسئلة) سمتها أنها ذات قابلية للقراءة ولا تتسم بقابلية الكتابة.

**ثالثاً: النصوص بين قابليتين: قابلية القراءة وقابلية الكتابة**

أي قراءة مخلصة هي انفتاح على عالم النص المقروء، ومحاولة مستمرة لاكتشافات تؤكد آفاقه وتغيب حدوده؛ وقدرة الانفتاح على النص لا تتحقق، مع ذلك، اعتماداً على عنديات القارئ واستعداداته فقط، بل تتحقق حين يحوي النص خواص يكون معها قابلاً لأن يمارس عليه القارئ فعل الانفتاح هذا. إن توفّر الخواص أو انعدامها هو الذي يعين الفارق بين النصوص التي تمتاز بقابلية الكتابة والنصوص التي تمتاز بقابلية القراءة.

النصوص التي تمتاز بقابلية الكتابة هي النصوص التي توفر فرصاً للقراءة الفاعلة، ذلك لأنها نصوص تبتعد عن المباشرة، وتعول على فطنة المتلقي، ولا تستبعد قدرته على الكشف والتأويل، وتحفز مهاراته العقلية، وتثوّر مهاراته اللغوية. يعلق فولفجانغ إيسر (WolfgangIser) على هذا النوع من النصوص بقوله: "القرّاء يملؤون فراغات الكتاب الفنية أو بياضاته التي يتركها الكاتب بطريق استخدام خيالهم، وعليه، فالنص قابل لأن يكون مدركاً متعدداً، ذلك لأن كل قارئ يملأ الفراغات بطريقة به خاصة"[1]، أي ضمن سياقه الثقافي

---

1- Iser, Wolfgang. "The Reading Process" ***Reader-Response Criticism: From Formalisim to Post-Structuralisim***. Jane P. Tompkins ed. The JohnsHopkinsUniversity Press, Baltimore, 1980. pp. 50-69.

والاجتماعي الذي يتفاعل مع السياق الثقافي والاجتماعي للنص. النصوص التي تمتاز بقابلية القراءة، بالمقابل، نصوص تنعدم معها فرص أن تكون القراءة فعل إنتاج موازياً لفعل الكتابة[١]؛ ذلك لأنها نصوص مباشرة وبنكية[٢] في توجهها، ولا تحتاج إلى جهود عقلية أو حتى تفكير معمق يذكر، أو إلى استثمار مهارات تؤدي إلى تطوير هذه المهارات أصلاً. من هنا ينفذ والتر أونغ، وغيره كثيرون، إلى أن النصوص التي تمتاز بقابلية الكتابة تطور لدى المقارب قدرة على الاعتزاز بالذات، ذلك لأنها تخلّصه من سلطة كاتب النص ومن سلطة النص معاً[٣].

النصوص التي تمتاز بقابلية الكتابة، وهذا هو الأهم في سياقنا، تجعل من القارئ منتجاً في اللغة، والإنتاج في اللغة لا يكون إلا عبر استخدام المهارات وتوجيه استنهاضها بشكل ممنهج. حين يتيح النص للقارئ فرصاً ولا يصادره، وحين يردف النص بأسئلة واعية لمسألة التعالق، يصبح هذا المتلقي عرضة لفرص أكثر يستخدم فيها عقله وخياله، وينتج، بالتالي، الكلام الذي هو شرط حياة اللغة وحيويتها.

اللغة، نظاماً، لا يمكن أن تبقى حيوية ومتطورة بمعزل عن فعل أبنائها في المهارات المتعالقة كافة. كل تعليم لا يتغيا أن يوفر فرصاً لإنتاج الكلام مقتاتاً على نظام يستثمره ويطوره في آن هو خنق للغة، وإعادة لإنتاج علاماتها في

---

1- Barth, Roland. **S/Z.** Hill and Wang. New York, A division of Farrar, Straus and Giroux. 1974. pp.3-10.

٢- هذا مصطلح لـ(باولو فريري) ورد في كتابه **نظرات في تربية المعذبين في الأرض**، وسنقف عند حدوده بشكل تفصيلي في المحور الأخير من هذا البحث.

3- Ong, Walter. "The Writer's Audience Is Always a Fiction". ***Interfaces of the World: Studies in the Evolution of Consciousness and Culture***.Ithaca Press, CornellUniversity Press, 1977.p.59.

سياقات اجتماعية منبتة عن بيئة المتعلمين ومواقعهم الاجتماعية المحددة[١]. النظام لا يتطور في إعادة إنتاجه فقط، بل في الإبداع في تدبر مستوياته واستثمارها وتطويرها وتطويعها لأغراض الناس/ حاجاتهم التي يعبرون عنها في إنتاج الكلام. يقول ابن جني في عبارة حداثية له سبقت زمانها بقرون: "اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"، وتفكيك هذه العبارة سيؤدي بالنتيجة إلى تلخيص كثير مما قيل في هذا المحور: الأصوات في عبارة ابن جني المعروفة تحيل على النظام اللغوي في مستوياته الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية مُستَخدماً في المهارات كافة، وأغراض القوم/ الأقوام في العبارة تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة والمتطلبات والحاجات، وتنعكس بالتالي تغييراً وتطويراً على النظام. جامع القول في عبارة ابن جني أن اللغة ظاهرة اجتماعية حيوية، وحيويتها أو ديناميكيتها متصلة بمطاوعتها للتعبير عن أغراض الناس المتغيرة. لا يمكن، بالنتيجة، الحديث عن نظام له ثبات أزلي يمكن أن يستخدم للتعبير عن أغراض الأقوام في كل زمان ومكان.

إذا ما تم توظيف مفردة الأغراض في عبارة ابن جني في سياق تربوي يحترم جمهور/ قوم الطلبة وأغراضهم الحياتية ضمن شرطهم الزمكاني، وينظر بعين العناية إلى الترقي في مهاراتهم مستخدماً نصوصاً حساسة لهذا الشرط وتحاوره، فإننا سنضمن تمكين إخلاص هؤلاء الطلبة لنظامهم اللغوي الحيوي وتمتينه، ونضمن تعلقه المهاريّ به إنتاجاً وتلقياً، ونضمن، بالنتيجة، أن يصيروا مدافعين واعين عنه، ومتخلصين من طمأنينة التابعين، ويمتلكون مرويتهم التي يشكل امتلاكها، بلغة محمود درويش، امتلاكاً للأرض –بما هي مشهد الفعل زماناً ومكاناً– التي يعيش فوقها الناس أزمنتهم، ومنها تبدأ اللغة[٢].

---

١– ألان، جراهام، **نظرية التناص**، ص٢٣.

٢– الإحالة هنا على قصيدة الشاعر محمود درويش "قال المسافر للمسافر لن نعود كما...". انظر: درويش، محمود، **لماذا تركت الحصان وحيداً** (بيروت/ لندن: دار الريس للكتب والنشر، ٢٠١١)، ص١١٠–١١٤.

## المحور الثاني

### أولاً: المضامين الفكرية للنصوص المستخدمة في التدريس

ليس الحديث عن طبيعة النصوص المستخدمة في التدريس، دون تحديد لمجتمع الدراسة وعينتها، سهلاً؛ لذلك سيأخذ هذا البحث مقررات اللغة العربية في المدارس والجامعات الفلسطينية مجتمعاً للدراسة، وسيأخذ من هذا المجتمع عينة من مقرر اللغة العربية للصف السابع (المرحلة الأساسية)[١]، وأخرى من مقرر اللغة العربية للصف الحادي عشر (المرحلة الثانوية)[٢]، وعينة ثالثة من متطلب اللغة العربية (المستوى الأول) لطلبة السنة الأولى في جامعة بيرزيت- فلسطين[٣].

من عنوانات النصوص الأساسية في كتاب اللغة العربية للصف السابع الأساسي: "فلسطين قلب الأمة"، و"الأسرى قضية شعب وأمة"، و"الرقيب"، و"المعلّم"، و"بين الوفاء وسوء العاقبة"، و"المرأة عماد الرجل وصنوه"، و"مجزرة الدوايمه"، "وتستمر المعاناة". ومن عنوانات النصوص الأساسية في كتاب اللغة العربية للصف الحادي عشر: "رسالة أسير"، و"بكاء طفل"، و"التلوث"، و"الخبز المرّ"، و"شهداء الانتفاضة"، وغيرها. ومن عنوانات نصوص متطلب اللغة العربية (المستوى الأول) لطلبة السنة الأولى في جامعة بيرزيت: "اللغة العربية:

---

١- عمرو، يوسف، وآخرون، **اللغة العربية: الصف السابع الأساسي، الجزء الأول** (فلسطين: مركز المناهج، وزارة التربية والتعليم الفلسطينية، ٢٠١٧).

٢- التميمي، حسام، وآخرون، **اللغة العربية، المطالعة والقواعد والعروض والتعبير: الصف الحادي عشر، الجزء الأول** (فلسطين: مركز المناهج، وزارة التربية والتعليم الفلسطينية، ٢٠١٧).

٣- مسلم، عمر وختام، سلمان، **متطلب مهارات اللغة العربية في جامعة بيرزيت: المستوى الأول**. وهو مقرر جديد تم إعداده مؤخراً ويخضع الآن للتحكيم.

تحديات وحلول"، و"اللغة العربية وعاء لثقافة متجددة"، و"الفصحى لغة الإعلام"، و"آهات أمام شباك التصاريح"، و"هجرة العقول العربية"، و"نواب الأمة"، و....

يكشف أي استعراض سريع لعنوانات هذه العينة أن نصوصها الأساسية، التي يفترض أن تستخدم في بناء مهارات الطلبة اللغوية المتعالقة، هي نصوص مغلقة في أغلبها بسبب ثقل نبرة التوجيه المباشر فيها، وبعدها عن الظرف في بعض دلالاته[١]، وتمتاز بدرجة عالية من التجهم، والصرامة، وبمحدودية مستوى ملموسيتها لحياة الطلبة في المدرسة والجامعة. صحيح أن نصاً من نصوص العينة (الصف السابع) يتحدث عن فوائد الضحك نفسياً وجسدياً، لكنه يقصر في جعل أي أحد يضحك أو حتى يبتسم.[٢]

تحيل مضامين هذه النصوص في المقررات الثلاثة على طراز بنكي في التعليم هدفه جعل الطلبة يتكيفون مع أطاريحها، ويرددون بصبر وأناة مقولاتها المباشرة التي تتضمن معارف وقيماً واتجاهات وميولاً يرغب جهاز التعليم في أن يمررها إلى الطلبة. ليست المعضلة كامنة في المعارف والقيم، المعضلة تكمن في أن كل ذلك يمرر بشكل مباشر دون أي تيسير لفرص تعلم حقيقية يوفرها المقرر للطلبة حتى يتوصلوا إلى أطاريح النصوص وتفسيرها وتنظيمها وتذويتها، وحتى يتأهلوا، بالتالي، لاكتساب المعارف والقيم بذاتهم بعيداً عن التلقين الذي يعطل المهارات العقلية والأدائية.

ليس من الصعب بمكان على أي محلل لمحتوى هذه النصوص أن يتوصل إلى أن المستوى الوجداني –وهو ثالث مستويات تحليل المحتوى بعد المعارف والمهارات– كان هماً ناتئاً عند معدي المقررات؛ فالطريقة التي تمت بها معالجة

---

١– من دلالات الظرف: ملاحة الفكاهة، والمزاح، والخفة، وبلاغة اللسان، وعذوبة المنطق، وغير ذلك من الخصال الحميدة. انظر: ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، **الظّراف والمتماجنين** (لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧) ص٤٢.

٢– عمرو، يوسف، وآخرون، **اللغة العربية: الصف السابع، الجزء الثاني**، ص٥٠–٥١.

هذه النصوص –وهذه مسألة سنقف عندها في القسم الثاني من هذا المحور– أظهرت أن تمرير القيم والاتجاهات والميول للطلبة (بما تتضمنه من معارف بالضرورة) يأتي في مرتبة أعلى من تحصيل المهارات العقلية والأدائية (إصدار الأحكام، واتخاذ القرارات، والاستنتاج، والتفسير، والتوضيح، والمقارنة...)؛ وهذه كلها مهارات لا تصير بغير إنتاج الكلام وتلقيه، ويشكل تجاوزها أو غيابها تعطيلاً لقدرة الطلبة في المهارات اللغوية التي سبق الحديث عن تعالقها إنتاجاً وتلقياً، ويشكل بالنتيجة تعطيلاً للغة.

يمكن أن توسم هذه النصوص إجرائياً، ولعلة استغراقها في الهم الوجداني على الأقل، بأنها نصوص متزمتة، ذلك لأنها تقدم للطلبة مسألة العامية والفصحى (في المتطلب الجامعي)، على سبيل المثال، كمعضلة تعطيل لطاقة الإنتاج المعياري في اللغة، وتطمس أو تميّع حقيقة أن الظاهرة ليست طارئة، ولا يمكن أن تظهر سمة خنوثة لغوية عند الجيل الجديد فقط. ينسى أصحاب هذه النصوص (ومن اختارها بالضرورة) أن يقارعوا، على سبيل المثال، حقيقة أن الأدبيات التي أنتجت بالفصحى حول ما يمكن أن يترتب على هذه الازدواجية التي ترتد في جوانب كثيرة منها إلى حقل علم اجتماع اللغة أغنت المكتبة العربية بعديد الكتب المهمة (مكتوبة بالفصحى) منذ عصور متقدمة حتى الآن[1]، ويمطرون من سيحملون لواء لغتنا من الطلبة تقريعاً، وينسون أن ما دفع ابن منظور لتأليف لسان العرب قبل مئات السنين هو الضعف اللغوي الذي رآه مستشرياً في زمنه[2]. يتكثف التأثير السلبي لمسألة اختيار النصوص هذه حين نقف على الطريقة التي تعالج بها، وكيف يصار إلى تكريس مباشرتها بأسئلة

---

١– من هذه الكتب على سبيل المثال: **لحن العوام، وما تلحن به العامة، ودرة الغواص في أوهام الخواص، ومعجم الأخطاء الشائعة، وأخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين**، وغيرها الكثير.

٢– ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، المجلد الأول (بيروت: دار صادر، د.ت) ص٨.

مغلقة وموجهة، في حين أن اعتماد نمط الأسئلة المفتوحة[١]، على سبيل المثال، يمكّن من فتح أكثر النصوص مباشرةً وتوجيهها.

**ثانياً: بأي استراتيجيات تعليم وتعلم تقدم مضامين هذه النصوص، وهل تخدم مسألة الترقي في المهارات؟**

سأقارب في هذا القسم ثلاثة نماذج هي عينة البحث، وذلك لمراجعة استراتيجيات التعليم والتعلم التي تم الاتكاء عليها، والتحقق من خدمتها لمسألة الترقي في المهارات. هذه النماذج هي: الدرس الثاني من كتاب مقرر اللغة العربية للصف السابع والموسوم بـ"فلسطين قلب الأمة"[٢] وسأقارب منه نص الاستماع، والوحدة الثالثة من مقرر اللغة العربية للصف الحادي عشر والموسوم بـ"رحلة ابن بطوطة"[٣] وسأقارب منها نص القراءة، والوحدة الأولى من مقرر متطلب اللغة العربية (المستوى الأول) في جامعة بيرزيت والموسومة بـ"اللغة العربية تحديات وحلول"[٤] ومنها سأقارب نصاً من نصوص القراءة أيضاً.

**١- درس "فلسطين قلب الأمة" للصف السابع الأساسي**

يأتلف هذا الدرس من ثلاثة نصوص هي: نص استماع عنوانه "مساجد عكا شاهدة على عروبتها"، ثم نص للقراءة عنوانه "فلسطين قلب الأمة"، ثم نص شعري عنوانه "يافا" للشاعر الفلسطيني محمود سليم الحوت. ويقدم الدرس في

---

١- الأسئلة المفتوحة هي الأسئلة التي تتباين وجهات النظر حول إجاباتها، ودون أن تكون واحدة من هذه الإجابات خاطئة بالضرورة. هذا النمط من الأسئلة يخلق الحوارات ويغني النقاش ويساعد على الترقي في المهارات. انظر تعريف الأسئلة المفتوحة في www.collinsdictionary.com، تاريخ الزيارة 2018-2-22.

٢- عمرو، يوسف، وآخرون، **مقرر اللغة العربية: الصف السابع**، ص١٢-٢٣.

٣- التميمي، حسام، وآخرون، **مقرر اللغة العربية: الصف الحادي عشر**، ص٣١-٣٩.

٤- مسلم، عمر وسلمان، ختام، **مادة متطلب اللغة العربية في جامعة بيرزيت: المستوى الأول**، ص١-١٢.

القسم اللغوي باب النكرة والمعرفة، وفي قسم الرسم الإملائي يأتي على ذكر الهمزة المتوسطة على واو.

أول ما يمكن أن يسجل من ملاحظ على نص الاستماع هذا أن من صاغه، أو اختاره، نسي التنظيرات التي مرت في الدرس السابق حول بناء الفقرة المتماسكة الموزعة على جملة مفتاحية ومجموعة جمل داعمة، وجاء بنص من أهم علاماته الفارقة انعدام صفتي الحبك والسبك فيه، واتسامه بنبرة المباشرة التي جعلته نصاً مغلقاً، بذاته وبأسئلته، ولا يحتمل تأويلات تحفز طاقة الطلبة الإنتاجية على الكلام.

يسجل النص أن عكا مدينة فلسطينية مغرقة في القدم، ويتحدث عن موقعها، ثم يعدد مساجدها والعلامات الفارقة لكل مسجد، ثم ينتهي بإشارة للعوائق التي وضعها الاحتلال أمام عكا ومساجدها، وأخرى لمحاولات الاحتلال منع الأذان. تبع نص الاستماع المباشر هذا طقم أسئلة مباشرة لا تحتاج الإجابة عنها سوى تكرار أمين لصيغ النص التي يقدسها المعلمون الذين يرتعون مطمئنين في حقل التلقين. جاءت الأسئلة، وعددها ثمانية، منسجمة مع تراتبية مدخلات النص، وسبعة منها مقتصرة على خانة التذكر، ويمكن العثور على إجابات مباشرة عنها داخل النص: "أين تقع مدينة عكا؟"، "تميزت عكا بمظهر عمراني رائع، نبين هذا المظهر."، "نسمي أهم مساجد عكا"، "يعد مسجد الجزار من أشهر مساجد عكا، نبين أسباب ذلك"، "ما العوائق التي وضعها الاحتلال أمام مساجد عكا؟"، "لماذا سمي مسجد الزيتونة بهذا الاسم؟"، "للمسجد دور بارز في الإسلام، نوضح ذلك"، وسؤال أخير ثامن يسأل فيه الطلبة أن يذكروا خمس مدن فلسطينية ساحلية[1]. غابت عن نص الاستماع وعن النصين الآخرين في درس الصف السابع، بالمحصلة، أي أسئلة في مستوى المهارات العليا كالتحليل والتركيب والتقويم

---

١- عمرو، يوسف، وآخرون، **مقرر اللغة العربية: الصف السابع**، ص١٢.

التي تجعل من تعلم الطلبة تعلماً نشطاً[1] يحتفي-استراتيجياً لإنتاج الكلام على الأقل- بتباين وجهات النظر، ويغذي روح المناظرة، وروح البحث، ويبتعد عن التلقين.

في هذا الدرس، وفي دروس كثيرة غيره، لا يتم ترحيل المسائل النحوية إلى فضاءاتها التطبيقية في تدريبات لغتها وظيفية وقريبة من حياة الطلبة، وملتزمة في الوقت نفسه بمعيارية اللغة العربية الفصحى. يظل الهم حتى في التدريبات النحوية، هماً وجدانياً غير ملتفت إلى لغة يحتاجها الطالب في حياته اليومية، ويمكن، مع تقريبها من حياة الطلبة، أن تتأسس لديهم، بشكل تدريجي، قناعات بأنها لغة قابلة للاستخدام في مواقف حياتية عادية تستخدم فيها العامية حصراً. يرمي هذه الدرس، حين يطلب من طفل الصف السابع أن يستخرج الأسماء، نصاً من هذا القبيل: "إن مدينة القدس في خطر، والتفريط فيها تفريط في التاريخ والدين والحضارة، وجريمة بحق الماضي والحاضر والمستقبل"، وينسى إلى جانب هذه الجملة الرفيعة أن الأسماء كثيرة في جملة تتحدث عن ثقب في عجل دراجة الطفل الهوائية التي اشتراها من محل تجاري في الحي الشرقي الذي يسكنه معظم طلبة المدرسة المشاكسين.

**٢- وحدة "من رحلة ابن بطوطة" للصف الحادي عشر**

تحتوي هذه الوحدة الموسومة بـ"من رحلة ابن بطوطة" على نص واحد يحمل عنوانها نفسه، ويسبقه تعريف مختصر لأدب الرحلات ولابن بطوطة.

---

١- من استراتيجيات التعليم والتعلم النشط: طرح الأسئلة التباعدية المفتوحة (Divergent Questions)، والتعلم التعاوني وعمل المجموعات، والقبعات الست، والمناظرة وغيرها. للمزيد حول هذه المسألة انظر: فاعور، بسمة، **التعلم النشط: استراتيجيات التعلم النشط** (اليونسكو ٢٠١٢) ص٣-٢١.

تلحق هذا النص الوحيد ثمانية أسئلة، ويلي ذلك قسم النحو، وفيه تعرض الوحدة لباب البدل شرحاً وتدريباً، ثم يسأل الطلبة في قسم التعبير الكتابي مع نهاية الوحدة أن ينتجوا نصاً من ست فقرات عن رحلة قاموا بها، يصفون فيه ما صادفوه من مشاهد طبيعية وعوائد اجتماعية، مراعين في ذلك قواعد الكتابة الصحيحة.

في التعريف المختصر لأدب الرحلات في صدارة الوحدة والموسوم بـ"بين يدي النص" يصير الحديث عن أدب الرحلات بوصفه مرجعاً جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً وثقافياً، وبوصفه أدباً يتيح للقارئ معايشة أقوام مغايرة، والوقوف على عاداتهم، وأنماط حياتهم، وأساليب معيشتهم، ثم يفاجأ الطالب بأن النص الذي اختاره (ولّفه) معدّو المقرر يتحدث عن المكان الفلسطيني الذي يألفه، ويعرض لبعض المدن الفلسطينية، ويركز على مدينة القدس على وجه التعيين. إذا آخينا بين محمول النص وتوجهات المعدين في بقية النصوص في كتاب الصف الحادي عشر وبقية كتب المقررات للصفوف الأخرى، سيكون من السهل أن نرد اختيار النص إلى مرتكزات وطنية وجدانية لا تهدف أساساً إلى بناء المعارف من خلال سياحة ثقافية واجتماعية وعمرانية يوفرها ابن بطوطة في جغرافيا مختلفة عن الجغرافيا الفلسطينية. يظل مع ذلك، أن إمكانات هذا النص على مستوى تثوير الأسئلة كبيرة، وعلى مستوى تثوير مهارات الطلبة من خلال الإجابة عنها كبيرة أيضاً، لكن الأسئلة أغلقت هذا النص الذي يمكن أن يقارب من زوايا متعددة، وعززت هذا الجانب الوطني والوجداني، وأكدت أن المعارف وبناء المهارات اللغوية يأتي –إن أتى أصلاً– في مرتبة أدنى.

أسئلة الفهم والاستيعاب التي ألحقت بالنص عددها ستة، وكلها عززت كل ما سبق ذكره عن توجهات المعدين، وغذتها، ودفعتها باتجاه متطرف في إقصائه

لأي تفكير يحتاج إلى مهارات لغوية تثار ويتم الارتقاء بها، إذ جاءت محصورة دون استثناء في خانة التذكر، والعثور على إجاباتها في النص لا يحتاج إلى نبش في طبقاته النصية[١]، كأن النص الذي يقع عليه الاختيار في المقررات يحشر في خانة القداسة، ولا يمكن، لقداسته المزعومة هذه، أن يخضع لأسئلة تخضعه للتفكيك وتحتاج الإجابة عنها تفكيراً ناقداً لا يصير بغير اللغة واستخدام المهارات. لماذا، على سبيل المثال، لم يدرج المعدون أسئلة متعلقة بالخلفيات الثقافية لاختيارات ابن بطوطة المكانية في فلسطين؟ لماذا لم يقفوا عند حدود الوصف العام الذي يشبه الوصف في الحكايات الشعبية حين نتعرف على نساء الحكايات الشعبية من خلال عبارات لا تقول شيئاً فارقاً عن امرأة بعينها نحو: أجمل ما رأت عين، وأطول من نساء الكون جميعاً، وأكثر النساء دهاء؟ لماذا لا نخضع هذا النص للنقد والتشريح بسؤال عن أوصاف ابن بطوطة حين جاء على ذكر مدينة غزة "صغيرة الساحة، كبيرة المقدار، مشرقة الأنوار، حسنة المنظر، عجيبة المخبر، في بطن واد، ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل"[٢] التي تصلح أوصافاً لأمكنة ومدن كثيرة على هذه الأرض؟ لماذا لم يستثمر هذا النهج في الوصف طرح أسئلة في خانة التقويم تحكم على قدرة هذا النوع من الوصف على تكوين صور بصرية في عاقلة المتلقي عن المكان المقصود، ويحضّر الطلبة، بذلك، لتجاوزه في الوظيفة الكتابية التي تضمنتها الوحدة؟ لماذا لم يستخدم المعدون استراتيجيات تعلم نشط كالمناظرة التي ترتقي بمهارات الطلبة

---

١- من الأمثلة على هذه الأسئلة: ١- نصف المسجد الإبراهيمي كما جاء في وصفه (ابن بطوطة)، ٢- نوضح حركة التبادل التجاري من نابلس وإليها، ٣- أفرد ابن بطوطة مساحة من رحلته لكل من المسجد الأقصى وقبة الصخرة، فبم تميز كل منهما كما ورد في وصفه؟

٢- التميمي، حسام، وآخرون، **اللغة العربية: الصف الحادي عشر**، ص٣٢.

العقلية والأدائية اللغوية ويسألوا عن أسباب اختيار هذه المقتطفات تحديداً من كتاب ابن بطوطة وتوليفها معاً؟ الإجابات عن هذه الأسئلة المقترحة لا يمكن العثور عليها من خلال قراءة سطحية تصلح للإجابة عن الأسئلة المباشرة الموجودة في الكتاب. هذا النوع من الأسئلة المفتوحة يحضر اللغة في الاستخدام الطبيعي البعيد عن النسخ والتكرار، ويرتقي بالمهارات، ويلتفت قليلاً إلى الإجابة القاطعة عن سؤال بعينه، ويحتفي كثيراً بالإجابات المتعددة والممكنة والمتباينة عنه.

**٣- وحدة "اللغة العربية تحديات وحلول" من متطلب اللغة العربية الأول في جامعة بيرزيت**

تأتلف هذه الوحدة من نصين ومجموعة من أسئلة الفهم والاستيعاب والتدريبات اللغوية. النص الأول في الوحدة نص استماع قصير مقتطع من كتاب الدكتور رمضان عبدالتواب "فصول في فقه العربية" الصادر في القاهرة عام ١٩٨٣، وفيه يعرض لظاهرة الازدواج اللغوي، ويقر بأنها موجودة في كل اللغات منذ القدم، ولا سبيل إلى إنكارها، ويتحدث عن انتشار التعليم طريقاً للتخفيف من حدة هذا الازدواج لكن دون إنكار لحتمية بقاء الظاهرة قائمة، فغاية ما هنالك أن نوعاً من التقارب يحدث بين لغة الحديث واللغة الفصحى. النص الثاني في الوحدة مخصص للقراءة، وهو كلمة قدمها الدكتور شوقي ضيف في افتتاح أحد مؤتمرات مجمع اللغة العربية المصري، وفيها يتحدث عن اللغة القومية والهوية وعن واجب حمايتها، ثم يتحدث عن دور الصحافة في مخاطبة الجماهير العربية وعن دورها في تبسيط أساليب العربية أروع تبسيط، وعن زحف العامية إلى الإذاعة، وعن بروز وسيلة ثالثة إلى جانب الصحافة والإذاعة هي التلفزيون، ثم يقدم في نهاية الكلمة بعض توصيات على وسائل الإعلام أن تعتمدها حماية للغتنا العربية الفصحى.

تبدأ الوحدة، قبل تعرّض الطلبة لهذين النصين، بمجموعة أسئلة أطلق عليها المؤلف "أسئلة العصف الذهني"، وجاءت معظمها مباشرة، وغير خلافية، ويمكن

أن تكفي كلمة واحدة أحياناً كـ"نعم" أو "لا" إجابة عن بعضها، ودرجة تباين وجهات النظر فيها محدودة ولا تساعد على تحفيز المحادثة والاستماع بين الطلبة والمدرس وبين الطلبة أنفسهم. من النماذج على هذه الأسئلة: "هل يعاني أحد من صعوبة التواصل لغوياً مع أبناء جلدته عند استعمال اللهجة العامية؟"، و"هل تتقن اللغة العربية الفصحى؟" و"حدد مجالات استعمال العربية الفصحى ومجالات استعمال اللهجة المحلية" وأسئلة أخرى من هذا القبيل[١].

تتجلى المشكلة الحقيقية في هذه الوحدة، تماماً كما هو الحال في الوحدتين المدرسيتين السابقتين، بالطريقة التي تمت بها معالجة النصين بأسئلة الفهم والاستيعاب التي يفترض أن تصير توجيهاتها وإجاباتها سقالات تدعم تطور مهارات الطلبة اللغوية. نصف الأسئلة، وعددها ستة من نوع أجب بـ"نعم" أو "لا"، التي وضعها المؤلف على نص الاستماع لا علاقة له بالنص أصلاً، وما له علاقة بالنص من هذه الأسئلة إجابته حاضرة ومباشرة. ما تبع نص القراءة من أسئلة فهم واستيعاب موزع مناصفة أيضاً بين ما له علاقة بالنص وما ليس له علاقة به ألبتة. الأسئلة التي لا علاقة لها بشكل مباشر بالنص تتعلق بمسألة العامية والفصحى بشكل عام، وبظاهرة الازدواجية في المجتمع الفلسطيني بشكل خاص. بعض هذ الأسئلة يكفي أن تكون إجابته "نعم" أو "لا"، ولا يوجد سؤال واحد من هذه الأسئلة يرتقي لمنطقة المهارات العليا، أو يتعرض لمسائل ثقافية مرتبطة بظاهرة الازدواجية يمكن أن تثير نقاشاً أو تشكل محفزات لكتابة تتبنى موقفاً أو ترفضه، أو يصلح لاستراتيجيات تعلم فعّال مثل المناظرة أو البحث العلمي. الأسئلة التي وضعها المؤلف لا تلامس، على سبيل المثال، أي شيء له علاقة بالأدب الشعبي الفلسطيني ولغته العامية، ولا تلامس مكونات الثقافة بمفهومها الأنثروبولوجي التي يشكل الفولكلور الفلسطيني في شقه الشفاهي على

---

١- مسلم، عمر وسلمان، ختام، **متطلب اللغة العربية في جامعة بيرزيت: المستوى الأول**، ص٢.

الأقل جزءاً صميماً وحميماً منها، ولا تقترب من فكرة المقاومة المقرونة أبداً بغنائنا الشعبي الذي وثق بعبقرية فذة لأحداث مهمة من مفاصل القضية الفلسطينية. هذه موضوعات تعد من الإفضاءات الشهية لمسألة الازدواجية، وتجعلها أكثر التصاقاً بحياة الطلبة أو دائرة اهتمامهم، وتثور طاقتهم الإنتاجية على الكلام.

لم يوفق المؤلف، ختاماً، في طرح أسئلة لها علاقة بالكيفية التي يمكن معها تقريب الفصحى التي نعتز بها جميعاً إلى نبض الشارع، وطرح أسئلة تسمح للطلبة الجامعيين بأن يشرّحوا المقررات ويحكموا على مدى نجاحها أو إخفاقها في تحقيق ذلك، ولم ينجح، ختاماً، في استثمار النصين في بناء مهارة الكتابة، ذلك لأن المعالجة في مآلها الأخير ربطت بين اللغة والأرض والعرض[١]، أي قربتها من المقدس الثقافي، وأقصتها عن الواقع الذي يعيشه الطلبة، وغيبت حقيقة أن واقع اللغة العربية الفصحى حين يقارن بأزمنة سبقت يمكن أن ترتد لخمسة قرون هو أفضل الآن على مستوى التلقي وعلى مستوى الإرسال. هذه الازدواجية، وإن كانت أقل تشويقاً من موضوعات لصيقة بحياة الطلبة الشباب، مسألة يمكن معها طرح مجموعة جيدة من الأسئلة الثقافية واللغوية، لكن ما يتم اختياره لها من نصوص[٢] يغلقها، ويراكم تبعات مقلقة في مضمار تعلم اللغة العربية وتعليمها.

---

١- مسلم، عمر وسلمان، ختام، **متطلب اللغة العربية في جامعة بيرزيت: المستوى الأول**، ص٦.

٢- يواصل المؤلفان وفي وحدة أخرى من وحدات المقرر مقاربة مسألة الازدواجية، ويختاران نصوصاً أقل نضجاً من نصي رمضان عبدالتواب وشوقي ضيف، لتصير مسألة الازدواجية في جوانب منها صنيعَ أجنبيّ له أجندات استعمارية.

**ثالثاً: تبعات الاختيار والمعالجة**

في تعلمها[1]، ووجود الرغبة والإرادة يقوم على ثلاثة مرتكزات مترابطة، أو متعالقة، هي الحافز والاستثمار والمقاومة؛ ولهذه المرتكزات، التي تتضمن إحالة على ثنائية المتعة والفائدة، أهمية كبيرة في تحقق نجاح أي عملية تعلم.

الحافز مسألة مركزية في التحكم بالفعل عموماً؛ فارتفاع أسعار الكهرباء، مثلاً، يشكل حافزاً لترشيد استهلاك هذه الطاقة، أو يشكل حافزاً للتوقف عن استهلاكها والبحث عن طاقة أو طاقات بديلة. لا شك أن وفرة إمكانات استثمار اللغة في الحياة تشكل حافزاً لتعلمها، وأي انحسار لهذه الإمكانيات يرفع من منسوب مقاومة التعلم، أو يوجه المتعلمين إلى فضاءات أخرى كتعلم لغة ثانية، أو إلى مقاومة التخلي عن محكياتهم القابلة لاستثمار يذكي الحوافز ويقلل بالتالي من فرص المقاومة. يظهر أن تثوير الحافز وتعطيل المقاومة أمران يصعب تحققهما في المشهد الذي تطغى عليه النماذج التي تمت مقاربتها من عينة هذه الدراسة.

مع وفرة النصوص التي تمت الإحالة إلى عنواناتها، أو النصوص التي تمت مقاربتها مدعمة بالمعالجات البيداغوجية التي ظهر أنها متمركزة في خانة تلقين القيم عموماً، ومقصرة في تخليق فرص تعلم نشط ونقدي لأنها مغلقة وتستغرق في المباشرة والتوجيه، أو مغلقة بطرق معالجتها، مع هذه الوفرة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصير الاحتفاء بكمون قدرات الطلبة العقلية والارتقاء بمهاراتهم بالنتيجة. يبدأ، مع كل الذي سبق، انكفاء الطلبة التدريجي عن لغتهم، ويستقر في أذهانهم أن هذه اللغة خطابية بامتياز، ولا تصلح للحياة بكل بساطتها وتعقيدها وبراجماتيتها، ولا يمكن أن تستخدم كتابة أو مشافهة في

---

١- العمري، ناديا، "الهوية ولغة التعليم في البلدان العربية، في كتاب **اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح**، مجموعة مؤلفين (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣) ص٤٧٤-٤٧٥.

سياقات غير "رفيعة" نحو تصليح دراجة هوائية، أو إعداد شطيرة لحم، أو بناء كوخ صغير من قصب فوق سنديانة حديقة البيت الخلفية، أو الإتيان بحجة ظريفة تُسقط حدَّ اقتحام حديقة الجيران[١].

تطغى على العربية، كما ظهرت في اختيارات معدي المقررات، سمة الخطابة المدعمة بتعليم شفاهي يعتمد على الصوت والتكرار، ويمتلك من يديره التأويل أو يوجهه، ويكتفي بأسئلة يمكن الإجابة عن كثير منها بالقراءة الجهرية. العربية كما تعالج بيداغوجياً في المقررات تخبّل عقول الطلبة، وتصادر قدرتهم على التفكير الناقد الذي لا يقوم بغير اللغة، وتقمع الخيال[٢]. تطغى على العربية، وفق المقررات المختارة، سمات الحزن والتجهم والجدية والصرامة، ولا تفيض في بعض ما يخفّ على الطلبة وتأنس به طباعهم؛ الأمر الذي يجعل من فعل المقاومة لتعلمها مضاعفاً مرات كثيرة. ينسى أصحاب هذا النهج، أو يتناسون، أن المتعلم يحتاج كفايات اللغة في حياته اليومية وحياته الوظيفية أولاً، وتحقق هذه الكفايات المثمرة والملموسة هو ما يشكل الحافز، ويحد من فعل مقاومة المتعلم للفصحى، ويقلل من انجذابه لمحكيته. كأن معدي المقررات،

---

١- الإحالة هنا على قول الحسن البصري: "إذا كان اللص ظريفاً لم يُقطع. يريد: إنه يدافع عن نفسه ببلاغته، ويحتج بما يسقط الحد". انظر: ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، **أخبار الظّراف والمتماجنين**، ص٤٢.

٢- "... قدرة دماغنا على الجمع بين العناصر يسمى في علم النفس الخيال. ويستخدم الناس، عادة، مصطلح الخيال للإشارة إلى شيء مختلف تماماً عما يعنيه المصطلح في العلوم. ففي الحياة اليومية، تشير المخيلة أو الخيال إلى ما هو غير صحيح في الحقيقة، أي ما لا يتوافق مع الواقع، وبالتالي مع ما ليست له أي أهمية عملية جادة. لكن في حقيقة الأمر، يعد الخيال، بوصفه أساساً لكل الأنشطة الإبداعية، مكوناً مهماً لجوانب الحياة الثقافية كافة، متيحاً الفرصة للإبداع الفني والعلمي والتقني على حد سواء". انظر: ليف، فيجوتسكي، **الخيال والإبداع في مرحلة الطفولة**، ص١٠.

بفعلهم هذا، يخدمون العامية، أو يخدمون لغة أخرى كالإنجليزية التي قطع من يعدون مقرراتها أشواطاً مهمة في تطوير أساليب تعلّمها. جامع القول أننا نواصل العويل على الفصحى، ونبكي من طغيان العامية ولغات أخرى، وننسى أننا نعرّي عربيتنا الفصحى من ملموسيتها، ونقترف ذنوباً كثيرة في عدم تقريبها -في المقررات- من الحياة. يظهر أن الأمر سيظل هكذا، أو سيطول، إلى أن ينفتح لنا في اختيار نصوص المقررات ومعالجتها باب من الإصلاح.

**المحور الثالث: مقترحات للأسس التي يجب أن تقوم عليها عملية اختيار النصوص**

يجب أن تراوح النصوص التي يقع عليها الاختيار لكيما تكون جزءاً من وحدة تعليمية بين الظّرف والجد، والخفة والصرامة؛ ومبدأ المراوحة بين هذه الثنائيات حاضر في ثقافتنا العربية ببروز، وبعض الإشارات تجعله شرطاً ضمنياً لتجدد طاقة التلقي ورفع الملل عن النفس. يورد ابن الجوزي في مستهل كتابه "أخبار الظراف والمتماجنين" مجموعة من هذه الإشارات فيقول: "عن بكر بن عبدالله المزنيّ، قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا الرجال"[١]، ويورد في كتابه "أخبار الحمقى والمغفلين" قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان؛ فالتمسوا لها من الحكمة طرفاً"، وقول أسامة ابن زيد: "روّحوا القلوب تعي الذكر"، وينقل عن مالك بن دينار قوله: "كان الرجل ممن كان قبلكم إذا ثقل عليه الحديث قال: إن الأذن مجاجة والقلب حمض، فهاتوا من طرف الأخبار"، وعن أبي الدرداء، وهو صحابي من الحكماء الفرسان، قوله: "إني لأستجم نفسي ببعض الباطل كراهية أن أحمل عليها من الحق ما يملها"[٢].

---

١- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، **أخبار الظّراف والمتماجنين**، ص٤٠.

٢- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، **أخبار الحمقى والمغفلين** (لبنان: دار الفكر اللبناني الأولى، ١٩٩٠)، ص١٥.

سيظهر بجلاء حين توضع نصوص عينة الدراسة أمام مرآة هذه الإشارات أنها نصوص لا تروّح عن المتعلمين، وتغرقهم، دون انقطاع، في الجد والصرامة والتجهم، وأنها نصوص لا تعكس وعي من اختارها بفضيلة "ساعة وساعة"[١]، وهي لذلك تفقد الطلبة رغبتهم في التعلم، وتفقدهم الحافز، وترفع منسوب مقاومتهم للغة لا تصلح، كما هي في المقررات، لغير المقامات الجدية والمتجهمة التي تمج النفس دوامها ويحمض عنها القلب. كأن الضحك والمزاح، ولا شيء في نصوص العينة منهما، لا يليقان بغير أنبياء الله والصالحين[٢]، وهما حتماً لا يليقان، كما يرى من أعد المقررات، بالمتعلمين من الأطفال والشباب.

إضافة إلى أهمية المراوحة بين الظرف والجد والخفة والصرامة، يجب أن تكون النصوص التي يختارها معدو المقررات مفتوحة، أو تمتاز بقابلية الكتابة كما مر معنا، وميزة هذه النصوص أنها تبتعد عن المباشرة التي يصير معها لقم القيم والمعارف للطلبة بشكل فج يصادر إمكانات تحقق التعلم النشط الذي يرتقي بقدرات الطلبة العقلية ويرتقي بقدراتهم على الإنتاج اللغوي. هنا لا بد من التأكيد على أن اختيارات المعدين يجدر أن تتركز على النصوص الأدبية كالقصص الجيدة القصيرة والقصيرة جداً التي تلمح ولا تصرّح، وعلى نصوص تنويرية من تراثنا القديم والحديث تعتمد لغة وظيفية تقرب الفصحى في أذهان الطلبة من

---

١- الإحالة هنا على قول الرسول صلى الله عليه وسلم لحنظلة: "ساعة وساعة" الذي جاء في سياق المراوحة بين الجد وبعض المباح من اللهو. انظر: ابن الجوزي، **أخبار الحمقى والمغفلين**، ص١٤.

٢- الإحالة هنا على القول الذي أورده الجاحظ في مستهل بخلائه: "وقد ضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ومزح، وضحك الصالحون ومزحوا". انظر: أبو عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، **البخلاء** (مصر: دار المعارف، د.ت)، ص٦.

الاستخدام[1]، ونصوص ظريفة تبتعد عن الإسفاف والتجهم وتحترم عقل المتلقي وتمتعه وتحتفي بخياله الذي يحقق وجودها الفعلي بالقراءة. هذه النصوص تساعد بطبيعتها على تضييق المداخل أمام الأسئلة المغلقة، وتتيح فرصاً أكثر للأسئلة المفتوحة التي تستدعي مهارات الطلبة اللغوية وترتقي بها.

يتحقق، مع التركيز على النصوص المفتوحة والمعالجات البيداغوجية التي تركز على التحليل والتركيب والتقويم، تجريد النصوص من سلطتها المطلقة، ويتحقق بالتالي توطينها في خانة النصوص الصديقة. الطلبة في العادة ينفرون تدريجياً من النصوص التي تمارس عليهم، بذاتها وبطريقة معالجتها، سلطة من نوع ما، وتهتز درجة اعتزازهم بأنفسهم كمنتجين وآدميين، وتقل حوافزهم للقراءة، وترتفع درجة مقاومتهم للتعلم مدى الحياة. طلبتنا ينفرون من القراءة لأننا لم نيسر لهم نصوصاً تحقق اعتزازاً بالذات، وتحافظ على آدميتهم كأفراد فاعلين غير تابعين في كل شيء. لا ينصرف الطلبة، حين يسقط شرط الالتزام بالمقرر، إلى مطالعة اختياراتهم من النصوص الصديقة، فقد تشبعوا بالتابعية، وحان وقت انطلاقهم بعيداً عن نصوص تسيء لهم بما توفره من حاضنات قد تكون مؤذية، أو لا تتيح لهم التكيف خارجها حين تتقلب مناخات الحياة. من طرق تخليق الاعتزاز بالذات أيضاً أن يختار المعدون نصوصاً خلافية يمكن أن تتعدد فيها وجهات النظر بما أنها نصوص لا تحتمل تأويلاً واحداً تتشيع له ويجعلها مغلقة. إن اختلاف وجهات النظر في البيئة التعليمية يعني طرح وجهة النظر والدفاع عنها، ويعني الاستماع إلى وجهات نظر الآخرين وتفنيدها، ويعني بسطها في التعبير الكتابي الذي تأتي مخرجاته مختلفة باختلاف التأويلات.

---

١- من المقاربات المهمة لمسألة وظيفية اللغة العربية ومغالطات معدي المقررات رسالة توفيق الحكيم إلى صديقه أندريه. انظر: الحكيم، توفيق، **زهرة العمر** (مصر: مكتبة الأسرة، ١٩٩٨) ص٢١٤-٢٢٢.

يجب أن تكون النصوص، علاوة على ما سبق، ذات صلة بحياة الطلبة واهتماماتهم، وحساسة لمراحلهم العمرية، ولا تقصي أحداً منهم جندرياً أو ثقافياً أو إثنياً أو خلافه. تؤكد الدراسات الحديثة في هذا السياق على جعل المتعلمين (في اللغة الأم أو اللغة الثانية) جزءاً فاعلاً في عملية اختيار نصوص للقراءات الصفية والبيتية، ويعدون هذا الأمر مهماً –إضافة إلى أخذ مستوى الطلبة وخلفياتهم المعرفية والثقافية بعين الاهتمام– لجعل فعل القراءة ممتعاً وذا قيمة[١]، وقابلاً للاستثمار للترقي في مهارات أخرى كالكتابة والحديث والاستماع.

حريّ أن يظل حاضراً في الأذهان أيضاً أن الأصل في مهارة القراءة أن تكون قراءة صامتة. القراءة الجهرية، وإن كانت مهارة مبهرة في المجتمعات التي تحتفي بالخطابة والخطباء كثيراً، ممارسة ضرورية، ويجب أن تشكل جزءاً من الأنشطة التي يخطط لها المعلمون لدروسهم، لكنها حتماً ممارسة مؤذية حين تعطى نصيب الأسد من وقت الطلبة المخصص لمهارة فهم المقروء. القراءة الجهرية يمكن أن تكون مملة لكثير من الطلبة "المستمعين" غالباً، وتولّد حالة قلق عند الطلبة الذين يعانون من مشاكل في القراءة أو في النطق، وتجعل من القارئ المنشغل بفك الحروف وتلفظها والامتثال لإملاءات النظام اللغوي في المستوى الصوتي والتركيبي، تجعله أقل قدرة على التركيز والفهم. إن السيرورة الخطية

---

١ – انظر:

-Richard Day, "Selecting a Passage for the EFL Reading Class," Forum 32 (1994): p20.

-Bemice Melvin & David Stout, "Motivating Language Learners throughAuthentic Materials","Interactive Language Teaching, ed. Wilga Rivers (New York: Cambridge University Press, 1987) pp44-56.

-G. Fox, "Text Selection and the Role It Plays in Motivation," The Language Teacher, 10 (1989) pp8-10.

-Jerry Gebhard, "Relevancy, Authenticity, Comprehensibility and Selection of EFL Materials," PASAA. 19 (1989) pp87-90.

التي تمشي بها القراءة الجهرية، أي دون العودة إلى السطر الذي سبق، لا تعين على تطوير استراتيجيات لتعميق الفهم، والتركيزُ على كل كلمة وتشكيلها وضبط مخارج حروفها يجعل عملية القراءة بطيئة، في حين أن التركيز على القراءة السريعة مطلب مهم، ويجذّر عند الطلبة مهارة التعامل مع النص باعتباره مقاطع من بنى متلاحمة يتكون بتلاحمها المعنى.

القراءة الجهرية في المحافل –والصف محفل– أمر ليس سهلاً حتى للخطباء المتمرسين، وهو مطلب محبط للطلبة الذين يجب ألا نتنازل عن جعلهم قرّاء حتى قبل أن نتحقق، بعناية، إن كانوا سيصبحون، أو يرغبون في أن يصبحوا، خطباء، ودون أن ننسى، أيضاً، أن الألثغ والألكن، وحتى الأبكم، يمكن أن يكونوا قارئين متفوقين.

**مختتم**

ليس سهلاً أن يتحقق كثيرٌ من التوصيات التي مرت، وكذا كثير من الملاحظ التي سجلت على المعالجات البيداغوجية لعينة البحث، في مجتمعات يسود فيها نظام تعليم بنكي، أي طابع العلاقة الناظمة لقطبي العملية التعليمية التعلمية (المعلم والمتعلم) فيه سرديٌّ. في هذا النظام يكون المعلم (فاعلاً) يقوم بالسرد، والطلبة (مفعولاً بهم) يستمعون بصبر وأناة، ولا ينظر إليهم ككائناتٍ قادرة على إحداث تحوّل في واقعهم، بل ينظر إليهم كأوعية أو خزانات يقوم المعلم بملئها ضمن عملية إيداع تشبه عملية الإيداع البنكي، ولا يتعدى فيها النشاط المسموح به للطلاب حدود التلقي والامتلاء. تصير المعرفة في هذا النمط من التعليم، والحال كذلك، هبةً يمنحها المعلم كلي المعرفة إلى الذين تلصق صفة الجهل بهم، ويوسمون بالكائنات التي لا تعرف شيئاً[١].

يؤكد باولو فريري، في سياق حديثه عن التعليم البنكي هذا، أن إلصاق صفة الجهل بالمتعلمين قصد متجذر من مقاصد إيديولوجية الاضطهاد التي تنكر أن التعليم عملية بحث واستقصاء تمكّن المتعلمين من تحقيق اكتمالهم الإنساني، ومن امتلاك مهاراتهم النقدية والبحثية التي يحتاجون معها إلى مهاراتهم اللغوية أكثر من احتياج التابعين وفاقدي الوعي النقدي والمحتفظين بقابليتهم للتكيف[٢].

كل تعليم حر ينتصر لوعي المتعلمين النقدي والإبداعي ويجعلهم محورين لعالمهم ومتخلصين من سلطة من يسعون لجعلهم كائنات تنعم بطمأنينة التابعين هو تعليم ينتصر للغة العربية؛ ولا ازدهار للغة لا تعيش "مناظرة" مستمرة في

---

١ – فريري، باولو، **نظرات في تربية المعذبين في الأرض**، ت. مازن الحسيني (سوريا: دار التنوير للترجمة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢)، ص٥٨–٦٤.

٢ – السابق نفسه، ص٦١.

حقولها الثقافية واللغوية والفلسفية وخلافها، ولا تدار نصوصها التعليمية بطريقة تكفل فاعلية طلبتها وتحفّز قدرتهم على البحث والإبداع والخلق والمساءلة.

كل انتصار لعقل الإنسان واختلافِ أغراضه هو انتصار للغة، وكل مصادرة لهذا العقل وكمون قدراته وقصر أغراضه وفعله على شاكلة ما يشتهي سدنة التعليم البنكي هو مصادرة لإمكانات اللغة وكمون قدرتها على التطور والارتقاء في الكلام- كلام من تكتمل إنسانيتهم، ويحافظون على لغتهم وسيلة تعبير وهوية.

-تم-

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً: بالعربية


١- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، **أخبار الحمقى والمغفلين** (لبنان: دار الفكر اللبناني الأولى، ١٩٩٠).

٢- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن، **الظّراف والمتماجنين** (لبنان: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧).

٣- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، المجلد الأول (بيروت: دار صادر، د.ت).

٤- أبو عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، **البخلاء** (مصر: دار المعارف، د.ت).

٥- ألان، جراهام، **نظرية التناص**، ت. باسل المسالمة (سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ٢٠١١).

٦- أونغ، والتر، **الشفاهية والكتابية**، ت. حسن البنا عز الدين (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٤).

٧- التميمي، حسام، وآخرون، **اللغة العربية، المطالعة والقواعد والعروض والتعبير: الصف الحادي عشر، الجزء الأول** (فلسطين: مركز المناهج، وزارة التربية والتعليم الفلسطينية، ٢٠١٧).

٨- الحكيم، توفيق، **زهرة العمر** (مصر: مكتبة الأسرة، ١٩٩٨).

٩- خوري، موسى، **على مدارج القراءة: دليل معلمي المراحل الأساسية في تعليم مهارة فهم المقروء** (القدس: جمعية مؤسسة فيصل الحسيني، ٢٠١٤).

١٠- خوري، موسى، **على مدارج الكتابة: دليل معلمي ومعلمات المراحل الأساسية في تعليم مهارة الكتابة** (القدس: جمعية مؤسسة فيصل الحسيني، ٢٠١٥).

١١- درويش، محمود، **لماذا تركت الحصان وحيداً** (بيروت/ لندن: دار الريس للكتب والنشر، ٢٠١١).

١٢- شرابي، هشام، **البنية البطريركية: بحث في المجتمع العربي المعاصر** (بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٨٧).

١٣- شريتح، عصام، **الشعرية بين فعل القراءة وآلية التأويل: دراسة في التلقي والتأويل الجمالي**، ط١(الأردن: دار الخليج، ٢٠١٨).

١٤- عمرو، يوسف، وآخرون، **اللغة العربية: الصف السابع الأساسي، الجزء الأول** (فلسطين: مركز المناهج، وزارة التربية والتعليم الفلسطينية، ٢٠١٧).

١٥- العمري، ناديا، "الهوية ولغة التعليم في البلدان العربية"، في كتاب، **اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكاليات التعليم والترجمة والمصطلح**، مجموعة مؤلفين (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣).

١٦- فاعور، بسمة، **التعلم النشط: استراتيجيات التعلم النشط** (اليونسكو ٢٠١٢).

١٧- فريري، باولو، **نظرات في تربية المعذبين في الأرض**، ت. مازن الحسيني (سوريا: دار التنوير للترجمة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢).

١٨- فيجوتسكي، ليف، **الخيال والإبداع في مرحلة الطفولة**، ت. هيفاء أبو النادي (فلسطين: مؤسسة عبدالمحسن القطان، ٢٠١٧).

١٩- الكردي، وسيم: **المشكالية: نحو حوار حواريّ**، ط١ (فلسطين: مؤسسة عبدالمحسن، ٢٠٠٣).

٢٠- مانغويل، ألبرتو، **تاريخ القراءة**، ت. سامي شمعون (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠١).

٢١- مسلم، عمر وختام، سلمان، **متطلب مهارات اللغة العربية في جامعة بيرزيت: المستوى الأول** (تحت الإعداد).

**ثانياً: بالإنجليزية**

22- Barth, Roland. ***S/Z.*** Hill and Wang. New York, A division of Farrar, Straus and Giroux. 1974.

23- Bemice Melvin & David Stout, "Motivating Language Learners through Authentic Materials, "Interactive Language Teaching, ed. Wilga Rivers (New York: Cambridge University Press, 1987).

24- G. Fox, "Text Selection and the Role It Plays in Motivation," The Language Teacher, 10 (1989)

25- Iser, Wolfgang, "The Reading Process" ***Reader-Response Criticism: From Formalisim to Post-Structuralisim***. Jane P. Tompkins ed. The Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1980.

26- Jerry Gebhard, "Relevancy, Authenticity, Comprehensibility and Selection of EFL Materials," PASAA. 19 (1989)

27- Ong, Walter, "The Writer's Audience Is Always a Fiction". ***Interfaces of the World: Studies in the Evolution of Consciousness and Culture.***Ithaca Press, Cornell University Press, 1977.

28- Richard Day, "Selecting a Passage for the EFL Reading Class," Forum 32 (1994).

**ثالثاً: مواقع إلكترونية**

29- www.mindtools.com

30- www.collinsdictionary.com

# الاستعمار اللغوي في فلسطين:

# صراع الهوية بين العبريّة والعربيّة

الأستاذ الدكتور خليل عودة

جامعة النجاح الوطنية، فلسطين

الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م

## الملخص

يسعى هذا البحث إلى بيان تمادي الاحتلال الإسرائيلي في فرض لغته في فلسطين على حساب العربية، وبيان أن هذا الخطر يزداد نتيجة هيمنة الاحتلال المباشرة على مجريات الحياة في فلسطين، ولا يعني ذلك أن اللغة العربية غير موجودة، بل على العكس هي موجودة ومعترف بها لغة رسمية إلى جانب العبرية، ولكنها تواجه التهميش المتعمد من خلال إضعافها وإحلال بدائل عبرية لكثير من المفردات المستعملة والدارجة عند العرب، ويقدم البحث اقتراحات عدة لمواجهة هذا الخطر.

يعدّ احتلال اللغة واحدًا من أهمّ الأهداف التي يسعى الاحتلال إلى تحقيقها، وربّما كان احتلال اللغة أخطر بكثيرٍ من احتلال الأرض؛ لأنّ احتلال الأرض سينتهي، طال الزمان أو قصر، أمّا احتلال اللغة فلا يمكن أنْ يتوقف لأنّ أثره سيبقى قائمًا ومستمرًّا حتى بعد زوال الاحتلال، وهذا ما حدث فعلاً في احتلال فرنسا للجزائر والمغرب العربيّ، فقد انتهى الاحتلال ولكنّ استعمارهم للغة لمّا ينته بعد، وسيبقى أثره واضحًا في تشكيل الهوية والفكر القائم على المزاوجة الواضحة بين اللغتين والثقافتين؛ العربية والفرنسية.

ويأتي الاستعمار اللغويّ في فلسطين من قبل الاحتلال الإسرائيليّ الذي يسيطر على الأرض، ويتحكم بشكلٍ كاملٍ في الأمور الحياتية الأساسية للسكان الذين يواجهون القمع السياسيّ والعسكريّ والفكريّ، ويضطرون للتعامل مع الاحتلال على أنّه واقعٌ مفروضٌ، وفي المقابل يتمادى الاحتلال في فرض لغته على أرض الواقع، وإجبار الفلسطينيّ على تقبلها واعتمادها؛ لأنّه مضطرٌّ للتعامل معه من خلال التبادل التجاريّ وأمور العمل، أو مع الجنود من خلال المعابر والحواجز ونقاط التفتيش، إلى غير ذلك.

**ويتخذ الاستعمار اللغويّ شكلين أساسيين:**

**أولهما:** المصطلحات التي يفرضها الاحتلال على وسائل الإعلام.

**ثانيهما:** المفردات التي يصدرها إلى اللغة العربية، وتصبح واقعًا لغويًّا مفروضًا ومقبولاً لدى الفلسطينيين.

**أولاً- المصطلحات التي يفرضها الاحتلال على وسائل الإعلام:**

وهذه المصطلحات يختارها الاحتلال بعنايةٍ ودقةٍ وقصدٍ، والاختيار يعني في الدراسات الأسلوبية المعاصرة عملاً مقصودًا يلجأ إليه الكاتب عندما يجد أنّ اختياره هو الأقدر على إيصال المعنى الذي يريده، وهو الأقدر على التأثير في

نفس المتلقي، "ومما تجدر الإشارة إليه أنّ اختيار كلمةٍ واحدةٍ لوصف الحالة نفسها يرتبط ارتباطًا كبيرًا بظاهرة الترادف، وهي ظاهرةٌ متفشيةٌ للكلمة في اللغة العربية بشكلٍ كبيرٍ، إذ إنّ أمام المبدع كلمات كثيرة يمكن أنْ يستخدم منها ما يريد، لكنّ انتقاءه للكلمة دون غيرها يبرز إيحاء الكلمة وظلالها الخاصّ بها، وإيحاءاتٍ تحملها كلّ كلمةٍ من الكلمة الأخرى التي ترادفها"(١).

والكاتب أو المتكلم يختار كلمةً لغرضٍ ذاتيٍّ يتعلق بحالاتٍ نفسيةٍ تدفع به إلى اختيار كلماتٍ بعينها دون غيرها، أو لغرضٍ خارجيٍّ بهدف ترسيخ فكرةٍ معينةٍ، أو فرض توجهاتٍ سياسيةٍ أو اقتصاديةٍ أو اجتماعيةٍ، تصبح مع مرور الوقت أمرًا واقعًا ومفروضًا. ويصل مع مرور الوقت إلى أمرٍ مقبولٍ بحكم الواقع النمطيّ الذي يتعايش معه المتلقي.

وقد يكون المتلقي درج على معايشة كلمات ومصطلحات أخذت شيئًا من القداسة والاحترام، وشكلت بالنسبة له رصدًا ثقافيًّا وفكريًّا لا يمكن التخلي عنه، أو استبداله، فكلمة (العدو) مثلاً لها مفهوم واضح ومحدد في القاموس السياسي لدى العربي بشكل عام والفلسطيني بشكل خاص، (فالعدو) في المخزون الفكري الجمعي هو العدو الإسرائيلي، الذي يشكل بعدًا واحدًا ومفهومًا واحدًا، ولا تحتاج الكلمة إلى توضيح أو تفسير أو شرح، ولكن دلالة هذه الكلمة بدأت تتغير في المفهوم والقناعات، وتشعبت دلالتها وتوسعت، وأضيفت إلى كلمات غيرت مدلولها ومعناها، مثل: أعداء السلام، وأعداء الديمقراطية، وأعداء التعايش، وأعداء الحرية، وهكذا.

---

(١) العدوس، يوسف: الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ط دار المسيرة – الأردن، ط١، ٢٠٠٧م، ١٤٢٧هـ، ص١٧٠.

ودلالة الكلمة لم تعد تقتصر على عدو واحد، فهناك العدو الشيعي والعدو السني، والعلوي، والإخواني، والشمالي، والجنوبي، وعدد ما شئت من أشكال العدو التي يحاول الاستعمار اللغوي فرضها على قاموسنا اللغوي والفكري.

وتتعدد أشكال الاستعمار اللغوي من خلال المفردات اللغوية التي يحاول الاحتلال فرضها، مستغلاً قدرته الإعلامية وإمكاناته التقنية ووسائل الاتصال الحديثة في فرض ما يريد من مفردات اللغة، وإلغاء ما لا يريد، فكلمة (المقاطعة) على سبيل المثال لم يعد لها وجود في القاموس اللغوي السياسي، وإلغاؤها من القاموس اللغوي، ترتب عليه إلغاؤها من التفكير العربي، وأصبحت الكلمة بمدلولاتها السياسية وأبعادها النفسية في حكم الماضي، وحلت كلمات بديلة لها في القاموس اللغوي السياسي، مثل (التطبيع) و(التعايش)، وهي مفردات أصبحت دارجة وتفرض نفسها بقوة في وسائل الإعلام، ليس فقط العبرية، وإنما أيضًا العربية.

ويطول الحديث في تعداد مفردات الاحتلال اللغوي، فالقضية الفلسطينية، أصبحت مجرد مشكلة، وإنهاء الاحتلال أصبح إعادة انتشار، والحل أصبح تسوية، والتسوية أصبحت تبادل أراض، والسلطة الوطنية بديلاً عن الدولة، ومن إزالة المستوطنات إلى تجميد الاستيطان، والمطالب الفلسطينية بديلًا عن الحقوق، والتسهيلات بديلاً عن العقوبات، وإغلاق الطرق بديلاً عن منع المرور، والمشاغبات بديلاً عن المظاهرات، والاعتداءات بديلاً عن الاحتجاجات، والعمل الإرهابي بديلاً عن المقاومة، والتطرف الديني بديلاً عن الإسلام، والتعصب الديني بديلاً عن التمسك بالمشاعر الدينية، والأمر لا يتعلق بمجرد تغير مفردة وإحلال مفردة أخرى، ولكنه أبعد من ذلك بكثير، فهي تتعلق بتغيير الفكر وأنماط السلوك، وكيفية التعامل مع الاحتلال، الذي يستغل اللغة بذكاء مقصود، ودراسة واعية، وينحرف باللغة عن دلالاتها المقصودة، واختيار أصحاب اللغة لها، إلى

دلالات جديدة تخدم أغراضًا سياسية وأيدولوجية مغايرة تمامًا للغرض الذي تم اختيار المفردات على أساسه من أصحاب اللغة الأصليين، وهذه المفردات والمصطلحات تكشف بوضوح عن الغرض السياسي والفكري المضمر في استخدام هذه المفردات، وفرضها في وسائل الإعلام الموجهة إلى الفلسطيني أولا، والعربي ثانيًا، ولها أثرها الواضح أيضًا في بقاء اللغة أو اندثارها؛ "للسياسة أثر مهم في بقاء اللغة أو اندثارها، وقد تنبه لهذه المسألة العرب القدماء، خاصة في المغرب العربي، وخاضوا غمارها في مؤلفاتهم، وعبر عن ذلك ابن خلدون في مقولته الشهيرة: "ولع المغلوب بتقليد الغالب"، فالمغلوب يرى في غالبه قمة الكمال والرقي، فيقلده في لغته وعاداته وتقاليده ومأكله وملبسه"[1]. وبسبب ذلك لا يمكن الفصل بين العامل السياسي والأثر اللغوي، بل قد تصبح اللغة وسيلة من وسائل الحرب الدائرة بين أطراف الصراع، وهنا "يجب التأكيد على أن الصراع السياسي يؤثر على المخزون اللغوي، وفي حالات معينة تصبح اللغة جزءًا لا يتجزأ من الصراع، كما هو حاصل في البلاد، وما دام هذا الصراع مستمرًّا، فإنه لا يتوقع أن يطرأ تحسن جذري على مكانة العربية في القريب العاجل"[2].

وهذا يعني وجود خطر حقيقي على اللغة العربية في داخل فلسطين، ولا يعني ذلك أن اللغة العربية غير موجودة، بل على العكس هي موجودة ومعترف بها لغة رسمية إلى جانب العبرية، ولكنها تواجه التهميش المتعمد من خلال إضعافها وإحلال بدائل عبرية لكثير من المفردات المستعملة والدارجة عند العرب.

---

(١) مرعي، عبدالرحمن: العربية والعبرية بين الماضي والحاضر، إصدار مجمع القاسمي للغة العربية وآدابها، باقة الغربية – فلسطين، ط٢٠١٠، ص٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

**المفردات العبرية التي يستخدمها الفلسطينيون بديلاً عن العربية:**

نظرًا للتداخل القائم بين العرب والإسرائيليين، وتشابك أمور الحياة بين الطرفين اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، فقد درج الفلسطينيون على استعمال كثير من الكلمات العبرية، ليس فقط مع الإسرائيليين، ولكن في كلامهم اليومي فيما بينهم، ما أدى إلى تداخل لغوي بين العربية والعبرية في ظل ظروف حياتية متشابكة بين العرب واليهود في داخل فلسطين.

وقد تختلف عملية استيراد اللغة واستيعابها حسب عملية التأثر والتأثير، ولهذا يختلف استخدام اللغة العبرية مع اللغة العربية أو بديلاً عنها، حسب المكان الجغرافي أولاً، وتبادل المصالح التجارية، أو طبيعة العمل، أو ظروف الحياة اليومية.

فالفلسطينيون في فلسطين ٤٨ أكثر تأثرًا بالعبرية من الفلسطينيين في باقي الأراضي الفلسطينية المحتلة، "فاستخدام اللغة العبرية بين الشعب الفلسطيني أبناء الـ٤٨ أصبح جزءًا من مخزونهم اللغوي بسبب الاتصال المباشر مع متحدثي العبرية في الأطر الرسمية متمثلة بالهيئات الحكومية والتعليمية والقانونية، والأطر غير الرسمية متمثلة بأماكن العمل وبالمرافق الاجتماعية والاقتصادية، الأمر الذي وصل حد التأثير على حيوية اللغة العربية في ظل الوضع الاجتماعي السياسي المتغير"[١].

والأمر نفسه ينطبق على شريحة العمال الفلسطينيين أو التجار الذين يضطرون للتعامل مع الإسرائيليين في أمور العمل أو التجارة، وتكرار هذه الكلمات ليس فقط في تعاملهم مع اليهود، وإنما في التعامل اليومي فيما بينهم، أو

---

(١) حسن، أحمد حسن: عربية الشعب الفلسطيني أبناء الـ٤٨ المحكية والمكتوبة، تأثيرات متبادلة مع العبرية الحديثة، ط مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية – الأردن م٤٢، ع٢، ٢٠١٥، ص٣٥٨.

في تعاملهم مع المحيط العربي الذي يعيشون فيه، على اعتبار أن هذه الكلمات لا يجدون بديلا لها، أو أنهم يستخدمونها من قبيل إظهار معرفتهم باللغة العبرية وإبراز مهارتهم في تعلم اللغة وتوظيفها في معاملاتهم اليومية. الأمر الذي يجعل العربية تواجه تحديًا صعبًا في مقاومة الاستعمار اللغوي الذي يغزو اللغة العربية، ويسيطر على أجزاء مهمة في قاموسها المحكي. "إن العربية في فلسطين تدافع عن نفسها في جهتين داميتين، فهي واقعة بين مطرقة الإنجليزية وسندان العبرية، في ظل الاحتلال البغيض الذي يحاول طمس كل معالم العروبة... ومما يجعل مهمة الحفاظ على العربية عسيرة ذلك الاعتماد المقيت على الدولة العبرية في كثير من متطلبات الحياة اليومية كالعمل والمواد الاستهلاكية ولا سيما التي يكثر من شرائها الأطفال الذين هم في طور البناء اللغوي"(١).

فالاحتلال يتجاوز الأرض، إلى احتلال الفكر والثقافة التي تأتي تابعًا لاحتلال أجزاء من اللغة، وترتب على ذلك استبدال أسماء الشوارع والأماكن والساحات والميادين بأسماء عبرية، وأحيانًا يوضع الاسم العربي، ولكن في مكان غير بارز، وبحروف أصغر من الحروف العبرية على المستوى الشكل والمساحة أيضًا؛ فقد سنّت إسرائيل عام ١٩٥٥ قانونًا ينص على أنه لا يحق لأحد أن يضع إعلانًا أو لافتة في الشوارع إلا باللغة العبرية، ونص القانون أيضًا على أنه إذا استلزم الأمر في مدينة الناصرة التي معظم سكانها من العرب

---

(١) جبر يحيى وعبير حمد: **العولمة وأثرها على الشعب الفلسطيني**، مجلة رؤية تربوية، ع٢٠، إصدار مركز القطان، رام الله، ٢٠٠٥، ص٨٤.

استخدام لغة أخرى غير العبرية في الإعلان، فمن الضروري أن يشغل النص العبري ما لا يقل عن ثلثي المساحة، وأن يتم وضعه على رأس الإعلان وبحروف أكبر من حروف اللغة الثانية[١].

ويربط اليهود بشكل واضح بين احتلال اللغة واحتلال الأرض، بل إن طرد الفلسطينيين من أرضهم يصاحبه دائمًا في فكرهم، محاربة اللغة العربية، ويتم ذلك بإحياء اللغة العبرية على حساب اللغة العربية، وفي هذا السياق "يقول البرفيسور (الداد) زعيم حركة (من أجل أرض إسرائيل الكاملة) في صحيفة (معاريف) عن مستقبل عرب فلسطين ما يلي: (إن الحل الإنساني -في نظري- لتقوية دولة إسرائيل، هو طرد العرب من أرض إسرائيل، ومكافحة لغتهم، حيث يوجد بيننا وبينهم خلاف موضوعي، وتناقض تام، فإما أن تكون أرض إسماعيل، أو أرض إسرائيل، إنني أطالب بحقي في إحياء لغتي العبرية وحدها دون غيرها في أراضيّ، فلو كانت هناك محكمة دولية عادلة وطرح الموضوع أمامها لحكمت لنا بإحياء لغتنا في أرضنا وإعادة غيرها"[٢]. والمسألة عنده هي إبادة اللغة العربية، لأنها لغة أصحاب الأرض الأصليين، وهو يريد إلى جانب احتلال الأرض، احتلال اللغة، ومحو معالمها بالكامل من فلسطين، والأمر قد لا ينطبق على فلسطين وحدها، بل هو أمر غالب في البلاد التي يتم احتلالها، حيث يتم التركيز بشكل أساسي على محو لغة المحتل، أو على الأقل فرض لغة

---

(١) انظر: الرفاعي، جمال: أزمة اللغة العربية في إسرائيل: مؤثرات عبرية في لغة الصحافة الفلسطينية في إسرائيل، ط مجلة الدراسات الشرقية – جامعة الملك سعود، الرياض، ع٤٠، ص٢٠٧.

(٢) الدراويش، حسين أحمد علي أبو كتة: أساليب اليهود في محاربة اللغة العربية في فلسطين، مهدى الإسلام – الأردن، ١٩٧٩، ص٧٠.

الاحتلال على الشعوب المحتلة، ومحاولة السيطرة عليها من خلال السيطرة على لغتها. "تظهر أهمية اللغة لدى الشعوب التي تتعرض للاستعمار والاحتلال والاضطهاد، فالدولة المستعمرة تفرض لغتها على الشعب المستعمر، وتحاول أن تطمس لغته من خلال استعمال لغتها في المؤسسات الحكومية والمدارس وغيرها من دور العلم والمعرفة، تركت هذه الدول المستعمرة بصماتها في حياة الشعوب المستعمرة، إذ هنالك في اللغة القومية ألفاظ دخيلة وجدت القبول والتداول بين الناس، حتى بعد زوال الاستعمار"(١).

وهنا تكمن الخطورة في الاستعمار اللغوي، الذي يترك أثره وتأثيره في الشعوب حتى بعد زوال الاحتلال العسكري، وبقاء لغته يعني استمرار الاستعمار بطريقة غير مباشرة لأنه يفرض ثقافته وتفكيره في الشعوب التي تتحدث بلغته.

ونظرًا للاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، فإن اللغة العربية تتعرض لمخاطر حقيقية في صراع البقاء أمام العبرية، أو على الأقل الحفاظ على خصوصيتها في اللغة المحكية والمكتوبة في داخل فلسطين، وهذه المخاطر تتمثل في إلغاء الهوية العربية بكل مقوماتها، وإحلال هوية مغايرة تمامًا لشعب جديد على أنقاض شعب موجود أصلاً، ويمتلك الاحتلال الإسرائيلي وسائل القوة والهيمنة التي تمكنه من فرض لغته، والترويج لها، ويتم ذلك بطريقتين:

**الأولى:** طريقة جبرية، يتم فيها إحلال كلمات عبرية مكان كلمات عربية.

**الثانية:** طريقة طوعية، يتم فيها استخدام كلمات عبرية بديلاً عن كلمات عربية.

---

(١) مرعي، عبدالرحمن: العربية والعبرية في الماضي والحاضر، ص١٧.

**أولاً- الطريقة الجبرية:**

ويتم ذلك من خلال الجهات الرسمية التي تفرض المفردة العبرية وتجعلها بديلاً عن المفردة العربية، ويكون ذلك في المعاملات الرسمية والإعلانات الحكومية، وأسماء الأماكن والبلدات والطرق، ومع هذا الاستخدام لا يملك الفلسطينيون إرادة أو خيارًا في استبدال الكلمات أو تغييرها، لأنها تكون مفروضة عليهم. "ولم يكن استخدام الأسماء العبرية صدفة، وإنما هو وليد الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وامتداد له، فالاسم العبري يخدم الصالح العام الإسرائيلي، لأن الأجيال الشابة العربية لم تشهد النكبة ولم تقرأ عنها، وهي تتقبل الاسم بداية كأمر مسلم به، ومن ثم تذوّب في أعماقها بأن المكان أو الحيز ملك لليهود، ولا يحق للفلسطيني المطالبة بإرجاعه"(١). ويكون الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للفلسطينيين الذين يعيشون في فلسطين عام ٤٨، وذلك بسبب الارتباط بين الفلسطينيين واليهود في فلسطين. "والمواطنون العرب الذين يعيشون في إسرائيل يختلفون عن باقي العرب في البلدان العربية من حيث الاستعمال اللغوي واستهلاكه، ففي الأقطار العربية يتأثر المتحدثون بالإنجليزية والفرنسية (خاصة في لبنان والجزائر)، ويتأثر العربي الإسرائيلي لغويًّا باللغة العبرية بشكل واسع، فبالرغم من المنزلة الرفيعة التي تحظى بها اللغة العربية في نفوس الناس كونها لغة الأم والدين، ولغة القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولغة التراث، ولغة العلم والعلماء في العصور الزاهرة، فإننا نجد أن العبرية أصبحت جزءًا لا يتجزأ من المخزون اللغوي للمواطن العربي"(٢)، وهنا تكمن مشكلة التعامل مع اللغة

---

(١) مرعي، عبدالرحمن: العربية والعبرية في الماضي والحاضر، ص١٩٠.

(٢) مرعي، عبدالرحمن: تأثير العبرية على اللغة العربية، مجلة الرسالة، كلية بيت بيرل، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص١٢٩، ١٣٠.

العربية، التي تصارع من أجل البقاء في مواجهة العبرية، وينظر إلى العربية في هذا المحيط على أنها لغة الأقلية، ويجبر الفلسطينيون على التعامل مع العبرية باعتبارها اللغة الرسمية التي يحتاجونها في كل أمور حياتهم اليومية والرسمية، وما يزيد الأمر تعقيدًا بالنسبة لهم هو انقطاعهم عن محيطهم العربي بعد عام ٦٧، وانحصار علاقاتهم اللغوية بما هو موجود في حدود الدولة الجديدة التي أغلقت أبوابها عليهم، وفرضت اللغة العبرية في أمور حياتهم المختلفة، الأمر الذي يحتاج معه إلى التعبير بالعبرية باعتبارها لغة العلوم والمعارف، ولهذا السبب "يلجأ الكثير من المتخصصين إلى استخدام اللفظ العبري، لأنهم لا يعرفون المصطلح المهني المرادف بالعربية"(١).

وتأتي الكلمات العبرية المفروضة على الاستعمال العربي في أكثر من مجال من مجالات الحياة، ابتداءً من أسماء الشوارع والطرق والمدن والبلدات والأسواق، وغير ذلك، "أدت تلك الهيمنة اللغوية على المشهد العام إلى صبغ المشهد اللغوي (Language Landscape) في إسرائيل بصيغة عبرية وحيدة. فلافتات الطرق، وأسماء المواقع والشوارع والبنايات والأماكن والمؤسسات، ولافتات الإعلانات، والإعلانات التجارية، أصبحت مكتوبة بالعبرية، الأمر الذي أدى إلى حضور تلقائي واسع للعبرية في أوساط الشعب الفلسطيني أبناء الـ٤٨"(٢)، ويبدو ذلك بشكل واضح في أسماء المدن الفلسطينية، التي يحاول الاحتلال تغييرها، ويبدو ذلك في أسماء المدن الرئيسة في فلسطين المحتلة عام ٤٨، أو ما تم احتلاله عام ٦٧.

---

(١) مرعي، عبدالرحمن: تأثير العبرية على اللغة العربية، مجلة الرسالة، كلية بيت بيرل، ٢٠٠٢-٢٠٠٣، ص١٢٩، ١٣٦.

(٢) حسن، أحمد حسن: عربية الشعب الفلسطيني أبناء الـ٤٨ المحكية والمكتوبة، ص٣٦٤.

**فمن أسماء المدن الرئيسة في فلسطين عام٤٨ على سبيل المثال:**

| الاسم العربي | الاسم العبري |
|---|---|
| – المجدل | أشكلون (אשקלון) |
| – تل الربيع | تل أبيب (תל אביב) |
| – سهل ابن عامر | سهل يزراعيل (עמק יזרעאל) |
| – عين جالوت | عين مارود (עין מרוד) |
| – عكا | أكو (עכו) |
| – يافا | يافو (יפו) |
| – السهل الساحلي | الشارون (השרון) |
| – بئر السبع | بئير شيفع (באר שבע) |
| – أم خالد | نتانيا (נתניה) |
| – رأس العين | روش هعين (ראש העין) |
| – الخالصة | كريات شمونة (קרית שמונה) |

ولم يكتف الاحتلال بتغيير أسماء المدن والأماكن في فلسطين عام ٤٨ إلى أسماء عبرية، ولكنه انتقل بعد احتلال كامل فلسطين عام ٦٧، إلى إحلال أسماء عبرية بدلاً من الأسماء والمسميات العربية، وركز بشكل أساس على أسماء

المدن الرئيسة والمعالم التاريخية، نذكر من هذه الأسماء **على سبيل المثال** وليس الحصر:

| | | |
|---|---|---|
| - نابلس | أصبحت | شخيم |
| - الخليل | أصبحت | حبرون |
| - الضفة الغربية | أصبحت | يهودا والسامرة |
| - أريحا | أصبحت | يريحو |
| - القدس | أصبحت | أورشليم |
| - بيت لحم | أصبحت | بيت ليحم |
| - جسر الملك حسين | أصبحت | جسر اللنبي |
| - رأس العين | أصبحت | روش هاعين |
| - فلسطين | أصبحت | ايرتس إسرائيل |
| - البحر الميت | أصبحت | يم هميلح (يم عحليل)[١] |

ويحاول الاحتلال استعمار الكلمات، وتحويلها من جذورها التاريخية والحضارية إلى كلمات بديلة بهدف طمس الوجود والهوية للشعب الفلسطيني على هذه الأرض، وهذا الاستعمار يأتي نتيجة دراسات وخطط استراتيجية يمهد لها الاحتلال. "غالبًا ما تحمل الأسماء الجديدة اسم البقعة العربية المقامة عليها مع تحريف لهذا الاسم ليتوافق مع اللغة العبرية"[٢].

---

(١) ولمزيد من معرفة أسماء المدن والبلدان والأماكن التي تحولت أسماؤها من العربية إلى العبرية، ينظر: مركز بيت المقدس للدراسات التوثيقية. عبدالكريم، إبراهيم: تهويد أسماء المعالم الفلسطينية، والرجوع إلى كتاب الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين.

(٢) مرعي، عبدالرحمن: العربية والعبرية بين الماضي والحاضر، ص١٩١.

**ثانيًا- الطريقة الطوعية:**

وهنا يأتي استخدام اللغة العبرية بطريقة طوعية، ورغبة في توظيفها بطريقة عفوية غير مقصودة في المعاملات التجارية، والحياة اليومية، والمعاملات الرسمية، وعند استخدام اللغة في هذا المجال يجب علينا أن نميز بين تعلم اللغة العبرية في المؤسسات التعليمية الفلسطينية أو مراكز الأبحاث، وبين إحلال مفردات اللغة العبرية محل مفردات عربية، فتعلم العبرية أمر مقبول ونشجع عليه باعتبار اللغة العبرية لغة سامية لها علاقة بالعربية، ولكن ما نحذر منه هو إحلال مفردات اللغة العبرية بديلاً عن مفردات باللغة العربية، واعتماد هذه المفردات في لغة التعامل اليومي، الأمر الذي يشكل خطرًا على اللغة العربية، ويؤدي -مع مرور الوقت- إلى إضعافها، وهذا ما يسعى إليه الاحتلال "بالرغم من الاعتراف العلني بالعربية لغة رسمية، إلا أن وضع اللغة العربية أصبح جزءًا لا يتجزأ من طبيعة الصراع على فلسطين، ويعود جذوره إلى بدايات المشروع الصهيوني المتمثل في اعتماد اللغة العبرية وإقحامها في قلب المعركة القومية ضد اللغة العربية، وقد انعكس ذلك في مجالين: أولهما تهميش اللغة العربية وتضييق الخناق عليها، وثانيهما طمس المعالم العربية وتهويدها"[١].

وهنا يجد العربي نفسه مضطرًّا إلى استخدام اللغة العبرية، ويستسلم للأمر، وما ينطبق على الإنسان العادي، ينطبق على المثقف أيضًا في داخل فلسطين ٤٨. "إحدى الصعوبات التي تواجه المثقف العربي في هذه البلاد، هو النقص في استخدام اللغة المهيمنة، إذ يلجأ الكثير من المتخصصين إلى استخدام اللفظ العبري؛ لأنهم لا يعرفون المصطلح المهني المرادف بالعربية"[٢] وهنا يتم

(١) مرعي، عبدالرحمن: العربية والعبرية بين الماضي والحاضر، ص١٧٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٩، ١٣٠.

استخدام اللفظ العبري بطريقة طوعية لاعتبارات مهنية، ولا يجد المثقف العربي بديلاً عن هذه المفردات.

والأمر نفسه يتكرر عندما تشكل المفردات العبرية جزءًا أساسيًّا من حياة الفلسطيني، وربما وردت الكلمات العبرية بشكل أساسي في الأمور التي تتعلق بالاحتلال، والاحتكاك اليومي المباشر مع جيش الاحتلال، ويمكن تصنيف هذه الكلمات، حسب الموضوعات الأساسية في حياة الفلسطيني، ونختار أمثلة من هذه المفردات على سبيل المثال، وليس الحصر:

**كلمات تتصل بأمور عسكرية يومية:**

**كلمة (محسوم) (מחסום) ومقابلها العربي: حاجز**

وهي من الكلمات التي تتكرر كثيرًا في الاستخدام اليومي، نظرًا لكثرة الحواجز الإسرائيلية، وحاجة الفلسطيني لاستخدام هذه الكلمة لغرض عبور الحواجز الإسرائيلية، ونظرًا لكثرة استخدام هذه الكلمة، فقد أصبحت اللفظة العربية مهملة وقليلة الاستعمال، وجمعها الفلسطينيون وفق مقاييس لغوية عربية فأصبحت (محاسيم) وليس (محسوميم) كما هو في اللغة العبرية، ووصل الأمر بكثير من الفلسطينيين إلى الاعتقاد أن الكلمة عربية، وليست عبرية.

**وهناك أمثلة كثيرة مشابهة، مثل:**

(سيجر) (סגר) ومقابلها العربي: مغلق.

(مركباه) (מרכבה) ومقابلها العربي: دبابة.

(مشمار جفول) (משמר הגבול) ومقابلها العربي: حرس حدود.

(شومير) (שומר) ومقابلها العربي: حارس.

(خيال) (חייל) ومقابلها العربي: جندي.

(شحرور) (שחרור) ومقابلها العربي: إفراج.

(مشترا) (משטרה) ومقابلها العربي: شرطة.

والسبب في استعمال هذه الكلمات هو ضرورة تعامل الفلسطيني مع جنود الاحتلال، والإجراءات العسكرية على أرض الواقع، والمشكلة لا تكمن في استخدام هذه المفردات مع جنود الاحتلال، ولكن الأخطر من ذلك هو استخدامها بين الفلسطينيين أنفسهم، فكلمة (محسوم) على سبيل المثال أصبحت بديلًا قويًّا عن كلمة حاجز التي أصبحت مهملة أو في حكم الملغاة.

**كلمات تتصل بأمور العمل:**

وهي تخص شريحة العمال الذين يعملون لدى الإسرائيليين، وهم يستعملون هذه المفردات في تعاملهم المباشر مع أصحاب العمل، والأخطر من ذلك، أنهم ينقلون هذه المفردات إلى المجتمع الفلسطيني، ويتبادلون الكلمات العبرية بديلًا طوعيًّا عن المفردات العربية، وأكثر هذه المفردات تداولاً واستعمالاً:

- (مناهيل) (מנהל) ومقابلها العربي: مسؤول العمل.
- (أرجاز) (ארגז) ومقابلها العربي: صندوق كبير.
- (عفداه) (עבודה) ومقابلها العربي: عمل.
- (ويضيفون للكلمة) (إين عفداه) أي: لا يوجد عمل.
- (وييش عفداه) أي: يوجد عمل.
- كلمة (كيسف) (כסף) ومقابلها العربي: فلوس.

ويستعملون معها أيضًا (إين كيسف) أي: لا يوجد فلوس.

و(ييش كيسف) أي: يوجد فلوس.

وأما كلمات العمل فهي كثيرة، وأكثر هذه الكلمات استخدامًا في مجال البناء والزراعة –وهما القطاعان الرئيسان اللذان يعتمد فيهما الإسرائيليون على العمال الفلسطينيين–:

- (شايش) (שיש) ومقابلها العربي: رخام.
- (بجوم) (פיגום) ومقابلها العربي: سلالم خشب.
- (تيكونيم) (תיקונים) ومقابلها العربي: تصليحات.
- (ديكت) (דקט) ومقابلها العربي: لوح خشب عريض.
- (ديبج) (דבק) ومقابلها العربي: صمغ.
- (خومر) (חומר) ومقابلها العربي: مواد خام.
- (كرستا) (חומרי גלם) ومقابلها العربي: (مواد خام بشكل عام).
- (منوف) (מנוף) ومقابلها العربي: رافعة.
- (أرجاز) (ארגז) ومقابلها العربي: صندوق كبير.

**وكلمات الزراعة، مثل:**

- حماموت (חממות) ومقابلها العربي: بيت بلاستيك أو دفيئة.
- تفتوف (תפתוף) ومقابلها العربي: الري بالتنقيط.
- ريشت (רשת) ومقابلها العربي: شبك سياج.

**مفردات الطعام والشراب:**

- شمينت (שמנת) ومقابلها العربي: لبن دسم.
- شيمن (שמן) ومقابلها العربي: زيت.
- تبوزينا (תפוזינה) ومقابلها العربي: نوع من أنواع العصير.
- عسيس (עסיס) ومقابلها العربي: عصير.
- مرجرين (מרגרינה) ومقابلها العربي: زبدة.
- بفلا (ופלים) ومقابلها العربي: (بسكوت محشو بالشكولاته).

وكلمات أخرى كثيرة، وهي في معظمها تخص أنواعًا من البضائع الإسرائيلية التي يضطر الفلسطينيون إلى شرائها، وهم لا يعرفون لها مقابلاً عربيًّا، وفي حال وجود بدائل فلسطينية أو عربية، فإنها تأتي متأخرة بعد أن تكون الكلمات العبرية قد فرضت نفسها في لغة الخطاب اليومي، يضاف إلى ذلك حاجة الفلسطينيين إلى شراء هذه البضائع من الإسرائيليين وطلبها بمسمياتها العبرية، وعند عرضها للبيع يضعون أسماءها العبرية ولكن بحروف عربية تسهيلاً على المشترين العرب قراءتها وطلبها.

**مفردات تستخدم في المواصلات والاتصالات:**

- مونيت (מונית) ومقابلها العربي: سيارة أجرة.
- تحناه (תחנה) ومقابلها العربي: محطة انتظار.
- رمزور (רמזור) ومقابلها العربي: إشارة ضوئية.
- مخشير (מכשיר) ومقابلها العربي: جهاز اتصال.
- أسكرا (השכרה) ومقابلها العربي: سيارة تأجير.
- أزعكا (אזעקה) ومقابلها العربي: جهاز إنذار.
- تؤوريا (תיאוריה) ومقابلها العربي: امتحان نظري للسياقة.

**وهناك كلمات أخرى تستخدم في أمور مختلفة:**

- نخون (נכון) ومقابلها العربي: صحيح.
- حداش (חדש) ومقابلها العربي: جديد.
- بجروت (בגרות) ومقابلها العربي: شهادة الثانوية العامة.
- كوبات حوليم (קופת חולים) ومقابلها العربي: صندوق المرضى.

وهناك العديد من المفردات العبرية الأخرى بحيث يصعب حصرها، وهي بلا شك تشكل خطرًا يواجه اللغة العربية في داخل فلسطين، وتعكس عدم قدرة

الفلسطينيين على مواجهة الاستعمار اللغوي الذي يفرض نفسه على اللغة العربية، ويمكن القول إن "الدخيل العبري كظاهرة لغوية تقتحم لغتنا العربية من أوسع الأبواب، وانتشاره آخذ بالازدياد شئنا ذلك أم أبينا، ويشكل أحد الأسباب الرئيسة في إضعاف المواطنين العرب بلغتهم"(١).

إذن، نحن أمام خطر حقيقي يتهدد اللغة العربية، وتبدو محاولة التخلص من هذا الخطر صعبة، بسبب الاحتلال، وعوامل الهيمنة الإسرائيلية على حياة الفلسطينيين، وارتباط الفلسطينيين بالاحتلال في مختلف أمور حياتهم، الأمر الذي يجعل مفردات اللغة العبرية ضرورة ملحة في بعض الأحيان، وقد يكون استخدامها أسهل وأبسط لكثرة سماعها وتكرارها، وقد تصل محاولة تقاسم لغة الحوار بين اللغتين العربية والعبرية إلى إيجاد لغة ثالثة محكية عند الفلسطينيين على حساب لغتهم العربية، وهذا ما حذر منه الدكتور عبدالرحمن مرعي عندما قال: "هذه الظاهرة آخذة بازدياد مطرد، وستنتج في نهاية المطاف لغة وسطى وهي خليط من الفصحى والعامية والعبرية يطلق عليها اسم (هيرو أرب) أو (عربريت)"(٢).

**الأثر الفكري والنفسي المصاحب للاستعمار اللغوي:**

يبدو أثر العبرية واضحًا في كثير من مجالات الحياة العربية، على مستوى الشارع العام، أو لدى المثقفين العرب، والعرب عندما يستخدمون العبرية، فإن الأمر يتجاوز مجرد كلمات إلى فكر وثقافة، فالكلمة العبرية تحمل ثقافة المحتل، وتعكس أيضًا الغرض المادي والمعنوي من وراء استخدام هذه الكلمات، فعلى

---

(١) مرعي، عبدالرحمن: العربية والعبرية بين الماضي والحاضر، ص١٥١.

(٢) عودة، خليل: الآثار السلبية للاحتلال الإسرائيلي على مستقبل اللغة العربية في فلسطين، مؤتمر استشراق المستقبل، منشورات جامعة فيلادلفيا، ٢٠٠٥، ص٣٥٦.

مستوى الفكر، يصبح للكلمة دلالة جديدة مرتبطة بالاحتلال؛ فمدينة (المجدل) الفلسطينية على سبيل المثال، أصبحت (أشكلون) بالعبرية، واستخدامُ الكلمة العبرية بديلاً لغويًّا عن الكلمة العربية يجعل لها دلالة جديدة ومفهومًا جديدًا، وهذا ينعكس بشكل واضح على طريقة التعامل مع المدينة باعتبار عنوانها الذي يحمل الطابع اليهودي، ويلغي في المقابل الطابع العربي، أو الدلالة الفلسطينية التي تربط بين الاسم والمسمى.

ومثل هذا ينطبق على كثير من الكلمات العبرية التي تحمل دلالات فكرية ونفسية جديدة، تهدف إلى إحلال دلالات جديدة في الفكر الفلسطيني تقابل الدلالات الأصلية التي تحملها الكلمات العربية.

ومثل هذا أيضًا في كلمات الطعام والشراب والعمل، فالفلسطيني يأكل طعامًا يهوديًّا، ويلبس ملابسهم، ويعمل بآلات وأدوات إسرائيلية، وكل هذا يعكس نمطًا جديدًا من التفكير والسلوك والأثر النفسي المصاحب لذلك.

والأمر قد يتجاوز السلوك الفردي أو نمط الحياة اليومي، إلى المثقف الفلسطيني الذي يجد نفسه بحاجة إلى استخدام مفردات عبرية، وبشكل خاص عند الأدباء الفلسطينيين عام ٤٨، ففي كثير من أعمالهم الأدبية وكتاباتهم اليومية، يستخدمون ألفاظًا عبرية، ويقتبسون مصطلحات مستعارة من العبرية. تؤشّر تلك الاقتباسات ومظاهر التداخل اللغوي العبري في النتاجات الأدبية للشعب الفلسطيني أبناء الـ٤٨ إلى تحولها إلى سمة من سمات ذلك الأدب عمومًا، فغدت العبرية تشكل رافدًا ثقافيًّا للشعب الفلسطيني الذي لم تفلح محاولات تهجيره، وبات يشكل أقلية في المشهد الثقافي العام، ويفرض اليهود أنفسهم في أبسط مكونات الحياة العامة من أبسط تكويناتها، لذلك نرى الرواية تعج بالمفردات العبرية أو الجمل المنفصلة أو المتلاحقة أو الواقعة في سياق

الحديث أو الحوارات، الأمر الذي يثير مشكلة تأثر العربية بالعبرية لدرجة قد توصف بأنها غزو جديد[١].

وقد يكون لاستخدام الكلمات العبرية أثر سلبي على المتلقي العربي الذي ينظر إلى هذه اللغة على أنها لغة العدو المحتل للأرض، ولكنه في المقابل يجد نفسه بحاجة إلى استخدامها، وقد ينعكس ذلك بشكل سلبي على الشخصية العربية التي تجد نفسها في حالة صراع على بقاء الهوية، والتمسك بالثقافة العربية، والانتماء للأرض والجذور والأصول، وربما يكون الخطر أقوى وأشد على الأجيال اللاحقة التي قد ترث هذه المفردات على أنها جزء من لغتهم الأم، "ويشكل هذا الكم الهائل من الدخيل الذي يغزو جميع طبقات المجتمع العربي، وإن كان بدرجات متفاوتة، خطرًا لغويًّا على العربية، ويفتح المجال لنشوء لغة مشوهة تمتزج فيها العبرية باللغة العربية العامية"[٢].

والعرب يدركون هذا الخطر، ويحاولون جاهدين التمسك بلغتهم التي تعني بالنسبة لهم الهوية والفكر والثقافة، بينما تنظر الحركة الصهيونية إلى العرب نظرة استخفاف، وترى في ثقافتهم ثقافة عالية ومرموقة، مقابل ثقافة العرب المهزومة.

وإذا كانت اللغة تحدد ثقافة الإنسان، فإن الحرص العربي يزداد على التمسك باللغة العربية التي تحدد ملامح الهوية الفلسطينية والثقافة العربية.

**محاولات للمواجهة:**

أمام هذا الوضع المطرد في توسع دائرة اللغة العبرية على حساب العربية، فإن الأمر يحتاج إلى مراجعة ومواجهة، وهذه المحاولات لا بد أن تبدأ أولاً من

---

(١) حسن، أحمد حسن: عربية الشعب الفلسطيني أبناء الـ٤٨ المحكية والمكتوبة، ص٣٦٤.

(٢) السابق نفسه، ص٣٦٧.

فلسطين، لأن خطر الاستعمار اللغوي يزداد في فلسطين، نتيجة الاحتلال وهيمنته المباشرة على مجريات الحياة فيها، ويمكن تقديم عدة اقتراحات لمواجهة هذا الخطر اللغوي:

**أولها:** تنشيط دور مجمع اللغة العربية الفلسطيني، وتحويله من مجرد مؤسسة اعتبارية، إلى مؤسسة فاعلة يشرف عليها متخصصون قادرون على مواجهة التحديات الحاصلة في فلسطين.

**ثانيها:** إعطاء موضوع الغزو اللغوي المرتبط بالاحتلال الأهمية القصوى لدى ذوي الاختصاص، لوضع خطط عملية للمواجهة، بحيث تشمل نشرات توعية وتوجيه.

**ثالثها:** ربط قضية اللغة بالموضوع الوطني، واعتبار اللغة الدخيلة جزءًا من الاحتلال وممارساته في تهويد الأرض، وإلغاء الهوية الفلسطينية.

**رابعها:** التركيز على النشء الجديد في المدارس والجامعات، وعدم قبول كلمات غير عربية في قاعات التدريس أو الحوار اليومي، واعتبار ذلك عملاً يمس الهوية الفلسطينية والثقافة العربية.

**خامسها:** توجيه وسائل الإعلام الفلسطينية والعربية، إلى ضرورة رفض استعمال الكلمات العبرية البديلة عن الكلمات العربية.

# العبث الفكري في النحو العربي:

## دراسة في نصوص مختارة

الأستاذ الدكتور سعيد جاسم الزبيدي

جامعة نزوى، سلطنة عُمان

الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م

## الملخص

تناولت هذه الورقة مهمة التنبيه على (شوائب) و(زوائد) و(ما دخل)، على منهج النحو العربي وكتبه فقامت خطتها على:

- مقدمة.
- وثلاثة مباحث:

الأول: أمثلة لم ترد على لسان عربي (التمارين غير العملية=الافتراضية) التي كانت مهمتها التدريب والرياضة عليها.

الثاني: ظاهرة التعدد: في معاني المفردات، والمصطلحات في النحو والصرف، والوجوه الإعرابية.

الثالث: كتب نحوية ملئت جدلاً، وتفريعاً، وحشواً، مما لا يمت إلى الدرس النحوي بشيء.

استخدم الباحث المنهج الوصفي في عرض هذا العبث، وأتبعه تحليلاً مناسباً، للتنبيه على أنّ بعضاً مما ورد ما زال يتردد في قاعات الدرس، وإثارة الغيارى لإبعاده، وتقديم درس لغوي يأخذ مما قدّمه الدارسون شرقاً وغرباً بما يخدم العربية، ويطوّر أدوات البحث فيها.

## مقدمة

لعلّ في مقولة ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ): "قصدي في هذا الكتاب أن أحذف ما يستغني النحوي عنه..."[١] –وأُضيف: المتعلم أيضاً –منطلقاً صالحاً، طفق الذين يهمهم أمر النحو، ولا سيما أصحاب التيسير، يعيدون النظر في مسائله إصلاحاً وتجديداً، واستبعاد ما لا علاقة له به، وليس بالمتعلم حاجة إليه، بل كان ذلك من تأثير: الفقه، وأصوله، وعلم الكلام، والجدل، والصور الذهنية[٢]، فشوهته.

وتناولت هذه الورقة مهمة التنبيه على (شوائب) و(زوائد) و(ما دخل) على منهجه، وكتبه[٣]، فقامت خطتها على:

- مقدمة.
- وثلاثة مباحث:

---

(١) ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ)، **الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف**، دار المعارف/ القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م، ص٧٦.

(٢) ينظر: –عباس حسن: اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧١م، ص١٠-١١.

-أنيس فريحة: نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني/ بيروت، ط٢، ١٩٨١م، ص١٥٨.

(٣) ينظر: –مهدي المخزومي: في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي/ بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ص١٥.

- عباس حسن: بعض الشوائب في النحو، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية/ القاهرة، الدورة الخامسة والثلاثون، سنة ١٩٦٨م/ ١٩٦٩م.

**الأول:** أمثلة لم ترد على لسان عربي (التمارين غير العملية = الافتراضية) التي كانت مهمتها التدريب والرياضة عليها.

**الثاني:** ظاهرة التعدد: في معاني المفردات، والمصطلحات في النحو والصرف، والوجوه الإعرابية.

**الثالث:** كتب نحوية ملئت جدلاً، وتفريعاً، وحشواً، مما لا يمت إلى الدرس النحوي بشيء.

إنّ الوقوف على هذا (العبث الفكري) الذي أثقل درس العربية التي ارتقت إلى أن تكون لغة الإعجاز بما فيها من صور، وأساليب، والتي حققت لعبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) (نظرية النظم)[١] جدير أن يتصدر اهتمام المشتغلين باللغة، لتقديم درس لغوي مبرأ مما علق به.

تخذت هذه الورقة المنهج الوصفي في عرض هذا العبث، وأتبعته تحليلاً مناسباً، للتنبيه على أنّ بعضاً مما ورد ما زال يتردد في قاعات الدرس، وإثارة الغيارى لإبعاده، وتقديم درس لغوي يأخذ مما قدّمه الدارسون شرقاً وغرباً بما يخدم عربيتنا، ويطوّر أدوات البحث فيها.

---

(١) ينظر: عبدالقاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/ القاهرة، جدة، ط٣، ١٩٩٢م، ص٤٦.

## المبحث الأول:

### أمثلة لم ترد على لسان عربي

### التمارين الافتراضية

من المسائل التي أثقلت الدرس اللغوي: صرفاً، ونحواً، والتي لا تقرّب فهماً، ولم تَدُرْ على لسانٍ عربيّ، ولم تفرضها حاجة، وقد ظهرت عند سيبويه (ت١٨٠هـ)، مما كان يسميه (التصريف)، فعقد لها باباً، فقال: "هذا ما بنت العرب من الأسماء، والصفات، والأفعال، غير المعتلّة، والمعتلّة، وما قيس من المعتلّ الذي لا يتكلمون به، ولم يجئ في كلامهم إلا نظيره من غير بابه"(١)، وعلقت أستاذتي الفاضلة د. خديجة الحديثي على هذا فقالت: "ويتضح من هذا النصّ، وما ذكره سيبويه أنّه يطلق التصريف على التمرين والرياضة"(٢).

ومن أمثلة سيبويه قوله:

"وسألت الخليل عن رجلٍ يسمى: مِنْ زيدٍ... قطّ زيدٍ... وزنَ سبعةٍ..."(٣).

وجاء في (الكتاب) أيضاً:

"وإذا سميت رجلاً: الذي رأيته، والذي رأيت، لم تغيّره عن حاله قبل أن يكون اسماً"(٤).

وفي التسمية أيضاً: "لو سمّيت رجلاً بمسلمين..."(٥).

"ولو سميت رجلاً بضَرْب..."(٦).

---

(١) سيبويه: الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل/ القاهرة، ط١، د.ت، ٢٤٢/٤.

(٢) خديجة الحديثي: أبنية الصرف في كتاب سيبويه، معجم ودراسة، مكتبة لبنان – ناشرون، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٠، ٢٥.

(٣) الكتاب، ٣٣٠/٣.

(٤) نفسه، ٣٣٣/٣.

(٥) نفسه، ٣٩٢/٣-٣٩٣.

(٦) نفسه، ٤٠١/٣.

ويختم سيبويه ذلك فيقول: "فجميع ما في هذا الباب لم يرد في الاستعمال"[١]. وغير هذا كثير.

وحاول ابن جنّي (ت٣٩٢هـ) تسويغ ما جرى هذا المجرى بقوله: "إنّما الغرض فيه التأنس به، وإعمال الفكرة فيه، لاقتناء النفس القوة على ما يرد مما فيه... وهذا مما لم يأتِ عن العرب مثله"[٢].

ورفض ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ) هذا النهج قائلاً: "قصدي في هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغني النحوي عنه"[٣].

فضلاً عن متعلم العربية، وضرب أمثلة على ذلك فقال:

"مما ينبغي أن يُسقط من النحو (ابنِ من كذا مثال كذا... وهذا في مسألة واحدة، فكيف إذا كَثُر من هذا الفن، وطال فيه النزاع، وامتدت إليه أطناب القول، مع قلّة جدواه، وعدم الافتقار إليه"[٤].

إنّ ميدان (التمرين والرياضة والافتراض) صار مظهراً من مظاهر التنافس بين القدماء، ووسيلة لإظهار القدرة اللغوية بينهم[٥]، وعدّ المعاصرون هذه الأمثلة وما وراءها شوائب في الدرس اللغوي ليس بالمتعلم حاجة إليها.

---

(١) الكتاب، ٤١٢/٣.

(٢) ابن جنّي: الخصائص، تحقيق محمد علي نجار، عالم الكتب/ بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، مجلد واحد، ص٦٢٩.

(٣) الرد على النحاة، ص٧٦.

(٤) نفسه، ص١٣٩-١٤٠.

(٥) ينظر: عادل نذير بيري، وحيدر عبد علي حميدي، أهداف الافتراض الصرفي، بحث منشور في مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد الحادي عشر – العدد الرابع/ إنساني، ٢٠١٣، ص٤٧.

**جاء في (المقتضب) للمبرد (ت٢٨٥هـ):**

"وتقول: رأيت الذي اللذان التي قامت إليهما عنده أخواك، فهذا كلام جيّد..."[١].

"ولو قلت: جاءني الذي التي اللتان اللذان الذي يحبهما عندهما في دارهما عنده جاريتُك، كان جيّداً... فكل ما زدت من هذا فهذا قياسه"[٢].

وجاء في (الأصول في النحو) لابن السراج (ت٣١٦هـ):

"الذي أبوه جاريته منطلقة أخوك... الذي الذي كان أبواه راغبين فيه جاريته منطلقة عمرو أخوك... ضرب اللذان القائمان إلى زيد أخواهما الذي المكرمه عبدالله..."[٣] وغير هذا كثير![٤].

أهذا كلام دار على لسان عربي؟!.

وعلّق د. أحمد عطية على هذا فقال:

"إنّ هذه التمارين العقلية لم تفد المتعلمين شيئاً، ولم تكسبهم السليقة اللغوية، وإنما أثقلت النحو العربي، وعقدت الكثير من جوانبه"[٥].

**تعليق:**

إنّ الغاية التي تقف وراء هذه (التمارين الافتراضية) على ما سوّغها ابن جنّي (ت٣٩٢هـ)، وتلقفها باحثان معاصران فقالا:

---

(١) المبرّد: المقتضب، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، عالم الكتب/ القاهرة، د.ط، ١٣٩٩هـ، ١٩٩/٣.

(٢) نفسه، ١٩٩/٣.

(٣) ابن السراج: الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ٣٣٣/٢-٣٣٥.

(٤) السيوطي: المطالع السعيدة في شرح الفريدة، تحقيق نبهان ياسين حسين، دار الرسالة/ بغداد، د.ط، ١٩٧٧م، ٢٦٥/٢-٢٦٧.

(٥) أحمد مطر العطية: ابن السراج ومذهبه في النحو- دراسة في كتاب الأصول، دار الصحوة/ القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ص٣١٢.

"إنّ هذه الافتراضات لم تكن اعتباطية من علماء اللغة على نحو عام، وعلماء الصرف على نحو خاصّ، بل جاءت لغاية قد كانوا على وعي بها... الدربة والمران... وسيلة للتنافس بين العلماء"[1]!.

ولا أتفق مع الباحثين على أنها وسيلة للتنافس بين العلماء.

(١) أهداف الافتراض الصرفي، ص٤٤.

## المبحث الثاني

### تعدد الوجوه

- **تعدد معاني المفردة الواحدة:**

وأعني حين تكون هذه المفردة في نصّ واحد، كقوله تعالى: (طوبى لهم وحسنُ مآب) (سورة الرعد/٢٩).

واختلف الناس في معنى (طوبى):

- خير لهم.
- الخير والبركة.
- اسم الجنّة بالحبشية.
- اسم الجنّة بالهندية.
- النعمى لهم.
- الحسنى لهم.
- كلمة عربية.
- شجرة في الجنة.

وساق محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) في تفسيره (طوبى) عشرة أقوال[١]:

**أولها:** طيب العيش.

**وثانيها:** فَرَح لهم.

---

(١) أبو الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، نشر ذوي القربى/ طهران، ط١، ١٤٣١هـ، ٦/٢٥٠-٢٥١.

**وثالثها:** الحسنى.

**ورابعها:** نعم لهم.

**وخامسها:** غبطة لهم.

**وسادسها:** كرامة لهم من الله.

**وسابعها:** الجنّة.

**وثامنها:** شجرة في الجنّة.

**وتاسعها:** مؤنث الأطيب في صفة الجنة.

**وعاشرها:** العيش الأطيب.

ونسب الأقوال –عدا الأول– إلى قائليها.

وأضاف الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) إلى ما تقدم فأجملها بقوله: "إشارة إلى كل شيء مستطاب في الجنّة"(١).

وهذا يغني عمّا ذُكِرَ آنفاً، وكل المعاني تدور عليه، فهل في تعدد الأقوال ما يخرج عن هذا؟!.

- **تعدد المصطلح النحوي في الباب الواحد:**

من إشكاليات الدرس النحوي تعدد المصطلح، وأشرت إلى هذا تفصيلاً في كتابي (من إشكاليات العربية: المصطلح النحوي –رواية اللغة)(٢)، وسأختار هنا أمثلة فقط:

---

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، دار المعرفة/ بيروت، ط٣، ٢٠٠١م، ص٣١٥.

(٢) سعيد جاسم الزبيدي: من إشكاليات العربية: المصطلح النحوي ورواية اللغة، دار كنوز المعرفة/ الأردن، ط١، ٢٠١٣م، ص٢٢ .

١- الممنوع من الصرف (أو الانصراف) = ما لا ينصرف = متمكن غير أمكن = الممنوع من التنوين = غير المجرى (ما لا يجرى) = ترك الإجراء = المنعي[١].

٢- حروف العلة = الحروف الهوائية = الحروف الجوف = حروف المدّ = حروف اللين = الحروف الصائتة = المصوتات[٢].

٣- حروف الجرّ = حروف الخفض = حروف الإضافة.

هذا فضلاً عن التعدد الناجم من اختلاف البصريين والكوفيين في استعمال مصطلحين في موضوع واحد[٣]. وقد دعا باحث إلى توحيد (المصطلح النحوي)، وهي دعوى غير واقعية، إذ جرت هذه المصطلحات في جميع كتب النحو، ولا إمكان -في عصرنا- بتوحيدها!!.

- **تعدد الوجوه الإعرابية:**

يشكل هذا ظاهرة لافتة في النحو العربي[٤]:

**١- ومن أمثلة ذلك:**

جاء في (دقائق التصريف) للمؤدب (ت٣٣٨هـ):

"وقد حمل بعض أهل العلم قول الله تعالى: (سلامٌ قولاً من ربّ رحيم) (سورة يس/٥٨) في السلام ثلاثة أوجه... ومنها ارتفاعه على المدح... وإن نصب... فهما وجهان: خامس وسادس... وإن نصب على الحال من الهاء أو

---

(١) سعيد جاسم الزبيدي: من إشكاليات العربية: المصطلح النحوي ورواية اللغة، دار كنوز المعرفة/ الأردن، ط١، ٢٠١٣م، ص٢٤.

(٢) نفسه، ص٢٧.

(٣) نفسه، ص٣١-٣٢.

(٤) ينظر: عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص٨٨.

من (ما)، فهما وجهان: سابع وثامن... وإن رفع السلام بـ(ما)... فهو جواب تاسع صحيح المعنى... فنصب السلام على القطع من الهاء أو من (ما)... فهما جوابان: عاشر وحادي عشر... وإن قيل: ولهم ما يدّعون سلاماً قولٌ... فهو ثاني عشر... وإن كان السلام مدحاً للهاء والقول نعت (ما) فهو ثالث عشر، وإن رفع القول بـ(ما) ونصب السلام على الحال من الهاء فهو رابع عشر، وإن رفعت (ما) بالسلام ونصب السلام على القطع... فهو جواب خامس عشر[١].!!

وجاء في (البيان في غريب القرآن لأبي البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ): في قوله تعالى: (مالك يوم الدين) (سورة الفاتحة/٤): "وفي (مالك يوم الدين) في العربية أحد وثلاثون وجهاً..." [٢]!!

فهل يمكن للمتعلم أن يدرك هذا؟!.

**٢-ومن أمثلة العبث الفكري إعراب معمول الصفة المشبهة:**

ذكر سيبويه (ت١٨٠هـ): "..أنّ معمول الصفة المشبهة يرد في ثلاث أحوال إعرابية: رفعاً ونصباً وجراً[٣]، وهكذا جرى البحث بعده حتى القرن السابع إذ بلغت الأحوال عند ابن مالك (ت٦٧٢هـ) اثني عشر وجهاً[٤]، وعند

---

(١) أبو القاسم بن محمد المؤدب: دقائق التصريف، تحقيق محمد حاتم الضامن، دار البشائر/ دمشق، ط١، ٢٠٠٤م، ص٤٤١-٤٤٢.

(٢) أبو البركات الأنباري: البيان في غريب القرآن، تحقيق طه عبدالحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة، د.ط، ١٩٨٠م، ص٤.

(٣) ينظر: سيبويه: الكتاب، ٢٠١/١.

(٤) ينظر: ابن عقيل: شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/ صيدا – بيروت، د.ط، ٢٠٠٤م، ١٤٣/١.

ابن عقيل (ت٧٦٩هـ) ستة وثلاثين وجهاً[١]، وعند الشيخ خالد الأزهري (ت٩٠٥هـ) أربعة عشر ألفاً وأربعمئة وجهاً[٢]، ويكررها الصبّان (ت١٢٠٦هـ) ورسم لها جدولاً مبيناً ما هو جائز، وما هو ممتنع[٣]، فإذا كان بعضها ممتنعاً فلماذا لا ينبه عليها، ويحذفها!!.

ومثل هذا العبث كثير، وقفنا على جملة منه في هذه الورقة، محذرين من تكرارها في قاعات درس العربية الذي ما زال يئن من

**٣-إعراب الأسماء الخمسة (الستة):**

نقل السيوطي (ت٩١١هـ) في (همع الهوامع)، فقال:

"في إعراب الأسماء الستة مذاهب: أحدها... الثاني... الثالث... الرابع... الخامس... السادس... السابع... الثامن... التاسع... العاشر... أحد عشر... الثاني عشر"[٤].!

وعلّق الأستاذ عباس حسن فقال:

"في مقدمة هذه المشكلات (تعدد الآراء النحوية في المسألة الواحدة واختلاف الأحكام فيها)، حتى ليستطيع الباحث أن يرى الرأي فيقول وهو آمن: إنّ هناك رأياً آخر يناقضه من غير أن يكلّف نفسه مشقة الاطلاع[٥].!! فتأمل!.

---

(١) ينظر: ابن عقيل: شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/ صيدا – بيروت، د.ط، ١٤٣/١.

(٢) خالد الأزهري: شرح التصريح والتوضيح، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ٥٦/١.

(٣) الصبّان: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية/صيدا – بيروت، ط١، ٢٠١٠م، ١٦٧/٢–١٦٨ .

(٤) السيوطي: همع الهوامع في شرح الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ١٢٥/١–١٢٨.

(٥) عباس حسن: اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص٧٢.

## المبحث الثالث

## كتب نحوية جدلية

من الكتب النحوية التي لفتت نظري، والتي قامت على منهج لا يمت إلى مناهج اللغة بل قامت على (المنطق)، و(الفقه) و(أصوله) بإقرار مؤلفها، وملأها جدلاً: ثلاثة لأبي البركات الأنباري (ت٥٧٧هـ):

- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين:

قال في مقدمته:

"وبعد، فإنّ جماعة من الفقهاء المتأدبين، والأدباء المتفقهين المشتغلين عليّ بعلم العربية... سألوني أن ألخص لهم كتاباً لطيفاً يشتمل على مشاهير المسائل الخلافية بين نحويي البصرة والكوفة على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة..."[1]. إلى هنا كلامه سليم لو أنّه اقتصره على الترتيب فقط، ولكنّ باحثين مرموقين وقفا على كتابه هذا، ودرساه وخرجا بنتائج، وهما:

- الباحث محمد خير الحلواني في دراسته (الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي/ حلب/ سوريا، ١٩٧١م، ص٣):

انطلق في تحديد هدف كتابه فقال: "لم يكن هدفي هنا أن أبحث الخلاف النحوي بين الكوفيين والبصريين بحثاً شاملاً جامعاً، وإنّما حددت الزاوية في

---

(١) أبو البركات الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/ صيدا – بيروت، د.ط، ٢٠١٢م، ٧/١.

كتاب الإنصاف لأبي البركات وفي دلالته على خصائص المذهبين، وتصويره لأوجه الخلاف بينهما".

وانتهى إلى ما يأتي:

"حقيقة الخلاف، وما في كتاب الإنصاف من زيف وتمويه... ثم بينت اضطراب مصادره الكوفية، وجهله أحياناً بآراء الكوفيين... ويتصرف بالنقل تصرفاً مخلاً، وربما أخطأ في النقل، أو نقل بلا تحقيق... ولا يعطي صورة صحيحة عن الخلاف... مسائل ليست من الخلاف في شيء... كتاب الإنصاف لا يصلح لدراسة المذهبين... لما فيه من تداخل نجم عن تدليس أبي البركات... أدلة الكوفيين... من عمل أبي البركات لا من عمل بصريين متأخرين كما رأى (فايل)، ولا من عمل

أوائل البغداديين كما يرى الدكتور شوقي ضيف"[1].

فهل بعد هذا نطمئن إليه مصدراً في دراسة الخلاف بين المذهبين؟!.

- أستاذي الفاضل صالح فاضل السامرائي (مدّ الله في عمره) في كتابه (أبو البركات بن الأنباري ودراساته النحوية –دار عمّار/ الأردن، ٢٠٠٧م، ص٥٨-٦٠):

استدرك على مسائله الإحدى والعشرين والمئة، اثنتين وعشرين مسألة.

وعرض مآخذ علمية (أحد عشر مأخذاً)، وذكر "استدلالات تقوم على المماحكات المنطقية والتمحلات المتكلفة" و"الاحتجاج غير الملزم" و"البعد عن التأويل"[2].

"كما كان يظهر عنده عدم التدقيق أحياناً في بحثه"[3].

---

(١) محمد خير الحلواني: الخلاف النحوي، ص٤٣٣-٤٣٤.

(٢) فاضل صالح السامرائي: أبو البركات الأنباري ودراساته النحوية، ص٧٦-٨٧.

(٣) نفسه، ص٢٦٨.

فهل بعد هذا من مزيد؟!.

- **الإغراب في جدل الإعراب:**

**قال أبو البركات:**

"وبعد فإنّ جماعة من الأصحاب اقتضوني تلخيص كتاب جدل الإعراب معرّى من الإسهاب... ليكون أول ما صُنّف لهذه الصناعة في قوانين الجدل والآداب ليسلكوا به عند المجادلة والمحاولة (وأظنها المحاورة) والمناظرة.."[1].

وموضوعاته: السؤال، ووصف السائل، ووصف المسؤول به، ووصف المسؤول منه، ووصف المسؤول عنه، والجواب، والاستدلال، والاعتراض على الاستدلال، وترتيب الأسئلة، وترجيح الأدلة.

فهل هذا من النحو في شيء؟!.

- أما كتابه (لمع الأدلة) فقد طُبع مع كتابه (الإغراب...) لأنهما على وفق منهج واحد، وقال فيه أستاذنا فاضل صالح السامرائي (مدّ الله في عمره):

"إنّ عمل الأنباري في أصول النحو إنما هو نقل أحكام أصول الفقه، وأحكام علم الحديث، والاستدلالات المنطقية إلى علم أصول النحو، ومحاولة تطبيقها على اللغة، فإنك إذا قرأت كتاب (اللمع) لا يخالجك شكّ في أنك تقرأ كتاباً في أصول الفقه، وفي مصطلح الحديث"[2].

ليس لدي تعليق، ولا إضافة إلى ما قاله الأستاذ السامرائي.

---

(١) أبو البركات الأنباري: الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو، تحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر/ دمشق، ط٢، ١٩٧١م، ص٣٥-٣٦.

(٢) فاضل صالح السامرائي: أبو البركات الأنباري ودراساته النحوية، ص١٥٤.

وجاء كتاب (الاقتراح في علم أصول النحو وجدله) لجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) تلخيصاً منظماً لهذين الكتابين في ضوء نظرة تذهب إلى "أن كلاً من النحو والفقه معقول من منقول"[١]. وقيل في أسلوبه "شيء من الجفاف لما يعروه .

من عبارات وأقيسة منطقية ومصطلحات علمية"[٢]؟ ولعل مبحثه (في أنواع العلل التي تضطرد على كلام العرب) ما يكفي تمثيلاً على أثر علوم أصول الفقه وجفاف كتابه. قال: "وهي واسعة الشُّعَب إلا أن مدار المشهورة منها على أربعة وعشرين نوعا"[٣]. فضلاً عن ذكر القوادح في العلة[٤]، والكلام على (الاستصحاب)[٥]، و(الاستحسان)[٦]. وليس هذا كله من مباحث اللغة.

وملحظنا الأخير على السيوطي في كتابه هذا أنه لم يشر إلى كتابي أبي البركات في مقدمته ولكنه نقل عنهما في أثناء كتابه[٧].

---

(١) السيوطي: الاقتراح ...، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الصفا/ القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٩م، ص٤.

(٢) نفسه، ص٥.

(٣) نفسه، ص١٠٦-١١٠.

(٤) ينظر: نفسه، ص١٣١.

(٥) نفسه، ص١٤٧.

(٦) نفسه، ص١٥٢.

(٧) نفسه، الصفحات: ٨٢، ٨٩، ٩٠، ٩١، وغيرها.

**الخاتمة**

ضاق كثير من الباحثين في شأن النحو العربي بما لا يمتّ إليه بصلة منذ انطلاق دعوة ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ)، ثمّ عطف المحدثون في تقصي ما أثقل النحو، فتناولت هذه الورقة في مباحثها الثلاثة:

- أمثلة لم ترد على لسان عربي:
- التمارين غير العملية التي بدأها سيبويه بما سمّاه (التصريف)، ووقفت على أمثلة وردت في كتابه، وأردفتها بما جرى عليه المبرد وابن السراج، اكتفاء بهما من ذكر غيرهما.
- ونبهت الورقة على ما حملته ظاهرة (تعدد الوجوه):
- فتعددت معاني (المفردة) في النصّ الواحد مما يربك المتلقي أيّ معنى يعتمد.
- وأشارت إلى إشكالية لم تزل قائمة من هذه الظاهرة: تعدد المصطلح في الباب الواحد، وما تجرّه من تشتت النظر في الموضوع النحوي الواحد.
- ولعلّ الأشيع في ظاهرة التعدد: تعدد الوجوه الإعرابية التي حفلت بها كتب النحو والأعاريب.
- ونظرت هذه الورقة في ثلاثة كتب لأبي البركات الأنباري:
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، وانتهت إلى أنه لا يصلح للوقوف على مسائل الخلاف بينهما.

- الإغراب في جدل الإعراب، فوجدته كتاباً حُشِي جدلاً عقيماً، وإيغالاً في توظيف المنطق وعلم الكلام والفقه، فلا ننصح أن يقف عليه متعلم العربية.
- لمع الأدلة، وهذا الكتاب مثقل جداً بما تفرّع فيه من العلل وقوادحها، ويعدّ نسخة أخرى من أي كتاب في علم أصول الفقه، ويقال فيه مثلما قيل في سابقه.

**وخلاصة القول:** دعوة إلى إعادة النظر في الدرس النحوي منهجاً وموضوعاً وتأليفاً، لتقديمه مبرأً من الشوائب إلى متعلميه ودارسيه.

والله الموفق للصواب

## قائمة المصادر والمراجع


١- **ابن السراج:** الأصول في النحو، تحقيق عبدالحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة/ بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

٢- **ابن جنّي:** الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب/ بيروت، ط١، ٢٠٠٦م، مجلد واحد.

٣- **ابن عقيل:** شرح ابن عقيل، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/ صيدا – بيروت، د.ط، ٢٠٠٤م.

٤- **ابن مضاء القرطبي (ت٥٩٢هـ)**، الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف/ القاهرة، ط٣، ١٩٨٨م.

٥- **أبو البركات الأنباري:** الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النحو، تحقيق سعيد الأفغاني، دار الفكر/ دمشق، ط٢، ١٩٧١م.

٦- **أبو البركات الأنباري:** الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية/ صيدا- بيروت، د.ط، ٢٠١٢م.

٧- **أبو البركات الأنباري:** البيان في غريب القرآن، تحقيق طه عبدالحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ القاهرة، د.ط، ١٩٨٠م.

٨- **أبو بكر الأنباري:** الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار الشؤون الثقافية/ بغداد، ط٢، ١٩٨٧م.

٩- **أبو الحسن الطوسي:** التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، نشر ذوي القربى/ طهران، ط١، ١٤٣١هـ.

١٠- **أبو القاسم بن محمد المؤدب:** دقائق التصريف، تحقيق حاتم الضامن، دار البشائر/ دمشق، ط١، ٢٠٠٤م.

١١- **أحمد مطر العطية:** ابن السراج ومذهبه في النحو - دراسة في كتاب الأصول، دار الصحوة/ القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

١٢- **أنيس فريحة:** نظريات في اللغة، دار الكتاب اللبناني/ بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

١٣- **خالد الأزهري:** شرح التصريح والتوضيح، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.

١٤- **خديجة الحديثي:** أبنية الصرف في كتاب سيبويه، معجم ودراسة، مكتبة لبنان - ناشرون، ط١، ٢٠٠٣م.

١٥- **الراغب الأصفهاني:** المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد خليل عيتاني، دار المعرفة/ بيروت، ط٣، ٢٠٠١م.

١٦- **سعيد جاسم الزبيدي:** من إشكاليات العربية: المصطلح النحوي ورواية اللغة، دار كنوز المعرفة/ الأردن، ط١، ٢٠١٣م.

١٧- **سيبويه:** الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل/ القاهرة، ط١، د.ت.

١٨- **السيوطي:** الاقتراح ...، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الصفا/ القاهرة، طبعة جديدة، ١٩٩٩م.

١٩- **السيوطي:** المطالع السعيدة في شرح الفريدة، تحقيق نبهان ياسين حسين، دار الرسالة/ بغداد، د.ط، ١٩٧٧م.

٢٠- **السيوطي:** همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية/ بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٢١- **الصبّان:** حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، المكتبة العصرية/ صيدا - بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٢٢- **عادل نذير بيري ،وحيدرعبد علي حميدي،** أهداف الافتراض الصرفي، بحث منشور في مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد الحادي عشر - العدد الرابع/ إنساني، ٢٠١٣م.

٢٣- **عباس حسن:** اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧١م.

٢٤- **عباس حسن:** بعض الشوائب في النحو، بحث منشور في مجلة مجمع اللغة العربية/ القاهرة، الدورة الخامسة والثلاثون، سنة ١٩٦٨م/١٩٦٩م.

٢٥- **عبدالقاهر الجرجاني،** دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني/ القاهرة - جدة، ط٣، ١٩٩٢م.

٢٦- **فاضل صالح فاضل السامرائي:** أبو البركات بن الأنباري ودراساته النحوية - دار عمّار/ الأردن، ٢٠٠٧م.

٢٧- **المبرّد:** المقتضب، تحقيق محمد عبدالخالق عضيمة، عالم الكتب/ القاهرة، د.ط، ١٣٩٩هـ.

٢٨- **محمد خير الحلواني:** الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي/ حلب/ سوريا، ١٩٧١م.

٢٩- **مهدي المخزومي:** في النحو العربي نقد وتوجيه، دار الرائد العربي/ بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

# علوم الخط العربي:

# جدلية اللغة والفكر والفن

الأستاذ الدكتور إدهام محمد حنش

جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن

الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م

**الملخص**

ينتمي الخط العربي من الناحية المعرفية إلى بنية اللغة العربية التي تتألف من ثلاثة عناصر هي المعنى واللفظ والكتابة، ذلك لأن الخط هو صورة الكتابة، بل هو صورة اللغة بمقوماتها الثلاثة: الكتابة واللفظ والمعنى. ومن هنا؛ تتعالق فلسفة اللغة بفلسفة الوجود عبْرَ تصورات الفكر العربي الإسلامي لوجود الأشياء في أربع مراتب هي: الأعيان، والأذهان، والعبارة، والكتابة الخطية بوصفها مستوى من مستويات الوجود والتعبير والتواصل.

وتنعكس هذه العلاقة الجدلية بين اللغة والفكر على فلسفة الخط الجمالية التي تبدو الصورة الخطية فيها أقرب ما تكون إلى الفن منها إلى اللغة، ليكون الخط العربي أخيراً معرفة فنية مركبة من مجموعة من العلوم النظرية والتطبيقية التي يمكن وصفها بالعلوم الخطية.

**الكلمات المفتاحية**

**اللغة العربية. الخط العربي. صورة الكتابة. الفكر العربي. العلوم الخطية.**

## *as an essential topic Arab Calligraphy of Language, Thought and Art*

Arabic composed of three basic elements. They are Meaning, Pronunciation and Writing. Philosophers of language defined the Script as a picture of Writing, then it is the picture of the language as a whole. This special or symbolic picture can be an epistemological medium between Language and Anthology throughout the point of view about the being which look likes in four ranks; Metaphysical Objects, Minds, Words, and Scriptural Writing as a level of existence, expression and communication.

This essential relationship between the language and thought is reflected on Aesthetics of the script as it is a picture involved to the art more than the language. Finally, calligraphy is an artistic knowledge composed and complicated from a lot of the theoretical and applied sciences which can be described as Scriptural Sciences.

***Key Words***

Arabic. Arabic Script. Picture of writing. Arab Thought. Scriptural Sciences.

**المقدمة:**

يمكن تصنيف الأفكار والآراء والنظريات المتعلقة بأصل الخط العربي ونشأته الأولى في اتجاهين رئيسين مختلفين من حيث الرؤية والمنهج والنتيجة، وهما:

**الاتجاه الأول: تاريخي الرؤية والمنهج**؛ عمل ويعمل على تفسير هذا الموضوع في إطار الثقافة العربية والإسلامية ووسائلها المعرفية القائمة في هذا المجال مثلاً على أساس منهجي من التفسير القرآني، والمرويات الإخبارية، والتتبع الباليوغرافي لبعض أشكال هذا الخط في الجغرافية التاريخية الخاصة بشبه جزيرة العرب وما حولها –جنوباً وشمالاً– من البيئات الحضارية العربية.

وقد قدمت هذه الثقافة التاريخية نتائج نظرية يمكن اعتبارها أقرب إلى الحقيقة الثقافية لأصل الخط العربي ونشأته الأولى؛ وأكثر صواباً في التفسير التاريخي له من حيث كونه أصلاً عربياً مولوداً في البيئة الكتابية العربية؛ حيث تؤكد أن الخط العربي هو –في الحقيقة– اختراع ثقافي عربي قديم من غير مثال سابق، فيروي الإخباريون قصصاً عدة لاختراع الخط العربي، لعل أبرزها: أن ثلاثة نفر من قبيلة بولان الطائية اجتمعوا على وضع الحروف العربية: صورها، والفصل والوصل بينها، وإعجامها[1].

وتكاد هذه الرواية تكون محور إجماع على مضمونها العام عند أغلب المصادر اللغوية والتاريخية العربية والإسلامية العامة والمتخصصة التي غلَّبَت نظرياتها الخاصة أن العرب –في ما قبل الإسلام، وبواكيره الأولى أيضاً–

---

(١) **الكتاب وصفة الدواة وتصريفها**، عبدالله الضرير البغدادي، تحقيق: هلال ناجي، بغداد: **المورد** (مجلة)، مج٢، ع٢، ١٩٧٣، ص٤٣.

تداولوا العديد من الكتابات والخطوط التي كان من أبرزها: الخط المسند[١]، والخط الحضري[٢]، وغيرهما من الكتابات والخطوط التي كانت هي أصل الخط العربي ومصدره الأول والأساس، إذ كان عرب ما قبل الإسلام قد استخدموا **خطاً كتابياً خاصاً ومتميزاً** عن غيره من كتابات المنطقة وخطوطها -إلى حد ما- أطلقوا عليه اسم: **خط الجزم**[٣].

أما **الاتجاه الثاني:** فيمكن وصفه بأنه **غربي استشراقي الرؤية؛آثاري المنهج ،** يذهب أصحابه إلى أن الخط العربي هو خط مشتق أو مطور من خطوط كتابية أقدم كانت منتشرة في المستوطنات الحضارية لشبه الجزيرة العربية وما حولها، أو يتصل بها على مستوى الجغرافية الطبيعية والحضارية.

وكان هذا الاتجاه قد عمل -ولا يزال يعمل- على تكريس **النظرية الباليوغرافية** التي تقول بأن **الخط النبطي** هو أصل الخط العربي؛ أو على الأقل: إن الخط العربي الذي كان سائداً في شمال الجزيرة العربية قبيل الإسلام وبعيده هو خط متطور من الخط النبطي المتأخر[٤]. وقد أصبحت هذه النظرية أكثر

---

(١) **قراءة جديدة في أصل الكتابة العربية: المسند والكتابة العربية المبكرة**، يوسف ذنون، بغداد: آفاق عربية (مجلة ثقافية شهرية)، ع١١، السنة ١٩٩٨/١٢، ص٣٨.

(٢) **الكتابة الحضرية وأثرها في نشأة الكتابة العربية**، يوسف ذنون، بغداد: المؤتمر الدولي للألفية الخامسة لاختراع الكتابة في بلاد الرافدين، ٢٠٠١، ص٣٣.

(٣) **أنواع الخط العربي؛ المفهوم التاريخي والمصطلح الفني**، إدهام محمد حنش، المخطوطات (المحكمة: مجلة معهد المخطوطات العربية)، القاهرة، المجلد٥٩، الجزء١، رجب ١٤٣٦هـ/ مايو ٢٠١٥م، ص٢٣٦.

(٤) ينظر: **تاريخ الخطوط والكتابة العربية من الأنباط إلى بدايات الإسلام**، تأليف: بياترس جرندلر، ترجمة: سلطان المعاني وفردوس العجلوني، الأردن: بيت الأنباط، ٢٠٠٤.

النظريات المتعلقة بأصل الخط العربي الأول شيوعاً في الدراسات التاريخية المعاصرة المتعلقة بفن الخط العربي.

ومهما يكن من الصواب العلمي لهذين الاتجاهين اللذين تبدو العلاقة المعرفية بينهما شبه متقاطعة أو صعبة التوفيق الفني والتاريخي التام بينهما.. فإن الحقيقة العلمية الأكيدة لنشأة الخط العربي وتطوره الفني الواضح تتمثل في أن القرآن الكريم كان -وما يزال- هو المصدر الأول والفضاء الأرحب لكل التحولات الفلسفية والفنية والوظيفية لهذا الخط في الماضي والحاضر والمستقبل؛ فقد أسبغ القرآن الكريم على هذا الخط قدسيته اللغوية وبركته الجمالية التي جعلت منه الوسيلة الكتابية والقرائية الأولى لأغلب لغات الشعوب الإسلامية[1].

لقد صار الخط العربي وسيلة التواصل المعرفية والثقافية والاجتماعية والإدارية الأولى في التنظيمات الحضارية والعمرانية للدولة والمجتمع الإسلاميين بعامة؛ فهو الوسيط اللغوي الأول والوحيد لكتابة القرآن الكريم، وهو كذلك لتأليف الكتب العربية والإسلامية من حيث صناعة مخطوطاتها التي تعد اليوم أكبر موروث مخطوطاتي في تاريخ الحضارة الإنسانية[2]، ومن حيث طباعتها الفنية ونشرها المتميز في أغلب مكتبات العالم ومتاحفه التي أصبحت تفخر باقتنائها كنوز الخط العربي الثقافية والفنية.

ولكن؛ على الرغم من ذلك المنجز الخطي الكبير الذي تحقق بأنامل الكثير من الخطاطين الذين كان لهم مكانة واضحة ومتميزة ومرموقة في سلم الطبقات المهنية والاجتماعية والاعتبارية عبر التاريخ الطويل للحضارة الإسلامية، تبدو طبيعة الخط العربي ومقوماته اللغوية والفكرية والعلمية والحضارية والوظيفية

---

(١) **انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي**، عبدالفتاح عبادة، مصر: مطبعة هندية، ١٩١٥، ص١٤.

(٢) **أقدم المخطوطات العربية في مكتبات العالم**، كوركيس عواد، بغداد: دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢، ص٥.

شبه مسكوت عنها في البحث العلمي الإسلامي القديم والمعاصر، إذ تبدو المعرفة الخطية شبه مستغلقة في الفهم والعلم والإبداع، وتبدو الصناعة الخطية شبه محدودة في النقد والتنظير والتجديد.

لذلك؛ ومن أجل الكشف العلمي **عن طبيعة الخط العربي المعرفية وفلسفته الفنية القائمة على التواصل والتكامل في ما بين اللغة العربية والفكر الإسلامي** بوصفهما القاعدة الذهبية لصيرورة هذا الخط كائناً لغوياً حياً، وجنساً إبداعياً متميزاً، وأثراً جمالياً أصيلاً في الإبداع الفني الإسلامي.. تسعى هذه المقاربة البحثية المتواضعة إلى دراسة الإمكانات اللغوية والفكرية والإبداعية المؤسسة لأصول الخط العربي المعرفية، وإلى تحليل العلاقات العضوية البينية لقواعد الصناعة الخطية ونتاجاتها الفنية.

**الخط كائن لغوي:**

تقوم بنية اللغة العربية –بوصفها لغة منطوقة مكتوبة[1]– على مقومات ثلاثة هي: **المعنى ، واللفظ ، والكتابة.**

وبذلك؛ يبدو كيان هذه اللغة أشبه ما يكون بهرم ثلاثي الأبعاد؛ يتربع **المعنى** على رأسه العلوي، ويستقر كل من **اللفظ والكتابة** في طرفي قاعدة ارتكازه السفلية على النحو الآتي:

الهرم اللغوي

(١) **علم اللغة العربية**، محمود فهمي حجازي، القاهرة: دار غريب، د.ت، ص١٥١.

ولكن إنعام النظر الفكري في **العلاقات الوجودية والوظيفية** بين رؤوس هذا المثلث قد توحي بأن تراتبية كلٍّ من المعنى واللفظ والكتابة تبدو أيضاً تراتبية دائرية متكاملة في نسق معرفي متوازن الأهمية والمكانة والدور لكل تلك المقومات بوصفها جميعاً **منظومة لغوية كلية واحدة** تقوم على الاعتبارين الآتيين:

١. **المعنى** جوهر اللغة وروحها المقاصدي.

٢. **اللفظ والكتابة** هما مظهر اللغة وجسدها المادي.

بعبارة توضيحية أخرى؛ إن فلسفة اللغة العربية تقوم (من حيث وجودها الثقافي بين اللغات) على **قوتها اللفظية-الكتابية**، وتقوم (من حيث دورها الوظيفي في الإنتاج الفكري والتعبير الثقافي والتواصل الحضاري) على **فعلها التصويري المؤثر في السمع والبصر**[١]، فاللفظ والكتابة قسيما اللغة الأساسيان في تصوير المعنى[٢] وفي التعبير التام عنه، إذ إن المعاني عامة الوجود والصلة بكل اللغات الإنسانية[٣] المحكية والمكتوبة على حد سواء، وما يميز هذه اللغات بعضها عن بعض هو كل من **اللفظ والخط** اللذين غالباً ما يُعَدُّ كل واحد منهما قسيم الآخر

---

(١) يقول ابن ساعد السنجاري (شمس الدين محمد بن إبراهيم، ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م: **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، تحقيق: طاهر بن صالح الجزائري، بيروت، ١٣٢٢هـ، ص٣٩): "اعلم أن بهذين العلمين: (**الكتابة والقراءة**) **ظهرت خاصة النوع الإنساني من القول إلى الفعل**، وامتاز عن سائر أنواع الحيوانات، وضبطت الأمور، وترتبت الأحوال، وحفظت العلوم في الأدوار، واستمرت على الأكوار، وانتقلت الأخبار من زمان إلى زمان، وحملت سراً من مكان إلى مكان؛ ولهذه الفضائل حافظت الغريزة الإنسانية على قبول هذين العلمين".

(٢) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القلقشندي (أحمد بن علي، ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥، ج٣، ص٣١.

(٣) يقول الجاحظ (عمرو بن بحر، ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م: **الحيوان**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٩٦٥، ج٢، ص١٣١): "المعاني مطروحة في الطريق؛ يعرفها العجمي والعربي، والحضري والبدوي، والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج".

ولصيقه الحميم في البنية اللغوية (العميقة والسطحية) لكل النصوص والخطابات والمؤلفات والنصوص والمدونات وغير ذلك من الأفعال والنتاجات الإنسانية في مجالات التعبير والتواصل والحوار الحضاري مع الآخر.

وتبدو **الألفاظ اللغوية** (من حيث تصورها الفلسفي) نتاجاً صوتياً فطرياً رابطاً في ما بين النطق والسمع في الخلقة والوجود والطبيعة الإنسانية، فالكلام ضرورة وحاجة وميزة نوعية خلق الله الإنسان عليها، وجعلها خصيصة إنسانية خالصة؛ أودعها فيه مثلما أودع فيه ضروراته الفطرية وحاجاته الحيوية الأخرى التي خلقه الله تعالى عليها كالأكل والشرب والنوم والحركة وغير ذلك من الضرورات الإدراكية والحاجات الحسية التي غالباً ما تجعل الألفاظ اللغوية (من حيث الطبيعة) تبدو وكأنها وسيط معرفي بين كلٍّ من المعاني (الإدراكية في طبيعتها الغالبة) والكتابات (الحسية في طبيعتها الغالبة).

ومن هنا؛ تبدو طبيعة **الكتابة** وحقيقتها اللغوية أكثر (من المعنى واللفظ) صلة فلسفية بالمعرفة الإنسانية؛ **فالكتابة هي اختراع معرفي إنساني** في سياق التطور الاجتماعي؛ يقوم على **الإنشاء والخط**[1] عنصري اللغة الإنسانية الأرقيينِ في المعرفة والإبداع والتواصل والحوار الحضاري:

**فالإنشاء الأدبي** الذي يقوم على علوم اللفظ وفنونه البلاغية، **والتشكيل الفني** الذي يقوم على علوم الخط وفنونه التصويرية؛ هما فضاء النبوغ الإنساني الأول والإبداع الاجتماعي المتقدم في التعبير عن النفس والهوية والحقيقة بوصفها جميعاً **جوهر الكتابة ومظهرها** الثقافي الذي غالباً ما يختصر اللغة ويختزلها كلها عبر تنزّلات كلٍّ من الإنشاء: (المعنى واللفظ) والخط داخلَ دائرة الكمال (أو: التكامل) الكتابية:

---

(١) **جواهر الأدب**، أحمد الهاشمي، ط٢١، مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦٤، ج٢، ص٢١.

وقد يوحي هذا التمثيل الكتابي الإبداعي المطلق لجوهر اللغة بتصور فكري أكثر عمقاً فلسفياً، وأبعد مدى دلالياً لمفهوم الكتابة وتعريفها على أساس كونها أشبه ما تكون بكائن حي له: صوت (: موسيقى: زمن) وله صورة (: هندسة: حيِّز)، إذ كان أهل اللغة يطلقون على **صوت الكتابة اسم: النميم**[1]، وكانوا يطلقون على **صورة الكتابة** وأثرها العياني المرسوم بالقلم اسم: **الخط**[2]:

ومن هنا؛ تبدو العلاقة بين الكتابة والخط وكأنها تتجاوز المستوى الدلالي الظاهر بالترادف اللغوي (المعجمي) بينهما في المعنى، إلى مستوى ثقافي (دلالي) أكثر عمقاً فكرياً، وأوثق رسوخاً فلسفياً من العلاقة اللغوية المجردة،

---

(١) **الرافد (معجم لغوي)**، الأمير أمين آل ناصر الدين، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٧١، ج١، ص٤٩.

(٢) **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١، ص١٨.

وهذا المستوى الثقافي للعلاقة بين الكتابة والخط هو أشبه ما يكون بالعلاقة العضوية الحميمة بين الأصل والفرع، أو الجوهر والمظهر، أو العلم والعمل اللذين كثيراً ما يجعلان مفهوم الخط يقترن اقتراناً قوياً وشديداً بمفهوم الكتابة في المعنى وفي الاستخدام وفي التداول، حتى إن هذين المفهومين يبدوان وكأنهما مفهوم واحد، لما بينهما -أصلاً وحقيقة- من علاقة لغوية في سياق ترادف المعنى، ومن علاقة ثقافية (فكرية) في سياق الدلالة المتبادلة بين الاثنين على أساس أن كل واحد من المفهومين هو معنى من معاني المفهوم الآخر.

ولكن التعرف الحقيقي على ما يسميه البعض[1]: **نفس الخط** قد يتطلب فك التشابك المعنوي والتداخل الدلالي بين مفهومي الكتابة والخط، فإنعام النظر النقدي (التفكري) في الأحوال اللغوية والأدبية والثقافية لكل من هذين المفهومين يكشف عن وجود بعض التباين الحقيقي والدقيق بين الاثنين على أساس عمومية المفهوم وخصوصيته:

**فالكتابة:** مفهوم عام دال على صناعة خاصة تقوم على النبوغ والإبداع والتميز في كلٍّ من الإنشاء والخط معاً في نسق وظيفي مشترك يدخل بشكل جوهري في النظام الحضاري الناشئ -منذ وقت مبكر- لكيان الدولة العربية الإسلامية؛ وبخاصة في ما يتعلق بتنظيمها السياسي والإداري؛ حيث نشأ نظام الكتابة الحضاري هذا مع النشأة الأولى للدواوين في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (خلافته: ١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م، رضي الله عنه)، وترسخ هذا النظام بشكل تام ونهائي مع **الثورة الخطية اللغوية الثقافية** التي أطلقها الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان (خلافته: ٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م، رضي الله عنه) سنة ٦٦هـ/٦٨٦م **لتعريب** تلك الدواوين.

---

(١) **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، ص٣٩.

ويقوم نظام الكتابة هذا -من الناحية المعرفية- على ما كان يعرف **بـأدب الكتابة**[1] الذي غالباً ما كان يطلق على المبادئ والتقاليد والرسوم المتعلقة بالأعمال الكتابية الرسمية الجارية في دواوين الدولة الإسلامية ومؤسساتها السياسية والإدارية والمالية والقضائية وغيرها. ويقوم هذا الأدب الكتابي على أربعة عناصر أساسية هي[2]:

**أولاً: رتب المكاتبات:** بحسب المناصب الرسمية للدولة كالكتابة للخلفاء والوزراء والسلاطين والملوك والأمراء وأشباههم.

**ثانياً: أنواع الكتابات:** وتصنيفها بحسب اختصاصها المعرفي إلى: كتابة خط، وكتابة حكم، وكتابة عقد، وكتابة تعليم.

**ثالثاً: أصناف الكتاب:** بحسب وظائفهم التي هي: **كاتب خط**، وكاتب لفظ، وكاتب عقد، وكاتب حكم، وكاتب تدبير.

**رابعاً: أجناس الخط وأنواعه:** المصنَّفة بحسب هيئاتها وأشكالها، وأزمانها وأماكنها، ووظائفها وأعلامها المخترعين لها.

أما **الخط فهو مفهوم معرفي خاص يدل على آثار الكتابة ورسومها العيانية**؛ حيث يلتحم هذان المفهومان (العام والخاص) في تعريف واحد **للكتابة الخطية** من حيث هي: عملية الرسم الخاصة بتعيين آثار هذه الألفاظ والمعاني تعييناً مكانياً منظوراً، أي: عملية **إنتاج الخط** كياناً مادياً وجسداً مصوراً وأثراً مرسوماً ومنظوراً متعيناً في الفضاء المعرفي لعلوم اللغة والتواصل والخطاب.

---

(١) **أدب الكتاب**، أبو بكر محمد بن يحيى الصولي، تحقيق: محمد بهجة الأثري، بغداد: المكتبة العربية، (ط مصورة، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٤١هـ).

(٢) **الخط العربي وإشكالية المصطلح الفني**، إدهام محمد حنش، حلب (سوريا): دار النهج، ٢٠٠٧، ص٥١.

**الخط كائن معرفي:**

وعند الانتقال من هذا الوجه اللغوي (انتماءً وطبيعةً ووظيفة) إلى الوجه الآخر من **المعادلة الخطية؛ وهو طبيعة الخط الفكرية وخصائصه المعرفية ، يمكن أن نتبين** كثيراً مما يتفق عليه علماء اللغة وفقهاء الكتابة من النظرة المعرفية العامة إلى الخط على أنه "**علم تتعرّف منه صور الحروف المفردة ،وأوضاعها ، وكيفية تركيبها خطاً أو ما يكتب منها في السطور**، وبه ظهرت خاصّة النوع الإنساني من القوة إلى الفعل، وامتاز عن سائر أنواع الحيوان. وبه ضبطت الأموال وترتبت الأحوال، وحفظت العلوم، وانتقلت الأخبار من زمان إلى زمان، وحملت سراً من مكان إلى مكان"[(١)]، فعلى سبيل المثال لا الحصر:

- عد الفارابي (ت٣٣٩هـ/٩٥٠م) الخط فرعاً من "علوم اللسان"[(٢)] أي: علوم اللغة.
- وجعله الخوارزمي (ت+٢٣٢هـ/٨٤٧م) متطلباً من متطلبات "علوم العربية"[(٣)] الواجبة ركناً مطلوباً من أركان "صناعة الكتابة" وهي الوظيفة الإدارية الكتابية في دواوين الدولة.
- ويرى إخوان الصفا (ق٣هـ/٨م) أن الخط هو علم من "علوم الآداب التي وضع أكثرها لطالبي المعاش"[(٤)] كالوراقين وغيرهم.
- وكان ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) أكثر من توسع في بيان هذه الطبيعة المعاشية المرتبطة بالواقع الحضاري بعامة؛ والتعليمي بخاصة؛ لصنعة الخط. وشدد في بيانه على خضوع الخط لتجربة التعلم والتعليم الاجتماعية

---

(١) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ٣: ٤٣.

(٢) **إحصاء العلوم**، الفارابي، تحقيق: علي بو ملحم، بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٦، ص٦٤.

(٣) **مفاتيح العلوم**، محمد بن أحمد الخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٢، القاهرة: دار الكتاب العربي، د.ت، ص٣٦.

(٤) **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، إخوان الصفا، بيروت: دار صادر. دار بيروت، ١٩٥٧، ١: ٢١٦.

المتعلقة –أصلاً– بالتفاوت الفردي في الملكة والإنتاج الكتابي المتباين بحسب التحصيل والقدرات الإنسانية. ولذلك كله: صنف ابن خلدون الكتابة والخط في "عداد الصنائع الإنسانية"(١).

وربما توحي هذه الرؤى المعرفية المتعددة والمتباينة (بعض الشيء) لنا بأن التعريف الأولى والأوفى للخط يقوم على مفهومه المعرفي المركب من كل أنواع المعرفة الإنسانية ومظاهرها المتمثلة في كلٍ من:

- العلم باعتبار أن الخط هو معرفة لغوية بالدرجة الأولى.
- الصناعة باعتبار أن الخط هو صنعة أو تقنية يدوية.
- الفن باعتبار أن الخط هو صورة تشكيلية تنتمي انتماءً خاصاً ومباشراً إلى علم الجمال وفلسفة الفن الإسلامي التي تتعامل مع كل من العلم والصناعة والفن بمنظور معرفي وسلوك منهجي واحد غالباً ما يؤدي إلى حقيقة أن لا فرق بين علم الخط وصنعة الخط وفن الخط.

وغالباً ما تتعلق هذه المقولات المعرفية الثلاثة بجمالية الخط (Calligraphy) ولا تتعلق بأي معنى أو دلالة أو مفهوم آخر قد لا يتصل اتصالاً وظيفياً مباشراً بالتعريف الفلسفي الأكثر دقة وصحة لحقيقة الخط المتمثلة في كونه **معرفة لغوية وجمالية مركبة من العلم والصناعة والفن**(٢):

(١) **المقدمة**، ابن خلدون، تحقيق: عبدالسلام الشدادي، الدار البيضاء: بيت العلوم والآداب والفنون، ٢٠٠٥، ص٣١٢.

(٢) **الخط العربي وإشكالية المصطلح الفني**، ص٤٤.

**"المصطلح الخطي"[1] أصل المعرفة الخطية:**

وربما أوحت طبيعة الخط المعرفية المركبة هذه إلى كثير من المفكرين أن يعتبروا فن الخط أيقونة الثقافة العربية والإسلامية، وجوهرة من جواهرها النفيسة التي تقوم بها وعليها وحولها العديد من النصوص والآثار والحكم، والعديد من الفوائد والمعارف والعلوم اللغوية والدينية والفلسفية والتاريخية والوظيفية المتقدمة في نظرية المعرفة العربية الإسلامية حول تصنيف العلوم وترتيبها.

ولا تكتفي هذه النظرية بالإشادة الفائقة بأهمية الخط وفضائله حسب، بل كثيراً ما تذهب هذه النظرية إلى أن هناك العديد من الأسس المعرفية التي يقوم عليها الخط العربي قياماً علمياً محكماً في بنيته، ومميزاً في موضوعه؛ وواضحاً في حدوده، ومستقلاً في خصوصيته المعرفية التي جعلت منه بؤرة دلالية لعدد من العلوم النظرية والتطبيقية القابلة للتصنيف على وجه الاستقلال أو على شاكلة التفرع المعرفي لعلم الخط إلى علوم فرعية أخرى عديدة.

ويمكن تأشير بدايات هذا التحول الأبستمولوجي من علم الخط الواحد إلى علوم الخط المتعددة من عند **القلقشندي** الذي يعد كتابه الموسوعي (**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**) أول مصدر عربي إسلامي لتصنيف الخط إلى **مصطلحات** يتفق عليها أهل كل اختصاص دقيق ليكون كل مصطلح منها بمثابة مجال معرفي خاص من مجالات الخط الوظيفية أو علم من علوم هذا الفن:

فعلى الرغم من أن القلقشندي يعرف الخط بأنه "**علم** تتعرّف منه صور الحروف المفردة، وأوضاعها، وكيفية تركيبها خطاً أو ما يكتب منها في السطور، وبه ظهرت خاصّة النوع الإنساني من القوة إلى الفعل، وامتاز عن

---

(١) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ٣: ٣١.

سائر أنواع الحيوان، وضبطت الأموال وترتبت الأحوال، وحفظت العلوم، وانتقلت الأخبار من زمان إلى زمان، وحملت سراً من مكان إلى مكان"[١]؛ فإنه يصنف هذا العلم وظيفياً إلى أنواع أو مجالات معرفية غالباً ما تكون متداخلة ومتعالقة في ما بينها من حيث الشكل والصورة الخطية، ولكنها تتباين تبايناً واضحاً من حيث الوظيفة والغاية من الأداء الخطي.

وباعتبار أن المصطلحات هي "مفاتيح العلوم"[٢]، فقد أطلق القلقشندي على علم الخط وصناعته وفنه: **المصطلح الخطي**، وعلى كل المجالات الوظيفية من مجالات هذا العلم لفظة: المصطلح أيضاً، لكن يصفه بحسب اتفاق أهل كل اختصاص من هذه الاختصاصات المعرفية والوظيفية عليه، فيصنف القلقشندي **علم الخط أو المصطلح الخطي** إلى ما يأتي[٣]:

**أولاً. المصطلح الخاص:** وهو الشكل الكتابي المتميز بالثبات والمعيارية، ويعد هذا المصطلح هو الأصل لكل أهل اختصاص في ما وضع عليه هذا الاختصاص أولاً، وفيما استقر عليه. ويشمل المصطلح الخاص مصطلحين اثنين هما:

أ. المصطلح الرسمي: وهو المصطلح أو العلم الخطي الخاص بكتابة المصحف الشريف على ما اصطلح عليه الصحابة الكرام رضي الله عنهم عند جمع القرآن الكريم، وتحديداً على ما كتبه زيد بن ثابت (رضي الله عنه).

ب. المصطلح العروضي الخاص بكتابة عروض الشعر: ويختص هذا المصطلح بإحصاء ما يلفظ به من حرف ساكن أو متحرك، اعتماداً على ما يقع في السمع –دون المعنى– لقياس الوزن الشعري.

---

(١) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ٣: ٣.

(٢) **مفاتيح العلوم**، ص٦.

(٣) **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ٣: ٣١.

**ثانياً. المصطلح العام:** أو المصطلح العرفي، أو ما يمكن أن نسميه: المصطلح اللغوي المتعلق **بالرسوم الإملائية للكتابة**.

ولما كان اللغويون قد عدوا اللفظ هو الأصل في بنية اللغة، فقد وجهوا العناية بالخط –أول الأمر– وجهةً وظيفية خالصة تتمثل في توفية الهجاء بناء على أصول نحوية تساعد في تحقيق القواعد الإملائية كالزيادة والنقصان، والابتداء والوقف، والفصل والوصل، وغيرها مما يضمن سلامة اللغة.

وكانت أهم التطورات اللغوية التي لحقت الخط العربي إعرابياً: **الشكل**؛ **الإعجام**. وقد تحولت علامات الشكل ونقاط الإعجام هذه فنياً إلى نقوش خطية لتحلية النص المخطوط، لأن "**الخط هو ما يُقْرَأ، وما زاد فهو نقش**"[1].

**ثالثاً. مصطلح الكتاب:** وهو العلم الخطي الذي يعنى برسوم الكتابة الديوانية الرسمية وتقاليدها ووظائفها في مختلف الوثائق الحكومية وغير الحكومية التي عرفتها نظم الحضارة الإسلامية السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية وغيرها.

**نظرية العلوم الخطية لطاش كوبري زاده:**

ولعل القلقشندي كان مصدراً رئيساً وأساسياً من المصادر التراثية التي اعتمد عليها **طاش كوبري زاده** (أحمد بن مصطفى، ت٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م) في بناء نظريته المعرفية حول الخط العربي، وقد صار التصنيف المعرفي الخاص والتفصيلي الدقيق لكل ما يتعلق بالخط من العلوم الممكنة والمحتملة في المؤلفات الموسوعية الكبرى مثل كتاب **(مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لطاش كوبري زاده)**[2] واقعاً معرفياً وأبستمولوجياً في أدب الخط؛ يقوم على ما يعرف بمصطلح: **(العلوم الخطية)**.

---

(١) **كتاب الكتّاب**، ابن درستويه، نشر لويس شيخو اليسوعي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٢٧، ص٣٥.

(٢) حققه ونشره كل من: كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١: ٧٤.

ويمكن القول بأن **طاش كوبري زاده قد ورث** من القلقشندي رؤيته المعرفية ومنهجه الوظيفي في دراسة علم الخط ومصطلحاته النوعية المتعددة، ومن أستاذه عبدالرحمن بن محمد البسطامي (ت٨٥٨هـ/١٤٥٤م) الذي رتب **العلوم العربية والإسلامية التي تفوق في عددها المائة علم على سبع مراتب** هي: **العلوم الخطية ، والعلوم التعبيرية ، والعلوم الذهنية ، والعلوم العملية ، والعلوم النظرية ، والعلوم الشرعية ، والعلوم الحكمية**.

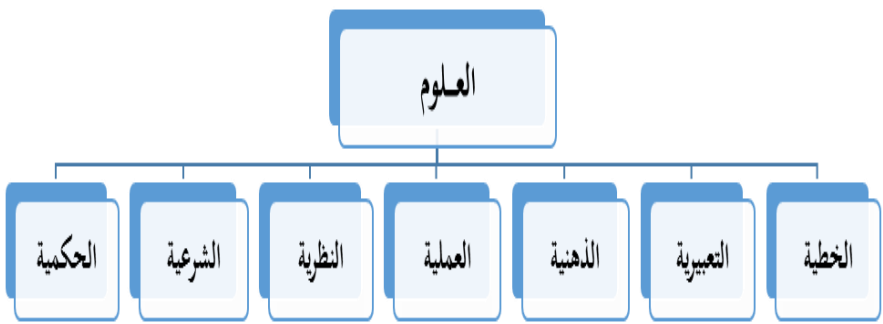


ولكن **طاش كوبري زاده يقدم إضافة معرفية وأبستمولوجية قيمة ورائدة** إلى هذا المجال من مجالات المعرفة الإسلامية بعامة، والمعرفة الخطية بخاصة، فهو يفسر التصنيف المذكور في أعلاه فيقول:

"إن **العلوم** مع تكثّر فنونها، وتعدد شجونها، منحصرة **في أربعة أنواع**، وذلك **لأن للأشياء وجوداً في أربع مراتب: في الأعيان ، وفي الأذهان ، وفي العبارة ، وفي الكتابة.** فالعلوم المتعلقة في الأول (الأعيان) من حيث حالها في نفس الأمر هي العلوم الحقيقية التي لا تتبدل باختلاف الأزمان، وتجدد الملل والأديان، وهذه تسمى: **علوماً حكمية**؛ إن جرى الباحث عن أحوالها فيها على مقتضى عقله، وتسمى: **علوماً شرعية**؛ إن بحث عنها فيها على قانون الإسلام. والعلوم المتعلقة بالثانية (الأذهان) هي **العلوم الآلية المعنوية** كالمنطق وغيره. والعلوم المتعلقة بالأخيرَين

(العبارة والكتابة) هي **العلوم الآلية: اللفظية والخطية**. وهذه هي العلوم المعتبرة في ديننا، هذا لورود شريعتنا على **لسان العرب وكتابته**"[1].

ومن هنا؛ يبدو طاش كوبري زاده أول مصنفي هذه العلوم العربية والإسلامية وأكثرهم توسعاً في دراسة ما يمكن تسميته: **المعرفة الخطية** التي أعطاها هذا العالم المصنف -من حيث الأهمية- مكانة خاصة تتصدر "دوحات شجرة" المعرفة الإسلامية التي رسمها لتصنيف العلوم عموماً، جاعلاً "الدوحة الأولى [منها] في بيان **العلوم الخطية**"[2]:

وكان طاش كوبري زاده قد حرر في كتابه (مفتاح السعادة..) فصلاً مهماً وخاصاً في الخط وضع فيه **تصنيفاً معرفياً رائداً لكل ما يتعلق بالخط** من حيث هو علم وفن وصنعة في "**شعبتين**" اثنتين:

تضمنت الشعبة الأولى: "**العلوم المتعلقة بكيفية الصناعة الخطية**"، وهي على النحو الآتي:

(١) **مفتاح السعادة ومصباح السيادة**، مج١: ص٦٩.

(٢) **السابق نفسه**، مج١: ص٧٧.

**أولاً. علم أدوات الخط:**

من القلم: وطريق استعلام جيدها من رديها، وطريق بريها، وأحوال الفتح والنحت والشق والقط. ومن الدواة: وكيفية إلاقتها، وكيفية إصلاح المواد. ومن المواد: كيفية صنعتها، وأنواعها، وكيفية إصلاحها. ومن الكاغد: من معرفة جيدها من رديها، ومعرفة أنواعها، وطريق إصلاحها. وغير ذلك من أدوات الكتابة.

**ثانياً. علم قوانين الكتابة:**

وهو علم يعرف منه كيفية نقش صور الحروف البسائط، وكيف يوضع القلم، ومن أي جانب يبتدأ في الكتابة. وكيف يسهل تصوير تلك الحروف.

**ثالثاً. علم تحسين أشكال الحروف:**

علم يعرف منه تحسين تلك النقوش، وما يتعلق به من أدوات الكتابة، وكيفية اتخاذها، وتمييز جيدها من رديها، وأسباب الحسن في الحروف آلة واستعمالاً وترتيباً. ومبنى هذا الفن الاستحسانات الناشئة من مقتضى الطباع السليمة. ويختلف بحسب الألف والعادة والمزاج بل بحسب كل شخص وشخص وغير ذلك مما يؤثر في استحسان الصور واستقباحها. ولهذا يتنوع هذا العلم بحسب قوم قوم بل شخص شخص. ولهذا لا يكاد يوجد خطان متماثلان من كل الوجوه.

**رابعاً. علم كيفية توليد الخطوط عن أصولها:**

هو علم يبحث فيه عن كيفية تولد فروع الخطوط المستنبطة عن أصولها بالاختصار والزيادة، وغير ذلك من أنواع التغييرات بحسب قوم قوم وغرض غرض معلوم في فنه.

**خامساً. علم ترتيب حروف التهجي:**

وهو علم يبحث فيه عن كيفية ترتيب حروف التهجي في الكتابة، واشتراك بعضها ببعض في صورة الخط، وإزالة التباسها بالنقط. واختلاف تلك النقط بكونها تحتانية في البعض، وفوقانية في الآخر أو مثناة أو مثلثة، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الشأن، كترجيح صورة معينة من تلك الصور المشاهدة المعلومة لحرف حرف وموضوعه ومبادئه وغرضه وغايته ومنفعته ظاهرة.

وتضمنت الشعبة الثانية "**العلوم المتعلقة بكيفية إملاء الحروف المفردة**"، وهي على النحو الآتي:

**أولاً. علم تركيب أشكال بسائط ( = أجسام وهياكل ) الحروف:**

وهو علم يبحث فيه عن التراكيب بين أشكال بسائط الحروف مطلقاً لا من حيث دلالتها على الألفاظ، بل من حيث حسنها في السطور. فكما أن للحروف حسناً حال بساطتها، فكذلك لها حسن مخصوص حال تركيبها: من تناسب الشكل، والنقط، والبياضات الواقعة من الحروف والكلمات والسطور.

وموضوع هذا العلم وأغراضه وغاياته ظاهرة. ومباديها: أمور استحسانية يرجع كلها أو جلها إلى رعاية النسبة الطبيعية في الأشكال. وله استمداد من الهندسيات.

**ثانياً. علم إملاء الخط العربي:**

وهو علم يبحث فيه بحسب الآلية عن الأحوال العارضة لنقوش الحروف العربية لا من حيث حسنها في السطور، بل من حيث دلالتها على الألفاظ العربية، بحسب الآلات الصناعية، أعني القلم وأمثاله، بعد رعاية حال بسائط الحروف من حيث الدلالة على الحروف التي هي أجزاء الألفاظ.

وهذا العلم من حيث حصول الحروف بالآلة من أنواع علم الخط ومن حيث دلالتها على الألفاظ من فروع علم العربية.

**ثالثاً. علم خط المصحف:** على ما اصطلح عليه الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، عند كتابة (المصحف) عند جمع القرآن الكريم على ما اختاره زيد بن ثابت، رضي الله عنه. ويسمى: الاصطلاح السلفي، أيضاً. وهذا العلم، وإن كان من فروع علم الخط –من حيث كونه باحثاً عن نوع الخط– لكنا نبحث عنه في علوم تتعلق بالقرآن الكريم.

**رابعاً. علم خط العروض:**

وهو ما اصطلح عليه أهل العروض في تقطيع الشعر، واعتمادهم في ذلك على ما يقع في السمع دون المعنى. إذ المعتد به في صنعة العروض إنما هو اللفظ لأنهم يريدون به عدد الحروف التي يقوم بها الوزن متحركاً وساكناً. فيكتبون التنوين نوناً ساكنة. ولا يراعون حذفها في الوقف، ويكتبون الحرف المدغم بحرفين ويحذفون اللام مما يدغم فيه في الحرف الذي بعده، كالرحمن، والذاهب، والضارب. ويعتمدون في الحروف على أجزاء التفعيل، فقد تنقطع الكلمة بحسب ما يقع من تبيين الأجزاء.

**تصنيف العلوم الخطية:**

وتنبع أهمية نظرية العلوم الخطية هذه من اعتبارها مفصلاً معرفياً مهماً وأساسياً لدراسات الخط العربي التصنيفية قبل طاش كوبري زاده وبعده، إذ إن هذه النظرية قد استفادت كثيراً من الموروث المعرفي لهذا الخط، وأضافت إليه، وفتحت الأبواب والآفاق لدراسة المعرفة الخطية النظرية والعملية برؤى ومناهج وموضوعات أخرى عدة؛ منها على سبيل المثال لا الحصر: تصنيف هذه العلوم

الخطية، وتواصلها، وتكاملها، وتمثُّلها معرفياً ومنهجياً في الصورة الخطية التي هي النتاج الإبداعي النهائي لعلم الجمال وفلسفة الفن الإسلامي:

فعلى صعيد التراث المعرفي: ربما يعد ابن ساعد السنجاري أول المصنفين المتأخرين الذين حاولوا بيان حقيقة الخط والكشف عن أهميته الوظيفية[١]، يليه ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) الذي كان أول من توسَّع في شرح الطبيعة الصناعية للخط، وبيان صلتها بالواقع الحضاري الإنساني، فقد عدَّه في "عداد الصنائع الإنسانية"، وشدد على خضوعه للتجربة والتفاوت في الملكة والإنتاج، بحسب التحصيل والقدرات الإنسانية[٢].

ويمكن أن نؤشر لدى ابن الحفيد (سيف الدين بن يحيى بن مسعود بن عمر التفتازاني، ت٩١٦هـ/١٥١٠م) البدايات المعرفية الواضحة المقصودة لتصنيف الخط تصنيفاً فنياً خاصاً يقوم على "**علم تحسينه وتحريره وتزيينه**"، وعلى الرغم من كونه قد علق علمه (بصورة عامة) بنقوش الكتابة وعدَّه فرعاً من (علم الإنشاء)، فإنه قد أخرج "علم تحسينه وتحريره وتزيينه" من العلم المذكور[٣].

أما على الصعيد الآخر: فقد كان عمل طاش كوبري زاده هذا أساساً لكل الأعمال المعرفية والمؤلفات العلمية والمصنفات الأبستمولوجية والببليوغرافية التي أنجزها لاحقوه من العلماء الذين اشتغلوا على تصنيف العلوم العربية الإسلامية بعامة، وفهرسة مؤلفاتها بخاصة. ولعل من أبرز هؤلاء العلماء وأكثرهم شهرة في هذا المجال: **حاجي خليفة** (كاتب جلبي، ت١٠٦٨هـ/ ١٦٥٧م) صاحب المؤلف

---

(١) **إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد**، ص٣٨-٣٩.

(٢) **المقدمة**، ص٣٣١.

(٣) ينظر كتابه: **الدر النضيد لمجموعة ابن الحفيد**، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٠، ص٨-٩.

البيليوغرافي الشهير: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**[1]، **وصديق بن حسن القنوجي** (ت١٣٠٧هـ-١٨٨٩م) مؤلف الكتاب المعرفي الموسوعي: **أبجد العلوم**[2]، وغيرهما من العلماء والمؤلفين الذين دارت جهودهم التأليفية المتعلقة بفن الخط في فلك هذا التصنيف المعرفي الواسع الذي قدمه طاش كوبري زاده في نظريته الرائدة للعلوم الخطية، ولكنهم حاولوا مناقشة هذا التصنيف وتقديم تصورات مختلفة عنه حول بعض هذه العلوم، فمثلاً: عقد حاجي خليفة[3] مبحثاً خاصاً لبيان أحوال علم الخط: ناقش فيه ما قدمه طاش كوبري زاده من علوم وتفسيرات لبعض أحوالها، مناقشة عاجلة، ولكنها جازمة في إخراج بعض هذه العلوم من دائرة علم الخط كلية، مثل: علم أدوات الخط وعلم تحسين الحروف وعلم كيفية توليد الخطوط عن أصولها. هذا فضلاً عن رد تفسير طاش كوبري زاده لعلمية هذه العلوم، حاسباً إياها وتفسيراتها من زاوية نظره "من قبيل تكثير السواد" ليس إلا، فقد وجدناه يخرج علم ترتيب حروف التهجي كليةً من أحوال علم الخط إلى مجال معرفي آخر هو علم الحروف، ليضيف مكانه إعجام الحروف على أنه من أحوال علم الخط. وكان قد جرى في إقرار منجزه العلمي في المجالات المذكورة على منهجية نقدية في دراسة التصنيف المعرفي للخط،

---

(١) لهذا الكتاب المهم في مجال البيليوغرافيا الإسلامية؛ العديد من التحقيقات والطبعات والنشرات، ولعل أولها وأشهرها وأكثرها تداولاً: نشرة المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة وطبعتها القائمة على تحقيق محمد شرف الدين بالتقايا، الصادر في إستانبول سنة ١٩٤١. ينظر: الصفحات ٧٠٧-٧١٤.

(٢) تحقيق: عبدالجبار زكار، دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٧، ج١، ص٣٦.

(٣) **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ص٧٠٧-٧١٤.

رافقها تقديمه لمفهومه الخاص لعلم الخط على أنه "علم قوانين الكتابة (العملية لا الأثر)، أي: **كيفية نقش صور الحروف البسائط**" بحسب مصطلحه الخاص.

أما القنوجي؛ فهو لم يكتف بما ذكره سابقوه من العلوم ذوات الصلة بالخط، بل زاد عليها أيضاً العلوم الآتية[1]: علم آداب كتابة المصحف، وعلم رسم المصحف، وعلم معرفة مرسوم الخط وآداب كتابته، وعلم تركيب المداد.

**جدلية اللغة والفكر والفن:**

وقد فتحت هذه النظرية الأبستمولوجية آفاق البحث العلمي الفلسفية (الجمالية والنقدية) في جدلية التواصل والتكامل المعرفية لفن الخط هذا في ما بين أصوله اللغوية العربية، ومنطلقاته الفكرية الإسلامية، وتجلياته الإبداعية الإنسانية والاجتماعية التي تنتظم معرفياً ومنهجياً في ما بينها بعلاقات عضوية حميمة لتكوين هذا الفن المركب من العديد من العلوم القابلة للتصنيف المعرفي–الوظيفي المتنامي بتطورات المعرفة الخطية الفكرية ومنهجياتها النقدية التي قد تقوم على نظرياتٍ أو علوم مؤسِّسة للصورة الخطية، وأخرى تدخل في بنية تكوينها الفني، وثالثة واصفة أو موجِّهة لطبيعة هذه الصورة الخطية ووظيفتها التواصلية، وربما تكون هناك نظريات وعلوم تساعد هذا الفن في إنتاج أعماله على نحو أسرع وأفضل وأجمل:

**أولاً. علم الحرف** بوصفه عنصر التكوين والوظيفة في اللغة بأركانها ومقوماتها الثلاثة من المعنى واللفظ والكتابة، فالحروف هي أساس "مدار الكلام والكَتْب والأصوات واللغات والعبارات كلها"[2] التي يتم بها التعبير، ويجري بها التواصل، ويقوم عليها الحوار الإنساني.

---

(١) **أبجد العلوم**، ١: ٤٨.

(٢) **رسالة في حروف العربية**، أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي، تحقيق: رشيد عبدالرحمن العبيدي، القاهرة: مجلة معهد المخطوطات العربية، مج٢٠، ج١، مايو ١٩٧٤، ص٩٦.

وتعد الحروف من موضوعات الفلسفة اللغوية الشائكة التي بدأ بها التفكير والتصنيف والتأليف اللغوي في عهد مبكر من تاريخ العربية ودراساتها، إذ ينسب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٧هـ/ ٧٩٣م) أول كتاب في الحروف؛ ويمكن عده دليلاً على العناية الفكرية المبكرة بتقعيد اللغة ووضع أصولها وقوانينها.

لقد تواصلت هذه العناية عبر العديد من المؤلفات اللغوية والفلسفية وغيرها بماهية حروف العربية وطبيعتها من حيث أسباب حدوثها، وتحولاتها الكيفية وخصائصها الوظيفية، وهيئاتها وأشكالها وصورها، فضلاً عن معانيها ودلالاتها ورمزياتها التداولية في ميادين معرفية وثقافية عديدة كاللغة والنحو والتفسير والقراءات وغير ذلك من العلوم والآداب والفنون والصنائع التعليمية والإبداعية.

تباينت تعريفات أهل اللغة للحرف تبايناً نسبياً بحسب منظوراتهم المعنوية والصوتية والصرفية والدلالية وغيرها، فالحرف في اللغة بعامة هو: الحافة، والطرف، والشفير، والحد، والناحية، والجانب[١]، وبخاصة هو: طرف الكلمة وبعدها المزدوج بين المبنى (حروف المباني) والمعنى (حروف المعاني) بوصفهما وجهي الكلمة المتكاملين، لا سيما وأن اللغويين ينظرون إلى الحرف بوصفه "كلمة تدل على معنى في غيرها"، وبوصفه "هيئة للصوت؛ عارضة له يتميز بها عن صوتٍ آخر مثله في الحدّة والثقل تميزاً في المسموع"، وبوصفه "صورة"، أو هو "العلامة المرسومة الدالة على لفظ الحرف المنطوق"[٢].

---

(١) **لسان العرب**، ابن منظور، بيروت: دار صادر، ٤: ٢٥٢١.

(٢) **أسباب حدوث الحروف**، ابن سينا، تحقيق: محب الدين الخطيب، تونس: بيت الحكمة، ٢٠٠٢، ص١٧.

وربما لذلك؛ قام بعض فلاسفة اللغة العربية وعلماؤها بتصنيف الحروف تصنيفاً معرفياً ووظيفياً عاماً إلى ثلاثة أنواع؛ هي[١]:

"فالحروف الفكرية هي صور روحانية في أفكار النفوس، مصورة في جوهرها قبل إخراجها. معانيها: الألفاظ. والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء، مدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة. **والحروف الخطية** هي: نقوش خطت بالأقلام في وجوه الألواح وبطون الطوامير، مدركة بالقوة الناظرة بطريق العين. والحروف الخطية وضعت ليدل بها على الحروف اللفظية، والحروف اللفظية وضعت ليدل بها على الحروف الفكرية التي هي الأصل"[٢].

**ثانياً. علم الصورة؛** باعتبار أن الخط هو عبارة عن أثر وشكل وصورة تنتمي إلى عالم الأشكال والصور، في مقابل المعنى اللغوي الذي يضع الخط في الصلب العملي للرسم والكتابة. ويمكن التفكير في نشأة الصورة الخطية وتطورها من خلال ما يتولد من القلم وعن ما يتولد من **النقطة** (القلمية[٣]

---

(١) **الكليات**، أبو البقاء الكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، دمشق، ١٩٧٤، ٢: ٣٩٩.

(٢) **رسالة في حروف العربية**، ص٩٤.

(٣) **السابق**، ص٦٤.

وصورتها الذرية[1]) من أشكال الحروف وصورها التخيلية الذهنية، أو صورها اللفظية الصوتية، أو صورها الكتابية الخطية البصرية التي هي الممثل الحقيقي والمجازي **لوجود اللغة وصورتها الكلية.**

يفسر التوحيدي (أبو حيان، ت٤١٤هـ/١٠٢٣م) آلية نشوء الصورة الخطية بوساطة **الحركة** (Movement) التي هي عبارة عن "صورة واحدة" فقط، فإذا ما "الحروف اندفعت بالحركات؛ كانت الصورة الخطية التي هي الحروف الشكلية؛ محفوظة العيان بامتلائها بها؛ محروسة بانتسابها إليها"[2].

يعود اختراع **صور الحروف العربية وأشكالها** إلى ما قبل الإسلام، فقد ذُكر في بعض مصادر الخط الأولى[3] أن أول ثلاثة رجال سكنوا الأنبار (هي الآن: محافظة عراقية)، واجتمعوا فيها لوضع حروف مقطعة وموصولة هم: مرامر بن مرة الذي **وضع الصور** (صور الحروف)، وأسلم بن سدرة الذي **فصل ووصل** (الحروف)، وعامرة بن جدرة الذي **وضع الإعجام** (النقط).

ويُفصِّل اللغوي العربي الرائد **ابن درستويه** (ت٣٤٧هـ/ ٩٥٨م) في كتابه: **(كتاب الكُتّاب)** عدد صور الحروف واشتقاق رسوم بعضها من بعض، فيذكر بأن "حروف المعجم **ثمانية وعشرون حرفاً** مختلفة الألفاظ، **وصورها ثماني عشرة صورة** لتشابه الحرفين منها والثلاثة كالباء والتاء والثاء، وكالدال والذال، وكالراء والزاي، ونحو ذلك. ولولا التشابه لكانت **لكل حرف منها صورة.** وقد تؤول هذه الثماني عشرة صورة إلى **خمس عشرة صورة** أيضاً في الاتصال"[4]:

---

(١) **مذهب الذرة عند المسلمين**، بينيس، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٦، ص٨٨.

(٢) **المقابسات**، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: حسن السندوبي، القاهرة: دار المعارف، ١٩٢٩، ص٢٥٥.

(٣) **الكتاب وصفة الدواة وتصريفها**، ص٤٣.

(٤) **كتاب الكتاب**، ص١٧.

**ثالثاً: هندسة الخط** (الشكلية Geometry)؛ حيث يكون عالم الصور والأشكال هو المجال المعرفي لهندسة الخط التي يمكن تعريف حقيقتها المعرفية أيضاً بعلم الأشكال الخطية.

يقول إقليدس العرب الأندلسي عبدالرحمن بن إسماعيل من علماء القرن الثالث الهجري في الأندلس: "الخط هندسة روحانية ظهرت بآلة جسمانية"(١). وربما يعني بذلك أن **هندسة الخط** هي نظام معرفي إنشائي (Construction) متكامل من النقطة والخط (Line) والشكل والسطح والمساحة الضابطة لتكوين الخط اللغوي وجماليته المضبوطة بالضابط الهندسي نسقاً (Pattern) رياضياً خاصاً من الأنساق المعرفية لعلم الخط وصناعته الفنية.

ويقوم **علم الأشكال الخطية** على ما يأتي:

أ. **الدائرة ومتعلقاتها البنيوية من النقطة (المركزية) والقطر والمحيط؛ بوصفها** أصول **الهندسة** ومبادئها وقيمها:

---

(١) **تفسير رسالة أدب الكاتب**، عبدالرحمن بن إسحق الزجاجي، تحقيق: عبدالفتاح سليم، القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ١٩٩٣، ص١٣٣.

ب. **الأصول الهندسية**؛ وهي عبارة عن خطوط مستقيمة أو منحنية؛ مرسومة في صورة الحرف الخطي وشكله العام بوضع هندسي معين. وتتراوح **أوضاع** هذه الخطوط الهندسية بين: **الانتصاب، والتسطيح، والانكباب، والاستلقاء، والانحناء، والاستدارة، والتقويس**[١]:

ج. **النسب** (Proportions الفاضلة والأفضل)[٢] بأنواعها الثلاثة: الرياضية (الحسابية) البسيطة، والهندسية (الكيفية المركبة)، والتأليفية (الموسيقية) المعروفة في تراثنا العلمي.

**رابعاً: قواعد الخط:** بوصفها أساساً لما يعرف تراثياً بصنعة الخط أو قواعد الكتابة الخطية أو **تحقيق الخط** الذي هو "إبانة الحروف كلها، منثورها ومنظومها، مفصلها وموصلها، بمداتها وقصراتها، وتفريجاتها وتعريجاتها، حتى تراها كأنها تبتسم عن ثغور مفلجة، أو تضحك عن رياض مدبجة"[٣]. وربما كان أبو حيان التوحيدي (ت٤١٤هـ/١٠٢٣م) أول من عرض لما سماه **بمعاني تحقيق الخط**، وعرفها بالمفاهيم والمصطلحات الآتية[٤]:

- **التحديق:** إقامة الحاء والخاء والجيم وما أشبهها على تبييض أواسطها، محفوظة عليها من تحتها وفوقها وأطرافها، مخلوطة كانت بغيرها، أو بارزة عنها، حتى تكون كالأحداق المفتحة.
- **التحويق:** إدارة الواوات والفاءات والقافات وما أشبهها، مصدرةً وموسعةً ومذنبةً بما يكسبها حلاوة، ويزيدها طلاوة.
- **التخريق:** تفتيح وجوه الهاء والعين والغين وما أشبهها، كيف ما وقعت، أفراداً وأزواجاً، بما يدل الحس الضعيف على اتضاحها وانفتاحها.

---

(١) **ابن مقلة خطاطاً وأديباً وإنساناً**، هلال ناجي، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١، ص١٢٧.

(٢) **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا**، ١: ٢١٧.

(٣) **رسالة في علم الكتابة**، أبو حيان التوحيدي، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق: المعهد الفرنسي، ١٩٥١، ص٣١.

(٤) **السابق**، ص٣٢-٣٣.

- **التعريق:** إبراز النون والياء وما أشبهها، مما يقع في أعجاز الكلمة مثل: من، وعن، وفي، ومتى، بما يكون كالمنسوج على منوال واحد.
- **التشقيق:** تكنف الصاد والضاد والكاف والطاء والظاء وما أشبه ذلك، مما يحفظ عليها التناسب والتساوي.
- **التنسيق:** تعميم الحروف كلها، مفصولها وموصولها، بالتصفية، وحياطتها من التفاوت في التأدية، ونفض العناية عليها بالتسوية.
- **التوفيق:** حفظ الاستقامة في السطور، من أوائلها وأواسطها وأواخرها وأسافلها وأعاليها، بما يفيدها وفاقاً لا خلافاً.
- **التدقيق:** تحديد أذناب الحروف بإرسال اليد، واعتمال سن القلم وإدارته مرة بصدره، ومرة بسنيه ومرة بالاتكاء، ومرة بالإرخاء، بما يضيف إليها بهجة ونوراً ورونقاً وشذوراً.
- **التفريق:** حفظ الحروف من مزاحمة بعضها لبعض، أو ملابسة أول منها لآخر، ليكون كل حرف مفارقاً لصاحبه بالبدن، مجامعاً بالشكل الأحسن.

ولا يخفى مما تقدم أن أولى خطوات التطور الفني في تاريخ الخط العربي هي الخطوة التي حصلت في مفهوم حسن الخط من التجليل. وتعتمد هذه الخطوة على العلاقة بين الحجم والشأن في الشكل، إلى التحقيق الذي يعتمد العلاقة بين الشكل والبيان.

وإذا لم يكن المفهوم الجمالي لمصطلح الخط كثير الوضوح في الفصل بين الجليل والدقيق من الخط، فإن هذا المفهوم يبدو أكثر وضوحاً في اصطلاح الكتاب والخطاطين الأوائل على **تقسيم الخط تقسيماً فنياً وجمالياً إلى نوعين رئيسين ،هما: المحقق والمطلق:** "فأما **المحقق** فهو ما صحّت أشكال حروفه على اعتبارها مفردة، وهو أفضل من **المطلق**.. الذي تداخلت حروفه، واتصل بعضها ببعض، وهو خط ولد من المحقق"(١).

وتبدو هذه المعاني الخطية مادة معرفية نظرية تدور حول الشكل والصورة والعمل الفني، وصنعة تطبيقية تقوم على الأداء والكتابة على مجموعة من القواعد والأسس ودراستها وتحليلها تتمثل في كونها الأصل العلمي والمنهجي الأول لانطلاق عملية تعليم الخط وتحولاتها المنهجية الصحيحة للتكامل المعرفي فيما بين فقه الخط العلمي النظري، وإبداعه الفني التطبيقي.

**خامساً: أنواع الخط؛** وهو العلم الذي يستفيد كثيراً من تباين الأصول والأوضاع والهيئات في هندسة الخط لإحداث التغيرات الشكلانية في صور الحروف الخطية التي يتأسس عليها نوع الخط وأسلوبه الفني.

**سادساً: حسن الخط؛** وهو المصطلح التراثي لما يعرف اليوم بعلم جمال الخط ونقده الفني، إذ كانت لفظة الحسن هي المفهوم العربي والإسلامي الأوسع فضاء معرفياً والأدق دلالة على الجمال.

**إن "حسن الخط لا حدَّ له"**(٢) من الإبداع والفن والجمال والدلالة والخطاب (Discourse) بوصف جميعها مجالاً من مجالات **النقد الفني؛** حيث تقوم فلسفة

---

(١) **مواد البيان**، ابن خلف الكاتب، تحقيق: حاتم صالح الضامن، بغداد: **المورد**، مج١٩، ع١، ١٩٩٠، ص١٢١.

(٢) **الرسالة العذراء**، ابن المدبر، نشر: زكي مبارك، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣١، ص٣٣.

الخط النقدية على اعتباره فناً حيوياً متحركاً، وكاد النقاد التراثيون الــرواد أن يتفقوا على تعريف الخط الحسن بأنه الخط الذي "**يعجب رائيه ولو كان أعجمياً لا يعرف قراءته**"[١]، ويشترطون لوصف الخط **بالجودة** إذا ما "**خرج عن نمط الوراقين ،وتصنع المحررين ،وخيل إليك أنه متحرك وهو ساكن**"[٢].

لقد تفكر البلاغيون في نقد الخط وتقويمه على أساس أن "الكاتب إذا ما بلغ في تعلم هذه الصناعة غاية قدرتــه، وقفت يــده عند حــدٍّ؛ عرف من ذلك الحد خطــه؛ من معــان تخصه عند **أهل التمييز وذوي النقد والتحريز**، كما تعرف وجوه الناس وإن تشابهت أعضاؤها، وتشاكلت أجزاؤها، بمعــانٍ تخص كــل وجــه منها، تعرفها القلوب، وتشهدها العيون، وقد تقصر عن هذه الفواصل العبــارة، وتعجز عن تبيينها الإشــارة"[٣].

ولم يشتغل البلاغيون والنقاد العرب القدامى على التنظير النقــدي لبيــان شروط حسن الخط ومعاني تحقيقه الجمالي فحسب، بل واشتغلوا أيضــاً علــى التأليف النقدي التطبيقي لفن الخط، كما فعل قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ/٩٤٨م) مثلاً حين ألف كتابه **النجم الثاقب**[٤] **في نقد الخط** المنسوب إلى ابن مقلة، على غرار كتبه النقدية الأخرى: **نقد الشعر ، ونقد النثر**.

ولم يتوقف الخطاب النقدي التراثي لفن الخط على الجماليــة الشــكلانية للصورة الخطية حسب، بل عاين الجمالية الأخلاقية والنفعية التواصــلية لهــذه

---

(١) **أدب الكتاب**، ص١٤.

(٢) **السابق**، ص٣٦.

(٣) **رسالة في الكتابة المنسوبة**، مجهول، تحقيق: خليــل محمود عساكر، القــاهرة: مجلــة معهــد المخطوطات العربية، مج٧، ج١، ١٩٥٥، ص١٢٣.

(٤) **الفهرست**، ابن النديم، تحقيق: يوسف علي الطويل، بيروت: دار الكتــب العلميــة، ١٩٩٦، ص٢٦٣.

الصورة؛ بوصفهما المجال المعرفي المتعلق باستعمالات الخط ووظائفه، فالخط هو **وسيلة ورسالة** لغوية وثقافية وحضارية للتعبير والتواصل والبيان القائم على المقولة التراثية الشهيرة في أدبيات هذا الفن: "**حسن الخط يزيد الحق وضوحاً**"[1].

---

(١) **ديوان المعاني**، أبو هلال العسكري، تحقيق: أحمد حسن بسج، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٤، ج٢، ص٣٩٥.

# الأمن اللغوي في الإعلام:

# جدلية العلاقة بين الدّال والمدلول

**الدكتورة ميس خليل أبو زيادة**

جامعة الاستقلال، فلسطين

**الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م**

# المُلخَّص

تسعى الدراسة إلى فهم دور الأدلجة الفكرية على الإعلام من خلال رصد المصطلحات الإعلامية التي اختلف مدلولها تبعاً للسياق السياسي والاجتماعي الذي تنشأ فيه، كما تبين الدراسة دور الأمن اللغوي في تأمين هويتنا وأصالتنا، مما سيفتح المجال واسعاً لحماية اللغة من ازدواجية الدال والمدلول في النص الإعلامي، وستعتمد الدراسة المنهج الاستقرائي المبني على الاستنباط من خلال ملاحظة علاقات تقابل المعطيات الدلالية.

توصلت الدراسة إلى أن الخطاب الإعلامي تعرض إلى تغيرات في السياق الدلالي لاستخدام المصطلحات الإعلامية الإسلامية والسياسية وفق أطر أيدلوجية صهيوأمريكية هادفة إلى استعمار العقول وغسل الأدمغة لتشكيل المجتمعات في سياقات فكرية جديدة، مما يستدعي وجود ضرورة ملحة إلى وجود أمن لغوي يضمن كيان الأمة، وشخصيتها، في ظل التهديدات التي تواجه اللغة العربية، والمعيقات التي تعترض طرق تمكينها.

توصي الدراسة بتعجيل النظر في مشكلة المصطلحات الإعلامية وضبطها وتوحيدها قبل استعمالها وشيوعها، وذلك من خلال أمن لغوي يحمي الإعلام العربي من السقوط، مما يستدعي تضافر الجهود وإعداد البرامج المكثفة التي تسهم في ترقية الوعي العام نحو حماية اللغة من المخاطر والتهديدات التي تحيط بها.

# The linguistic security in media: The dialectical relationship between each word and its meaning

**Dr. Mais Khalil Abu Zeyada**
**Al-Istiqlal University - Palestine**

## Abstract:

The study aims at understanding the roles of intellectual ideology on media by observing media terminology، which differed according to the political and social context in which it arises. The study shows the role of linguistic security in securing our identity and originality، which will open the way to protect the language from duality understanding to each word and its meaning in media. The study depends on the inductive approach. This approach rely on elicitation by observing the relationships between each word and its meaning.

The study concluded that the media discourse faced many changes in semantic context of using Islamic، political and media terminology in accordance with Americana and Zionist ideologies which aimed at colonizing minds and brains washing to form societies in new intellectual contexts. This means، there is an urgent need for linguistic security that guarantees the nation's identity from threats that facing Arabic language، and the obstacles that prevent empowering it.

The study recommends to take quick steps in dealing with the problem of media terminologies، and standardizing them before they are used. So، there is a need for linguistic security that protects Arab media from deterioration. This calls for concerted efforts and preparing for intensive programs that contribute to raising public awareness of protecting the language from all threats that surround it.

**المقدمة:**

تلعب الأيدلوجيا دوراً بارزاً في صناعة الإعلام، لذلك تم توظيف المصطلحات الإعلامية في أطر جديدة تصل إلى حد الاختلال والإضلال الإعلامي للسيطرة على العقول، وقلب الحقائق، الأمر الذي أدى إلى ظهور مصطلحات جديدة تشكل خطراً على الأمن اللغوي العربي لأنها أصبحت جزءاً من حديث المجتمع مما زاد من صعوبة معالجتها والتصدي لها، إذ بات من المؤكد اليوم ما تحدثه وسائل الإعلام ووسائل الاتصال من تأثير في صناعة الرأي العام، والذوق الفردي، وإعادة صياغة معايير الثقافة والقيم؛ الأمر الذي انعكس على اللغة العربية التي تمثل المرآة الحقيقة للفكر والحضارة.

إن الاهتمام باللغة يبدأ من وسائل الإعلام التي تحمل دوراً كبيراً في عملية التحول الذي انتاب اللغة، وبسبب العولمة والانفتاح الثقافي تعرض الخطاب الإعلامي لأزمة تعدد المصطلح، وتعدد المدلول، مما ولد هجيناً دلالياً نتج عنه هيمنة مدلولات جديدة أدت إلى تشتت المعنى اللغوي بين الدال والمدلول، الأمر الذي أدى إلى إعادة صياغة فكر جديد من خلال تفكيك المفاهيم التي تحملها الدلالات المتوارثة إلى مدلولات جديدة تصوغها أهداف ومصالح لا علاقة لها بالأصول الأولى لمدلولات اللغة.

لقد طالت وسائل الإعلام التغيرات والأعراف والقواعد والقيم الاجتماعية، هذا فضلاً عما تعرض له العالم من تغيرات، لا سيما بعد أن تحول إلى قرية صغيرة، لقد تدخلت السياسة بكل أساليبها في توجيه الإعلام نحو أهداف استراتيجية من خلال استخدام مصطلحات ذات دلالات جديدة تخالف الدلالات الأصلية المتوارثة، مما أدى إلى خلق أزمات مفتعلة؛ لتأكيد خلق واقعٍ جديد، ونتيجة للتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في جميع المجالات صارت اللغة بحاجة ماسة إلى أمن لغوي يحمي التراث والإنتاج المعرفي لتتمكن اللغة من مواكبة العصر، فحماية اللغة هي حماية للهوية. من هنا تنبع الحاجة لوجود أمن

لغوي يحمي المتلقي من شوائب تعددية المدلول قبل أن يرسو المصطلح ليصبح معتقداً.

في سياق الحديث عن أوجه الأمن المتعددة نحو الأمن الاقتصادي، والأمن البيئي، والأمن السياسي....؛ غدت الحاجة ماسة لوجود أمن لغوي يسهم في تحقيقها جميعاً، من خلال محافظته على الهوية العربية، والانتماء الحضاري، وهو لا يقل أهمية عن أنواع الأمن الأخرى، فهو يحفظ للغة نشاطها وحيويتها، لا سيما أنها تعاني من تدافع اللغات الأجنبية من خلال ما تفرضه عليها الأنظمة السياسية والاجتماعية، مما يجعل فضاءها يعاني الازدواجية والتداخلات اللغوية؛ بذلك تصبح حماية اللغة مطلباً قومياً يسمو فوق الاعتبارات الإقليمية والفردية، ذلك أنه "لا يتعلق بالحرية في اختيار لغة التواصل والإبداع، ولكن في احترام الفضاء العام للتواصل اللغوي، وتقدير الجانب الوحدوي في الاختيار"[1].

**هدف الدراسة:**

تهدف الدراسة إلى تناول العلاقة بين اللغة الإعلامية والأمن اللغوي في ظل حرب المصطلحات، من خلال رصد المصطلحات الإعلامية التي اختلف مدلولها تبعاً للسياق السياسي والاجتماعي الذي تنشأ فيه، ومن أمثلة هذه المصطلحات: (انتفاضة الفيسبوك، وثورة التواصل الاجتماعي، والأصولية، والإرهاب، والعالم الثالث، والحريات الفردية،....).

كما ستبين الدراسة دور الأمن اللغوي كونه الحصن المتين للغة الذي سيسهم لا محالة في تأمين هويتنا وأصالتنا، وسيفتح المجال واسعاً لحماية اللغة من ازدواجية الدال والمدلول في النص الإعلامي. وستعتمد الدراسة المنهج

(١) فؤاد أبو علي: العربية والأمن اللغوي (مقال).

الاستقرائي المبني على الاستنباط من خلال ملاحظة علاقات تقابل المعطيات الدلالية.

**أولاً: الأمن اللغوي**

إن معظم الدول العظمى تسعى للحفاظ على أمنها اللغوي الذي يعدّ جزءاً لا يتجزأ من الأمن السياسي، فهو يجعلها قادرة على الصمود أمام الهزات للحفاظ على كيانها، محققاً أمناً مجتمعياً دفعها إلى التخطيط للحفاظ على أمنها اللغوي من خلال فرض قوانين صارمة تحفظ اللغة من العبث أو التغيير.

إن الأمن اللغوي يتحقق من خلال الشعور بالقدرة على تحقيق متطلبات مستعملها والاستجابة لحاجاته من خلال الاستقرار والاستقلال اللغوي، "يقوم مفهوم الأمن اللغوي العربي أساساً على الحفاظ على سلامة اللغة العربية وصونها من العاديات والهجمات التي تضربها في صميمها كل حين. فهو يسعى لحمايتها من سلطان العولمة وغول التدخل اللغوي الأجنبي السافر، الذي لا يكاد يترك مجالاً إلا ودخله شئنا ذلك أم أبينا. ويهدف في مضمونه الخاص إلى ديمومة اللغة العربية ومنحها القدرة الكافية لمواكبة تطورات العصر والتقنية المتسارعة. وأما في مضمونه العام فإنه يسعى للحفاظ على وجدان الأمة وكيانها وهيبتها وقيمتها التي غزتها المدنية الحديثة"(١).

إن هذا الوضع يثير الخوف لدى مستعمل اللغة فهو يريد أن ينسب إلى لغة تحقق له الأمن والطمأنينة، فيتبادل معها الثقة، والاستقرار اللغوي، وينظر إليها نظرة إيجابية تحقق الانتماء والولاء للغة بعيداً عن التقلبات التي تشعره بعدم الأمن اللغوي، وهذا يتطلب من الجهات المعنية بالشأن اللغوي أن تنهض لحماية اللغة من كل ما يهدد سلامتها لضمان الشعور بالأمن والطمأنينة.

---

(١) عمر "محمد أمين" هزايمة، الأمن اللغوي العربي، الأردن، إربد، ٢٠٠٥، ص١٢.

**ثانياً: الأمن اللغوي والإعلام:**

تؤدي وسائل الإعلام دوراً مهماً في تشكيل الفكر العام؛ لما لها من قوة تأثير في العقول والسلوك، نتيجة لتطورها، وتوسع مجالاتها، إذ فتحت المجال لأنماط تعبيرية جديدة أصبحت مألوفة ومتداولة، لكنها في الوقت نفسه تشكل خطراً لما تهدمه من قيم تهدد أمن اللغة وسيادتها، فبسبب تشوهها اللغوي -في بعض الأحيان- وازدواجية دلالتها، أصبحت فضاء لنشر الأخطاء والانحرافات الفكرية، ففي الخطاب الإعلامي تشيع الازدواجية اللغوية والتضليل الإعلامي مما يعرقل مسار اللغة ويكتم أنفاسها، ويجعل مستعملها في هزيمة نفسية تدفعه للانخلاع من مقومات الخصوصية والانتماء، من هنا فإن صوت الخطر يعلو، الأمر الذي يترك آثاره السلبية على السلوك اللغوي والثقافي، فالمصطلحات الملوثة ذات الدلالات المزدوجة أصبحت جزءاً من الإعلام، وهنا يصعب حصر المشكلة ومعالجة الخطر ثم اجتنابه. إن التلوث اللغوي في الإعلام "يفسد الفكر، ويشيع ضروباً من الاضطراب والإرباك والقلق في العقول، وفساد الحياة العقلية للأمة، وربما تنتقل عدواه إلى فساد في معظم المجالات، فتختلط المعاني والدلالات والمفاهيم والرموز في لغة الحوار"(١).

**ثالثاً: ازدواجية اللغة الإعلامية بين جدلية الدال والمدلول:**

إن وجود الإنسان في حقل إعلامي جعل عقله يتعرض بشكل متواصل لتأثير الوسائل الإعلامية على الرغم من أن ذلك قد لا يكون له أية علاقة بالواقع، فما يتركه الإعلام في ذهن المواطن من انطباعات يبقى أهم من الحقيقة التي قد تحتاج إلى وقت لاكتشافها. من هنا فإن خطورة الغزو الثقافي تتمثل في العدد اللامتناهي من الألفاظ والتعبيرات والمصطلحات المؤدلجة التي انتشرت بسبب

---

(١) اللغة العربية في الفضائيات، التقرير الخامس من منتجات برنامج ريادة، مؤسسة الرشيد للإعلام، الرياض، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٩٣-٩٤. بتصرف.

الفراغ القيمي وغياب الثقافة، مما جعل اللغة العربية تعاني من ازدواجية المصطلحات ذات الدلالات الخفية المضللة.

إن السيطرة الحقيقية على عقل المتلقي تكمن من خلال الازدواجية الدلالية، وإن ازدواجية الدلالة تستطيع إنزال أقوى الضربات على المتلقي في الوقت الذي تجعله يؤمن بشرعية عمل الضلال والظلام، أي القضاء على عقله وعاطفته برضاه لتسييره إلى الوجهة المطلوبة.

**رابعاً: الازدواجية الدلالية في المصطلحات الإعلامية الإسلامية:**

هناك حرب إعلامية تحاك ضد الإسلام، لقد تناول الإعلام قضايا الإسلام والمسلمين في ضوء الحملة التي تسعى لتشويه صورة العرب والمسلمين، فكانت الدلالة في أغلب الأحيان سلبية؛ فكل المصطلحات تتبنى فكر التطرف والعنف والجهاد، فمثلاً **الأصولية** قضية موجودة في جميع الديانات، لكن الخلط الدلالي ربط بين الظاهرة الأصولية الإسلامية وحركة التدين بصفة عامة، فالأصولية أصبحت ترتبط بالتطرف والتشدد وأحداث العنف من جانب جماعات ترتبط بالإسلام والمسلمين، لتكوين صورة غير سليمة في ذهن المواطن العربي والغربي.

حتى **الجهاد** الذي هو ذروة سنام الإسلام أصابه تشويه، فأصبح الإسلام دين حرب، وأصبح المصطلح يثير الزوابع والهواجس والمخاوف، وكذلك مصطلح **(وحدة الأديان)** الذي يعني تماهي الأديانِ الثلاثة– اليهوديةِ والنصرانية والإسلام بعضِها مع بعض، لتصبح ديناً واحداً لا فرق بينها، وهو مصطلح خطير لما يحمل في طياته من معان توجب على الإنسان عدم تحديد دينه والالتزام به.

إن كلمة إسلام وإسلامي تستخدم بشكل واسع في الإعلام الإسرائيلي والغربي، إذ ينسب الإسلام إلى كل عمل إرهابي متطرف، مثل **(الفاشية**

**الإسلامية ، والإرهاب الإسلامي ، والعنف الإسلامي ، وانتحاري إسلامي...)** ، وينسب أيضاً مصطلح **(التطرف)** لكل من يطبق الأحكام الشرعية، والتطرفُ يعني الابتعاد عن المركزية إلى الطرف، ولكن ما هي المركزية؟ وما هو معيار المركزي والطرف؟ كل هذه المصطلحات تلخصت تحت ظلال مصطلح **(الإسلاموفوبيا)**، مصطلحٌ يقصد به الإرهاب الإسلامي والخوف من الإسلام. إن هذه الحرب الدلالية ما هي إلا صورة مشوهة رسختها وسائل الإعلام بسبب وجود عقليات عنصرية متطرفة تفرغ المكبوت من أجل تشويه الإسلام.

وهكذا لم نعد بحاجة إلى حدث سياسي لكي يتم التخويف من الإسلام، وإنما أصبح ينظر إلى الإسلام على أنه كذلك، دين بدائي وإرهابي يتعارض مع الحضارة مما يساهم بطبيعة الحال في تنميط صورة مغلوطة عن الإسلام بوصفه ديناً للكراهية والتعصب والعنف.

**خامساً: الازدواجية الدلالية في المصطلحات السياسية:**

لقد مارس الاحتلال الصهيوني حرباً إعلامية مستخدماً فنية التلاعب بين الدال والمدلول، لقد تنبهت الصهيونية إلى قوة تأثير الكلمة فاستغلتها عن طريق الخداع الدلالي، فبدلاً من أن تكون اللغة وسيلة موضوعية وحيادية لنقل الحقائق أصبحت وسيلة لتزييف الحقائق وتشويه الصور على أرض الواقع من خلال قلب الواقع وتغيير ملامحه الحقيقية لدعم الفكر الصهيوني المراد توصيله من خلال التلاعب بالألفاظ السياسية والمصطلحات الإعلامية بهدف خدمة الأجندة الصهيونية، لقد لعبت الكلمة دوراً كبيراً في تشويه معالم النضال الفلسطيني في حين أصبحت الدالة الفلسطينية مشكوكاً بها، فالجيش **(يقول)**، أما المصادر الفلسطينية فـ**(تزعم)** ، و**(الجيش الإسرائيلي يطلق النار رداً على أعدائه)** ، والفلسطينيون **(معتدون)**.

لقد بدأ الخداع الإسرائيلي منذ بداية المشروع الصهيوني، فقد اعتمد وعد بلفور على التضليل في المصطلحات، ففيه الكثير من الغموض المقصود الذي يهدف إلى استئصال الشعب الفلسطيني من أرضه، وإلغاء وجوده من الذاكرة، وإلى عدم تنبيه العرب إلى حقيقة المشروع المنوي تنفيذه والهادف إلى تهجير العرب من فلسطين؛ ليتسنى لهم إنشاء دولة إسرائيل فيها، ومن الأمثلة على ذلك:

- **وطن قومي لليهود:** تعطي هذه العبارة إسرائيل الشرعية لإقامة دولة بالحق الإلهي وليس بالقوة ولا بالقرارات الدولية، فالوطن القومي يفيد عدم وجود شعب فلسطيني يملك مقومات الشعوب.
- **الطوائف الأخرى:** مما يشير إلى أن الموجودين في فلسطين من غير اليهود طوائف لا روابط قومية أو وطنية أو سياسية بينهم، ما ينفي وجود شعب يمتلك فلسطين وتربطه بها روابط دينية أو وطنية.
- **أرض بلاشعب:** ينسج المصطلح أسطورة أن فلسطين أرض بلا شعب، ليكون المقابل الدلالي في كونها حقاً طبيعياً لشعب بلا أرض، متخذاً من هذه الدلالة جريمة بشعة في حق الفلسطيني بهدف إخلاء الأرض من أهلها، وبالتالي فإن إسرائيل لم تغتصب أرضاً ولم تهجر شعباً مما أسبغ عليها شرعية الوجود على أرض فلسطين.

لقد أصبح الخداع الإعلامي اللغوي الوسيلة الرئيسية في رصد الأخبار وتغطية الأحداث، فمثلاً يستخدم الإسرائيليون مصطلح (**الصراع العربي الإسرائيلي**) لاستبعاد الفلسطينيين من دائرة الحدث، فإسقاط فلسطين من المصطلح مؤشر خطير يشير إلى غياب الفلسطيني من حقه في الدفاع عن أرضه، فهو ليس محوراً في الصراع وكأنه غير موجود أصلاً، فالمصطلح يشير إلى تسوية

الحدود، وليس حق الوجود، كما يستخدم مصطلح (**الشرق الأوسط**) ،بدلاً من (**الوطن العربي**)؛لأن الوطن العربي يحمل في دلالته العروبة وتجسيد الحدود من المحيط إلى الخليج، وبهذا تصبح إسرائيل جسماً منبوذاً لا ينتمي إلى الوطن العربي، أما الشرق الأوسط فهو مصطلح عام يضم إسرائيل، ويعطيها الصبغة الشرعية للبقاء في مكان دون الشعور بالنبذ أو الاختلاف.

ويحرص الإعلام في إسرائيل على استخدام مصطلح (**جيش الدفاع الإسرائيلي**)، على الرغم من أن كلمة الدفاع غير موجودة في الألقاب العسكرية للجيوش، وإنما أضيفت كلمة (دفاع) إلى كلمة (جيش)؛ لأنها معتدية وليست صاحبة حق، فهي في حالة خوف ودفاع عن النفس في وجه من يعتدي عليها.

كما يحاول الإسرائيليون إضافة الصبغة الدينية على معظم المصطلحات؛ بغرض حشد التأييد العالمي، فهم يستلهمون الدين والتاريخ في أسلحتهم وحروبهم، إنهم يطلقون أسماء يهودية على معالم ومدن فلسطينية مثل إطلاق اسم (**حائط المبكى**) على (**حائط البراق**)، لإعطاء اليهود الشرعية بحق الامتلاك، فتزوير الكلمة لا يقل أهمية من تزوير المعالم والأماكن، لأنها تعطي الشرعية لامتلاك البلاد، وحرمان الفلسطينيين من الانتساب إليها، في محاولة لطمس العروبة وتشويه الهوية الفلسطينية، إنهم يسعون لنفي العروبة من خلال تغيير أسماء المدن؛ (**فالخليل**) **أصبحت** (**عين حبرون**) ،و(**نابلس**) (**شكيم**) ،و(**جنين**) (**عير جنيم**)... ، كما يستخدم الإعلام الإسرائيلي مصطلح (**يهودا والسامره**)، بديلاً عن مصطلح الضفة الغربية مستغلاً البعد الديني في تثبيت الحق وإثبات الوجود. كذلك شن الإعلام حملة تهويدية شملت أسماء الحروب، فمثلاً (**حرب أكتوبر**) عام ١٩٧٣، تسمى (**يوم الغفران**)، أو (**يوم كيبور**) باللغة العبرية، كذلك شمل التهويد أسماء الآلات الحربية مثل "**مقلاع داود**" المصمم لاعتراض الصواريخ

وتدميرها، والذي ترجع تسميته إلى قصة النبي داود –عليه السلام– الذي قتل جالوت باستخدام المقلاع، وهم بذلك يستلهمون الرمز الديني ويفرضونه على المصطلحات الإعلامية المتداولة.

في ظل إدراك الإعلام الإسرائيلي لأهمية التسمية ودلالتها، حرص على استخدام كلمة **(يهودي)** بدلاً من **(صهيوني)**، لأن كلمة يهودي تعني صاحب كتاب وهو مصطلح مقبول في ظل دولة إسلامية فيها تسامح ديني تتقبل اختلاف الأديان، وتسمح بالتواجد على الأرض والتعايش السلمي، على نقيض الصهيون الذي يدعي إقامة دولة يهودية منتزعة على أرض فلسطينية، كما ينسبون كلمة **(يهودية)** إلى دولة إسرائيل، رغم أن اليهودية دين وليست قومية، لكن هذا الأمر يؤكد انعكاس الطابع والهوية التي تطغى على الدولة، وتكون انعكاساً لهوية الجماعة وروحها الثقافية.

لقد استخدم الإسرائيليون مصطلحات تجعل من الفلسطينيين طوائف متناحرة ومختلفة، بل وكأنهم أقليات في غير وطنهم، ومن هذه المصطلحات **(عرب إسرائيل، وعرب ١٩٤٨، وعرب الداخل، ودروز إسرائيل، والغزيون** –لوصف سكان غزة–...)، كلها عبارات تدل أنه لا يوجد أصل موحد للفلسطينيين، ولا جذور لهم، فمعظم العبارات أضيفت إلى كلمة إسرائيل لأنها في نظرهم المركزية والأصل الذي يضاف إليه.

من المصطلحات التي تنفي وجود فلسطين من الأصل **(الرواد الصهاينة)** لوصف اليهود الأوائل الذين وصلوا فلسطين، وكلمة الريادة تعني البدء، وكأن فلسطين كانت خالية من السكان فعمروها، كذلك إطلاق اسم "**اللاجئون اليهود**" على اليهود العرب الذين هجرتهم الحركة الصهيونية إلى فلسطين، وهذا يوحي بأن الدول العربية هجّرت اليهود العرب قسراً وتم الاستيلاء على ممتلكاتهم، في

إشارة للموازنة بينهم وبين اللاجئين الفلسطينيين، فهي تطلب من الدول العربية احتواءهم كما احتوت إسرائيل اللاجئين اليهود[١].

كما شاع مصطلح **(الأراضي الفلسطينية)**، و**(الأراضي المتنازع عليها)** الذي يعني وجود أراض فلسطينية وغير فلسطينية، وأن هذه الأراضي موضع خلاف ولم يحسم أمرها بعد، كما يتم استخدام مصطلح **(مواقع)** عند تعرض هذه الأراضي إلى القصف بالرشاشات الثقيلة والمروحيات، وكأنها أصبحت مواقع عسكرية معادية، إذ يتم التلاعب باستخدام المصطلحات المتعلقة بالأرض حسب ما يقتضيه الظرف السياسي.

لقد تسلل اسم **(إسرائيل)** بدلاً من **(فلسطين المحتلة)** إلى وسائل الإعلام وأصبح متداولاً على المستوى العربي والعالمي مما يعد نصراً لها، وقد عبر عن هذا الأمر ديفيد كمحي المدير العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية: "ظلت كلمة إسرائيل نادرة الاستعمال في وسائل الإعلام العربية وكانوا يطلقون عليها صفات مثل "السرطان في وسطنا" أو "الاغتصاب الصهيوني للسلطة" ومع مطلع الثمانينيات توصل العرب إلى اصطلاحات بالنسبة إلى الوجود الإسرائيلي، فلم تعد "إسرائيل" كلمة بذيئة.. أما نحن فقد رأينا في هذا التحول في الموقف العربي دليلاً مقبولاً على إمكانية إجراء مصالحة للمرة الأولى حيث انتقل التركيز القديم على هدف الإبادة إلى إمكانية التوصل إلى حلول مع إسرائيل"[٢].

وفي إطار تشويه النضال الفلسطيني وغياب الشرعية عنه تم قلب مصطلحات الثورة والنضال وإضفاء صفة الذلة والهوان عليها لإخراجها من

---

(١) انظر: بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس، ط١، ترجمة محمد عودة الدويري، مراجعة كلثوم السعدي، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، ١٩٩٥.

(٢) دايفيد كمحي: الخيار الأخير ١٩٧٦-١٩٩٠، ط١، مكتبة بيسان، بيروت، ١٩٩٢، ص١٥٨.

دائرة الشرعية إلى دائرة النبذ والرفض، فمثلاً تم وصف الانتفاضة الفلسطينية بأنها **(أعمال شغب)**، و**(أعمال عنف)**، حتى المقاومة أصبحت **(هجوماً، تفجيراً، قتلاً)** مما يعطي الاحتلال حق الدفاع عن نفسه، حتى الفدائيون أصبحوا **(انتحاريين)**، كما يوظفون مصطلح **(الإرهاب)**؛ لتوصيف أي فعل يقوم به الفلسطينيون بما في ذلك إلقاء الحجارة، والتصدي للاحتلال، فالمناضلون **(أوكار الإرهاب)** وسلاحهم **(البنية التحتية للإرهاب)** وأسماؤهم ستكتب على **(لائحة الإرهاب)**، والمقاومة السلمية ضد الاحتلال والاستيطان تسمى **(الإرهاب الشعبي)**، إن ما أرادت إسرائيل أن تسميه إرهاباً يجب علينا أن نسميه إرهاباً حتى لو كان في سبيل الدفاع عن النفس، وما لا تسميه إرهاباً يجب علينا القبول به ولو كان في قمة الإجرام والوحشية والانتهاكات! إن جرائم اليهود وحروبهم المتواصلة ضد الفلسطينيين لا تعد في نظرهم إرهاباً بل مكافحة للإرهاب، وبهذا يمارس الاحتلال إرهاباً لغوياً حتى لا تتسرب حقائق الأشياء، والإرهابُ اللغوي لا يقل خطورة عن إرهاب الأمن القومي، فهي معركة الهوية والذاكرة التي يسعى الإعلام الإسرائيلي من خلالها لترسيخ صورة مشوهة عن واقع الشعب الفلسطيني في ذهن الغربي، وبالتالي تبرير الجرائم ضد الشعب الفلسطيني على اعتبار ذلك إجراءات أمنية لغرض القانون وإعادة النظام.

إن أدلجة الإعلام بالفكر الصهيوني تخلق لغة جديدة لا تعكس الواقع بل تخفيه، وهذا يقع تنفيذاً لمشروع يهدف إلى إلقاء الرعب بين الناس وترويعهم، وتعريض أمنهم للخطر إذ لا يتم الاكتفاء بغسل الأدمغة، بل إعادة تشكيل المجتمعات في سياقات فكرية جديدة، فهناك مصطلحات يعتمدها الاحتلال تعتمد على الترويع والتخويف، إذ يلعب المصطلح تأثيراً نفسياً في المتلقي الذي يشعر

بالرعب والخوف عند سماع المصطلح فيعلن الإذعان والانصياع، ومن هذه المصطلحات توظيف كلمة **(قبة)** في سياق الردع الأمني مثل **(قبة الأنفاق)** على غرار **(القبة الحديدية)**، فالأنفاق الفلسطينية شكلت مصدر ذعر للمستوطنين؛ لذلك قابل الاحتلال هذا المصطلح بكلمة قبة الأنفاق إشارة إلى حماية الإسرائيليين تحت مظلة القبة من أي خطر قادم، كما تفعل القبة الحديدية التي تردع الصواريخ لتحمي الأراضي الإسرائيلية، فمصطلح القبة يشكل مصدر أمان للإسرائيلي، ومصدر ذعر وخوف للفلسطيني الخارج عن إطار الحماية.

وعلى النقيض من ذلك يستخدمون مصطلحات توحي في قشورها إلى رغبة الاحتلال في إشاعة الأمن والأمان، وانتشار السلم مثل مصطلح **(التعايش السلمي)** الذي شاع في الآونة الأخيرة، وهو مصطلح يقودنا إلى جملة من المعاني محملة بمفاهيم تتضارب فيما بينها، فعلى الصعيد السياسي يحمل معنى الحد من الصراع، واحتواء الخلاف من أجل أن يسود الأمن بين الفلسطينيين والإسرائيليين، كذلك مصطلح **(إعادة الثقة)** والمقصود الثقة بالاحتلال لتقبل أي عمل يقوم فيه دون اعتراض أو مقاومة، فإذا وجدت الثقة يتم تقبل ردود الأفعال، كذلك مصطلح **(الرد على العدوان)**؛ لتبرير قصف المدن، ومصطلح **(طهارة السلاح)** المتداول في الأوساط الصهيونية، وهو يشرع قتل العرب ونهب ممتلكاتهم ومصادرة أراضيهم ضمن مشروعية السلاح.

كما يسند الإعلام الإسرائيلي كلمة الأمن إلى معظم مصطلحاته؛ ليمارسوا الاضطهاد ضد العرب تحت شعار أمن الدولة، فمثلاً يسمون الأسرى الفلسطينيين بـ**(سجناء أمنيون)** حيث يرفض الاحتلال منحهم صفة **(معتقل سياسي)** أو **(أسير حرب)**، فيصبح أسرهم مشروعاً لنشر الأمن والأمان في البلاد حسب ما يروجون له، ومن يمارس النشاط السياسي **(مرفوضون أمنيون)**، كذلك جدار العزل

العنصري الذي بنته إسرائيل للفصل بينها وبين الأراضي الفلسطينية أصبح يسمى **(جدار أمني)**؛ لتعزيز فكرة الدفاع عن النفس وأن الدوافع أمنية لا سياسية، فالهدف من بنائه الحفاظ على أمن الدولة، كما تستخدم مصطلح **(قوات الأمن الإسرائيلية)**، رغم أنها ليست أمناً بل قوات احتلال إسرائيلية للضفة الغربية وقطاع غزة.

في سياق رصد أحداث القتل دست إسرائيل الكثير من المصطلحات التي تخدم مشروعها الصهيوني الهادف إلى تعزيز التأييد العالمي لدعم وجودهم، ونصرة قضيتهم، فيستخدمون مصطلح **(الضحية)** لوصف اليهود الذين يقتلون على يد الفلسطينيين، ولا ينطبق ذات المصطلح على الضحايا الفلسطينيين الذين يوصفون بالإرهابيين والمجرمين، كما يتجنب الإعلام الإسرائيلي مصطلح الاغتيال أو القتل لمن يقتل من الجيش الإسرائيلي ولا يوجد تبرير لقتله مستخدمين مصطلح **(قتل في تبادل نار)**؛ لتجعله يستحق القتل كونه شريكاً في إطلاق النار، حتى الفلسطيني الذي يستخدم درعاً بشرياً في اقتحام منزل جاره يطلق عليه مصطلح **(نظام الجار)**، لتبرير استخدام الفلسطينيين دروعاً بشرية، ولتلطيف الصورة الإجرامية لهذا الفعل.

أما على مستوى التراكيب اللغوية فقد طور الإعلام الإسرائيلي قواعد لغوية خاصة بهم في تغطية الصراع مع الفلسطينيين والعرب، إذ يستخدم الإسرائيليون الفعل المبني للمجهول في الحديث عن جرائمهم، مثلاً **(قُتِلَ** فلسطينيان في اشتباك مسلح**)**، أما إذا تعرض الإسرائيلي لهجوم فلسطيني فيستخدم الفعل المبني للمعلوم، وبذلك يتحول الجاني الإسرائيلي إلى مجهول، والجاني الفلسطيني إلى معلوم ضمن منهجية التلاعب في التراكيب اللغوية لإخفاء الحقائق وتزوير الأحداث.

إن التضليل الإعلامي من خلال التلاعب بالمصطلحات والتراكيب اللغوية يلعب دوراً كبيراً في غسل الأدمغة وتزييف الحقائق ليجعل المتلقي ضحية

للتضليل الإعلامي، "فالهدف الصهيوني هو تثبيت هذا الدس المصطلحي والرطانة اللغوية المنقولة في العقل والوجدان وعلى طرف اللسان العربي تعميقاً لما يسميه ثقافة السلام والتطبيع والتعرف على الهوية والثقافة اليهودية واللغة والعبرية"(١)، إن تحول الدالة الحقيقية إلى كذبة والواقع إلى خيال، قلب الأدوار من أجل صياغة رأي عام لإدخال الشكوك وخلق الاضطراب وهدم المعنويات، فالضحية هي المجرم، والمحتل المجرم هو الضحية. إن الهدف من التضليل الدلالي هو صياغة فكر مزور وتسويقه للرأي العام يقوم على رسم إسرائيل ضحية مستهدفة؛ لنفي عروبة الأراضي الفلسطينية المحتلة، وحق الشعب الفلسطيني فيها، فالحرب الدلالية التي يسعى الاحتلال الإسرائيلي إلى ترسيخها ما هي إلا زيف وخداع لترسيخ وهم السيادة وحق الوجود في وجدان العالم "ودسها في لغتنا العربية ليعتاد الكتاب والسياسيون على استعمالها لخدمة المشروع الصهيوني في فلسطين"(٢).

**سادساً: الازدواجية الدلالية في مصطلحات القومية العربية:**

يصر الإعلام الغربي على استخدام مصطلحات مضللة لخلق واقع جديد يعيش أبناؤه الجهل والغياب عن الواقع الصحيح لأمته وقضاياه، فهم يحرفون المعاني بسوء استخدام المصطلح ليتضح لنا مدى اتساع الحرب علينا وشمول جوانبها، وحجم المؤامرات التي تحاك على الأمة جمعاء، بل على البشرية جمعاء.

---

(١) حسنين شفيق: التضليل الإعلامي والغيبوبة المهنية، دار فكر وفن للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١، ص١٢٧.

(٢) محمد عاكف موسى: الحرب الإعلامية، ط١، دار دجلة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١٦، ص١٦٨.

إن محاربة القومية العربية مطلب استعماري لتفتيت الشعوب العربية وإقامة معاقل التجزئة والفرقة والتخلف في الجسم العربي، فالمعركة ليست سهلة أو قصيرة المدى، بل هي مخطط محكم ساعد على تنفيذه واقع الدول العربية المتردي المنكر لمبدأ الوحدة العربية والقومية، فكثرة الانقلابات، وانقسام الدول إلى محاور تتصارع وتتخاصم، وكثرة الطوائف والأحزاب والتعددات الفكرية؛ ساهم بشكل فاعل في فرض هيمنة الآخر وقبول سياسته وتطبيقها.

إن الحرب الحقيقية أصبحت حرب الكلمات وليست حرب البندقية وهي حرب من الصعب إدارتها بأبسط السبل وأقصرها؛ لأنها عملية معقدة تحتاج إلى المعرفة الكافية لتبني قضية أخلاقية وفكر إعلامي يشق طريقه نحو ضمير العالم لإيصال قضية صادقة كون الإعلام تجاوز مرحلة نقل الخبر إلى صنعه، لقد أوجد الصراع مصطلحات ومفردات لغوية منحها معاني جديدة تعبر عن مجريات الأحداث؛ لتصبح جزءاً من الخطاب الجمعي في بلد ما، ومن أمثلة المصطلحات التي غزت الإعلام العربي والتي تجسد الهوان والضعف الذي آلت إليه البلاد العربية **(العالم الثالث)**، وهو مصطلح سياسي واقتصادي يضم الدول العربية وبعض دول أفريقيا وآسيا باعتبارها خارجة عن سرب الدول الصناعية المتقدمة، اعتماداً على تخلف هذه الدول من الناحية الاقتصادية والسياسية، ويعد التصنيف الرقمي لهذه البلاد رمزاً للهوان والذل، ولا يحمل إلا الإحباط والقبول بالرجعية.

وأطلق الإعلام الغربي مصطلح **(دول محور الشر)** على العراق وكوريا الشمالية وإيران، لدعمها الإرهاب والسعي لشراء أسلحة الدمار الشامل، وهو مصطلح غامض يقسم العالم إلى محوري ضد هما الخير والشر، علماً أن الخير والشر صفتان أخلاقيتان تتعلقان بالأفراد لا الجماعات، وهذا المصطلح يضع الدول العربية أمام الاختيار بين اثنين لا ثالث لهما: إما الابتعاد عن النشاط

السياسي والرضا بالتبعية ليدخلوا محور الخير، أو النشاط السياسي الذي يدخلهم محور الشر.

شاع في الآونة الأخيرة مصطلح **(صفقة القرن)**، وهو مصطلح يستخدم أداةً لتفسير كل ما يجري في المنطقة، وهو يحمل من الغموض ما يكفي لتفسير التأويلات المزعومة، فكل ما هو غير واضح من الأمور السياسية العالقة سيحل ضمن صفقة ستضع حلاً نهائياً للصراع العربي مع الآخر في ظل حالة التشرذم والتخبط والترهل العربي، والمصطلح يوحي بأجواء جديدة برعاية أمريكية لرسم سياسية جديدة. إن دلالة مصطلح الصفقة توحي بالمتاجرة في مصير الدول العربية ضمن عرضها على التجارة السياسية العالمية، وبيعها ضمن صفقة زهيدة الثمن!!

إن أي عمل سياسي غربي يشرع ضمن مصطلح **(السلام)**، وهو الهدف المنشود المفقود، فرغم أن الحياة بلا خوف أو فزع هدف من أهداف الحياة السامية، إلا أن السلام المروج له سياسياً هو الاستسلام، الذي لا يتحقق معه السلام ولا الأمن مطلقاً، فبعد ممارسة الظلم يطلبون من المظلوم ألا يرفع صوته، وأن يختار السلام خياراً استراتيجياً وحيداً، وهكذا يعيش الإنسان العربي على الخنوع والاستسلام وهو يظن أنه يحقق الأمن والسلام.

في إطار تحقيق الأهداف العدوانية من فرض ثقافة الغالب المعتدي يتم إرساء الظلم الدولي ضد العرب من خلال التسلل بين الثغور الفكرية العربية، واختراق الوعي الثقافي، وإقناع العالم بتقبل المصطلحات الدخيلة على ثقافتنا، فما يقول به الغرب من انتهاكات يسمى **(الشرعية الدولية)**، ورغم أن مصطلح الشرعية يكتسب الصبغة القانونية والأخلاقية، إلا أنه خرج عن موضعه الأصلي ليصبح مرادفاً للانتهاكات، ومرجعية تستمد منها القرارات التي تدعم الخلافات

والنزاعات، وحتى يتم التعامل مع الظالم باعتباره صديقاً لا عدواً ظهر مصطلح **(التطبيع)**، الذي يجعل المظلوم يتعامل مع الظالم بكل أريحية وراحة، والتنازلات التي يقدمها المظلوم للظالم من ترك حقوقه والابتعاد عن الدفاع عن نفسه، والجلوس مع الغاصب للرضا بالحد الأدنى من مساعدته أصبحت تسمى **(التفاوض)**.

تم إبعاد العقول العربية عن التفكير في سبب التغيرات السياسية في المنطقة ولا سيما الثورات الشعبية التي قام بها الشباب العربي، إذ تم انتقاء مصطلحات مناسبة من قاموس الإعلام المؤدلج لوصف ما يستجد على الساحة العربية من تغيرات، فتم تسمية الثورات بـ**(ثورة الفيسبوك، أو ثورة التواصل الاجتماعي)**، وهذا مصطلح مضلل يبالغ في دور شبكات التواصل الاجتماعي ويعطيها الدور الفاعل في التحرك الشعبي، مغيباً الأسباب الرئيسة لهذه الثورات مثل ارتفاع نسبة البطالة التي يعاني منها الكثير من الشباب، والنظام العربي الجائر، وغيرها من الأسباب المهمة التي كانت المحرك الرئيس لهذه الثورات، مما يصرف الانتباه عن هذه الأسباب فيبقى الحال متردياً لغياب الوعي لحل هذه الأزمات.

كذلك شاع مصطلح **(الحرية)**، كالحرية الفكرية والسياسية والدينية، وهو مصطلح يحمل دلالات سامية، لكن الإعلام يوظفه في غير مجراه ليتناسب مع الأفكار الدخيلة التي تهيئ الانفلات عن القيم والدين والضوابط والأصول، لصناعة ولاءات جديدة، لذا لا بد من تحديد المقصود بهذا المصطلح عند استعماله لكي نضمن حالة وقائية للعقل العربي عند استقبال هذه المصطلحات.

كل هذه المصطلحات المزورة تخفي الحقد والكراهية، وتخدع الآخرين، وتهدف إلى صياغة رأي عام في الخارطة العربية من خلال السعي إلى ترويج الأطروحة الصهيوأمريكية التي تتسلل إلى العقل العربي لخلق انقسام بين الناس ودفعهم نحو التصارع بعضِهم ضد بعض. إن العدو يرسم ملامح أهدافه من

خلال ترويج المصطلحات التي تخدم مؤامراته ليحتل عقل الخصم فكرياً وثقافياً، "إن أخطر ما في حرب المصطلحات هو أن الطرف الأقوى هو الذي يحدد مضامين ومفاهيم هذه المصطلحات وبالتالي تصبح هذه المعاني والمفاهيم هي السائدة وهي المعتمدة من جميع الأطراف"(١)، فمصالح الولايات المتحدة وحلفائها هي التي تقرر إن كان المصطلح إرهاباً أم دفاعاً عن النفس، وتتبدل وتتغير مدلولات هذه المصطلحات حسب ما يطرأ من تبدل وتغير على علاقة الولايات المتحدة وإسرائيل بالدول والمنظمات.

إن هذا الهجوم الدلالي الاصطلاحي يوازي في خطورته الهجوم العسكري المسلح على المسلمين، هدفه "احتلال العقول، وهو بالتأكيد أخطر بكثير من الاستعمار العسكري، فالاستعمار العسكري يستمد قوته من آليات خارجية الإخضاع، بينما الاستعمار الإعلامي يستمد قوته من آليات داخلية الإخضاع"(٢)، فالسلاح في هذه الحرب هو الكلمة التي هي في وسائل الإعلام التي لا تقلّ خطورة عن أثر السلاح في يد العسكري، تفعل مفعولها وتؤتي أكلها دون أن تخلف أشلاء ودماء.

إن هذه المصطلحات هي نتائج لضعف النضال من أجل كيان قومي عربي، ونتيجة التبعية التي تفقد ملكة الإنتاج والإبداع، إن هذا الفشل والانهزام يدعو إلى المراجعة والمتابعة، لكنه لا يشكك بسلامة المبدأ، فالإصرار على المبدأ أول شروط النجاح بالمبادئ السليمة الصادقة التي تمهد الطريق للتغير وتحقيق الذات.

---

(١) علي خليل شقرة: التضليل الإعلامي في الحرب، ط١، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٧، ص١٩٣.

(٢) محمد عاكف موسى، مرجع سابق، ص٩٥.

إن العبث بالمصطلحات التي تحدد القومية العربية، وتشوه العقول وتشتت الأفكار؛ يشكل خطراً كبيراً على المخطط المستقبلي لسير الأمة، لذا لا بد من العناية بهذه المصطلحات تأصيلاً وتطبيقاً من خلال أمن لغوي يحمي العقل والفكر من هذه الحرب الإعلامية الخطرة.

**سابعاً: الأمن اللغوي والحفاظ على الهوية:**

في ظل عصر العولمة الثقافية المنتشرة التي جعلت العالم قرية صغيرة تحركه التقنيات العلمية الحديثة، يتوجب علينا مواجهة التشتت اللغوي ومحاربة الانصهار في مصطلحات الآخر، والابتعاد عن التقليد الأعمى والانسياق اللاواعي وراء المصطلحات الدخيلة، وذلك من خلال التمسك باللغة الأم وعدم تهميشها، فهي عنوان الهوية والوعي والسيادة، كما يجب تفعيل الثقافة العربية حتى لا تضمحل الهوية، وتذوب الشخصية القومية والفردية أمام تحديات العولمة اللغوية والإنتاج العلمي المتميز، فلا بد من تعزيز الشعور بالهوية الفردية والجماعية حتى تتمكن الشعوب من العيش في استقرار وأمن، واللغة هي القُدْرى على تفعيل هذا الدور: "إن اللغة في العالم أداة للهوية الإنسانية، لا يمكن الاستغناء عنها من أجل مواجهة متطلبات الثقافة المحلية والمحافظة على السلوك الاجتماعي، وجعله يؤدي وظائفه تحت مختلف الظروف الاجتماعية"(١).

إن الدعوة إلى التمسك باللغة هي دعوة إلى التحصن بثقافة الأمة وقيمها وحضارتها "فاللغة هي أمارة على شخصية الأمة وذاتيتها الثقافية، ولا تتجلى الذاتية الثقافية لأية أمة إلا عبر لغتها؛ لأن الذاتية الثقافية تتمثل في التراث الفكري والرؤى الحضارية للمجتمع"(٢)، كما أن الاهتمام باللغة ليس محصوراً

---

(١) محمود السيد، اللغة العربية وتحديات العصر، وزارة الثقافة، سوريا، ٢٠٠٨، ص١٧٨.

(٢) شحادة خوري: واقع اللغة العربية عربياً ودولياً، مجلة التعريب، العدد ٢١، ٢٠٠١، ص٣٠-٣١.

في علماء اللغة والنحو، بل هو متعلق بالهوية والانتماء، لذلك كان لزاماً أن تضبط الوسائل التي تؤثر على مستوى الحفاظ عليها، وأن تسن القوانين وتعمل الإجراءات الصارمة التي تحمي اللغة من المخاطر والإشكاليات.

إن اللغة تصنع ملكة الوعي عند الإنسان فرداً أو جماعة وتؤهله لمعرفة الذات، وتحدد نظرته إلى العالم وتؤثر في سلوكاته "فاللغة وسيلتنا الأساسية لنقل المعلومات في المجتمع البشري، ولكن اللغة قادرة على ما هو أكثر من ذلك إذ يمكنها أن تصوغ العالم أو بمعنى آخر...إنها بمثابة منشور تحليل الطيف الذي ننظر إلى العالم من خلاله"[1]، من هنا يجب التحرر من التبعية الثقافية والفكرية، ويتم ذلك من خلال أمن لغوي يسترجع مكانة اللغة، وإعادة الاعتبار إليها، فإذا كانت اللغة هي أساس التبعية، فلنجعل منها أداة للتحرر من التبعية، كما يتوجب علينا حمايتها من الحملات التي تطاردها من أجل النيل منها وإضعافها والتشكيك في قدراتها وفي جدواها وأهميتها، وتسعى إلى تنحيتها والقضاء عليها، وهذا يقتضي اتخاذ الإجراءات اللازمة لاستتباب أمن لغوي دائم، يسهم في المحافظة على مقومات الهوية، ويحول دون التمزق والتشرذم والصراع القائم على أسس لغوية ذات خلفيات عرقية أو ثقافية.

---

(١) نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، ١٩٨٠، ص٢٢٣.

**الخاتمة:**

مرت اللغة العربية بأزمات وكروب، توازي كروب الأمة العربية فكانت اللغة الانعكاس الصادق لحال الأمة العربية التي تتعرض للاستعمار على الأرض والفكر والهوية، إذ كانت مساعي المستعمر جادة بذلت لأجلها الجهود وعملت على تعزيز لغته الاستعمارية، لذلك لا بدّ من استراتيجية قابلة للتطبيق يتم من خلالها السيطرة على المعرفة وضبط الثقافة، والمدخل الصحيح لذلك الولوج إليها من باب السيطرة على المصطلحات وتحريرها وضبطها وفق الموازين الصحيحة التي تعبر عن الهوية بكل مشتملاتها.

إن معظم المصطلحات الإعلامية في الوقت المعاصر تعتمد على المراوغة وتجاهل الحقائق، ما يتطلب وجود أمن لغوي يفكك هذه المصطلحات ويعيد تركيبها من جديد، إذ ليس المطلوب هو التوقف عند نقد المصطلح أو إدانته، بل تجاوز ذلك إلى تعرية الأهداف الكامنة خلفه، إن حرب الدال والمدلول مخطط لاستيعاب الشارع العربي والعقل العربي من خلال الوسائل الإعلامية التي تعمل على إضاعة الرأي، مما يستدعي ضرورة تجاوز التناقضات الإعلامية الراهنة من خلال أمن لغوي يحمي الإعلام العربي من السقوط.

إن مشكلة ازدواجية المصطلحات الإعلامية مشكلة كبيرة وخطيرة تعمل على قلب الحقائق وتبديل الثوابت، لذلك يجب أن تتضافر جميع الجهود للكشف عنها ودراستها بغية الوصول إلى حلول ناجعة، ويتحقق هذا الأمر بوجود أمن لغوي يحمي اللغة من التهديدات التي تواجهها، والمعيقات التي تعترض طرق تمكينها. علّ ضمير الأمة يستيقظ ليستشعر المخاطر التي تهدد اللغة وأمن لسانها، وأن يتبصر ما يراد بها من مخططات تآمرية تستهدف كيانها. وأختم بمجموعة من المقترحات التي رأيتها قد تصلح حلولاً لحماية اللغة وإشاعة الأمن اللغوي:

١- الحاجة إلى قرارات إدارية موحدة تضمن الأمن اللغوي العربي القائم على الهوية والانتماء في زمن يراهن فيه على طمس الثقافات، حتى لا تتمكن إسرائيل ولا الإعلام الغربي من شق الصفوف، واعتماد سياسة التفريق.
٢- الالتفات إلى الدور الفعال الذي تؤديه المؤسسة الإعلامية والعناية بلغة الإعلام لتكون فصيحة، سليمة في عباراتها وتراكيبها وقواعدها.
٣- الاهتمام بتزويد الإعلاميين والساسة بنشرة حول المصطلحات الإعلامية المؤدلجة وخطر استخدامها بما يخدم أهداف المحتل.
٤- تعجيل النظر في مشكلة المصطلحات الإعلامية وضبطها وتوحيدها قبل استعمالها وشيوعها.
٥- تفعيل دور المجامع اللغوية من خلال الجهود المشتركة لتطوير إمكانات اللغة العربية وتقوية بنيتها الداخلية، والذود عنها، والمنافحة دونها.
٦- دعم القرارات الرسمية السياسية لبرنامج الأمن اللغوي، إذ إن هناك تلازماً ضرورياً بينهما.
٧- يتحقق الأمن اللغوي بترشيد الخطاب الإعلامي لاحتواء مظاهر الاستحداث اللغوي.
٨- إيلاء البعد الإعلامي ما يستحقه من أهمية على الصعيدين العربي والعالمي لما له من دور مهم ورئيس في الحروب العسكرية لا يقل عن دور القوات المسلحة في الحروب.
٩- عند استعمال أي مصطلح من المصطلحات الإعلامية يجب أن تعرف الوسيلة التي وصل بها هذا المصطلح، والسياق الذي يجب أن يستخدم فيه.
١٠- تفعيل وسائل الاتصال والمعلومات في نشر المصطلح الإعلامي الصحيح، لما لها من دور في إحداث التغيرات البالغة الأثر.
١١- إنشاء مدونة سلوك للممارسات الإعلامية بحيث يتم من خلالها التمييز بين الإرهاب والمقاومة المشروعة؛ وذلك للتصدي إلى محاولات اختراق وعي الشعوب العربية.

## المراجع:


١- بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس، ط١، ترجمة محمد عودة الـــدويري، مراجعة كلثوم السعدي، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان.

٢-حسنين شفيق: التضليل الإعلامي والغيبوبة المهنية، دار فكر وفن للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١١.

٣- دايفيد كمحي: الخيار الأخير ١٩٧٦-١٩٩٠، ط١، مكتبة بيسان، بيروت، ١٩٩٢.

٤ - علي خليل شقرة: التضليل الإعلامي في الحرب، ط١، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٧.

٥- عمر "محمد أمين" هزايمة، الأمن اللغوي العربي، الأردن، إربد.

٦- فؤاد أبو علي: العربية والأمن اللغوي (مقال).

٧- محمد عاكف موسى: الحرب الإعلامية، ط١، دار دجلة للنشر والتوزيـــع، عمان، ٢٠١٦.

٨- محمود السيد، اللغة العربية وتحديات العصـــر، وزارة الثقافـــة، ســـوريا، ٢٠٠٨.

٩- نايف خرما: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، المجلس الأعلـــى للثقافة، الكويت، ١٩٨٠.


**الأبحاث والدوريات:**


١- اللغة العربية في الفضائيات، التقرير الخامس من منتجات برنامج ريادة، مؤسسة الرشيد للإعلام، الرياض، ١٤٢٩هـــ/٢٠٠٨م.

٢- واقع اللغة العربية عربياً ودولياً، شحادة خوري، مجلة التعريب، العدد ٢١.

# المضامين الفكرية في شبكات التواصل الاجتماعي
# بين البعد الميثولوجي والتوظيف الأيديولوجي

الدكتور لبصير نورالدين

جامعة امحمد بوقرة بومرداس ، الجزائر

الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م

## الملخص

في ظلّ التحول الذي أصاب شبكات التواصل الاجتماعي من مجرد هواية للتواصل الثقافي، والعلمي، والفني إلى قوة مؤثرة على مستوى صناعة المضامين الفكرية، وتوجيهها، مع التقدم الإلكتروني الذي نشهده اليوم تبقى مواقع التواصل أكثر الوسائل إغراء، وتشجيعاً لفئات المجتمع، فهي فرصة للتعبير.

سعى الباحث إلى دراسة تأثيرات مواقع التواصل في توجيه المضامين الفكرية، لأنّها تعتبر التحدي الأكبر للمجتمعات العربية، خاصة في سياق التحوُّلات التي عرفتها، لترشيد استعمالها لأنّها تُشجِّع المستخدم على الذوبان، والانصهار في عالم الرَّقْمَنَة. واتبع الباحث المنهج التحليلي لتحليل المضامين المدونة بالعربية في شبكات التواصل، تحديداً الفيسبوك؛ لأنّه منهج يتيح للباحث تحليل سلوك الأفراد، ومواقفهم من خلال المواد التي يكتبونها، أو يقولونها.

**مقدمة:**

نحن في زمن تجددت فيه حوامل المعرفة، فلم يعد الاهتمام بالمضامين لدى جيل اليوم في الكتاب، والمصحف، وفي المدرسة، والجامعة، والنوادي الأدبية..؛ خاصة ما يراه من عمق التقنية، إذ أصبحت في المدونات، ومواقع التواصل، والبرامج الافتراضية، حتى غدت المعبود الذي لا يستغنى عنه، وإذا كان لكلّ عصر علامة فارقة ومميّزة فإنّ هذا العصر هو مجتمع المعلومات لما يشهده من ثورة رقمية هائلة قد غيَّرت كثيراً من المفاهيم، وزحزحت كثيراً من القناعات، والميولات، وغيّرت كثيراً من المرجعيات، والاتجاهات، والتي كانت تبدو ثابتة، ومستقرة، ونَسفت كثيراً من النظريات، والأطروحات، وأسقطتْ كثيراً من اللغات، والتيارات، لذا أعتقد أنّ من المفيد اليوم التوجه إلى تحليل ودراسة العلاقات الرابطة بين مواقع التواصل الاجتماعي، والأفراد لاستجلاء دوافع الارتباط بها خاصة مع قلّة الدراسات التي اشتغلت على استنطاق مضامين خطابات الفيسبوك بوصفها فضاء جماهيرياً يمضون فيه فترات طويلة لأنّ الدراسات غالباً ما كانت تركز على الجوانب التقنية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يستوجب منا التفكير في كيفية قراءة هذه المضامين الموظّفة في هذه المواقع التي تلاشت فيها الحدود، وأزيلت منها القيود، خاصة في ظلّ تأثيرها المتنامي على أفراد الأمة وقد تسللت إلى جميع جوانب حياتهم مؤثرة على طريقة تفاعلهم، وتفكيرهم، ولغاتهم.

**أهداف الدراسة:**

– في ظلّ التحول الذي أصاب شبكات التواصل الاجتماعي من مجرد هواية للتواصل الثقافي، والعلمي، والفني إلى قوة مؤثرة على مستوى صناعة المضامين الفكرية، وتوجيهها؛ كلّ ذلك يدعونا إلى تحليل بنيتها.

– مع التقدم الإلكتروني الذي نشهده اليوم تبقى مواقع التواصل أكثر الوسائل إغراء، وتشجيعاً لفئات المجتمع، فهي فرصة للتعبير، والخطابات التي تطارده، وسهولة التعامل معها، وما تمنحه من خطابات تدفعنا لمقاربتها.

**أهمية الدراسة:**

– دراسة تأثيرات مواقع التواصل في توجيه المضامين الفكرية، لأنّها في اعتقادي التحدي الأكبر للمجتمعات العربية، خاصة في سياق التحوُّلات التي عرفتها، لذلك نسعى لترشيد استعمالها لأنّها تُشجِّع المستخدم على الذوبان، والانصهار في عالم الرَّقْمَنَة.

**إشكالية الدراسة:** في ظلّ التقدم التكنولوجي، وما صحبه من تحولات رقمية عميقة حتى أصبح التواصل الاجتماعي من أهم وسائل التواصل الثقافي، والحضاري، والمعرفي في السنوات الأخيرة، وبناء على ما سبق تنبني إشكاليتنا التي نودّ مقاربتها على جملة من الإشكاليات التي نرى أنّها تشكّل المنطلقات الأساسية لمادة هذه الورقة البحثية: كيف تمّ توظيف المضامين الفكرية، واللغوية المدونة بالعربية؟ هل يمكن قراءتها بمعزل عن الرسالة، والقيم الأيديولوجية التي تحملها؟ وهل للسياقات المختلفة تأثير في توجيه المضامين؟ إنّ قراءة سياقات مضامينها، وأهدافها، وطرائق استخدامها، ومستوياتها تساعد على تفكيك بنياتها، ما هي الأطر المرجعية التي تُحدِّدها؟ إذ على الرّغم من أنّ وسائل التواصل

كتقنية سهَّلت التواصل، وذلَّلت كثيراً من الصعاب، حتى صارت في متناول الجميع، غير أنّها من جانب آخرَ ساهمت في فشوِّ الآفات الأخلاقية، وتضييع كثير من القيم، وأفضت إلى مفاسدَ عظيمة أضرَّت بالمجتمعات، فما هي تأثيراتها؟ وفي ظلّ التطور التكنولوجي؛ وتحديات الإدارة الإلكترونية التي تزداد يوماً بعد يوم، هل نحن أمام نسق أيديولوجي جديد؟

**المنهج المتبع في الدراسة:** اتبعت الدراسة المنهج التحليلي لتحليل المضامين المدونة بالعربية في شبكات التواصل، تحديداً الفيسبوك؛ لأنّه منهج يتيح للباحث تحليل سلوك الأفراد، ومواقفهم من خلال المواد التي يكتبونها، أو يقولونها، وهو من المناهج التي تناسب هذه الدراسة، ويساعد على تحديد واقع المضامين، ومن ثمّ جمعها، وتحليلها، ممّا قد يساهم في تشخيصها، لأنّ تحليل المضمون يعدّ أداة وصفية لدراسة محتويات الخطابات، وقد استخدم الباحث التعبير الكيفي لوصف المضامين الموظّفة، وكيفية استخدامها بين البعد الميثولوجي، والتوظيف الأيديولوجي في سياقاتها الزمانية، والمكانية، فالتعبير الكمي يعطينا وصفاً رقمياً يوضح لنا مقدار حضورها، أو حجمها ثمّ العمل على وصف المحتوى الظاهري للمضامين مع استكشاف مضمرها النّصي، والسياقي، ودرجات تأثيرها على اللغة العربية؛ للوصول إلى استنتاجات تساهم في فهمها، وتفسيرها، وتأويلها.

**مواقع التواصل الاجتماعي بين الاستراتيجية والوظيفية:** مع التوجه المتنامي نحو الوسائط المتعددة سنتجاوز الحديث عن الكثير منها لنركز حديثنا حول الشبكة الفيسبوكية، وقد تمّ ترجيح هذا الاختيار لاعتبارات تفرضها ضرورات المرحلة الراهنة، فالفضاء الأزرق أصبح الوسيلة الأولى التي فرَضت

نفسها على النّاس حتى لا تكاد تجد واحداً إلا وله صفحة على إحدى هذه الوسائل، إذ أصبح الفيسبوك يحتل المرتبة الأولى، من حيث عدد زواره، وبوصفه شبكة تواصلية تجمع كلّ فئات المجتمع، حيث تمارس علاقاتها التواصلية بكلّ حرية.

هذا الاستقطاب يمكّننا من رصد الخطابات الدينية المتنوعة، ومن هنا تبرز بوضوح الحاجة الملحة لقراءة هذه الخطابات التي تشكل المرجعية الأيديولوجية للخطاب الديني الفيسبوكي، وتمنحه مشروعيته كخطاب تمثل فيه المضامين مادة دسمة تستهوي الدارس والباحث باعتباره خطاباً ليس عادياً، لذلك نحاول في هذه الورقة استنطاق الخطابات الدينية المتعددة الفيسبوكية التي تحمل في ثناياها آفاقاً واسعة تدفع الدارسين للوقوف على الخطابات الموظفة في آليات التواصل الجديدة التي رافقت التطور الرقمي.

فقد وصفت هذه التحولات الرقمية الكبيرة والتغيرات العميقة التي حدثت في المجتمعات نتيجة للتدفق الحر للمعلومات بالثورات العملاقة؛ الأمر الذي أدى إلى التفكير فيما ستكون عليه المجتمعات في الحقبة الزمنية القادمة، خاصة في ظلّ ما بات يعرف اليوم بوسائل الإعلام الجديد في واقع يمثل التدفق الحر للمعلومات أبرز سماته، حيث تؤثر هذه الشبكات على كثير من أفراد المجتمع، ومن هذا المنطلق تحاول هذه الورقة البحثية توجيه المساقات المعرفية لرسم صورة عن المضامين، ومع تنامي ظاهرة الإقبال على مواقع التواصل الاجتماعي حتى وصف بأنّه البديل الإعلامي الذي يمارس فيه النقد وتطرح فيه الأفكار، وتناقش فيه الموضوعات الحساسة، فنحن بأمس الحاجة للوقوف عليها، إذ لم يعد الإنسان المعاصر اليوم قادراً على الاستغناء عن كثير من مكاسب

التكنولوجيا الحديثة ومنجزاتها[1]، حتى غدا التواصل بغير التقنية الحديثة أمراً مستحيلاً[2].

لا نريد أن نناقش أهمية أو سلبية مواقع شبكات التواصل الاجتماعي، لأنّه -في اعتقادي- هذا تحصيل الحاصل؛ لأنّ حلقة النقاش تجاوزته، حتى وإن كانت هذه الوسائل تتجاوز في نجاعتها الإعلام التقليدي وتفوقت عليه في أداء الرسالة المطلوبة، ولكن الذي يهمنا على الأقل في هذه الدراسة لن يكون التركيز على وسائل التواصل بحد ذاتها، لأنّ الوسائل تأخذ حكم المقاصد، وكلّ شيء إذا لم يكن مقصوداً لهدف سام يبقى عبثاً وضياعاً، وكلّ ما يشذ عن بناء المقاصد هو جهد مهدر وعمل ضائع شارد، ولما كان الفيسبوك أكثر الوسائل الرقمية الذي يشكل ظهورها ثورة على السائد مهما اختلفت تموضعاته، حيث أسهم في تغيير الوعي نحو تقبل المتاحات التكنولوجية وما تطرحه؛ سنركز على طريقة استخدام المضامين الفكرية في وسائل التواصل الاجتماعي في بناء التصورات التي توجه وتؤطر تلك الرسائل، لذلك أعتقد أنّه من الضروري اليوم أن نمحور السؤال: كيف ينبغي معالجة المضامين الفكرية المكتوبة باللغة العربية في ظلّ التقنية؟ وعلى العقل العربي اليوم أن يتأهب لمعركة أخرى لا تقل حدة عن معارك مضت، إنّنا نعيش في زمن الحروب الناعمة لتغير المجتمعات لغوياً، وثقافياً، واجتماعياً، وسياسياً، ودينياً...

إنّنا عندما نبحث في المضامين الموظّفة في وسائل التواصل فلسنا نقصد الأخذ المنفعل السالب، أو الأخذ الحيادي الطائش، أو التقبل الساذج غير النقدي للواقع والمحيط، فنحن نعيش في عصر الكذابين المحترفين، وعصر التزييف

---

١. المعرفي، الأيديلوجي، الشبكي، تقاطعات ورهانات: كمال عبداللطيف ٢٠١٢، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيرت، الدوحة، ص:٥٩.

٢. الإعلام ليس تواصلاً: دومينيك وولتون ٢٠١٢، دار الفارابي، بيروت، ص٧٢.

تديره وسائل التواصل، وعصر الترويج للباطل تردده وسائل التواصل الاجتماعي ليل نهار، ونقرأ التضليل يطبع على أنّه علم، والانحرافات تروج على أنّها نظريات، والأساطير على أنّها حقائق، والعمالة للدول الأجنبية تمارس على أنّها شرف، وولاء للقيم الإنسانية وعلى أنّها معلم من معالم الحضارة، والكفر على أنّه حرية، وتفتح، وأيديولوجيات العنف، والتعصب، والزندقة الفكرية والمعرفية على أنّها حرية تعبير، وخطاب الكراهية، وتنميط الهويات، والثقافات، وتأجيج الصراعات الاجتماعية، ومن هنا فإنّ التعامل مع هذه الشبكات يحتاج الى مساحة معرفية واسعة بكل آلياتها، وتقنياتها، لأنّ حركة العولمة اليوم تعتمد توظيف البعد المعلوماتي المنبثق عن سهولة وحرية التواصل والتحرر من كل القيود والضوابط، ومن يملك التقانة وتكنولوجية المعلومات يملك قوة تنميط العالم وفق الرؤية التي يريد، ومن هنا يمكن الحديث عن صراع الهويات والثقافات واللغويات والمعلومات... كلّ ذلك كان له انعكاس على ما يكتب وينشر، وما يبث من معلومات وأفكار ومضامين وأيديولوجيات في مواقع التواصل.

**المضامين وتأثيرها على اللغة:** إنّ اللغة الممارسة في مواقع التواصل ليست ممارسة تكنولوجية أفرزتها الوسائط التواصلية الجديدة التي تعمل داخل بيئة تواصلية متغيرة تسهم في تشكيلها تقنيات المعلومات، والاتصال فحسب، ذلك أنّ اللغة العربيّة -بعد ثورات التكنولوجيا الرقميّة- لم تعد كما كانت، فقد أدّت تلك الثورات إلى إحداث تغيير جذري في نمط الكتابة التقليدية المتعارف عليها، فباتت الكتابة بالأرقام، والعاميات، واللغات الأجنبية، فاللغة ليست آلة تؤدي وظيفة الآلة دون تكريس الأبعاد الأيديولوجية التي تستتبع في اللحظة التي يكتب فيها الخطاب.

لا ينبغي علينا قراءة مضامين الخطابات المدونة بالعربية في مواقع التواصل الاجتماعي على أنّها مجرد نسق لغوي، أو مجرد شيء من الأشياء؛ بل هو صراع من أجل الحصول على السلطة كما يرى فوكو[1].

---

١. انظر: نظام الخطاب: ميشال فوكو، ترجمة محمد سبيلا، ط٢، ٢٠٠٧، دار التنوير، بيروت، ص٤٩.

إنّ ظاهرة استخدام مواقع التواصل أصبحت تحتل الصدارة في عملية التواصل؛ بل هي أهم وسيلة على الإطلاق، وقد صحب ذلك الاستعمال ظاهرة خطيرة تهدد اللغة العربية، فقد تغير الجانب اللغوي إلى الصورة والرمز والإشارة، وأصبحت الصورة أبلغ؛ كلّ ذلك يدفعنا إلى إعادة النظر في الخطابات الممارسة على مواقع التواصل محل هذه الدراسة، فالخطابات لم تعد تعتمد على اللغة المكتوبة، أو الشفهية؛ بل أصبحت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتكنولوجيا، والمتغيرات الجديدة إذ تستخدم خطابات لغوية مختلفة، تختلف بين الإغراق في التكثيف، والرمزية، وكذا التبسيط، والسطحية إلى درجة الابتذال أحياناً؛ كلّ ذلك حوّلها إلى لغة بلا هوية.

سعت العوالم الرقمية الموازية في بناء اعتباراتها إلى اختلاق كينونة إبداعية سمتها التحول بعيداً عن سمة التحجر، والثبات المعياري، والعمل على تكسير اللغة، وهكذا يتحول الخطاب إلى استراتيجية للسيطرة، والهيمنة، وتتحول السلطة إلى تقنية خطابية تكسر فيها اللغة كما يذهب هابرماس[١].

يرى فوكو أنّه لا بد من انتزاع الكلمات من كلّ أثوابها المعتادة، ووصفها ثانية في العراء خارج قوالبها، وحرمان الملفوظ من متكئه الدلالي[٢].

فزلزال التغيير الذي صحب تلك الثورات التكنولوجية قد أصاب اللغة العربية المستعملة على مواقع التواصل فأحدث فيها شرخاً وتغييراً جذريّاً، فسرقت حروفها وبدّلت بأرقام، وحلت العاميات محلها، وغيّرت اللغات الأجنبية من طموحات أبنائها، وأفسدت الكونية مسارها وأفرغتها من محتوياتها بلغة هجينة.

---

١. انظر: العلم والتقنية كأيديولوجيا: يورغن هابرماس، ترجمة حسن صقر ٢٠٠٣، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ص:٢٢.

٢. الكلمات والأشياء، ميشال فوكو، ترجمة مطاع صفدي وآخرون، مراجعة جورج ويناتي وآخرون، مركز الإنماء العربي العربي، بيروت، ص:١٠.

إنّ اللغة الممارسة على الشابكة ومواقع التواصل ليست ممارسة تكنولوجية أفرزتها الوسائط التواصلية الجديدة التي تعمل داخل بيئة تواصلية متغيرة تسهم في تشكيلها تقنيات المعلومات والاتصال، كلّ ذلك يعطي الباحث مشروعية البحث والتماس الأسباب الكامنة وراء انتشار هذه الظاهرة بشكل لافت، لأنّها لم تقتصر على وطن عربي واحد؛ بل تكاد تكون هذه الظاهرة عامة لا يخلو منها بلد من البلدان العربية، ما يدفع للبحث والتعمق في دراسة هذه الظاهرة من مختلف الجوانب، فالخوف على مستقبل اللغة العربية وعالميتها في ظلّ التطور التكنولوجي؛ وتحديات الإدارة الإلكترونية على لغة الضاد.

إنّ مضامين اللغة المكتوبة في الفيسبوك تضعنا أمام خيارين: إما التعامل معها بوصفها منعطفاً في تاريخ الكتابة، وإما التعامل معها بأنها تقنية رقمية، والقطيعة مع اللغة الكلاسيكية، وكلتا الحالتين؛ ليست في صالح اللغة العربية، فلا شك أنّ المجتمع الذي ينتج معارفه حتى ولو كانت جديدة بلغته الرصينة من جملة ما يعنيه أنّ هناك علاقة تجاذب بين اللغة وأهلها إما سلباً، وإما إيجاباً؛ يقول المسدي: "وبين اللغة والمجتمع علاقة متبادلة... فلا تتحرك دون مجتمع يتحرك، ولا مجتمع يتحرك من دون لغة... فإنّ المشكل اللغوي هو في الواقع تحليل للنسيج الاجتماعي الثقافي الأوّليّ والأساسيّ الذي تقوم عليه الوحدة الثقافية القومية، وهذا التحليل ليس في واقعه لغوياً بقدر ما هو تحليل للمجتمع"[1].

**اللغة العربية في مواقع التواصل بين الاستغراب والاستلاب:** إنّ اللغة العربية المعاصرة المستخدمة في مواقع التواصل تعاني حالةً من الاستغراب والاستلاب في نمط الكتابة اللغوية، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ العرب المحدثين يكتبون العربية بحروف أجنبية، حتى صارت اللغات الأجنبية لغة التواصل العالمي، والتقنية الحديثة، والحضارة والسياسة والفكر المعاصر خاصة الإنجليزية.

---

١. العرب والانتحار اللغوي، د.عبدالسلام المسدي، ط الأولى، ٢٠١١، دار الكتاب الجديد، لبنان، ص١٣٥.

إنّ استبدال الحرف العربي بالحرف الأجنبي، كلّ ذلك كان تمهيداً لمحاربة اللغة العربيّة وإقصائها، وإحلال حروف أخرى محل حروفها لم يكن وليد اليوم، لقد بدأ منذ الاحتلال الأوروبي لبلدان العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر الميلادي، وجرت حملة واسعة تدعي عجز اللغة العربيّة عن أداء مهمّتها إزاء المصطلحات الحديثة، وصعوبة تعلّمها؛ يقول المسدي: "فاللغة القومية ليست مجرد وسيلة تعبير وتفاهم بين إنسان وآخر، إنّها بحكم منطقها الداخلي، وتاريخيّتها، وبناها، وتراكيبها رابطة اجتماعية فكرية من الدرجة الأولى، يتبيّن ذلك من زوايا ثلاث من النظر يتكامل بعضها: فاللغة أداة تلقي المعرفة، وأداة التفكير، ورمزه، وتجسيده، إنّها الفكر نفسه في حالة العمل"[١].

إنّ الوقوف في وجه هذه الحملات المسعورة ليس خياراً؛ بل هو واجب وجهاد لا يجب أن نتوانى عنه؛ كلّ في موقعه؛ إنّهم يريدون أن تتحول اللغة لمجرد غرض لا قيمة له؛ يقول كولماس: "اللغات إنّما هي أدوات تستخدم في أغراض معينة، فإذا افترضنا أنّ هذه الأغراض يمكن إنجازها بنجاح وكفاءة نوعاً ما، وإذا افترضنا أيضاً أنّ مستعملي أداة ما ميالون إلى اختيار الأداة التي تناسب أغراضهم، أو أنّهم يكيفونها بطريقة تجعلها مناسبة لغرضهم، أو أغراضهم العاجلة التي تدنو من الكمال، فإنّه يترتب على هذا أنّ اللغات يجب أن تتغير كما تغيرت الحاجات التي تستخدم اللغات لإنجازها"[٢]، فهو ينظر للغة على أنّها مجرد أداة قبل كل شيء، فليست لها قيمة بحد ذاتها، وإنّما تنطوي على قيمة[٣].

---

١. العرب والانتحار اللغوي، د.عبدالسلام المسدي، ط الأولى، ٢٠١١، دار الكتاب الجديد، لبنان، ص١٣٤.

٢. اللغة والاقتصاد: فلوريان كولماس، ترجمة د.أحمد عوض، مراجعة عبدالسلام رضوان، سلسلة المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٩، نوفمبر، ص٢٦٣.

٣. انظر المرجع السابق، ص٧٥.

تحولات الكتابة العربية وتكريس الأخطاء اللغوية: إنّ اللغة العربية الفصحى في العالم العربي اليوم تعيش حالة انتكاسية لا مثيل لها بالنظر إلى الواقع اللغوي العربي الحالي الذي تمخض عنه أخطاء لغوية ونحوية وإملائية وصرفية وبلاغية وأسلوبية...، ويضاف إليها هجين لغوي متنامٍ، يظهر ذلك جلياً في الاستعمال والممارسات اللغوية على مواقع التواصل؛ أخطاء كارثية، وخليط من الأنماط اللغوية من مختلف لغات الاستعمال اليومي من عربية فصحى ودارجة ولغات أجنبية.

وفي سياق الطفرة الرقمية بات تواصل معظم الشباب الناشئة عبر مواقع التواصل الاجتماعي ووسائل الاتصالات الحديثة يجري عبر لغة مليئة بالأخطاء النحوية والإملائية والصرفية والبلاغية...من جهة، ولغة "هجينة" يطلق عليها "العربيزي" أو "فرتكو أراب"، ناهيك عن العاميات المنتشرة في مواقع التواصل، والدردشة، لذلك نتساءل في ظلّ الطفرة التقنية التي تزحف وتجرف معها كلّ اللغات العاجزة عن تطوير بنياتها وتجديد آليتها للمساهمة في الإنتاج المعرفي: هل ستصمد اللغة العربية في مواجهة العولمة اللغوية والإرهاب اللغوي الممارس ضد اللغة العربية على وجه الخصوص؟والتهجين اللغوي؟ والتغريب؟ والركاكة؟ فهي ليست مجرد مسايرة التطور والعصر، فقد توقع ماركوز أن يحدث استخدام اللغة المختصرة من عالم التجارة والدعاية استجابات، وردود أفعال آلية من البشر[1]، لذلك كان السؤال هل ستصبح هذه الكتابة إن استمر الأمر في الاستفحال أمراً مفروضاً وواقعاً معيشاً لا مفرّ منه؟ ويضاف لها مشكلة الضعف والأخطاء اللغوية التي تزايدت مظاهرها، وتنوعت أشكالها في

١. النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت: آنلن هاو، ترجمة ثائر ذيب، ٢٠١٠، دار العين، المركز القومي للترجمة، مصر، ص:١٢٨.

مواقع التواصل الاجتماعي والدردشة والمنتديات حتى أصبح من العسير حصر هذه الأخطاء، ما يستدعي الوقوف على أسبابها، إذ تعدى الأمر إلى المثقفين، واستفحلت الظاهرة حتى تولّد لدينا جيل عاجز عن الكتابة الصحيحة؛ أخطاء كثيرة تعيق الفهم وتشوه اللغة، لقد عمدوا تدرجياً إلى إبعاد اللغة[١].

إنّ الكتابة الصحيحة مظهر من مظاهر التعليم ورمز من رموز رقي اللغة، وعنصر أساس من عناصر الثقافة. وقد تركت تلك الأخطاء أثراً عميقاً على جيل بأكمله لا يأبه بوقوع تلك الأخطاء وذاك الهجين الذي يشوه جمالية اللغة العربية، وهنا أستحضر ما قاله ميشال فوكو، فالخطاب عنده هو نمط من أنماط تنظيم المعرفة، فهو يرفض المنطلق اللساني[٢].

إنّ منابع التشويش على إمكانية التواصل باللغة العربية في مواقع التواصل، والترويج لمقولات أيديولوجية ثابتة بأنّ اللغة العربية عاجزة عن مواكبة التطور العلمي قد أثر ذلك على كثير من أفراد الأمة، وهذا ما كنا نجده في مواقع التواصل والكتابات سواء من النخب المثقفة، أو عامة الناس، وقد هيأت نفسها للدفاع عن تلك الأطروحات الأيديولوجية، وأعدّت لها العدة، وعمدت لإبعاد أية أطروحات أخرى عبر الاستثمار الأقصى للتكنولوجيا سواء أكانت حقائق، أم أوهام وأكاذيب، وهكذا يتم توظيف الأيديولوجيا بآليات متعددة بكلّ ما يخدم أهدافها وتتحول اللغة من وسيلة للتواصل إلى وسيلة تعيق التواصل[٣].

---

١. النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت: آنلن هاو، ترجمة ثائر ذيب، ٢٠١٠، دار العين، المركز القومي للترجمة، مصر، ص:١٢٩.

٢. حفريات المعرفة: ميشال فوكو، ترجمة: سالم يفون، ط.٢، ١٩٨٧، المركز الثقافي العربي، ص:١٨٢.

٣. انظر: الأيديويوجيا نحو نظرة تكاملية: سبيلا، محمد، ١٩٩٢، المركز الثقافي العربي، بيروت، ص: ١٦.

واللغة لها دور كبير في المجتمع؛ يقول الأوراغي: "ولها -يعني اللغة- الدور المركزي في وقاية النسيج الاجتماعي من التفكك، وفي تهذيب السلوك الفردي، وترسيخ القيم الجمالية والحضارية الرفيعة، وخلق التوازنات النفسية..."[1].

وفي ظلّ الصراعات الاجتماعية التي ما انفكت تؤثر في اللغة تدافع الناس إلى استعمالها لأغراض وأهداف أيديولوجية تجعل الخطاب اللغوي وثيق الصلة بالمواقف المستمدة من الأيديولوجيا، وليس بالحقائق الموضوعية، فهم يوظفون الميثولوجيا والأيديولوجيا، وهدفهم إقناع أنفسهم بقضيتهم اللغوية التي يدافعون عنها، وهذا يعني أنّ عبء الصراع اللغوي بين أفراد المجتمع الواحد سيكون ثقيلاً للغاية لأنّها تخدم مرغمةً أهدافاً أيديولوجية متباينة؛ بل متناقضة أحياناً، ومع ذلك فإنّها ستجد من يروج لهذا الطرح، ويقبل ما تقدمه له من وصفات فكرية جاهزة، وهكذا تتحول اللغة الممارسة في مواقع التواصل من وسيلة لتجسيد الحوار والتواصل وتبادل الفكر والمعارف إلى وسيلة لممارسة العنف والكراهية والأيديولوجيا.

إنّ التوظيف الأيديولوجي لا يجب أن ينسب للغة، إنّما إلى مستعملي اللغة أفراداً وجماعات لأنّها في الحقيقة تؤدي الوظيفة التي يمليها عليها مستعملوها فحسب، سواء أكانت تلك الوظيفة سلبية أم إيجابية، فإذا شاء المرء أن يلوثها بالأيديولوجيا المتطرفة استجابت له وأعطته من طاقاتها التعبيرية، وعلى قدر كفاءة مستعمل اللغة تكون جسامة المسؤولية الأخلاقية المترتبة على المضامين

---

١. لسان حضارة القرآن: محمد الأوراغي، ط.١، ٢٠١٠، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص:٤٢.

الموظفة التي يتم إنجازها عبر قناة اللغة؛ وبهذا لن تكون التهمة موجهة للغة بقدر ما هي موجهة للأنساق الفكرية والسياقات الاجتماعية المنظمة لعمل اللغة، وهي الأنساق التي ليست من صميم مفهوم اللغة، وإن كانت ترتبط بها عضوياً.

**مفهوم النهايات وتوظيف الميثولوجيا:** ففي ظلّ طغيان مفهوم النهايات كصيغة جديدة للتعبير عن حالة الذهول أمام التحولات التي يشهدها العالم اليوم، مثل: نهاية الدين، ونهاية النّص، ونهاية العولمة، ونهاية الهوية، ونهاية المتعاليات، ونهاية المقدسات، ونهاية الأسرة، ونهاية العلم، ونهاية المدرسة، ونهاية الحداثة، ونهاية التاريخ... ونهاية الأيديولوجيات، وفي ظلّ سلسلة الجنائز المتتالية، مثل: موت المؤلف، وموت القارئ، وموت الناقد، وموت النّص، وموت الإنسان، وموت الإله... التفكيك وصل إلى كلّ شيء، فيلغون المرجعية فلا يبقى إلا العبث؛ لمن ستصبح السلطة؟ وهل في المستقبل القريب سنشهد نهايات أخرى، ونعلن موت أخرى عبر سلسلة من الجنائز التي لا تنتهي.

إنّ التقدم الإلكتروني الذي نشهده اليوم، وهذه المواقع التواصلية التي تطاردنا، وسهولة التعامل معها، وما تمنحه من آفاق قد أثرت في مستعملي مفهوم النهايات، ومن يلقي نظرة على الخطاب المتداول في مدوَّنات التواصل الاجتماعي سيقف على عودة خطاب النهايات، مكثافته، حيث يمكن أن نقرأ خطابات متعدِّدة تتحدث عن مفهوم النهايات، كنهاية المشروع القومي العربي، ونهاية الهوية، ونهاية اليسار، ونهاية القيم، ونهاية الوطن، والوطنية، والمواطنة، كما يمكن الوقوف على نهاية الهيمنة الأميركية، ونهاية القضية الفلسطينية، ونهاية جامعة الدول العربية، ونهاية مجالس التعاون الإقليمية؛ بل إنّ بعضهم لا يتردد في الحديث أيضاً عن نهاية إسرائيل، ونهاية "داعش"، و"القاعدة"؛ بل ونهاية الإرهاب، وكذلك نهاية الثورة السورية، ويبلغ الخطاب مداه، فيتحدث مؤدلجو النهايات عن نهاية زمن الأيديولوجيا، ونهاية التاريخ، ونهاية المقدس، والمتعالي.

وقد أصبح خطاب النهايات بما يحمله من أيديولوجيا أمراً واقعاً، إذ لا يجد الذين يوظّفون مضامينه أي حرج في الترويج والدعوة لمعطياته؛ وهكذا جاءت سلسلة النهايات والجنائز لتلغى الحدود الفاصلة بين المرسل، والمتلقي، والمؤلف والقارئ، ومحتوى الخطاب، وسياق الخطاب والمعنى، ولا المعنى لتحرير المتلقي من سلطة النّص والمؤلف، ولذلك ما فتئت تعمل على نفي المركزية، والتمرد على كل الأشكال التقليدية[1]، والقضاء على فكرة الثابت والمؤسسي، واستبدالها بفكرة الصيرورة الدائمة، والتحول المستمر؛ إذ إنّ الإنسان المستقل –عندهم– هو المركز، والمصدر، والمنطلق، وهو المعيار، والمقياس لكلّ شيء، ومن هنا نشأت قضايا مثل (موت المؤلف)، و(انتهاء المتعاليات)، و(أنسنة المقدس) ونحوها.

**تحولات القيم في مواقع التواصل الاجتماعي بين التفاعل والذوبان:** إنّ الحديث عن إشكالية تحول القيم اليوم، لا يعدّ ترفاً فكرياً، ولا مضيعة للوقت؛ بل هو واحد من أكثر المواضيع حضوراً في الملتقيات والندوات والمؤتمرات العالمية والإقليمية والمحلية، وذلك بالنظر لحجم التحولات التي جرت في السنوات الأخيرة والتي فاجأت وأدهشت الجميع، سواء كانوا أكاديميين أو باحثين، أو مهتمين، أو صحفيين، أو صناع قرار، أو أسراً، وغيرهم؛ ولعلنا لا نبالغ إذا ما أكدنا خلاصة أساسية، وهي أنّ الصراع الجاري اليوم في العالم تجاوز ما هو مادي واقتصادي وعسكري وتقني إلى ما هو قيمي ومعرفي بالدرجة الأولى، وقد أكد كثير من الباحثين أنّ مستقبل الصراع في العالم سيكون في منظومات القيم.

---

١. انظر: الأدب التفاعلي العربي ضمن الثقافة السائدة والاختلاف: سعيد الوكيل، ط١، ٢٠٠٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة المعاصرة، ص:٣٢٧.

وقد تم هذا الاختيار لأنّ عدداً هائلاً من مستخدمي وسائط التواصل الاجتماعي، يسهمون في الفوضى الأخلاقية، ويدوسون على كلّ القيم والتقاليد والأعراف، وفي كل الاتجاهات، وبأعداد هائلة، ومتزايدة ينتجون ويتبادلون المعلومات بمختلف أصنافها، ويسهمون في التأثير في البناء الاجتماعي للسلوك[١].

فما أكثر المعارك المفتوحة اليوم على المجتمعات العربية نتيجة للثورات الحاصلة في تقنيات التواصل، والتي لم نَتَمَكَّن بعد من بلورة قوانينها، ولا بناء القواعد القيمية التي تنظم علاقتنا بها.

إنّ موجات التعولم الصانعة لقيم المجتمعات في الحقيقة تجمع بين الصُّورة من جهة، وقيم التواصل الشبكي من جهة، ما يجعلنا بين عالمين متباعدين: عالم الصورة التي تركِّبُها، وعالم الواقع في جريانه، الأمر الذي يؤكد أنّ مبدأ إعلان الوصاية على القيم والتاريخ، لن يوقف الحركية القائمة في مجال تلوين القيم بمتطلبات التواصل مع عالم جديد، عالم يدعونا بحركات وأصوات ومواقف إلى ضرورة التحرر من القيم الموروثة، والتفاعل مع مقتضياته، والمساهمة في بناء قيمه؛ لذلك يدعون إلى إعادة النظر في منظومات القيم الموروثة، أو السائدة، والتفكير في بدائلها في ضوء ما يجري في العالم من تحوُّلات[٢].

وفي خضم الطفرة التقنية، وانفلات المعرفة، وتحول المبادئ والقيم التي كانت سائدة، تمحور السؤال: هل المجتمعات العربية بأمس الحاجة إلى إعادة النظر في منظومات القيم خاصة المطروحة للنقاش في مواقع التواصل، ودورها في تفكُّك الموروث من القيم، واهتزازه؟ فقد حصل هذا بفعل ما عرفه العالم من تحوُّلات تكنولوجية متسارعة، وما تَرَتَّب ويترتَّب عليها من توتُّرات ومعتقدات

---

١. الإعلام الجديد: النظام الفوضى: عبدالله الزين الحيدري، المجلة العربية للاتصال والإعلام، تونس، ٢٠١٠، عدد٦، ص:٤٠.

٢. المرجع السابق، ص:٤٥.

جديدة وسلوكيات أدخلت القيم بمختلف صورها في أنظمة مختلطة يصعُب الركون فيها إلى نماذج ومبادئ بعينها، فقد أحدثت مواقع التواصل الاجتماعي في ظلّ التغيرات العالمية نقلة نوعية في العلاقات والتفاعلات الاجتماعية، وفي التأثير على النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع بشكل عام والنسق القيمي بشكل خاص.

ولما كانت مواقع التواصل الاجتماعي من أحدث منتجات تكنولوجيا الاتصالات وأكثرها شعبية، فقد لعبت دوراً مهماً في نشر ثقافة مجتمعية جديدة تعتمد على قيم مستوردة، وعملت على ترسيخ بعض القيم التي لا تتناسب مع متطلبات المجتمع وتطلعاته وأهدافه وقيمه خاصة في ظلّ غياب القوانين والضوابط التي تحكم إيقاع هذه الظاهرة، مما انعكس بالسلب على المنظومة القيمية التي يحملها الشباب واتجاهاتهم وميولهم تجاه بعض القضايا والمواقف العقدية والأخلاقية والاجتماعية والأسرية.

**وقد** صدق تكهن نبيل علي عندما تحدث عن العوارات الاجتماعية التي سنكتشفها في نهاية الألفية الثانية، والوقوف على الخلل الحاصل بحيث يتعذر معها التستر مهما بلغت قوة وسائل الإعلام الجديدة[1].

كانت المجتمعات التقليدية تمارس نوعاً من الرقابة في ضبط الخطاب حيث ظلّ إنتاجه خاضعاً لمجموعة من الضوابط، ولكن مع التقنية الجديدة أصبح متحرراً، ومتفلتاً من القيم والضوابط .

**نقل المجتمع إلى مرحلة جديدة تتميَّز بالتحرر من الأيديولوجيا:** إنّ الأيديولوجيا التقنية تتغذى من العمل المستمر لتغييب التأمل لدى الإنسان المعاصر بسبب انبهاره وافتتانه بالتكنولوجيا الحديثة.

---

١. انظر العرب وعصر المعلومات: نبيل علي، عالم المعرفة، عدد ١٨٤، ١٩٩٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص:٢٥٤.

إنّ الاستراتيجية التي بنيت على مواقع التواصل هزمت الأيديولوجيـــة، وفرضت منطقها، فهل هي قادرة على إزاحـــة منطـــق الأيـــديولوجيا إذا مـــا تعارضا، وهل أضحت مهمة منطق الأيديولوجيا هي البحث عن صيغة للتعايش مع التكنولوجيا؟

وعلى المستوى الأيديولوجي يُلاحَظ في عصر نهاية الأيديولوجيا، وما بعد الحداثة، أنّ كلّ النظريات تتقلص، ويختفي المركز، لذا فقد نصّ بيير بورديـــو على أن من يملك المعلومات، أو المعرفة، أو الأســـس التكنولوجيـــة يســـتعمل الأيديولوجيا، وهو يسميها بالعنف[١].

ويبقى العنف في طرفي الصراع يصدر بالدرجة الأولى مـــن المحاضـــن الأيديولوجية، وكلما تضخمت الأيديولوجيا زادت حدة العنف.

**الهوية بين الثوابت والمتغيرات الكونية:** إنّ العلاقة التي تجمع بين الأنا والآخـــر كما يقول دانيال هنري باجو: "أسسها التميز والاختلاف، فإن حصـــل التوافـــق بينهما بالتقليد، كانت الأفضلية للنموذج، ويكتسب المقلد هوية الآخر، أو يكسب هوية مشوشة ترنو إلى معاجلة هوية الآخر"[٢].

وتأتي أهميَّة التربية على الهويَّة أو التربية من أجل تعزيز الهويَّة بكـــل أبعادها من أجل مواجهة ما تفرضه خطابات مواقع التواصل الاجتمـــاعي. إنّ العولمة في أبسط معانيها تسعى لذوبان الخصوصيات، ولذلك تسعى للانتقال من

---

١. التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول: بييـــر بورديـــو، ترجمـــة إدريـــس الحلـــواجي، ط.١، ٢٠٠٤، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، ص:٢٧.

٢. الأدب العام المقارن: دانيال هنري باجو، ترجمة غسان الســـيد، اتحـــاد الكتـــاب العـــرب، دمشق، ١٩٩٧، ص:١١١.

الخصوصيات إلى العموميات، ومن الجزئيات إلى الكليات، وعلى النقيض تماماً تسعى الهويات للانتقال من العموميات إلى الخصوصيات، ومن الكليات إلى الجزئيات، وفي ظلّ هذا التجاذب الحاصل بين طرفي نقيض تأتي أهمية البحث في هذه الإشكالية باعتبارها من أكثر المواضيع حضوراً ومناقشةً بين النخب المثقفة في الآونة الأخيرة، لأنّها أمر يتعلق بطبيعة الصراع والتجاذب الحاصل بين مفهومي العولمة والهوية.

لقد سارع الإعلام الجديد بكل توجهاته إلى إفراغ الهويات من محتوياتها وخصوصياتها إذ تعمل على اكتساحها، وهي مشحونة بإرادة الهيمنة، فقد تحولت إلى أيديولوجيا قمعية، وهي تسعى إلى أمركة العالم وتقسيمه إلى مركز وأطراف، بفرض الحراسة والعقاب على المعتقدات، والاستثمار في القيم المقلوبة، وهل تفلح مواقع التواصل بما تملكه في تقليص الهويات في هوية واحدة متجانسة ثقافياً وسياسياً واجتماعياً ولغوياً؟ وهل ستفلح في تذويب الحدود والحواجز الثقافية؟ أم تقوم الهوية بدور صناعة المناعة للفرد والجماعة؟ وفي اعتقادي هذا هو التحدي الأكبر لهوية الأمم والشعوب، فكان لزاماً أن نوجه سؤال الهوية اليوم لتحرير الإنسان من الاستلاب والاغتراب والهيمنة التقنية في ظلّ تحول الصراع من صراع الثقافات إلى صراع الهويات.

وكل من يختار التفرد والخصوصية يصور كحالة شاذة ومنبوذة، لأنّه يقف دون أن يدري ضد أيديولوجيا المجتمع الاستهلاكي وموجهاته الخفية، فالرفض الفكري والانفعالي للامتثالية يبدو وكأنّه علامة عصاب وعجز كما كان يقول ماركوز[1].

---

١. الإنسان ذو البعد الواحد: هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، ط٣، ١٩٨٨، دار الآداب، بيروت، ص:٤١.

في زمان العولمة الذي أفضى لتداول المواقع صار الفاعل مفعولاً، والمفعول صار فاعلاً، وفي ظلّ غياب الأنا الذي استلزم حضور الآخر؛ كلّ ذلك يدعونا لإعادة النظر في مفهوم الهوية في عصر المادية، والذي تحول فيه العالم لقرية كونية لا مكان فيه للخصوصيات والمتعاليات والمقدسات...، من شأنه أن يضع مفهوم الهوية الإسلامية التي نبحث عنها -في زمان الاغتراب- في قلب التحولات الفكرية والاجتماعية والفلسفية والأيديولوجية للمجتمعات الإسلامية سواء في مرحلة الصراع مع الآخر في إثبات الهوية، أم في البحث عن هوية الأنا التي ضاعت في زمان الاستلاب الحضاري، أم في سبيل البحث عن إعادة الاعتبار لمكانة الهوية الإسلامية، ومن ثمّ النهوض بالمجتمعات العربية والإسلامية، ويتسنى لنا إعادة الأنا للحضور. لقد أصبح من الصعوبة بمكان على المجتمعات الإسلامية المعاصرة أن تعيش خارج الحداثة العولمية الكونية، دون أن تتأثر، أو تندرج في مساراتها.

فممّا لا شك فيه أنّ حجر الأساس لتحول كبير في مفهوم هوية يليق بالعالم الجديد قد وُضِع، وتبدو مسألة الهوية في هذا السياق كعملية تكيف مع العالم المقبل، وما يرافقها من صخب وضجيج يشبه ما حدث عند المنعطفات الكبرى في التاريخ الإنساني كلِّه؛ إذ لم تولد دولة المدينة من غير ضجيج وآلام، ولم تولد الدول القومية من غير ذلك، ولم تولد الإمبراطوريات الكبرى من غير معاناة[1].

إنّ كثيراً من المضامين التي يتمّ تداولها في مواقع التواصل نابعة من ضعف الانتماء للهوية الوطنية العربية؛ الأمر الذي أدى لظهور ظاهرة

---

١. اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم: رشيد بلحبيب، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، الهويات إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط١، بيروت ٢٠١٣، ص:٢٤٨.

الاغتراب والإحباط حيث يعيش الفرد في فضاء غريب عنه بعيد عن بيئته الطبيعية الواقعية وهويته الأصلية الحقيقية، ويصبح بذلك تائهاً ومشرداً بين عالمين، لذا تواجه المجتمعات العربية والإسلامية تحديات كبيرة تؤثر في مسار تنميتها وتطورها وتماسكها وهويتها وثوابتها...، خاصة مع ظهور أنماط جديدة من الاتصال والتواصل؛ من ذلك الهوية الافتراضية حيث يعملون على سحب بعض القضايا من الواقع إلى المجتمع الافتراضي الذي يعدّ بوابة جديدة لتحقيق المواطنة[1].

**توظيف الميثولوجيا:** كانت المجتمعات القديمة تنتج أساطيرها لتؤمِّن التحكم بأفرادها، وتحقق توازناتها في الداخل ومع الخارج، والمجتمع الاستهلاكي المعاصر يتحول إلى أسطورة، ولهذا فهو ليس بحاجة إلى إنتاج الأساطير، فقد عاد الاهتمام بالأسطورة في مواقع التواصل وتوظيفها كمخرج نفسي تجاه قلق الإنسان وحيرته وتمزقه، وقد ارتبط هذا الاهتمام بالمطالب النفسية التي رأت في الأسطورة نوعاً من الإسقاط النفسي يهدف -بتمثل الطقوس- إلى إعادة بناء المتناقضات في تجربة الإنسان، وما يناوش وعيه من ضغوط متعددة[2].

فأصبح الإنسان المعاصر يبحث عن آلهة العرب، وعن مجموعة من العقائد والديانات والأساطير التي احتضنتها الحضارات القديمة، خاصة ما يعرفه العصر من تحولات اجتماعية وثقافية وسياسية...، ومع سعيه ومحاولته البحث عن زمن موضعي متحرر من انبثاقات الخطابات المركزية، أو إفرازات العقل التقليدي بدأ الحديث عن خطاب ميثلوجي، **لذا** توجهت المجتمعات نحو البحث

---

١. شبكات التواصل الاجتماعي: د.فيصل محمد عبدالغفار، ط.١، ٢٠٠٥، الجنادرية للنشر والتوزيع، ص:١٧.

٢. الإنسان ذو البعد الواحد: هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، ص: ٤١.

عن البدائل والمغايرات رفضاً للاستبداد السلطوي أو الأنساق المهيمنة؛ ما أدى لتغير المنظومة العقائدية والفكرية والثقافية...

**الأيديولوجيا وانعكاساتها:** ليست القضية والمشكلة في مواقع التواصل، ولا في الخطاب؛ بل القضية هي عدم اعتراف الآخر بالأنا، والتسليم بوجود طرف محاور متكافئ، فالآخر لا يعترف إلا بنفسه، ولا يحاور إلا ذاته، والأنا ينظر للآخر في نرجسية حضارية تاريخية شديدة، الآخر هو مجالها الحيوي والمحقق لحاجاتها، وامتداد نشاطها، الأيديولوجيا الكولونيالية هي الأنا والآخر، الذات والموضوع، الشمال والجنوب، الموافق والمعارض، المماثل والمختلف، وأن ننفض عن أذهاننا مقولات الأنثروبولجيا الغربية عن الثقافات البدائية والثقافات الغالبة، فهذا كلّه مستل من أيديولوجيا الكولونيالية ورؤيتها للمجتمعات وللعالم وهي من توابع عمليات اختراق أنساقنا الفكرية والثقافية، هذا مشروع متكامل ومركب طال منهجنا العقلي الفكري والمعرفي في صميمه، وخلخل المقومات النفسية، وسار بالفنون والآداب والأذواق في خطط وطرائق أخرى للاستعداد للتنازل والتسامح وقبول ما يصدر عن الآخر، على المستوى الثقافي.

إن الخطاب الذي يرسله الباث للمتلقي في حقيقة الأمر يعبر عن موقف إيديولوجي قبل أيّ شيء آخر على اعتبار أنّه نص يجسّد لثقافة بعينها، ولرؤية محددة إلى العالم، وبلغة معينة، وهو ما يفرض أن يسمح بحرية التعبير عن الذات، وأن تستند في ذات الوقت إلى حرية التعرف على الآخر، إلا أنّ الخطاب الموظّف لا يمكن أن ينظر إليه على أنّه عمل عفوي، أو ظاهرة حيادية، ذلك لأنّه إنّما يعدّ اختياراً حضارياً يدل على موقف أيديولوجي محدد سواء بالنسبة إلى موضوع المطروح، أو الطريقة التي ينقل بها الخطاب من لغة إلى أخرى.

لذلك نتحدث عن الأيديولوجيا التي عجزت الأنتلجانتسيا عن إنتاجها، أو حتى تعريبها وتسويقها في وعي مجتمعي قادر على مساءلة الوضع القائم، لذلك

تبنت رؤية هروبية، فاستندت إلى الأيديولوجية باعتبارها بديلاً لوظيفتها التنويرية والإنتاجية؛ ولعل هذا ما جعل كفة الآخر تبدو راجحة، ولذلك لا يترددون في الإعلان أنّه إذا دخلت الاعتبارات اللغوية في صراعات أيديولوجية، فإنّ الاحتمال الأكبر أن يفوز الاعتبار الثاني[١].

**الأيديولوجيا الرقمية:** وتبقى المضامين الموظّفة في الفيسبوك تمتاز في علاقتها بالحتمية التقنية بأنّها تحتل في طياتها أيديولوجيا لأنّ التقنية ليست شيئاً محايداً؛ بل هي جملة من الأدوات والوسائل التي كرست نظاماً عقلانياً للسيطرة والهيمنة، فقد أضحت التكنولوجيا أيديولوجيا قمعية لا تختلف عن الأنظمة الفاشية (J.irgen Habermas) إلا بميزة أساسية جعلت من العقل أداة لقمع الإنسان كما كان يعبر عنه هابرماس.[٢]، ولعل كتاب هابرماس –التقنية والعلم كأيديولوجيا– خير دليل على ذلك[٣].

لا شك أنّ الطفرة التكنولوجية لمواقع التواصل الاجتماعي، وما صحبته من تغيرات تمارس أشكالاً من الخطاب الأيديولوجي الاجتماعي والسياسي والتاريخي والديني والثقافي...، وما تطرحه من قضايا تتعلق بهذه الأيديولوجيا تبقى المرجع الرئيس للمضامين الفكرية للخطابات.

إنّ مفهوم الأيديولوجيا يقتضي وضعاً اجتماعياً وتاريخياً خاصاً يعيش أثناءه الفرد المنتمي إلى جماعة أو طبقة أو مجموعة ثقافية حالة تجعله عاجزاً عن إدراك تعبير صادق تام ومستقيم عن واقع حياته العامة، بما فيها من علاقات

---

1. Lefevere 1992a; George Steiner 1975/1992;p:39.

٢. انظر لذة الكتابة قراءات في الراهن الفكري والنقدي والأدبي: لونيس بن علي، ٢٠١٢، دار فيسرا للنشر، الجزائر، ص:٢١.

3. J. Habermas, la technique et la science comme idéologie, trad. Franc. J. R. Ladmiral, Paris, 1973.

سياسية واجتماعية وتطلعات إلى المستقبل؛ أي تصور الحاضر والماضي والمستقبل إما معكوساً، أو مشتتاً، أو معكراً غير واضح[1].

**تغيير البنى الثقافية:** كما أسهمت مواقع التواصل الاجتماعي في تغيير البنى الثقافية، فإنّه بقدر ما أسهم الفيسبوك في التوسيع من عملية التواصل بسبب سرعة الطرح والانتشار والاستجابة فقد أسهم في تغيير الكثير من الوقائع الثقافية والاجتماعية والأخلاقية...

**عدم مراعاة الاختلاف:** إنّ الاختلاف بين الأفراد والمجتمعات، حق أقره القرآن الكريم؛ قال الله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾[2].

إنّ هذا الاختلاف الذي قامت عليه الحضارات والثقافات والذي استفادت من منجزاته الشعوب والأمم، يصبح لا معنى له عندما يتحول إلى الصراع. إنّ التواصل الذي يتأسس على تفاعل حر بين ثقافات مختلفة، ينشد خيراً يتوزع على الجميع دون زيغ أو محاباة، وهذا التفاعل يكون له أثر لفكر حواري يؤمن بالاختلاف والمساواة في آن، دون أن يرى أن بعض الشعوب أقل شرفاً من شعوب أخرى.

**المضامين بين وعي الحرية وإدراك التقنية:** أصبحت الوسائط الاجتماعية تلعب دوراً كبيراً في حياة الإنسان المعاصر حيث تحولت إلى جزء من يومياته، وأداة للتأثر والتأثير، وهو الذي أضحى لا يستغني عنها، والتي أحدثت داخل النظم الثقافية للمجتمعات زلزالاً عنيفاً، فأصبح بعيداً عن المراقبة ويملك مساحة من الحرية

---

١. الأيدولوجية العربية المعاصرة: عبدالله العروي، ترجمة: محمد عيتاني، ط٤، ١٩٨١، دار الحقيقة، بيروت، ص:١٣.

٢. سورة المائدة، الآية:٤٨.

التي تجعله يتحرر من القيود والترويج للأفكار والمعتقدات من دون رقابة سلطوية، وهي معضلة فكرية إجرائية؛ صحيح لا قيمة للفكرة مهما كانت طبيعتها إلا إذا شاعت بين النّاس، ولعل خير وسيط يحمل هذه الأفكار هو الوسائط الاجتماعية[١].

فالأمة التي لا تثق بقدراتها، ولا تقدر إمكاناتها الذاتية حق قدرها؛ لا يمكن إلا أن تكون على الدوام ظلاً للآخرين، تابعة لهم، لا تعتمد إلا ما يقولون، ولا تنفذ إلا ما يقررون، وهذا هو التسول الحضاري بعينه، الذي يُمثِّل قمة العجز والفشل والاستسلام أمام التحديات التي تواجهها[٢].

**تمظهرات الخطاب الديني في مواقع التواصل وحدود انفلاته بين الفاعلية والأيديولوجية:**

لم تعد المؤسسات الدينية الكلاسيكية وحدها تحتكر الخطاب الديني وصناعته واحتكاره؛ بل أصبحت أكثر من مؤسسة تشاركها، منها مواقع التواصل الاجتماعى التى فرضت نفسها بقوة، وأصبحت تروّج للخطابات الدينية بأهداف أيديولوجية ظاهرة وباطنة.

فقد أسهمت شبكات التواصل الاجتماعي في بلورة الخطاب الديني، فأصبحنا نقرأ عن التعايش السلمي بين الأديان، وحوار الأديان، وحرية المعتقد، والاعتراف بالمخالف، والتسامح...، والدعوة لعدم الإساءة للأديان واحترام المقدسات، على الرّغم من هذه النقلة النوعية إلا أنّنا نلحظ تنامي ظاهرة التطرف لدى البعض الآخر في ظلّ التحرر من القيود. والحرية الممنوحة في

---

١. شبكات التواصل الاجتماعي: د.فيصل محمد عبدالغفار، ط١، ٢٠١٥، الجنادرية للنشر والتوزيع، ص:١٣٩.

٢.مخاطر العولمة على الهوية الثقافية: د.محمد عمارة، ط١، ١٩٩٩م، نهضة مصر للطباعة، ص:٤٤.

مواقع التواصل تحولت عند بعضهم إلى الإساءة الى الأديان، والمساس بالمقدسات، وأصبحوا يتداولون أخباراً ومضامين دينية محرفة ومغلوطة تدعو للتعصب والصراع الديني والمذهبي، وحتى العنف الممارس على شبكات التواصل صار ظاهرة من الواقع الذي نعيشه، وكان من آثاره انكسار البنية القيمية في الممارسات الثقافية والاجتماعية على أرض الواقع. إنّ الحد من هذه الظاهرة يعدّ تحدياً كبيراً خاصة في ظلّ الحرية التي يتمتع بها الفرد في مواقع الفيسبوك ممّا سمحت له بالتحرر من القيود التي كانت تكبله وتكبح طموحه، ما فتح المجال واسعاً للعنف والعنف المضاد خاصة في ظلّ الانفلات الذي تعرفة شبكات التواصل، إذ لم يعد باستطاعة أحد السيطرة على المعلومات المتدفقة؛ كلّ ذلك يدفع المختصين للتفكير الجاد، والعمل على تصحيح هذا الانحراف الفكري، وإعادة التوازن بين التكنولوجيا والدين.

**خطاب الكراهية والتنابذ: إنّ الحوار والتحاور يبنى على الاختيار الحر**، **اختيار** بلا إكراه، ذلك أنّ الإكراه يستولد النزاع والتنابذ، ولعل هذا من أسرار أن الله عز وجل قال: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[1]، والإكراه تعبير عن إلغاء الاختلاف، فلا تستطيع ثقافة معينة أن تتفاعل مع ثقافة أخرى إلا إذا تفاعلت معها، دون تعسف أو إكراه.

وقد انعكست هذه الثنائيات والمعوقات على البناء النفسي والفكري للمواطن العربي في بُعدين مهمين هما: الاغتراب والتبعية الثقافية؛ أما الاغتراب، فهو انسحاب من ممارسة الفعل الثقافي في المجتمع، وبناءً عليه فقد المواطن أحد أبرز مقوماته وهو تفاعله مع مجتمعه وقضاياه. وأما التبعية فقد أسهمت الحداثة

---

١. سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

في إنشاء تصوّر عربي يكاد يتماهى مع التصورات الغربية للوجود، ولعلَّ هذا يفرض علينا تفحّص المنطلقات والآليات التي ينبغي توفرها في بنية التواصل حتى يستطيع القيام بفعل المثاقفة دون شعور بالدونية أو الاستلاب.

**المثاقفة بين قانون الاتزان والتوازن:** التوازن هو إعطاء كل شيء حقه من غير زيادة ولا نقص، والمقصود منه معرفة الأشياء على ما هي عليه، ومعرفة حدودها وغاياتها ومنافعها، أو التوازن هو: النظرة المعتدلة للأمور بين أطراف متناقضة، والمقصود من التعريف: (البعد عن طرف الإفراط، والحماس الزائد، والغلو، والتشدد، والمبالغة، وكذلك البعد عن الطرف الآخر وهو التفريط والتهاون)، والاتزان لا يعني صواب الفكرة، بل صواب طريقة التفكير.

ويبقى قانون (التوازن والاتزان) هو القانون الراسخ في صنع مثاقفة عادلة بين الحضارات المختلفة؛ فإن جمدت الأمة عن فعل المثاقفة ضاعت، وإن أغرقت في الأخذ والتواصل ضاعت أيضاً، فكما أنّ جمودها يعزلها ويضيع وجودها، فكذلك انبهارها بلا ثقة في تراثها، وأعني بذلك انبهارها بما لدى الآخرين، مع فقدان الثقة بما لديها؛ وهذا الانبهار المتهالك يسلمها إلى الذوبان والفناء؛ نقول ذلك ونقرره حين يكون مثقفو الأمة ومفكروها وأدباؤها واقفين عند حدود الانبهار في مثاقفتهم، فماذا يكون الحال حين يتجاوزون الانبهار إلى عداءٍ مَرَضي لتراثهم ودعوةٍ إلى تدميره والإلقاء به في البحر، وهذا ما كنا نلمسه في خطابات ومضامين مواقع التواصل، إنّ هذه الحالة المَرَضية سوف تُسلم إلى موت محقق، تماماً كحال مريض بالانفصام أو الاكتئاب، أسلمه المرض إلى الانتحار أو الموت البطيء، لذلك لا بد في المثاقفة من التكافؤ في الوسائل باعتباره الضامن للتوازن بين الأطراف المتداخلة لأنّ احتكار تلك الوسائل

والآليات من قبل طرف دون آخر من شأنه أن يتسبب في انخرام ذلك التوازن وأن يحدث خللاً في عملية التثاقف، ويفتح الباب على مصراعيه للتسلط والهيمنة. فالتحكم في الوسائل تحكم في الغايات وخنق للمبادرة، وكسر للتلقائية وتهديد للمناعة والخصوصية.

ولذلك تبقى مشكلة مثاقفة (الأنا) والآخر، وما شاكلها من الثنائيات؛ أنّ كثيراً من أخطاء التفكير نشأ نتيجة انعدام التوازن والاتزان في أشكال العلاقة بين الأنا والآخر، والتهويل يشكل منتجاً من منتجات طغيان العاطفة على العقل؛ حيث إنّنا إذا أحببنا شيئاً وفُتِنَّا به حاولنا تأمين شرعية ذلك الافتتان عن طريق كيل المدائح وإبراز المحاسن ورفعه إلى مستوى الأساطير والخوارق، وإذا أبغضنا شيئاً حاولنا أيضاً تسويغ ذلك البغض عن طريق إبراز مساوئه وعيوبه.

الآخر حقق من خلال مثاقفته معنا سبقاً حضارياً وثقافياً لا مثيل له، يوجب علينا أن نفيد من تجاربه، ونتثاقف معه فنعيش العصر، ونحييه ونحياه في آنٍ واحد وفق قانون التوازن والاتزان.

إنّ نجاح مثاقفة الأمم يقاس بمبدأ: (التوازن والاتزان الثقافي) الذي تحققه لنفسها، وبقدر هذا التوازن والاتزان بين كيانها وأصالتها من جانب، وثقافات الآخرين من جانب آخر؛ تكون قوتها وقدرتها على العطاء الإنساني الذي يكسبها الاحترام والوجود المتميز.

وهذا يؤكد أن التوازن والاتزان مطلب ملحٌّ يعصم الإنسان من الاندفاع والغلو غير المنضبط؛ قال الله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[1].

---

١. سورة القصص، الآية: ٧٧.

إنّ مثاقفة (الأنا) والآخر، وما شاكلها من هذه الثنائيات نشأت من أخطـــاء التفكير نتيجة انعدام التوازن والاتزان في أشكال العلاقة بين هذه الأشياء.

نؤكد في خاتمة هذه الورقة البحثية أهمية المثاقفة، فهو خيار لا بد منه، لكن لا بد من التأكيد في الوقت ذاته على ضرورة التمييز بين مفهوم المثاقفة التـــي قوامها التفاعل المتكافئ والاحترام المتبادل بين مختلـــف الثقافـــات والشـــعوب ومفاهيم التبعية والغزو والاستلاب الثقافي والعولمة الثقافية والغربنة.

كما نؤكد على المثاقفة التي تقوم على الثقة والاقتدار بأوسع صورها، ونلح على المثاقفة التي تخضع لقانون الاتزان والتوازن لأنّ الاتزان يمنحها دخـــول المثاقفة بوعي نرسخ به هويتنا وأصالتنا ونحافظ على خصوصيتنا، والتـــوازن يدفع عنها الذوبان، ويساعدها على الاستفادة من منجزات العصر بوعي.

**الخاتمة:**

وقبل سنوات ذكر الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس، أنّ مواقع التواصل الاجتماعي تشتغل،

وتعمل على إثارة عدم الاستقرار في الدول الشمولية والسلطوية، وتعمل على تآكل الفضاء العام، والشعبي في الدول الديمقراطية.

إنّ تعمد إغراق الإنسان المعاصر اليوم في مواقع التواصل الاجتماعي دون أهداف وغايات واضحة، ودون وعي حقيقي بالمخاطر، وخطورة الوسائل التي يستخدمها دون أن تلبي حاجاته وطموحاته، في الحقيقة الأمر؛ ما هو إلا طريقة جديدة تستخدمها القوى المهيمنة لتزيد من إحكام قبضتها على العالم، بعد أن حوَّلتْ المعلومات إلى "سلعة" من السلع التي ترمي بها إلى مستهلكين لا يحقُّ لهم التصرف بها إلا وفق رغبات المنتِج نفسه، وذلك بغية ضمان عدم استخدامها في أيِّ مشروع طموح يغير واقع الأمة وينهض بها، ويمكن له أن يعمل على تحرير الشعوب والأفراد وتحقيق الحلم الأزلي في العدالة والحرية؛ كلّ ذلك يدعونا لإعادة الاختبار والتقويم والمراجعة والمثاقفة والمفاكرة والوصف وإعادة النظر في المضامين الأيديولوجية، إذ لم يكن الغرض النيل والحط من قيمة القناة والوسيلة المستخدمة، ولكن لنكون مؤهلين للتجدّد والتجديد مع استيعاب المتغيرات والإبداع في المضامين الملائمة لإيصال الخطابات الهادفة إلى أكبر فئات المجتمع وهي الغاية المنشودة.

ويمكن أن نلاحظ بأنّ التركيز على مشكلات فشل التواصل وعلاقتها بطبيعة الخطاب اللغوي يزداد مع ازدياد حدة الصراعات الأيديولوجية.

كما نريد أن يتحول مفهوم المثاقفة الذي أتاحته وسائل التواصل بشكل غير مسبوق من التفاعل الثقافي المبني على النزعة الإمبريالية الراغبة في الهيمنة والسيطرة ومحو الآخر واستعباده وفرض التبعية

والوصاية والهيمنة عليه...، إلى التفاعل الثقافي المبني على التسامح والاحترام المتبادل والندية والتكافؤ...، إلى الشراكة والاشتراك وليس تبعية واستلاب؛ لأنّ المثاقفة لا تتحقق إذا خلت من طرفين، واقتصرت على طرف واحد يضخ ثقافته في الاتجاه الآخر.

إنّ التواصل باستعمال اللغة العربية بين أفراد المجتمع وطبقاته الاجتماعية كافة تتحكم فيه مجموعة من الخلفيات الاعتقادية والاجتماعية والسياسية الأيديولوجية والدوافع الشخصية والنفسية، كيف ولماذا يستعملون اللغة.

**النتائج:**

توصلت الدراسة إلى:

- إنّ التلاقح الحضاري الذي وفرته التقنية الحديثة سهل انتقال المعلومات بنفس القدر الذي رسّخ فيه قيم ولغة وثقافة الآخر.
- إنّ المثاقفة التي نتوخاها بين الأنا والآخر، لا تنحاز إلى فئة دون أخرى؛ لا تنتصر للأنا على الآخر، ولا للآخر على الأنا، ليس هذا هدفها ولا غايتها؛ بل تسعى جاهدة لتطهير العلاقات وتفعيل الحوار المتبادل الذي يخضع لقانون التوازن والاتزان، ولعل ذلك من شأنه أنّ يسهم في حوار الحضارات لا في صراعها.
- نؤكد أنّ الحوار والتواصل هو اعتراف بالآخر دون إلغاء للأنا، وأنّ الانفتاح على هذا الآخر ليس تغريباً ولا تدجيناً، كما أنّه ليس استعباداً ولا استرقاقاً.
- الصدمة الفيسبوكية حولت الانبهار بالواقع الافتراضي إلى الاصطدام بالواقع الحقيقي.
- ضعف الارتباط عند كثير من رواد شبكات التواصل بثوابث الأمة، والشعور بالانهزامية أمام اللغات الأجنبية والثقافات الوافدة من البلاد المتحضرة في ظلّ الهيمنة الكونية.

- في ظل التسابق على التواصل الاجتماعي علينا أن نفكر في وضع استراتيجيات محكمة للتحكم أو على الأقل للتخفيف من هذه الظاهرة التي استفحلت في المجتمعات العربية، حتى لا تتحول المجتمعات إلى تكتلات سوسيولوجية رقمية، أو مجتمعات افتراضية.
- القارئ في مواقع التواصل أضحى لا يهتم بالمعنى الذي يحمله الخطاب بقدر اهتمامه بالشكل، فظلّ أسيراً لهذا الشكل دون التفات للمعاني.
- إنّ اللامركزية المعرفية التي دعت إليها العولمة قد أنجزت مركزية خاضعة لسلطتها.
- الاستفادة من التكنولوجيا المعاصرة، وتوظيفها لخدمة هويتنا وترسيخ مبادئنا.
- العمل على تطوير لغة الخطاب بما يتلاءم مع روح العصر.

**التوصيات:**

- الدعوة لإعلاء قيمة اللغة العربية، وجعلها لغة التواصل والحوار.
- توصي الدراسة، وتدعو إلى احترام خصوصية الآخرين بكلّ أشكالها الدينية واللغوية والثقافية..لا إلغائها، وإقصائها، والعمل على تذويبها.

## المصادر والمراجع:


- الأدب التفاعلي العربي ضمن الثقافة السائدة والاختلاف: سعيد الوكيل، ط١، ٢٠٠٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة المعاصرة.
- الأدب العام المقارن: دانيال هنري باجو، ترجمة غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٧.
- الإعلام الجديد: النظام الفوضى: عبدالله الزين الحيدري، المجلة العربية للاتصال والإعلام، تونس، ٢٠١٠، العدد ٦.
- الإعلام ليس تواصلاً: دومينيك وولتون ٢٠١٢، دار الفارابي، بيروت.
- الإنسان ذو البعد الواحد: هربرت ماركوز، ترجمة جورج طرابيشي، ط٣، ١٩٨٨، دار الآداب، بيروت.
- الأيدولوجية العربية المعاصرة: عبدالله العروي، ترجمة: محمد عيتاني، ط٤، ١٩٨١، دار الحقيقة، بيروت.
- الأيديويوجيا نحو نظرة تكاملية: محمد سبيلا، ١٩٩٢، المركز الثقافي العربي، بيروت.
- التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول: بيير بورديو، ترجمة إدريس الحلواجي، ط١، ٢٠٠٤، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق.
- حفريات المعرفة: ميشال فوكو، ترجمة سالم يفون، ط٢، ١٩٨٧، المركز الثقافي العربي.
- شبكات التواصل الاجتماعي: د.فيصل محمد عبدالغفار، ط١، ٢٠١٥، الجنادرية للنشر والتوزيع.

- الانتحار اللغوي: د.عبدالسلام المسدي، ط الأولى، ٢٠١١، دار الكتاب الجديد، لبنان.
- العلم والتقنية كأيديولوجيا: يورغن هابرماس، ترجمة حسن صقر ٢٠٠٣، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا.
- العرب وعصر المعلومات: نبيل علي، عالم المعرفة، عدد ١٨٤، ١٩٩٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- الكلمات والأشياء: ميشال فوكو، ترجمة مطاع صفدي وآخرون، مراجعة جورج ويناتي وآخرون، مركز الإنماء العربي، بيروت.
- لذة الكتاب قراءات في الراهن الفكري والنقدي والأدبي: لونيس بن علي ٢٠١٢، دار فيسرا للنشر، الجزائر.
- اللغة والاقتصاد: فلوريان كولماس، ترجمة د.أحمد عوض، مراجعة عبدالسلام رضوان، سلسلة المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ٢٠٠٩، نوفمبر.
- اللغوية في المغرب من التعايش إلى التصادم: رشيد بلحبيب، ضمن كتاب اللغة والهوية في الوطن العربي، الهويات إشكاليات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط الأولى، بيروت ٢٠١٣.
- لسان حضارة القرآن: محمد الأوراغي، ط١، ٢٠١٠، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية: د.محمد عمارة، ط١، ١٩٩٩م، نهضة مصر للطباعة.

- المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي، تقاطعات ورهانات: كمال عبداللطيف ٢٠١٢، المركز العربي للأبحاث والدراسات، بيروت، الدوحة.
- النظرية النقدية: مدرسة فرانكفورت: آنلن هاو، ترجمة ثائر ذيب٢٠١٠، دار العين، المركز القومي للترجمة، مصر.
- نظام الخطاب: ميشال فوكو، ترجمة محمد ســبيلا، ط٢، ٢٠٠٧، دار التنوير، بيروت.

-la technique et la science comme idéologie : J. Habermas, trad. Franc. J. R. Ladmiral, Paris, 1973.

-Lefevere 1992a; George Steiner 1975/1992;p:39.

# وسائل التّواصل الاجتماعيّ ومزلق

# "حفرة الانهدام الفكريّ"

الدكتورة عريب محمّد عيد

باحثة من الأردن

الخميس ١٠ شعبان ١٤٣٩هـ - الموافق ٢٦ نيسان ٢٠١٨م

## الملخّص

لقد مضى زمنٌ كان فيه الباحث الجادّ يشمّرُ عن ساعديه، وتتورّم قدماه سعيًا وراء معلومة يوثّقها في كتابه أو بحثه؛ لنجدنا اليوم في عصر المثاقفة والوجبة المعرفيّة السّريعة؛ تصلنا دون جهدٍ، وهي متاحة في أيّ وقتٍ ومكان، بلا قيود أو مراجعة أو رقابة، ونشأ ما يسمّى بالفضاء الإلكترونيّ بما يحويه من المجتمعات الافتراضيّة بدءًا من البريد الإلكترونيّ، ومرورًا بغرف الدّردشة، ووصولًا إلى مواقع التّواصل الاجتماعيّ كالفيسبوك، والتويتر، واليوتيوب وغيرها، وغدت هذه المواقع النّموذج الحيّ للعولمة والأكثر رواجًا ومتابعة؛ وقد جاءت هذه الدّراسة للوقوف على أثر هذه الوسائل التّقنيّة في الجانبين الفكريّ واللّغويّ في حياة الإنسان العربيّ، وتتبعُ منهج اللّسانيّات الاجتماعيّة في تحليل الخطاب الإلكترونيّ، في محاولة الإجابة عن السّؤالين التّاليين: هل يمكن أن تنزلق بنا وسائل التّواصل الاجتماعيّ إلى "حفرة الانهدام الفكريّ"؟ وهل تقودنا هذه الحفرة إلى حفرة أعمق وأشدّ خطرًا هي "حفرة الانهدام اللّغويّ"؟



**الكلمات المفتاحيّة:** وسائل التّواصل الاجتماعيّ، الانهدام الفكريّ، الشّابكة.

# Social media and slipping into "the pit of the intellectual destruction"

**Dr.Oraib Mohammad Eid**

## Abstract

It has been a while since a researcher was having difficulties, sweating and swelling his feet in pursuit of documented information for his books or researches. We find ourselves today in the era of the quick intellectual, cognitive meal that reaches us without any effort. In just a click, it is available at anytime and anywhere without restrictions or control. The so-called Cyberspace has been initiated. It includes virtual communities ranging from e-mail, through chat rooms, and to social networking sites such as Facebook, Twitter, YouTube and others. These sites have become the living model of globalization and the most popular to communicate and get in touch among people. The purpose of this research is to look into the impact of these technical media means in the intellectual and linguistic aspects of the Arab man's life, and follows the social linguistic in the electronic discourse analysis in an attempt to answer the following two questions: Can social media drag us into the "pit of the intellectual destruction"? Does this hole lead us to a deeper and more dangerous one, i.e, the "pit of the linguistic destruction"?

**Key Words**: Internet, Social Media, Intellectual Destruction.

**إطلالة:**

وصل الإنسان اليوم إلى ثورة التّواصل الإنسانيّ التّكنولوجيّة، وظنّ بها أنّه وصل إلى قمّة الهرم المعرفيّ، ومنهل المعلومات الذي لا ينضب، يصبّ فيه ما يريد من أخبارٍ ومعتقداتٍ وآراء وأفكار وأخلاق وعلوم ومعارف تساير إيقاع حياته السّريع، وتلبّي حاجاته في النّموّ المعلوماتيّ، وتشبعُ شغفه في الاطلاع على كلّ جديد في هذا العالم بجهدٍ قليل وأخفض تكلفة؛ فتنامى تفكيره مع توسّع رقعة طموحاته، وتقدّم العلوم وتحقيق المنجزات، وتسجيل الاختراعات المتلاحقة إلى العمل الدّؤوب على تحسين وسائل التّواصل بشكلٍ مستمرّ ومتسارع؛ ليتماشى مع العولمة التي حوّلت الدّول في شتّى أصقاع الأرض إلى عوائل تتواصل اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا إلخ، وإن لم تربطها وشائج الدّم أو الانتماء أو العرق أو الجنسيّة أو المعتقد أو التّاريخ...؛ فكرة في ظاهرها برّاقة ومقبولة ومتاحة؛ لكنّها تبطن بعض الخفايا التي يجب الوقوف عليها، وسائل قد ترفع من شأن الإنسان وتقوّي شأوه، وتغيّر سبل حياته ونمطها، وتسهّل تواصله مع الآخرين، وتسِمُه بوسم الفرد المتحضّر المواكِب لسُفن المعارف والعلوم؛ إذ تبحر به عبر القارات، متجاوزة كلّ العوائق ومتخطّية كلّ الحدود، فتغدو بذلك جزءًا مهمًّا من الحياة لا يمكن التّغاضي عنه أو تجاهله؛ فهي تكفل له محيطًا ثقافيًّا واسعًا ونظرة أشمل إلى العالم، وتأثيرًا أعمق في التّواصل الإنسانيّ وأوسع انتشارًا، وقد جاءت هذه الدّراسة للوقوف على أثر هذه الوسائل التّقنيّة في الجانبين الفكريّ واللّغويّ في حياة الإنسان العربيّ؛ وهو ابن بيئته العربيّة الخاصّة، وفرد ينفتح على العالم، يطلب ما لم يحصّله في مجتمعه الصّغير؛ ليفيد من هذه التّقنيات ويستفيد؛ لعلّه يجد فيها ما يُثمر؛ ويجني بها نتاجًا يعود عليه أو على مجتمعه بالنّفع.

وتتبع الدّراسة منهج اللّسانيّات الاجتماعيّة في تحليل الخطاب الإلكترونيّ، وبيان أبعاده، وتبيّن أهمّ المضامين الفكريّة في هذه الوسائل التي تسهم في تكوين

الأخاديد الإلكترونيّة الحديثة، وحركة "صفائح التّواصل الاجتماعيّ" المتعاقبة والمتتابعة في الإنسان العربيّ على مدى عقدين من الزّمان، ثمّ توضّح أثر هذه الوسائل في فكره ووعائه اللّغويّ، وتقف على شكل الوسيط اللّغويّ النّاقل للمضامين الفكريّة في الفيسبوك والتويتر واليوتيوب نموذجًا، ثمّ تبيّن العوامل التي تشكّل تصدّعات المنظومات القيميّة والأخلاقيّة الجديدة؛ لتكوين تضاريس الفكر العربيّ الإلكترونيّ الحديث، والنّتائج المترتّبة على هذه التّصدّعات الفكريّة وقالبها اللّغويّ العربيّ المستخدم، وأثره في المتلقّي العربيّ، ثمّ تنتهي بطرح السّؤال المفتوح: إلى أين سيصل عمق "حفرة الانهدام الفكريّ"؟

**بين يدي المصطلح:**

**التّواصل لغة**(١): من وصل، بمعنى اتّصل، والوصل هو الرّبط بين كائنين أو شخصين، بإيجاد علاقة بينهما، والتّواصل ضدّ التّصارم، ونقول وصل الشّيء بالشّيء؛ انتهى إليه، وأوصله(٢)، والوصل خلاف الهجران والفصل، واتّصل لم ينقطع(٣). و**اصطلاحًا**(٤): هو تفاعل اجتماعيّ يهدف إلى تقوية الصّلات الإنسانيّة بين الجماعات، بتبادل المعلومات والأفكار والمشاعر التي تؤدّي إلى التّفاهم

---

(١) أبو الفضل جمال الدّين ابن منظور محمّد بن مكرم بن عليّ (٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، مكتب تحقيق التّراث، دار إحياء التّراث، ط٢، بيروت، ١٩٩٣م، ج١٥، ص٣١٨.

(٢) محمّد محيي الدّين عبدالحميد (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) ومحمّد عبداللّطيف السّبكيّ (١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، **المختار من صحاح اللّغة**، دار سرور، ط١، بيروت، ١٩٨٠م، ص٥٧٥.

(٣) أبو طاهر مجيد الدّين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الشّيرازيّ الفيروز آبادي (٨١٧هـ/١٤١٤م)، **القاموس المحيط**، مكتب تحقيق التّراث، مؤسّسة الرّسالة، ط١٦، بيروت، ١٩٩٨م، ج٤، ص٦٦.

(٤) **عريب محمّد عيد، علم لغة الحركة بين النّظريّة والتّطبيق**، دار الثّقافة، ط١، عمّان، ٢٠١٠م، ص٢٨.

والتّعاطف والتّحابّ أو التّباغض، وفيه تستخدم قنوات من الرّموز: أحرف، أو كلمات، أو أصوات، أو حركات، أو رسوم... أو أيّ شيءٍ يعملُ منبّهًا للسّلوك. وما الاتّصال إلا ترامز؛ فالإنسان يرسل الرّموز أو يستقبلها؛ يحلّ معمّياتها ويفسّرها وفق سياقه الثّقافيّ، أو الاجتماعيّ، يضفي عليها الفهم، ويكسبها القدرة على التّأثير(١).

والتّواصل سمة اجتماعيّة، وإذا رأى "بارت" أنّ المركّبات الثّقافيّة تقوم بدور العلامات الّتي لها في ذاتها معانٍ، أو أنّها تعبّر عن معان؛ فالمظاهر الثّقافيّة "غير اللّسانيّة" مفعمة بالدّلالات، وتتكوّن من عدّة أنظمة دالّة ما دام لكلّ سلوك معنى، وما دُمنا نتواصل بواسطة السّلوك.

وهذه الأنظمة العلاميّة في التّواصل تتراوح بين الأنظمة الأقل تعقيدًا ابتداءً من نظام الأكل واللّباس، والطّقوس الدّينيّة، والعادات والتّقاليد الاجتماعيّة، والفنون، واللّغات الطّبيعيّة والاصطناعيّة...؛ وانتهاءً بموجة المعلومات، وعالم الحواسيب الّذي يغزو حياتنا اليوميّة، ويملؤها بالأرقام، والصّور، والصّوت، والبطاقات الممغنطة، والشّاشات المتلفزة، والفضائيّات والشّابكة إلخ، فأصبح لها الصّدارة في شتى فروع المعرفة.

لقد غدت الاتّصالات عصب عصر المعلومات، وقد حرصت الشّعوب على إنشاء طرق المعلومات السّريعة، فكان مفهوم "تكنولوجيا الاتّصال" يتكوّن من مجمل المعارف والخبرات المتراكمة المتاحة، والأدوات والوسائل الماديّة والتّنظيميّة والإداريّة المستخدمة في إنتاج المعلومات وجمعها وتخزينها

---

(١) **عريب محمّد عيد ، علم لغة الحركة بين النظريّة والتطبيق**، المبحث الثّاني (الاتّصال)، ص٢٨-٤٨.

واسترجاعها ونشرها ثمّ تبادلها[١]؛ وتوصيلها إلى الأفراد والمجتمعات، وتجربة تطبيق ذلك عمليًّا، ولها جانبان: فكريّ معرفيّ، وآخر ماديّ تقنيّ، ويتمثّل في التّطبيق العلميّ للاكتشافات والاختراعات في مجال المعلومات ونقلها بالتّصوير الفوتوغرافيّ والطّباعة، وأساليب معالجة النّصوص والصّور، وهذا المصطلح يتّسع ليشمل "تكنولوجيا المعلومات"[٢] الّتي أحدثت ثورة الاتّصال والمعلومات الأولى في منتصف التّسعينيّات، وأصبح تواصل الأفراد الفاعل عبر مواقع الويب (Web).

وقد وجد الأفراد غياب المصداقيّة في الوسائل التّقليديّة، وانحيازها إلى قوى السّيطرة والهيمنة في المجتمعات، فاتّجهوا إلى وسائل التّواصل الاجتماعيّ، ففيها مساحة من الحريّة الفكريّة والثّقافيّة، بعيدًا عن التّبعيّة أو القيود؛ فظهرت المجتمعات الافتراضيّة في الشّابكة؛ ضمن ما يسمّى تكنولوجيا الواقع الافتراضيّ (Virtual Reality)؛ إذ تعبّر عن استخدام التّكنولوجيا الرّقميّة في الاتّصال (Digital Communication)، وتعتمد مواقع (Web) والفيديو والنّصوص والصّوت إلخ؛ فهو اتّصال اجتماعيّ عن بُعد، بين أطراف يتبادلون الأدوار في بثّ الرّسائل التّواصليّة المتنوّعة، واستقبالها خلال النّظم الرّقميّة[٣] في الفضاء الاتّصاليّ الذي يتمّ فيه اندماج الوسائط السّمعيّة والبصريّة وتعدّدها؛ فشاع استخدام مواقع التّواصل الاجتماعيّ المجانيّة؛ إذ تُمكِّن المُستخدمين من التّواصل المباشر، ومشاركة الاهتمامات والفعاليّات والبحث عن أصدقاء ومعرفة الأخبار

---

(١) انظر: حسنين شفيق، **الإعلام الجديد (الإعلام البديل)، تكنولوجيا جديدة في عصر ما بعد التفاعليّة**، دار فكر وفنّ، ط١، ٢٠١١م، ص٢٢.

(٢) انظر: محمّد فهمي، **فنّ الاتصال في الخدمة الاجتماعيّة**، دار الوفاء، ط٢، الإسكندريّة، ٢٠١٠م، ص٢٣٦.

(٣) انظر: **الإعلام الجديد (الإعلام البديل)**، ص٥٤.

إلخ، ومنها: موقع (Facebook)[١] وفيه يكتب المستخدِم (المرسِل) نصوصًا أو يحمّل فيديوهات ويشاركها مع الأصدقاء، ويرسل هدايا افتراضيّة مع رسائله وتعليقاته[٢]، ويسمّى المتلقّي صديقًا، والمادّة التي ترسَل منشورًا أو (بوستًا Post). وموقع (Twitter)[٣] يسمح لمستخدميه (المغرّدين) بإرسال تحديثات تسمّى (تغريدات Tweets)، والتّغريدة ما يكتبه المستخدم في مربّع النّصّ من مشاركات أو ردود[٤]، وهي أشبه بـ"التّوقيعات الإلكترونيّة"؛ لقصرها وسرعة تداولها عبر الشّابكة، واقتضاب محتواها، وتمثيلها لفكر مغرّدها، والمتلقّي يسمّى متابِعًا؛ وقد جذبَ الموقع لفاعليّته وتأثيره ٧٥% من زعماء العالم للاشتراك عام ٢٠١٣م، حسب دراسة أعدّها مجلس السّياسة الرّقميّة الأمريكيّ[٥]، وهو أكثر المواقع عُرضة للقرصنة (الاختراق)، كما تقلّ فيه الخصوصيّة؛ إذ يتحوّل الموضوع الخاصّ إلى حقل عامّ خلال ثوانٍ، وأمّا موقع

---

(١) أطلق رسميًّا عام ٢٠٠٤م، يسمح للمستخدمين اكتشاف أصدقاء عبر الشّابكة، ويحمّل صورًا ومعلومات، أنشأه شاب أمريكيّ (Marc Zuckerberg) مع مجموعة من زملائه في قسم الحاسب في جامعة هارفرد، انظر: خالد المنصوريّ وآخرون، **إطلالة معرفيّة على شبكات التّواصل الاجتماعيّ (فيسبوك، تويتر، يوتيوب)**، ط١، دبي، ٢٠١٣م، ص١١.

(٢) تشير الإحصائيّات بداية عام ٢٠١٧م إلى وجود حوالي ١٥٦ مليون مستخدم في الدّول العربيّة للفيسبوك، بزيادة ٤١ مليون مستخدم مقارنة بعام ٢٠١٦م، الّذي كان فيه إجمالي عدد المستخدمين ١١٥ مليونًا. نقلاً عن موقع كليّة دبيّ للإدارة الحكوميّة، الإصدار السّابع "**الإعلام الاجتماعيّ في العالم العربيّ**" http://www.mbrsg.ae/home.aspx?lang=ar-AE

(٣) انظر **إطلالة معرفيّة على شبكات التّواصل الاجتماعيّ**، ص٢٠.

(٤) نشأ هذا الموقع في ٢١ آذار عام ٢٠٠٦م، فقد قام شاب أمريكيّ يدرس البرمجيّات (Jack) Dorsey بإطلاق أوّل تغريدة، وأطلقت النّسخة العربيّة عام ٢٠١٢م، **المرجع السّابق**، ص٢٢.

(٥) حسب مقال منشور في موقع جريدة الإمارات اليوم الإلكترونيّ، بتاريخ (٦) كانون الثّاني ٢٠١٣م.

(YouTube)[1]، فيستطيع المستخدمون خلاله تحميل مقاطع فيديو ومشاهدتها ومشاركتها مع الآخرين[2].

**حفرة الانهدام الفكريّ[3]:** هي السّبب التّكنولوجيّ في أجلى صوره لتكوين المعالم التّضاريسيّة الجديدة في فكر الإنسان في العالَم بشكل عام، وفي الدّول العربيّة بشكل خاصّ، فهو صدْعٌ فكريّ ومعرفيّ ومعلوماتيّ كبير، منفتحٌ على الآخر، وقد بدأ هذا الشّقّ الكبير بالتّشكّل في العقود الثلاثة الأخيرة، ومنذ لحظة الانفتاح على العالم الكبير بانتشار الهواتف المحمولة، واختراع الحاسِب، واستخدام الشّابكة، والتّفاعليّة خلال الوسائط المتعدّدة، ومواقع التّواصل الاجتماعيّ إلخ؛ إذ أسهمت هذه التّقنيات في اتّساع الهوّة وتعميق الشّقّ، وأحدثت حركة الصّفائح الإلكترونيّة السّريعة والمتتابعة هزّاتٍ في أنماط حياة الأفراد وأدمغتهم؛ فغيّرت أفكارًا وقلبت مفاهيم وخلخلت معتقدات، وفرّقت مجتمعات وأدخلت ثقافة التّغريب الّتي لا تفتأ تخطّ عادات وتقاليد جديدة، وترسم مظاهر تكنولوجيّة يعيش بها الأفراد، ويتعلّقون بها، وبعضهم لا يملك الفكاك منها أو الانعتاق.

**المضامين الفكريّة في وسائل التّواصل الاجتماعيّ:** شكّلت وسائل التّواصل الاجتماعيّ الإعلام الّذي يدخل كلّ بيت، ويتغلغل بهدوء إلى ثنايا الأسر العربيّة ويصبّ في روافد الرّأي العام؛ فيبثّ المضامين الفكريّة الّتي تؤثّر في المتلقّي العربيّ، وتكوّن الأخاديد الإلكترونيّة الّتي بدورها تسهم في تشكيل حفرة الانهدام الفكريّ:

---

(١) بدأ في ٢٠٠٥م، وكان أوّل ملف فيديو في (YouTube) عنوانه (Me at the zoo)، لأحد مؤسّسي الشّركة (Jawid Kareem)، انظر: **إطلالة معرفيّة على شبكات التواصل الاجتماعيّ**، ص٣٨.

(٢) يعدّ موقع اليوتيوب ثالث أشهر مواقع التّواصل الاجتماعيّ مشاهدة بعد (Yahoo) و(Google) حسب تصنيف أليسكا العالميّ، انظر: **الإعلام الجديد (الإعلام البديل)**، ص٢١٣.

(٣) المصطلح للباحثة.

**المضامين الاجتماعيّة:** تركّز الرّسائل التّواصليّة في هذه المواقع على الأيديولوجيّات الموجّهة إلى المجتمع العربيّ بخصائصه الدّيموغرافيّة المختلفة كالجنس، والعمر، والمستوى التّعليميّ...، وتعبّر عن تطلّعات أبناء المجتمعات العربيّة مثل الوحدة الوطنيّة أو القوميّة، وتحقيق الذّات والبحث عن الشّهرة، والعمل المهنيّ أو التّطوّعيّ أو إبراز المواهب في مجالات الغناء والرّسم التّشكيليّ والتّمثيل[1]، ومتابعة أخبار الفنانين والمشاهير، وآخر صيحات الموضة في الملبس[2] والمطعم وأنماط السّكن والمعيشة الّتي تعتمد التّقنيّات الحديثة إلخ.

ولعلّ هذه الأيديولوجيّة التّقدميّة في ظاهرها مغرية وجاذبة؛ لكنّها غير بريئة؛ فهي تنادي بالتّخلّي عن العادات العربيّة والتّقاليد الموروثة من أجل إحداث التّغييرات الجوهريّة في فكر الإنسان العربيّ، بعدّها من مستلزمات الحضارة التّقنيّة المتقدّمة، وثمّة أصوات تنادي بالمحافظة والتّقنين والاعتدال في التّلقّي، ويعدّهم البعض أصحاب فكْر رجعيّ يعيق التّقدّم ويدعو للانسحاب والتّقهقر، وفي كلّ حال، فالأيديولوجيا تحكمها مصالح معيّنة ظاهرة أو باطنة، وليست منفصلة عن الواقع.

إنّ تسريب مضامين فكريّة اجتماعيّة فيها طابع التّغريب يشير إلى معالم مجتمع تكنولوجيّ افتراضيّ يحاول العربيّ أن يتكيّف معه، ويجد لنفسه موقع قدمٍ فيه، فهو بفتحه حسابات إلكترونيّة خاصّة في الفيسبوك أو التّويتر وغيرهما، يشعرُ أنّه فردٌ اجتماعيّ فاعلٌ ومنسجمٌ مع متطلبات عصره، يعبّر عن رأيه؛ فيعلّق على منشورات، ويقيم دردشات، ويتعرّف أصدقاء جددًا دون قيود، ويضيف معلومات ويعدّلها، ويشارك أصدقاءه في نشاطاته الاجتماعيّة اليوميّة

---

(١) مثل: مسابقات الجمال، والمواهب (Talent, Arab Aidle, The voice) وغيرها، وهي برامج مفرّغة من محتواها الفكريّ القيّم، ونسخ مكرورة من برامج غربيّة.

(٢) ومن ذلك ظهور جماعات غريبة ترتدي ملابس ضيّقة جدًّا، عليها خربشات لنجوم (Hard Rock)، تميّزهم خصلات شعر ورديّة، أو لون نبيذيّ فاقع، مع ارتداء سلاسل معدنيّة كثيرة في الرّقبة وأماكن أخرى في الجسم، ويُعرفون بجماعة (الإيموز Emos).

في عالمه الافتراضيّ، ويبثُّ رسائله المكتوبة أو المصوّرة عبر لقطات الفيديو أو الصّور الفوتوغرافيّة، فغدت التّهاني والتّحايا للأقارب والأصدقاء بكلمات وعبارات وصور تُغني عن التّزاور واللّقاءات الواقعيّة، وأحسب أنّ هذه العلاقات عبر هذه الوسائل تحدّد المسافة الاجتماعيّة بين أفراد المجتمع، فهي تسهّل على مستخدمها الاقتراب من بعض متابعيه أو أصدقائه أو أقاربه أو مغادرتهم بإلغاء العلاقة بهم (Un Followers)[1]، دون تبعات أو عتاب أو محاسبة أو علم الآخر أحياناً، وقد يمنعهم من البحث عنه ومتابعته بعمل (حظر Block).

فهذه الممارسات التّواصليّة الاجتماعيّة تبدو جافة ومفرّغة من المفهوم الفعليّ العلائقيّ المفترض بين الأفراد في المجتمع الحقيقيّ، ولعلّنا نقيس هذا السّلوك التّواصليّ بمقدار التكيّف الاجتماعيّ الّذي تتطلّبه معطيات أيديولوجيّة جديدة، غيّرت أنماط حياة الإنسان العربيّ بوضع قواعد تحوي معايير وتقاليد وأعرافاً وأنظمة مصدّرة غربيّة، تحكمها سلطة ضابطة تتحكّم في حركة المجتمعات العربيّة وتوجّهها؛ بعدّها المستهلك التّكنولوجيّ الّذي يخضع لفعل التّجربة ثمّ البرهان إن جاز التّعبير.

ولعلّ الأيديولوجيا العربيّة تغيّرت؛ فما عادت في أغلبها ترتبط بقيم خلقيّة محمودة، ومعتقدات ثابتة، ودين، ومُثُل عليا، وتقاليد، وعادات متعارف عليها، وأعراف مألوفة وواجبات متوارثة؛ فقد غدا طلب الزّواج والزّيارة والتّعزية وتبادل الأخبار الاجتماعيّة الّتي تمسّ خصوصيّة الأسر ينشر للعوام، بلا تحفّظ أو قيود أو مراعاة للأطر المرجعيّة الّتي تحكم الأفراد؛ فتحدّد السّلوك المقبول أو المحظور اجتماعيًّا (Taboo)، كما سهّلت هذه المواقع مشاهدة الأفلام الإباحيّة، وأفلام العنف الّتي تتناقل بسهولة دون رقابة الأسر، ولنا أن نتخيَّل حجم التّفكك

(١) سبقت الإشارة إلى تسمية المتلقّين بـ(Friends/Followers).

وانهيار القيم العربيّة عندما نجد ما يسمّى بـــ(الأكشاك الإلكترونيّة) الّتي تقــدّم لشبابنا خدمات النّصح والإرشاد والاستشارة؛ بدل الاستعانة بتوجيه الأهل الّذي بات ثقيلًا، فقد اتّسعت الهوّة بين الأجيال القديمة وأجيال التّقنيات الجديدة.

إنّ الحكم القيميّ على الأفكار الرَّائجة هو حكمٌ قيميّ على التّقنية كذلك، فنحن لا نستطيع الحدّ من انتشار مواقع التّواصل الاجتماعيّ واستخدامها، ولكن يجب أن نكون على وعي بطبيعة هذه الأدوات الحديثة، وطريقة توظيفها بشكلٍ إجرائيّ وتقنيّ مدروس، ولا يتأتّى ذلك إلا بشيوعها بين النّاس خلال التّداول وفهم آليتها، ثمّ حُسْن استخدامها؛ فتكون وسيطًا تقنيًّا حاملاً للأيديولوجيا الاجتماعيّة العربيّة بشكل فاعلٍ ومقنَّن، مع وعي تامّ بحريّة الشَّكل ونجاعة المضــمون؛ كمــا أنّ معاداة استخدام هذه التّقنيات قد يروّج لأيديولوجيّات مشوّهة الفكــر وإرهابيّــة التّوجه داخل المجتمعات العربيّة باسم الدّين أو الهوية أو الإمبرياليّة.

ويلاحظ تنامي تأثير وسائل التّواصل في المُكوّن الأيــديولوجيّ للإنســان العربيّ؛ ويظهر ذلك من الاستعداد النّفسيّ والميل الإدراكيّ إلى المبالغــة فــي السّلوك التّكنولوجيّ الّذي يمثّل ما يظهر في تصرّفات الأفراد، ولا سيّما الشّباب، مثل مكوثهم لساعات طويلة مع الأصدقاء الافتراضيّين خلال هذه المواقع أكثر من تواصلهم مع أسرهم وأقاربهم، وبعضهم يقضي ساعات منفردًا مع جهــازه ومنعزلاً عن الآخرين، بحثًا عن الجدّة أو استكشاف مواقع الشّابكة المتعــدّدة أو التّسلية، وقد يصل إلى حالة "التّوحد الإلكترونيّ"[1]، فهذه العزلة الاجتماعيّة قــد

---

(١) يُذكر أنّ قوّة الجاذبيّة في الرّسالة التّواصليّة تجعل المتلقّي يشعر اتّجاه المصدر بالاكتفــاء والرّضا، وهو لا يهتمّ بقوتي الثّواب أو العقاب، إنّما يتقبّل محــاولات المصــدر الجــاذب بالتّأثير على سلوكه أو اتّجاهاته أو آرائه ويسمح له بذلك؛ لإبقاء الاتّصال مستمرًّا بينهمــا، قد يصل إلى حالة التّوحّد التّام (Identification) حسب علماء النّفس والسّلوك الإنســانيّ، انظر: صلاح الدّين جوهر، **علم الاتصال (مفاهيمه ،نظريّاته ،مجالاته)**، مكتبة عــين شــمس، ط١، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٢٨.

تجرّه إلى ممارسات خاطئة أو ألعاب خطيرة بعيدًا عن الرّقابة الخارجيّة[1]، وإسراف وقت طويل باستخدام هذه الوسائل التّقنيّة يجعله يتعلّق بها، ويوصله إلى آفة خطيرة هي "الإدمان الإلكترونيّ"؛ فتصبح جزءًا من حياة الفرد لا يمكن أن يستغني عنها، ويُعَدُّ مستخدم الشّابكةِ مُدمنًا إذا جاوز (٤٨) ساعة أسبوعيًّا[2]، ومن أكثر العوامل الّتي تساعد في انتشار هذه الآفات التّقنيّة سهولة التّواصل الاجتماعيّ خلال الشّابكة باستخدام الهواتف النّقالة، وهي أحدث قفزات تكنولوجيا المعلومات الّتي تخوّل الفرد من البقاء متّصلًا عبر الشّابكة، وبتكلفة ماليّة معقولة، يستطيع تداول ما يريد من مواد وأفلام وصور ومعلومات مع أصدقائه ومعارفه عبر تطبيقات الهواتف الذّكيّة، وأشهرها: الواتس آب، وأنستغرام، وسناب شات وغيرها.

لقد ساعدت هذه الوسائل في اختراق خصوصيّة الأفراد، وتسهيل نقل الأخبار، وتصوير مآسي الآخرين وجراحهم عند التّعرضِ للكوارث الاجتماعيّة أو الطّبيعيّة أو التّداعيات السّياسيّة وضحايا الحروب، تُنشَر المعلومات والصّور كأنّها عرضُ ملهاة دون إحساس بالمسؤوليّة أو أخلاقيّات تراعي مشاعر الآخرين أو إنسانيّتهم؛ إذ تدفع أنانيّة المُرسِل أو رغبته في الظّهور لاستباق نقل الحدث، دون التّثبت من الوقائع، فقد تكون الرّسائل المتداولة متحيّزة أو مشوّهة أو منتقاة أو مسيّسة أو كاذبة.

وأحسبُ أنّ التفريغ الأيديولوجيّ للإنسان العربيّ جليّ ومظاهره متعدّدة، ففي الوقت الّذي نجد فيه النّخبة ممّن يمتلكون الزّاد المعرفيّ والعلميّ والموقع

---

(١) ظهرت لعبة (الحوت الأزرق) في روسيا عام ٢٠١٣، وأدّت إلى انتحار بعض الشّباب، فهي لعبة تطلب من اللّاعب القيام بمجموعة تحدّيات لمدّة (٥٠) يومًا، وفي التّحدّي الأخير، يُطلب منه الانتحار، وقد سجّلت حالات انتحار في العامين الأخيرين في بعض الدّول العربيّة مثل: تونس والجزائر والمغرب...، المصدر: ويكيبيديا، موضوع (الحوت الأزرق).

(٢) انظر: **إطلالة معرفيّة على شبكات التواصل الاجتماعيّ**، ص٤٩.

الاجتماعيّ المتميّز يحسنون توظيف هذه التّقنيّات الحديثة في بثّ رسائلهم التّواصليّة البنّاءة والهادفة والمنسجمة مع مستحدثات العصر المَعيش؛ فإنّنا نجد طبقة أخرى من المهمّشين أو العاطلين من العمل أو المضطهدين لا يألون جهدًا في التّفريغ السّلبيّ عن طريق نشر الشّائعات والنّكت الشّعبية وبثّ رسائل ملفّقة بأسلوبٍ شائقٍ جاذبٍ، موضوعاتها متعدّدة، وأهدافها متنوعة كـ: التّسلية والإضحاك، أو إحداث بلبلة في المجتمعات العربيّة، أو إثارة الكراهية والحقد بين النّاس أو نشر شعارات وأنماط فكريّة واجتماعيّة جديدة، أو قلب الحقائق والإتيان بالمستغرب والصّادم من الأخبار، أو تتبّع أخبار المشاهير والسّاسة ونجوم الفنّ والدّعاة.

وكثيراً ما يكون موضوع الشّائعة معاكسًا للإعلام الرّسميّ في الدّول، ويُعاد تكرارها فهي سريعة التّداول والرّواج، ولغتها تمثّل عادة لغة العامّة في تقديم الأخبار للمتلقّي العربيّ، ويرى (ألبورت ويوستمان) أنّ من العوامل الّتي تزيد من احتمال نجاح الشّائعة ندرة المعلومات المتّصلة بموضوعها وأهميّته للأفراد المعنيّين بالرّسالة، وغموض الأدلّة الخاصّة[1].

وللأسف، قد يُساهم بعض الإعلام العربيّ الإلكترونيّ في نشر الشّائعات لأهداف خاصّة، يقف عادة وراءها قادة الرّأي، والمصالح الخاصّة، ويروّجها العامّة عن طريق "الثّرثرة الإلكترونيّة"؛ فقد تحوّلت تداولات التّواصل في البيوت والشّركات والمؤسّسات التّعليميّة إلى صفحات الشّابكة ومواقع التّواصل الاجتماعيّ، وغدا بعضها بلا قيمة أو فائدة فكريّة أو علميّة أو معرفيّة تُرجى، مُحرّكها الاستلاب القيميّ والأيديولوجيّ في الإنسان العربيّ، وفقدان تكامل الجماعة العربيّة وترك مقوّمات الوحدة والتّفاهم والتّعاضد؛ فقد فتّتت هذه التّقنيات العصريّة أواصر الأسر والشّعوب والدّول وجعلتها شرذمة ضعيفة، ولقمة سائغة في أفواه أعدائها.

---

(١) انظر: **علم الاتصال (مفاهيمه ،نظريّاته ،مجالاته)**، ص٩٢.

إنّ مَنْ يقف على الخلفيّة النّفسيّة لوعي الإنسان العربيّ سيدرك وحدة الأمزجة، وينظر للاستعدادين السّيكولوجيّ والأيديولوجيّ للأفراد، ويعزف على وتري العاطفة والإدراك العقليّ وحاجات النّاس ومطالبهم المختلفة ليستثمرها في جانب الدّعاية الإلكترونيّة، فهي محاولة للتّأثير في نفوس المتلقّين، والتّحكّم في سلوكهم لأغراض ذات قيمة في المجتمع، وفي زمن محدّد، وتختلف في تقسيماتها، فمنها: الدّعاية الأيديولوجيّة، ودعاية الشّعارات، سهلة الحفظ والتّذكر والتّرديد والمشحونة بالعواطف الإنسانيّة، والدّعاية التّشهيريّة المعادية، ويقصد بها الإساءة[1]، والدّعاية التّربويّة الّتي تسهم في تغيير مفاهيم تربويّة وتعليميّة وثقافيّة واجتماعيّة عبر تمريرها للأجيال النّاشئة في المؤسّسات التّربويّة والتّعليميّة، والدّعاية التّجاريّة، كابتداع مناسبات لشراء الهدايا مثل: يوم الحُبّ، ويوم الصّداقة، ويوم الأب...، وبشكل عام تتّسم الدّعايات بالتّزييف والمبالغة والتّهويل، وانتهاز الفرص، وأسلوب تحويل الأنظار، ومسايرة المتلقّي ومخاطبته على قدر عقله وميوله وحاجاته، مع التّكرار المستمرّ وقوّة الرّموز المستخدمة الجاذبة، وإن كانت تشوّه الحقائق وتحرّفها.

ومن الموضات الدّعائيّة الّتي تشيع في مواقع التّواصل الاجتماعيّ ما يسمّى بـ(الفاشينيستا[2] fashionista )؛ يطلق المصطلح على الفتيات اللّواتي يعشقن الموضات الحديثة، ويتابعنها، ويتّخذن من التّدوين عبر مواقعهن طريقًا لنشر إطلالتهن وتفاصيل حياتهن وأزيائهن إلخ، وقد بدأت الفكرة من مصمّمات الأزياء ونجمات الفنّ الغربيّات ثمّ انتقلت للفتيات العربيّات، ومنهنّ مَن يتّخذنها وسيلة لكسب المال والدّعاية للشّهرة والانتشار.

---

(١) للتّوسّع انظر: فهمي العدويّ، **إدارة الإعلام**، دار أسامة، ط١، عمّان، ٢٠١٠م، ص٢١٢-٢١٥.

(٢) يطلق على الرّجل فاشينيست.

ولعلّ الأيديولوجيّة الإلكترونيّة قوَّضت بعض المُثل العربيّة والعادات والتّقاليد المحافظة، وأعطت مساحة من الحريّة للشّباب العربيّ لعمل ما لا يستطيع فعله في إطار الأسرة والمدرسة والجامعة الضّابطة والموجِّهة قبل هذه التّقنيات؛ فضعفت فيهم مفاهيم الانتماء والعروبة والدّين، ووجدنا هذا الانفتاح يفرز ما يمكن تسميته بـ"المواطنة العالميّة"، فلا يأبه الفردُ بالحدود والأقاليم والدّول وخصوصيّة المجتمعات العربيّة؛ فغدا في أسرة أكبر بانضمامه إلى هذه المواقع؛ فهي من توجّهه وتحكم سلوكه، وتؤدلج أفكاره، وتحتفي بمخرجاته أيًّا كانت، مواطنة ترفع شعارات المساواة الاجتماعيّة عامّة والمساواة بين الجنسين خاصّة، وتلغي التّمييز الطّبقيّ أو العرقيّ...، وظهر ما يسمّى بـ"الأسر النّوويّة"[1]، فصغرت العائلات وتشتّت أعضاؤها في مختلف أصقاع الأرض بحثًا عن حياة أفضل، وتحقيق الذّات والثّروة، وخاصّة مع قلّة الموارد، والبطالة، وغلاء المعيشة، وغياب الأمن إلخ؛ كما أنّ بعض الدّول الغربيّة ساهمت بإغراء الشّباب العربيّ وهجرته بتوفير سبل الرّاحة ومِنَح الدّراسة وفرص العمل برواتب مجزية، ممّا دفع إلى هجرة العقول المتّقدة.

**المضامين الثّقافيّة:** إنّ جوهر النّظريّة الاتّصاليّة يركّز على أنّ المجتمع يتشكّل ثقافيًّا بفعل مضمون وسيلة الاتّصال ذاتها، والمحتوى الرّقميّ لثقافة الشّابكة جعلها جزءًا أساسيًّا من الثّقافة المعلوماتيّة الإلكترونيّة العامّة، وبُنيتها اللامركزيّة تتيحُ لجميع مستخدميها نشر ما يريدونه، وفي كافّة الموضوعات والمجالات العلميّة والتّربويّة والطّبيّة واللّغويّة والفنيّة إلخ، بلا رقابة أو قيد أو تقنين غالبًا، مع ما يصاحب ذلك من سرعة بثّ الرّسالة التّواصليّة الّتي يتلقاها المُستقبِل في ثوانٍ معدودات؛ وهذا دفع الكثير من مستخدمي المواقع والشّابكة من مؤلّفين

---

(١) هذا المصطلح للكاتب (مايكل هيل)، **أثر المعلومات في المجتمع (دراسة لطبيعتها وقيمتها واستعمالها)**، تعريب: مركز الإمارات للدّراسات والبحوث الاستراتيجيّة، ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٤م، ص٢١٩.

ودُور نَشْر وباحثين إلى نشر إصداراتهم باستخدام تقنية الكتاب الإلكترونيّ (E. Book).

وينتشر ما يسمّى بالإعلام الشّعبيّ أو إعلام المجتمع، وهي معطيات الإعلام الجديد (البديل) الّذي ينتشر على نطاق واسع، يشارك في إنتاجه أفراد المجتمع في وسائل التّواصل الاجتماعيّ، والمدوّنات والمنتديات وغرف الدّردشة الإلكترونيّة، ويدخل ضمنها ما يعرف بـ"صحافة الفيديو" الّتي تنتشر بشكل كبير في (اليوتيوب)؛ إذ تستخدم كاميرات الفيديو الحديثة والكاميرات الرّقمية وأجهزة الهواتف النّقالة في بثّ المشاركات عبر الشّابكة[1]، كلٌّ يسعى لتقييد سبقه في النّشر، أو تسجيل إبداعه في مجالٍ ما، بهدف الانتشار وعرض المُنتَج، والتّعريف به، مع ما ينشده الباث من تشجيع المتلقّي له، واستمالته لإظهار الإعجاب بخطابٍ أو صورة أو تسجيل صوتيّ أو مقطع فيديو، أو تسويق أيديولوجيّ أو مأربٍ ماديّ.

وقد كثرت في الآونة الأخيرة المنتديات الثّقافيّة العربيّة في مجالات متعدّدة، وساهمت في ترويج الكُتب وعقد المهرجانات الثّقافيّة والنّدوات والمؤتمرات والمسابقات وتجمّعات إشهار دواوين الشّعر وآخر إصدارات الكتب، وكثرت جوائز الأدب والشّعر تحت شعارات مثل: أفضل رواية أو مسرحية أو قصة أو شاعر العرب إلخ، وهي أشبه ما تكون بالمقايضات الفكريّة أحيانًا، فمنها ما تحكمه المنفعة الخاصّة والمشتركة، واعتماد المجاملات في العلاقة التّواصليّة بين طرفي الخطاب، على حساب جودة المُنتج الثّقافيّ ومضمونه وأحقيّته، وكأنّه شكلٌ من التّسليع، تحكمه المادّة لا الأيديولوجيات النّافعة أو الذّائقة الرّاقية لجمهور التّلقي، وأحسب أنّ هذا الزّخم من النّتاج الّذي يُنشر بهذه الطّرق يشكّل خطرًا على المنظومة الثّقافيّة العربيّة، فهو يفرز أنصاف مثقّفين وأرباع متعلّمين أو أقل؛ لما يستبطنونه من الرّغبة في الانتشار التّقنيّ في وسائل التّواصل الاجتماعيّ، واقتناص فرصة الإنتاج

(١) انظر: **الإعلام الجديد (الإعلام البديل)**، ص٥٤.

العابرة؛ كفقاعة سرعان ما يختفي ذكرها وأثرها، وقد برزت في صفحات التّواصل الاجتماعيّ ظاهرة وضع ألقاب وصفات قبل اسم الشّخص مثل: المؤلّف الرّائد أو شاعر العربيّة أو المنتِج المحترف إلخ، وهذه صفات يطلقها المتلقّي على من يستحق وليس منشئ العمل الأدبيّ.

وقد يعزى ما سبق إلى أنّ المضامين الخطابيّة الإلكترونيّة الّتي ترسل على غاربها (دون فلترة)، وتهتم بالـ(كم) على حساب النّوعيّة لم تعد تمرّ بـ"حارس البوّابة التّواصليّة"[1]، وهنا يقصد بالحارس الّذي يحدّد صحّة المعلومة ومصدرها ومعايير الدّقّة فيها، ومدى صلاحيّتها للنّشر بعد إخضاعها للمعالجة والتّدقيق والتّنقيح والمتابعة، والتّحقّق من مناسبتها للحال والمقام الّذي تبثّ فيه؛ فأنتج تدفّقًا لكثير من المعلومات الخاطئة وغير الموثّقة، مع قابليتها للحذف والتّعديل بلا معايير أو حدود أو ضوابط؛ فبات الشّارع العربيّ يعاني من مشكلات كثيرة في التّفكير، فآراؤه أقرب إلى السّطحيّة والتّعميم، وغالبًا ما ترتبط بشعارات أيديولوجيّة تحكمها الميول والأهواء والتّوجّهات والعصبيّات والمذاهب والأحزاب؛ فجانبت الحقّ والمنطق والوقائع المتعارف عليها.

هذا عدا عن التّغييرات الجذريّة في نوعيّة متلقّي الرّسالة التّواصليّة وانعكاساتها على تفاعله مع ما يُبثّ من رسائل وموادّ، مثل: شعوره بالملل أحيانًا من الأنماط التّواصليّة الدّارجة، ولا سيما إن كانت مكرورة ومفرّغة من محتواها الأيديولوجيّ القيّم، يرافقه الإحساس بالإحباط واليأس، لكثرة ما يصله من أخبار الدّمار والحروب والمجاعات والكوارث الاجتماعيّة والطّبيعية والسّياسيّة اليوميّة، مع شعور بالقصور والعجز أحيانًا عن متابعة كلّ جديد مع التّسارع الكبير في

---

(١) يسمّى قادة الرّأي حرّاس البّوابة أو المصفاة؛ فلا تمر رسالة إلا بعد أن تتبدّل على أيديهم، انظر للتوسّع: مأمون طربيه، **السّلوك الاجتماعيّ للفرد**، دار النّهضة العربيّة، ط١، بيروت، ٢٠١٢م، ص٥٢.

بثّ الرّسائل التّواصليّة، وتدفّق المعلومات، ويلحظ فساد الذائقة العامّة عند كثيرٍ من المتلقّين، فما عاد الفرد يميّز الغثّ من السّمين؛ فصار المستحسن رديئًا، وبات القبيح جميلاً، ينضاف إلى ذلك تحكيم العاطفة لا المنطق في ردود الأفعال التّواصليّة، والنّظر في مرجعيّات الباثّ العقديّة والثّقافيّة والعلميّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والدّينيّة عند الحكم عليه، أو على منتجه أو رسالته في الخطاب.

ولعلّ أشدّ مخاطر العولمة زعزعة منظومة القيم الثّقافيّة، والسّعي لهيمنة الثّقافة الغربيّة وترويج أنماطها في كلّ أساليب الحياة العربيّة وسلوك أفرادها، وذلك بما تملكه الشّركات الغربيّة العملاقة من سطوة الإعلام الإلكترونيّ ووسائلها الجاذبة والمغرية؛ ممّا أدّى إلى سوقٍ عربيّةٍ تستهلك المعرفة وتجترّها أكثر ممّا تنتجها؛ حتّى فقدت ثقافتنا خصوصيّتها ومرجعيّتها الأصيلة، ونتج عن ذلك تسطيح الفكر العربيّ وصناعة التّفاهة[1]، فخُلق جيلٌ تقنيّ، أغلبه من الشّباب، يهتمّ بالشّكل والزّخارف الحضاريّة على حساب الجوهر، جيل يطلب وجبته المعرفيّة السّريعة، ولا يكترث بتبعاتها، وقد أثبتت إحدى الدّراسات أنّ (٧٤%) من وعي الطّلبة وأفكارهم يتشكّل من استخدام الشّابكة وهذه المواقع[2]، وإنْ أحدثت التّقنيات ثورة تعليميّة، وغدت الوسيط المحفّز للدّراسة أحيانًا؛ إلا أنّ الاعتماد عليها بات مبالغًا فيه، فقد حدا بالشّباب العربيّ إلى هجر الكتاب الورقيّ، والابتعاد عن القراءة الفاعلة والمثقّفة والموثّقة؛ فأضعف ذلك قدرة المجتمعات العربيّة على الإبداع والابتكار في ظلّ المنتجات الثّقافيّة المُعلّبة الّتي تقدّمها الوسائل التّقنيّة للمتلقّين.

---

(١) ومن ذلك مواقع قليلة تنطلق للتّعامل مع مستخدم محدّد، مثل مواقع الأشخاص الوسيمين (Beatiful people)؛ إذ يُطلب من المستخدمين الوسيمين أن يضعوا صورهم ويُعرّفوا بأنفسهم.

(٢) انظر: **إدارة الإعلام**، ص١٥.

فالمشكلة أنّنا لم نرفع الفكر العربيّ المعاصر معرفيًّا وثقافيًّا وعلميًّا وحضاريًّا في وجه الغرب؛ لنثبت قدراتنا ونبرز تميّزنا وإبداعنا، كما لم نتّخذ من الاتّصال الرّقميّ حقلَ اشتغالٍ أيديولوجيّ أصيل، وسلاحًا معرفيًّا نحتمي به ونغربله لنرتقيَ بأنفسنا ومجتمعنا ودُولنا؛ فأحدث ذلك خلخلة في أساس المجتمعات العربيّة، فوجدنا الانحدار التّدريجيّ يُنشئ تجويفًا فكريًّا؛ بفعل الحفر في الأدمغة بأدوات التّغريب الفكريّ؛ لتوسيع الهوّة بين الأنا العربيّة والآخر الغربيّ، لخلق سحنةٍ مسخ جديدةٍ بلا ملامح واضحة أو هويّة أو أصل ترتدّ إليه. وأحسب أنّ هذه العمليّة تقوم على أسس ثلاثة: التّفريغ من المحتوى، ثمّ الشّحذ، ثمّ التّبعيّة المطلقة، وتنجز هذه على مراحلَ وبأناةٍ وصبرٍ بَالِغَيْنِ، وبسياساتٍ خفيّة أو مكشوفة أحيانًا، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ سلوك الإنسان العربيّ له خلفيّة –لا شكّ– معقّدة ومتعدّدة المكوّنات، مثل الدّوافع والقيم والاتجاهات، وحتّى يتمّ زعزعتها وتغييرها في شبكة العلاقات التّواصليّة الاجتماعيّة لا بد أن يرتبط هذا بأمر مسلّم فيه وهو (سلوك الإنسان يبدأ بالدّوافع وينتهي بالغرض)[1]، ولعلّ أهمّ الدّوافع حاجات الإنسان العربيّ إلى مسايرة التّقدّم التّقنيّ، وإثبات فاعليّته، ومشاركته فيه ليلحق بالرّكب؛ عدا عن حاجاته النّفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة الخاصّة الّتي تحفّزه إلى الوصول إلى غاياته.

**المضامين الدّينيّة:** تعدّ المرجعيّات الدّينيّة من أهم المؤسّسات المؤثّرة في الإنسان العربيّ وأقواها، لما تملكه من إمكانات معنويّة وماديّة واجتماعيّة، فقد استثمر الدّعاة وسائل التّواصل الاجتماعيّ لبث أفكارهم في الدّعوة إلى الله؛ حتّى امتدّ ذلك إلى دول أعجميّة أخرى، وأدّى ذلك إلى دخول أعداد من النّاس في الإسلام؛ ولكن ثمّة قوى سياسيّة في العقد الأخير من القرن الحالي قامت

---

(١) للتوسّع في مسلّمات السّلوك الإنسانيّ انظر: فؤاد البهيّ عبدالرّحمن، **علم النفس الاجتماعيّ رؤية معاصرة**، دار الفكر العربيّ، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٥٤.

بتقويض نشاطات بعض الفرق الإسلاميّة وتكبيل حركة أعضائها، كما ظهرت جماعات تدّعي الإسلام بمسمّيات مختلفة تناقض أفعالها سماحة الدّين وتعاليمه السّامية الّتي تحقّق الأمن والسّلام؛ فساعد ذلك في تشويه المفاهيم والأيديولوجيّات الإسلاميّة عالميًّا، وأُلْصِقتْ تهمٌ بإسلامنا مثل الإرهاب والحثّ على العنف، واضطهاد معتنقي الأديان الأخرى إلخ، ومن جانب آخر نشطت جماعات تدعو إلى التّطرف والإلحاد، وديانات أخرى مثل: النّصرانيّة واليهوديّة والبوذيّة...

**المضامين السّياسيّة:** المعلومات قوّة تشكّل المجتمع، وتوجّهه للسّيطرة على أفراده، والقيادة فنّ، وإن كانت تحكمها قوّة أو مكانة أو سلطة؛ فهي كذلك عمليّة سيكولوجيّة في التّواصل الاجتماعيّ؛ إذن فالأيديولوجيّات غالبًا قد تعبّر عن وجهة نظر الطّبقة المسيطرة من رئاسة وحكومات وأحزاب الأقليّة والمعارضة، وتسعى للتّأثير في أفراد المجتمع بممارسة القوّة في المجتمعات الحديثة ومنها العربيّة[1].

وبعض الجماعات تسعى إلى أيديولوجيّة الإصلاح والتّغيير الاجتماعيّ، فتعبّر عن آمال الفئات الاجتماعيّة المختلفة وتطلّعاتها، وقد ساهمت هذه التّقنيات الحديثة في ثورة الشّعوب على حكّامها في ظلّ رفع شعارات الدّيمقراطيّة والحريّة والرّغبة في التّغيير الجذريّ في الدّول العربيّة تحت مسمّى (الرّبيع العربيّ) قبل سنوات، وما زالت آثاره السّلبيّة ممتدّة حتّى اليوم، ومعاناة الشّعوب مستمرّة من مجاعات ودمار وفقر وبطالة وإعاقات جسديّة ومشاكل نفسيّة إلخ.

إنّ تسييس استخدام التّقنيات الحديثة في المجتمعات العربيّة لا تحكمه ضوابط واضحة المعالم أو قوانين مدروسة؛ بل توجّهه مصالح مؤدلجة وقوًى عظمى أدّت إلى إفراز مشكلات سياسيّة واجتماعيّة عدّة، منها: انتشار الفوضى

---

(١) كما تفعل جماعات الضّغط (Pressure groups).

في الدّول العربيّة، والجرائم الواقعيّة والإلكترونيّة في الواقع الافتراضيّ، ونشطت عصابات الشّابكة (قرصنة النّت Hackers)، وهي جرائم غير ماديّة، قد تمتدّ خارج الحدود المحليّة؛ ولذلك نشأت (عولمة الجريمة)، وأهمّها: جرائم الذّم والتّحقير والإهانة[1]، والنّصب والاحتيال الإلكترونيّ، باستدراج المستخدم للضّغط على روابط إلكترونيّة ملغومة بالفيروسات الضّارة بالجهاز التّقنيّ، كما لديها القدرة على العبث بمحتويات المواقع الإلكترونيّة بالإضافة أو التّغيير أو الحذف، وسرقة البيانات والحسابات المصرفيّة المتعلّقة بالأفراد والشّركات والدّول، والتّجسّس لصالح الدّول المعادية، ولنا أن نسمّيه بـ"التّلصّص الإلكترونيّ"، كاختراق البريد الإلكترونيّ ومواقع حسابات التّواصل الاجتماعيّ والمساس بحياة الأفراد الخاصّة، بسرقة صور الأطفال والنّساء وبيعها أو نشرها في المواقع الإباحيّة، ومن الجرائم غسيل الأموال، والرّبح الإلكترونيّ المشبوه والمتنامي، والتّحريض ضد الدّول والطّعن في القيادات السّياسيّة، والتّحريض على العنف، وبثّ الكراهية في النّسيج الاجتماعيّ العربيّ مع تعدّد الفرق والانتماءات الدّينيّة والأحزاب السّياسيّة، واستضعاف الأقليّات وتعذيبهم إلخ، وقد حدا انتشار مثل هذه الجرائم إلى حظر بعض المواقع الإلكترونيّة والتّطبيقات.

وقد ظهر ما يُعرف بـ"حرب المعلومات"، وهي خطوات تتّخذ لتحقيق التّفوّق المعلوماتيّ لدعم الاستراتيجيّة الفكريّة القوميّة بواسطة التّأثير في معلومات الخصم، وأنظمته[2].

---

(١) ومن سمات الجرائم الإلكترونيّة: سهولة إخفاء معالم الجريمة، مقابل صعوبة تتبّع مرتكبيها، وتتّسم بالغموض؛ إذ يصعب إثباتها أحيانًا، والتّحقيق فيها، ويتّسم مرتكبو هذه الجرائم بالثّقافة التّكنولوجيّة والعلم بدقائقها، انظر: **الإعلام الجديد (الإعلام البديل)**، ص١٢٨.

(٢) انظر: محمود علم الدّين ومحمّد تيمور، **المعلومات وتكنولوجيا الاتصال**، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢١.

**المضامين الاقتصاديّة:** لقد شاعت في مواقع التّواصل الاجتماعيّ وظائف عديدة، ارتبطت بمفاهيم الاقتصاد الإلكترونيّ على المستويين العربيّ والعالميّ، وأهمّها وظيفة تسويق الإنتاج الفكريّ، والثّقافة الاستهلاكيّة السّائدة في المطعم والملبس والتّفكير، مثل: "Take away ،Delivery"، ممّا أدّى إلى فقد الإنتاجيّة، وترويج مواقع التّسوّق الإلكترونيّ لبعض السّلع والبضائع، خلال إعلانات لافتة ومحفّزة، وتقديم خدمة التّوصيل المجّانيّ، كما سهّلت التّجارة الإلكترونيّة؛ إذ يتمّ تبادل السّلع الماديّة، وعقد صفقات الشّراء والبيع، والتّسويق لمنتجات المتاجر العالميّة والعربيّة، ومن ذلك تجارة المعلومات الإلكترونيّة، خلال سوق المعلومات، ومن السّلع المعلوماتيّة البريد الإلكترونيّ وبرامج البريد الصّوتيّ وبرامج أنظمة تشغيل الحواسيب وغيرها.

ولذلك لا بدّ للاقتصاديّين في بلادنا العربيّة من إيجاد تكتّلات وحدويّة تنصهر في وحدات مركزيّة متماسكة قادرة على مواجهة الشّركات الّتي تحتكر الأسواق العربيّة والعالميّة وتفرض آليّاتها ومنتجاتها[1]. وقد درجت في الآونة الأخيرة طرقٌ للكسب الماليّ الإلكترونيّ السّريع، واستثمار الأموال عبر اليوتيوب والفيسبوك والتّويتر إلخ، وصارت تُعرَض فيديوهات تروّج لذلك، توضّح للمستخدمين طرق الرّبح الإلكترونيّ، وتداول الأسهم واستخدام العملة الإلكترونيّة الأشهر (Bitcoin)، وفتح حسابات إلكترونيّة تحقق دخلًا سريعًا لهم، مثل: (Traidnt، Google Adsense، Forex Trading Online) إلخ.

---

(١) ويقدّر أنّ (٢٥) سوقًا حاليًّا تتحكّم في نصف رأس المال العالميّ؛ أي تتحكّم في (٢٠.٩) ترليون دولار، انظر: **إدارة الإعلام**، ص١٥٦.

**الوسيط اللّغويّ الناقل للمضامين الفكريّة في وسائل التّواصل الاجتماعيّ:**

لا محتوى بلا أداة ناقلة أو وعاء، واللّغة الوعاء الحيّ النّابض، والوسيلة الّتي تحمل المضمون، ولا غرو أنّها جزءٌ لا ينفصل عن ذات الإنسان وفكره، وتتنوّع لغة وسائل التّواصل الاجتماعيّ في الدّول العربيّة كغيرها من دول العالم بين اللّغتين اللّفظيّة، وغير اللّفظيّة[1]، ويجب أن تتناسب اللّغة المستعملة مع طبيعة الرّسالة في الخطاب التّواصليّ، وخصائص المتلقّي المتفاوتة وظروف الخطاب الاتصاليّ (المكان، والزّمان، والبيئة، والموقف...) والعوامل المتّصلة بالمرسِل.

واللّغة نسقٌ رمزيّ يعرّف بصاحبه ويعطي عنه ملمحًا أيديولوجيًّا وثقافيًّا، كما يُقاس علو الأمم أو انحطاطها باهتمام أبنائها بلغتهم الأم، واستخدامها والرُّقيّ بها، ومع موجة التّقدّم التّقنيّ المتسارع والمثاقفة تراجعت اللّغة العربيّة، وعزف عنها أبناؤها، وحلّت مكانها اللّغات الأعجميّة، وانتشرت مظاهر هذا الجَزْر اللّغويّ بشتات أبناء العربيّة لغويًّا، والعناية بلغات أخرى على حسابها، ولا سيّما اللّغة الإنجليزيّة الّتي باتت محطّ اهتمام كثير من الشَّباب العربيّ، وقد سهّلت مواقع التّواصل الاجتماعيّ سبل التّعليم المجانيّ للغات الأخرى، وكثرت مظاهر لغويّة غذّتها الشّابكة كـ"لغة الفرانكو = العربيزي = الإنجليزيّ المعرّب"؛ إذ تستخدم الحروف اللاتينيّة والأرقام للدّلالة على الحروف العربيّة مثل: ع=3/ ذ=4/ خ=5 إلخ، كما يشيع استخدام الحرف الإنجليزيّ للكلمة العربيّة مثل: (AL7amdo LLALAH) = الحمد لله، وكتابة الكلمات الإنجليزيّة

---

(١) قد تسمّى لغة الإشارة أو لغة الحركة أو لغة الأشياء، وقد تكون خطوطًا صمّاء أو مشهدًا صامتًا (بانتومايم) أو صورة أو رمزًا، للتّوسّع انظر: **علم لغة الحركة بين النّظريّة والتّطبيق**، ص٤٠-٤٦.

بالحرف العربيّ مثل: "جوردن تايمز Jordan Times"، وانتشار الإعلانات والبرامج والمسابقات والأفلام العربيّة بأسماء إنجليزيّة أو فرنسيّة أو إسبانيّة إلخ، وكذلك كتابة الأسماء في حسابات التّواصل الاجتماعيّ بلغات أعجميّة وبعضها أسماء مستعارة، هذا عدا عن شيوع اللّحن اللّغويّ في مستويات العربيّة جميعها: الإملائيّة والمعجميّة والنّحويّة إلخ، فانتشرت لغة ركيكة وهزيلة، شوّهت اللّغة العربيّة المستخدَمة وأضعفت السّليقة في الأجيال العربيّة الجديدة، وأفسدت ذائقتهم اللّغويّة السّليمة.

وممّا ساعد في تدنّي مستوى أبناء العربيّة لغويًّا كثرة استخدام اللّغة المحكيّة المكتوبة والمسموعة في هذه الوسائل؛ حتّى وجدنا العُجمة والرّطانة والتّهجين اللّغويّ جليًّا في اللّسان العربيّ، فبدا أثر الوسيط اللّغويّ العربيّ النّاقل للمضامين الفكريّة بلغته السّيّارة بشكلٍ جديد، وبات الجيل التّقنيّ يزدري لغته؛ ويعقّها بالاستهزاء بها وبمن يتحدّثها أو يكتب بها، في حين أن بعض الدّول الأعجميّة مثل الصّين واليابان وتركيا وغيرها باتت تهتم بتعليم العربيّة لأبنائها.

ومن المظاهر اللّغويّة شيوع "العنف اللّغويّ" بالتّطاول والاعتداء على الآخرين بمشاهد فيديو في اليوتيوب أو تعليقات غير لائقة أحيانًا في الفيسبوك والتّويتر إلخ، وكذلك ميل كثير من الأسر العربيّة إلى إرسال أبنائهم إلى مدارس اللّغات الأخرى، الّتي لا تُلْقِي بالاً للعربيّة، إذ يعدّون الإنجليزيّة بشكل خاصّ لغة النّموّ والتّقدّم والحضارة، لغة تهيّئ أبناءهم لسوق العمل مستقبلاً ومتطلباته التّكنولوجيّة الحديثة؛ وبلا شك فقد يكون تعلّم اللّغات مطلبًا وحاجة حسب السّياق؛ لكن يجب أن لا يكون على حساب لغة الطّفل الأصل؛ وللأسف، مشكلة العربيّة في أهلها، وذلك جليّ بقلّة انتمائهم إلى هويّتهم اللّغويّة، وعدم اتّخاذ المثقفين والحكومات العربيّة الإجراءات العمليّة لتذليل الصّعوبات أمام العربيّة لمجابهة هذه التّحدّيات.

وقد أصدرت كليّة دبي للإدارة الحكوميّة، الإصدار السّابع من سلسلة دراسات في شباط ٢٠١٧م بعنوان: "الإعلام الاجتماعيّ العربيّ"[١]، عُنيت الدّراسة بتحليل بيانات (٢٢) دولة عربيّة تمّ جمعها من (Facebook، Twitter، Instagram، Linkedin)، في المدّة من (كانون الثاني ٢٠١٦ إلى كانون الثاني ٢٠١٧)، وتشير النّتائج إلى أنّ وسائل الإعلام الاجتماعيّ اكتسبت أهميّة متزايدة، وتغلغلت في حياة العرب، ولا سيّما الشّباب، كما أنّ النّسبة الكبرى من مستخدمي وسائل التّواصل الاجتماعيّ في البلدان العربيّة من الذّكور، و٦٤% تحت عمر ٣٠ عامًا، واللّغة العربيّة هي الأكثر استخدامًا في أنشطتها كذلك، والفيسبوك هو الشّبكة الاجتماعيّة الأكثر رواجًا، وتستخدم العربيّة فيه بنسبة (٥٥%).

وقد ظهرت مصطلحات لغويّة تقنيّة تستخدم باللّغة الإنجليزية منها: (Block) – بلوك (حظر إحدى جهات الاتّصال)، و(Selfie) – سيلفي (الصّورة الملتقطة ذاتيًّا) إلخ، ويلاحظ استخدام الشّباب العربيّ هذه المصطلحات الّتي غدت أبجديات إلكترونيّة دخلت نسيج اللّغة العربيّة الّتي تستوعب كلّ جديد بمرونتها، وتخضع لقواعدها؛ فنجد بعض هذه الكلمات تُجمَع وتُثنّى: لايك – لايكات/ فيسبوكي – فسابك أو فسابكة[٢]/ كومنت – كومنتان/ تويتة – تويتات، ومن (شير share) يُستخدم: شيَّرْ، ويُشيِّر، وشَيَّر، مُشيِّر إلخ.

ولا بدّ من إدراك حجم المسؤوليّة الّتي تقع على أكتاف الغيورين من أبناء العربيّة على لغتهم من أفراد ومؤسّسات ومجامع اللّغة العربيّة لاستيعاب هذه

---

(١) المصدر: إحصائيّات مواقع التّواصل الاجتماعيّ، شباط ٢٠١٧م، (www.weedoo.tech).

(٢) يرجع استخدام المصطلح للشّاعر اللّبنانيّ أحمد بيضون، ثمّ إلى الصّحفيّ اللّبنانيّ رامي الأمين في كتابه **معشر الفسابكة**، دار الجديد، ط١، بيروت، ٢٠١٢م.

المستجدّات اللّغويّة التّقنيّة في الشّابكة وفلترتها وتصنيفها، ثمّ إعطاء البدائل العربيّة المناسبة لها.

**العوامل التي تؤثّر في تلقي المضامين الفكريّة الإلكترونيّة في وسائل التّواصل الاجتماعيّ:**

لقد غدت وسائل التّواصل الاجتماعيّ كسيل عرمرم يجتاح دولنا العربيّة، تتحكّم فيه عوامل تساهم في تشكيل التّصدّعات القيميّة والمعياريّة والاجتماعيّة الجديدة، أهمها: توفير فضاء الواقع الافتراضيّ لمستخدميه المهرب من واقعهم المعيش، مع توفّر المبادئ الأساسيّة في التّأثير في اتجاهات الفرد العربيّ؛ فالمضامين قريبة من احتياجاته: النّفسيّة والاجتماعيّة والماديّة والدّينيّة والتّرفيهيّة، تدفعه لذلك الرّغبة بالتّغيير السّريع والجدّة، وتوفير أرشيف معلومات وقاعدة بيانات مجانيّة متوفّرة في كلّ وقت ومكان، تُدرَك بيسر، إضافة لنمو الخطاب الإلكترونيّ وتحديثه المستمرّ بتقنيات متجدّدة؛ يحفّز المستخدمين على المتابعة، واستطلاع آراء الآخرين واستفتاءاتهم، ومعرفة الأخبار على مدار الوقت.

إضافة لحريّة الاستخدام، مع وجود تغطية كبيرة ومفتوحة العدد للأفراد المتابِعين الّذين تصلهم رسالة الخطاب التّواصليّ الإلكترونيّ، وقدرة مستخدِم هذه التّقنيات على معرفة مدى اكتمال دائرة التّواصل؛ ووصول رسالته التّواصليّة الإلكترونيّة للمتلقّي بوجود آليات تقنية توضّح عدد المشاهَدات للنّصوص المعروضة أو الفيديوهات، أو بوضع علامة الإعجاب أو التّعليق كنوع من التّفاعل والتّغذية الرّاجعة الفوريّة، كما يمكن قياس درجة التّجانس في المتلقّين[1] من قبل العمر والجنس والمكان والثّقافة ودرجة التّعليم والوعي والخبرة والحالة الاجتماعيّة، والميول النّفسيّة والمزاج والانتماء الطّائفيّ أو العرقيّ أو الدّينيّ أو الجغرافيّ، وكثافة الحضور في التّطبيق أو الموقع التّواصليّ.

وثمّة عوامل ترتبط بالمُستخدِم وخطابه وتأثيره بالآخرين، أهمّها امتلاكه المهارات التّواصليّة التّقنيّة وخبراته التّكنولوجيّة، وإدراكه أبعادها وكيفيّة

(١) يقصد بها التّشابه بين الأفراد المتلقّين للرّسالة التّواصليّة.

توظيفها في بثّ رسالته الإلكترونيّة، وإيمانه برسالته وثقته بنفسه وبصحّة مصادر معلوماته وقدرته على الغربلة وتمييز الصّحيح من الملفّق[1]، وكذلك قدرته على صياغة الرّسائل الاجتماعيّة الإلكترونيّة باستخدام الوسيلة الملائمة والجاذبة للمتلقّي لغة ومستوًى، والاهتمام بطريقة العرض والتّوقيت الملائم، ومدى مناسبة الموضوع للمتلقّي وحاجته له وجِدّته، والإخراج الفنيّ والتّقنيّ للرّسالة وطولها أو قصرها، وسيطرة الرّموز والأيقونات في الكتابة الرّقميّة بعيدًا عن التّشويش الدّلاليّ، والتّنبّه إلى مُدّة عرضها، والشّكل اللّغويّ المناسب، ومراوحته بين المكتوب والمسموع والمصوّر، وسهولة تناوله، وعدد تكرار الرّسالة ومدى شمولها، وسلامة المحتوى الإلكترونيّ من الأخطاء، وكفاءة العرض والأداء والأدوار إذا كانت المادّة المقدّمة في فيديوهات.

وكلّ ما سبق يؤثر في متابَعة الرّسالة وعدد الإعجابات وتفاعل المتلقّي بالتّعليق وعدد المشاركات، وينضاف للعوامل السّابقة المؤثرة في استجابة مستخدمي مواقع التّواصل شهرة المرسِل بِعَدّه من الشّخصيّات المعروفة اجتماعيًّا أو سياسيًّا أو دينيًّا أو فنيًّا إلخ، ومرجعيّاته الأيديولوجيّة وانتماؤه العقديّ وميوله وتوجّهاته التّنظيميّة التّابعة لمؤسّسات أو منظّمات أو دول.

**حفرة الانهدام الفكري بين الانفصال والاتصال:**

**أولاً: وسائل التّواصل الاجتماعيّ بين الفائدة والعبث:**

تعدّ وسائل التّواصل الاجتماعيّ من تحديات العصر الّتي يجب الوقوف على محتواها واستثمار أدواتها وتعرّف مزاياها، وتجنّب عيوبها؛ فهي سلاح ذو حدّين، تعتمد طريقة التّوظيف وحُسن التّأتّي لجني الفوائد، ففيها الحِكَم والمواعظ

---

(١) أثبتت التّجربة أنّ المصدر الموثوق به يستطيع أن يقنع المستقبل إلى درجة تبلغ ثلاثة أضعاف ونصف تلك الدّرجة الّتي يبلغها المصدر الأقل ثقة، انظر: **فنّ الاتصال في الخدمة الاجتماعيّة**، ص٨٠.

والمعلومات، والإعلان عن الذّات، وهي من وسائل التّنفيس اللّغويّ، يستطيع مستخدمها التّعبير عن كبت عاطفيّ أو اجتماعيّ أو ماديّ إلخ، وفيها ينظر الفرد لنفسه من ردود أفعال الآخرين وانطباعاتهم عنه، وكذلك الاستفادة من تجاربهم ومعرفة أحوالهم، والبحث عن أصدقاء جدد أو استرجاع صداقات قديمة وتوثيق الذّكريات، وتبادل الأفكار والحوارات، والبحث عن وظائف وإجراء مقابلات شخصيّة أو المشاركة في ندوات أو مؤتمرات، واكتشاف العالم حوله؛ لوجود ميزة سرعة الانتشار والتّنقل والنّشر والتّداول، ويستخدمها طلبة العلم للحصول على المعلومات بيسر مع تعدّد مواقع نشر الكتب الإلكترونيّة الموافقة للمطبوع (الكتاب الورقيّ) بغية التّوثيق، وفيها تُتناقل الأخبار، وهي إحدى وسائل التّثقيف الجماهيريّ في كلّ مجالات المعرفة.

وفي الجانب الآخر، فإن استخدام هذه المواقع في المجتمعات العربيّة، أدّى إلى تغيير أنماط تفكير الجيل التّقنيّ الجديد، فنجد عزوفًا عن الزّواج أو تأخّرًا؛ فكثيرٌ يحكم توجهه المستقبل المهنيّ أو العلميّ؛ فضلاً عن عدم احترام البعض قداسة الزّواج وتبعاته الأسريّة، وتفشّت ظاهرة الطّلاق، وبعض أنماط الزّواج غير الشّرعيّ الميسّر في الإعلانات الإلكترونيّة الّتي أدّت إلى تفكيك الرّوابط الاجتماعيّة بين أفراد العائلة الواحدة، وبين الأسر والمجتمع عامّة.

ويلحظ ازدياد الثّروات الشّخصيّة عن طريق تطبيقات تقنيّة جديدة، ويرتبط ذلك بثقافة التّخلّص من السّلع المستهلكة أو المعطّلة بدلاً من إصلاحها، واقتناء الطّراز الأحدث من السّيارة أو برنامج الحاسوب أو الهاتف الجوّال، كما تغيّرت الغايات، فصار التّسوّق لقضاء وقت الفراغ والنّزهة وليس للضّرورة، والحياة باتت أكثر صخبًا والوقت بلا قيمة عند كثيرين، واتّسعت الفجوة بين الجيل الأكبر الّذي يميل للمحافظة والجيل الحديث الّذي يرى التّغيير نوعًا من الإثارة، وفيه مسايرة للتّوجّهات المعاصرة.

وممّا نتج عن هذه الوسائل ظاهرة "الطّبقيّة الاتّصاليّة"؛ إذ قُسّم العالَم إلى قسمين من قِبَل طبيعة خدمات التّواصل والإعلام: فئة الإعلام التّجاوبيّ الّتي تتيح خدمات المعلومات والمعرفة، ويتفاعل معها المستخدمون بما ينمّي قدراتهم، ويضاعف فرصهم في العمل أو التّعليم، وأمّا الفئة الأخرى، ففئة الإعلام السّلبيّ الّتي لا يملك فيها الفرد سوى استقبال الرّسالة المقدّمة إليه(١).

ومع تكاثر المنشورات والمعلومات صار من الصّعب المتابعة أو الإحاطة بكثير منها، وهي أشبه بفقاعات المعارف لما يعتري بعضها من الوهن والعشوائيّة والفوضى وعدم المصداقيّة والدّقة، ومجانبتها للحياديّة، وعدم نسبة المعلومة إلى مُنشئها، فكثُرت السّرقات العلميّة والأدبيّة الإلكترونيّة؛ ممّا أدّى إلى تراجع مستوى التّعليم والبحث العلميّ؛ ووجود حسابات إلكترونيّة وهميّة مجنّدة لهدم المضامين الفكريّة والثّقافيّة والعلميّة واللّغويّة في العالم العربيّ.

ويجب عدم إغفال محاولات تجهيل الرّأي العامّ، لا سيّما الإعلام الإلكترونيّ الّذي تحكمه السّلطة ورأس المال الغربيّ في كلّ مكان، بما فيها الدّول العربيّة، عدا الأضرار العقديّة والأخلاقيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والأمنيّة الّتي يضيق الموضع عن تفصيلها.

**ثانيًا: وسائل التّواصل الاجتماعيّ بين المأمول والواقع:**

تتنازع الإنسان العربيّ الرّغبة الجامحة في مواكبة ركب التّقانة والاستفادة منها قدر الإمكان ومحاولة تجنّب أضرارها، وتتراوح التّكهّنات لآثار وسائل التّواصل الاجتماعيّ في المجتمعات العربيّة بين متفائل ومتشائم، ففي الوقت الّذي منحت هذه التّقنيات الإنسان العربيّ حريّة التّواصل، ووفّرت عليه مجابهة تحديات كثيرة لمتابعة مجريات العالم ومتغيّراته السّريعة؛ إلا أنّها وسّعت الهوّة

---

(١) انظر: **الإعلام الجديد (الإعلام البديل)**، ص٦٤.

بين أفراد هذه المجتمعات ورفعت بعضهم على حساب الآخر، وساعدت في تغريب العقول وتفرقة الجماعات.

ولا بدّ من التّنبّه إلى ضرورة وجود الحصانة ضد المؤثّرات التّواصليّة الّتي يستقبلها الإنسان العربيّ في الوسائل التّقنيّة الاجتماعيّة الحديثة، ويقصد بذلك التسلّح بالعناصر المعرفيّة والاتجاهات النّفسيّة المتّزنة الّتي يحملها الفرد لمقاومة التّغيير، وهي تختلف من شخص إلى آخر، فالبعض قد تكون استجابته سريعة للتغيّر أو بطيئة، أو سهلة أو صعبة، والفئة الصّعبة هي من تكون لديهم المناعة أقوى لمقاومة التّغيير، ويعتمد كثيرٌ من موجّهي الشّعوب وقادتهم دراسة طبيعة الفئة المتلقية للرّسالة التّواصليّة لتحديد آلية التّعامل معها والتّأثير عليها، وقد أثبت العلم السّلوكيّ الاتصاليّ طريقة لتوليد مقاومة صناعيّة أشبه بمقاومة الجسم للأمراض عن طريق تزويد الأفراد بجرعات من المعلومات التّمهيديّة قبل التّعرّض لموقف اتّصالي ما[1]، تعمل على تحصينهم؛ ولعلّ مثال ذلك ما يتلقاه الإنسان العربيّ من جرعات الأخبار السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ولا سيّما الّتي تبعث في النّفس الحزن والإحباط، يتجرّعها على تؤدة، فقد تكون البداية صادمة؛ لكنّها مع الوقت تُحدِث فعْلَ العادة وتلاشي الدّهشة مهما تعاظم الخَطْب، حتّى وجدنا شعوبنا فقدت كثيرًا من صفاتها الإنسانيّة العربيّة، وفتَرَت ردود أفعالهم الطّبيعيّة واللازمة إزاء ما يُرى ويُسمَع.

ولذلك يأتي دور شبكة العلاقات التّواصليّة الاجتماعيّة العربيّة في ضرورة المحافظة على ما تبقى من روح الأمّة وحمايتها ورفع مقاومتها أمام العوامل الخارجيّة المُغرضَة؛ بغربلة المضامين الفكريّة ضمن أوعية البثّ التّقنيّ، والسّعي إلى الحفاظ على خصائصها وإنجازاتها السّابقة وتوقعاتها للمستقبل؛ لتقف في وجه أي غزو حضاريّ أو ثقافيّ أو أيديولوجيّ بتنظيم العمل الجماعيّ

---

(١) انظر: **علم الاتّصال (مفاهيمه ونظرياته ومجالاته)**، ص٦٥.

والعمل على تطويره؛ لضمان استمراريّته وممارسة الضّغط على القوى الّتي تحاول تفتيت لُحمة المجتمع العربيّ؛ بإحلال قيمٍ وتقاليع دخيلة ليست من الموروث والثّوابت؛ هدفها التّعرية الاجتماعيّة، ثم إلباس الجيل الجديد المنساق زي الحضارة التّقنيّ المزخرف؛ فيجب التّدقيق والتّمحيص أمام دعاوى التَّرويج لمفاهيم مسيّسة، وعدم الانبهار بالشّعارات الرّنانة، فهي ليست بنت حضارتنا، أو من صُلب تعاليم ديننا السّمح.

**ختامًا: "حفرة الانهدام الفكريّ" إلى أين؟**

أحسبُ أن عولمة الشّعوب لا تشكّل خطرًا إلا على الأمم الّتي تفتقر إلى ثوابت أيديولوجيّة وحضاريّة ودينيّة وثقافيّة، أمام من تملك هذا الرّصيد الغنيّ الّذي يجعلها تحتفظ بملامحها الخاصّة، وتحصد ثمار التّقدّم، وتنخرط به، وتتجاوز سلبياته؛ بلْ تتفاعل مع المتغيّرات الإنسانيّة التّقنيّة المتسارعة، وتستوعبها، وتشارك فيها وتترك بصمتها الحضاريّة والأيديولوجيّة؛ فالمشكلة الحقيقيّة في المجتمعات العربيّة الانهزام النّفسيّ والشّعور بالضّعة والنّقص أمام التّغوّل الغربيّ الّذي يمتد وينتشر كالوباء؛ لضعف الصّفّ العربيّ الّذي بات شرذمة وحِلَقًا مفتّتة، تسمح للآخر باستثمار هذه النّهضة الإلكترونيّة بالسّيطرة على وسائل التّواصل الاجتماعيّ والإعلام العربيّ لولوج الثّغرات، وإيقاظ الفتن، والهيمنة على اقتصاديّات العرب ونهب ثرواتهم، وإشغال الأفراد بجمع قوت يومهم، وترك قضاياهم المصيريّة؛ ليُقادوا إلى حفرة الانهدام الفكريّ.

فلا بد من صحوة فكريّة وأخرى لغويّة تعزّز المصلحة العربيّة الإسلاميّة، ثمّ تطويع هذه الوسائل لبناء نهضة الأمّة بما يلائم عاداتنا وتقاليدنا ودِيننا وثقافتنا، بوضع الضّوابط وتقنين الوسائل بفرض قيودٍ مدروسةٍ ووضع أنظمة عربيّة مُوجِّهة وأخرى رادعة.

وحقًّا كلّما اتّسعت رؤيتنا للهوّة العربيّة الّتي تحدثها التّصدعات الإلكترونيّة في هدم البناء الفكريّ والحضاريّ للإنسان العربيّ ضاقت العبارة؛ ولكن لا بدّ من مواجهة المعطيات الموجودة لخلق واقع أفضل، وتقديم مقترحات قد تجدُ صدًى، وقد تُحدث تعديلاً فيما هو كائن، ومنها:

- الدّعوة إلى وضع برمجيّات خاصّة إلكترونيّة تُبَثّ خلال وسائل التّواصل الاجتماعيّ للحفاظ على اللّغة العربيّة، وأخرى تعزّز الانتماء للهويّة اللّغويّة العروبيّة وحبّها والتّعلّق بها والمحافظة عليها.

- تحرير اللّغة العربيّة ممّا يشوبها من مظاهر لغويّة دخيلة، والـدّعوة لعنونـة الحسابات الإلكترونيّة ومواقع الويب (Web) بأسماء عربيّة.
- وضع أنظمة مبرمجة ترفض نشر أيّ محتوًى إلكترونيّ إلا بعد تنقيحه والتّأكّد من سلامته من الأخطاء اللّغويّة: الإملائيّة والنّحويّة إلخ.
- تضافر جهود مجامع اللّغة العربيّة لإيجاد البدائل اللّغويّة للألفاظ الدّخيلة الّتي تُبثّ في قنوات مواقع التّواصل الاجتماعيّ، وتعريب المصطلحات الإلكترونيّة الحديثة بما يناسب لغتنا الأم.
- بثّ برامج وفيديوهات تواصليّة تعليميّة باللّغة العربيّة بشكل واسع، سـواء كانت موجّهة للنّاطقين بالعربيّة أو لغير النّاطقين بها، لترويجها عالميًّا، ونشر البرامج المصوّرة بشكل خاصّ خلال موقع اليوتيوب.
- تضافر الجهود الفرديّة والجماعيّة والدّوليّة، ولا سيّما طبقة المثقفين والعلماء والمربّين، للنّهوض بفكر عربيّ ذي مضامين أيديولوجيّة منتمية لحضـارتنا وتاريخنا وثقافتنا وديننا.
- العمل على زيادة المحتوى العربيّ في الشّابكة لنتقدّم عالميًّا.
- إطلاق مبادرات لحماية العربيّة من التّقهقر عن طريق المسابقات والجـوائز والمِنَح الّتي تعتمد معايير المصداقيّة والموضوعيّة في التّصنيف والانتقـاء دون محاباة النّتائج أو تسييسها.
- فرض العربيّة في سوق العمل في ظلّ تكنولوجيا الحداثة.
- التّوعية بمخاطر بعض المضامين الفكريّة الّتي تبثّ خلال مواقع التّواصـل الاجتماعيّ، ومخاطبة الشّباب في آليّة توظيفها بشكلٍ فاعل، وعقـد دورات خاصّة لهذه الغاية.
- تعريب التّطبيقات الإلكترونيّة الغربيّة ذات القيمة والفائدة، وتطوير المحتوى الأيديولوجيّ بما يتناسب مع معطيات المجتمع العربيّ.

- تضافر حكومات الدّول العربيّة في فرض عقوبات وغرامات على من يسيء في منشوراته للغته العربيّة أو مجتمعه.
- إيجاد وسائل فاعلة وبرامج جاذبة لجيل الأطفال النّاشئ المُحبّ للتّقنيات الحديثة؛ تعزّز المضامين الفكريّة العربيّة وتجذبه للتّواصل بلغته الأم، تُقدِّم من قبل مواقع التّواصل الاجتماعيّ الخاصّة بالأفراد والمؤسّسات التّعليميّة والتّربويّة المختلفة.
- إيجاد جهات عربيّة في الشّابكة متخصّصة، تحفظ حقوق النّشر للمعلومات والأخبار، وملكيّتها للنّاشر الأوّل، كما هي الحال في المطبوعات الورقيّة.
- تعزيز دُور النّشر العربيّة للأطفال بشكل خاصّ، لتحفيزهم على القراءة، وتنظيم مؤتمرات ومعارض ومسابقات تستهدف الطّفل العربيّ.

**المصادر والمراجع:**


- الأمين، رامي، **معشر الفسابكة**، دار الجديد، ط١، بيروت، ٢٠١٢م.
- إسماعيل، محمود حسن، **مبادئ علم الاتصال ونظريّات التّأثير**، الدّار العالميّة، ط١، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- الجابريّ، محمّد عابد، **تكوين العقل العربيّ**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط٦، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الجابريّ، محمّد عابد، **بنية العقل العربيّ**، مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط٩، بيروت، ٢٠٠٩م.
- جوهر، صلاح الدّين، **علم الاتصال (مفاهيمه ،نظريّاته ،مجالاته)**، مكتبة عين شمس، ط١، القاهرة، ١٩٧٩م.
- الخطاب، فارس حسن، **الفضاءات الرّقميّة وتطبيقاتها الإعلاميّة**، دار أسامة، ط١، عمّان، ٢٠١٢م.
- عبدالحميد، محمّد محيي الدّين (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) والسّبكيّ، محمد عبداللّطيف (١٣٨٩ه/١٩٦٩م)، **المختار من صحاح اللّغة**، دار سرور، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.
- شفيق، حسنين، **الإعلام الجديد (الإعلام البديل)، تكنولوجيا جديدة في عصر ما بعد التّفاعليّة**، دار فكر وفنّ، ط١، القاهرة، ٢٠١١م.
- صادق، عبّاس مصطفى، **الإعلام الجديد (المفاهيم والوسائل والتّطبيقات)**، دار الشّروق، ط١، عمّان، ٢٠٠٨م.
- طربيه، مأمون، **السّلوك الاجتماعيّ للفرد**، دار النّهضة العربيّة، ط١، بيروت، ٢٠١٢م.
- عبدالرّحمن، فؤاد البهيّ، **علم النّفس الاجتماعيّ رؤية معاصرة**، دار الفكر العربيّ، ط١، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- العدويّ، فهمي، **إدارة الإعلام**، دار أسامة، ط١، عمّان، ٢٠١٠م.
- علم الدّين، محمود وتيمور، محمّد، **المعلومات وتكنولوجيا الاتصال**، القاهرة، ٢٠٠٢م.

• عيد، عريب محمّد، **علم لغة الحركة بين النّظريّة والتّطبيق**، دار الثّقافة، ط١، عمّان، ٢٠١٠م.

• فهمي، محمّد، **فنّ الاتصال في الخدمة الاجتماعيّة**، دار الوفاء، ط٢، الإسكندريّة، ٢٠١٠م.

• الفيروز آبادي، أبو طاهر مجيد الدّين محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الشّيرازيّ (٨١٧هـ/١٤١٤م)، **القاموس المحيط**، مكتب تحقيق التّراث، مؤسّسة الرّسالة، ط١٦، بيروت، ١٩٩٨م.

• المنصوريّ، خالد وآخرون، **إطلالة معرفيّة على شبكات التّواصل الاجتماعيّ (فيسبوك، تويتر، يوتيوب)**، ط١، دبي، ٢٠١٣م.

• ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن عليّ (٧١١هـ/١٣١١م)، **لسان العرب**، مكتب تحقيق التّراث، دار إحياء التّراث، ط٢، بيروت، ١٩٩٣م، ج١٥.

• هيل، مايكل، **أثر المعلومات في المجتمع (دراسة لطبيعتها وقيمتها واستعمالها)**، تعريب: مركز الإمارات للدّراسات والبحوث الاستراتيجيّة، ط١، أبو ظبي، ٢٠٠٤م.

• Kalseth.K(1997*).Knowledgemanagement:putting information, and people's competence to work together*, FID news Bulletin, 47(7/8), 191/2

• إحصائيّات مواقع التّواصل الاجتماعيّ، شباط ٢٠١٧م، .http://www.weedoo.tech

• الاتّحاد الدّوليّ للاتّصالات، عنوان "حقائق وأرقام عن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات لعام ٢٠١٧م"، http:// www.mcit.gov.eg

• موقع كليّة دبي للإدارة الحكوميّة، تقريرها الأوّل في الإعلام الاجتماعيّ في العالم العربيّ http://www.mbrsg.ae/home.aspx?lang=ar-AE

• موقع جريدة الإمارات اليوم الإلكترونيّ، بتاريخ (٦) كانون الثّاني ٢٠١٣م. http://www.emaratalyoum.com

***References:***


*Al-Adawee,F. (2010) Management media, 1st ed, Amman: Dar Usama

*Al-Ameen, R. (2012) Maasher Al-Fasabekh, 1sted. Beirut: Dar Al-Jadeed

*Al-Fairooz Abade, M. (1998) Ocean Dictionary, 16thed, Beirut: Al-Resala Foundation

*Al-Jaberi, M. (2000) The formation of the Arab mind, 6ed. Beirut: Center for Arab Unity Studies

* Al-Jaberi, M. (2009) The structure of the Arab mind, 9ed. Beirut: Center for Arab Unity Studies

*Al-Khattab,F. (2012) Digital spaces and their media applications, 1sted, Amman: Dar Osama

* Al-Mansoree,kh & others. (2013) Knowledge of social networks (Facebook, Twitter, YouTube), 1sted, Dubi

*Al-Sabki,M. (1980) Mukhtar of the Sahih language, 1sted, Beirut: Dar Suroor

*Abed Al-Rahmn, F. (2006) Social psychology is a contemporary vision, 1sted, Cairo: Dar Al-Fiker Al-Arabe

*Allam AL-Deen, M. &Tymoor, M, (2002) Information and communication technology, 1sted, Cairo

*Eben Manzoor, J. (1993) Lesan Al-Arab,2nd ed, Beirut: Dar Ehyaa Al-Turath

*Eid, O. (2010) Kinetic linguistics between theory and practice, 1st ed, Amman: Dar Thakafa

*Esmaeel, M. (2003) Principles of communication science and theories of influence, 1st ed. Cairo:Dar Al-Alamya

*Fahmee,M. (2010) The art of communication in the social service, 2nd ed, Alexandria: Dar Al-Wafaa

*Hassana, M. (2001) Internet in libraries and information centers: potentials, benefits, challenges,3th ed, Afkar Blog, number 3.

*Hill, M, (2004) The impact of information in society (study of its nature, value and use), 1st ed, Abu Dabi

*Jawhar, S. (1979) Communication science (concepts, theories, fields), 1st ed. Cairo: Een Shams Library

*Sadek,A. (2008) New Media (Concepts, Means, and Applications), 1st ed, Amman: Dar Al-Shurook

*Shafeek, H. (2011) New media (alternative media), new technology in the post-interactive era, 1st ed, Cairo: Dar Feker and fun

*Tarabeh,M. (2012) Social behavior of the individual, 1st ed, Beirut: Dar Al-Nahda.

*Emirates Newspaper Online website, dated (6) January 2013, (http://www.emaratalyoum.com)

*International Telecommunication Union, "Facts and figures on ICT for 2017,(http:// www.mcit.gov.eg)

* Statistics of social networking sites, February 2017, (http://www.weedoo.tech)

* The website of the Dubai School of Government, its first report in social media in the Arab world(http://www.ameinfo.com/ar-192225.html)

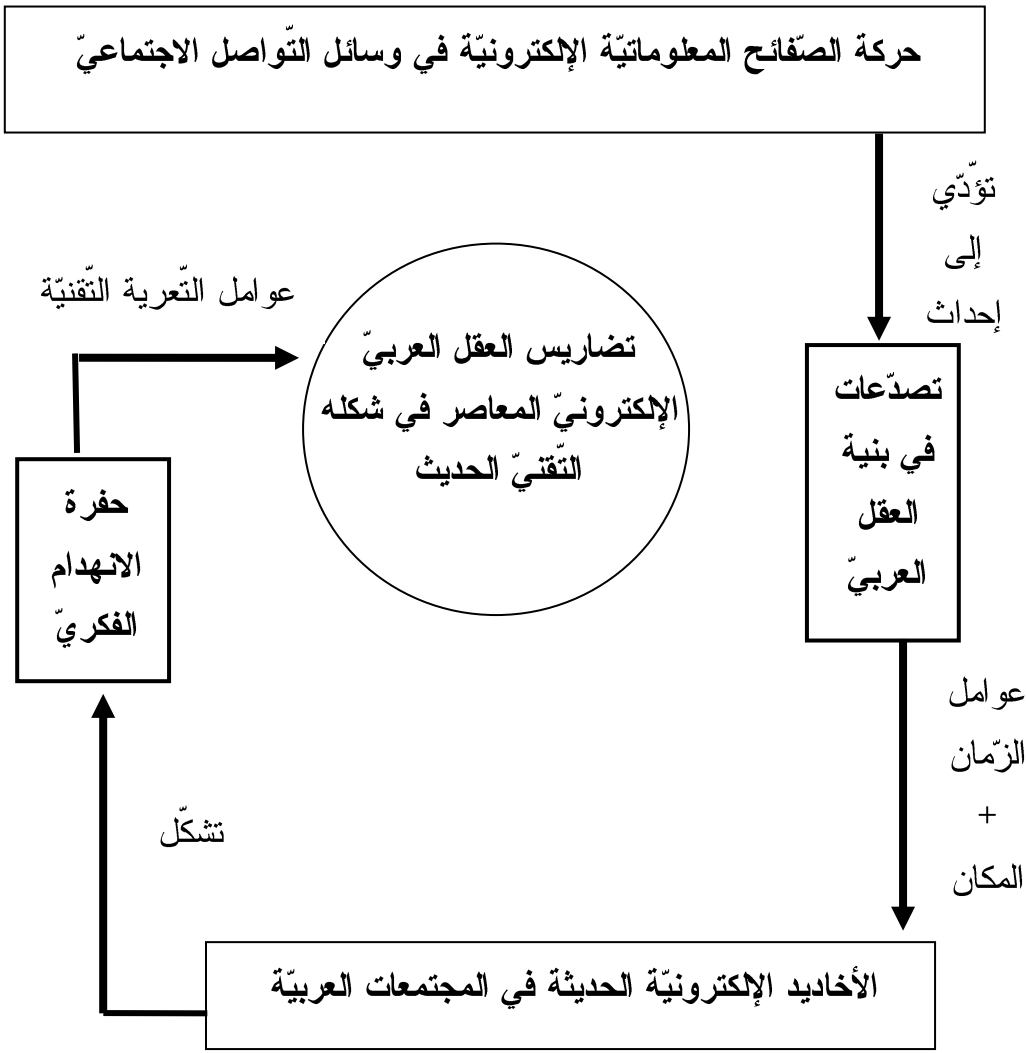
حركة الصّفائح المعلوماتيّة الإلكترونيّة في وسائل التّواصل الاجتماعيّ
تؤدّي إلى إحداث
تصدّعات في بنية العقل العربيّ
عوامل الزّمان + المكان
الأخاديد الإلكترونيّة الحديثة في المجتمعات العربيّة
تشكّل
حفرة الانهدام الفكريّ
عوامل التّعرية التّقنيّة
تضاريس العقل العربيّ الإلكترونيّ المعاصر في شكله التّقنيّ الحديث

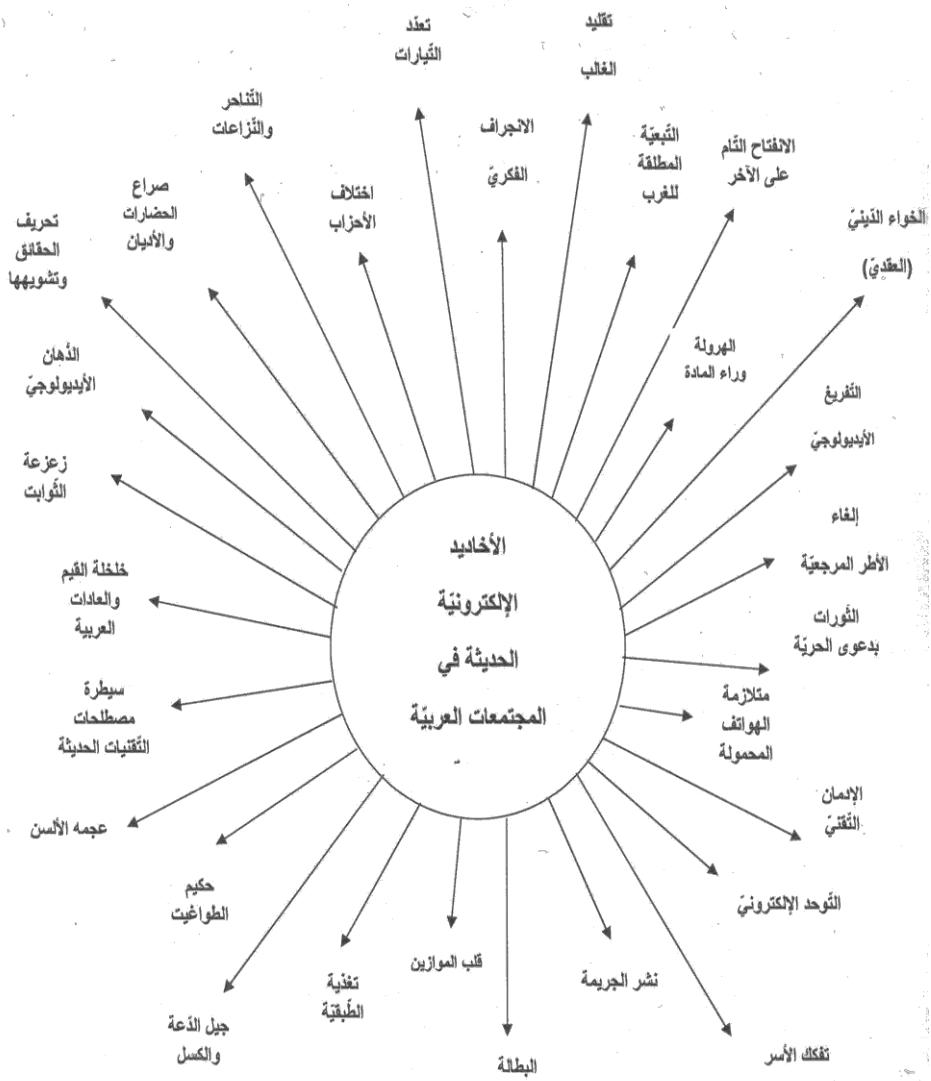
الأخاديد
الإلكترونيّة
الحديثة في
المجتمعات العربيّة
تعدّد
التّيارات
تقليد
الغالب
التّناحر
والنّزاعات
الانجراف
الفكريّ
التّبعيّة
المطلقة
للغرب
الانفتاح التّام
على الآخر
صراع
الحضارات
والأديان
اختلاف
الأحزاب
الخواء الدّينيّ
(العقديّ)
تحريف
الحقائق
وتشويهها
الهرولة
وراء المادة
الذّهان
الأيديولوجيّ
التّفريغ
الأيديولوجيّ
زعزعة
الثّوابت
إلغاء
الأطر المرجعيّة
خلخلة القيم
والعادات
العربية
الثّورات
بدعوى الحريّة
سيطرة
مصطلحات
التّقنيات الحديثة
متلازمة
الهواتف
المحمولة
الإدمان
التّقنيّ
عجمه الألسن
التّوحد الإلكترونيّ
حكيم
الطواغيت
نشر الجريمة
قلب الموازين
تغذية
الطّبقيّة
تفكك الأسر
جيل الدّعة
والكسل
البطالة

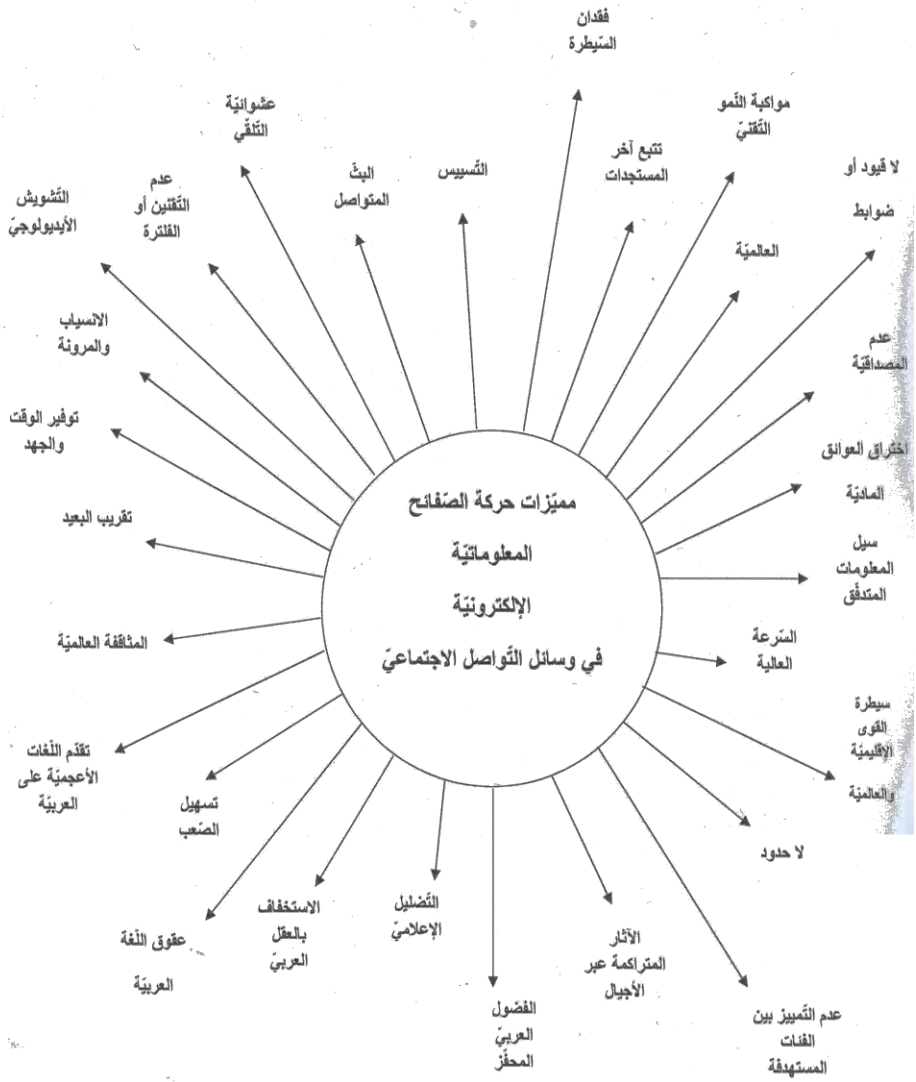
مميّزات حركة الصّفائح
المعلوماتيّة
الإلكترونيّة
في وسائل التّواصل الاجتماعيّ
فقدان السّيطرة
مواكبة النّمو التّقنيّ
تتبع آخر المستجدات
التّسييس
البثّ المتواصل
عشوائيّة التّلقّي
عدم التّقنين أو الفلترة
التّشويش الأيديولوجيّ
لا قيود أو ضوابط
العالميّة
عدم المصداقيّة
اختراق العوائق المادّيّة
سيل المعلومات المتدفّق
السّرعة العالية
سيطرة القوى الإقليميّة والعالميّة
لا حدود
عدم التّمييز بين الفئات المستهدفة
الآثار المتراكمة عبر الأجيال
الفضول العربيّ المحفّز
التّضليل الإعلاميّ
الاستخفاف بالعقل العربيّ
عقوق اللّغة العربيّة
تسهيل الصّعب
تقدّم اللّغات الأعجميّة على العربيّة
المثاقفة العالميّة
تقريب البعيد
توفير الوقت والجهد
الانسياب والمرونة

# المضامين الفكريّة في شعر حسّان بن ثابت

# وأثرها في تطوير اللّغة الشّعريّة

الدكتور إسماعيل إبراهيم برزنجي

جامعة السليمانية، العراق

## الملخص

يحاول الباحث دراسة المضامين الفكريّة الجديدة الّتي شكّلت البنية الدّلاليّة العميقة لشعر حسّان، وأمدّتها بدلالاتٍ وألفاظٍ لغويّةٍ وسّعت آفاق الخيال والمعجم الشّعري لديه من جانبٍ، ومنْ جانبٍ آخر يدرس ما قدّمه الشّعر ببنيته الجماليّة للفكر الإسلامي.

بناءً على هذا، توزّعت مادّة البحث على محورين أساسيّين:

أوّلاً: المضامين الفكريّة وتوسيع البنية العميقة.

ثانياً: المضامين الفكريّة وتطوير اللّغة الشّعريّة.

وفي المحورين كليهما يسلّط الضّوء على التّــأثير المتبادل بين المضامين الفكريّة الإسلاميّة والخطاب الشّعريّ.

**المُــقدّمَـــــة:**

تَبدُو العَلاقَةُ بَينَ الفِكْرِ وَالشّعرِ فِي الظَّاهِرِ غَيرَ حَمِيميَّةٍ أو عَكسِيَّةً انطِلاقاً مِنْ مَبدَأ ارْتِبَاطِ كُلّ مِنهُمَا بِمَصدَرٍ يُعَــدُّ غَرِيماً تَقلِيدِياً لِلآخَرِ، وَالمَصدَرَانِ هُمَا العَقلُ وَالقَلبُ، إذْ يَكُونُ الفِكرُ نِتَاجاً لِنَشاطِ العَقلِ الإنْسَانِيّ وَعَمَلاً رَئِيساً لَهُ، بَينَمَا يَرتَبِطُ الشّعرُ بِالقَلْبِ وَالعَواطِفِ النَّاتِجَةِ عَنْهُ، خُصُوصاً عِنــدَمَا أخَــذنَا بِنَظَــرِ الاعْتِبَارِ الأرضِيَّةَ الَّتِي يَتَكَوَّنُ فِيهَا الشّعرُ وهِيَ الخَيَالُ، وَالخَيالُ بِطَبِيعَتِهِ عَــالَمٌ خَاصٌّ يَختَلِفُ عَنِ العَالَمِ الوَاقِعِيّ الَّذِي هُوَ مَيدَانُ العَقلِ، بَلْ أكثَرُ مِن ذَلِكَ؛ يُحَطّمُ الخَيالُ الأقِيسَةَ العَقلِيَّةَ وَالقَواعِدَ المَنطِقِيَّةَ، وَيَتَّخذُ مِن مَقَاييسِهِ الخَاصَّةِ بِهِ فِي تَولِيدِ الشّعرِ.

لَكِنَّ الأمرَ يَقِلُّ حِــدَّةً عِندَمَا نُدخِلُ عُنصُراً آخَرَ فِي العَلاقَــةِ بَــينَ الفِكــرِ وَالشّعرِ، حَيثُ يُقَرّبُ بَينَهُمَا وَيُقَــوّي أحَدَهُمَا بِالآخَرِ؛ ألا وَهُوَ اللُّغَةُ، فَاللُّغَةُ تُشكّلُ مَيدَاناً مُشتَرَكاً لِنَشاطِ كُلّ مِنهُمَا وَتُقِيمُ بَينَهُما عَلاقةً تَبَادُلِيَّــةً، إذْ يَستَفِيدُ الفِكْرُ مِن جَمَالِيَّاتِ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ وَصُوَرِهَا الفَنّــيَّةِ آلِيَّةً لِلتَّجَــلّي، وَيُروّضُ بِهَا خِطَابَــهُ العَقلانِيّ، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ يَأخُذُ الشّعرُ مِنَ الفِكرِ الرَّصِينِ مَوضُــوعاتٍ عَدِيــدةً لِلمُعالَجَةِ وَيُوسّعُ بِهَا آفَاقَهُ الدَّلالِيَّةَ، كَمَا أنَّهُ يَأخُذُ أَلفَاظاً وَتَعابِيرَ لُغَوِيَّــةً تُثــرِي المُعجَمَ الشّعرِيَّ وَتُساعِدُ عَلَى الدّقَّــةِ فِي التَّعبِيرِ بِتَوفِيرِ أنسَبِ الألفَاظِ وَالكَلِماتِ لِلدَّلالاتِ المُرادِ الإفصَاحُ عَنهَا.

وَقَد حَدَثَ هَذَا كَثِيراً عِندَ الشُّعَراءِ فِي مَراحِلَ تارِيخِيَّةٍ مُختَلِفةٍ عِندَ ظُهُــورِ الأفكَارِ الجَدِيدَةِ وَالفَلسَفَاتِ المُختَلِفةِ، وَجَاءَ اختِيَارُ شِعرِ حَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ أنمُوذجاً لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ كَونَهُ يُمَثّلُ مَرحَلَةً مِفصَلِيَّــةً فِي تارِيخِ الأدَبِ العَرَبِيّ، إذْ وَاكَــبَ حَسَّانُ ظُهُورَ الإسلامِ وَانْتِشارَهُ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ، وَأخَذَهُ فِكراً وَعَقِيدةً وَدِيناً،

وَلاَ شكَّ أنَّ لِهَذَا الحَدَثِ الكَبيرِ فِي حَياتِهِ ولانتِقالِهِ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إلَى الإسلامِ أثراً بالِغاً فِي شِعرِهِ كتَأثيرِهِ فِي فِكرِهِ وعَقيدَتِهِ، فأخَذَ يُجَسّدُ مَبادِئَ الإسلامِ وَمَفاهِيمَهُ فِي شِعرِهِ، وَيَنهَلُ مِنْ يَنابيعِ الآياتِ الكَريمَةِ وَالأحَادِيثِ الشَّريفَةِ، مَا أدَّى إلَى إثرَاء تَجرِبَتِهِ الشّعريَّةِ شَكلاً وَمَضمُوناً.

مِن هَذَا المُنطَلَق يُحاوِلُ البَحثُ دِرَاسَةَ المَضَامِينِ الفِكريَّةِ الجَدِيدَةِ الَّتِي شكَّلَت البُنيَةَ الدَّلاليَّةَ العَمِيقةَ لِشعرِ حَسَّان، وَأمَدَّتهَا بِدَلالاتٍ وَألفَاظٍ لُغَويَّةٍ وَسَّعَت آفَاقَ الخَيالِ وَالمُعجَمِ الشّعرِي لَدَيهِ مِن جَانِبٍ، وَمِنْ جَانِبٍ آخَرَ يَدرُسُ مَا قَدَّمَهُ الشّعرُ بِبُنيَتِهِ الجَمَاليَّةِ لِلفِكرِ الإسلامِي مِن فَتحِ مَجَالٍ فَنّيٍّ لِنَشرِ الأفكَارِ الجَدِيدَةِ فِي حُلَّةٍ بَلاغِيَّةٍ وَخِطَابٍ إبدَاعِيّ، مَا أدَّى إلَى سُهُولَةِ قَبُولِهَا لَدَى المُتَلَقّينَ نَظَراً لِطَبيعَةِ الشّعرِ السَّلِسَةِ.

بِناءً عَلَى هَذَا، توزَّعَت مَادَّةُ البَحثِ عَلَى مِحوَرَينِ أسَاسِيَّين: (أوَّلاً: المَضَامِينُ الفِكريَّةُ وَتَوسِيعُ البُنيَةِ العَمِيقَةِ)، حَيثُ يُبحَثُ فِيهِ عَن تَأثِيرِ الفِكرِ الجَدِيدِ فِي إغنَاءِ الدَّلالَةِ الشّعريَّةِ الَّتِي كَانَت مَحصُورةً فِي مَوضُوعاتٍ تَخُصُّ حَياةَ الجَاهِلِيّينَ، لكِنَّها تَوَسَّعت بِفَضلِ مَجِيء الإسلام وَفَتحِهِ آفَاقاً فِكريَّةً جَدِيدَةً و(ثانِياً: المَضَامِينُ الفِكريَّةُ وَتَطوِيرُ اللُّغَةِ الشّعريَّةِ)، وَفِي هَذَا المِحوَرِ يَنصَبُّ الحَدِيثُ عَلَى انعِكَاسِ البُنيَةِ العَمِيقَةِ وسِعَتِها عَلَى المُعجَمِ الشّعرِيّ وَرَصفِ الكَلِمَاتِ فِي مُتَوالِياتٍ لُغَويَّةٍ تُشَكّلُ الأُسلُوبَ الجَدِيدَ، وَيُلمَحُ إلَى تَقَانَةِ التَّناصّ التِي تُشَكّلُ مَلمَحاً أُسلُوبياً بَارِزاً فِي شِعرِ حَسَّان، وَفِي المِحوَرَينِ كِلَيهِمَا يُسلَّطُ الضَّوءُ عَلَى التَّأثِيرِ المُتَبَادَلِ بَينَ المَضَامِينِ الفِكريَّةِ الإسلامِيَّةِ وَالخِطَابِ الشّعرِيّ.

**أوَّلاً: المَضَامِينُ الفِكرِيَّةُ وَتَوسِيعُ البُنيَةِ العَمِيقَةِ**

تَكْمُنُ أَهَمّيَّةُ المَضَامِينِ الفِكْرِيَّةِ فِي تَمتِينِ القَاعِدَةِ الدَّلالِيَّةِ الَّتِي يَنْطَلِقُ مِنهَا الشَّاعِرُ فِي تَشكِيلِ خِطَابِهِ الشّعرِيّ، وَإمدَادِهَا بِمَوضُوعَاتٍ شِعرِيَّةٍ ذَاتِ

جَدَارَةٍ وَعُمْقٍ، وَتَصُبُّ هَذِهِ المَوضُوعاتُ مُبَاشَرَةً فِي مَركَزِ تَولِيدِ الخطَابِ الشّعرِيّ، وَتُغنِي التَّجرِبَةَ الَّتِي تَسبِقُ وِلادَةَ القَصِيدَةِ دَائماً، وَتَعمَلُ عَلَى تَكثِيفِ الدَّلالَةِ لِتَخرُجَ إِلَى البُنيَةِ السَّطحِيَّةِ عَلَى شَكْلِ مُتَوالِياتٍ لُغَوِيَّةٍ مُعَبّرَةٍ عَنْ تِلْكَ الكَثَافَةِ بِأَقَلِّ التَّعَابِيرِ وَالجُمَلِ الشّعرِيَّةِ.

وَلا شَكَّ فِي أَنَّ هَذِهِ البُنيَةَ الدَّلالِيَّةَ هِيَ التِي تَرسُمُ المَلامِحَ الشَّكلِيَّةَ لِلخِطَابِ أَيّاً كَانَ نَوعُهُ، وَتُعِينُ مُنتِجَ الخِطَابِ عَلَى اختِيَارِ أَلفَاظِهِ وَتَعَابِيرِهِ فِي البُنيَةِ السَّطحِيَّةِ مِن مُعجَمِهِ اللُّغَوِيّ لِتَكُونَ أَكْثَرَ دِقَّةً وَتَعبِيراً عَلَى المَعنَى، وَقَد يُضطَرُّ إِلَى أَلفَاظٍ وَمُصطَلَحَاتٍ جَدِيدَةٍ لِتُنَاسِبَ البُنيَةَ العَمِيقَةَ وَتَفِي بِالمَعنَى بِأَحسَنِ وَجهٍ، لأَنَّ المَضمُونَ يَأخُذُ شَكْلَ القَالَبِ، وَيَتَحدَّدُ بِحُدُودِهِ فِي وُضُوحِهِ وَجَودَتِهِ، أَو غُمُوضِهِ وَرَدَاءَتِهِ[1].

وَهَذَا الكَلامُ يَكُونُ أَكْثَرَ دِقَّةً وَتَعقِيداً مَعَ الخِطَابِ الشّعرِيّ، لأَنَّهُ يَستَخدِمُ لُغَةً أَرْقَى مِنَ الخِطَابَاتِ الأُخرَى وَيَستَعمِلُهَا استِعمَالاً خَاصّاً، قَد يَبدُو الشَّاعِرُ أَنَّهُ يَستَخدِمُ الأَلفَاظَ وَالتَّرَاكِيبَ التِي يَستَخدِمُها الرَّجُلُ العَادِيّ، فَلُغَتُهُ فِي ظَاهِرِ الأَمرِ عَلَى نَفسِ النَّسَقِ الَّذِي يَصطَنِعُهُ إِنْسَانٌ عَادِيٌّ، لَكِنْ فِي الحَقِيقَةِ تَأخُذُ التَّرَاكِيبُ صُورَةً أَو مَعنًى أَرْوَعَ وَأَنضَرَ، كَأَنَّ هُنَاكَ جُهداً شَخصِيّاً يَجعَلُ مَعنَى التَّركِيبِ فِي العِبَارَةِ الشّعرِيَّةِ يَختَلِفُ عَنْ مَعنَى التَّركِيبِ المُنَاظِرِ لَهُ فِي العِبَارَةِ غَيرِ الشَّعرِيَّةِ[2]، وَهَذَا نَابِعٌ عَنْ عُمقِ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ وَسِعَتِهَا، وَهُنَاكَ تَفَاوتٌ بَينَ الشُّعَرَاءِ فِي سِعَةِ هَذِهِ البُنيَةِ بِحَسَبِ المَضَامِينِ وَالمَعَانِي المُختَلِفَةِ التِي تَحتَوِيهَا، وَالعَنَاصِرِ التِي تَختَزِنُهَا بِمُرُورِ الزَّمَنِ.

---

١. ملكاوي، د.فتحي حسن، **البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخرائطه**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فيرجينيا، ط١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، ص٢٠٤.

٢. ناصف، د. مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت –لبنان، ط١، د.ت، ص١٢.

عَمَلِيَّةُ تَوسِيعِ البُنيَةِ العَمِيقَةِ عِنْدَ الشَّاعِرِ مُرتَبِطةٌ ارْتِبَاطاً وَثِيقاً بِالبِنَاءِ الفِكرِيّ لَهُ، لأنَّ هَذِهِ البُنيَةَ تُمَثّلُ القَاعِدَةَ الذّهنِيَّةَ لِلأفكَارِ وَالمَعَانِي وَالتَّجرِبَةِ وَكُلّ مَا يَتَعلَّقُ بِإدرَاكِهِ لِلأشيَاءِ وَتَفكِيرِهِ فِي مَاهِيَّتِهَا، وَلا تَتَّسِعُ مَـرَّةً وَاحِدَةً عَلَى أكمَلِ وَجهٍ، بَلْ هِيَ فِي تَوَسُّعٍ مُستَمِرّ جَنباً إلى جَنبٍ مَعَ تَقَدُّمِ عَمَلِيَّةِ البِنَاءِ الفِكرِيّ لَدَى الشَّاعِرِ، كَمَا أنَّ الفِكرَ لا يَدخُلُ إلى الإنسَانِ جِسماً كَامِلاً، إنَّمَا يَبنِيهِ بِنَاءً لَبِنَةً بَعدَ أُخـرَى ويَجرِي هَذَا بِمَنهَجٍ[1]، يَجرِي التَّوَسُّعُ أيضاً فِي البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ العَمِيقَةِ لَدَى الشَّاعِرِ خُطوَةً بَعدَ أُخرَى، كُلَّمَا تَطَوَّرَ بِنَاؤهُ الفِكرِيُّ مِنْ مُستَوى إلى آخَرَ وَتَرَقَّى تَوسَّعتِ البُنيَةُ العَمِيقَةُ، وَتثرَى بِالأفكَارِ وَالصُّوَرِ وَالمَعَانِي؛ مَا يَنْعَكِسُ عَلَى لُغَتِهِ الشّعرِيَّةِ فِيمَا بَعدُ، وَيُؤثّرُ فِي تَعَابِيرِهِ وَنِتَاجِهِ الشّعرِيّ.

بِنَاءً عَلَى هَذَا، يُمكِنُنَا الحَدِيثُ عَن دَرَجَةِ الغِنَى وَالثَّرَاءِ وَمُسـتَوَى العُمْـقِ وَالتَّنَوُّعِ الفِكرِيّ فِي شِعرِ حَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ بَعدَمَا أخَذَ الإسْلامَ دِيناً وَعَقِيدَةً وَمَنهَجاً فِي الحَيَاةِ، أي غَيَّرَ طَرِيقَةَ بِنَائِهِ الفِكرِيّ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إلى الإسلامِ، وَانْتَقَلَ إلـى حَالَةٍ جَدِيدَةٍ، فَصَارَ إنسَاناً جَدِيداً لأنَّ شَخصِيَّةَ الفَردِ تَتَشَكَّلُ مِن بِنَائِـهِ الفِكـرِيّ وَبِنَائِهِ النَّفسِيّ، وَفِي الوَقتِ الذِي يَختَصُّ البِنَاءُ الفِكرِيُّ فيه بِالقَنَاعَـاتِ العَقلِيَّـةِ وَالمُعتَقَدَاتِ، فَإنَّ البِنَاءَ النَّفسِيَّ يَختَصُّ بِالجَانِـبِ الانفِعَـالِيّ وَالوِجـدَانِيّ مِـنَ الإنْسَانِ[2]، وَكِلا الجَانِبَينِ يَشتَرِكَانِ بِفَعالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي إخرَاجِ التَّجرِبَةِ الشّعرِيَّةِ مِنْ صُورَتِهَا الذّهنِيَّةِ إلى الصُّورَةِ المَادّيَّةِ المُتَمَثّلَةِ فِي اللُّغَةِ، وَمِنْ أهَمّ سِمَاتِ اللُّغَـةِ الشّعرِيَّةِ أنَّهَا مَشحُونَةٌ بِالعَوَاطِفِ والانْفِعَالاتِ، وَهِيَ غَيرُ اللُّغَةِ التَّوَاصُلِيَّةِ العَادِيَّةِ

---

١. ملكاوي، د. فتحي حسن، مرجع سابق، ص٧٤–٧٥.

٢. السابق نفسه، ص٧٥.

الَّتِي تَعتَمِدُ عَلَى المَنطِقِ وَمَقَاييسِ العَقلِ، بَلْ إنَّهَا لُغَةٌ فَنّـيَّـــةٌ جَمَالِيَّــةٌ تَمُــرُّ صِيَاغَتُهَا عَبْرَ دَهَالِيزِ الخَيَالِ، وَمَعرُوفٌ أنَّ عَالَمَ الخَيَالِ خَــاصٌّ لَــهُ مَعَــاييرُهُ وَطَبِيعَتُهُ الَّتِي تَختَلِفُ عَن طَبِيعَةِ العَالَمِ الوَاقِعِيّ.

مِنْ هُنَا يُمكِنُنَا أنْ نُؤَشّرَ إلَى بَعضِ المَضَامِينِ الفِكرِيَّــةِ الَّتِــي دَخَلَــت إلَــى مَوضُوعَاتِ الشّعرِ عِنْدَ حَسَّانٍ بَعدَ إسلامِهِ، وَأغنَتِ التَّجرِبَةَ الشّعرِيَّةَ لَدَيهِ، وَوَسَّعَت مِنَ البُنيَةِ العَمِيقَةِ الَّتِي تُمَثّلُ القَاعِدَةَ الدَّلالِيَّةَ لإنتَاجِ خِطَابِهِ الشّعرِي، وَمِن أهَمّهَا:

**١ ـ المَضَامِينُ المُتَعَلّقَةُ بِالجَانِبِ العَقِيدِيّ:**

تَتَعَلَّقُ هَذِهِ المَضَامِينُ بِقَضِيَّةِ الإيمَانِ وَمَا يَتَعلَّقُ بِهِ وَبَرَاءَتِهِ مِــنَ الشّــركِ وَعِبَادَةِ الأصنَامِ، وَقَدْ فَتَحَ التَّحَوُّلُ العَقِيدِيُّ لَدَيهِ آفَاقاً وَاسِعَةً فِي الفِكــرِ الــدّينِيّ، حيثُ كَانَ مَحصُوراً عَلَى الخُرَافَةِ وَالشَّعوَذَةِ وَالسّحرِ وَمَا وَرِثَهُ مِنْ أجدَادِهِ مِــن العِبَادَةِ لِعَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ وَالأشيَاءِ الجَامِدَةِ، لَكِنْ بِفَضلِ تَصــدِيقِ نُبُــوَّةِ مُحَمَّــدٍ (ﷺ) وَالإيمَانِ بِوَحدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصِدقِ الرّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ ارْتَقَى عَقلُهُ، وَمَضَــى يَحتَكِمُ إليهِ فِي مَعرِفَةِ الذَّاتِ الإلهِيَّةِ وَإنشَاءِ الكَونِ وَتَدبِيرِ نِظَامِهِ، وَالتَّأمُّــلِ فِــي مَلَكُوتِ السَّمَاواتِ وَالأَرضِ وَإمعَانِ النَّظَرِ فِي صَانِعِ هَذَا الكَونِ وَالحَيَاةِ الَّــذِي سَوَّى كُلَّ شَيءٍ فِيهِ وَقَدَّرَهُ تَقدِيراً[1]، وَقَد انْعَكَسَت رَحَابَةُ هَذَا الجَانِبِ بِمَفَاهِيمِــهِ الجَدِيدَةِ وَمَوضُوعَاتِهِ الكَثِيرَةِ عَلَى تَوسِيعِ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ لَدَى الشَّاعِرِ، فَصَارَ يُعَبّرُ عَنهَا فِي قَصَائِدِهِ، وَيَستَخدِمُ كُلَّ طَاقَاتِهِ الذّهنِيَّةِ فِي التَّــزوُّدِ بِجَمِيــعِ المَعَــارِفِ وَإدرَاكِ الحَقَائِقِ مِمَّا أثرَى المَعَانِيَ الشّعرِيَّةَ وَالدَّلالاتِ الكَثِيفَةَ فِي التَّعبِيرِ.

وَالأمثِلَةُ عَلَى هَذَا التَّوَسُّعِ كَثِيرَةٌ فِي شِعرِهِ، مَثَلاً قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

---

١. ضــيف، د. شــوقي (١٣ مــارس ٢٠٠٥)، **تــاريخ الأدب العــربي العصــر الإســلامي**، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م، ص١٥.

وَأَنتَ إِلهُ الخَلْـقِ رَبّـي وَخَـالِقِي بِـذَلِـكَ مَا عَـمَّـرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَولِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهاً أَنْـتَ أَعْـلَى وَأَمْـجَدُ
لَكَ الخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالأَمرُ كُـلُّـهُ فَـإِيَّاكَ نَسـتهدِي وَإِيَّاكَ نَـعْـبُـدُ[1]

فِي هذَهِ الأَبيَاتِ يَتَّضِحُ التَّحَوُّلُ الفِكْرِيُّ وَالعَقِيدِيُّ لِحَسَّانٍ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إِلَى الإِسلامِ، إِذْ خَرَجَ مِنَ النّطَاقِ الضَّيِّقِ لِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ إِلَى عَالَمٍ أَوسَعَ وَمَعرِفَةِ الإِلَهِ الخَالِقِ لِلكَونِ وَالبَشَرِ وَالخَلْقِ جَمِيعاً، وَهَذَا التَّحَوُّلُ أَثَّرَ فِي تَطوِيرِ البِنَاءِ الفِكرِيّ لَدَيهِ، حَيثُ قَلَبَ مَوَازِينَ التَّفكِيرِ عِندَ حَسَّانٍ، فَكَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ رَهِـينَ عِبَـادَةِ الطَّبِيعَةِ بِسَبَبِ عَدَمِ إِدْرَاكِهِ عَلاقَةَ الإِنْسَانِ بِهَا، وَعَدَمِ مَعرِفَتِهِ بِأَنَّ خَالِقَ الكَـونِ سَخَّرَ كُلَّ مَا فِيهِ لِلإِنْسَانِ وَهُوَ أَكرَمُ خَلْقِ اللَّهِ، لَكِنْ بِفَضْلِ هَذَا التَّحَوُّلِ فِي عَقِيدَتِهِ أَدْرَكَ أَنَّـهُ كَانَ مُخطِئاً فِي إِيمَانِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَتَعَالَى عَمَّنْ سِوَاهُ وَلا يَحتَاجُ إِلَـى شَرِيكٍ، فَلَهُ الخَلْقُ وَالأَمرُ كُلُّهُ، فَهُوَ يَستَحِقُّ أَنْ يُطلَبَ مِنْهُ الهُدَى وَأَنْ يُعبَدَ.

هَذَا الإِيمَانُ فَتَحَ عَلَيهِ أَبوَاباً أُخرَى لِيُرَاجِعَ مَفَاهِيمَهُ وَبِنَاءَهُ الفِكرِيَّ بِرُمَّتِهِ، فَكَثُرَ الحَدِيثُ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ فِي شِعرِهِ عَن مَفَاهِيمَ مِثْلِ الحَقّ وَالضَّلالِ وَالخَيْـرِ وَالشَّرّ وَالسَّعَادَةِ وَالبَعثِ وَالحَلالِ وَالحَرَامِ، مَثَلاً قَولُهُ لِـ(أُبَيّ بنِ خَلَفٍ الجُمَحِيّ) الَّذِي أَنكَرَ البَعثَ أَمَامَ الرَّسُولِ (ﷺ)، وَجَاءَ بِعَظمٍ رَمِيمٍ بَالٍ إِلَيْهِ قَائِلاً: أَتَزعُمُ أَنَّ رَبَّكَ يُحيِي المَوتَى؟! (مِنَ الوَافِرِ):

لَـقَـدْ وَرِثَ الضَّـلالَةَ عَنْ أَبِيـهِ أُبَـيٌّ يَـومَ فَـارَقَـهُ الرَّسُـولُ
أَجِئتَ مُحَمَّـداً عَظْـماً رَمِيـمـاً لِتُكْـذِبَـهُ وَأَنْـتَ بِـهِ جَهُـولُ
وَقَـدْ نَالَـتْ بَنُـو النَّجَّـارِ مِـنكُمْ أُمَيَّـةَ إِذْ يُغَـوّثُ يَـا عَقِيـلُ[2]

---

١. الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **ديوان حسان بن ثابت**، شرح: د.يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص٨٣.

٢. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٣٢٢.

وَيَقُولُ أيضاً (مِنَ الطَّوِيلِ):

تَرَحَّـــلَ عَنْ قَومٍ فَضــلتْ عُقُولُهُـــمْ وَحَلَّ عَلَى قَومٍ بِنُـــــورٍ مُجَـــــدَّدِ
هَدَاهُـــمْ بِهِ بَعْـــدَ الضَّلالَةِ رَبُّهُـــمْ وَأَرشَـــدَهُمْ مَنْ يَتْبَـــعِ الحَـــقَّ يَرشَـــدِ
لَقَـــدْ نزَلَـــتْ مِنْهُ عَلى أهـــلِ يَثـــرِبَ رِكَابُ هُـــدى حَلَّتْ عَلَـــيهِمْ بِأَسْـــعُدِ[1]

تُبَيّنُ هَذِهِ الأَبيَاتُ كَيفَ تَغيَّرَت نَظرَتُهُ إلى الحَقّ وَالضَّلالِ وَالرُّشدِ وَالحَقّ، فَيَربِطُ رُشْدَ الإنسَانِ واكْتِمَال عَقلِهِ بِاتّبَاعِ الحَقّ، وَالحَقُّ لاَ يُعرَفُ وَلا يُدرَكُ مِن دُونِ تَفكِيرٍ سَلِيمٍ مَصدَرُهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ.

وَقَادَهُ إيمَانُهُ بِاللَّهِ وَتَصدِيقُهُ الرَّسُولَ (ﷺ) إلى تَصْدِيقِ مَا وَرَدَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ مِنْ أخبَارِ الأُمَمِ الغَابِرَةِ وَالأَنبيَاءِ المُرسَلِينَ إلَيهِم، وَقَدْ وَسَّعَتِ القِصَـــصُ الوَارِدَةُ فِي القُرآنِ البُنيَةَ الدَّلاليَّةَ لَدَى حَسَّانٍ، وَزَوَّدَتـــهُ بِالمَعَـــانِي وَالـــدَّلالاتِ وَالمَوضُوعَاتِ الشّعرِيَّةِ، وانْعَكَسَتْ هَذِهِ الحَالَةُ إيجَاباً عَلَـــى شِـــعرِهِ وَصَـــارَت مَضَامِينَ شِعرِيَّةً نَاتِجَةً عَنِ التَّحَوُّلِ الفِكرِيّ لَدَيهِ، وَمِنهَا قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

شَـــهِدْتُ بِـــإِذْنِ اللَّـــهِ أنَّ مُحَمَّـــداً رَسُولُ الَّذِي فَوقَ السَّمَاوَاتِ مِن عَـــلُ
وَأَنَّ أَبَـــا يَحْيَى وَيَحْيَى كَلَيهِمَـــا لَهُ عَـــمَلٌ فِي دِيـــنِـــهِ مُـــتَـــقَـــبَّـــلُ
وَأَنَّ الَّتِي بِالجِزْعِ مِنْ بَطْـــنِ نَخلَـــةٍ وَمَنْ دَانَـــهَا فِـــلٌّ مِنَ الخَيْرِ مَعـــــزِلُ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى اليَهُودَ ابَـــنُ مَـــرِيَمٍ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِندِ ذِي العَرشِ مُرسَلُ[2]

---

١. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق ، ص٩١.

٢. الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **شرح الديوان**، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٠١.

يَدُلُّ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الأبيَاتِ عَلى إيمَانِ حَسَّانٍ بالأنْبيَاءِ وَالمُرسَلِينَ الـــذين وَرَدَ ذِكرُهُم فِي القُرآنِ، وَرُوِيَتْ قِصَصُهُم بِالتَّفصِيلِ وَبِطَرائِقَ غَيرِ مَعهُودَةٍ عِندَ العَرَبِ وَالأُمَمِ ذَواتِ الرَّسائِلِ السَّماوِيَّةِ، وَبِمَا أنَّ القُرآنَ صَارَ مَصـــدَراً رَئِيســاً لِبِنَائِهِ الفِكرِيّ، فَقَدْ أخَذَ هَذِهِ القِصَصَ وَوَسَّعَ بِهَا قَاعِدَةَ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ لَدَيهِ وَأدخَلَ مَضَامِينَ جَدِيدَة إلَيهَا.

## ٢ ـ المَضَامِينُ المُتَعلّقَةُ بِالفِكرِ الاجْتِماعِي:

تَتَجَسَّدُ هَذِهِ المَضَامِينُ فِي طَرِيقَةِ تَعَامُلِ حَسَّانٍ مَعَ القِيَمِ الاجتِمَاعِيَّةِ الّتِي جَاء بِهَا الإسلامُ لِلبَشَرِيَّةِ لِيُكّوّنَ بِهَا مُجتَمَعَاتٍ أكثَرَ تَمَاسُكاً وَانسِجَاماً، تَتَمَتَّعُ بِالتَّسَامُحِ وَالعَيْشِ المُشتَرَكِ وَالتَّحَلّي بِالفَضَائِلِ وَالأخلاقِ الكَرِيمَةِ، وَالقِيَمُ مَجمُوعَةٌ مِنَ المَبَادِئ وَالأُسُسِ الّتِي يَعتَنِقُهَا الإنسَانُ وَتُوَجّهُ سُلُوكَهُ، وَتَكُونُ تِلْكَ القِيَمُ مَنظُومَةً مُتَكَامِلَةً لِضبَطِ السُّلُوكِ الإنسَانِيّ فِي كَافَّةِ مَجَالاتِ الحَيَاةِ[١].

وَلا شَكَّ فِي أنَّ القِيَمَ الإسلامِيَّةَ الَّتِي دَخَلَتْ حَيَاةَ حَسَّانٍ، وَحَلَّت مَحَلَّ القِيَمِ الجَاهِلِيَّةِ، أحدَثَت ثَورَةً كَبِيرَةً فِي شَخصِيَّتِهِ عَلَى الصَّعِيدَينِ الفِكرِيّ وَالعملِيّ، فَصَارَ التَّعبِيرُ الشّعرِيُّ لَدَيهِ جُزءاً مِنْ سُلُوكِهِ، وانْعَكَستِ الرُّؤيَةُ الإسلامِيَّةُ فِي مُجمَلِ حَيَاتِهِ وَهيَ رُؤيَةٌ مَنظُومِيَّةٌ تَنظُرُ إلى كلّ شَيءٍ بِاعتِبَارِهِ مَنظُومَةً كُلّيَّةً لَهَا جُمَلَةٌ مِنَ المَنظُومَاتِ الكُلّيَّةِ التَّأسِيسِيَّةِ يُسَانِدُ بَعضُهَا بَعضاً[٢]، وَقَد تَعَامَلَ حَسَّانُ مُعَامَلَةَ المُفَكّرِ مَعَ تِلْكَ القِيَمِ وَحَاوَلَ تَرْسِيخَهَا فِي المُجتَمَعِ عَبْرَ شِعرِهِ، لِمَا لِلشّعرِ مِن أهَمّيَّةٍ فِي نُفُوسِ النَّاسِ، وَأهَمُّ هَذِهِ القِيَمِ الصّدْقُ، وَهُوَ أسَاسٌ لِمَجمُوعةٍ مِنَ المَفَاهِيمِ الأُخرَى وَالقِيَمِ الأخلاقِيَّةِ فِي المُجتَمَعِ، وَقَد صَارَ مَوضُوعاً شِعرِياً عِندَ حَسَّانٍ مُتَنَاوَلاً بطُرقٍ عَدِيدَةٍ، فَهوَ يَقُولُ (مِنَ البَسِيطِ):

يَـأيُّها النَّاسُ أَبْـدُوا ذَاتَ أَنْـفُسِكُـم  لا يَستَوِي الصّدْقُ عِندَ اللَّهِ والكَذِبُ[٣]

وَمَضَى يَربِطُ الصّدْقَ بِتَصدِيقِ مَا أتَى بِهِ الرَّسُولُ (ﷺ)، لأنَّ تَصدِيقَ تِلْكَ المَنظُومَةِ مِنَ القِيَمِ وَالمَفَاهِيمِ الغَيبِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ (ﷺ) يَكُونُ أسَاساً

---

١. مجموعة مؤلفين، القيم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير: أ.د. نادية محمود مصطفى وآخرون، دار البشير، القاهرة، ط١، ٢٠١١، ص٤٥.

٢. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

٣. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٣٠.

لِلتَّحَلّي بِالصّدق كَقِيمَةٍ اجْتِمَاعيَّةٍ، والكُفرَ بِهَا ارتِيابٌ وَشَكٌّ يُرَاوِدُهُمَا الكَذِبُ، مِن ذَلِكَ قَولُهُ (مِنَ الكَامِلِ):

وَأَقَـرَّ عَيْنَ مُحَمَّـــدٍ وَصَـحَـــابِهِ وَأَذَلَّ كُـلَّ مُكَـذِّبٍ مُـــرتَـــابِ
مُسْتَشـعِـــرٍ لِلكُفْـــرِ دُونَ ثِيَابِـــهِ وَالكُـفْـــرُ لَيسَ بِظَـاهِرِ الأَثوَابِ
عَلِقَ الشَّقَـــاءُ بِقَلْـبِهِ فَـأَرَانَـــهُ فِـي الكُفْـرِ آخِـرَ هَذِهِ الأَحقَابِ[1]

يَربِطُ هُنَا بَيْنَ الصّدق والإيمَانِ وبينَ الكُفرِ والكَذِب، كَأَنَّهُ أَرَادَ أن يَقُولَ إنَّ النُّفُوسَ الزَّكِيَّةَ الطَّاهِرَةَ تُصَدّقُ نُبُـوَّةَ مُحَمَّدٍ لأنَّ الصّدْقَ رَاسِخٌ فِيهَا، أمَّا النُّفُوسُ المُرتَابَةُ المَرِيضَةُ فَتَبقَى عَلَى الكُفْرِ وَالشَّكّ وَتَمِيلُ إلَيهمَا، وَلا سَبِيلَ لِلصّدق إلَيهَا مَا دامَتْ بَاقِيَةً عَلَى حَالِهَا طيلة الدَّهرِ.

وَيَبدُو حَسَّان أحيَاناً كَمُصلِحٍ اجتِمَاعِيّ يُرَكّزُ عَلَى أمرَاضِ المُجتَمَعِ وَيُحَدّدُهَا، ثُمَّ يَدعُو إلَى تَركِهَا وَالتَّحَلّي بِالفَضَائِلِ بَدَلاً مِنهَا، مِن ذَلِكَ قَولُهُ (مِنَ الكَامِلِ):

إنَّ الخِيَـانَةَ وَالمَغَـــالَةَ وَالخَنَـــا وَالـلُّؤمَ أصْبَـحَ ثَاوِيـاً بِـالأبْطَحِ
قَـــوْمٌ إذَا نـــطَقَ الخَنَـا نَادِيهِـــمُ تُبِـعَ الخَنَا وأُضِيعَ أمْـرُ المُصـلِحِ
وَاشْـتَقَّ عِنـدَ الحِجْـرِ كُـلَّ مُـزَلَّجٍ إلا يَصِـحْ عِندَ المَقَالَـةِ يَنْبَـحِ[2]

يَتَنَاوَلُ فِي هَذِهِ الأبيَاتِ صِفَاتٍ أخلاقِيَّةً رَذِيلَةً مِثْلَ الخِيَانَةِ وَالوشَايَةِ وَالفحْشِ مِنَ القَولِ وَفُقدَانِ القَصْدِ، وَهيَ صِفاتٌ كَانَتْ سَائِدَةً فِي المُجتَمَعِ الجَاهِلِيّ، وكَانَ بَعضُهَا مَحَلَّ فَخْرٍ عِندَ الشُّعرَاءِ وَهِيَ نَابِعَةٌ مِنَ العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ ولَم يُعَارِضْـهَا

---

١. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٢٢-٢٣.

٢. المصدر نفسه، ص٧٨.

الشّعرُ، بَل عَمِلَ عَلَى تَكريسِهَا خُصُوصاً إذَا كَانَت بِحَقّ الخُصُومِ، وَهَذَا مَا أفسَدَ وِئَامَ المُجتَمَعِ وَالتَّضَامُنَ بَينَ أبنَائِهِ، لَكِنْ بِفَضلِ الإسلامِ تَغَيَّرَت هَـذِهِ الأُمُـورُ، وَنَرَى حَسَّاناً كَيفَ يُركّزُ عَلَى نَبذِ تِلكَ المَفَاهِيمِ الخَاطِئَةِ لِتَحقِيقِ قِيمَةِ التَّضَـامُنِ الاجتِمَاعِيّ والاحتِرَامِ المُتَبَادَلِ بَيْنَ المُكَوّنَـاتِ المُختَلِفَـةِ، وَلا شَـكَّ أنَّ هَـذِهِ المَضَامِينَ دَخَلَت شِعْرَ حَسَّانٍ بِفَضلِ الإسلامِ.

وَمِنَ القِيَمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ النَّبِيلَةِ تَحقِيقُ الانْسِجَامِ وَالوَحدَةِ بَيْنَ أبنَاءِ المُجتَمَـعِ الوَاحِدِ وَإنِ انتَسَبُوا إلَى شَرَائِحَ مُتَعدّدَةٍ وَأجنَاسٍ مُختَلِفَةٍ، لأنَّ السَّـلامَ وَالوِئَـامَ الاجتِمَاعِيَّينِ مَصدَرَا الحَيَاةِ الكَرِيمَةِ، وَهَذَا مَا دَعَا إلَيهِ حَسَّان فِي شِعرِهِ فِي قَولِهِ (مِنَ البَسِيطِ):

وَقَدْ زَعَمْتُـمْ بِأنْ تَحْـمُـوا ذِمَارَكُـم ... وَمَـاءُ بَـدرٍ زَعَمْتُـم غَيْرُ مَورُودِ
وَقَـد وَرَدنَـا وَلَـم نَسـمَعْ لِقَـولِكُم ... حَتَّى شَرِبْـنَا رَوَاءً غَيرَ تَصـرِيدِ
مُستَعصِمِينَ بِحَبْـلٍ غَيـرِ مُنجَـذِمٍ ... مُستَحكِمٍ مِنْ حِبَـالِ اللَّـهِ مَمـدُودِ

يَجِدُ حَسَّانُ فِي هَذِهِ الأَبيَاتِ الإسلامَ الرَّابِطَ الأَقوَى وَالأهَمَّ لِبَقَـاءِ المُجتَمَـعِ مُتَمَاسِكاً وَمُنسَجِماً، لأنَّ حَبلَ اللَّهِ غَيرُ مَقطُوعٍ بَل صِـلَةٌ وَثِيقَـةٌ يَجمَـعُ كُـلَّ الاختِلافاتِ، وَيَنبُذُ التَّفرِقَةَ وَالزَّعَامَاتِ الفَارِغَةَ.

**٣ ــ المَضَامِينُ المُتَعلّقَةُ بِالفِكرِ السّيَاسِيّ**

تَأتِي هَذِهِ المَضَامِينُ انْعِكَاساً لِلمَفَاهِيمِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الإسلامُ فِي مَجَالِ الفِكرِ السّيَاسِيّ لِلبَشَرِ عُمُوماً وَلِلعَرَبِ عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ، لتَوسِيعِ آفَاقِهِمُ الفِكرِيَّـةِ بِخُصُوصِ التَّوَجُّهِ نَحوَ الوَحدَةِ وَنَبذِ التَّفرِقَةِ، وَتأسِيسِ الدَّولَةِ بِحُدُودٍ أوسَعَ مِـنَ القَبِيلَةِ، واتّخَاذِ الأُمَّـةِ قَاعِدَةً لِبِنَاءِ تِلكَ الدَّولَةِ وَتَحدِيدِ الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ وَحُقُوقِ الأقَلّيَاتِ، وَقَد تَجَسَّدَ كُلُّ هَذَا فِي مِيثَاقِ المَدِينَةِ.

وَقَد تَنَاوَلَ حَسَّان مَوضُوعَاتٍ سِيَاسِيَّةً تُشيرُ إِلَى تَغييرٍ فِي الفِكرِ السّيَاسِيّ عِندَهُ، وَقد أسهَمَت فِي بِنَائِهِ الفِكرِيّ وَتَوسِيعِ البُنيَةِ العَمِيقَةِ فِي تَجرِبَتِهِ الشّعرِيَّة؛ ومِنْ هَذِهِ المَوضُوعَاتِ مَسأَلَةُ الانتِمَاءِ، وَهيَ ظَاهِرَةٌ إنسَانِيَّةٌ قَدِيمَةٌ تُحَدّدُ نَوعاً مِنَ الهُوِيَّةِ لِلفَردِ تُمَيّزُهُ مِن غَيرِهِ فِي جَمَاعَاتٍ مُختَلِفَةٍ[1]، فَقَد كَانَت فِي الجَاهِلِيَّةِ لِلقَبِيلَةِ أو الجَدِّ الأعلَى، لأنَّ رَوابِطَ القَرَابَةِ الدَّمَوِيَّةِ هِيَ عِمَادُ الأنسَاب، وَهِيَ أنسَابٌ تَبلُغُ عِندَهُم دَرَجَةَ الحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ الَّتِي يُقِرُّهَا المُجتَمَعُ، وَيُقِيمُ عَلاقَاتِهِ الإنسَانِيَّةَ عَلَى أسَاسِهَا، فَهوَ مُجتَمَعُ قَبَائِلَ أبَوِيَّةٍ لا يَتأَتَّى وُجُودُهَا إلَّا بِوُجُودِ النَّسَبِ الَّذِي تَقُومُ عَلَى أسَاسِهِ الرَّوَابِطُ بَينَ تِلكَ القَبَائِل[2]، لَكِنَّ الانتِمَاءَ بَعدَ إسلامِ حَسَّانٍ صَارَ لِلأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ وَلِلدّينِ الإسلامِيّ الَّذِي يَجمَعُ الأُمَّةَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإنْ بَقِيَ لِلقَبِيلَةِ شَأنٌ فَهوَ بِفَضلِ مَكَانَةِ الرَّسُولِ (ﷺ) فِيهَا، أو تَمَسُّكِ أبْنَائِهَا بِالإسلامِ، مِن ذَلِكَ يَقُول: (مِنَ الطَّوِيلِ)

فَمَا زَالَ فِي الإسْلامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دَعَائِمُ عِزّ لا تُرَامُ وَمَفْخَرُ
هُمُ جَبَلُ الإسْلامِ وَالنَّاسُ حَولَهُ رِضَامٌ إلى طَودٍ يَرُوقُ وَيَقهَرُ
بِهِم تُكْشَفُ اللأوَاءُ فِي كُلّ مَأزَقٍ عَمَاسٍ إذَا مَا ضَاقَ بِالقَومِ مَصدَرُ
هُمُ أولِيَاءُ اللّهِ أنْزَلَ حُكْمَهُ عَلَيهِمْ وَفِيهِم ذَا الكِتَابُ المُطَهَّرُ[3]

اَضِحٌ أنَّ شَأنَ بَنِي هَاشِمٍ بَينَ القَبَائِلِ الأُخرَى مَا هُوَ إلَّا لكَون الرَّسُولِ (ﷺ) مِنهُم، لَكِنَّ الانتِمَاءَ الأَوسَعَ وَالأوثَقَ هُوَ لِلأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ، فَهوَ يَقُولُ: (مِنَ الكَامِلِ).

---

١. اسليم، د. فاروق أحمد، **الانتماء في الشعر الجاهلي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ص٩.
٢. السابق نفسه، ص٢٩-٣٠.
٣. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص١٦٦.

اللَّــهُ أكْرَمَــنَا بِنَــصرِ نَــبِــيِّــهِ وَبِــنَا أقَــامَ دَعَــائِــمَ الإسْــلامِ
وَبِــنَــا أَعَــزَّ نَبِــيَّــهُ وكِــتَــابَــهُ وَأَعَــزَّنَــا بِــالضَّرْبِ وَالإقْــدَامِ[1]

وَهَذَا تَجسِيدٌ لِمَا وَرَدَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ مِــن تَأكِيــدٍ عَلَى عَدَمِ تَفضِيلِ أحَدٍ عَلَى أحَدٍ بِنَاءً عَلَى نَسَبِهِ أو شَرَفِ قَبِيلَتِهِ، إنَّمَا الأكرَمُ هُوَ الأتقَى وَالأكثَرُ تَمَسُّكاً بِالدّينِ، وبِذَلِكَ نَبَذَ الإسلامُ التَّفكِيرَ القَبَلِيَّ الضَّيِّقَ فِي ذِهنِ حَسَّانٍ وَأحلَّ مَحَلَّهُ الفِكْرَ الأَوسَعَ المُتَمَثِّلَ فِي الأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ.

**ثَانِيــاً: المَضَامِينُ الفِكرِيَّةُ وَتَطوِيرُ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ**

اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ شَكلٌ مِن الأشكَالِ المُتَعدِّدَةِ لِلُّغَةِ وَاستِعمَالٌ خَاصٌّ لَهَا، كَونَهَــا تَخرِقُ القَواعِدَ السَّائِدَةَ لَهَا وَتَنحَرِفُ عَنِ اللُّغَةِ العَادِيَّةِ بِغَرَضِ الإثَارَةِ وَالإحسَاسِ بِالجَمَالِ، وَاللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ شَأنُهَا شَأنُ الأشكَالِ الأُخرَى لِلُّغَةِ، فَهِيَ تُحِيلُهَــا عَلَــى الأشْيَاءِ وَلا تَملِكُ خَارِجَ مُوسِيقِيَّتِهَا الخَاصَّةِ إلَّا مَا تُعِيرُهَا هَذِهِ الأَشيَاء، وَالأشيَاءُ لَيسَتْ شِعرِيَّةً إلَّا بِالقُوَّةِ، وَلا تُصبِحُ شِعرِيَّةً بِالفِعلِ إلَّا بِفَضلِ اللُّغَةِ، فَبِمُجَرَّدِ مَــا يَتَحوَّلُ الوَاقِعُ إلَى الكَلامِ يَضَعُ مَصِيرَهُ الجَمَالِيَّ بَينَ يَدَي اللُّغَةِ، فَالكَلِمَاتُ لَيسَت إلَّا بَدَائِلَ لِلأشيَاءِ، إنَّهَا مَرصُودَةٌ لِتَنقُلَ إلَينَا خَبَراً عَنِ الأشيَاءِ، فَمَا دَامَتِ القَصِيدَةُ لُغَةً وَكَلِمَاتٍ فَهِيَ تُحِيلُ عَلَى المُحتَوَى وَالمَضمُونِ الَّذِي يُعتَبَرُ مَادَّةً؛ أي شَــيءٌ مَوجُودٌ فِي ذَاتِهِ مُستَقِلٌّ عَنِ اللُّغَةِ[2]، وَكَنَتِيجَةٍ مَنطِقِيَّةٍ تَكُونُ اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ انعِكَاساً

---

١. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٣٧٧-٣٧٨.

٢.كوهن، جان (١٩٩٤م)، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الــولي ومحمــد العمــري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦، ص٣٦، ٣٢.

انْعِكَاساً مَادّيــاً فِي البُنيَةِ السَّطحِيَّةِ لِلمَعَانِي وَالمَضَامِينِ الَّتِي تَتَبلورُ فِــي ذِهــنِ الشَّاعِرِ، وَتُوجَدُ بِالقُوَّةِ فِي البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ العَمِيقَةِ.

ويَجبُ أن نُمَيِّزَ بَينَ مُستَوَيَينِ لِلمَضَامِينِ الشِّعرِيَّةِ؛ همَــا: شَــكْلُ المَعنَــى وَمَادَّتُهُ، فَالشَّكْلُ هُو العَلاقَةُ الَّتِي تَجمَعُ الكَلِمَاتِ فِي العِبَارَاتِ وَالنُّصُوص، وَالمَادَّةُ هِيَ الكَلِمَاتُ نَفسُهَا[1]، وَالمُستَوَيَانِ كِلاهُمَا يُعَــدَّانِ مِنَ البُنيَــةِ الفَوقِيَّــةِ لِلُّغَــةِ، مُتَأثِّرانِ بِمَا تَفرِضُ عَلَيهِمَا الدَّلالَةُ الشّعرِيَّةُ، لأنَّ طَرِيقَةَ تَــأليفِ الكَلِمَاتِ وَرَبطِهَا وَتَنظِيمِهَا تُغيِّرُ المَعنَى[2]، لِذَلِكَ يَجِبُ أنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ دَقِيقاً فِي اختِيَارِهِ لِلألفَاظِ وَطَرِيقَةِ رَصفِهَا فِي العِبَاراتِ وَالنُّصُوصِ.

مِنْ هَذَا لا يُمكِنُ لِشَاعِرٍ أنْ يُعَبِّرَ عَنِ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ إلَّا بِأَلفَاظٍ تُنَاسِــبُهَا وَتَدُلُّ عَلَيهَا دَلالَةً دَقِيقَةً، وَبِأُسلُوبٍ مُنَاسِبٍ لَهَا فِي تَنظِيمِ تِلكَ الأَلفَاظِ، لأنَّ تَرتِيبَ الأَلفَاظِ فِي النّطقِ وَالكِتَابَةِ يَكُونُ عَلَى حَسْبِ تَرتِيبِ المَعَانِي فِي النَّفسِ[3].

فَإِذَا كَانَتِ المَعَانِي فِي نَفسِ حَسَّانٍ مَحصُورَةً فِي الجَاهِلِيَّةِ عَلَــى مَضَــامِينَ مُعيَّنَةٍ نَابِعَةٍ مِنَ الحَيَاةِ الجَاهِلِيَّةِ وَثَقَافَتِهَا، فَإنَّهَا فِي الإسلامِ تَوَسَّعَت آفَاقُهَا وَتَنَوَّعَت مُدرَكَاتُهَا -كَمَا رَأَينَا-، وَدَخَلَت مَضَامِينُ جَدِيدَةٌ فِي ذِهنِهِ تَطَلَّبَت مِنهُ لُغَةً شِعرِيَّةً تُنَاسِبُهَا وَأُسلُوبــاً فِي التَّعبِيرِ أكثَرَ دِقَّةً، وَيُمكِنُ رَصْــدُ انعِكَاسَــاتِ المَضَــامِينِ الفِكرِيَّةِ الآنِفَةِ الذِّكرِ عَلَى اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ عِندَهُ فِي المَظَاهِرِ الآتِيَةِ:

**١ ـ المُعْجَمُ الشّعرِيُّ:**

يُنظَرُ إلَى المُعجَمِ الشِّعرِيِّ عَادَةً مِنْ زَاوِيَتَينِ؛ هُمَــا: الزَّاوِيَــةُ التَّركِيبِيَّــةُ وَالزَّاوِيَةُ الدَّلالِيَّةُ، فالتَّركِيبِيَّةُ تَرَى فِي المُعجَمِ مُكَوِّناً أسَاسِياً لِتَأسِيسِ بُنيَةِ الجُملَةِ

---

١. كوهن، جان (١٩٩٤م)، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الــولي ومحمــد العمــري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦، ص٤٣.

٢. ناصف، د.مصطفى، **نظرية المعنى في النقد العربي**، مرجع سابق، ص١٤.

٣. السابق نفسه، ص٤١.

نَحوياً، أمَّا الدَّلاليَّةُ فَتَرَى كَلِمَاتٍ تَتَرَدَّدُ بِنِسَبٍ مُختَلِفَةٍ بِنَفسِهَا أو بِمُرَادِفِهَا أو بِتَركِيبٍ يُؤدّي مَعنَاهَا وَتُكَوِّنُ حُقُولاً دَلاليَّةً، وَقَد يَكُونُ المُعجَمُ وَسِيلَةً للتَّمييزِ بَينَ أَنوَاعِ الخِطَابِ أو أَسَاليبِ الشُّعَرَاءِ أو العُصُورِ الأَدَبِيَّةِ[1]، وَلَيسَ ((هُنَاكَ مُعجَمٌ شِعرِيٌّ وَحِيدٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ضِمنَ لُغَةٍ مَا، وَإِنَّمَا هُنَاكَ مُعجَمٌ شِعرِيٌّ مُتَطَوِّرٌ مَحكُومٌ بِشُرُوطٍ ذَاتِيَّةٍ وَمَوضُوعِيَّةٍ... فَالشَّاعِرُ الوَاحِدُ نَفسُهُ يَكُونُ لَهُ مَعَاجِمُ بِحَسَبِ المَقَالِ وَالمَقَامِ))[2].

وَمِنْ بَينِ الشُّرُوطِ المَوضُوعِيَّةِ المُتَحَكِّمَةِ بِتَطوِيرِ المُعجَمِ الشِّعرِيِّ عِندَ حَسَّانٍ دُخُولُهُ فِي الإِسلامِ وَتَركُهُ الجَاهِلِيَّةَ، بِذَلِكَ اكتَسَبَ مُعجَماً ضَمَّ كَمّاً هَائِلاً مِنَ الأَلفَاظِ الجَدِيدَةِ بِبُنَاهَا وَدَلالاتِهَا، فَقَد أَشَارَ البَاحِثُونَ كَثِيراً إِلَى مَوضُوعِ الأَلفَاظِ الجَدِيدَةِ وَتَغَيُّرِ صُوَرِ التَّعبِيرِ لِتُنَاسِبَ العَصرَ وَالبِيئَةَ، وَضَرَبُوا أَمثِلَةً عَلَى هَذَا التَّطَوُّرِ وَمَظَاهِرِهِ، مِثلَ دُخُولِ المُصطَلَحَاتِ العَقِيدِيَّةِ وَالفِقهِيَّةِ وَالشَّرعِيَّةِ إِلَى الشِّعرِ وَتَغيِيرِ دَلالاتِ بَعضِ الأَلفَاظِ وَاستِحدَاثِ أُخرَى[3]، وَلا شَكَّ أَنَّ اسْتِجَابَةَ حَسَّانٍ لِلمَضَامِينِ الجَدِيدَةِ بِتَوسِيعِ آفَاقِ مُعجَمِهِ الشِّعرِيِّ كَانَتَ حَذَاقَةً مِنهُ، وَالأَمثِلَةُ كَثِيرَةٌ فِي شِعرِهِ عَلَى استِعمَالِ تِلكَ الأَلفَاظِ الإِسلامِيَّةِ الجَدِيدَةِ، نَكتَفِي بِقَولِهِ: (مِنَ الكَامِلِ):

يَا وَيْحَ أَنصَارَ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ ... بَعْدَ المُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ المَلْحَدِ
ضَاقَت بِالأَنْصَارِ البِلادُ فَأَصبَحَت ... سُوداً وُجُوهُهُمُ كَلَونِ الإِثْمِدِ
وَلَقَدْ وَلَدْنَاهُ وَفِينَا قَبْرُهُ ... وَفُضُولُ نِعمَتِهِ بِنَا لَمْ يُجْحَدِ
وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ ... أَنْصَارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ
صَلَّى الإِلَهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ ... وَالطَّيِّبُونَ عَلَى المُبَارَكِ أَحمَدِ[4]

---

١. مفتاح، د. محمد، **تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، يوليو ١٩٩٢، ص٥٧-٥٨.

٢. المرجع نفسه، ص٦١.

٣. أبو شريفة، د.عبدالقادر وآخرون، **علم الدلالة والمعجم العربي**، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٩، ص٧٨.

٤. الأنصاري، **ديوان حسان بن ثابت**، مصدر سابق، ص١٠١-١٠٢.

هَذَا عَلَى سَبيلِ المِثَالِ لا الحَصْرِ، فَقَد كَثُرَ فِي شِعرِهِ مِثــلُ هَــذَا التَّـــأثُّرِ بِالألفَاظِ الإسلامِيَّةِ الجَدِيدَةِ فِي مُعجَمِهِ الشِّعرِيِّ مِن حَيثُ الكَمُّ.

وَعَلَى مُستَوَى الحُقُولِ الدِّلاليَّةِ الَّتِي أَشَرنَا إِلَيهَا فِيمَا سَبَقَ مِنَ القَولِ يُمكِنُ أَنْ نَبحَثَ فِي القَصِيدَةِ المَذكُورَةِ عَن عِدَّةِ حُقُولٍ تَحتَوِي عَلَى كَلِمَاتٍ يجمَعُهَا خَــيطٌ دَلاليٌّ، ويَتَقوَّى بَعضُهَا بِبَعضٍ بَينَما تَنتَمِي إِلَى الحَقلِ الدَّلالِيِّ نَفسِهِ، مَثلاً يُمكِنُنَا إِيجَادُ عِدَّةِ أَلفَاظٍ فِي القَصِيدَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ (ﷺ) (رَحمَةٌ) لِلعَــالَمِينَ، مِنهَا (المَهْدِيّ، خَيرُ مَن وَطِئَ الحَصَى، المُهتَدِي، طيِّبــاً، كَرِيمُ المُحتَدِ، المُبَارَكُ، سَعدُ الأَسْعُدِ، أَضَاءَ، النُّورُ المُبَارَكُ، فُضُولُ نِعمَتِهِ، هَدَى بِهِ، المُبارَك أحمَد).

فَقَد تَرَدَّدتْ كَلِمَاتٌ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ بِنِسَبٍ مُختَلِفَةٍ بِنَفسِــهَا أَو بِمُرَادِفِهَــا أَو بِتَركِيبٍ يُؤدِّي مَعنَاهَا، إِذْ كَوَّنَت حَقلاً دَلالياً يحُومُ مَعنَاهُ عَلَــى كَــونِ الرَّسُــولِ (ﷺ) رَحمَةً لِلعَالَمِينَ وَهَادِياً لِلبَشَرِيَّةِ، فَلَولا تَأثِيرُ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ لَمَا وَجَدْنَا اجْتِمَاعَ هَذَا الكَمِّ مِنَ الكَلِمَاتِ وَالتَّعَابِيرِ الدَّالَّةِ عَلَى معنى مُعيَّنٍ، وَالأمثِلَةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ مِمَّا يُثبِتُ تَطوُّرَ المُعجَمِ الشِّعرِيِّ بِفَضلِ المَضَامِينِ الإِسْلامِيَّةِ.

**٢ ـ الأَثَرُ الأُسلُوبِيُّ**

يَظهَرُ الأَثَرُ الأُسلُوبِيُّ لِلنَّصِّ الشِّعرِيِّ –بِحَسَبِ كوهين– فِي ابتِكَارِ الصِّيَغِ الجَدِيدَةِ غَيرِ المُستَعمَلَةِ مِنْ قَبْلُ، وَمَعنَى الابْتِكَارِ هُنَا أَنْ يَلجَأَ الشَّاعِرُ إِلَى خَلــقِ مَادَّةٍ جَدِيدَةٍ لِلمُحتَوَى[1]، لأَنَّ العَلاقَةَ الَّتِي تَجمَعُ الكَلِمَاتِ فِي المُتَوَالِيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ لا تَتَغيَّرُ، فإِذَا اغتَرَفَ الفَنُّ الشِّعرِيُّ مِنْ أَعمَاقِ الأَشكَالِ المُســتَعمَلَةِ وَالكلِيشــيَّاتِ الجَاهِزَةِ بِالمَادَّةِ نَفسِهَا، فإِنَّهُ يَختَارُ مِنَ الوَقَائِعِ الأُسلُوبيَّةِ وَيَقتَصِرُ عَلَى الانتِقَاءِ مِنْ

---

١. كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، مرجع سابق، ص٤٤.

بَينِ الأشكَالِ الَّتِي تُوفِّرُهَا اللُّغَةُ[1]، آنَذَاك يَختَفِي الأثَرُ الأُسلُوبِيُّ وَيَختَفِي مَعَهُ الانْزِيَاحُ وَجَمَالِيَّاتُ اللُّغَة الشّعرِيَّة.

أمَّا مُحَاوَلَةُ إيجَادِ أشكَالٍ جَدِيدَةٍ مِنْ خِلالِ مَادَّةٍ جَدِيدَةٍ لِلمُحتَوَى فَهِيَ تُعَدُّ خَلقاً وَتَجسِيداً لِلمَعنَى وَإنْ كَانَتِ العَلاقَةُ قَدِيمَة، مَثَلاً لَو أَخَذنَا عَلاقَةَ التَّشبِيهِ بَينَ طَرَفَيهِ فَإنَّهَا لا تَتَغيَّرُ، إذْ لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَوَجهِ شَبَهٍ بَينَهُمَا، لَكِنَّ مَا يَتَغيَّرُ هُوَ الكَلِمَاتُ الَّتِي تُوضَعُ فِي هَذِهِ العَلاقَةِ لِتَخرُجَ الصُّورَةُ النّهَائِيَّةُ لِلتَّشبِيهِ، وَهَذَا يَنطَبِقُ عَلَى بَاقِي العَلاقَاتِ الأُخرَى مِنَ الاستِعَارَةِ وَالمَجَازِ والإسنَادِ وَغَيرِهَا.

وَمِن ذَلِكَ قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

وَمَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ  وَلا مِثْلُهُ حَتى القِيامَةِ يُفْقَدُ[2]

فَقَد عبَّرَ بِكَلِمَاتٍ جَدِيدَةٍ لَم تَكُنْ مَألُوفَةً فِي شِعرِ حَسَّانٍ وَهِيَ نَابِعَةٌ عَنِ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ شِعرَهُ بَعدَ إسلامِهِ، لَكِنَّ العَلاقَةَ هِيَ عَلاقَةُ تَشبِيهٍ تَجمَعُ تِلكَ الكَلِمَاتِ، وَهِيَ قَدِيمَةٌ مُتدَاوَلَةٌ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فالأثَرُ الأُسلُوبِيُّ يَظهَرُ فِي المَادَّةِ الجَدِيدَةِ لِلمُحتَوَى، وَهِيَ الكَلِمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَضمُونِ التَّشبِيهِ، وَقَد أعطَى بِذَلِكَ صِفَةَ التَّمَيُّزِ بِلا مُنَازِعٍ لِلرَّسُولِ (ﷺ)، وَجَعَلَهُ الشَّخصَ الوَحِيدَ الَّذِي خَسِرَتِ الإنسَانِيَّةُ بِفُقدَانِهِ، لَيسَ فِي زَمَانِهِ فَحَسبُ، بَل حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ لاَ يَخرُجُ شَخصٌ لِلبَشَرِيَّةِ يَتَمتَّعُ بِأهَمِّيَّتِهِ، وَلَيسَ هَذَا فَحَسبُ بَلْ حَصَرَ التَّارِيخَ القَدِيمَ وَالحَدِيثَ عَلَيهِ.

---

١. كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، مرجع سابق، ص٤٥.

٢. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٩٨.

مِثَالٌ آخَرُ عَلَى الأثَرِ الأُسلُوبِيِّ النَّاتِجِ عَنِ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ المُتَأثّرَةِ بِالمَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ عِندَ حَسَّانٍ، قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

لَـكَ الخَلْقُ وَالنَّـعمَاءُ وَالأمـرُ كُلُّـهُ  فَإيَّـاكَ نَستَهْدِي وَإيَّـاكَ نَعْـبُدُ[1]

فِي الشَّطرِ الثَّانِي جَسَّدَ حَسَّانُ مُحتَوى جَدِيداً فِي عَلاقَةٍ قَدِيمَةٍ، وَالعَلاقَةُ هِيَ الإسنَادُ القَائِمُ بَينَ الفِعلِ وَالمَفعُولِ بِهِ المُقَدَّمِ عَلَيهِ، وَهَذَا وَارِدٌ فِي اللُّغَةِ وَفِي كَلامِ الشُّعَرَاءِ الآخَرِينَ، لَكِنَّ إبْدَاعَ حَسَّانٍ يَكمُنُ فِي الكَلِمَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا فِـي تِلـكَ العَلاقَةِ، وَهِيَ المُقتَبَسَةُ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ وَالمُتَعَلِّقَةُ بِالمَضَامِينِ العَقِيدِيَّةِ، فَكَـانَ مَعرُوفاً عِندَ العَرَبِ فِي الجَاهِلِيَّةِ طَلَبُ العَونِ مِنَ الأصنَامِ وَعِبَادَتُهُم إيَّاهَا، لَكِـنَّ هَذَا تَحَوَّلَ عِندَ حَسَّانٍ إلى حَصرِ العِبَادَةِ عَلَى اللَّهِ سُبحَانَهُ وَالاستِعَانَةِ بِهِ فَحَسبُ، إذاً، الأَثَرُ الأُسلُوبِيُّ الَّذِي يَجذِبُ انتِبَاهَ المُتَلَقِّي نَاتِجٌ عَن إقَامَةِ المَفعُولِيَّةِ مَعَ فِعلِ العِبَادَةِ وَالاستِعَانَةِ وَحَصرِهِمَا عَلَى اللَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى دُونَ غَيرِهِ.

**٣ ـ التَّنَـاصُّ**

التَّنَاصُّ مَظهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظَاهِرِ انعِكَاسِ المضَامِينِ الفِكرِيَّـةِ عَلَـى شِـعرِ حَسَّانٍ، ذَلِكَ مِن خِلالِ تَأسِيسِ عَلاقَةِ اسْتِحضَارٍ لِنُصُوصِ القُرآنِ الَّـذِي صَـارَ مَصدَرَ الإلهَامِ الشِّعرِيِّ وَالجَمَالِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ لِلشُّعَرَاءِ، فَقَد صَارَ القُرآنُ المَثَلَ الأعلَى لِلشُّعَرَاءِ جَمِيعِهِم فِي أُسلُوبِهِ وَطَرِيقَةِ تَعبِيرِهِ وَإثرَاءِ اللُّغَةِ بِالكَلِمَـاتِ وَالـدَّلالاتِ الجَدِيدَةِ، وَبِمَا أنَّ القُرآنَ مَصدَرَ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الجَدِيدَةِ فَقَد أثَّرَ فِـي شِـعرِ حَسَّانٍ بِدَلالاتِهِ وَلُغَتِهِ، وَصَارَ التَّعَالُقُ النَّصِّيُّ سِمَةً بَارِزَةً بَينَهُ وَبَينَ شِعرِهِ، وَأكثَرُ أنوَاعِ التَّنَاصِّ استِعمَالاً فِي شِعرِ حَسَّانٍ الاقتِبَاسُ المُبَاشِرُ وَالإحَالَةُ الدَّلالِيَّةُ.

---

١. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، مصدر سابق، ص٨٣.

فَالاقتِبَاسُ أكثَرُ الأشكَالِ وُضُوحاً فَهُوَ قَرْضٌ مُعلَنٌ وَحَرفِيٌّ وَحُضُورٌ فِعلِيٌّ لِنَصّ فِي نَصٍّ آخَرَ[1]، وَصَارَ الاقْتِبَاسُ طَرِيقَةَ الشُّعَرَاءِ الفَنِّيّةَ بَعدَ نُزُولِ القُرآنِ، وَتَكمُنُ أهَمّـيَّتُهُ الشَّكلِيَّةُ -فَضلاً عَن بُعدِهِ الدَّلالِيّ- فِي إثرَاءِ المُعجَمِ الشّـعرِيّ، وَتَركِ الأثَرِ الأُسلُوبِيّ فِي النَّصِّ، عِلاوَةً عَلَى خَلقِ التَّعَـالُقِ النَّصِّـيّ بِطَرِيقَـةِ الاسْتِدعَاءِ الشَّكلِيّ، وَالأمثِلَةُ كَثِيرَةٌ عَلَى هَذَا فِي شِعرِ حَسَّان؛ مِنهَا قَولُـهُ (مِـنَ الوَافِرِ):

وَجِبْرِيـلُ أمِيـنُ اللَّـه فِيـنَـا وَرُوحُ القُـدسِ لَيْسَ لَهُ كَفَـاءُ[2]

وَقَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

وَأنْتَ إلَـهُ الحَـقّ رَبّـي وَخَـالِقِي بِذَلِكَ مَـا عُمِّـرتُ فِي النَّاسِ أشهَدُ
تَعَالَيتَ رَبَّ النَّاسِ عَن قَولِ مَنْ دَعَـا سِواكَ إلهاً أنْتَ أعْلَى وَأمْـجَـدُ
لَكَ الخَلْـقُ وَالنَّعمَـاءُ وَالأمـرُ كُلُّـهُ فَإيَّـاكَ نَستَهدِي وَإيَّـاكَ نَعبُـدُ
لأنَّ ثَـوابَ اللَّـهِ كـلَّ جِنَانٌ مِنَ الفِردَوسِ فِيهَـا يُخَلَّـدُ[3]

حُضُورُ الآيَاتِ وَاضِحٌ فِي هَذِهِ الأبيَاتِ بِأُسلُوبِهَا وَأَلفَاظِهَا وَتَأثِيرَاتِهَا الشَّكلِيَّةِ فَضلاً عَنِ التَّعَالُقِ الدَّلالِيّ، فَلَولا القُرآنُ لَمَا خَرَجَتِ اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ عِندَ الشَّـاعِرِ بِهَذَا الشَّكلِ، وَيَبدُو ذَلِكَ جَلِيّاً عِندَ مُقَارَنَتِهِ بِقَصَائِدِهِ الجَاهِلِيَّةِ.

---

١. مجموعة مؤلفين، **آفاق التناصية المفهوم والمنظور**، ترجمة وتقديم: محمـد خيـر البقـاعي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص١٣٢-١٣٣.

٢. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، مصدر سابق، ص١٦.

٣. المصدر نفسه، ص١٥٤.

وَلا يَقِفُ التَّنَاصُّ مَعَ القُرآنِ عِندَ حَدّ الاقتِبَاسِ المُبَاشِرِ، بَلْ صَارَ أسلُوبُ الشَّاعِرِ كُلُّهُ مُتَأثّراً بِهِ، يَستَوحِي مِنهُ تَعَابِيرَهُ وَيَقيسُ لُغَتَهَ الشّعريَّةَ عَلَيهِ، وَيُمكِنُ التَّأشيرُ عَلَى مَوَاطِنَ عَدِيدَةٍ فِي شِعرِ حَسَّان؛ وهذا يَدُلُّ عَلَى إقَامَةِ عَلاقةٍ غَيرِ مُبَاشِرَةٍ مَعَ آيَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ، تَكفِي الإشَارَةُ هُنَا إلَى قَولِهِ (مِنَ الوَافِرِ):

إذَنْ وَاللَّهِ نَرمِيهِمْ بِحَربٍ تُشِيبُ الطّفلَ مِن قَبلِ المَشِيبِ[1]

فِي هَذَا تَأثُّرٌ وَاضِحٌ بِأُسلُوبِ القُرآنِ الكَرِيمِ فِي التَّعبِيرِ، وَتَنَاصٌّ غَيرُ مُبَاشِرٍ مَعَ الصّيَاغَةِ القُرآنيَّةِ لِلتَّعبِيرِ عَن أهوَالِ القِيَامَةِ الَّتِي تَجعَلُ الوِلدَانَ شِيباً، فَيَأتِي الشَّاعِرُ يَستَحضِرُ هَذِهِ الصّيَاغَةَ فِي شِعرِهِ لِقَومٍ يَقَعونَ فِي حَرْبٍ مَعَ المُسلِمِينَ.

وَأخِيراً، لَيسَ مَا ذُكِرَ هَنَا إلا إشَاراتٍ عَابِرةً تُجَسّدُ جَدَلِيَّةَ العَلاقَةِ بَينَ اللُّغَةِ وَالفِكرِ، حَيثُ يُؤثّرُ أحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ، فَلا يُمكِنُ تَطوِيرُ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ كَقَوالِبَ خَالِيَةٍ مِنَ الأفكَارِ الرَّصِينَةِ، وَلا يُمكِنُ لِفِكرٍ عَمِيقٍ أنْ يَتَجسَّدَ فِي لُغَةٍ رَكِيكَةٍ مَحصُورَةٍ فِي تَعَابِيرَ سَاذِجَةٍ غَيرِ دَقِيقَةٍ، وَقَد تَحَقَّقَ التَّكَامُلُ بَينَ الجَانِبَينِ بِالفِعلِ فِي شِعرِ حَسَّانٍ بَعدَ تَحَوُّلِهِ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إلَى الإسلامِ.

---

١. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، مصدر سابق، ص٤٢.

## خَاتِــمَة

فِي خِتَامِ هَذَا البَحثِ يُمكِنُ تَلخِيصُ الاسْتِنتَاجَاتِ فِي النّقَاطِ الآتِيَةِ:

١ــ تَأَثَّــرتِ اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ عِندَ حَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ بِالمَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الَّتِــي دخلت شِعرَهُ بِفَضلِ إسلامِهِ، فَتطوَّرَت جَوَانِبُ عَدِيدَةٌ مِنْ تِلكَ اللُّغَةِ مِثلَ الاتّسَاعِ فِي المُعجَمِ الشّعرِيّ، وتَكَوُّنِ حُقُولٍ دَلالِيَّةٍ عَدِيدَةٍ فِي قَصَائِدِهِ تَرتَبِطُ بِالمَجَــالاتِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي صَارَت مَضَامِينَ شِعرِيَّةً لَدَيهِ.

٢ــ تَغَيَّرَ الأَثَرُ الأُسلُوبِيُّ المَترُوكُ عَلَى جُمَلِهِ وَتَعَابيرِهِ وَصُوَرِهِ الشّــعرِيَّةِ بَعدَ تَوسِيعِ القَاعِدَةِ الدَّلالِيَّةِ بِالمَضَامِينِ العَقِيدِيَّــةِ وَالفِكــرِ الاجتِمَــاعِيّ وَالفِكــرِ السّيَاسِيّ، فَقَد صَارَت مَادَّةُ المُحتَوَى جَدِيدَةً عِندَ تَجسِيدِهَا فِي العَلاقَاتِ الَّتِي تَربِطُ الكَلِمَاتِ بَعضِهَا بِبَعضٍ فِي المُتَوَالِيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وَهِيَ عَلاقَاتٌ ثَابِتَةٌ فِــي اللُّغَــةِ وَقَدِيمَةٌ فِي الاستِعمَالِ، لَكِنَّهَا جَدِيدَةٌ بِكَلِمَاتِهَا وَمَضَامِينِهَا الجَدِيدَةِ.

٣ــ صَارَ التَّنَاصُّ فِي شِعرِهِ مَعَ القُرآنِ الكَرِيمِ كَثِيــراً، خُصُوصــاً فِــي المَوضُوعَاتِ المُتَعَلِّقَةِ بِالمَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا بَعدَ إسلامِهِ، فَصَارَت بِهَا اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ أَكثَرَ جَمَالاً وَشِعرِيَّةً بِفَضلِ اتّخاذِ أُسلُوبِ القُرآنِ أنمُوذَجاً يُحتَــذَى فِي التَّعبِيرِ الجَمَالِيّ.

٤ــ تَبَيَّنَ أَنَّ العَلاقَةَ الجَدَلِيَّةَ بَينَ فِكرِهِ وَلُغَتِهِ الشّعرِيَّةِ صَارتْ وَطِيدَةً وَأَكثَرَ إلحَاحاً، لأَنَّ التَّحوُّلَ الفِكرِيَّ الَّذِي حَدَثَ عِندَ حَسَّانٍ أَصبَحَ بِحَاجَةٍ إِلَى لُغَةٍ أَكثَرَ تَطوُّراً وَأُسلُوبٍ أَدَقَّ فِي التَّعبِيرِ، لأَنَّ المَفَاهِيمَ الجَاهِلِيَّةَ لَمْ تَعُدْ تُكَوّنُ فِكرَهُ وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا مَفَاهِيمُ جَدِيدَةٌ إسلامِيَّةٌ، فَأَجبَرَهُ هَذَا الحَالُ عَلَى اتّخَاذِ تِقنِيَّاتٍ لُغَوِيَّةٍ جَدِيدَةٍ لِلتَّعبِيرِ عَن الحَالَةِ الجَدِيدَةِ.

٥ــ ظَهَرَتْ أَهَمّــيَّةُ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ العَمِيقَةِ الَّتِي رَسَمَتِ المَلامِحَ الشَّــكلِيَّةَ لِخِطَابِهِ الشّعرِيّ، وَأَعَانَتْهُ عَلَى اختِيَارِ أَلفَاظِهِ وَتَعَابِيرِهِ لِتَكُونَ أَكثَــرَ دِقَّــةً، لأَنَّ المَضمُونَ يَأخُذُ شَكلَ القَالَبِ وَيَتَحدَّدُ بِحُدُودِهِ، كَمَا أَنَّ الشَّكلَ يَأخُذُ صُورَتَهُ بِنَــاءً عَلَى مُعطَيَاتِ المَضَامِينِ وَمُتَطَلَّبَاتِهَا الدَّلالِيَّةِ.

## قَائِمَةُ المَصَادِرِ والمَرَاجِعِ


- أبو شريفة، د.عبدالقادر وآخرون، **علم الدلالة والمعجم العربي**، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٩.
- اسليم، د.فاروق أحمد، **الانتماء في الشعر الجاهلي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **شرح الديوان**، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.
- الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **ديوان حسان بن ثابت**، شرح: د.يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ضيف، د.شوقي (١٣ مارس ٢٠٠٥)، **تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي**، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م.
- كوهن، جان (١٩٩٤م)، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦.
- مجموعة مؤلفين، **آفاق التناصية المفهوم والمنظور**، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- مجموعة مؤلفين، **القيم في الظاهرة الاجتماعية**، تحرير: أ.د.نادية محمود مصطفى وآخرون، دار البشير، القاهرة، ط١، ٢٠١١.
- مفتاح، د.محمد، **تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، يوليو ١٩٩٢.
- ملكاوي، د.فتحي حسن، **البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخرائطه**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فيرجينيا، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- ناصف، د.مصطفى، **نظرية المعنى في النقد العربي**، دار الأندلس، بيروت- لبنان، ط١، د.ت.

# تلازم المعنى اللُّغوي والإبداع المفهومي
# في الفلسفة العربية المعاصرة

الدكتور عبدالرزاق بلعقروز
جامعة سطيف٢ ، الجزائر

## الملخص

جاءت هذه الدراسة للوقوف على مداخل التفكير في منهج الولـــوج إلـــى الإبداع الفلسفي بتعدد زوايا النّظر، ومن الزوايا ذات الاعتبار الراهني المساءلة اللغوية وإعمال المنهج اللّساني في فقه القول الفلسفي، وبالتالي فإن صميم رسالة الفيلسوف هي لغوية.

إنَّ أهمية هذا البحث، تتجلّى في كونه ينير الطريق أمام المتفلسف العربي، لأجل أن يستثمر الإمكانات اللُّغوية في صناعة قول فلسفي إبداعي، فإن بنيـــة اللغة تؤثر تأثيراً عميقاً في وضع المسائل الفلسفية ذاتها؛ كما تكمن أهمية البحث في أنه يصرف عن الفلسفة العربية ظاهرة قلق العبارة؛ والترجمة التقليدية التي تتوهَّم وجود فلسفة معنوية خالصة مستقلة عن اللغة التي يفكر بها المتفلســـف، وهذا يزيد من تدعيم فكرة التواصل بين الفلسفات؛ نظراً لاخـــتلاف اللغـــات، فاختلاف اللغات يثمر اختلاف الأفكار، واختلاف الأفكار ينتج التواصل الخلاق المبدع.

**فاتحة الإشكال:**

تتعدّد مداخل التَّفكير في منهج الولوج إلى الإبداع الفلسفي بتعـــدد زوايـــا النّظر، ومن الزوايا ذات الاعتبار الراهني، المساءلة اللغوية وإعمـــال المـــنهج اللّساني في فقه القول الفلسفي، ومشروعية هذا المدخل آتية من قوة الارتباط بين التَّجديد الفكري وتشغيل المدلول اللُّغوي العربي في بناء المفاهيم الفلسفية، لأن إمكانات التَّفلسف تقتضي منا أن نتخذ اللُّغة معياراً وقانوناً لغيرها، وبالتالي فإن صميم رسالة الفيلسوف هي لغوية؛ وبالتالي على الفيلسوف العربي المعاصر أن يجتهد في التوعية بقدرة لغته الفكرية؛ وأن يلفت النّظر إلى التَّشويه الذي لحق أصول لغتنا العربية، عندما أراد بعض المتفلسفة نفي قدرتها الإبداعية وإلحـــاق مدلولات اللغات الأخرى بها في فعل الترجمة؛ وكانت المحصّلة هي كبت طاقة التفلسف لدينا، واتباع مفاهيم الثقافات الأخرى المبنية على مفاهيمها اللغوية أو عاداتها في التّعبير وفي التبليغ. وما قوة الفلسفتين اليونانية والألمانية إلا من قوة الاستثمار اللغوي لكليهما.

وإذ تقرّر هذا، فإنَّ أهمية هذا البحث، تتجلّى في كونه ينير الطريق أمـــام المتفلسف العربي، لأجل أن يستثمر الإمكانات اللُّغوية في صناعة قول فلســـفي إبداعي، ذلك أنّ ثمة إمكانات كامنة في اللُّغة تجعلها تختلف في إبـــداعها عـــن اللُّغات الأخرى؛ وعليه؛ فإن بنية اللغة تؤثر تأثيراً عميقاً في وضـــع المســـائل الفلسفية ذاتها؛ كما تكمن أهمية البحث في أنه يصرف عـــن الفلســـفة العربيـــة ظاهرة قلق العبارة؛ والترجمة التقليدية التي تتوهَّم وجود فلسفة معنوية خالصة مستقلة عن اللغة التي يفكر بها المتفلسف، وهذا يزيد من تدعيم فكرة التواصل بين الفلسفات؛ نظراً لاختلاف اللغات، فاختلاف اللغات يثمر اختلاف الأفكـــار، واختلاف الأفكار ينتج التواصل الخلاق المبدع.

**إشكالية البحث:**

كيف يكون الوعي بحضور المدلولات اللُّغوية في الفلسفات المهيمنة لأجل صرف هذه المدلولات الخاصة وتعويضها بالمدلولات اللُّغوية الذَّاتية؟ ما هي آليات استثمار المدلولات اللغوية لأجل تحرير طاقة التفلسف لدينا أو آليات إدخال المدلول اللغوي العربي كمقوم مركزي من مقومات بناء المفاهيم وإبداعها كي تكون الثَّمرة هي الأخذ بيد المتفلسف العربي نحو إتقان التفلسف وفق النظام اللغوي الذي يفكر به؟

**أولاً.** مفاهيم الدّراسة: لهذه الدراسة مفاهيم أساسية يقتضي منا البيان رسم مدلولاتها، وهذا الرَّسم يكون في ترابط مع الأغراض التي نروم تَقَصُّدَها في هذه الدّراسة، ورأينا أن من المفردات ما تتبوّأ مقاماً جليلاً، هي:

أ. **التَّلازم أو الملازمة:** هذا اللَّفظ متداول في سياقات لغوية ومنطقية، وليس غرضنا التَّحويم عند ذينك المجالين، بل الأخذ بالمعنى الذي يناسب سياق الاستعمال؛ أي تلازم المدلول اللغوي في الإبداع المفهومي الفلسفي. ولأجل هذا نجد كتاب التعريفات للجرجاني يقول: "الملازمة لُغَةً امتناع انفكاك الشيء عن الشيء واللزوم والتَّلازم بمعناه، واصطلاحاً كون الحكم مقتضياً للآخر على معنى أنّ الحكم بحيث لو وقع يقتضي وقوع حكم آخر اقتضاء ضرورياً... ويتم التّمييز بين الملازمة العقلية والملازمة العادية والملازمة المطلقة، هاته الأخيرة تعني كون الشيء مقتضياً للآخر، والشيء الأول هو المسمى الملزوم، والثاني هو المسمى باللازم"[1]. وهنا تظهر لنا تلك الصلة التي لا تقبل الانفكاك بين اللازم في سياقنا هنا، وهو المدلول اللغوي، والملزوم، وهو الإبداع المفهومي

---

١. الجرجاني، الشريف علي بن محمد، **التعريفات**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥، مادة الملازمة، ص٢٢٩.

في الفلسفة، فلا إبداع من غير تلاحم المعنى اللغوي والمدلول الاصطلاحي؛ لأنَّ أيَّ مفهوم يريد أن يبدع ويثمر قيماً فكرية أو قيماً عملية، لا بد له من أن يتأصّل في المجال التداولي بخاصة في المستوى اللُّغوي، لأن ّ اللغة هنا تحيل إلى مقام التواصل والتفاعل بين أشخاص كاسبين لتراث مخصوص، أو لِنَقُل أشخاص تربط بين قلوبهم روابط اعتقادية ولغوية وقيمية، أو جماعة، أجمعت على كليات لغوية وقيمية واعتقادية، ترسم لها خصوصية عطائها وميزة إنجازها وتأثيرها في العالم. و"إنّ في هذا المشترك يكمن كنه الجماعة وجوهرها، وبه تتميّز عن غيرها، ومنه تبدأ وتنطلق في نهجها أو سلوكها أو فعلها اللغوي والعملي والعلمي. وانتساب فرد من الأفراد إلى جماعة معينة ما هو إلّا اتباع وانقياد واهتداء بالمُشترك الذي يمثل كنهها وجوهرها وميزاتها ومبدأها ومنطلقها"[١].

ب. **المعنى اللّغوي:** المعنى قبل اللُّغوي، كلمة متعدّدة الدلالات، إذ إنها تبدأ من النص، وتنتهي إلى العالم كما يبتغي البعض في الوصل بين الكلمة والوجود[٢]، أما كلمة المعنى فلها استعمالات مطلقة ومقيّدة، وبيان ذلك أن المعنى مطلقاً "هو ما يقصد بشيء، وأما ما يتعلّق به القصد باللّفظ فهو معنى اللّفظ. ولا يطلقون المعنى على شيء إلا إذا كان مقصوداً، وأما إذا فهم الشيء على سبيل التبعية فهو يسمى معنى بالعرض لا بالذّات. والمعنى هو المفهوم من ظاهر اللّفظ والذي تصل إليه بغير واسطة. ومعنى المعنى هو أن يعقل من اللّفظ معنى ثم يفضي ذلك المعنى إلى معنى آخر"[٣]، وكأن ثمة طابعاً تراتبياً مركّباً في بنية المعنى

---

١. النقاري، حمو، **منطق تدبير الاختلاف من خلال أعمال طه عبدالرحمن**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٤، ص٧.

٢. انظر: عياشي، منذر، **القرآن من النص إلى بناء العالم**، دمشق: نينوى، ٢٠١٥.

٣. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، **الكليات**، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠١٦، مادة المعنى، ص٧١٠.

ذاته، وطابعاً متنقلاً بين الكلمات والأشياء. ويزيد الكفوي في رسمه قائلاً: "واللفظ إذا وضع بإزاء الشيء فذلك الشيء من حيث يدل عليه اللفظ يسمى مدلولاً، ومن حيث يعنى باللفظ يسمى معنى، ومن حيث يحصل منه يسمى مفهوماً، ومن حيث كون الموضوع له اسماً يسمى مسمى، والمسمى أعم من المعنى في الاستعمال؛ لتناوله الأفراد"[١]. وجلي أننا لو شئنا الاختزال المتمثل في كلمة يعني لكان القول بأنه يستعمل "لتضمين علاقة مباشرة مبسّطة بين الكلمات والأشياء، والعبارات والأحوال"[٢]، وإذا كانت هذه المدلولات للمعنى تحيل إلى محددات كلية وشكلية، يمكن أن توفي باللغة الإنسانية بما هي ذات بعد كوني، فإن سياقنا التحليلي يعني أهمية إدخال المدلول اللغوي كمقوم من مقومات المفهوم الفلسفي، لأن هذا الوجه من اللغة، لا يدخل في العنصر العلمي الخالص العابر للأنساق اللغوية، وإنما هو وجه من وجوه المدلول الذي يتصل بنظام لغة معيّنة، وكأن اللغة هنا نظام معرفي له قوته التي يبني بها الأنساق الفكرية والتدبيرات العملية، ولو أن محمد عابد الجابري قد حدد الحقيقة لما اعتبر اللغة نظاماً معرفياً يتملك الوجود وألغى تكامليته مع الأنظمة المعرفية الأخرى التي اختزلها بدوره في المعايير السياسية لقلنا قولته "أن اللغة سلطة مرجعية لاشعورية ولكن قاهرة وأن اللغة تؤثر في طريقة رؤية أهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له وبالتالي في طريقة تفكيرهم"[٣].

---

١. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى، **الكليات**، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠١٦، مادة المعنى، ص٧١٠.

٢. انظر: أوغدن وريتشاردز، **معنى المعنى، دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية**، ترجمة كيان أحمد حازم يحيى، بيروت، ص٧٩.

٣. الجابري، محمد عابد، **التراث والحداثة، دراسات ومناقشات**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩١، ص١٥٧/١٥٨.

ج. **الإبداع المفهومي:** السّائد عن معنى الإبداع، بخاصة في الاصطلاح الفلسفي أنه ذو صلة مباشرة بالبعد الأنطولوجي/ الكياني؛ حيث إن حد الإبداع هو "اسم مشترك لمفهومين: أحدهما تأسيس الشيء لا عن مادة ولا بواسطة شيء، والمفهوم الثاني أن يكون للشيء وجود مطلق عن سبب بلا توسط، وله في ذاته أن لا يكون موجوداً؛ وقد أفقد الذي له في ذاته إفقاداً تاماً. وبهذا المفهوم، العقل الأول مبدع في كل حال؛ لأنّه ليس وجوده من ذاته العدم، فله من ذاته العدم، وقد أفقد ذلك إفقاداً تاماً"[١]. كما يرد معنى الإبداع أيضاً في سياق المعاجم الفلسفية المعاصرة بمدلول إضافي؛ فهو وإن قضى بمحدودية الإنسان في مشاكلته للإبداع الأنطولوجي الذي هو خاصية إلهية؛ فإنه دلل على أن اتفاق معظم المفكرين على أنّ "الإبداع هو إنتاج شيء ما على أن يكون جديداً في صياغته، وإن كانت عناصره موجودة من قبل كإبداع عمل من الأعمال العلمية أو الفنية أو الأدبية... وتتوزع القدرات الإبداعية على ثلاثة مظاهر أساسية للنشاط العقلي الإبداعي: مظهر استقبالي، يظهر في تلقي ضغط المشكلات التي تدفع العقل لإيجاد الحلول لها، ومظهر إنتاجي يظهر القدرة على الإبداع الفكري أو العلمي، وهنا ثلاث مواصفات: الطلاقة والمرونة والأصالة، ومظهر تقويمي، يظهر في تحصيل القدرة على التقويم ووزن الأفكار والسلوكات والأحداث على محك المعايير الصحيحة"[٢]. ولما كانت المفاهيم هي أحد أبواب الإبداع، فإن قصدنا هنا بالإبداع المفهومي، تحصيل القدرة على الإتيان بمفاهيم إبداعية لا اتباعية، لأن الاتباع هو تقليد خطى الآخرين التي سلكوها، وحشر العقول في

---

١. انظر: الأعسم، عبدالأمير، **المصطلح الفلسفي عند العرب**، الجزائر، تونس: المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار التونسية للنّشر، ١٩٩١، ص٣٢٦.

٢. **الموسوعة الفلسفية العربية**، إشراف معن زيادة، بيروت: مركز الإنماء القومي، مادة إبداع ص١٦.

الطرق التي سلكوها، والعجز عن مغادرة التَّرسيمات والمفاهيم التي تعكس في الأصل خصوصية المجالات التَّداولية، فالمفهوم يسكن في المجال التداولي للفيلسوف كما يسكن هذا الفيلسوف في العالم.

**ثانياً. الإجراء المنهجي العلمي للنّظر في بنية المفهوم الفلسفي:**

لا شك بأنّ من يقرأ السَّائد من مناهج قراءة الفلسفة في الخطاب العربي المعاصر، يجد أن الغالب عليها هو اجتراحها الأساليب المقتبسة من الفضاء المعرفي الغربي؛ واستغراقها ضمن صورة الخطاب الفلسفي الدَّاخلي نفسه، فهناك من يطبق على الفلسفة منهجاً ومضموناً؛ معطيات التَّحليل المادي للظّواهر، فتتبدّى باعتبارها أطيافاً مُصَعَّدة من الحياة المادية للنّاس، وهناك من يتقفَّى أسلوب التَّحليل المنطقي الوضعي للقضايا والمفاهيم، فيدمغ ما يراه قضايا زائفة أو خالية من المعنى، والبعض الآخر يصل بين الفلسفة باعتبارها خطاباً، والمؤسسات القائمة، اعتقاداً منه أن الفكر لا يوجد خارج المؤسسة، وذلك وفق منهجية حفرية تلاحق الأصول الإرادية التي فاهت بالأفكار من منظورها التّأويلي ورهانها الحيوي؛ والفكرة الثَّاوية خلف تبني هذه المناهج، هو أن نسلك دروب الغربيين في قراءة الفكر الفلسفي، فإذا ما كانت الزمرة المادية ترد المثالي إلى الواقعي، والزمرة الوضعية المنطقية ترد الميتافيزيقي إلى الزائف، والزُّمرة المابعدحداثية ترد المعرفي إلى التاريخي والتّأويلي، فما على العقل العربي كي ينخرط في هذا الفضاء المنهجي إلا أن يقرأ أفكاره ويباشر فعله الفلسفي وفق هذا المقتضى؛ حتى لا يوصف بالتخلف عن ركب الحضارة أو الحداثة الفكرية؛ وبالتالي يدخل ضمن مقولة الفَوات التاريخي الفكري.

إنّ هذه الإجراءات المنهجية في القراءة يطبعها روح السَّلب والنّفي، بمعنى أنها دائماً ترد الفعل الفكري الفلسفي إلى مصادر أخرى خارج هذا الأسلوب في

التفكير؛ ولا تتجرأ على أن تعلمنا طريقة تأخذ باليد إلى روح التفلسف، فعلى فرض أنّها سلكت مسالك المناهج التي أشرنا إليها؛ فإنها لا تقدر على شق درب فكري آخر، يختلف عن تلك الدُّروب، بل هي دوماً في حيّز الانتظار لما يدفع به الفضاء الفلسفي "الكوني/ الغربي" من إشكالات واستدلالات تقدمها للجمهور على أنّها فلسفة خالصة. وبالتالي لا هي تقدم لنا كيفيات حدوث هذا الإبداع عند هؤلاء المجتهدين، ولا هي تقدّم لنا دليلاً يبصّرنا بكيف نعيش تفلسفنا، ونصنع مفاهيمنا، ونَقْوى على الدُّخول بها إلى فضاء الكونية القَصْدِية.

وتداركاً لهذا الفراغ المنهجي التَّأسيسي الذي ابتلي به العقل العربي؛ نهضت جهود نوعية وفي طليعتها الفيلسوف المغربي طه عبدالرحمن[1]؛ لكي يقدم منهجاً منهجاً جديداً في قراءة الظواهر الفلسفية، وضع له اسم "فقه الفلسفة"، ومجدداً على ضوئه السؤال عن ماهية الفلسفة، التي جرى ترسيخها باعتبارها دوام السؤال أو ممارسة السؤال؛ نظراً لما يتضمنه السُّؤال من طلب للمعرفة وتداع للأسئلة المتوالدة بعضها عن بعض، بينما يعترض طه عبدالرحمن على هذا التعريف الشائع، وبيان ذلك أنَّ تحديد الفلسفة "بدوام السؤال يؤدي إلى تناقضين اثنين: أحدهما، أنّها تكون جواباً بعدم الجواب حيث ينبغي الاكتفاء بوضع السؤال، بمعنى الجمع بين حصول الجواب ووجوب السؤال؛ والثاني، أنّها تكون سؤالاً لوجود السؤال حيث ينبغي الامتناع عن اتخاذ القرار، بمعنى الجمع بين ادعاء العلم وضرورة الجهل"[2]. والغرض هنا، هو البحث عن مسلك آخر غير

---

١. أخذنا نموذج طه عبدالرحمن هنا، وما يلي في سائر التحليل، لأن منهجه الذي قرأ به القول الفلسفي، يتماثل والآلة اللسانية في قراءتها للواقعة اللسانية، فضلاً عن علمية المبحث الذي يتبناه، وهذا الطريق المنهجي هو الأخلق برصد ووصف وشرح بنية القول الفلسفي.

٢. عبدالرحمن، **طه، فقه الفلسفة، ج١، الفلسفة والتَّرجمة**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥، ص١٣.

فلسفي، يحيط بالقول الفلسفي إحاطة كلية من الخارج، وليس البقاء في المضمون من الدَّاخل؛ وما هذا الذي يحيط بالقول الفلسفي ويتجاوز السؤال عن ماهية الفلسفة بالإجابة عن كونها أسئلة؛ سوى صنف آخر من الأسئلة لا يجانس المضمون الفلسفي، هو السُّؤال العلمي، لأن السُّؤال العلمي هو نظر من أعلى وسؤال عنها، بينما السؤال الفلسفي هو دخول من الأسفل وسؤال فيها ومتحد معها، ومن المعلوم أنّه لا يحيط بالشيء إلا من يقع خارج دائرة ذلك الشيء.

وتبعاً لهذا، فإن السؤال الأصلي "ما الفلسفة"، سيصبح بعد استبانة حدود السؤال الفلسفي سؤالاً علمياً "وعلى هذا، يتوجّب علينا وضع أصول هذا العلم المحيط بالفلسفة، بحيث يتولّى دراسة الفلسفة بوصفها جملة من الظّواهر الإنسانية الأخرى التي ننظر فيها، طلباً لاستخراج أوصافها وأحكامها، متوسلين في ذلك بإجراءات منهجية محدّدة ونظريات علمية مقرّرة"[١]، والسؤال العلمي عن الفلسفة هو ما يجيبنا عنه علم "فقه الفلسفة"، الأداة المنهجية الإجرائية التي تماثل لفظياً فقه اللغة، على اعتبار أن طه عبدالرحمن ينظر في موضوعه، كما ينظر اللّساني إلى موضوعه اللُّغوي أيضاً، إنها شكل من أشكال الاستكشاف العلمي للظَّواهر الفلسفية؛ ووقوف على التّقنيات التي يتم تشغيلها أثناء ممارسة هذا النَّمط من التفكير، فتتبدّى "الظّواهر الفلسفية بوصفها وقائع ملموسة واردة في لغات خاصة وناشئة في أوساط محدّدة وحادثة في أزمان معيّنة وحاملة لمضامين أثّرت فيها عوامل مادية ومعنوية مختلفة"[٢].

وهذه القوانين النَّاظمة للقول الفلسفي، أي اللُّغات المُعَبّرة والأوساط الحاضنة والأزمان المتلقية، والعوامل المادية والمعنوية المؤثرة، هي التي غابت

---

١. عبدالرحمن، طه، فقه الفلسفة، ج١، الفلسفة والتَّرجمة، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥، ص١٤.

٢. المصدر نفسه، ص٢٠.

عن المتفلسفة المسلمين العرب الأوائل، الذين نقلت إليهم مضامين القول الفلسفي؛ نقلاً أبان عن هذه المضامين، لكنّه لم يُفصح عن الأسباب الفاعلة في هذه المضامين؛ وفاتهم هذا التّمييز المفصلي، فوقعوا في آفات التَّبعية والتّقليد، والجمود على ظاهر المنقول الفلسفي، بينما يأتي هذا الفرع العلمي الجديد أي فقه الفلسفة؛ لكي يدل المتفلسف على طريق الكشف عن الأسباب التي تثوي وراء التصورات وبناء هذه الأحكام، فيقتدر على استثمار ما يقابلها من الأسباب في مجاله التّداولي، منشئاً بذلك تصورات وأحكاماً تنافس المنقول، استشكالاً واستدلالاً"[1].

وإذ تبيّن هذا، فإنّ فقه الفلسفة هو الطَّريق الذي يأخذ باليد إلى العلم بالأسباب التي توصل إلى معرفة قوانين التفلسف أولاً؛ وإلى الاختصاص بمفاهيم فلسفية إبداعية؛ لا تكون بتقليد خطى الآخرين؛ وإنّما بفتح دروب جديدة في العلم والعمل.

**ثالثاً. مواصفات فقه الفلسفة في أبعاده المنهجية**

١. **الصّبغة العلمية لفقه الفلسفة:** أشرنا سابقاً إلى خصوصية النّظر إلى القول الفلسفي؛ من جهة أنّه قولٌ علمي على القول الفلسفي؛ والعلمية التي تبناها طه عبدالرحمن هي العلمية في صورتها اللّسانية، فالفلسفة هنا واقعة لغوية، لزم "استكشافها المعرفي على طريقة العلماء كما نجد ذلك عند اللّسانيين في تعاملهم التقني مع الظّواهر اللُّغوية... فإذن قصدنا هو أن ننظر في المفاهيم الفلسفية نظر "فقيه الفلسفة" لا نظر "الفيلسوف"[2]. والكَسْب المنهجي الذي نظّر له طه

---

١. عبدالرحمن، **طه ، فقه الفلسفة ،ج١ ، الفلسفة والتّرجمة**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥، ص٢٤.

٢. عبدالرحمن، طه، **فقه الفلسفة، ج٢، القول الفلسفي كتاب المفهوم والتأثيل**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٩، ص١-١١٩.

عبدالرحمن ارتكازاً على فقه الفلسفة؛ ليس إنجاز فلسفة بعينها، وإنما التّبصير بطرق التفلسف الصحيحة؛ يقول في هذا المقام: "وأنا لم أشتغل في مؤلفاتي بوضع فلسفة مخصوصة بقدر ما أشتغل ببيان الطريق الموصل إلى وضعها متى أراد العربي أن يكون متفلسفاً أصيلاً، فإذن لغتي هي إلى اللغة العلمية أقرب منها إلى اللغة الفلسفية، واللغة العلمية لغة خاصة"[1]. فالوظيفة التي أسندها طه عبدالرحمن إلى هذه الأداة المنهجية؛ إخراج المتفلسف العربي، من طور تحصيل أغراض ومقاصد الفلاسفة؛ إلى طور تعليل هذه الأغراض.

من هنا كان من الأوكد تمييز هذا المشروع العلمي عن غيره من المناهج السائدة في الفكر الغربي والصَّدى الذي تركته في الفكر العربي المعاصر؛ إذ إن فقه الفلسفة ليس هو منهج الحفريات الذي عرف صيغته مع الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، لأن فقه الفلسفة قول علمي بينما منهج الحفريات قول تمهيدي للعلوم، ووصف لشبكة تركيبها وأوجه علاقاتها، كما أنّه مُفارق للمنهج التّفكيكي؛ إذ إنّ التفكيك منحصر في النص الأدبي؛ ويتبنى مسالك التحليل الأدبي، بينما فقه الفلسفة يجد دوماً مستنده في الخطاب العلمي ويعطي القيمة للعمل وليس للخطاب المكتوب؛ كما يُباين النّظر التأويلي من جهات عدّة، فإذا كان التأويل ينتهج الفهم، فإن فقه الفلسفة يسلك منهج التّفسير؛ ويعد التكامل بين العلوم وصفاً منهجياً في فقه الفلسفة، في حين أنّ التأويل، لا يكامل بين العلوم، بقدر ما يستند عليها كي تكون أدوات في رؤيته وأغراضه. وهكذا، ليس من الأنسب حشر فقه الفلسفة ضمن هذه المناحي الفكرية، أو اعتبار فقه الفلسفة شكلاً من أشكال الالتفاف على منهج من هذه المناهج، فما بينه وبينها من الاختلاف لا يحصيه إلَّا المقتدرون

---

١. عبدالرحمن، طه، **حوارات من أجل المستقبل**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنّشر، ٢٠١١، ص٤٥/٤٦.

على الغوص في أعماق الفكر واستخراج لباب فقه الفلسفة، بما يفارق جذرياً هذه الجهود الفكرية المنهجية التي تعكس الفضاء الفكري الغربي وإشكالاته وهمومه الحضارية وشبكة المعارف والفُهوم التي تتنزّل في سياقها وتحمل آثار تاريخها وتتشرب قيم الغرب في مضمونها. والذي حمل طه عبدالرحمن على إسكان فقه الفلسفة ضمن العلم وليس الفلسفة؛ هو المخزون التَّكويني والرَّصيد المعرفي الذي شكَّل البنية الفكرية والعلمية لآرائه، وفي طليعتها ضرورة تحرير القول الفلسفي من التبعية والتّقليد.

**٢. الصّبغة التكاملية لفقه الفلسفة:**

إن التكامل كصورة منهجية، يعد دعامة أساسية من دعامات المشروع بعامة؛ وفقه الفلسفة بخاصة، وبيان ذلك أن جهود طه عبدالرحمن في إبطاله للقراءات التفاضلية والتسيسية للتراث، كانت تقصد استعادة التَّكامل المبثوث في التراث المعرفي؛ ونقده للعقلانية المجرّدة كان القصد منه استعادة روح التَّكامل بين ملكات الإدراك الإنساني؛ ولما كان التراث في صورته المنهجية أو الآلية في منظور طه عبدالرحمن، يمدنا بالقيم التي تنتج، أكثر من قيم الحاضر السائدة التي لا تنتج؛ فإن التَّكامل بين العلوم حاصل باعتبارها بنية أصلية في العلم التراثي؛ قد استعادت قيمتها التفسيرية في مشروع فقه الفلسفة، الذي كما أشرنا يُفارق المنهجيات المتداولة في حقول الفلسفة مثل: التَّأويليات والحفريات والتّفكيكيات؛ وإذ تقرّر هذا، فمن اللّازم أن نصرف القول في حقيقة التَّكامل كمبنى منهجي من مباني فقه الفلسفة؛ وما هو النّموذج العلمي الذي يمكن بسطه كمعيار أمَثَل وفَّى بقانون النَّسيج التَّكاملي والتّداخلي بين العلوم؟.

من اللّافت للنّظر أن فقه الفلسفة تأتلف فيه العلوم ائتلافاً تكاملياً؛ تحقيقاً لغرض الوقوف على صورة ومضمون الأقوال الفلسفية، وبيان هذا "أنّ منهج فقه

الفلسفة يستمد عناصره من آفاق معرفية متنوعة؛ فالنّظر في صيغ أقوال الفيلسوف يتطلّب التوسُّل بأدوات علم المنطق وعلم اللّسان وعلم البلاغة، والنّظر في مضامين هذه الأقوال يقتضي الاستعانة بعلم التاريخ وتاريخ العلم وتاريخ الأفكار، والنّظر في أفعاله يوجب الالتجاء إلى علم الأخلاق وعلم النّفس وعلم الاجتماع وحتى علم السياسة؛ وتحتاج هذه العناصر المأخوذة من مجالات علمية متفرقة إلى أن تأتلف فيما بينها ائتلافاً... حتى تكون أبواباً متناسقة ومتداعية ينتظم بها منهج الفلسفة، ويتوحد بها منطقه"[١]، وجلي أمام هذا، أن مباني المنهج تتعدَّد فيها العلوم وتتفاعل فيما بينها، ويبدو أن المبرر وراء هذا الإقرار بالطابع التّكاملي لمنهج فقه الفلسفة تصريف الفكر إلى ما يلي:

❖بيان حدود القراءات الاختزالية للفكر الفلسفي؛ بخاصة تلك التي تأخذ بجانب واحد من جوانب التفلسف وتفسر به مضموناً فلسفياً معيناً، كاختزالها التفلسف في البعد النفسي، أو السياسي، أو الاجتماعي، أو أي مفهوم واحد أعمى يُرَدُّ إليه الكلُّ وينسب إليه، بينما تطالعنا الابستمولوجيا التّركيبية المعاصرة، بالتركيبة المعقدة للكينونة الإنسانية في كافة أبعادها؛ وللمنظومة الفلسفية على وجه التّخصيص، يقول إدغار موران: "الفلسفات الكبرى هي مفاهيم شديدة الغنى والتَّعقيد، وغالباً ما تكون متعدّدة النّوى، وتسعى إلى الرّبط بين الفيزيائي والميتافيزيائي وبين المعرفة والأخلاق وإلى تخاصبهما... المنظومات الفلسفية هي في المحصلة شديدة التّعقيد، بحيث توفر إمكانية تفكيرية ونقدية تجعلها قادرة على النّظر في المنظومات الفكرية الأخرى والنّظر في نفسها"[٢].

---

١. عبدالرحمن، طه، **فقه الفلسفة ،ج١ ،الفلسفة والترجمة**، مصدر سابق، ص٢٠/٢١.

٢ . موران، إدغار، **المنهج ،ج٤ ،الأفكار: مقامها ، حياتها ، عاداتها وتنظيمها**، ترجمة جمال شحّيد، بيروت: المنظمة العربية للتّرجمة، ٢٠١٢م، ص٢٠٩.

❖إن ما كان في ذاته متعدداً، فإن المقتضى المنهجي هو أن يكون المنهج هو الآخر متعدداً كذلك، فالقاعدة المنهجية المشهورة تقرُّ بأن طبيعة المنهج من طبيعة الموضوع، وأن فعالية وإنتاج الآلة المستعملة في مقاربة الموضوع، مشروطة بتوفرها على خصوصيات تناسب الخصوصيات الذّاتية للظاهرة، وهكذا، فـ"الظَّاهرة الفلسفية لا يمكن ردّها إلى واقعة ذات وجه واحد؛ فليست هي ظاهرة معرفية صرف ولا ظاهرة لغوية محض، ولا هي ظاهرة تاريخية خالصة ولا ظاهرة سياسية بحتة، ولا هي ظاهرة اجتماعية صرَف ولا ظاهرة نفسانية محض، بل هي واقعة متعدّدة الوجوه تعدّد مدلول الفلسفة ومتَّسعة الأبعاد توسُّع مجال التّفلسف"[1]. لكن هذا التعدد في المناهج كوصف ملازم لمنهج فقه الفلسفة، لا يعني أن يكون التعدد غرضاً في نفسه، وإنما التَّعدُّد المنهجي كخادم لقصد تحصيل الفهم التكاملي للعناصر التي يتركّب وفقاً لها النص الفلسفي.

❖بيان أثر المحددات اللغوية والمنطقية، والجوانب الاجتماعية والسياسية في نسيج النّص الفلسفي؛ أو بلغة الابستمولوجيا التّركيبية أثر الثقافة في تشكيل المعرفة بعامة، والفلسفية منها بخاصة، فهناك تفاعل بين الثقافة والمعرفة؛ "فالثقافة تشارك في إنتاج الواقع الذي يدركه ويتصوره كل إنسان. لا تخضع إدراكاتنا لرقابة الثوابت الفيزيولوجية والنفسية فقط، بل تخضع أيضاً للمتغيّرات الثقافية والتاريخية...تنتظم المعرفة الفكرية بحسب البراديغمات التي تختار الأفكار والمعلومات وترتبها وتستبعدها، وحسب الدّلالات الأسطورية والإسقاطات الخيالية أيضاً...الثقافة تنشئ المعارف والمعارف تنشئ الثقافة"[2]. وهذا البعد الذي تؤثر به الثقافة أو بلغة طه عبدالرحمن الفلسفة الطبيعية أو ثقافة

---

١. عبدالرحمن، طه، **الفلسفة والترجمة**، مصدر سابق، ص٢١.

٢. موران، إدغار، **الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها**، مرجع سابق، ص٣٢/٣٣.

الجمهور، على الفلسفة الصناعية أو المعرفة العلمية، تكشفها المنهجية التكاملية لفقه الفلسفة، وتفصل بين ما هو طبيعي مخصوص بالمجال التداولي الأصلي، وما هو صناعي معرفي يمكن بعد تطوير نموذج في التركيب أن نحدّد كيفية الاستفادة منه.

وبعد بيان جوانب الاستفادة من فقه الفلسفة في بعده المنهجي التَّكاملي، ما هو العلم الذي يمكن المقارنة بينه وبين هذه المنهجية الخاصة بفقه الفلسفة؛ والذي اتخذه طه عبدالرحمن شاهداً أمثل على فاعلية التَّكامل ضمن العلم الواحد ولماذا هو تحديداً؟

يرى طه عبدالرحمن أن "المقصود بالتّكاملية الجمع بين شعب علمية مختلفة في تركيب متآلف ومتماسك؛ فلا يخفى أن علم الأصول يتضمّن أبواباً مستمدّة من علوم مستقلة بنفسها؛ ما جعل المختصّين في هذه العلوم المستقلّة يتوجّهون بأنظارهم إلى هذا المبحث الإسلامي الجامع، ويُنزلون عليه مفاهيمهم النّظرية وآلياتهم الإجرائية، اختباراً لثرائه وإظهاراً لقيمته"[1]، فعلم الأصول كما جاء في النص المذكور، ينزل منزلة الدليل النموذجي الذي تتداخل فيه العلوم، وهذا يتجانس مع روح "النّزعة التّكاملية التي كانت تطبع النّظرية التراثية للمعرفة؛ فقد كانت هذه النّظرية مبنية على الاقتناع التام بتقارب العلوم وتشابهها، وبفائدة ترتيبها حتى تبرز علاقات هذا التّقارب والتّشابه...وأما عن درجة تفاعل العلوم، فلم يكتف علماء الإسلام بالقول بتدرّج العلوم فيما بينها، بل

---

١. عبدالرحمن، طه، **سؤال المنهج، في أفق التّأسيس لأنموذج فكري جديد**، جمع وتقديم رضوان مرحوم، بيروت: إبداع، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ٢٠١٥م، ص٢٦٩.

أقرّوا بمشروعية تفاعل العلوم بعضها مع بعض، وتشابك العلاقات بينها؛ فالمباحث الكلامية تتفاعل مع المباحث اللّغوية والبلاغية والفلسفية، كما تتفاعل المباحث المنطقية مع المباحث اللغوية والأصولية، وهكذا"[1].

تبيّن إذن، أن الوصف التَّكاملي لمنهج فقه الفلسفة؛ يماثل منهج أصول الفقه، والمتصفح لأصول الفقه يجد شواهد قوية على مشروعية التركيب المنهجي في منهج فقه الفلسفة؛ على نسقية أصول الفقه، ذلك أنّ هذا الأخير نجده يشمل أبواباً مختصة؛ منها باب المناهج (أو الميتودولوجيا) الذي عبّر عنه الأصوليون بطرق الاستنباط وترتيب الأدلة، وباب فقه العلم (أو الابستمولوجيا) الذي بحث في فلسفة التّشريع ذات المنزع العملي، ويسمي الإمام الشاطبي هذا الباب بـ"فقه الشّريعة"، وباب اللغويات الذي يختصُّ بدراسة أصناف الدّلالات وعناصر الكلام، وباب المنطق الذي يدرس قوانين الأحكام وقوانين الاستدلال، وباب الحجاج الذي يُعنى بقوانين الجدل والمناظرة وغيرها من الأبواب"[2]. والقصد من هذا، لفت العقل الذي يبتغي الاجتهاد إلى أهمية أن يحذِق علوم الآلة التي تنتج المضامين الفكرية؛ وبالتالي إعادة تفعيل الاتصال بالطرق القويمة التي سلكها المبدعون من علمائنا في الحضارة الإسلامية.

**٣. الصّبغة العملية لفقه الفلسفة:**

إن هذه الصّبغة بالنّسبة إلى طه عبدالرحمن، ذات أهمية مخصوصة، وتتجلى مخصوصيتها في دلالة لفظ الفقه الواردة، ففضلاً عن أن الفقه يقتضي

---

١. عبدالرحمن، طه، **تجديد المنهج في تقويم التراث**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٢، ص٢- ٩٠.

٢. عبدالرحمن، طه، **سؤال المنهج**، مصدر سابق، ص٢٧٠.

زيادة التأمل في الموضوع، سبراً لأغواره وتعليلاً لإنتاجه، فإن تضمين البعد العملي في الفقه كمقوم صريح في الممارسة التراثية، قد دفعه إلى الدمج بين الفقه كعلم عملي، والفلسفةِ كنظر استدلالي؛ والانتقال من القيمة المركزية للعمل في المجال التداولي الإسلامي؛ إلى القيمة العملية في الممارسة الفلسفية، فالفلسفة ليست بناءات استدلالية مجرّدة، أو عقلاً برهانياً مجرّداً؛ فالعالم لا يُدْرَكُ فقط بالتَّصوُّر، وإنّما يُدْرَكُ ويُعاد بناؤه بالعمل الصَّدوق، والمُخْلص أيضاً؛ الذي يرتفع بالسُّلوك من دائرة العبث إلى دائرة المعنى، ومن دائرة السُّلوك الاعتيادي إلى دائرة السُّلوك الارتقائي، من هنا، "لا بد للفلسفة من أن تكون مصحوبة بالعمل، بحيث لا تنفك عن التأثُّر والانفعال به، حتى يفتح فيها العمل آفاقاً جديدة لم تكن تخطر على بال الفيلسوف لمّا كان نظره مجرّداً ومستقلاً عن العمل؛ فما من شك أنّ العمل يؤثّر في النّظر، ويتجلّى ذلك في أنّه يكتسب، بفضل هذا التّأثير، أبعاداً جديدة، وتنفتح فيه أبواب لتجديد المعرفة غير مسبوقة، وتظهر فيه مسالك استدلالية غاية في الدقة، بحيث ينشئ العمل استدلالات واستشكالات جديدة في النّظر"[1].

وإن هذا التأكيد على الجانب العملي كركيزة أساسية من ركائز فقه الفلسفة؛ يجعل مسلك طه عبدالرحمن في علاقة متناوئة مع المسالك البرهانية التي لا ترى أثراً للتّجربة العملية في صورتها الرُّوحية على المُمَارسة العقلية؛ بل تقطع التَّكامل بين النّظر والعمل وتفاضل بين هذين المستويين؛ وعن هذه الحقيقة

١. عبدالرحمن، طه، **الحوار أفقاً للفكر**، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنّشر، ٢٠١٤م، ص٤٦.

يُفصح طه عبدالرحمن قائلاً: "وفي هذا أخالف تماماً ابن رشد ومن قبله ابن باجة إذ ظنَّ أنّ التّجربة الصوفية، لما كانت عملية، فإنّها لا تنفع المعرفة النّظرية في شيء، وذلك لتقريره –تقليداً لأرسطو– الفصل بين النّظر والعمل، وهذا في غاية الفساد؛ إذ العمل، كائناً ما كان، لا ينفكُّ يفعل ويؤثّر في النّظر، والنّظر لا ينفكُّ يوسّع وسائله وينمّي بنياته تحت هذا التّأثير العملي"[1]. وارتكازاً على هذه النَّظرة في فهم الأمور، فإنَّ الظَّاهرة الفلسفية ليست قولاً فحسب، بل هي في اتصال مع الأبعاد الإنسانية الأخرى "بحيث لا اعتبار بقول الفيلسوف، حتى ننظر كيف هو عند الدّليل، ولا اعتبار بدليله، حتى ننظر كيف هو عند العمل، إذ القول بغير دليل في الفلسفة لا يُقبل، والدّليل بغير عمل فيها لا ينفع؛ وعليه، فإن المقتضى النّظري لفقه الفلسفة هو أن تُسند الأقوال إلى الأدلّة وتُسند الأدلّة إلى الأفعال، ولا يجوز قطع بعضهما عن بعض بأيّ حال"[2].

إن طه عبدالرحمن، بتجسيره العلاقة مجدّداً بين النّظر الاستدلالي والالتزام العملي، يكون قد حقّق فائدتين جليتين هما:

❖أولاً. إنهاء التَّعارض بين النّظر والعمل في سياق الفلسفة، واعتبار العمل معياراً في تقويم الأدلة الفلسفية لا يقل قيمة عن التقويم المنطقي؛ وهنا تأتي القيمة الكبرى للعمل في بيان ماهية الإنسان، القيمة التي عندما أخلّ بها بعض الفلاسفة المنتسبين إلى مجال التّداول الإسلامي، تكلَّموا في مسائل ليس تحتها عمل، ولا ترتّب على الخوض فيها عائد أخلاقي ينتفع به الإنسان في

---

١. عبدالرحمن، طه، **حوارات من أجل المستقبل**، مصدر سابق، ص١٣٨.

٢. عبدالرحمن، طه، **الفلسفة والترجمة**، مصدر سابق، ص٣٠.

نظره أو في عمله، وتحقيقاً لهذا القصد وضع طه عبدالرحمن مبادئ مُوجّهة تكون مواصفات للعلم النُّموذجي؛ وهي: مبدأ تقديم اعتبار العمل، ومبدأ العلم المستعمل، ومبدأ العلم النّافع، وهذه المبادئ الموجهة، واضح أن منابعها مبثوثة في المجال التّداولي الإسلامي، وعرفت صورتها التَّحليلية مع أبي إسحاق الشاطبي في رائعته الخالدة "الموافقات في أصول الشريعة"، الذي جعل من المقدمة الخامسة من كتابه المذكور قانوناً في فلسفة العمل، ويقضي هذا القانون بأن "كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل: عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعاً"[1]. وهذه المقدمة تسعى لأن تجعل العلم موصولاً أكثر بالجانب التكليفي؛ ولما كانت أداة العلم السؤال؛ فإن الفيلسوف لا يهيم في أي سؤال، ولا يجيب عن أسئلة ليست له فيها فائدة، "وعامة المشتغلين بالعلوم التي لا تتعلّق بها ثمرة تكليفية، تدخل عليهم فيها الفتنة والخروج عن الصّراط المستقيم، ويثور بينهم الخلاف والنّزاع المؤدّي إلى التقاطع والتّدابر والتعصُّب... ولم يكن أصل التفرّق إلا بهذا السّبب، حيث تركوا الاقتصار من العلم على ما يعني، وخرجوا إلى ما لا يعني، فذلك فتنة على المتعلّم والعالم، وإعراض الشارع -مع حصول السؤال- عن الجواب من أوضح الأدلّة على أنَّ اتباع مثله من العلم فتنة أو تعطيل للزّمان في غير تحصيل"[2]، وكانت صورة الفلاسفة عند أهل النّظر المسدّد بالعمل في التَّداول الإسلامي، صورة المنقطع عن العمل الذي تنحصر

---

١. الشاطبي، أبو إسحاق، **الموافقات في أصول الشريعة**، ج١، تحقيق عبدالله دراز، القاهرة: دار الحديث، ٢٠٠٦، ص٣٢.

٢. المصدر السابق، ص٣٥.

السَّعادة عنده في تعقّل الموجودات؛ وشواهد هذه الحقيقة كثيرة، منها قول أبي الحسن العامري "أن فرقة من الفلاسفة...قد ادّعو أنّ المبرّز في العلوم لن يلزمه شيء من وظائف العبودية، غير الهداية للخلقية، وأنّ العاقل منا، ليس يلزمه، اقتباس العلم ليُتوصّل به إلى الأعمال الصالحة...ونحن نقول: كل من آثر لنفسه هذه العقيدة، فقد ارتكب خطأ فاحشاً، فإنّ العلم مبدأ للعمل، والعمل تمام العلم، ولا يُرغب في العلوم الصالحة، إلا لأجل الأعمال الفاضلة"[١]. ويقول الشاطبي "أن تتبع النّظر في كل شيء وتطلّب علمه من شأن الفلاسفة...فاتباعهم في نحلة هذا شأنها خطأ عظيم، وانحراف عن الجادة، ووجوه عدم الاستحسان كثيرة"[٢]. ونظراً لهذه القيمة المعتبرة للعمل في مجال التداول الإسلامي؛ جرى صرف دلالة النّظر المقتصرة على باب القول، ودلالة العمل المقتصرة على الفعل، إلى وجه جديد "يوافق المقتضى العملي لهذا المجال، إذ أضحى النّظر مندرجاً في باب "أعمال القلب"، والعمل مندرجاً في باب "أعمال الجوارح"، وبهذا، تغدو المقابلة بين النّظر والعمل في مجال التداول الإسلامي، مقابلة بين نوعين من العمل: العمل القلبي؛ والعمل القالبي، ولا شك أنّ التّبديل لوجه هذه المقابلة، هو عبارة عن تصحيح لها... والحال أنّه حيثما يوجد التغيير، فثمة عمل، فلولا أنّ للتّأمُّل قوة العمل، ما أدرك الإنسان بفضله السعادة"[٣].

---

١. العامري، أبو الحسن، **كتاب الإعلام بمناقب الإسلام**، تحقيق أحمد عبدالحميد غراب، السعودية: دار الأصالة للنشر والثقافة والإعلام، ١٩٨٨، ص٧٤/٧٥.

٢. الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة، مصدر سابق**، ص٣٥.

٣. عبدالرحمن، طه، **سؤال العمل ،بحث في الأصول العملية للفكر والعلم**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢، ص١٥.

❖ثانياً. إنماء القول الفلسفي بالعمل، وبناء تراتب آخر، يتحدّد في صورة جديدة، ملمحها الجوهري أنّ كمال القوة النّظرية، من كمال القوة العملية، وهذا يفتح للعقل الآفاق الإدراكية الجديدة، التي تدفع بالفكر إلى الاختصاص بمفاهيم تعكس اختياراته، وأسلوب عيشه للتفلسف على وجهه الإبداعي وبالوجه الذي يريد؛ وثمرة هذا، اتساع الرؤية وتجديد المعرفة، وهنا نكون أمام فلسفة ترى في القوة الروحية دافعاً، ورافعاً، وحافزاً، للممارسة الفكرية، أما الفلسفة التي تبتغي التعقّل المجرّد، من غير عمل مجسّد، فهي كما يصطلح على تسميتها "أبو نصر محمد الفارابي": الفلسفة البتراء، وفيلسوفها هو الفيلسوف الزور، والفيلسوف البهرج، والفيلسوف الباطل، وفي هذا يقول الفارابي أثناء ذكر مواصفات السَّالك الفيلسوف: "أن يكون ورعاً سهل الانقياد للخير والعدل عسر الانقياد للشّر والجور، وأن يكون قوي العزيمة على الشيء الصواب... وأن يكون صحيح الاعتقاد لآراء الملة التي نشأ عليها، متمسكاً بالأفعال الفاضلة التي في ملّته غير مخلّ بكلّها أو بمعظمها... والفيلسوف البهرج هو الذي يتعلّم العلوم النّظرية ولم يُرد ولم يعوّد الأفعال الفاضلة التي بحسب ملة ما، ولا الأفعال الجميلة في المشهورة، بل كان تابعاً لهواه وشهواته في كل شيء أي الأشياء اتّفق"[1]. وهذا يؤكّد أن الأفعال الفاضلة تخصّب العلوم النّظرية، والفيلسوف العملي في فكره وسلوكه، هو ميزان التفلسف الصحيح، ومتى كان الإخلال بهذه القواعد فإن الفلسفة ستصبح فلسفة بتراء.

وإذ تقرَّر هذا الأمر، فإنّ فقه الفلسفة عندما يجعل من الفعل جزءاً من أجزاء موضوعه، فإنّه يروم تعليل البواعث نحو الفعل، أو الوقوف على أسباب إنتاجه، دفعاً بأسباب هذا الإنتاج إلى فضاء المجال التداولي، كي تحصل القدرة

---

١. الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد، **تحصيل السعادة**، تحقيق أحمد فريد المزيدي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤، ص١٢١/١٢٢.

على إبداع ممارسات سلوكية، ملمحها الاختيار المسؤول، والإنجاز النافع للإنسان.

هكذا، إذن تتبدى لنا الفائدة الإيجابية لمشروع فقه الفلسفة، باعتباره رؤية منهجية، تهيئ الفضاء للنّظر في المفهوم نظرة علمية لا فلسفية، وذلك بغرض استخراج قوانين الصناعة المفهومية، وبعدها يكون الانطلاق نحو الإبداع الحر، ويجدر التنويه أن طه عبدالرحمن، يرى بأن الخطاب الغربي، ليس من عاجل حاجاته التنظير للإبداع المفهومي، والتفصيل في رصد كيفياته وصفاته، ومبرر ذلك، أن الفيلسوف الغربي يكابد المفهوم إبداعياً، وينتجه حقيقة لا مجازاً، ولا حاجة له في أن يُفصح عن هذه التقنيات التي يُصنّع بها مفهومه ويقذف به إلى مقامات التداول الفلسفي، بينما الطالب لطريق الإبداع الفلسفي في المجال التداولي العربي، من اللّازم له أولاً، تحصيل العلم بهذه الشروط، كي يكون في رتبة الفيلسوف الغربي المبدع؛ يُصَنّعُ المفاهيم، ويبدع الحقائق، ويزود الفضاء الفلسفي الكوني، باجتهادات فلسفية لا تقل قيمة عن اجتهادات الفلاسفة الآخرين.

**رابعاً: الاستكشاف العلمي للظّواهر الفلسفية: نحو فقه تأثيل المفاهيم**

**أ. الوقوف على الأسباب اللُّغوية في إنشاء المفاهيم الفلسفية:**

إن الإجراء المنهجي الذي اقترحه طه عبدالرحمن، أي فقه تأثيل المفاهيم الفلسفية، يريد أن يتوسّل به من أجل أن يأخذ بيد المتفلسف إلى ورشة صناعة المفاهيم، كيْ يستكشفها معرفياً، ويستثمرها في فضائه الفكري، وبالتالي يحقق الحرية الفكرية بما هي نزع لباس التقليد وكسوة العقل بلباس الحرية: "فلم يشغلنا شيء في مشاعرنا ولا في مسالكنا قدر ما شَغَلَنا التَّحقُّقُ بالحرية في الإتيان بها... والفيلسوف لا يكون إلا حراً طليقاً ولو وضعوا في عنقه الأغلال وعلى فمه الأقفال"[1]. والأداة المنهجية التي جرى تطويرها، هي "فقه الفلسفة"، بما هي

---

١. طه، عبدالرحمن، **فقه الفلسفة ،ج٢ ،القول الفلسفي ،كتاب المفهوم والتأثيل** ، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي ١٩٩٩، ص١٧. (التّشديد من المؤلف).

العلم الذي يمسك بالظواهر الفلسفية، إمساكاً علمياً لا فلسفياً، وعملياً لا تجريدياً، وتكاملياً لا تجزيئياً، فيتعيّن إذاً أن يتم استكشاف قوانين الصّناعة المفهومية عند أهلها المجتهدين، وليس عند أهل التّقليد الذين نقلت إليهم المضامين الفلسفية نقلاً، أظْهَرَ المحتوى الفكري منها، وأخفى عنهم الأسباب الفاعلة في إنتاجاتهم الإبداعية. وإذ تبيّن هذا، فإن المقتضى المنهجي، هو أن ننظر في الممارسة المفهومية كما ينظر العالم في الظاهرة، أو الصانع في الآلة لأنّها "العلم الذي يزودنا بالمعرفة بدقيق آليات الممارسة الفلسفية والإحاطة بجليل تقنيات الإنتاج والإبداع فيها، ومتى حصّلنا هذا العلم، أمكننا إنْذاك الارتقاء من رتبة استعمال الفلسفة إلى رتبة صنع الفلسفة"[١].

إن "فقه الفلسفة"، بهذا الامتياز المنهجي؛ يُبْصِرُ خصّيصة مهمة في أنساق الفكر الفلسفي، هي أثر الألسن في تشكيل المفاهيم الفلسفية، هذا الأثر من الأجدى لمن يروم التحرُّر من الكبت الفلسفي، الوعي به، فيتعيّن على الفيلسوف "قبل أن يتجه إلى التّوعية بقدرة لغته الفكرية أن يميّز ما هو من لغته مما ليس منها، أو يتعارض ولغته، أي مما قد يحولها من لغة إلى لغو؛ ولغونا يظهر في التّشويه الذي لحق أصول لغتنا وبُناها وكبَت فلسفتها عن طريق المطابقة بينها وبين لغات أخرى تختلف عنها تشكيلاً وتبييناً؛ وعلى الفيلسوف العربي أن يتعاطى تخليصنا من هذا اللَّغو، الذي حال دون تحرّرنا العقلي، ودون إبداعنا الفكري، وبهذا تكون رسالة الفيلسوف العربي رسالة لغوية في منطلقها"[٢]. وليس معنى الرسالة اللُّغوية الالتفاف حول دراسة اللّسانيات بطريقة منهجية علمية، وإنّما توظيف مكتسباتها المنهجية؛ في نظرها إلى الظَّواهر اللُّغوية،

---

١. طه عبدالرحمن، **فقه الفلسفة ،ج١ ، الفلسفة والترجمة**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي ١٩٩٥، ص٥٣.

٢. طه عبدالرحمن، **سؤال المنهج في أفق التأسيس لأنموذج فكري جديد**، مرجع سابق، ص١١٢.

وتنزيل طرائقها على دراسة المفاهيم الفلسفية. وتجسيداً لهذا الاستكشاف المعرفي، تبدّت نظرات جديدة فيما يخص بنية المفهوم الفلسفي، فبعد أن كان الاعتقاد سائداً، بأنّ المفاهيم الفلسفية كلية لا تعلُّق لها ببنيات اللغة، تبيّن أن هذا التّصور السائد على شدّة رسوخه ليس صحيحاً، فالمفاهيم الفلسفية ليست كليات غير مشخصة أو مجرّدة من اللّفظ والقصد، إنّما هي مدلولات لا تتعرّى عن اللّفظ والقصد، كما أنّها تقترن اقتراناً ضرورياً باللغة ولوازمها مثل اقتباس المعاني من ألفاظ الفلسفة الطّبيعية أو ثقافة الجمهور، وكذا اقتباس الصيغ الصرفية والتراكيب النّحوية ونقلها إلى الفضاء الفلسفي الصّناعي. أي "أنّ هناك علاقات وثيقة بين الاستعمال اليومي العادي والتّوظيف العلمي الراقي... وقد ازداد هذا الاقتراح حدة لدى اتجاهات علمية معاصرة، مثل علم النفس المعرفي الخاص بالنّمو. إذ يفترض هؤلاء أن النّظريات الجمهورية هي أساس النّظريات العلمية، وأنّ النّظريات العلمية لا تضيف إلا بعض التّنظيمات والتّرتيبات"[1].

وتوسيعاً لهذه الفكرة، يقيم طه عبدالرحمن ثنائية يتركب منها القول الفلسفي هي: ثنائية العبارة والإشارة، فالأُولى تجد مرتكزاتها في: الحقيقة والإحكام والتّصريح، والثانية تجدها في المجاز والاشتباه والإضمار، وهما "طريقان في الكلام متباينان، فما يصدق على أحدهما، لا يصدق على الآخر؛ فحيث تكون العبارة ذات معنى حقيقي، تكون الإشارة ذات معنى مجازي؛ وحيث تدل الأولى في مختلف استعمالاتها على معنى ثابت، تدل الثانية في هذه الاستعمالات على معان متقلّبة، وحيث تصرّح الأولى بجميع أجزائها، تُضمر الثانية بعضها"[2].

والقصد من هذا المهَاد المنهجي المتعلّق بتركيب الكلام، لَفْتُ النّظر إلى أسباب

---

١. محمد مفتاح، **المفاهيم معالم ،نحو تأويل واقعي**، ص٨.

٢. طه عبدالرحمن، **المفهوم والتأثيل**، مصدر سابق، ص١-٧٦.

جمود الإبداع المفهومي في الفلسفة العربية، التي يأتي عقمها من توهمها، أنَّ القول الفلسفي هو قول عباري خالص، لا أثر فيه للتحيّزات الإشارية المتينة الصلة بالمجال التَّداولي، والمُمدة له بالمدلولات التأثيلية؛ بما هي "جملة العناصر الصَّرفية والدّلالية التي تصاحب المعنى الاصطلاحي للمفهوم الفلسفي من غير أن تدخل فيه كمقوم من مقوماته، مثل المَدْلول اللُّغوي والصيغة ومضمونها والتّقابلات والتّلازمات والاستعمالات داخل الحقل الذي يتداول فيه اللفظ الموضوع لهذا المفهوم"[1]، وهذه المواصفات للمفهوم الفلسفي هي عَيْنُ ما غاب عن المتفلسفة العرب، ففي مستوى الترجمة، لم ينتبهوا أن ثمة عناصر تأثيلية تلازم النّص الأصلي، فاعتبروا أنّهم أمام خطاب عباري خالص، وأخذوا "بالمعنى اللُّغوي الإشاري للمفهوم الفلسفي الغربي على أنّه جزء من مدلوله الاصطلاحي العباري، بحيث رفعوا ما كان في لسان الغربيين مدلولاً لغوياً إلى رتبة المدلول الاصطلاحي في لسانهم العربي"[2]. ما ولّد القلق في العبارة وتَوَهُّم عجز اللُّغة العربية عن الإحاطة بكلية المفهوم الفلسفي، وفاتهم كشف هذه الخصيصة المخبوءة؛ ولو أنّهم احتفظوا بالجانب العباري من النُّصوص الفلسفية ومارسوا التأثيل؛ بتزويد هذا المنقول بالجوانب الإشارية المبثوثة في مجالهم التّداولي؛ لما كانت مظاهر القلق والجمود على الجانب الاصطلاحي من المفهوم الفلسفي؛ التي ورّثت التّقليد وتعطيل طاقة الإبداع والحرية؛ "إذ كيف يفهم العقل العربي ما قاله أو ما أوحى به المفكّر اليوناني، وهناك ثمة تباين بين الأطر الجغرافية والتاريخية والحضارية الفاصلة بينهما؟ فلغة كلّ منهما تعبّر عن نظام

---

١. طه عبدالرحمن، **الحق العربي في الاختلاف الفلسفي**، المغرب، بيروت: المركز الثقافي العربي ٢٠٠٦، ص ٢- ٩٢.

٢. السابق نفسه، ص٣- ٩٤.

مجتمعهما، وأنماط حياتهما، ومعتقداتهما، وتالياً عقليتهما في تركيبها وتناميها. فهناك كليات خاصّة بها، ومقولات تميّزها، للدّلالة على النّفسيات والانفعالات السلوكية"[1]. وإذا كان هذا، هكذا، فأين يرى "طه عبدالرحمن" النّبراس المنهجي الذي يقود المتفلسف نحو الشَّمس المتوهّجة؟

**ب. تأثيل المفاهيم لإنشاء فضاء فلسفي من الحقل الدّلالي**

تَلخّص معنا؛ أنّ القول الفلسفي يتركّب من جانب عباري ظاهر، وآخر إشاري خفي؛ والملمح الجوهري لذكاء العقل الفلسفي الإبداعي؛ هو حفظ ما أمكن الجانب العباري، وصرف الجانب الإشاري الذي يُعدُّ ذخيرة تداولية من المجال المعرفي لواضعه؛ وإحلال عناصر المجال التّداولي المأصول محلّها، والإخلال بهذا القانون يوقع التَّفلسف في التَّقليد والقلق والاجتثاث، كما حصل ويحصل في الفلسفة العربية؛ وانطلاقاً من هذه الاعتبارات "تبدو اللُّغة مبدأً فاعلاً يفرض على الفكر جملة من التميُّزات المختلفة والقيم الذّاتية. وهذا ما يُحَوّلُ نظام كل لغة إلى مستودع متنوع من التَّجارب المتوارثة عن الأجيال المتلاحقة، ويدعونا إلى المطالبة في كل تحقيق فلسفي عربي بالعودة إلى النّصوص والمعاجم القديمة لنغرف من كنوز مصطلحاتها ومعانيها؛ إذ هي تكون مرجعية أساسية تقينا شر الانزلاق في اللَّحن، وسوء التّعبير في المجالات الفكرية كافة"[2]، وإذ تبيّن هذا، فإن التأثيل ليس خياراً فلسفياً، إنّما هو ضرورة مارسها الفلاسفة وبنيت عليها أنساقهم، والنَّماذجُ التي ساقها طه عبدالرحمن في رصده لأمثلة من التّأثيل المفهومي؛ تعدُّ شواهد مُثلى على حضور التأثيل والاستناد إلى

---

١. جيرار جيهامي، **الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية، دراسة تحليلية نقدية**، بيروت: دار المشرق ١٩٩٤، ص١٨.

٢. جيرار جيهامي، **الإشكالية اللغوية في الفلسفة العربية**، ص١٤.

المجال التَّداولي في شقه الإشاري، مثل أفلاطون في الفلسفة اليونانية، وديكارت في الفلسفة الحديثة، وهيدجر من الفلسفة المعاصرة، وجيل دولوز من الفلسفة الرّاهنة؛ فهؤلاء مارسوا التّأثيل في استشكالهم الفكري، وهم خير مرشد لمن يروم أن يضع مفاهيم تكون مؤثّلة بحسب الإمكانات الإشارية التي تختص بها لغته[١].

وإذا كانت هذه الدعوى للتأثيل مشروعة، فإن الإجراء المنهجي الذي يحقق هذه البُغية للمفهوم؛ هو "تزويد الجانب الاصطلاحي منه –أي من المفهوم– بجانب إشاري يربطه بالمجال التّداولي للفيلسوف، واضعاً أو مستثمراً له، فإذن يكون القوام التأثيلي للمفهوم الفلسفي هو جانبه الإشاري الذي يربطه بالمجال التداولي للفيلسوف"[٢]. هذا، وينقسم تأثيل المفهوم الفلسفي، إلى قسمين أكبرين، أحدهما يختص بالجانب المضموني؛ لما له من صلة بتأصيل الجانب الاستشكالي من المفهوم الفلسفي؛ وهو على أنواع مختلفة وقف طه عبدالرحمن على ثلاثة منها "التأثيل اللغوي الذي يتوسّل بالمعاني اللغوية لتحقيق هذا التأصيل، والتأثيل الاستعمالي الذي يتوسّل فيه بسابق الاستعمالات السياقية والمقامية، والتأثيل النّقلي الذي يلجأ في ذلك إلى الدّلالات والاستعمالات المحسوسة، مرتقياً بها إلى رتبة الدلالات والاستعمالات المعقولة؛ والقسم الثاني، التأثيل البنيوي، وهو التوسل بالإشارات الإضمارية[٣] في تأصيل الجانب الاستدلالي من المفهوم الفلسفي؛ وتحته هو الآخر أنواع ثلاثة، وقفنا منها على ثلاثة منها هي: التأثيل

---

١. انظر: **فقه الفلسفة، المفهوم والتأثيل**، الباب الثالث، **نماذج التأثيل المفهومي**، من ص٢٨٣ إلى ص٤٢٨.

٢. طه عبدالرحمن، **كتاب المفهوم والتّأثيل**، مرجع سابق، ص١٢٩.

٣. انظر: كاترين كيربرات، أوريكيوني، **المُضمَر**، ترجمة ريتا خاطر، بيروت: المنظمة العربية للتّرجمة، ٢٠٠٨.

الاشتقاقي الذي يتوسل بلوازم الصيغة الصرفية لتحقيق هذا الأصيل، والتأثيـــل التّقابلي الذي يتوسل فيه بلوازم الأمثال مثبّتة ولوازم الأضداد منفية، والتَّأثيـــل الحقلي الذي يلجأ في ذلك إلى التَّلازمات الممكنة بين المفهوم الفلسفي وغيره من المفاهيم التي تدخل نطاقه"[1].

١. طه عبدالرحمن، **المفهوم والتأثيل**، مصدر سابق، ص١٨٥. (التّشديدات من المؤلف).

## خاتمة:

## ثمرات ما بعد إسكان المفاهيم في أصولها اللغوية

بعد أن استبان هذا الإجراء المنهجي، فإن استتباب المفهوم وحركته ونماء استدلالاته واستشكالاته؛ موقوف حصوله على التمكُّن والتفنُّن من هذه الملكة المفهومية لإطلاق إنتاجية المفهوم الفلسفي؛ وإذا غاب هذا القِوام التأثيلي، فإن مآل المفهوم هو الاجتثاث والضّيق في أسئلته والجُمود في أدلته، والاتباع لمفاهيم الغير كما لو أنها جاءت من عالم خارق. إنّ الغرض الذي يرمي إليه أسلوب الاستكشاف العلمي للظَّواهر الفلسفية؛ ولفت النّظر إلى أهمية تأثيل المفاهيم أو إسكانها في أصولها اللُّغوية؛ جملة من الأهداف يمكن رصفها في المصفوفة الآتية:

**أولاً.** تَدْمير الاعتقاد السائد، من أن المفاهيم الفلسفية مفاهيم معنوية، لا صلة لها باللَّفظ أو اللّافظ، وفي المقابل بناء رؤية منهجية أخرى، ترى بأن المفهوم الفلسفي ليس مفهوماً تصورياً على نسق العلم، ولا مدركاً ذوقياً على صورة المدركات الأدبية، إنّما هو مفهوم مُنْفَهِم، أي لا انفكاك له عن الاقتران باللّفظ ولواحقه المستمدّة من المجال التّداولي؛ فغني عن البيان القول بأن ثمة أصولاً لغوية للمفاهيم الفلسفية.

**ثانياً.** إن شروط حرية المفهوم الفلسفي، ومنها إمكان تحرّر العقل في الفلسفة العربية المعاصرة، تقتضي التزوُّد المنهجي، بفقه تأثيل المفاهيم بأنواعه التي أسلفنا الإشارة لها؛ التَّأثيل المضموني المُتّصل بالاستشكال، والتأثيل البنيوي المتَّصل بالاستدلال، كي يخرج فعل التعقُّل العربي من حيّز السكون إلى جريان الحركة، ومن التّقليد إلى الإبداع، ومن تلقي المفاهيم المنقولة إلى إطلاق إنتاجية المفاهيم وصناعتها.

**ثالثاً**. إذا كان لكل لغة أنساقها من العلاقات والدّلالات الطّبيعية؛ فإن هذا معناه توافر إمكانات فلسفية جمّة لدى كلّ لغة، وليس إثبات التّعارض بينها، "فليس معنى هذا، أنّ هذه القُدُرات الفلسفية تتعارض من لغة إلى أخرى، بحيث يُشكّل كل نَسق لغوي عالماً فكرياً قائماً بذاته؛ إنّنا نعتقد أن التّواصل بين هذه الأنساق ممكن التّحقيق، بل تزداد الحاجة إلى هذا التّواصل بقدر ما تختلف الإمكانات الفكرية من نسق لآخر"[1].

**رابعاً**. بما أن ّفقه تأثيل المفهوم الفلسفي؛ بخاصة مراعاة مقتضيات اللّسان العربي في الاستشكال والاستدلال؛ يدلُّ العقل على الطريق الصائب لإنجاز الحرية، فإن القَصْدَ البَعيد هو العَقْلُ العملي أيضاً، وهذا ما اصطلح على تسميته طه عبدالرحمن بـ: السؤال المسؤول، والفيلسوف المسؤول، كيْما تَكْتَسِبَ الفلسفة بعداً أخلاقياً صريحاً، لا ينقطع فيه المَدَد الرُّوحي عن التعقّل الفكري، ويَشْرَعُ هذا الطّراز الجديد من الفلاسفة المسؤولين؛ في إعادة وصل الصّلة المبتورة بين المعجزة اللّغوية العربية وبين إنجازها الحيوي.

---

١. طه عبدالرحمن، **سؤال المنهج**، مرجع سابق، ص١٠٨.

# المرتكزات اللغوية لتنمية العربية

## في ضوء معطيات الفكر الحضاري المعاصر

**الأستاذ حسين عمر دراوشة**

**فلسطين**

## المُلخَّص

إن اللغة حقيقة اجتماعية، تتأثر بواقع الفرد وبيئته، حيث تتميز اللغة العربية بقوتها وعالمية رسالتها، فهي لغة نامية ومتطورة، وهذا البحث يسعى إلى بيان المرتكزات اللغوية لتنمية العربية في ظل معطيات الفكر الحضاري المعاصر، وذلك بإلقاء نظرة عامة على واقع اللغة العربية في ضوء معطيات الحضارة التكنولوجية المعاصرة وإفرازاتها، ومن ثم تسليط الضوء على المرتكزات اللغوية التي تمتلكها العربية في سبيل تحقيق التنمية والتطوير والتقدم، وذلك باستشراف الإمكانات الفريدة التي أتاحتها المعطيات، وتطويع التحديات ومعالجتها بعقلية حكيمة وإدارة رشيدة؛ لتحقيق الاستثمار الأفضل كمدخل رئيس للتنمية اللغوية انطلاقاً من العربية نفسها ومن الأدوات الحضارية والأعمال الحديثة من نشاطات ومنهجيات واستراتيجيات، ومن ثم إطلاق جملة من التوصيات تتعلق بالتخطيط اللغوي المتفاعل مع المنجزات الحداثية، من أجل تنمية العربية بشكل حيوي ومتفاعل، وقد خرجت خاتمة البحث وفيها النتائج والتوصيات، وبعدها فهرس للمصادر والمراجع.

## Abstract:

### The linguistic foundations of Arab development in the light of contemporary cultural thought

The language is a social reality, influenced by the reality of the individual and his environment. The Arabic language is characterized by its strength and universal mission. It is a developing and evolving language. This research seeks to explain the linguistic bases of Arab development in the light of contemporary cultural thought. The data of modern technological civilization and their secretions, and then shed light on the linguistic bases that the Arab possesses in order to achieve development, development and progress, by looking at the unique possibilities provided by the data, and adapting the challenges and treating them with a wise mentality and rational management; To invest the best as a main input for linguistic development based on the Arabic itself and the tools of civilization and modern works of activities, methodologies and strategies, and the launch of a set of recommendations related to linguistic planning interacting with the achievements of modernism, for the development conclusion of the research .of Arab dynamically and interactively, and then the and the results and recommendations, References.

**المقدمة:**

تعد العربية من اللغات النامية التي تمتلك وسائل خلاقة في تطويع مستحدثات الحضارة التكنولوجية المعاصرة، والإيفاء بمتطلباتها، وتلبية حاجاتها الراهنة، ويتميز عصرنا الحديث بالانفجار المعرفي والثورة المعلوماتية، وانتشار التطبيقات الإلكترونية والبرمجيات الحاسوبية، وكثافة البيانات الرقمية في العالم الافتراضي ووسائل الاتصال والتواصل، ما يحتم علينا إدارة المعرفة عربياً والمساهمة في زيادة إنتاجيتها من خلال الاستثمار في اقتصاديات اللغويات بما يعزز المحتوى اللغوي العربي في المنجزات الحضارية، وهذا يدلل على أن الوسيلة التعبيرية لأبناء العربية من أهم مشكلات الفكر الحضاري لديهم، فما أنتجه الفكر الحضاري المعاصر من إمكانات فريدة وتحديات متنوعة، أثر على مسيرة العربية بصورة أو بأخرى، لذا يسعى هذا البحث إلى دراسة المرتكزات اللغوية لتنمية العربية في ضوء معطيات الفكر الحضاري المعاصر، ومحاولة الاستفادة من التداخل المعرفي والتشابك المعلوماتي والمعالجة الآلية في حقل اللغويات؛ لتستفيد منه اللغة العربية في ترقية حقولها وتطوير أدائها؛ تحقيقاً للتنمية اللغوية الشاملة في فروعها كافةً، وذلك بالحديث عن واقع اللغة العربية في ضوء معطيات الفكر الحضاري المعاصر، وذلك بإلقاء نظرة عامة على أحوال اللغة العربية وما لها وما عليها، وبيان المرتكزات اللغوية التي تتوفر في اللغة العربية على مستوى مكوناتها المعرفية الخام من أجل تحقيق التنمية اللغوية المستدامة، وتوضيح دور معطيات الفكر الحضاري الحديث باستشراف العمل اللغوي التنموي انطلاقاً من الأساسيات والأساليب المعاصرة والأدوات الحضارية التي أنتجتها الحداثة، ومن ثم إطلاق توصيات من شأنها أن تسهم في تنمية اللغة العربية انطلاقاً من تخطيط لغوي متفاعل مبني على قواعد علمية

وأسس منهجية، وبيان كل ما سبق بالمنهج الوصفي والبنائي القائم على طـرح رؤية استراتيجية؛ لاستثمار المرتكزات اللغوية في حقول المعرفة من أجل تنمية العربية وتطويرها، من خلال مجموعة من الأسس والأساليب والأعمال التطبيقية المبنية على تخطيط لغوي قويم، يستثمر التراث العربـي ومعطيـات الفكـر الحضاري المعاصر، ويستشرف مستقبلنا اللغوي بإدارة فاعلة للعربية وعلومها في مجتمع المعرفة، مع التركيز على استعراض التجارب اللغويـة الناجحـة؛ ليتسنى للباحثين والدارسين وأرباب الثقافة وأهل الاختصاص والجهـات ذات العلاقة الاستفادة من موضوع البحث ونتائجه وتوصياته.

**أولاً- واقع اللغة العربية في ضوء معطيات الفكر الحضاري المعاصر- نظرة عامة**

يؤثر الواقع على اللغة باعتبارها حقيقة اجتماعية، ومن أهم وسائل الاتصال والتواصل والتفاهم بين أبناء المجتمعات البشرية، فاللغة العربيـة لغـة ناميـة متطورة ولها مميزات كثيرة تمكنها من السيادة والريادة، فمنجـزات الحضـارة التكنولوجية التي يحياها الإنسان العربي المعاصر، أثرت على اللغـة العربيـة ومكانتها بين لغات الأمم والشعوب، ويتميز الواقع اللغوي للغة العربية بوجـود إمكانات فريدة وتحديات وعراقيل متنوعة شملت القطاعات الحيويـة المشـكلة للهوية العربية والإسلامية، وهنا تكمن الإشكالية في كيفية استثمار المعطيـات العلمية وأوعيتها المعرفية المتفاعلة، التي أنتجت جملة من الأدوات والأسـاليب التي تنضوي تحتها كثير من الفرائد اللغوية وتطبيقاتهـا وتقنياتهـا المختلفـة، وطريقة التعامل مع تطويع التحديات وتذليل العراقيل والعقبات لصـالح اللغـة العربية، ونحن نعلم بأن قوة اللغة من قوة أهلها، فلا نلوم اللغة ذاتها بقدر ما نلوم أهلها، وما ينقصهم من نظرة منهجية شاملة للتعامل مع المستجدات الحضـارية وما يتعلق بها من انفجار معرفي وثورة معلوماتية ألمت بحياة الإنسان العربـي المعاصر ولغته القومية.

إن الانسلاخ من ربقة الماضي ومنجزاته يبشر بضعف إدارة الواقع ويقر بصعوبة الحاضر، وهذا ينعكس على مستقبل العربية وقوتها، ويُلاحظ أن ذلك لا يرتبط بالكينونة اللغوية بقدر ما يرتبط بالذات والشخصية التي تدير الواقع وتحاول تحقيق الإنجازات في مسيرة التنمية والتطوير والارتقاء في مصاف الأمم المتقدمة، فمن لا قديم له لا جديد له، فمسألة الانغماس في الحداثة اللغوية ومنتجاتها والانعتاق من التراث العربي والإسلامي وما أنتجته القريحة العربية يعد قمة في الجهل والضياع ومن التصورات الخاطئة، ما أنتج حالة من التيه والتخبط في محاور لغوية متنوعة، تهدد الانتماء اللغوي عند العرب والمسلمين، فهذا أثر على حركة الإصلاح اللغوي، واتسع الخرق على الراقع في ظل توالي حملات التغريب التي تستهدف الكيان اللغوي لأمة العرب والهوية القومية للإسلام والمسلمين؛ لأن قمة التغريب تغريب اللسان لقطعه من لغة القرآن اللغة العربية الفصحى(١)، ومهاجمة اللغة العربية في أعظم ميادينها على أساس أن حرب الفصحى تتركز في إذاعة العامية والحروف اللاتينية والشعر الحر وغير ذلك(٢)، فالهجوم على القوام الثقافي للإسلام والمسلمين في العالم يشغل جبهات كثيرة، من أخطرها ما يتخذ العربية –لغة هذا الدين– هدفاً لهذا الهجوم، فيوجه الطعن إليها، مدركاً أن زعزعة أي من ثوابت اللغة العربية: أصالة ألفاظها أو

---

(١) سيد العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ٢ج، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، ط١، جدة ٢٠٠٤م، ج١/ص٥٣٧، وحمود الرحيلي، تحصين المجتمع المسلم ضد الغزو الفكري، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية ١٤٢٤هـ، ص٣٤٥–٣٦٥.

(٢) علي جريشة ومحمد الزيبق، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الوفاء، ط٣، المنصورة ١٩٧٩م، ص٢٤، وأنور الجندي، اللغة العربية في مواجهة اللغات الأجنبية، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٨م، ص٦–١٧.

معانيها أو خصائصها يُخل بأساس الاحتجاج بنصوص مصادر التشريع الإسلامي: القرآن والسنة والآثار الشارحة لهما؛ وبسند الاستنباط منها، ويجعل العربية في متناول الأهواء[1]؛ إنها هجمةٌ شرسةٌ لم ترَ العربية لها مثيلاً في ظل ما يشهده القرن الحادي والعشرون من تطور وازدهار وتقدم على المستويات والأطر كافةً، ولكنها ارتبطت في العصر الحديث بالوجود الاستعماري في المنطقة، ارتبطت به على وجه يجعل من العاميات سلاحاً ضد الفصحى ويقف بها موقف الخصومة والعداء، فلقد استغل الاستعمار هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب الفصحى بلهجاتها المتعددة، ووجد في اختلاف اللهجات الإقليمية ذريعة للقضاء على اللغة المشتركة التي تربط المشرق والمغرب بأواصر التفاهم والتجاوب، وتجعل من أقطار وطننا الكبير وحدة فكرية[2]، فاللغة العربية هي الترسانة الثقافية التي تمثل كيان الأمة وتحمي لبناتها الأساسية التي قامت عليها، فلا ضير إن كانت هي الهدف الأول للمستعمر؛ لأن القضاء على اللغة يهدم الجيل وهويته الوطنية والقومية ويعزل حاضره عن ماضيه ومستقبله.

إن غياب الإدارة الحكيمة في استثمار المتغيرات المعاصرة، يهدد مكانة اللغة العربية ويبشر بواقع مؤلم ومستقبل مجهول، فنرى أن مؤسسات التنشئة الاجتماعية ضعف دورها في تعزيز مكانة العربية في نفوس الناشئة، علاوةً على مزاحمة اللغات الأخرى للعربية في عقر دارها، والأدهى من ذلك ضعف اللغة العربية عند النخبة الفكرية والثقافية في الخطاب الرسمي والأهلي، فكثير من القيادة العربية تتكلم اللغات الأجنبية في المحافل الدولية وتتبرأ من لغتها

---

(١) محمد جبل، دفاع عن القرآن الكريم أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، البربري للطباعة الحديثة، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٧.

(٢) عائشة عبدالرحمن، لغتنا والحياة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩م، ص٩٩-١٠٠.

العربية الأم وكأنها وصمة عار أثناء التعبير عن آرائهم، بالرغم من اعتمادها في أروقة هذه المحافل كلغة رسمية[١]، في حين أن قادة الدول الأجنبية يتحدثون بلغتهم الأم ويجبرون الآخرين على فهمهم، وخير ما نستدل به على ذلك ما نراه في الساحة الفلسطينية، فعندما يُلقي أحد الساسة الفلسطينيين خطابه في الأمم المتحدة فإنه يتحدث الإنجليزية مثلاً ويتناسى العربية، في حين أن ساسة الصهاينة يتحدثون اللغة العبرية التي صنعوها لكيانهم المسخ، والتي تعد لغة حديثة النشأة لم يتجاوز عمرها (٢٠٠) عام[٢]، ولعل الهزيمة النفسية أثرت على الإنسان العربي، وجعلته يبحث عن ذاته في الذوات الأخرى، فوضعية القهر التي يشعر بها الإنسان في العالم العربي لها آثار مدمرة على التكوين النفسي والعقلي والفكري والثقافي للإنسان، ولعل أبرز هذه الآثار التخلي عن استقلال النفس الفردية ودمج النفس في شخص آخر خارج النفس للحصول على القوة التي تنقص النفس الفردية، وأشد الأشكال المميزة لهذا الأثر نجدها في الرغبة في الخضوع والهيمنة وظهور مشاعر الدونية والعجز واللاجدوى الفردية[٣]، فلا توجد تنمية لإنسان مقهور، وإنَّ المشكلة الأساسية في مجتمعاتنا العربية المعاصرة، أنها مستهلكة للمعرفة لا منتجة لها، وعبر عن ذلك ابن خلدون

---

(١) تم اعتماد اللغة العربية في الأمم المتحدة بقرار رقم ٣١٩٠ في كانون الأول/ ديسمبر من عام ١٩٧٣م، والذي أُقِرَ بموجبه إدخال العربية ضمن اللغات الرسمية ولغات العمل في الأمم المتحدة، وحدد لها يوم عالمي للاحتفال بها في ١٨ كانون الأول / ديسمبر من كل عام. انظر: ويكيبيديا الموسوعة الحرة، اليوم العالمي للغة العربية، https://ar.wikipedia.org/wiki.

(٢) إبراهيم سليمان شيخ العيد، الصراع بين اللغة العربية واللغة العبرية، مجلة العربية، منشورات مجمع اللغة العربية الفلسطيني بغزة، العدد الأول، يونيو ٢٠١٤م، ص٣٦٣-٣٦٤.

(٣)سعيد علي، فلسفات تربوية معاصرة، منشورات عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٥م، ص١٦٨.

(ت٨٠٨هـ)؛ بقوله[١]: "إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"، فدول الاستعمار تسعى دوماً لجعل الشعوب تابعة لها خاضعة لسيادتها، فهي تسعى – قدر الإمكان– لهدم ثقافة المجتمعات المحتلة؛ لأن الأمة الجاهلة أسلس انقياداً من الأمة المتعلمة[٢]، فخفض الثقافة ألحق الضرر باللغة العربية وقضاياها المعاصرة.

واتسعت حركة التنقل والبعثات والمراسلات والزيارات والوفود بين الدول العربية والدول الأعجمية، ومن الطبيعي أن تقترض اللغة العربية من اللغات الوافدة وتقرضها، وهذا سمة عالميتها وقوة رسالتها، ما يشكل علامة فارقة في الفكر اللغوي المعاصر، ويدلل على حيوية اللغة العربية وفاعليتها في إنتاج الحضارة والإيفاء بمتطلبات العصر وروح الحداثة، وانتشرت العولمة والحوار الثقافي بين الأمة العربية وحضارات الشعوب والأمم، فُتِحَ الباب على مصراعيه لمسيرة التأثير والتأثر، وهنا تشتد الحاجة إلى النظر الدقيق في أصول العربية ومعالجة المستجدات بعقلية حكيمة، تستند للخصائص العربية ووسائل التوسع والتنمية اللغوية فيها.

تلعب وسائل الإعلام دوراً بارزاً في تحقيق التنمية اللغوية؛ لِما تشكله من تفاعلية في نقل المعلومات وتبادل الخبرات والكفاءات وطرح الآراء والاتجاهات التي تتعلق بحقول اللغة وتطبيقاتها المعرفية؛ لأن القضايا التي تؤثر على تشكيل الرأي العام في العصر الحديث على المستوى الدولي والإقليمي والقطري، ترتبط بالبحث العلمي والتطور في العلوم والتكنولوجيا خاصةً فيما يتعلق

---

(١) عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ٨ج، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، بيروت ١٩٨٨م، ج١/ص١٨٤.

(٢) فلسفات تربوية معاصرة، ص١٧٨.

بالتطور في وسائل نقل المعرفة[1]، ويُلاحظ أن واقع اللغة العربية في وسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي، يشهد عقبات كبيرة تتمثل في الانحرافات والتشوهات التي تشي بوجود سيل عرم يحوي في طياته ضروباً شتى من التلوث اللغوي، فأداة الإعلام من الأدوات الحرجة التي تشكل صورة اللغة في الرأي العام، وتؤثر على الحصيلة اللغوية عند أبناء المجتمعات العربية، فطبيعة استخدام وسائل الإعلام هي التي تحسم أمر اللغة وما ينعكس عليها من قضايا أخرى.

وتفتقر اللغة العربية إلى الرصيد المعرفي المكتوب والموثق بمنهجية علمية في مجالات شتى، وارتكازها في ذلك على اللغات الأعجمية كالإنجليزية مثلاً بدواع مختلفة، ويُلاحظ أن العربية لديها مرونة وسلاسة في بيان مكنونات الأمور العلمية والمقدرة على تمثيل تفصيلاتها من خلال وفرة المادة اللغوية والأساليب والتراكيب والتعابير، وتعاني العربية من ضعف ثقافة الابتكار اللغوي العربي التي تعزز الانتماء للعربية في ضوء اضمحلال الروابط القومية التي تبني الذات وتصنع الوعي عند الشخصية العربية والإسلامية في ظل احتدام الصراع بين الحضارات والتقارب الثقافي بين الأمم والشعوب، في نمطية الفعاليات اللغوية وضعف حركة التدقيق والتحكيم اللغوي السديد المبني على قواعد وأصول ومعايير وضوابط العربية التي تسهم في مناقشة الأخطاء الشائعة والقضايا التي تختص باللغة العربية ومضامينها.

إن تعثر الوحدة الحقيقية بين أبناء المجتمعات العربية انعكس على اللغة العربية، التي تأثرت بالتمزقات والشقاقات وحالة الفرقة السائدة التي هددت

---

(١) نسمة البطريق، الإعلام وصناعة العقول (التلفزيون نموذجاً)، نهضة مصر، ط١، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٥.

وشائج القربى بين أبناء الأمة الواحدة، ويُلاحظ وجود كم هائل من المؤسسات اللغوية على مستوى الوطن العربي، قامت بجهود تذكر فتشكر، ولكن ذلك لم يرتق إلى درجة المطلوب، في ظل اختلاط الحابل بالنابل وتداخل المعارف وتفرع العلوم وزيادة التراكمات المعلوماتية وانتشار أدواتها وتطبيقاتها، فانعكس غياب القرار السياسي الذي يعزز السلطة اللغوية للمنجزات المعاصرة، على المؤسسات اللغوية في الوطن العربي وتبعثر جهودها أمام المتغيرات اللغوية التي لحقت بالعربية.

إن اللغة العربية تعاني من واقع مؤلم، فهي لا تتحمل تباطؤ أبنائها للحاق بها في ركب الحضارة والتقدم، فتتوفر فيها الخصائص الكافية لإدارة المتغيرات الطارئة وحسم نتائجها للسمو والارتقاء بها وبمضامينها، فالنظرة الشمولية لعلاقة اللغة بالعلوم والفنون والآداب والمعارف الأخرى والروابط بينها من أسس نهضة العربية من كبوتها المعاصرة، فليس القصور في اللغة العربية، إنما الواقع ومن يديره، فحديثنا عن واقع العربية في عصر السرعة والمتغيرات المفاجئة، يتطلب مزيداً من الحكمة والعقلانية المبنية على منهج علمي قويم في التعامل مع طبيعة هذه المتغيرات الحضارية المعاصرة، وكيفية تطويعها للعربية بما يضمن المحافظة على سلامتها وتنميتها، وضبط الواقع اللغوي بطريقة احترافية متفاعلة، انطلاقاً من المرتكزات الاستراتيجية للغة العربية وما أنتجته الحضارة التكنولوجية، وهذا ما سيناقشه المبحث التالي من هذا البحث.

**ثانياً- المرتكزات اللغوية لتنمية العربية في ضوء معطيات الفكر الحضاري الحديث- رؤية استشرافية**

اللغة العربية لها وسائلها وأدواتها الخلاقة في المحافظة على كينونتها وأداء رسالتها، فهي تمتلك مميزات وخصائص تجسد جزالتها وقوتها في فتح قنوات للصلة والتواصل والتفاهم بين أبناء المجتمعات العربية وغيرهم، ويلاحظ أن

العمل التنموي يرتكز على جملة من الأساسيات التي تتميز بها اللغة العربية، ففلسفة اللغة العربية واضحة من خلال مسيرتها الطبيعية والتاريخية على مر العصور، فحياة العربية وثباتها الحر أمام المتغيرات والمستجدات، و"انتصارها على عامل الزمن والتطور في حين أن اللغات الأخرى كالإنجليزية قد تطورت واختلفت بشكل كبير"(١)، فتبرز في العربية سمة الكمالية في ثرائها اللغوي وكفاية حصيلتها؛ نظراً لِما تمتلكه من مؤلفات ومعاجم ومصنفات في حقول علمية متنوعة.

وتمتلك اللغة العربية مادةً نطقيةً خاماً تتمثل في الأصوات وقضاياها وما يتعلق بها، مما ينمي التذوق اللغوي للخطوط الأولى، وهذا يشجع تفعيل حالة السمع الذي يعد "أبا الملكات اللسانية"(٢)، ما يشكل صورة متفاعلة عن الأهداف السامية للغة العربية التي تمثل مرتكزاً حيوياً في دعم أسس العمل التنموي اللغوي، في ظل الانفتاح الحضاري المعاصر المبني على فهم الآخر لا سحقه ونفيه، وما تتميز به من خصائص في أبنية ألفاظها وما يقترن بذلك من معان ودلالاتها تشكل في جوهرها نصوصاً للخطاب اللغوي المنجز في أي سياق معرفي، ويُلاحظ التدرج في بنية الألفاظ، ما يبرهن على خفة اللسان العربي وسلاسته، فمعظم مفردات العربية أصلها ثلاثي، ويأتي الرباعي والخماسي بدرجة أقل في الكثرة والانتشار، ويعد الإعراب من السمات الرئيسة المشكلة للتركيب اللغوي المنسبك بشكل قويم، وما ينتج عن ذلك من رسائل يتم إبداعها في تراكيب النصوص، ويسهم الإعراب في ضبط الكلام والمحافظة على

---

(١) اللغة العربية ومكانتها، مراد الشوابكة، http://mawdoo3.com.

(٢) عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مصدر سابق، ج١/٧٥٤.

سلامته، علاوة على كونه قسيم المعنى، ويوفر علم التركيب حالة من الضبط والحماية والصيانة للسان العربي، وهذا من منطلقات تنمية العربية والارتقاء بها في ظل حالة التموج المعلوماتي واللزوجة المعرفية التي أنتجتها الحضارة المعاصرة.

تساعد اللغة العربية على تنمية مهارة التفكير في استجلاب المحاور والمضامين الحداثية التي تمثل خير زاد في دفع عجلة التنمية إلى الأمام في الساحة العربية، من خلال استهداف الركائز الأساسية لتشكيل الهوية العربية وبناء الشخصية وتوسيع مداركها وصناعة وعيها، فاللسان العربي بطبيعته تنموي ومتطور؛ نظراً لما يمتلكه ويتميز به عن غيره من الألسنة في اللغات الأخرى؛ فقال ابن فارس (ت٣٩٥هـ): "فلما خصَّ -جل ثناؤه- اللسان العربي بالبيان، عُلِمَ أن سائر اللغات قاصرةٌ عنه، وواقعة دونه"[١]، وليس معنى ذلك التقليل من شأن اللغات الأخرى، فكل من أفهم بلفظ لغته فقد أبان، ومن أجل هذا لم تنكر العربية ذلك، فأخذ علماء اللغة العربية على عاتقهم عوربة ما تسلل من الرطانة الأجنبية للعربية، فازدهرت حركة التعريب والترجمة، التي تعد من وسائل التوسع اللغوي التي تقوم على استقبال المستجدات العلمية ومضامينها المعرفية، التي لم يكن للعربية سابق عهد بها[٢]، ونشطت هذه الحركة في

---

(١) أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، منشورات محمد علي بيضون، ط١، بيروت ١٩٩٧م، ص١٩.

(٢) حسين دراوشة، "مقومات الإصلاح اللغوي وبعدها الحضاري في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي"، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، ع٣، ج٢، جانفي ٢٠١٨م، ص٣١١.

العصر الحديث حتى شُكِّل من أجل ذلك مؤسسات تستثمر جهود الأفراد والجماعات في حقول الترجمة والتعريب؛ لتعزيز مكانة العربية والحفاظ على سلامتها وتنميتها وتطويرها؛ لتواكب عجلة التقدم والازدهار.

إن إيجاد الركائز انطلاقاً من بنية منطقية تستند في جوهرها إلى أسس وقواعد ومعايير لها مفاهيمها وشروطها ومكوناتها، يجعل العربية تدخل عملية التنمية من أوسع أبوابها، ويُلاحظ أن القدماء والمحدثين تعاملوا مع المتغيرات الطارئة بناءً على أصول تشكل بمجملها ومفصلها أيقونات حيوية في تنمية العربية والسمو بها، وتتمثل هذه الأصول المعيارية في الاشتقاق والقياس والسماع والإجماع والمجاز والنحت والتضمين والأسلوبية الحديثة والاستعمال والاقتراض والضرورة والحاجة والذوق البياني والبلاغي وشيوع الظاهرة في الفصحى المحتج بها[١]، وترتبط بها قضايا وموضوعات تمثل أدبيات لغوية تخدم بمجموعها تنمية اللغة العربية، وتسهم في تنشيطها وتعزيز نتائجها، وتنوع أساليب التعبير وفساحتها في التنظير المعرفي، وترجمة العواطف والأفكار؛ ما يزيد المحتوى المعلوماتي وتعدد مشاربه، مما يرفع من شأن اللغة العربية ويساعد على فاعلية عملية التنمية لمختلف المستويات اللغوية في العربية، وتتميز اللغة العربية بالروابط الاشتقاقية التي تعد نوعاً من التصنيف للمعاني في كلياتها وعمومياتها، وهي تعلم المنطق وتربط أسماء الأشياء المرتبطة في أصلها وطبيعتها برباط واحد، وهذا يحفظ جهد المتعلم ويوفر وقته[٢]، وما تنفرد به من

---

(١) حسين دراوشة، "معايير تعريب العلوم الحديثة وترجمتها في المجامع اللغوية وأثرها على تنمية اللغة العربية وسبل تطويرها"، المؤتمر الدولي الخامس للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية، دبي ٢٠١٦م، ١٦٤-١٦٦.

(٢) اللغة العربية ومكانتها بين اللغات، فرحان السليم:
.http://www.saaid.net/Minute/33.htm

مترادفات ومتضادات في بنية كلماتها ودلالاتها، وما تتميز به كثرة البدائل اللغوية في زمن ندرة الموارد يدلل على عِظم مكانة العربية وقوتها الثقافية، إن النمط الملح من المفاجآت يجبر الأفراد على البحث عن أنماط حياة بديلة تستطيع التلاؤم أكثر مع العالم كما هو[١]، فنحن في عصر المعلومات عصر العلم المؤسسي الضخم، والنجاح فيه رهن بحسن استغلالنا للموارد خاصة البشرية[٢]، فتنمية اللغة العربية الأم على لسان ناطقيها مع استثمار منتجات الحداثة، وطرح أفكار ومحاور مستجدة؛ يشكل دافعاً قوياً للإنجاز وتحقيق التنمية اللغوية المستدامة.

إن رتابة الكلام العربي وجماليته وخلوه من التنافر وضعف التأليف والتعقيد اللغوي يمنح اللغة العربية حيوية متكاملة في تكوين النصوص المنجزة التي تعد عماد الفكر التنموي ومن مضامينه المهمة التي من شأنها أن تسهم في إحراز مزيد من النجاحات والإبداعات بالإمكانات المتاحة والمتوفرة في اللغة العربية.

كانت اللغة العربية ولا زالت معول بناء شخصية الإنسان العربي، فهي تمثل الصورة المشرقة له في ظل المتغيرات المفاجئة في حياة الإنسان المعاصر، فلا يمكن التنبؤ بالمتغيرات وضبطها إلا من خلال العقلية الحكيمة الممنهجة التي يمكنها إدارة الموقف الضاغط الذي يواجه اللغة العربية في الحقول المعرفية المتنوعة، لقد جاد علماء العربية بقرائحهم ومتحوا من معينهم العلمي، وشكلوا تراكمات معرفية تعد من الذخائر الاستراتيجية التي تمتلكها اللغة

---

(١) تومبسون وآخرون، ميشيل، نظرية الثقافة، ترجمة: علي الصاوي، مراجعة: الفاروق يونس، منشورات عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٧م، ص١٢٢.

(٢) نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، منشورات عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١م، ص١٦.

العربية في سبيل الرقي والتقدم، فالكم المعرفي الوفير وغنى المحتوى المعلوماتي وتعدد أوعيته وضروبه، يمكن الاعتماد عليه كركيزة رئيسة تمتلكها اللغة العربية، ما يفتح آفاقاً رحبة أمام ناظري أهل الاختصاص والجهات ذات العلاقة التي تُعنى بشؤون اللغة العربية وقضاياها، فربط كنوز عيون التراث بالأساليب الحداثية ومستجدات المعرفية، يعزز مكانة اللغة العربية في كيفية تطويعها للمستجدات والتعامل مع مضامينها وإخضاعها لروح الحضارة العربية، ما يترك بصمات عربية خاصة على الحضارة الإنسانية، ويضفي مسحة عربية ذات جودة عالية على منتجات العصر الحديث.

توفر الأساسيات الأرضية الخصبة في اللغة العربية التي تمثل مجموعة من المكونات والركائز التنموية التي يكون بمقدورها تحقيق تفاعلية لغوية حقيقية مع منجزات العصر الحديث ومعطياته، ويُلاحظ أن كثرة الآراء والاتجاهات توفر للعربية مساحة واسعة في التأطير المنهجي من الناحية النظرية والتطبيقية وتقليص الفجوة بينهما وردم الهوات التي تؤثر على سيرورة التنمية اللغوية المنشودة، فجل ما أنجزته العربية عبر الماضي والحاضر يمثل حاضنة قوية في استنبات الإبداع ورعايته وتعهده بالنماء والارتقاء، وهذا يشكل رافداً يغدق العربية بالأفكار المستجدة التي تحقق الازدهار والتقدم للغة العربية وعلومها.

إن اللغة العربية لها امتداداتها التي تشكل هويتها الثقافية وقيمها العلمية والمعرفية، وتتسم بوحدة الفكر اللغوي وتطوره على مر السنين، وأبرز ما يُلاحظ بخصوص هذا الأمر الروابط الأيدلوجية التي أنتجت كياناً متماسكاً له مكوناته الحيوية، فارتبطت اللغة العربية بالعاطفة الدينية عند الإنسان العربي والمسلم، وهذا في حد ذاته يعد مرتكزاً استراتيجياً في تنمية العربية وتعزيز مكانتها في نفوس المجتمعات العربية وغرس قواعدها وتقوية وشائجها بين

الأفراد والجماعات وما استجد في فروع العلوم والفنون والمعارف والآداب، فزيادة التفقه والفهم في أمور الدين لا تتم إلا بالتمكن من علوم العربية، قال الإمام الشافعي: "لا أسأل عن مسألة من مسائل الفقه، إلا أجبت عنها من قواعد النحو"(١)، وأفاد الجرمي بقوله: "أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه"(٢)، فالتبحر في علوم العربية والتمكن منها وحفظها يعزز مكانتها في الأمور الحساسة، التي تشكل في جوهرها ذات الإنسان وانتماءه كالدين والنفس والتاريخ والثقافة، والتي أخذت تتداخل مع اللغة في أكثر من محور، وأصبحت فروعاً معرفية مستقلة بذاتها؛ ما يُغني الدرس اللغوي العربي ويسهم في رفعته وتطوره.

إن تعدد المرتكزات التنموية في اللغة العربية ووفرتها في ظل المتغيرات الحضارية المعاصرة يحتم علينا أن نكون واعين أشد الوعي حيال التعامل مع الواقع اللغوي ومستلزماته، بعقلية حكيمة وإدارة رشيدة تسهم في تحقيق الاستثمار الأمثل في حقول اللغويات النظرية والتطبيقية العربية، فالمعطيات الحضارية والإمكانات المتوفرة في ظل تصاعد وتيرة التحديات في وجه العربية، تبرز الإشكالية في كيفية إدارة الموقف الضاغط وإيجاد البدائل اللغوية والمرونة في التعامل من أجل التوظيف المتفاعل للمرتكزات التنموية الاستراتيجية التي تتميز بها اللغة العربية عمّا سواها من اللغات، ويمكن

---

(١) ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١١ج، حققه: محمد الأرناؤوط، وخرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط١، دمشق وبيروت ١٩٨٦م، ج٢/ص٤٠٧.

(٢) ياقوت الحموي (ت٦٢٦ه)، معجم الأدباء، ٧ج، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ج٤/ص١٤٤٣.

استشراف الواقع التنموي للغة العربية ومرتكزاته الحضارية في ظل المتغيرات المعاصرة من خلال:

١- العمل التنموي المنظم المبني على التخطيط اللغوي وفق سياسة لغوية حكيمة، مع المرونة في التفكير ومراعاة المستجدات من خلال استلهام الماضي بخبراته، وتحقيق حاجات الحاضر ومتطلبات المستقبل؛ ما يعزز الهوية اللغوية ويوطد دعائمها، فتشكل نواة صلبة يمكن الاعتماد عليها في تحقيق التفاعلية في عملية التنمية اللغوية.

٢- تفعيل دور المؤسسات اللغوية التي تجمع جهود الأفراد والجماعات وتوحدها، ومأسسة العمل من أجل ضبط الساحة اللغوية والتحكم بها؛ لأن التفكير الجمعي من أركان تحقيق التنمية اللغوية في ظل المتغيرات المفاجئة التي تشهدها الساحة اللغوية العربية، وهذا يعزز السلطة التنموية للغة العربية.

٣- منهجة العمل اللغوي من خلال تحديد الأساليب والأدوات والأنشطة والوسائل التي تسهم في تنمية اللغة العربية والارتقاء بها وتطويرها، وذلك من خلال:

- بيان القيمة المعرفية والرصيد العلمي الذي تمتلكه العربية وتراثها الإنساني الخالد.
- تحقيق مبدأ السلامة اللغوية بما يعزز مكانة العربية في ظل مستحدثات الحضارة ومتطلبات العصر.
- رسم الخطط الاستراتيجية التنموية التي تستهدف القطاعات الحيوية في اللغة العربية وما يتعلق بها، ونقل القرارات اللغوية من دائرة التنظير والتقعيد إلى التطبيق والممارسة الفعلية مع المتابعة والتقويم والإشراف المستمر من أجل الوقوف على مدى تحقق الأهداف التنموية السامية المنشودة.

- رعاية الفعاليات والأنشطة اللغوية الهادفة من ندوات وجلسات ومناقشات ومؤتمرات ومحاضرات ومواسم ثقافية وأيام دراسية مع ضمان تطبيق نتائجها والاستفادة منها.

٤- تدشين مواقع ومنتديات وصفحات ومدونات وتعزيز الروابط الإلكترونية وتقنياتها المتنوعة في حقول اللغة العربية، مع بث البرمجيات الحاسوبية التي تخدم اللغة العربية وتعمل على تنميتها بما يتوافق مع الحضارة التكنولوجية المعاصرة.

٥- تشجيع الأفكار اللغوية الإبداعية وتعهدها بالرعاية من أجل الوصول إلى الغاية المبتغاة في سبيل الارتقاء باللغة العربية وتعزيز مكانتها بين لغات العالم، وعدم الارتكاز على الأفكار التقليدية، والترحيب بكل جديد يُطرح.

٦- رعاية التفكير العلمي الناقد من أجل تصحيح المسارات وتعديل الخطط بما يتوافق مع الأهداف وخصوصية اللغة العربية ومتطلباتها.

٧- الارتقاء بمبانِي اللغة العربية ومعانيها من خلال إحياء الأصول اللغوية، وتطوير الأدوات والأساليب وإخضاعها لمعايير العربية وقواعدها، ونكون بذلك تركنا بصمات واضحة على الحضارة المعاصرة، من خلال إعادة إنتاج مضامين اللغة العربية بفكر متقدم.

٨- التوسع في الإنتاج المعرفي اللغوي، وسد النقص والقصور في الموضوعات اللغوية المستجدة على اللغة العربية، وذلك من خلال ما توفره اللغة العربية من وسائل ومعايير وضوابط يمكن من خلالها خدمة العربية بشكل حكيم يسهم في تنميتها وتطويرها.

إن عظم المسؤولية أمام أرباب اللغة يمثل عائقاً -بشكل نسبي- في فهم الواقع اللغوي، ومرد ذلك إلى قصور الفهم وفقدان الفلسفة اللغوية والفكر المنهجي الذي يعالج القضايا الحساسة في اللغة العربية المعاصرة، ويُلاحظ أن المشكلة تكمن في

إدارة الفرد للمعرفة لا إنتاجها، وهذا يؤثر على مسيرة التنمية اللغوية برمتها؛ لأن تفريد التعليم بشكل عام من ميزات العصر الحديث، فالانطلاق من منهجية مبنية على المنطق غاية ما تصبو إليه التنمية اللغوية، ويمكن تحقيق ذلك من خلال:

١- العامل السياسي: يوفر سلطة إلزامية، علاوة على توفير الدعم اللازم من أجل الإنجاز وتحقيق المكتسبات وحصد الإبداعات في حقول اللغة العربية، فالشعور بالمسؤولية واتخاذ القرارات الجريئة التي تستهدف مشكلات الهوية الوطنية لأبناء المجتمعات العربية، يساعد في تعزيز مكانة اللغة العربية والانتماء إليها والدفاع عنها.

٢- عامل التثقيف: يسهم في توسيع المدارك اللغوية؛ لاستثمار الإمكانات وتطويع التحديات من أجل تنمية اللغة العربية والسمو بها، فتنظيم الحملات والمبادرات الثقافية، التي تتصل باللغة العربية يسهم في إدارة المعرفة الحديثة عن وعي وإدراك، ويعمل على إعادة تدويرها لصالح اللغة العربية، التي لديها الوسائل الكافية للتعامل مع المظاهر اللغوية الطارئة، كما يعزز ذلك فهم الذات من خلال اللغة، ويدعم وطائد الشخصية العربية.

٣- عامل الإعلام: يرتبط الإعلام باللغة ارتباطاً وثيقاً، فاللغة من أبرز الوسائل التي يرتكز إليها الإعلام في إيصال رسائله إلى جمهور المستهدفين، ويتميز الإعلام بسلطته القوية النافذة إلى عقول الجماهير، وتشكيل الرأي العام، وصناعة الاتجاهات والآراء، فيسهم الإعلام في تنمية العربية باستخدامه الحيوي لمكوناتها، وتحقيق مبدأ التفاعلية -من خلال وسائله المتنوعة- في نشر معارف العربية وعلومها، وإحياء تراثها وتعزيز مكانتها بين القراء والمستمعين المتابعين لوسائل الإعلام بشتى ضروبها. وتقف درجة نجاح الإعلام اللغوي على درجة الإعداد اللغوي الاحترافي لمنتسبي مهنة الإعلام؛ بمعنى أن النجاح مرهون بعملية الإعداد في حقول اللغة العربية، والتمكن من مفرداتها وفرائدها.

إن مرتكزات الإصلاح والتنمية اللغوية جل ما تحمله هو تحسين صورة الشيء المُراد حفظه وحمايته، وذلك بطرق تناسبه مبنية على المنطق الصحيح والاستدلال القويم[١]، ويلاحظ أن التداخل في المستويات والمحاور والموضوعات من السمات البارزة في الحديث عن التنمية اللغوية؛ لأن اللغة كل متكامل ووحدة واحدة، إنما تم طرح النقاط من أجل الوقوف عليها وتسهيلها، حيث تبرز قوة الأفكار والمحاور في التطبيق الحيوي المبني على التفاعلية بين مختلف المعارف والمعلومات اللغوية وغيرها المتعلقة بالتنمية اللغوية. إن الاحترافية في تنفيذ سياسات التنمية اللغوية تمثل عاملاً مهماً في تحقيق الأهداف والغايات في مختلف القضايا اللغوية، فاستقلال الفكرة وما يتعلق بها من أساليب وأدوات من أسس التنمية وتفاعلاتها مع المضامين العلمية والمعلوماتية التي أفرزتها الحضارة المعاصرة.

**ثالثاً- توصيات من أجل تنمية العربية في ضوء التخطيط اللغوي الحديث**

إن ما يمتاز به العصر الحديث من انفجار معرفي وثورة معلوماتية، يجعل التفكير المنهجي على رأس سلم الأولويات في ظل التداخل والتشابك بين المكونات والأساسيات وما ينجم عن ذلك من تفرعات قائمة بذاتها، وعند النظر في طبيعة اللغة العربية وفلسفتها يُلاحظ أنها لغة غنية ونامية وخالدة؛ لارتباطها بمقومات كينونة الشخصية العربية والإسلامية.

لقد فرض التقدم الحضاري نفسه وانتشرت علوم الحداثة، حيث لا يمكن تجاهل هذا الأمر، وغض الطرف عنه، فالمستقبل لا يرحم، وصناعة الفكر اللغوي تستوجب إجراء مراجعات حقيقية لمرتكزات اللغة العربية ومضامينها،

---

(١) حسين دراوشة، "الإصلاح اللغوي في العمل المعجمي للمجامع اللغوية"، مجلة العربية، منشورات مجمع اللغة العربية الفلسطيني بغزة، العدد الأول، يونيو ٢٠١٤م، ص٢٤٨.

فتبرز قيمة التخطيط اللغوي وفاعليته كونه يقوم على: "البحث عن الوسائل الضرورية؛ لتطبيق سياسة لغوية، وعن وضع هذه الوسائل موضع التنفيذ"[1]، الأمر الذي يسهم في ضبط الساحة اللغوية، والارتقاء بالعربية وتنميتها بعقلية حكيمة تسير وفق خطوات مفهومة ومدروسة يكون بمقدورها تحقيق التقدم اللغوي والتنمية المستدامة لحقول اللغة العربية كافةً، ويمكن تحقيق فاعلية ذلك من خلال إنجاز الأساسيات المتمثلة في:

١- رسم خطط استراتيجية وفق فلسفة وسياسة لغوية واضحة الأهداف والغايات، تستهدف القطاعات الحيوية المتعلقة باللغة العربية وقضاياها المعاصرة، التي أنتجتها الحضارة التكنولوجية.

٢- تعزيز التعاون والتنسيق والتشبيك وتكاثف الجهود وتكامل الأدوار بين الأفراد والمؤسسات، ما يقود إلى توحيد القرار وتماسكه أمام المتغيرات المعاصرة على الساحة اللغوية.

٣- توسيع دائرة اللغة العربية في العالم الافتراضي، من خلال استثمار القدرات والمهارات الفذة في إنجاز الأفكار المبتكرة التي تنطلق من صميم اللغة العربية وموضوعاتها المختلفة.

٤- رقمنة المادة اللغوية العربية وحوسبتها من خلال تحويل المعارف والمعلومات إلى بيانات رقمية؛ لتوفير ذخيرة حية يمكن إدارتها إلكترونياً؛ ما يوفر الجهد ويقتصد الوقت في عملية التنمية وحسم نتائجها للارتقاء بالعربية والسمو بها، فتطور الثقافات هو تطور للتكنولوجيات التي اخترعها الإنسان لكفالة الحاجات الأساسية ولضمان استمراريتها، بل لتلبية الحاجات الكمالية

---

(١) كالفي، لويس، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة: حسن حمزة، مؤسسة دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ٢٠٠٨م، ص٢٢١.

والزائدة[١]، فالرقمنة التكنولوجية من المحركات الفاعلة في التنمية المستدامة في القطاعات الحيوية.

٥- التنويع في أوعية المعارف وتقنيتها وتكثيف فعالياتها من خلال تدشين المشاريع اللغوية الاستراتيجية التي تهدف إلى تعزيز التنمية اللغوية وحيويـــة تطبيقاتها في علوم اللغة العربية ومعارفها.

٦- استثمار الوسائل الإلكترونية والتطبيقـــات الحاســـوبية والبرمجيـــات التعليمية المبثوثة على الشابكة العنكبوتية، وتطويعها للغة العربيـــة وأصـــولها ومتطلباتها المعاصرة، كبنوك المصطلحات الآلية[٢].

٧- عقد المسابقات اللغوية الهادفة التي توسع المعرفة اللغويـــة، وإعـــداد المناهج اللغوية الحكيمة التي تمثل الوجوه الحضارية للغة العربيـــة فـــي ظـــل متغيرات مجتمع المعرفة.

٨- مركزية التخطيط اللغوي بشكل محكم تنطلق من أولويات اللغة العربية وقضاياها الساخنة، التي من شأنها التأثير في العربية ومسيرتها التنموية، مـــع التركيز على عدم المركزية في التطبيق؛ لاختلاف الواقع اللغوي بين مجتمعات الدول العربية.

---

(١) برنامج الأمم المتحدة للبيئة، حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي الجوانب البيئيـــة والتكنولوجيات والسياسات، ترجمة: عبدالسلام رضوان، منشورات عالم المعرفة، الكويـــت ١٩٩٠م، ص٤٣.

(٢) حسين دراوشة، "تقنيات بنوك المصطلحات العربية في حوسبة تعريب العلـــوم المعاصـــرة في ضوء دراسات اللسانيات التطبيقية"، مجلة العربية، منشورات مجمـــع اللغـــة العربيـــة الفلسطيني بغزة، العدد الثاني ٢٠١٥م، ص٤١٥-٤٢٠، ورأفت الكمار، الحاسوب وميكنـــة اللغة العربية، دار الكتب العلمية، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٢٠.

٩- تعزيز المحتوى الإلكتروني للغة العربية والارتقاء بها، من خلال تكثيف العمل الحاسوبي وتقنياته وبرمجياته في حقول اللغة العربية بمختلف أنواعها.

١٠- سن القوانين ونشر الإرشادات والتعليمات التي تسهم في حماية العربية وتنميتها وتطويرها.

١١- تدعيم الاستثمار في اقتصاديات المعرفة اللغوية؛ مما يضمن استمرارية العمل وغزارة النتائج المرجوة من أجل حيوية العملية التنموية.

إن تحقيق التنمية اللغوية مرتبط بالفكر العربي وما يبثه من رؤى وتصورات ومقترحات تستهدف بالدرجة الأولى اللغة باعتبارها أساس بناء الهوية وتشكيل الوعي بالذات؛ ما يزيد نسبة الفهم والصلة والتواصل مع الآخرين، فالكفاية اللغوية ترتقي بفكر الإنسان ومهاراته، وتبرز الحاجة الملحة لذلك في ظل الانفتاح المعرفي والثورة المعلوماتية، فاللغة العربية لها خصائصها وأصولها ووسائلها وأساليبها في التعامل مع المتغيرات الحضارية والإيفاء بمتطلبات الحاضر والحاجات الراهنة، وتحقيق تطلعات المستقبل، فهي تمتلك مرتكزات على صعيد محتواها وأساليبها، وعلى مستوى ما أنتجه العقل البشري المعاصر، الذي يمكن اللغة العربية من متابعة التطور وتحقيق التقدم؛ كل ذلك يرتبط بالعمل المنطقي الممنهج المبني على أسس وقواعد تتسم بالمرونة ووفرة البدائل في زمن ندرة الموارد وشحها، وهذا يستلزم تدعيم الثقافة اللغوية بين أبناء المجتمعات العربية من خلال مأسسة العمل وتكثيف الجهود ورعايتها، فمستقبل اللغة العربية يكون كما يكون حاضرها، فكما تكون اللغة اليوم تكون في الغد، بمعنى أن اللغة العربية هي الصورة التي ترسم حضارة الأمة وتبني عليها عزها ومجدها، فقد حاول هذا البحث بيان جملة من المرتكزات والأساسيات التي

من شأنها أن تخدم اللغة العربية في ظل وفرة الإمكانـــات الفكريـــة والثقافيـــة، وتعاظم التحديات التي تقف جامحة أمام اللغة العربية، الأمر الذي يتطلب فكراً لغوياً تنموياً يستثمر كل المعطيات ويذللها لصالح اللغة العربية، فجل ما طرحه البحث إشارات في طريق تنمية اللغة العربية والسمو بها.

## نتائج البحث وتوصياته

اشتمل هذا البحث على كثير من الإشارات المتعلقة بالمرتكزات اللغوية لتنمية العربية في ضوء معطيات الفكر الحضاري المعاصر، وتوصل لأهم النتائج والتوصيات الآتية:

### أولاً- النتائج

١- تمتاز اللغة العربية بمرونتها وحيويتها في التعامل مع المستجدات الحضارية، وتمتلك الوسائل الخلاقة في تطويع ما أنتجه الفكر الحضاري المعاصر لصالحها.

٢- تمتعُ اللغة بغزارة المحتوى المعرفي وتعدد أوعيته، يساعد على منهجة العمل التنموي بشكل منطقي يرتقي بواقع اللغة العربية وحاضرها.

٣- تنوع معايير اللغة العربية وضوابط أصولها، في إدارة المعرفة اللغوية الحديثة ومعطياتها، يعد من أسس العمل التنموي المتفاعل في ظل الانفتاح الحضاري بين الأمم والشعوب.

٤- رقمنة بيانات معارف العربية وعلومها من أصول التنمية اللغوية المستدامة، في ظل تطور الأدوات والأساليب الحداثية في التعامل مع المعرفة وإدارتها وإعادة فهمها وإنتاجها.

٥- تجسد سمة التفاعلية في وسائل الاتصال والإعلام الجديد مرتكزاً من المرتكزات الحيوية في إيصال رسائل التنمية اللغوية المنشودة، وفي زيادة الحصيلة والمخزون اللغوي العربي في العصر الحديث.

٦- تمنح خصائص اللغة العربية وأصولها، أرباب اللغة والجهات ذات العلاقة مساحة واسعة في معالجة الانحرافات والتلوث اللغوي والتشوهات المعرفية اللغوية المنتشرة على الساحة العربية والعالمية.

٧- يعد التخطيط اللغوي من الركائز الرئيسة في إدارة معارف اللغة العربية ومناقشة قضاياها ومعالجتها، وتبرز الحاجة لذلك في ظل تداخل حقول العلم وتشعباتها.

٨- يمثل العامل السياسي داعمة حقيقية وأداة مهمة في فاعلية التنمية اللغوية وإلزامية متطلباتها ونتائجها.

٩- يضفي التثقيف اللغوي حيوية على التطبيق التنموي ومستلزماته، فالخطط التنموية الممنهجة تتفاعل مع البيئة الثقافية الخصبة التي تتميز بارتفاع نسبة فهمها واطلاعها واستيعابها لمتطلبات النهضة والتقدم والتطوير والإصلاح والتغيير من أجل البناء والارتقاء.

**ثانياً- التوصيات**

١- ضرورة التركيز على منهجة العمل اللغوي وتوحيد الجهود المبذولة من خلال تكثيف التنسيق والتعاون والتشبيك، من أجل تنمية لغوية متكاملة تستهدف كل مقومات اللغة العربية ومقوماتها.

٢- تعزيز السلطة اللغوية ومنح أدواتها مزيداً من التفاعلية في سبيل حماية اللغة وصيانتها، وتحقيق مبدأ السلامة اللغوية.

٣- تطوير أدوات الاستثمار اللغوي العربي في العالم الافتراضي والرقمي في ضوء انتشار اقتصاديات المعرفة واللغويات في الفضاء الإلكتروني.

## فهرس المصادر والمراجع


١- إبراهيم سليمان شيخ العيد، الصراع بين اللغة العربية واللغة العبرية، مجلة العربية، منشورات مجمع اللغة العربية الفلسطيني بغزة، العدد الأول، يونيو ٢٠١٤م.

٢- أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، منشورات محمد علي بيضون، ط١، بيروت ١٩٩٧م.

٣- برنامج الأمم المتحدة للبيئة، حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات، ترجمة: عبدالسلام رضوان، منشورات عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٠م.

٤- تومبسون، ميشيل وآخرون، نظرية الثقافة، ترجمة: علي الصاوي، مراجعة: الفاروق يونس، منشورات عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٧م.

٥- حسين دراوشة، الإصلاح اللغوي في العمل المعجمي للمجامع اللغوية، مجلة العربية، منشورات مجمع اللغة العربية الفلسطيني بغزة، العدد الأول، يونيو ٢٠١٤م.

٦- حسين دراوشة، تقنيات بنوك المصطلحات العربية في حوسبة تعريب العلوم المعاصرة في ضوء دراسات اللسانيات التطبيقية، مجلة العربية، منشورات مجمع اللغة العربية الفلسطيني بغزة، العدد الثاني ٢٠١٥م.

٧- حسين دراوشة، معايير تعريب العلوم الحديثة وترجمتها في المجامع اللغوية وأثرها على تنمية اللغة العربية وسبل تطويرها، المؤتمر الدولي الخامس للغة العربية، المجلس الدولي للغة العربية، دبي ٢٠١٦م.

٨- حسين دراوشة، مقومات الإصلاح اللغوي وبعدها الحضاري في آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة محمد بوضياف، الجزائر، ع٣، ج٢، جانفي ٢٠١٨م.

٩- حمود الرحيلي، تحصين المجتمع المسلم ضد الغزو الفكري، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية ١٤٢٤هـ.
١٠-رأفت الكمار، الحاسوب وميكنة اللغة العربية، دار الكتب العلمية، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.
١١-سعيد علي، فلسفات تربوية معاصرة، منشورات عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٥م.
١٢-سيد العفاني، أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، ٢ج، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، ط١، جدة ٢٠٠٤م.
١٣-عائشة عبدالرحمن، لغتنا والحياة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩م.
١٤-عبدالرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ٨ج، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، بيروت ١٩٨٨م.
١٥-علي جريشة ومحمد الزيبق، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الوفاء، ط٣، المنصورة ١٩٧٩م.
١٦-ابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١١ج، حققه: محمد الأرناؤوط، وخرج أحاديثه: عبدالقادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط١، دمشق وبيروت ١٩٨٦م.
١٧-كالفي، لويس، حرب اللغات والسياسات اللغوية، ترجمة: حسن حمزة، مؤسسة دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت ٢٠٠٨م.
١٨-اللغة العربية ومكانتها بين اللغات، فرحان السليم، http://www.saaid.net.
١٩-اللغة العربية ومكانتها، مراد الشوابكة، http://mawdoo3.com.

٢٠-محمد جبل، دفاع عن القرآن الكريم أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، البربري للطباعة الحديثة، القاهرة ٢٠٠٠م.
٢١-نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، منشورات عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١م.
٢٢-نسمة البطريق، الإعلام وصناعة العقول (التلفزيون نموذجاً)، نهضة مصر، ط١، القاهرة ٢٠٠٧م.
٢٣-ويكيبيديا الموسوعة الحرة، اليوم العالمي للغة العربية، https://ar.wikipedia.org.
٢٤-ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، ٧ج، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت.

## البيان الختامي وتوصيات المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية الأردني لعام ٢٠١٨م

## "اللغة العربية والفكر المعاصر: بين التواصل والتكامل"

عقد مجمع اللغة العربية الأردني مؤتمره السنوي لعام ٢٠١٨م، في رحابه، بعنوان: "اللغة العربية والفكر المعاصر: بين التواصل والتكامل" في المدة: (٩-١٠ شعبان ١٤٣٩هـ) - (٢٥-٢٦ نيسان ٢٠١٨م).

وجاء اختيار هذا العنوان حرصاً من المجمع على المشاركة الفاعلة في كل المشروعات والتوجهات الأردنية والعربية التي تسعى للحفاظ على اللغة العربية، وإعلاء شأنها ودعمها، تعزيزاً للهوية القومية والتنمية المجتمعية، والعمل على وضع سياسة لغوية تعليمية واضحة المعالم والأهداف.

### حفل الافتتاح

بدأ حفل افتتاح المؤتمر الساعة التاسعة والنصف صباحاً بآي من الذكر الحكيم، ثم ألقى الأستاذ الدكتور خالد الكركي، رئيس المجمع، كلمة الافتتاح.

وقد اشتمل المؤتمر على ستة عشر بحثاً، توزعت على أربع جلسات علمية وجلسة ختامية في يومين، وذلك على النحو الآتي:

### اليوم الأول: الأربعاء ٢٠١٨/٤/٢٥م

### الجلسة الأولى

عُقدت في الساعة الحادية عشرة صباحاً، برئاسة الأستاذ الدكتور عبداللطيف عربيات، عضو مجمع اللغة العربية الأردني، وقدّم في هذه الجلسة بحثان:

- البحث الأول أعدته الدكتورة فتيحة شفيري، الجزائر، بعنوان "**الصراع اللغوي في الجزائر وتأثيراته السلبية في تكوين الهوية الجزائرية**".

- البحث الثاني أعده الدكتور أحمد عبدالباسط، مصر، بعنوان "**أثر الفكر الأصولي والمنطق اليوناني في أصول التفكير النحوي وأدلته الكلية ،الرأي والرأي الآخر**".

## الجلسة الثانية

عُقدت في الساعة الواحدة ظهراً، برئاسة الأستاذ الدكتور كامل العجلوني، عضو مجمع اللغة العربية الأردني، وألقي في هذه الجلسة ثلاثة أبحاث:

- البحث الثاني أعده الدكتور رضا عامر، الجزائر، بعنوان "**تحديات الهوية اللغوية العربية في ظل العولمة والتعدد اللغوي**".

- البحث الثالث أعدته الدكتورة صحرة دحمان، الجزائر، بعنوان "**التعدد اللغوي وانعكاساته على اللغة العربية والفكر والهوية الثقافية: المجتمع الجزائري أنموذجاً**".

- البحث الرابع أعده الأستاذ الدكتور محمد عبدالرؤوف الشيخ، مصر، بعنوان "**الازدواجية اللغوية الناتجة عن التقنية الحديثة وما أحدثته من تراكيب لغوية جديدة وأثر ذلك في الفكر والثقافة والمجتمع المصري**".

## اليوم الثاني: الخميس ٢٠١٨/٤/٢٦م
## الجلسة الأولى

عُقدت في الساعة التاسعة والنصف صباحاً، برئاسة الأستاذ الدكتور عيد دحيات، عضو مجمع اللغة العربية الأردني، وألقي فيها ثلاثة أبحاث:

- البحث الأول أعده الدكتور الغالي بنهشوم، المغرب، بعنوان "**التداخل اللغوي في الشعر العربي المعاصر بالمغرب**".
- البحث الثاني أعده الدكتور موسى خوري، فلسطين، بعنوان "**المضامين الفكرية والترقي في مهارات اللغة العربية: مقاربة في الاختيار، والمعالجة، والتبعات**".
- البحث الثالث أعده الأستاذ الدكتور خليل عودة، فلسطين، بعنوان "**الاستعمار اللغوي في فلسطين، صراع الهوية بين العبرية والعربية**".

## الجلسة الثانية

عُقدت في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، برئاسة الأستاذ الدكتور جعفر عبابنة، عضو مجمع اللغة العربية الأردني، وألقي فيها بحثان أبحاث:

- البحث الأول أعده الأستاذ الدكتور سعيد جاسم الزبيدي، العراق، بعنوان "**العبث الفكري في النحو العربي: دراسة في نصوص مختارة**".

- البحث الثاني أعده الأستاذ الدكتور إدهام محمد حنش، الأردن، بعنوان "**علوم الخط العربي: جدلية اللغة والفكر**".

## الجلسة الختامية

عُقدت في الساعة الواحدة ظهراً، برئاسة الأستاذ الدكتور سمير استيتية، عضو مجمع اللغة العربية الأردني، وألقي فيها ثلاثة أبحاث:

- البحث الأول أعدته الدكتورة ميس خليل أبو زيادة، فلسطين، بعنوان "**الأمن اللغوي في الإعلام، جدلية العلاقة بين الدال والمدلول**".
- البحث الثاني أعده الدكتور لبصير نور الدين، الجزائر، بعنوان "**المضامين الفكرية في شبكات التواصل الاجتماعي بين البعد الميثولوجي والتوظيف الأيديولوجي**".

- البحث الثالث أعدته الدكتورة عريب محمد عيد، قطر، بعنوان "**وسائل التواصل الاجتماعي ومزلق (حفرة الانهدام الفكري)**".

وكان من المقرر أن يقدم كل من الأساتذة: إسماعيل برزنجي (العراق)؛ وعبدالرزاق بلعقروز (الجزائر)، وحسين دراوشة (فلسطين)، أبحاثاً في جلسات المؤتمر، لكن تعذّر حضورهم لظروف طارئة.

وقد نتج عن بحوث هذا المؤتمر ومناقشات المشاركين فيه جملة من الملاحظات والتوصيات نظرت فيها لجنة الندوات والمحاضرات والإعلام، وعرضتها على المشاركين وتم إقرارها على النحو الآتي:

١- ضرورة تطوير أدوات الاستثمار اللغوي العربي في العالم الافتراضي والرقمي في ضوء انتشار اقتصاديات المعرفة واللغويات في الفضاء الإلكتروني.

٢- ضرورة بناء رؤية منهجية لاستثمار الإمكانات اللُّغوية في صناعة قول فلسفي إبداعي، ذلك أنّ ثمة إمكانات كامنة في اللُّغة تجعلها تختلف في إبداعها عن اللُّغات الأخرى؛ وعليه؛ فإن بنية اللغة تؤثر تأثيراً عميقاً في وضع المسائل الفلسفية ذاتها.

٣- على الرغم من الاختلاف في قضية تأثير المنطق اليوناني في أصول التفكير النحوي؛ فإنه لا يمكنُ إنكارُ أوجهِ التشابه بين وظائف المنطق اليوناني وأصول التفكير النحويِّ.

٤- ضرورة اتخاذ خطوات عملية لمواجهة الصراع اللغوي في الدول العربية، تضمن حلولاً واقعية عملية بعيدة عن التنظير.

٥- من اللازم على الدول العربية التكاتف والتضامن اللغوي لأجل حماية الهوية اللّغوية العربية ووضع استراتيجية لمسايرتها عصر العولمة في آن واحد، وهذا لأن معجمها اللغوي واحد، وطموحها للعالمية حق

مشروع في ظل التحدي اللغوي العالمي بين لغات العالم. وهذا يكون بتبني منهجية سليمة لحماية اللغة العربية، من خلال إنشاء وزارة التخطيط اللّغوي، وتدعيم المجامع اللغوية، وإعادة تفعيل دورها من خلال جامعة الدول العربية، والتنسيق اللغوي فيما بينها وضرورة سنّ قوانين وتشريعات لغوية تحمي هويتنا اللغوية ومعاقبة من يتعدى عليها لسانياً (مشافهة/ كتابة/ ترجمة).

٦- تدبير الشّأن اللغوي عن طريق وضع تخطيط لغوي ملائم، وذلك بجعل التّعدّد اللغوي خادماً للمجتمع وليس هادماً له.

٧- تقع مسؤولية محاصرة الازدواجية اللغوية الناتجة عن التقنية الحديثة وما أحدثته من تراكيب لغوية غريبة، على الجميع بدءًا من الأسرة.

٨- بات التداخل اللغوي في نسيج القصيدة المغربية المعاصرة ظاهرة أسلوبية وشكلاً تعبيرياً دلالياً وبصرياً.

٩- ضرورة استثمار نصوص القراءة في الترقي في المهارات اللغوية، واختيار المضامين الفكرية لهذه النصوص ومعالجتها تربوياً.

١٠- من المقترحات لمواجهة الاستعمار اللغوي في فلسطين، تنشيط دور مجمع اللغة العربية الفلسطيني، وإعطاء موضوع الغزو اللغوي المرتبط بالاحتلال الأهمية القصوى لدى ذوي الاختصاص، لوضع خطط عملية للمواجهة، وربط قضية اللغة بالموضوع الوطني، واعتبار اللغة الدخيلة جزءاً من الاحتلال، والتركيز على النشء الجديد في المدارس والجامعات، وعدم قبول كلمات غير عربية في قاعات التدريس أو الحوار اليومي، وتوجيه وسائل الإعلام الفلسطينية والعربية، إلى ضرورة رفض استعمال الكلمات العبرية البديلة عن الكلمات العربية.

١١- الدعوة إلى إعادة النظر في الدرس النحوي منهجاً وموضوعاً وتأليفاً، لتقديمه إلى متعلميه ودارسيه مبرأً من الشوائب.

١٢- الخط هو وسيلة ورسالة لغوية وثقافية وحضارية للتعبير والتواصل والبيان.

١٣- تَأَثَّرتِ اللُّغَةُ الشِّعرِيَّةُ عِندَ حَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ بِالمَضَامينِ الفِكرِيَّةِ، فَتَطوَّرَت جَوَانِبُ عَدِيدَةٌ مِنْ تِلكَ اللُّغَةِ مِثلَ الاتِّسَاعِ فِي المُعجَمِ الشِّعرِيّ، وتَكَوُّنِ حُقُولٍ دَلاَلِيَّةٍ عَدِيدَةٍ فِي قَصَائِدِهِ تَرتَبِطُ بِالمَجَالاَتِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي صَارَت مَضَامِينَ شِعرِيَّةً لَدَيهِ.

١٤- تعجيل النظر في مشكلة المصطلحات الإعلامية وضبطها وتوحيدها قبل استعمالها وشيوعها، وذلك من خلال وسائل حماية اللغة العربية، التي تجنب الإعلام العربي من السقوط، مما يستدعي تضافر الجهود وإعداد البرامج المكثفة التي تسهم في ترقية الوعي العام نحو حماية اللغة من المخاطر والتهديدات التي تحيط بها.

١٥- في ظلّ التحول الذي أصاب شبكات التواصل الاجتماعي من مجرد هواية للتواصل الثقافي، والعلمي، والفني إلى قوة مؤثرة في مستوى صناعة المضامين الفكرية، وتوجيهها يدعو المشاركون إلى احترام خصوصية الآخرين بكلّ أشكالها الدينية، واللغوية، والثقافية .. لا إلى إلغائها، وإقصائها، والعمل على تذويبها .

١٦- في ظل الهوّة العربيّة التي تحدثها التّصدعات الإلكترونيّة في هدم البناء الفكريّ والحضاريّ للإنسان العربيّ؛ لا بدّ من مواجهة المعطيات الموجودة لإيجاد واقع أفضل، وتقديم مقترحات قد تجدُ صدًى، وقد تُحدث تعديلًا فيما هو كائن.

١٧- يتمنى المشاركون على الإخوة في المجامع اللغوية العربية أن يركزوا اهتمامهم على قضية الحفاظ على اللغة العربية في فلسطين، كما يتمنى المشاركون على الإخوة في فلسطين أن يوحدوا جهودهم للحفاظ على اللغة العربية ضمن مجمع لغوي واحد.

١٨- يتوجه المشاركون بالدعوة إلى إنشاء جامعة متخصصة للغة العربية في فلسطين يكون مقرها القدس الشريف.

١٩- يدعو المشاركون إلى إنشاء هيئة أكاديمية للتخطيط اللغوي، ونقل هذا الاقتراح إلى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٢٠- يتقدم المشاركون بالشكر والثناء للمجمع على الجهود التي بذلها في تنظيم المؤتمر.